منشورات اتحاد المؤرخين العرب
القاهرة
٢٠٠٦/١٤٢٧

تاريخ الوطن العربى
عبر العصور

(التاريخ الاقتصادى)

حصاد (١٤)

ندوة عقدها اتحاد المؤرخين العرب
بمقره فى القاهرة
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الافتتاح

تعتبر الدراسات والبحوث فى مجال التاريخ الاقتصادى من أكثر الموضوعات صعوبة وتعقيداً، ولم تجد هذه الدراسات تشجيعاً كبيراً بين الباحثين لأنها تحتاج إلى دراية واسعة باللغات، وإلى صبر ودأب فى استقراء الوثائق والنصوص والمعاهدات، كما أن المصادر التاريخية المعاصرة اهتمت عادة بالحوادث السياسية والمعارك الحربية أكثر من اهتمامها بالحياة الاقتصادية ونظمها.

ومنذ منتصف القرن العشرين بدأ الاهتمام بالتاريخ الاقتصادى فى المدارس التاريخية فى أوروبا وغيرها، وظهرت بحوث ودراسات تاريخية ربطت بين النشاط الاقتصادى والتطورات السياسية والحياة الاجتماعية، وكان على كثير من المشتغلين بدراسة التاريخ فى الوطن العربى مواكبة هذا الاهتمام بالتاريخ الاقتصادى، ومواجهة هذا التحدى حتى لا نتأخر عن الركب فى هذا العالم المتغير، دون أن نفقد هويتنا أو قيمنا أو تراثنا.

وكان على اتحاد المؤرخين العرب - وهو بيت المؤرخين العرب - القيام بدوره فى هذا المجال، فعقد ندوته السنوية بالقاهرة فى يومى ٢٣-٢٤ شوال ١٤٢٧هـ/١٥-١٦ نوفمبر ٢٠٠٦م فى موضوع (تاريخ الوطن العربى عبر العصور - التاريخ الاقتصادى). وشارك فى فعاليات الندوة ٢٩٥ عضواً من أعضاء الاتحاد، قدموا من المملكة العربية السعودية، ودولة الكويت، ودولة الإمارات العربية المتحدة، ومملكة البحرين، والجمهورية اليمنية، ودولة قطر، وجمهورية مصر العربية، والجمهورية العربية السورية، وجمهورية الجزائر الديمقراطية، والمملكة المغربية.

وفى الجلسة الافتتاحية للندوة تم تكريم نخبة من شوامخ المؤرخين العرب وعددهم ٢٢ مؤرخاً ومؤرخة منهم، صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمى حاكم الشارقة والرئيس الأعلى لجامعة الشارقة، ومعالى الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركى أمين عام رابطة العالم الإسلامى، وسعادة الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور رئيس شرف الاتحاد، ومعالى الأستاذ الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الأسبق ونائب رئيس الاتحاد وغيرهم من مؤرخى الوطن العربى.

وفى الجلسات الخمس الباقية تم عرض ٣٢ بحثاً. وفى أعقاب كل جلسة دارت مناقشات ومداخلات وتعليقات من السادة المشاركين فى الندوة، مما يعكس أهمية موضوعها.

ويحتوى هذا العدد على واحد وعشرين بحثاً من البحوث والدراسات العلمية التى ألقيت فى الندوة، وكلها فى مجال التاريخ الاقتصادى للوطن العربى عبر العصور، وكانت موضع نقاش علمى جاد، وأجازها الأساتذة المحكمون.

وينشر اتحاد المؤرخين العرب فى القاهرة حصاد هذه الندوة فى كتاب كعادته كل عام ليكون الحصاد الرابع عشر فى سلسلة ندواته السنوية، وليحتل مكانة متميزة فى المكتبة التاريخية العربية.

وفقنا الله جميعاً لما فيه رفع شأن الدراسات التاريخية فى الوطن العربى، والله من وراء القصد إنه نعم المولى ونعم النصير.

أ.د. حسنين محمد ربيع

رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

برنامج الندوة

اليوم الأول الأربعاء ١٥ نوفمبر ٢٠٠٦ م - ٢٣ شوال ١٤٢٧ هـ

الجلسة الأولى: ١٠,٠٠ - ١١,٣٠ صباحاً

كلمة أ.د. حسنين محمد ربيع — رئيس الاتحاد

كلمة أ.د. عبدالله بن يوسف الشبل — نائب رئيس الاتحاد

كلمة أ.د. يونان لبيب رزق — أمين عام الاتحاد

حفل تكريم نخبة من شوامخ المؤرخين العرب: ١٠,٣٠ - ١١,٣٠ صباحاً

استراحة لتناول الشاى ١١.٣٠ - ١١.٣٠ صباحاً

الجلسة الثانية: ١٢,٠٠ - ٢,٠٠ صباحاً — رئيس الجلسة: أ.د. عبدالرحمن الأنصارى

- أ.د. فتحى عفيفى بدوى: صناعة المنتجات الفخارية فى الوطن العربى نقطة تحول فى التاريخ البشرى.
- أ.د. الطاهر حسن ذراع: الزراعة لدى سكان شبه الجزيرة العربية قديما.
- أ.د. محمود إبراهيم السعدنى: القمح المصرى نعمة أم نقمة رؤية فى تاريخ مصر الاقتصادى فى عصرى البطالمة والرومان.
- أ.د. محمد بهجت قبيسى: التعرفة الجمركية التدمرية «قراءة لغوية / اقتصادية».
- أ.د. مهيوب غالب أحمد: الصلات التجارية بين جنوب شبه الجزيرة العربية ومناطق الهلال الخصيب ومصر خلال الألف الأول قبل الميلاد.
- د. ممدوح درويش مصطفى: بعض الحرف والصناعات بإقليم النيا فى بداية العصر البطلمى.
- د. محمد السيد عبدالحميد: المناجم والمحاجر وأثرها فى تنمية الصناعات المصرية (دراسة فى تطور الصناعات التعدينية خلال عصر الدولة الوسطى).
- أ.د. محمد السيد عبدالغنى: المبادلات التجارية والجمارك بين الواحات والفيوم فى العصر الرومانى.

دعوة الغداء ٢,٠٠ - ٣,٠٠ عصراً

الجلسة الثانية: ٣,٠٠ - ٥,٠٠ مساء — رئيس الجلسة: أ.د. زبيدة محمد عطا

- أ.د. أحمد بن عمر الزيلعى: دينار عثر المضروب فى القرن الرابع الهجرى ونطاق تداوله فى عثر وما جاورها.
- د. سعيد مغاورى محمد: القمح فى نصوص بردیات القرون الأولى للهجرة.
- د. عبدالحكيم عبدالحق محمد: جهود العلماء فى تنمية الحياة الاقتصادية فى العصر العباسى الأول.
- د. محمد سيد كامل: التجارى والنشاط الاقتصادى فى مصر فى ضوء أوراق البردى العربية.
- د. ياسر أحمد نور: الصناعات والحرف فى العهد النبوى.
- أ.د. سعد بن حذيفة الغامدى: إيرادات بيت مال محمود الغزنوى وأوجه صرفها (٣٨٨ - ٤٢١هـ/ ٩٩٨ - ١٠٣٠م).

اليوم الثانى الخميس ١٦ نوفمبر ٢٠٠٦ م - ٢٤ شوال ١٤٢٧ هـ

الجلسة الرابعة: ١٠.٠٠ - ١٢.٠٠ صباحاً رئيس الجلسة: أ.د. مسفر القامدى

- أ.د. حياة ناصر الحجى: بعض مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى سلطنة المماليك.
- د. بنيان سعود تركى: أعمال الرقيق فى سلطنة زنجبار العربية فى القرن التاسع عشر.
- أ.د. محمد عبده السرورى: صناعة الجلود والخوص والصناعات الخشبية والمنسوجات فى اليمن فى القرن السابع الهجرى.
- د. سيد محمود محمد: المكوس من الموارد المالية للخزانة المملوكية بين الاقرار والالغاء وأثرها على النشاط الاقتصادى.
- د. إلهام حسين دحروج: ملاحن بعض الحرفيين فى الأسواق فى مصر المملوكية.
- د. نجاة محمد الطالبى: اقتصاد القاهرة الداخلى فى عينى بيلوتى فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى.
- أ.د. محمد عاطف عبد المقصود: ضريبة الخفر من الفكرة إلى التنفيذ دراسة وثائقية.
- د. عثمان على عطا الله: تقلبات أسعار النقد فى مصر زمن المماليك الجراكسة.

استراحة وتناول الطعام ١٢.٠٠ - ١٢.٢٠ ظهراً

الجلسة الخامسة: ١٢.٢٠ - ٢.٣٠ صباحاً رئيس الجلسة: أ.د. بنيان سعود التركى

- أ.د. السيد حسين جلال: دور قناة السويس فى تنمية المنقل البحرى العربى.
- أ.د. محمود محمد متولى: السوق العربية المشتركة بين الوهم والحقيقة.
- د. خالد حمود السعدون: مشاريع الرى فى العراق مطلع القرن العشرين.
- د. سعيد هاشم: الحرف والصناعات التقليدية فى دول مجلس التعاون الخليجى وأهميتها الاقتصادية البحرية نموذجا.
- د. مرفت أسعد عطا الله: جهود الخديو إسماعيل فى تنمية الموارد الاقتصادية وتنشيط التجارة المشروعة فى جنوب السودان.
- د. أحمد حسن الكنانى: مشروعات الرى الزراعة فى عصر الخديو إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩م)
- د. إبراهيم أبوالقاسم: الأوضاع الاقتصادية والصحة للبدو فى ليبيا ومصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

دعوة الغداء ٢.٣٠ - ٣.٣٠ عصراً

الجلسة السادسة: ٣.٣٠ - ٥.٣٠ صباحاً رئيس الجلسة: أ.د. على منصور نصر

- أ.د. سعد بن حسين عثمان: ميناء الشحة وأهميته التجارية.
- د. مصطفى حبشى محمد: ميناء زيلع الصومالى وعلاقته الحيوية بالعالم العربى والأوربى.
- د. حمود محمد على النجيدى: طريق خراسان العظيم: أهميته التجارية وتأثيراته الحضارية.
- د. محمد عبدالنعيم: النشاط التجارى فى ميناء الطور أواخر العصور الوسطى.
- د. محمد على دبور: التدهور النقدى فى عهد بنى نصر.
- أ.د. محمد بركات البيلى: طريق البحر الأحمر وأثره على التجارة العالمية حتى العصر الإسلامى.
- أ.د. مجاهد توفيق الجندى: دور الأوقاف الاقتصادى والاجتماعى على العلماء بالجامع الأزهر بالتطبيق على الجامع الأحمدى بطنطا.

جولة حرة

المحتويات

صفحة

كلمة الافتتاح ٣

برنامج الندوة ٥

أ.د. فتحى عفيفى بدوى ٩

صناعة المنتجات الفخارية فى الوطن العربى نقطة تحول فى التاريخ البشرى

أ.د. الطاهر حسن ذراع ٢٩

الزراعة لدى سكان شبه الجزيرة العربية قديما

أ.د. محمود إبراهيم السعدنى ٤١

القمح المصرى نعمة أم نقمة ، رؤية فى تاريخ مصر الاقتصادى فى عصرى البطالمة والرومان

أ.د. عبدالمنعم عبدالحليم سيد ٥٣

دراسة مقارنة لأوجه التشابه والاختلاف فى طرق الزراعة والرى فى كل من مصر الفرعونية وجنوب الجزيرة العربية قبل الإسلام

أ.د. ميهوب غالب أحمد ٥٩

الصلات التجارية بين جنوب شبه الجزيرة العربية ومناطق الهلال الخصيب ومصر قبل الميلاد

أ.د. محمد السيد عبدالغنى ٧٩

المبادلات التجارية والجمارك بين الواحات والفيوم فى العصر الرومانى

أ.د. أحمد بن عمر الزيلعى ٨٩

دينار عتر المضروب فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ونطاق تداوله فى عتر وما جاورها

أ.د. عبدالرحمن الشجاع ٩٩

الضرائب والمكوس فى اليمن خلال القرون الخمسة الهجرية الأولى

د. عبدالحكيم عبدالحق محمد ١١٩

جهود العلماء فى تنمية الحياة الاقتصادية فى العصر العباسى الأول

د. ياسر أحمد نور ١٤٣

الصناعات والحرف فى العهد النبوى

أ.د. حياة ناصر الحجى ١٧٥

بعض مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى سلطنة المماليك

تابع المحتويات

صفحة

أ.د. محمد عبده السروري ٢١٩
صناعة الجلود والخوص والصناعات الخشبية والملبوسات فى اليمن فى القرن السابع الهجرى

د. إلهام حسين دحروج ٢٤٥
ملامح بعض الحرفيين فى أسواق مصر المملوكية

د. نجاة محمد الطلين ٢٦٣
أحوال القاهرة الاقتصادية فى عيتى دومنيكو تريفيزانو

أ.د. السيد حسين جلال ٢٧٩
دور قناة السويس فى تنمية النقل البحرى العربى

د. سعيد خليل هاشم ٣١٧
الحرف والصناعات التقليدية فى دول مجلس التعاون الخليجى وأهميتها الاقتصادية

د. عيرفت أسعد عطا الله ٣٤٥
جهود الخديو إسماعيل فى تنمية الموارد الاقتصادية وتنشيط التجارة المشروعة فى جنوب السودان

د. أحمد حسن الكفانى ٣٦٩
مشروعات الرى والزراعة فى عصر الخديو إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩م)

د. سعيد مغاورى محمد ٤٠٣
القمح فى نصوص البرديات العربية

د. خالد السعدون ٤٥١
مشاريع الرى فى العراق مطلع القرن العشرين

أ.د. إبراهيم بن محمد المزينى ٤٨٧
الطوائف العمالية وتطور وظائفها فى المجتمعات الإسلامية

برنامج ندوات اليوم الواحد (الموسم الثقافى ٢٠٠٦ - ٢٠٠٧) ٥٠٤

أ.د. فتحى عفيفى بدوى (*)

تصنيع الفخار فى الوطن العربى إبان الألف السابع قبل الميلاد نقطة تحول اقتصادى فى التاريخ البشرى

مقدمة:

يقصد بالفخار كل ما تشكل من طين ثم تم تفخيرة (أى شويه وليس حرقه) بالنار، والفخارة حرفة مثل النجارة، معناها تصنيع الفخار، وهى تعتبر إحدى ابتكارات الإنسان القديم فى الوطن العربى منذ الألف السابع قبل الميلاد، ولا غرابة فى ذلك، ففى أرجاء هذا الوطن ظهرت حضارات موغلة فى القدم، بلغت درجة كبيرة من الرقى والتقدم، فإلى جانب حضارة المصريين فى وادى النيل ظهرت فى بلاد الرافدين (العراق) حضارات السومريين والبابليين، كما قامت فى سوريا وبلاد الشام حضارات العموريين والفينيقيين والآراميين، وظهر فى الجزيرة العربية وجنوبها حضارات المعينين والسبئيين والحميريين، وقد تركت كل من هذه الحضارات آثارها القائمة لتدل عليها حتى اليوم.

ولم يقف فضل الوطن العربى القديم على السبق فى النواحى الحضارية سالفة الذكر فحسب، بل كان أيضاً مسرحاً لدعوات الأنبياء، ومهبط الوحى الإلهى لثلاث ديانات: حيث كانت فى بلاد الرافدين نداءات نوح وإبراهيم عليهما السلام، وفى صحراء سيناء كلم الله موسى وأوصاه، وفى فلسطين ولد السيد المسيح عليه السلام، وفى مكة نشأ محمد عليه الصلاة والسلام، وفى صحراء سيناء كلم الله موسى وأوصاه، وفى فلسطين ولد السيد المسيح السلام، داعياإلى رسالة التوحيد والإيمان.

لقد تميزت البدايات الأولى للألف السابع قبل الميلاد أى منذ العصر الحجرى الحديث بظهور أولى المجتمعات البشرية المستقرة التى تمكنت

(*) أستاذ التاريخ القديم المتفرغ بجامعة الأزهر

من إنتاج الطعام بفضل معرفتهم بالزراعة(١)، واستئناسهم للحيوان، ثم ما لبثت سريعاً أن توصلت إلى أقدم تصنيع حرارى عرفته البشرية ألا وهو تصنيع الفخار، ذلك التصنيع الذى أعتمد على شوى الطين الصلصال فى النار أى تفخيره فيها، فساهم بدرجة كبيرة فى رفع مستوى الحياة المعيشية والاقتصادية للإنسان، والطين (الطمى) الصلصال هو عبارة عن مادة بنية داكنة أو سمراء اللون ناعمة الملمس تتحول إلى مادة لينة رطبة عندما تتعرض للماء، وهى متوفرة فى الكثير من سهول ووديان مناطق هذا الوطن وتتواجد كنتيجة طبيعية لتفتت ا لصخور والكتل الحجرية بفعل عوامل التعرية أو كنتيجة لارتطامها أو احتكاك بعضها ببعض، وينطبق ذلك خاصة على الصخور النارية والجرانيتية التى يدخل فى تراكيبها مادة الفلسبار، ومن المعروف أن هذه المادة تتحلل كيماويا نتيجة لتفاعل ثانى أكسيد الكربون مع الماء، لاسيما فى المناطق ذات الحرارة والتى تغطيها النباتات وتكثر بها الأشجار، فتتساقط عليها الأمطار وتتشبع بالمياه، ومن ثم تكثر بها مواد الطين الصلصال الجافة المتكونة كيمائياً من الرمال المتفتتة والفلويات وكربونات الكالسيوم وسيليكات الألمنيوم المائية وأكسيد الحديد المتباينة وبعض المواد العضوية التى تضفى عليها اللون البنى الداكن المعروف، ولرداءة التربة أو جودتها أهمية كبيرة فى تصنيع الفخار، لذا اشتهرت بعض المواقع ذات التربة الجيدة بجودة فخارها، فكانت تصدرها إلى أماكن أخرى لا يتوفر فى طينها درجة الجودة المطلوبة لتشكيله والتى تعرضها للتشقق وعدم الصلابة واتساع المسام، وبالرغم من أن كل أشكال الطين صالحة لتشكيل منتجات طينية، لهذا فقد أتضح بعد تجارب مر بها الصانع القديم خلال أواخر العصر الحجرى المتوسط وأوائل العصر الحجرى الحديث أن هناك أنواع منه تصلح أكثر من غيرها لتصنيع الفخار الجيد، وأصلح أنواع الطين هى التى تتكون من السيكا وأكسيد الألمنيوم، إلا أن اختلاف النسب فى تركيبات الطين تؤدى إلى اختلاف واضح بين درجات المرونة التى تسهل عملية التشكيل وبين درجات اللزوجة التى تحول دون إتمامها، ولذا كان لزاما على الصانع الفطن أن يضيف إلى عجينة طينه اللزج مواد أخرى مثل الرمال الناعمة والميكا والكوانتز والفلسبار وغيرها من المواد اللازمة.

ولقد ورد فى آيات القرآن الكريم بعض المعانى التى تربط بين خلق الإنسان وبين الطين والصلصال والفخار، منها قوله تعالى فى سورة المؤمنين – الآية ١٢ (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين...) وقوله تعالى فى سورة الصافات – الآية ١١ (فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناكم من طين لازب...)، وفى قوله تعالى فى سورة الحجر الآية ٢٦ (ولقد خلقنا الإنسان من

صلصال من حما مسنون...) وكذلك فى سورة الرحمن الأية ١٤ (خلق الإنسان من صلصال كالفخار).. وتشير كل هذه الآيات البينات إلى أن عملية خلق جسم الإنسان كانت فى الأصل من الطين الصلصال، أى من ذات التركيب الكيماوى المكون لتراب الأرض المختلط بالماء وهو الطين.

كذلك كشفت لنا آثار المصريين القدماء وعقائدهم وكتاباتهم عن الكثير من الأدلة التى تشير إلى تقديسهم لمعبود أسموه «خنوم» وأعتبروه المعبود الذى تكلف بخلق الإنسان من صلصال، ووجد على جدران معبد الأهم المشهور آمون بالهيبس فى الواحة الخارجة المصرية والذى يعود إلى عصر الأسرة السابعة والعشرين منظراً يمثل هذا الاله خنوم فى وضع الجالس على كرسى مزين ربما يمثل كرسى عرشه، ويدفع بقدمه اليمنى عجلة الفخار، ويمسك بكلتا يديه قطعة أو آنية من الطين الصلصال يستكمل تشكيلها، وأمامة كتبوا نصا بالحروف الهيروغليفية منطوقة (الإله خنون يخلق البشر... يخلق الكتاب المصريون القدماء عن الفعل «يخلق» برسم يصور رجلاً يشكل قطعة من الطين على عجلة الفخار، و هو ما يشير بوضوح إلى ما تضمنته أفكارهم من معان ذات صلة مباشرة ربطت بين خلق الإنسان وبين الطين الصلصال الذى يشكله الانسان على عجلة الفخار (٢)، وهو ما يتفق مع ما ورد فى القرآن الكريم من معان وألفاظ.

أولاً: الأهتداء إلى معرفة تفخير الطين:

يوجد الكثير من الأدلة التى تشير إلى أن بعض الجماعات المستقرة من المزارعين الأوائل فى الوطن العربى القديم قد تمكنوا من تفخير الطين (أى شوية بالنار) ففى قرية جارمو القديمة JARMO الواقعة بمنطقة التلال المطلة على وادى دجلة والفرات بالعراق – عثر المنقبون على عدد من الأكواخ السكنية التى بنيت جدرانها من أغصان الأشجار (٣)، وكسيت بجوال ليس من الطين الصلصال المكبوس باليد، وتبين أن أحد ملامح تلك الأكواخ يتمثل فى وجود بعض أوعية من الطين الصلصال على أرضياتها، وكان أصحابها يستخدمونها كمدافئ لإشعال النار، وقد عمرت هذه القرية فترات زمنية طويلة، إذ عثر المنقبون أثناء قيامهم بالكشف عن أطلالها على ثمانية طبقات حضارية متتالية، ولم يعثروا فى داخل أى طبقة بها على ما يشير إلى تصنيعهم للفخار إلا فى الطبقات العليا أى عند قمة هذه القرية وقد أرجعوا تاريخها إلى ما قبل عام ٥٠٠٠ ق.م. حيث عثروا على كمية من الشقف (أى أجزاء من أوانى فخارية) تنتمى إلى نوع من الفخار الخشن فى صناعته، الأمر الذى يدل على وجود مسافة زمنية ربما بلغت حوالى ٢٠٠٠ من السنين بين أجدادهم المزارعين الأوائل

الذين أنشئوا هذه القرية واستخدموا الطين الصلصال في تشكيل أوعيتهم وكسوة جدران أكواخهم وبين أحفادهم الذين تعرفوا على شوى الطين في النار وصولاً إلى الفخار.

ومن ناحية أخرى وجد ما يماثل ذلك في قرية أريحا القديمة والمشهورة بـJERICHO بفلسطين (مسقط رأس السيد المسيح عليه السلام)، والتي تعود في نشأتها كذلك إلى الألف الثامن قبل الميلاد، إذ لم يعثر المنقبون على ما يشير إلى تصنيع مزارعيها للأوانى الفخارية إلا في الطبقات التي تعود في تاريخها إلى أواخر الألف السابع قبل الميلاد. وفي ذلك ما يوضح أيضاً وجود مسافة زمنية مضت بين نشأة القرية وبين الفترة التي تمت خلالها تصنيع أقدم الأوانى الفخارية التي عثر عليها فيها(١).

كذلك ليس من المستبعد أن يكون المزارعين الأوائل قد هيأوا لأنفسهم ومنذ العصر الحجري القديم الأعلى (٤٠٠٠ - ٧٠٠٠ ق.م) أوعية ضرورية لحياتهم اليومية تخيروها من بقايا بعض ثمار النباتات المجوفة أو الأحجار المقعرة الملقاة في البيئة حولهم، مثلما وجد عند أصحاب الحضارة القفصية في تونس، وعند أهل الواحة الخارجة في مصر(٢). وربما يكون قد شكل غيرهم من المزارعين الأوائل في بعض مناطق أخرى أوانيهم من ثمار الدوم أو ألياف النخيل أو جيوب الجلد التي تشبه قرب الشرب مثلما هو موجود حتى الآن لدى بعض القبائل البدائية. ومع مرور السنين وتكرار الحوادث والإحداث لابد أنهم أدركوا وأصبح يقينا لديهم أثر ما تحدثه النار على الطين الصلصال من تغير وتحول، فهو قبل تعرضه للنار ترابي ناعم في ملمسه وبني داكن في لونه، ويمكن بأصابع اليد تفتيت مكوناته، وإذا تعرض للماء امتصه وتفاعل معه وصار لين القوام وسهل التشكيل، لكن إذا ما تمكنت النار منه تغير لونه إلى الأحمر أو المائل للحمرة، وصار صلبا لا تقدر أصابع اليد على تفتيته، وفوق ذلك إذا تعرض للماء يبقى داخله على حاله من الصلابة. ومن ثم اتجه إلى أن ينتفع بهذه المعارف في تصنيع ما يلزم لمتطلبات حياته اليومية من تلك الأوانى الفخارية. وربما تيقن النساء قبل الرجال وبعد كثرة الاستعمال أن أوانيهم الليفية المغطاة بالطين تصبح جافة إذا تعرضت لأشعة الشمس، وتصير صلبة ومتماسكة إذا احترقت أليافها، وإذا وصلها ماء بعد الحرق احتفظت به، ومن ثم قاموا بشوى الصلصال لتصنيع الفخار.

وربما كان الدافع الاقتصادي وحاجة هؤلاء المزارعين الأوائل إلى أوعية تحفظ محاصيلهم لبقية العام وبون فسادها ما دفعهم إلى إقامة السلال المجدولة من مواد القش أو البوص، ثم استعانوا بالطين لتكسية وتقوية

جدرانها(٣). ومع تكرار حوادث الحريق احترقت مواد القش والبوص، وتغيرت مواد الطين والصلصال فتصلبت وتحولت إلى فخار، وأدرك الجميع أثر الحرارة في إيجاد هذه الصلابة، فتعمدوا أن ينتفعوا بها في حياتهم العملية، فأقبلوا على الاستفادة منها في تصنيع أوانى لتخزين مؤنهم ومحاصيلهم الاستراتيجية حتى أتقنوها. ثانياً: يتبين أنه بفضل استخدام الإنسان العربي القديم للطين والنار معا في حياته اليومية وطول خبرته بهما منذ الألف السابع قبل الميلاد تمكن من التوصل إلى إنتاج الفخار والاستفادة منه اقتصادياً وصحيا ثم فنيا، وهو ما يمكن أعتباره بحق نقطة تحول في التاريخ البشري.

ثانياً: خطوات تصنيع الفخار القديم:

اتبع الصانع العربي القديم عدة خطوات للحصول على الفخار نجملها فيما يلي:

أ- جمع المواد الخام وعجنها:

تعتبر مادة الطين هي المادة الرئيسية للتحضير، وهي كما ذكرنا من قبل مادة لدنة تتواجد فوق أسطح الوديان وحول مجاري الأنهار وفوق المناطق التي كانت تغمرها مياه الأمطار أو الأنهار قديماً، وتتكون - كما سبق ذكره - نتيجة تفتت أنواع معينة من الصخور الحجرية بفعل التصادم أو العوامل الجوية الطبيعية، وهي تتكون من سيليكات الألمنيوم المائية المختلطة ببعض الشوائب الموجودة في الطبيعة. ويلزم عقب جمع الكمية المطلوبة استبعاد كافة الشوائب العالقة والمواد الغريبة وكل قطع الأحجار المتواجدة بدقة وعناية، وكانت كلها تتم في بداية عصور الاستخدام بعزلها يدوياً، ثم تطورت في العصور التالية باستخدام المصفاة، وكان يتم بعد ذلك إضافة كميات مناسبة من الرمل الناتج عن أحجار الكوارتز والقش الناعم وأخرى من الروث الدهني للحيوانات كي يعمل على تقليل درجة اللزوجة الموجودة في الطين من ناحية وزيادة تماسك مكوناته منعاً لأي تشققات عند تعرضه لحرارة النيران من الناحية الأخرى، ثم يبدأ الصانع بإضافة كمية المياه حسب الحاجة، وبعدها يبدأ عملية خلط ومزج جميع هذه المكونات بعضها ببعض باستخدام اليدين أو القدمين تبعاً لحجم الكمية المجمعة، ويستمر في ذلك الخلط حتى تتحد كافة هذه العناصر مع بعضها على هيئة عجينة واحدة، ثم تترك فترة من الوقت لتختمر جيدا وحتى لا يصير الفخار رديئا. والواقع أن عملية الخلط والمزج هذه عملية دقيقة وصعبة، فهي لا تحتاج لمهارة فنية بقدر ما تحتاج إلى قوة عضلية.

ب- تشكيل المنتجات الفخارية:

وقد مرت بمرحلتين متتاليتين الأولى بدوية بدائية والثانية متطورة.
أما عن المرحلة الأولى اليدوية البدائية:

فقد كانت مرحلة شاقة وربما شاركت المرأة بدور هام خلالها، وربما ساهمت بقدر كبير للوصول إلى مجموعة من المعارف التقنية للحصول على الفخار، نظراً لتعاملها الدائم مع النار والطين في حياتها اليومية. وتعتمد هذه المرحلة اعتماداً كلياً على استخدام الأيدى في كل أحوالها. وبدأت مع المحاولات الأولى منذ نهايات العصر الحجرى القديم. ثم شاعت لدى معظم المجتمعات الزراعية خلال العصر الحجرى الحديث. ثم عادت لتنحصر لدى بعض الجماعات خلال عصر المعادن، وقد تباينت طريقة التشكيل في هذه المرحلة تبعا للرغبة والحاجة.

ويمكن ذكر بعضها على النحو التالى:

١- طريقة التجويف:

وهى طريقة بدائية وبسيطة، استخدمت لتشكيل الأوانى الصغيرة الحجم والأكواب والأقاح والملاعق والمغارف وهى تعتمد على قيام الصانع بدك أصابع اليد وسط كتلة الطين المستديرة، ثم يسعى إلى تحريكها وتجو يرها بالضغط بأصابع اليد عليها من الداخل مع جذبها إلى أعلى لتحديد جدرانها. وهكذا يحاول تكرار حركة الضغط والجذب عدة مرات حتى يصل إلى الشكل المطلوب للإناء.

٢- طريق القوالب:

وتعتمد على إعداد قوالب تم تشكيلها من الأعشاب أو الأخشاب أو الأحجار أو إعداد تكوينات صغيرة من الرمال تقترب فى هيئتها العامة من أشكال الأوانى المراد تشكيلها، حيث يبدأ بوضع طبقات رقيقة من الطين المعجون. ويقوم بالضغط عليها بكفيه وحتى يتم تسوية الأسطح حسب شكل القالب المعد له. ويلاحظ أن هذه الطريقة قد استخدمها الصانع القديم لتشكيل الأوانى الصغيرة فى حجمها نسبيا.

٣- طريقة حبال الطين:

استخدمت هذه الطريقة لتشكيل الأوانى ذات الأحجام المتوسطة والكبيرة، وتعتمد على قيام الصانع بلف أو برم قطع الطين الصغيرة لتكون على هيئة الحبال الحلزونية الرفيعة، ثم يقوم برص الحبل الواحد فوق الآخر

ببطئ مكررا ذلك عدة مرات وفي كل مرة يتأكد من تثبيته والقيام بلحامه مع ما تحته وما جاوره من حبال الطين السابق تثبيتها. مستعينا فى ذلك بالقليل من الطين المبلل بالماء كل على حسب الحاجة. وبعد الانتهاء من عملية التكوين للجدران يقوم الصانع بتركها معرضة للهواء ولأشعة الشمس فترة من الزمن حتى تجف الجدران وتتبخر منها نسبة كبيرة من الماء، وتصبح أكثر تماسكا وما أن يطمئن إلى صلابتها حتي يسارع بتسوية سطح الإناء من الداخل والخارج وذلك باستخدام أداة كشط مناسبة قد تكون من الخشب أو الحجر بهدف تسويته وإزالة كل النتوءات العالقة به. ثم يتبع ذلك بالقيام بتنعيم أحد أو كلا السطحين الداخلى والخارجى باستخدام قطعة مبللة بالماء ربما تكون من الجلد الناعم حتى تصبح ملساء غير خشنة وخالية من أى مسام.

٤- طريقة الشرائح:

وقد اتبعت هذه الطريقة بغرض تشكيل الصوامع وأوانى الخزين ذات الحجم الكبير، وكان الصانع يعتمد فى ذلك على تجهيز شرائح من الطين المعجون، ثم يقوم بتثبيت بعضها فوق بعض بطلاسة خفيفة من الطين المعجون مع مراعاة عدم الإسراع بوضع الشريحة الأعلى قبل جفاف الشريحة الموجودة أسفلها نسبيا. وقد استخدمت هذه الطريقة لدى أصحاب حضارة البدارى فى مصر العليا والتى تعود إلى عام ٥٥٠٠ ق.م. وواصل ممن بعدها أصحاب حضارة جرزة والتى تعود إلى عام ٣٤٠٠ق.م. ذات الطريقة.

أما عن مرحلة التشكيل المتطورة:

هى المرحلة التى عاصرت استخدام العجلة فى تشكيل الفخار، على أساس أنها أولى الخطوات الرئيسية لعملية الميكنة، التى عرفها الصانع العربى منذ حوالى الألف الرابع قبل الميلاد، ونتج عن هذا العامل الجديد تأثيرات هامة أثرت فى تصنيع المنتجات الفخارية القديمة والتى كان من أبرزها:

١- إحداث وفرة هائلة فى مراحل هذه الصناعة تمثلت فى الجهد اليدوى المبذول وفى الوقت المطلوب وفى الإنتاج بالجملة.

٢- ظهور طبقة من العمال المتخصصين فى كل مرحلة من مراحل هذه الصناعة بدءا من جمع المادة الخام ومرورا بالتشكيل والتزيين ثم وصولا للشوى فى الأفران والعرض للمستهلكين.

والواقع أن فكرة عجلة الفخار ليست بالجديدة على المجتمع الزراعى، فهى تشبه إلى حد كبير فكرة الرحى المستديرة والشبيهة بالعجلة والتى

ابتكرها المزارعون من قبل كوسيلة لطحن حبوبهم وتحويلها إلى دقيق للخبز، وهذه العجلة الجديدة هى عبارة عن قرص مستدير يتوسطه عند المركز نتوء بارز يرتكز فوق محور رأسى قصير يشبه العمود ويكون طرفه السفلى مثبت داخل تجويف عظمة من عظام الحيوان، أو داخل ثقب إحدى الكتل الحجرية على نحو يشبه ثقب الرحى، وصنع هذ القرص من مادة قوية الاحتمال كالخشب أو الحجر أو الفخار السميك حيث توضع عليه كتل الطين المراد تشكيلها(٧)، ويدور فوق نتوئه البارز الموجود فى مركزه بشكل أفقي وحول ذاته بواسطة قوة دفع يد الصانع وهو جالس، وبقدر ماتكون قوة الدفع وشدتها بقدر ماتكون عدد لفاته، ثم تطور هذا القرص فأصبح يدار عن طريق الدفع بمشط القدم لقرص صغير صمم ليكون بالقرب من نهاية محورّه الرأسى الطويل كى يستطيع الصانع تحريكه وهو واقف أو جالس فوق كرسى، وقد أتاح هذا التطور الأخير إمكانية استخدام الصانع اليدين معا وزيادة قدرته على تشكيل الكتلة الطينية الصلصالية بدرجة أفضل وفى الحصول على وعاء أكثر استدارة وتناسقا عن ذى قبل.

ولا يوجد دليل يشير إلى تحديد المكان الأول الذى شهد ميلاد هذا التطور، وربما يكون قد ظهر فى أكثر من مكان بالوطن العربى فى وقت واحد، ويعتقد كثير من العلماء أنه ربما حدث خلال منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، ويرجح أن تكون هذه العجلة قد استخدمت فى مصر لصنع الجرار الكبيرة منذ عصر الأسرة الأولى (٣٢٠٠-٢٩٨٠ ق.م)، كما وجدت هذه العجلة مرسومة على أحد جدران مقبرة العدعو «تى» بسقارة والذى عمل مشرفا على أهرامات ومعابد الشمس الملكية لأحد ملوك الأسرة الخامسة (٢٥٦٠-٢٤٢٠ ق.م)(٨). ويحتمل كذلك حدوث هذا الاختراع فى منطقة الهلال الخصيب، إذ عثر على فخار مشكل على عجلة الفخار فى موقع مدينة أور القديمة، والذى يعود تاريخه إلى حوال عام ٣٤٠٠ق.م كذلك عثر المنقبون على أوانى فخارية شكلت هى الأخرى على عجلة الفخار فى موقع مدينة أشور القديمة والتى يعود تاريخها إلى حوالى عام ٣٣٠٠ق.م. وسرعان ما انتشر استخدام عجلة الفخار إلى خارج أرجاء الوطن العربى قرب نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، وأصبح انتشارها بمثابة انتشاراً حضاريا يعادل فى تأثيراته انتشار الكتابة والصناعات المعدنية، حيث عثر المنقبون على أوانى فخارية شكلت هى الأخرى على عجلة الفخار تعود إلى عصر حضارة سيالك الثانية قرب قاشان فى إيران والتى يرجع تاريخها إلى حوالى ٣١٠٠ق.م كما أظهرت حضارات وادى السند القديمة أوانى فخارية شكلت على عجلة الفخار ترجع إلى حوالى عام ٢٥٠٠ق.م.

إلى جانب هذا العامل المتطور الجديد، كانت هناك عوامل أخرى رئيسية أثرت فى تشكيل وتصنيع المنتجات الفخارية القديمة وتحديد ألوانها، ويمكن أجمالها فى ثلاثة عوامل كما يلى:

العامل الأول: ويتمثل فى نوع المادة الصلصالية التى تتشكل منها هذه المنتجات، نظرا لوجود التربة الجيدة منها والرديئة، هذا بالإضافة إلى مقدار ماتحويه من مركبات أخرى مؤثرة.

العامل الثانى: ويتمثل فى الغرض الوظيفى الذى من أجله شكلت هذه المنتجات والذى كان له أثره الكبير فى شيوع أنواع معينة من الأوانى التى ازداد الطلب عليها، كحفظ الماء أو المأكولات أو الأطعمة الصلبة أو السائلة وغيرها من لوازم الحياة اليومية، هذا بالإضافة إلى أن الصانع اتجه إلى تشكيل منتجات مخصصة للطقوس والشعائر الدينية، وأخرى كانت توضع مع الموتى.

العامل الثالث: ويتمثل فى الجوانب الدينية والفنية وكذلك مدى التمسك بالأساليب والتقاليد الحضارية التى كانت تسود المجتمع من قبل، فقد كان لهذه كلها دور فعال فى تشكيل هذه المنتجات من أوانى فخارية أو غيرها، وقد لجأت بعض المجتمعات الزراعية لتصنيع فخارها إلى تقليد أوانيهم القديمة التى صنعوها من مواد محلية غير الطين مثل القرع وسلال البوص، كما ظهر فى مجتمع ديرتاسا والعمرة ولجأت مجتمعات أخرى إلى تقليد الأوانى الجلدية لصنع أوانى فخارية كما ظهر فى مجتمعات الفيوم ومرمدة بنى سلامة والبدارى فى وادى النيل.

جـ- تجفيف المنتجات الطينية وصقلها:

عقب انتهاء الصانع من تشكيل منتجاته الفخارية تكون فى العادة لزجة ومبللة ببعض الماء، ومن ثم كان لزاما عليه تعريضها لأشعة الشمس ولتيار الهواء فترة من الوقت حتى تجف ببطء ويتبخر منها ما قد يكون قد علق بجدارتها من بلل أو رطوبة، وتصبح هذه الجدران جافة متماسكة قابلة للحمل والانتقال بها إلى الموقد لتبدأ عملية التفخير، وكانت هذه الخطوات كافية لتشكيل الأوانى العادية. وفى أثناء ذلك تتاح الفرصة للصانع - إذا أراد أن يزيد عنايته ببعض منتجاته - القيام بصقل سطوحها أو تغشيتها وتلميعها، وتتم هذه العملية بمسح أو دهن الجدران من الداخل أو الخارج بدهن ملون فى حركة دائرية متكررة، مع مراعاة عدم الضغط عليها وقد شاع هذا الأسلوب خلال العصر الحجرى الحديث وما تلاه من عصور، واستخدمه الصانع على وجه

الخصوص لصقل أسطح بعض الأواني التي ينتجها لأغراض حفظ السوائل والأطعمة غير الجافة وكان يستعين في ذلك بوسائل متعددة، مثل قطع من الجلد أو النسيج أو الخشب أو الحجر الأملس أو الحصاة الناعمة أو الصدف، وهي كلها وسائل تجعل السطح ناعما وأكثر قابلية للتلوين بعد التفخير، وقد يلجأ الصانع القديم في بعض الأحيان إلى تكسية أسطح بعض المنتجات الطينية بعد تشكيلها وقبل تفخيرها بعجينة خفيفة من الطين النقي أو المصفى جيدا، وكان هدفه في ذلك تقليل مسامية أسطحها وبالتالي تقليل نفاذ أو ترشيح السوائل من الجدران ورغبة في جعل هذه الأسطح أكثر ملاسة ونعومة، وفي بعض الأحيان كان يتم نقش هذه الأسطح بنقوش متعددة حسب الرغبة.

د: التفخير بالنار وتطوره:

وهي تمثل الخطوة النهائية في هذه الصناعة، وكان الغرض منها هو إخراج الماء المتحد كيميائيا مع الطين والذي تبلغ نسبته مابين ١٣-١٤٪ ومن ثم تصل إلى درجة من الصلابة والجفاف تجعله لا يتأثر بالماء أو السوائل الأخرى، ولا يتحد معه مرة ثانية. ويحدث هذا التبخر في درجة حرارة تصل فيما بين ٥٠٠-٦٠٠ درجة مئوية. واتبع الصانع القديم في طريقة تفخيره في بادئ أمره أسلوبا غاية في البساطة، ويتلخص هذا الأسلوب في وضع منتجاته الطينية داخل مواقد بدائية أعدها ظاهرة على سطح الأرض تارة أو داخل حفرة غير عميقة تحت هذا السطح تارة أخرى(٩)، وكانت هذه المنتجات توضع مختلطة مع أجزاء من أغصان الأشجار الجافة التي جمعها لهذا الغرض وروث الحيوانات المعجون بالتبن والحشائش وقطع البوص، ثم يشعل النيران في هذه الكومة من كل جانب مدة قصيرة من الوقت حتى تتم عملية تفخير المنتجات ويبدأ في إخراجها واستعمالها، وفي فترة متأخرة من العصر الحجري الحديث أي في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد بدأت أفكار التطوير تجد سبيلها للتنفيذ، فشرع في إحاطة النيران بقطع من الأحجار الجيرية الغفل وظهر ذلك بشكل ملحوظ في أطلال قرية المعادي القديمة بمصر(١٠)، وغيرها من القرى التي ترجع إلى العصر السابق لاختراع الكتابة قبل القرن الثاني والثلاثين قبل الميلاد. ثم اتجه نحو تغطية هذه الكومة بغطاء من روث الحيوانات للمساعدة على حفظ الحرارة وزيادة ارتفاع درجاتها، واستبدله فيما بعد ببناء جدار له سقف مائل من جواليص الطين وبما يشبه القمائن لتكون أو مايعرف بالأتون، وهي عبارة عن مبنى كروي صغير يوجد في أسفله موقد لإشعال النار، فيرتفع لهيبها وتصعد حرارتها من خلال فتحات تكون في قاع الأتون الذي هو سقف الموقد إلى أعلى متخللة تشكيلات الطين الموضوعة داخل الأتون فتشويها محولة إياها إلى

فخار، وقد يكون الأتون مرتفعا، ويحوي فتحة في أعلاها وأخرى في الجانب تغلق أثناء العمل ويتم فتحها بعد النضوج. ولا يزال الفخارون يفخرون بتشكيلاتهم الطينية في مثل هذه المباني لأنها تكون في الواقع أكثر إحكاما وإغلاقا وحفاظا على النار في داخلها. وبمرور الوقت تطورت عملية التفخير إلى أن صارت تتم داخل أفران أعدت خصيصا لذلك، حيث كان يتم فيها الفصل بين المنتجات المراد تفخيرها وبين قطع الوقود المشعلة للنار، وأحيانا كان يتم كذلك تزويد بعض الأفران بفتحة من الجهة التي تسمح بدخول الرياح إلى داخلها لتساعد على اشتعال الصنة اللهب، ومن ثم ترتفع درجة الحرارة وتزداد السخونة، كما تم تزويدها بفتحات أخرى لإخراج الدخان الكثيف الأسود كذلك التي تم اكتشافها في العديد من مواقع مصر وغيرها من المواقع القديمة بالمنطقة العربية، كذلك لاحظ الباحثون أثناء دراستهم لبقايا كثير من الأواني الفخارية تساوي درجات التفخير إلى حد كبير، مما يشير إلى إمكانية الصانع وإدراكه لكيفية توزيع النار بدرجة واحدة من المساواة على كل المنتجات الموجودة داخله، مما يجعلها تتساوى مع بعضها في درجة واحدة من النضوج، ومن ناحية أخرى تنبه الصانع القديم إلى أن للتفخير تأثير قوي على ألوان أوانيه، إلى جانب عوامل أخرى مؤثرة والتي من أبرزها مركبات الصلصال ذاتها، كذلك إذا كانت درجة حرارة النار داخل الأفران مرتفعة وتصادف أن نسبة الأوكسجين عالية فإن الطين الصلصال يتحول بعد نضجه إلى الأسود، في حين أنه إذا قلت نسبة الأوكسجين داخل الأفران فإن ألوان المنتجات تتدرج هي الأخرى إلى مابين اللون الرمادي أو الرمادي الأسود أو الأسود، ولعل من الأمثلة التي يمكن الاستشهاد بها في ذلك هو الفخار الذي عثر عليه المنقبون في مناطق البداري والعمرة في صعيد مصر، حيث تمكن الصانع من إنتاج أواني فخارية حمراء ذات مفوهات سوداء، واعتمد في تقنيته على تعرض حواف الأواني دون بقية أجزائها لدخان كثيف يكسبها اللون الأسود المطلوب.

ثالثا: ألوان الفخار القديم:

تميز الفخار القديم باصطباغه بألوان تتأثر كثيرا بالتركيبة الكيميائية للطمي، لذلك فقد تباينت ألوان الفخار بين الأحمر والبني والأسود والرمادي، وكان لكل لون من هذه الألوان الرئيسية درجات متفاوتة تتفرع منه، ويمكن إجمالي العوامل التي تتحكم في لون الفخار كما يلي:

١- نوع الطين المستخدم والمكونات المتداخلة معه.
٢- كيفية التفخير وطبيعة المواد المستخدمة لإشعال النار ومستوى درجة الحرارة.
٣- المدة الزمنية التي تستغرقها الأواني داخل أفران النار.

ويمكن تناول هذه الألوان على النحو التالي:

الفخار الأحمر:

وقد عثر على بقايا كثيرة منه في معظم مواقع العصر الحجري الحديث في الوطن العربي القديم، إذ انه يعتمد على النار الحامية المتوهجة الخالية من الدخان كما سبق التوضيح. كما أنه يعتمد على نوع معين من الطين الصلصالي الذي يحتوي على نسبة كبيرة من مركبات الحديد التي تتأثر بالتوهج الشديد للنار، فيتحول إلى أكسيد الحديد الأحمر الذي يكسب الفخار هذا اللون.

الفخار البني الفتن:

وهو أكثر أنواع الفخار القديم شيوعا وأقلها تكلفة، ويأتي هذا اللون نتيجة الحرق في نار هادئة فتتحول المادة العضوية في الطمي إلى اللون البني الذي يتشبع به، وقد تظهر عليه علامات سوداء كلما أصابه دخان خلال الحرق. ومن ناحية أخرى لم يكن هذا النوع يحظى عقب الانتهاء من تشكيلة بمزيد من العناية لدى الصانع القديم، ولا يبذل أي جهد نحوه في صقل أو تلميع أسطحه أو تكسيتها بأي عجينة خفيفة، بل كان يتركها بعد تشكيلها معرضة لأشعة الشمس حتى تجف ثم يتم نقلها إلى الأفران لتفخيرها، وهو ما كان يجعلها تبدو في حالة من الخشونة.

الفخار الأسود:

اكتسب الفخار هذا اللون بسبب قيام الصانع بشويه في نار قوية ولمدة قصيرة ثم يتبع ذلك بإشعال دخان كثيف عن طريق إضافة وقود به مواد عضوية كالتبن أو أوراق الأشجار أو روث الحيوانات. ومع ازدياد قوة الدخان وكثافته تكتسب أسطح الأواني لونها الأسود نتيجة توغله إلى داخل الجدران.

الفخار الرمادي:

ظهر هذا اللون نتيجة استعمال الصانع لعجينة من الطمي الرمادي الضارب إلى الخضرة، وعادة ما يكون خاليا من المواد العضوية الداكنة، كما أنه يحتوي على نسبة عالية من كربونات الكالسيوم، وعندما يتعرض بعد تشكيله إلى درجة حرارة عالية يصبح لونه رماديا مائلا إلى الإخضرار خصوصا إذا كانت الجدران رقيقة السمك، أما إذا كانت الجدران سميكة وكانت درجة الحرارة أقل من العالية فتظهر على سطح الفخار بقع سوداء نتيجة تفحم المواد العضوية الموجودة داخله، وعدم تعرضها للحرارة القوية ولوقت كاف لإتمام نضجها.

رابعا: أشكال المنتجات الفخارية القديمة:

منذ حوالي الألف السابعة قبل الميلاد أي منذ أوائل العصر الحجري الحديث ومع مولد هذه الصناعة بدأ الصانع القديم في تشكيل أوانيه بأشكال غاية في البساطة وتتناسب مع متطلبات حياته اليومية، فشكل الطواجن وقدور الطبخ والتخزين والأقداح والمغارف ذات المقابض القصيرة والطويلة، كما تمكن أيضا من تشكيل أواني ذات هيئات وأشكال عامة متنوعة منها أواني مستطيلة واسطوانية ذات فتحات ضيقة أو ذات رقبة نحيفة أو رقبة طويلة أو قصيرة. كما شكل أواني ذات مقبض واحد وأخرى ذات مقبضين إلى جانب الأواني التي لا مقابض لها.

غير ذلك قام الصانع القديم بتشكيل أواني تقف على رجلين وأخرى على اربع، وفي بعض الأحيان شكل أواني مزدوجة الفوهة، فضلا عن العديد من الهيئات الأخرى التي تمثل الإنسان أو الحيوان أو الطيور أو المساكن أو القوارب[١١].

وتعتبر أواني الشرب من أكثر أواني الفخار استعمالا حيث كان يوضع فيها الماء لفترة من الوقت دون أن يفسد وأقبل الناس عليها كبديل عن القرب التي عانوا منها من قبل.

كما استعمل الفخار لتخزين المؤن ومختلف المواد الغذائية اللازمة لحياة الإنسان مما ساعد على توفير قدر كبير من الأمن الغذائي في ذلك الوقت، كذلك استخدم الفخار لحفظ الأشياء الثمينة مثل الذهب والحلي ولأغراض أخرى عديدة، وكانت تسد فوهاتها وتدفن تحت سطح الأرض حتى لا تقع في أيدي اللصوص والطامعين، وقد عثر في بلاد الشام على جرار على هيئة القمع المقلوب تميزت بالعنق الطويل وأسفلها مستدير واسع عرفت باسم «البقبق» ووردت في العهد القديم بألفاظ «بقبوق» و«بقبق»[١٢].

خامسا: الزخارف الجمالية للفخار القديم

لم تكن تحظى الزخارف على الأواني في بادئ الأمر باهتمام الصانع لكنه بدأ في المرحلة التالية يهتم بها بالتدريج، حيث أخذ يضيف فوق الأسطح الخارجية لبعض الأواني زخارف بسيطة التكوين، ومع مرور الوقت أصبحت الزخارف فنا مميزا للكثير من المجتمعات القديمة. ويبدو أن الصانع استعان في بادئ الأمر بأظافر أصابعه، ثم استعان ببعض الأعواد النباتية المدببة، ثم أخذ يستخدم بعض عظام الطيور بهدف عمل زخرفة محفورة وغائرة على السطح فنجدها أحيانا تأخذ شكل رسوم أو خطوط بالطريقة

التي يرغبها وذلك كله قبل تعريضها لأشعة الشمس لتجف وقبل الإقدام على عملية التفخير. وأحيانا كان يلجأ إلى الزخرفة عن طريق تشكيل بعض الفوهات على هيئة زهرة متفتحة أو قد يقوم بإضافة كورنيش مزخرف إلى الجدار الخارجي. ثم تطورت هذه الزخارف فيما بعد وأصبح الصانع يحفر أشكالا غائرة لبعض الحيوانات أو الطيور أو الفوارب الصغيرة. ويقوم بملء الفراغ الغائر الناتج عن الضغط بمادة بيضاء تظهر على سطح الإناء. ثم تطور فيما بعد إلى القيام بوضع أشكال بارزة فوق السطح مثل تلك الآنية التي تزدان بشكل رأس المعبودة حتحور[١٣] ثم توصل إلى القيام بوضع أصباغ مختلفة كالأزرق أو الأسود أو الأصفر كدهانات فوق سطح الأواني.

وخلال العصر الحجري النحاسي (٤٠٠٠-٣٧٠٠ ق.م) امتازت المنتجات الفخارية بالمنطقة العربية بالألوان الزاهية والزخارف الجميلة المتباينة. وتعد بعض أنواعها من أجمل ما أنتجته الحضارات القديمة. مما دعى بعض الباحثين إلى تسميته بعصر الفخار الملون. وتتميز منتجات كل فترة من فترات هذه العصر بالطرز المختلفة وبالألوان المتباينة وبأشكال الأواني المتميزة وأصبح ذلك التطور والتباين من بين الأسس التي استند إليها الباحثون في تقسيم هذا العصر إلى خمسة مراحل مختلفة. اشتقت اسماءها من أسماء المواضع الأثرية التي وجدت فيها آثارها المميزة لها لأول مرة. وهي بحسب تسلسلها الزمني:

(١) تل حسونة.
(٢) سامراء.
(٣) حلف.
(٤) العبيد.
(٥) الوركاء.

ويمكن تناول كل مرحلة من هذه المراحل على النحو التالي:

(١) مرحلة تل حسونة:

هو تل صغير يقع بمحافظة الموصل. وترتفع أعلى نقطة فيه قرابة سبعة أمتار عن السهل المجاور. وقد أظهرت التنقيبات المشار إليها بقايا ست عشرة طبقة من أدوار السكنى. وهي تنتمي إلى خمسة أطوار حضارية متتالية تبدأ من العصر الحجري الحديث وحتى نهايته. وتميزت أولها بفخار غفل أي غير مصبوغ وخالي من الزخرفة والزينة. وقد صنع باليد. وغلبت عليه خشونة الصناعة وتميزت الأطوار التالية بوجود مخازن للحبوب على هيئة أحواض وجرار كبيرة شكلت من الطين غير المفخور.

(٢) مرحلة سامراء:

ويعود زمن ازدهار فخارها إلى النصف الثاني من الألف السادس قبل الميلاد. وسمي كذلك لأن الفخار الخاص به وجد لأول مرة في مقبرة تقع تحت بيوت السكن التي تعود إلى عهد سامراء العباسية. وانتشر في أرجاء عديدة من بلاد ما بين النهرين وخارجها حتى عيلام «سوسة» بإيران وتميز هذا الفخار بأنه ذو لون واحد وبأن زخارفه الهندسية مرتبة في أشرطة أفقية و متوازية. وبأن رسومه أخذت أشكال بعض الحيوانات والطيور والأسماك والعقارب. وفي حالات قليلة وجدت أشكال آدمية تقريبية. وكانت هذه الزخارف تنقش بلون أسود فاتح على سطح الإناء ذي اللون الأصفر الباهت.

(٣) مرحلة حلف:

وتسمى أحيانا خلف. وتنسب إلى موقع أثري كبير يطل على نهر الخابور على الحدود السورية التركية. حيث عثر المنقبون على طبقات أثرية تقع تحت القصر الملكي لإحدى الممالك الآرامية التي ازدهرت في القرن العاشر قبل الميلاد. وكانت عاصمتها (كوزان) وهو اسم تل حلف القديم وتميزت أسطح أوانيها الفخارية بالنقوش الزاهية المصبوغة بعدة ألوان مثل الأصفر والبرتقالي والأحمر والأسود ولقد أظهر الصانع العربي القديم براعة فائقة في الصناعة وجودة النقوش تماثل أجمل ما صنع من الفخار الملون في تاريخ البشرة. ومما يثير الإعجاب إنها صنعت باليد و لم تتدخل العجلة في تشكيلها ومع ذلك يلمس المرء رقة الجدران وجودة الطين وانتظام الأشكال. وعثر من بينها على أقداح ذات رقاب مفلطحة وأباريق ودوارق وصحون وأطباق الطعام وغيرها. وكانت زخارفها ذات أشكال متناسقة. وكثرت الأشكال الهندسية كالمثلثات والمربعات والمعينات والخطوط المتصلبة وأشكال المراوح والعجار المروحي والدوائر الصغيرة. كما وجدت أشكال نباتية وحيوانية مثل الأزهار والأطيار الحاطة والغزلان ورؤوس الثيران التخطيطية و كذلك بعض الأشكال الغريبة مثل القاس ذات الرأسين وما يسمى بالمربع المالطي وهو مربع في كل من زواياه الأربع مثلث صغير وقد انتشر هذا الفخار غربا بامتداد طرق القوافل التجارية المؤدية عبر الفرات والجزيرة إلى منطقة البحر المتوسط كما انتشر كذلك عن طريق كاركميش (جرابلس الآن) إلى بلاد الشام وكيليكية في الأناضول. كما وجد في عدة أماكن على ساحل البحر المتوسط مثل أوغاريت القديمة (رأس الشمرا بالغرب من اللاذقية). وقد حاول بعض الأوروبيين الأدعاء بأن أصل فخار حلف يرجع إلى بلاد اليونان (أي إغريقي الأصل) استنادا إلى ماعثر عليه من فخار شبيه لفخار حلف عثر

عليه في كل من قبرص وكريت وميكينى باليونان، ولكن أثبتت الكثير من الأبحاث قدم فخار حلف وسبقه فى الزمن عن الفخار اليونانى بعشرات القرون(١٤).

(٤) مرحلة العبيد:

وهى تصغير لكلمة عبد، نسبة إلى تل يقع إلى الشمال من أور، وقد انتشرت آثاره فى جميع أنحاء العراق وبلاد الشام والجزيرة العربية وخصوصا فى الأجزاء الساحلية من الخليج، وتميز فخارها بأنه من النوع العلون أحادى اللون، وقوام الزخارف على أسطح أوانيه خطوط سوداء مائلة إلى الزرقة أو السمرة أو الحمرة الفاتحة، وهى مفخورة فى درجات عالية من الحرارة، كما أن بعضا من أوانيه المزينة صنعت باستخدام نوع خاص من دواليب الفخراني وهو مايسمى بالقرص حيث لم تستعمل عجلة الفخراني المعروفة (١٥).

(٥) مرحلة الوركاء:

حيث تم العثور فيه على نوع جديد من الفخار مصنوع بعجلة الفخراني(١٦) وسرعان ما انتشر فى الكثير من المواقع داخل العراق، وتعداها إلى كثير من المواقع فى خارجها، ومنها مواقع فى الجزيرة العربية وغيرها، ويتميز هذا الفخار بلونه الفاتح، إلى جانب الفخار الأحمر والرمادى المطليين كما يتميز بوجود الأقداح ذات الحواف المائلة أو المعجونة إلى جانب الأباريق ذات الصنابير المعوجة والجرار ذات الصنابير الطويلة وأوعية من الفخار ذات الآذان الأربع.

وبانتهاء العصر الحجرى النحاسى يدخل تصنيع الفخار مرحلة جديدة من التطور الصناعى و الزخرفى وهو ما يعرف بمرحلة جمدة نصر (تعود إلى نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثانى قبل الميلاد)، والسابقة لعصور معرفة الكتابة، وتعود هذه التسمية إلى تل نصر الواقع على بعد ١٥ ميل شمال شرق كيش، وتتميز منتجاته بالألوان المتعددة، وتغلب على أشكالها الجرار الكبيرة المزينة بزخارف هندسية وطبيعية لونت بالألوان الأسود والأحمر على أرضية ذات لون أصفر فاتح، كما تميزت أيضا بالفخار المعروف بالقرمزى، ولقد وجدت هذه المظاهر الحضارية سبيلها إلى الانتشار خارج وادى الرافدين إلى عدة أرجاء من الوطن العربى القديم كالشام والجزيرة العربية ومصر (دور نقادة الثانية)، وإلى مواطن أخرى خارج هذا الوطن فى تبة سيالك الإيرانية والجديدة فى سهل أنطاكيا التركية(١٧).

سادساً: أثر إنتاج الفخار العربى القديم على تقدم البشرية الاقتصادى:

كان لمعرفة الفخار وتصنيع منتجات متنوعة منه فى مناطق العالم العربى القديم وبخاصة مناطق شرق البحرين الأبيض والأحمر آثاره البالغة فى تقدم الحضارات البشرية حضارياً واقتصادياً و علمياً، فإلى جانب ارتقاء المستوى الصحى الذى وفره الفخار لحفظ المياه، وتخزين الحبوب و التى كانت تشغل بال الإنسان منذ أن مارس حياة الاستقرار نتيجة الظروف المناخية الجافة التى تميز بها العصر الحجرى الحديث، وأصبح الفخار ملازما للإنسان فى حياته المنزلية حيث استخدمت الأوانى الفخارية فى طهى أنواع أكثر من الأطعمة والمأكولات والمشروبات، ووسائل أفضل وأكثر أماناً للإضاءة وصنع المسارج، بمعنى أن هذا الاكتشاف قد ساهم فى تحسين مستوى المعيشة والارتقاء بالمستوى الصحى إلى درجات أفضل، خصوصاً إذا علمنا على سبيل المثال أن وسيلة الإنسان لتسخين المياه مثلا قبل تصنيع الفخار اعتمدت على إسقاط قطع من الأحجار الساخنة فى الوعاء الجلدى أو النباتى أو الحجرى الذى يحتوى على المياه والسوائل التى يرغب فى تسخينها، ولنا أن ندرك ما لهذه الطريقة من مضار عديدة. ومن الجدير بالذكر أن هذه الفكرة عادت للظهور مرة أخرى فى العصر الحديث باستخدام جهاز معدنى يعتمد على غمره فى المياه وتوصيله بالتيار الكهربى الذى يعمل على رفع درجة حرارة المياه إلى درجة التسخين ثم الغليان.

كذلك لم تقتصر منافع الفخار على قضاء حاجات الإنسان فى دنياه اليومية بل تعدتها إلى منطقيات أفكاره عن الحياة الآخرة، إذ نجد الصانع العربى القديم وقد قام بصنع توابيت من الفخار لدفن الموتى من الأطفال والكبار على حد سواء وخصص لهم أوانى ومنتجات فخارية أخرى كانت توضع معهم، وعلى الرغم من دخول أصحاب الحضارات العليا عصور المعادن منذ زمن طويل، إلا أن منتجات الفخار لا تزال تلعب دوراً اقتصادياً هاماً فى حياة الإنسان حتى اليوم، إذ يستخدمه الريفيون فى معظم أنحاء العالم فى الحفظ أو الطهى أو الشراب، نظرا لمستوى الأمان الصحى من ناحية ورخص أسعاره من ناحية أخرى، وذلك نتيجة لاستمرار قلة تكاليف تصنيعه بالمقارنة إلى ارتفاع تكاليف تصنيع المنتجات الصينية أو المعدنية الأخرى، وهذا ما ساعد على استمرار شيوع استعماله فى أرجاء عديدة بالوطن العربى وخارجه حتى الآن، أما عن المستوى الفنى والجمالى فلا تزال صناعة الفخار الراقى والمعروفة باسم السيراميك تلعب دورا فنيا كبيراً تتخصص فيه بعض المنتجات الحديثة(١٨).

ومن ناحية أخرى برزت أهمية تصنيع الفخار القديم فى مجال الدراسات الإنسانية الحديثة، إذ أصبحت مصدراً علمياً لا ينضب للعلماء والباحثين والدارسين

لمعرفة واستكشاف الكثير من جوانب تاريخ وحضارة البشرية فى كل أرجاء العالم، وأثبتت هذه الدراسات أن لكل منطقة حضارية بل ولكل فترة زمنية سماتها وأنماطها التى سجلها الصناع والفنانين القدامى على منتجاتهم الفخارية عبر تاريخهم الطويل، والتى تمثلت فى طرق التصنيع المختلفة، والأشكال المطلوبة، والفنون الجميلة وأحيانا الأحداث الهامة. وباختصار فإن تصنيع الفخار فى الوطن العربى منذ آلاف السنين، وملازمته لحياة الإنسان فى بيته وانتشاره منه إلى الخارج قد أسدى للعلم والتاريخ البشرى ولو بطريق الصدفة خدمة مفيدة، ذلك لأن الفخار غير قابل للتلف بالرغم من أنه يتحول سريعا إلى قطع مكسرة لا حصر لها، كما أن أسلوب صناعته وزخرفته يظهر لنا الذوق والمستوى الفنى لعصره. وانتشاره وتفرعه يعطينا الدليل على العلاقات التجارية القديمة. لذلك فإن دراسته تضيء أمامنا الطريق لمعرفة تاريخ الماضى المجهول، وبظهور صناعته ثم تلتها صناعة المعادن انتقلت البشرية من عصور ما قبل التاريخ إلى بداية العصور التاريخية. وهذه كلها ساعدت علماء ما قبل التاريخ والأثريين على تمييز الحضارات الإنسانية وتتبع الهجرات البشرية وانتشار الثقافات ومعرفة الصلات عبر التاريخ الطويل لمجتمعات وأمم ودول العالم كله.

الهوامش:

(١) W.Perry: نمو الحضارة، ترجمة: لويس إسكندر، القاهرة ١٩٦١، ص٣٢ ومابليها.

(٢) Colin Hope, Egyptian Pottery, Bucks, Uk, 1987, p.3c

(٣) W.Howells: ماوراء التاريخ، ترجمة: أحمد أبو زيد، القاهرة ١٩٦٥، ص١٨٧ ومابليها.

(٤) W.Howells: المرجع السابق، ص١٩٢، ١٩٣، ١٩٧، وأيضا: J.Garstang, Jericho, City, Liverpool Ann. 1931-36.

(٥) عبدالعزيز صالح: حضارة مصر القديمة وآثارها، القاهرة، ص٨٨ ومابليها.

(٦) Leonard Cottrell: الموسوعة الأثرية العالمية، ترجمة: محمد عبدالقادر وزكى إسكندر، القاهرة ١٩٧٧، ص٥٦١.

(٧) طه باقر: مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الأول، الطبعة الأولى، بغداد، ١٩٧٣، ص٢٨٠.

(٨) محمد شفيق غربال وآخرون: تاريخ الحضارة المصرية، العصر الفرعونى، المجلد الأول، القاهرة، ص١٨٧.

(٩) محمد السيد غلاب يسرى الجوهرى: الجغرافيا التاريخية، عصر ماقبل التاريخ وفجره، القاهرة، ١٩٨٢، ص٣٥٣.

(١٠) Mitteilungen des DA-Kairo, Band/Heft A.Badawi: A Preliminary Report on 1954-56, excavations at Maadi-West, 59, 2003, S. 1.

(١١) Siedlungsfunde aus Maadi bei Kairo (V.A.Rps. في مجلد الأبحاث العلمية والحضارية النمساوية، انسبروك، ١٩٨٠، ص٣٢.

(١٢) Ency. Bibl., vol. 1, p.600, سفر ارميا ١٩، ١١٠،

(١٣) شفيق غربال وآخرون: تاريخ الحضارة المصرية، العصر الفرعونى، المجلد الأول، القاهرة، ص١٨٦. (وهى موجودة بالمتحف المصرى بالقاهرة).

(١٤) Ann Perkins: The Comparative Archaeology of early Mesopotamia, 1947, p. 43 ff

راجع أيضا:

R. Dussaud: in SYRIA, XX, 1931, p.92 ff.

Hall and Woolley: A l-Ubaid, Ur Excavations, 1931, p. 30 ff. (١٥)

راجع أيضا:

John Oates: in IRAQ, XXX, 1968, 1 ff, and XXXI, 1969, p. 115 ff.

(١٦) راجع تقارير تنقيبات البعثة الألمانية للآثار فى الوركاء فى النشرة المشار إليها بالرمز: UVB. UVB, III, 1932, IV, 1933.

(١٧) H. Frankfort: The Birth of Civilization in the Near East, 1951, p. 12;Idem: in AJSA, 1941, 354 ff. see also: Kantor: in JNES, XI,1952,239ff.

(١٨) محمد رياض: الإنسان، دراسة فى النوع والحضارة، بيروت ١٩٧٤، ص ٣٥٦–٣٥٨.

الدكتور الطاهر حسن ذراع (*)

الزراعة لدى سكان شبه الجزيرة العربية قديما

في البداية جدير بنا أن نثير التساؤلات الآتية:

– ما هي طبيعة الزراعة عند العرب قديما ؟

– ما هي المناطق والمساحات، التي كانت تزدهر بها الزراعة ؟ وهل كانت الزراعة مزدهرة فعلا في شبه جزيرة العرب في التاريخ القديم ؟ وإذا كانت كذلك فهل كانت تكفي لمعيشة السكان واحتياجاتهم المتعددة ؟ وهل عرف العرب قديما نظام الري ووسائله المختلفة ؟

أم أنهم كانوا يعتمدون على سيول الأمطار والغدران الطبيعية فحسب؟ وكيف يتصور المرء ان تلك المساحات الصحراوية الشاسعة، كانت تزخر بمنتوجات فلاحية متميزة ؟

– وهل كانت تلك الموارد الفلاحية تكفي فقط للاستهلاك المحلي ؟ أم كانت تصدر إلى بلدان مجاورة ؟

وأخيرا هل كانت الفلاحة عنصرا رئيسا في استقرار الإنسان العربي في الواحات والمناطق الحيوية ؟ أم أنها لم تستطع أن تثنيه عن التنقل والترحال عبر التلال والسهول ؟

كل هذه الأسئلة وتلك ستحاول الإجابة عنها في الصفحات الآتية.

كان العرب في الزمن القديم يعيشون في شبه الجزيرة في حياة قبلية متنوعة، تحكمها علاقات عشائرية.

وتنقسم هذه القبائل حسب طبيعة العمل إلى ثلاثة أنواع في شمال شبه الجزيرة على الأقل:

(*) أستاذ محاضر قسم التاريخ والآثار كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية جامعة منتوري قسنطينة

أولا: قبائل بدوية متجولة في المناطق السهبية، عاشت على تربية المواشي وخاصة الإبل.

ثانيا: قبائل فلاحية أو نصف متجولة، اعتمدت في حياتها على الزراعة وتربية الحيوان.

ثالثا: قبائل فلاحية مستقرة في الواحات والقرى الجبلية، مارست الزراعة وهذا هو موضوع هذه الورقة، التي سأحاول فيها أن ألتمس مواطن الزراعة وتطورها. وهل كانت تشكل مصدرا رئيسا لحياة السكان في المنطقة العربية ؟ أم أنها كانت مصدرا ثانويا يأتي بعد الصيد والرعي والتجارة ؟

كانت الواحات إلى جانب الأراضي الزراعية الواسعة ذات أهمية بالغة في اقتصاد شبه الجزيرة العربية. ومن أهم هذه الواحات:

واحة «عسير» وواحة «الحجاز» وواحة «النفود الكبير» وواحة «جبل طيء» و«أواسط نجد» و«وادي الدواسر» و«الاحساء». وفيها قرى كبيرة وصغيرة ونخل وزروع وأسواق تجارية ومعابد لآلهة القبائل وحصون. إلى جانب كونها مراكز للقوافل تتوقف فيها للاستراحة والتموين.

أما القبائل التي كانت تقطن هذه الواحات فهي قبائل متحضرة مثل: قبائل يثرب والطائف ودومة الجندل وكلها كانت تعيش على الزراعة كمورد رئيس. ومن ثمة فقد تحولت بعض هذه المراكز السكانية إلى مدن حضرية كبرى.

تتوفر سهول يثرب على مياه كثيرة سطحية وباطنية وتربة خصبة تكونت بفعل تفكك الصخور البركانية، وبمناخ معتدل نسبيا. وقد ساعدت هذه العوامل الطبيعية أهل يثرب على الاشتغال بالزراعة وأصبحت هي حرفتهم الرئيسة لكسب عيشهم.

لقد عمل العرب بدأب ونشاط رغم المعوقات الطبيعية والاجتماعية والسياسية على توسيع مشاريع الري الاصطناعي: فحفروا الآبار في الوديان والواحات وبعض السهول الساحلية لاستثمار موارد المياه الجوفية القريبة من سطح الأرض، وشيدوا الحواجز في مواضع تجمع مياه الأمطار في الأودية لتوزيع مياهها في أوقات معينة على المزارعين ومربي الماشية بحصص متساوية، وبنوا السدود ورمموا المتصدع منها، وشقوا القنوات لأخذ مياه العيون والآبار لريّ الحقول والبساتين، وبذلوا مجهودات ضافية في استثمار التربة الخصبة حيثما وجدت، فأقاموا المدرجات على سفوح جبال اليمن لمنع انجراف التربة.

وهكذا فبفضل جهد الفلاحين المتزايد وتعلقهم بالزراعة، تحولت حاضرة يثرب بمرور الزمن الى واحة واسعة خضراء عامرة بأشجار النخيل ولأشجار الفواكه وحقول الخضروات والحبوب. حتى أن أبا الصعاليك «عروة بن الورد» أطلق عليها اسم «منبت النخيل» لكثرة أشجارها وثمارها.

وكانت الزراعة في يثرب ومنطقتها تقوم أساسا على تنظيم الري الاصطناعي[1]. إن جاز لنا أن نطلق عليه هذا المصطلح. لأن الأمطار لا تسقط فيها بانتظام كما هو الحال في جنوب شبه الجزيرة. ولكنها إذا نزلت تهطل بغزارة فتحدث سيولا يترتب عنها ظهور غدران ومستنقعات إلى آخره. وفي الوقت نفسه توفر المياه الجوفية والسطحية التي يعتمد عليها سكان يثرب في تنظيم شبكة ري واسعة ممثلة في منظومة الأودية والآبار والعيون والحواجز والمجاري الاصطناعية[2] وإبقائها صالحة للزراعة.

وقد استغل السكان أرض يثرب ذات التربة البركانية الغنية وحولوها إلى واحة نموذجية لزراعة النخيل والشعير. معتمدين في ذلك على سواعدهم أحيانا وعلى سواعد العبيد أحيانا أخرى لاسيما العاملين في الصناعات الحديدية[3] واستعمال المجراف والفأس والمدراة والمنجل والمحراث الخشبي، الذي تجره الحيوانات وغير ذلك من الأدوات والوسائل الضرورية للحرث والبذر وجني المحاصيل[4].

وحديثنا عن موضوع الزراعة في شبه الجزيرة العربية لا يعني الحجاز وحدها فقط، وإنما يشمل من أهل اليمن جنوبا الذين كانوا روادا في هذا المجال وكسبوا تجارب غنية في شتى مجالات الحياة كحضرموت وعمان واليمامة والحجاز شمالا وتهامة والواحات الكثيرة الواقعة على أطراف الصحراء ووسطها حتى منطقة الحرات.

وقد عثر الاثريون على بعض النصوص العربية تحمل صور حيوانات تجرّ المحراث ويسوقها الفلاح[5]. ومن الحيوانات التي استخدمت في الفلاحة والري: الابل والثيران والحمير[6]. حيث كان الفلاحون يقسمون المياه ويروون نخيلهم ومزروعاتهم من تلك المياه.

أما في الأوقات التي تشح فيها الامطار وتجف فيها الأودية أو في الاماكن التي لم تصل إليها مياه الري المنظمة، فإن الفلاحين كانوا يعتمدون في سقي مزروعاتهم على مياه الآبار[7].

ويذكر ياقوت الحموي[8] في معجم البلدان عندما يصف نشاط يثرب الزراعي قائلا: «نخيل المدينة «يثرب» وزرعها تسقى من الآبار عليها العبيد». وكان الزراع في المساحات الفلاحية المروية الواسعة يستخدمون الجمال

والحمير والثيران في ضخ الماء من الآبار نحو الأراضي المزروعة بدلا من الدلو. وهذا دليل على تطور وسائل الريّ لدى سكان يثرب.

وتذكر بعض المصادر في وصفها لبعض البساتين التي كانت تروى بهذه الوسائل من خلال قصائد فحول الشعراء العرب أمثال زهير بن أبي سلمى الذي قال:

كأن عيني في غربي مقتلة ... من النواضح تسقي جنة سحقا
تعطو الرشاء وتجري في ثنايتها ... من العجالة ثقيار رائدا قلقا
لها لداة وأعوان غدون لها ... قتيب وعرب إذا ألفرع اسقا
وخلفها سائق يحدو وإذا خشيت ... منه العذاب تمدّ الصلب والعنقا
وقابل يتغنى كلما قدرت ... على العراقب يداه قائما دفقا[٩].

وقد أشار «ابن هشام»[١٠] إلى بعض المزارعين الأغنياء في يثرب بقوله: «إن الحبر اليهودي مخيريق كان غنيا كثير الأموال من النخل».

كما أشار البلاذري قائلا[١١]: «كان لمخيريق أحد بني النضير جدار غنيا له سبع حوائط «بساتين»».

وتؤكد المصادر والمراجع، على أنّ أهم مورد فلاحي في يثرب هو بساتين النخيل التي كانت تدرّ على ملاكها أرباحا طائلة.

ومن ثمة فقد اكتسب الفلاحون في هذه المناطق تجربة رائدة في مجال زراعة النخيل وتطويره ورعايته والمحافظة عليه، باختيارهم المساحات الصالحة لأنواع معينة منه، وقياس المسافات بين شجيراته، وامتداد جريده واختيار الأنواع الجيدة المثمرة منه إلخ[١٢].

وكانت التمور تشكل الغذاء الوحدوي لحياتهم حيث كان جلّ طعامهم من التمر، كما كانت تعاملاتهم تتم به فتدفع منه الأجور وتسدد الديون[١٣].

ولا شك أن اهتمام أهل يثرب خاصة وسكان شبه الجزيرة بصورة عامة بزراعة النخيل وتطويرها واستثمارها يعود بالدرجة الأولى إلى الفوائد الجمة المستخلصة منها، فمن جذوع النخيل يستخدمون أعمدة بيوتهم وحملات سقوفها ويستعملون جريدها في سقوف منازلهم، ويطحنون النوى بالمطاحن حتى يهشم ثم يقدم علفا للحيوانات ويصنعون من خوصها المكاتل والقفف[١٤].

أما المصدر الثاني، في حياة أهل يثرب الغذائية، فهو الشعير فكان الى جانب التمر هو طعام الناس اليومي، بينما كان الأثرياء منهم يعيشون على الدرمك[١٥]. وكان يهود يثرب يتاجرون مع غيرهم بالتمر والشعير ودقيقه خاصة في سوق بني قينقاع[١٦].

وبالإضافة الى التمر والشعير فقد كان أهل يثرب يزرعون القمح والكرم والرمان والموز والليمون والبطيخ والبقول والخضر كالقرع واللوبياء والسلق والبصل والثوم.

هذا وإذا كنا قد توقفنا بشيء من التفصيل عند منطقة يثرب، فإن هناك واحات أخرى لا تقل أهمية عن الأولى من حيث خصوبة الأرض ووفرة المياه وكثرة المنتوج وتعدد أنواع المحاصيل التي كانت تكفي لغذاء السكان ويصدّر الفائض منها إلى باقي المناطق الأخرى بواسطة المقايضة أو البيع، ومن أهم هذه الواحات:

١- واحة خيبر، التي اعتمد سكانها على الري الاصطناعي أيضا مثل فلاحي يثرب في سقي أراضيهم البركانية الخصبة.

٢- وادي القرى، وهو محطة من محطات الطريق التجاري الذي كانت تسلكه القوافل التجارية المتجهة من اليمن إلى بلاد الشام والعكس صحيح (رحلة الشتاء والصيف). وبه واحات ومياه وافرة وهو واد خصيب، مارس سكانه الزراعة المروية حيث أقيمت حول مواضع المياه فيه مستوطنات سكنية وقرى عديدة. اعتمدت في حياتها الغذائية على زراعة النخيل وانتاج الحقول من الحبوب والبقول وغيرها.

٣- حاضرة الطائف، كانت تعرف هذه الواحة قديما باسم «جوّن» وتقع جنوب شرقي مكة[١٧] ومناخ هذه الواحة لطيف في الصيف لارتفاعها وتفتحها على الرياح الشمالية الباردة ومياهها وفيرة وأرضها خصبة مغطاة بالأشجار.

ويبدو أن هذه العوامل كلها، كانت مساعدة على قيام هذه الواحة بدور كبير في الزراعة، خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين، وقد سكنها أجناس وطوائف متعددة منها: قبيلة ثقيف، حمير وهوازن والاوس والخزرج ومزينة وجهينة وقريش واليهود والروم، مارس سكانها الزراعة وأنشئت بها القرى والمزارع والبساتين، وقد اعتمد سكان الطائف على الزراعة البعلية والمروية معا، فكانت مهنتهم الرئيسة في حياتهم الاقتصادية، علاوة على اشتغالهم بشيء من الحرف والتجارة.

ومن اهم المحاصيل الزراعية التي كانت تطفح بها مزارع الطائف هي: الحبوب (الحنطة والشعير) والفواكه كالعنب والرمان والخوخ والمشمش والسفرجل والكمثري والموز[١٨].

وكانت الطائف بالرغم من تعدد منتجاتها، فإن أشهر وأهم منتوج فلاحي تميزت به هو الحنطة التي وصفت من قبل بعض الرواة بأنها تضاهي أو تناظر

اللؤلؤ[٢٩] حتى أن بعضهم قد نسب دهاء وكياسة أهل الطائف إلى اعتمادهم في المعيشة على الحنطة حتى صاروا مضرب الأمثال[٣٠].

والحق أن حواضر الحجاز ولاسيما مكة كانت تعتمد في معظمها على منتوج الطائف من الحنطة. فكان المرء يرى العير تأتي من السراة والطائف وهي تحمل الحبوب والسمن والعسل إلى مكة[٣١].

وكان العنب من أهم منتوجات الطائف على مستوى الفواكه والثمار رئيسا في اقتصاد المنطقة[٣٢]. وذكر بعض الجغرافيين العرب[٣٣]: «أنّ في الطائف من العنب ما لا يوجد مثله في بلد من البلدان، وعنب الطائف لذيذ الطعم، حلو المذاق، طيب النكهة. ويؤكل طازجا ويجفف لتصنع منه الخمور، وكانوا يحملونه في مواسم الحج فينبذونه ويسقى منه الحجيج».

وذكر البلاذري[٣٤] عددا من أثرياء الطائف الذين كانوا يمتلكون المزارع الشاسعة من أشجار الكروم مثل: «العاص بن وائل السهمي» الذي كانت له أموال ومزارع في قرية «رهط» على بعد ثلاثة أميال من «وج» ومات وهو شعب من شعبها[٣٥]. اما ابنه «عمرو» فقد كان له هو الآخر كروم كثيرة، غرس فيها ألف عود كرم على ألف ألف خشبة ابتاع كل خشبة بدرهم[٣٦].

وكان لـ «العباس بن عبد المطلب» مزارع واسعة من الكروم[٣٧]. اما «سعيد بن أحيحة بن العاص بن أمية» فكان تاجرا كبيرا ومشهورا له مزارع في الطائف الى ان مات فيها[٣٨]. ومن الأثرياء المشهورين في الطائف «عتبة بن ربيعة» وأخوه شيبة اللذين كانا لهما أرض بالطائف مزروعة بالكروم[٣٩].

ولقد كانت الطائف مصيفا تجتمع فيها ارستقراطية قريش في فصل الصيف، حيث شيدت هذه الطبقة مساكن لها تقضي فيها أوقات الراحة عندما يشتد الحرّ في مكة.

وهكذا كان لتشابك المصالح الاقتصادية والاجتماعية بين أهل الطائف ومكة وتوظيف بعض أموال الأثرياء في ملكية الأراضي الزراعية وفي أعمال تجارية وحرفية، وسياحية، إسهام بقسط وافر في تطوير الزراعة وترويجها وتنشيط الأسواق الموسمية بين سكان شبه جزيرة العرب.

ونتيجة لهذا المستوى المتطور من الزراعة وتنظيم الري وازدهار التجارة أصبحت الطائف في أواخر القرن السادس الميلادي ثاني حواضر العرب في المنطقة بعد مكة، بل فقد فاقتها في ميدان الزراعة وتسويق المحصولات الموسمية[٤٠].

وعلاوة على هذه الواحات الكبرى التي اشتهرت بمناخها الملائم للحياة وبمنتوجاتها الزراعية الوافرة وباستقطاب المصطافين والسيّاح، كان هناك واحات أخرى تأتي في الدرجة الثانية واهمها:

١- واحة الجوف: أو (دومة الجندل) التي تقع في شمال صحراء النفوذ الكبرى وهي من أخصب الواحات وأكثرها إنتاجا وأوفرها ماء[٣١].

٢- واحة وادي الرّمة: وهي أرض خصبة تتوافر فيها المياه على أعماق مختلفة، وفيها قامت قرى كبيرة ومزارع النخيل وحقول القمح.

٣- واحة شمر (جبل طيء): وقد اشتهرت بوفرة مياهها وخصوبة تربتها الصالحة للزراعة وبمراعيها الغنية، التي كانت تنتشر في سفوح الجبل، وقد سكنت هذه الواحة قبائل طيء وسلمى، وهي عبارة عن قبائل متحضرة ونصف رحل والزراعة في المنطقة سهلة ميسورة لكثرة المياه فيها.

٤- واحة وادي الدواسر: وهي مجموعة من الواحات التي اشتهرت بمزارع النخيل والكروم وبساتين الفاكهة وحقول القمح[٣٢].

٥- واحة السليل: التي تقع في واد رحلي وبها قرى ومزارع النخيل[٣٣].

وإذا كانت الزراعة في كل من اليمن وعمان، تعتمد على مياه الأمطار والري الاصطناعي، فإنها في واحات الحجاز ونجد واليمامة، كانت تعتمد على الري بصورة أساسية.

أما طرق استغلال الأراضي الزراعية فكانت كثيرة ومتنوعة نذكر منها على سبيل المثال:

- طريقة الإيجار او «المحاقلة».
- طريقة المخابرة أو برد المزارعة.
- طريقة المساقاة وغيرها

١- طريقة الايجار او المحاقلة: وهي إيجار الأرض للمستأجر بالحنطة أوالذهب أو بمقابل آخر.

٢- طريقة المزارعة أو المخابرة: وهي عبارة عن اتفاق يتم بين صاحب الأرض والفلاح بنسبة يأخذ صاحب الأرض مقابل أرضه من المحصول ويأخذ الفلاح الذي تولى الزرع مقابل عمله حسب نصيب معين من المحصول بالربع أو الثلث أو النصف أو أقل من ذلك أو أكثر[٣٤].

٣- طريقة المساقاة: هي إتفاق يتم بين صاحب الأرض والمزارع على ان يقوم هذا الأخير بإعمار النخل أو الكرم وسقيه وإصلاح الآبار وغيره من

المرافق الفلاحية فما جناه من الثمار فللعامل سهم منه والباقي لمالك النخل أو الكرم (صاحب الأرض)(٣٥).

وقد ظهر هذا النوع من استثمار الأراضي بعد اتساع المساحات الصالحة للفلاحة، وتعدد المناطق الزراعية في شبه الجزيرة العربية وتنوع المحاصيل. غير ان هذه الأساليب في استثمار الأرض قد نتج عنها الكثير من أشكال الغبن والظلم في توزيع المنتوج الفلاحي، وحدوث منازعات وخصومات بين أصحاب الاراضي والمستأجرين أو العاملين بها أثرت على النسيج الاجتماعي وعلاقات العمل بين الملاك والفلاحين الآخرين.

وكان المرابون والتجار الكبار والملاك يستغلون أصحاب الأراضي الصغيرة الضيقة المساحة والضعيفة الإنتاج حتى يضطروهم الى التخلي عن أراضيهم لصالحهم، بعد عجزهم عن تسديد ديونهم الباهظة التي اقترضوها من أصحاب الثروة، وقد يضطرون في حالة العجز الكلي إلى بيع ثمار نخيلهم وأعنابهم مزابنة(٣٦) ومحاصيل شعيرهم أو قمحهم محاقلة(٣٧).

وتعتبر اليمن المنطقة الأولى التي تقدمت فيها الزراعة تقدما ملحوظا أكثر من المناطق الأخرى. ولذلك عرفت اليمن باسم «الخضراء» عند الجغرافيين العرب وذلك لكثرة مزارعها ونخيلها وأشجارها وأثمارها ومياهها(٣٨).

ولعلّ ما زاد في ترقية الفلاحة في بلاد اليمن بناء شبكة واسعة من السدود والأحواض لحفظ مياه الأمطار الموسمية الصيفية الغزيرة وتوزيعها على الحقول والبساتين عند الحاجة بالمساواة على الفلاحين.

وقد أورد الهمداني أن في أخذ مخاليف اليمن ثمانين سدا أشار إليها بعض شعرائهم بقوله: «وبالربوة الخضراء من أرض يحصن ثمانون سدا ...»

ولاشك أنّ سدّ مأرب هو أشهر السدود القديمة في المنطقة العربية الذي ورد ذكره في القرآن الكريم وفي أسفار ورحلات القدامى. لأنه كان يشكل المحور الأساس في تنظيم الري الاصطناعي وتطوير الزراعة الكثيفة باليمن. وقد شيد هذا السد بوادي «أذنة» لحفظ مياه الأمطار والسيول للإفادة منها في ري أراضي واسعة، خصبة التربة ولوقاية المزارع والقرى من أخطار السيول الجارفة.

ويبدو أن الحكومات العربية في المنطقة كانت تسهر على إنشاء السدود وتنفق على صيانتها واستثمارها في مجال الريّ وتطوير الزراعة أموالا ضخمة. وتقدم المواد الغذائية كأجور إلى العاملين فيها، حسب الحفريات ومؤلفات القدامى، ولاسيما نص أبرهة الحبشي(٣٩).

وقد أشار القرآن الكريم الى إزدهار الزراعة في اليمن نتيجة لبناء منظومة السدود والأحواض بوصفه مساكن سبأ بأنها: ((جنتان عن يمين وشمال))(٤٠).

وقد ظلت اليمن خلال القرنين السادس والسابع الميلاديين بلدا زراعيا على الرغم من انهيار سد مأرب في القرن السادس الميلادي، واحتلالها من قبل الأحباش والفرس وهجرة بعض القبائل العربية الرئيسة منها إلى شمال شبه الجزيرة مثل: الغساسنة والمناذرة والتنوخيين.

غير أنّ هذه العوامل قد أثرت بالتدريج على الزراعة في اليمن وقد ظهر ذلك واضحا في القرآن الكريم قوله تعالى: ((فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل))(٤١).

ورغم أن أبرهة عامل الحبشة في اليمن حاول تجنيد السكان لإعادة ترميم السدّ وتعميره لبعث الزراعة من جديد. غير أنّ أساليب الزراعة نفسها، قد تأثرت على ما يبدو بسبب الضرر الذي أصابها. إذ أصبح من الضروري على الفلاحين زراعة مساحات واسعة بمحاصيل قادرة على مقاومة الجفاف: كالذرة التي زرعوها الى جانب القمح(٤٢).

ومن اهم المحصولات التي زرعها العرب اليمنيون وغيرهم: الحبوب والسمسم والورس والنخيل والكروم والقطن والخضر وغيرها.

ولكن الفلاحين العرب قد اهتموا أساسا بزرع الحبوب أكثر من غيرها، لأنها تشكل المصدر الأساس في غذائهم. ولكي يحافظ الفلاحون على المنتوج الزراعي مدة أطول جعلوا لذلك مخازن تحفر تحت الأرض سميت «مدفن» مطمور(٤٣).

وكان النخيل يزرع بكثرة في نجران ووادي الجنات ومأرب(٤٤). وكان تمر صنعاء يأتي من مخلاف «مأرب» ونظرا لما للتمر من أهمية غذائية وعلاجية فقد صورت النخلة ونحتت على بعض الصخور في كثير من نصوص المسند(٤٥). بل كانت مقدسة من قبل الفلاحين العرب(٤٦).

وكما اهتم الفلاحون العرب بزروع الحبوب والنخيل، فقد اهتموا كذلك بزراعة الكروم على السفوح المدرجة وفي مخاليف صنعاء ووادي الجنات(٤٧) وفي الأماكن الملائمة التي تتوفر فيها المياه والجو الطيب المناسب.

ومما يدل على هذا الاهتمام بالكروم، هو ذكرها بكثرة في نصوص المسند وحفر صور أغصان العنب وعناقيده على الصخور وإبرازها على ألواح الجبس وحفرها على ألواح للزينة والزخرف(٤٨).

ومن أشهر أنواع العنب اليمني: «العنب الجرشي»(٤٩) و«العنب الكلاعي»(٥٠).

ومن الفواكه التي ذكرها الهمداني(٥١) في بلاد اليمن: الرمان، والتفاح،

والإجاص، والخوخ الحميري، والجوز، واللوز، وغيرها(٣٢).

وخلاصة القول أن العلاقات الاقتصادية والتجارية التي عرفها المجتمع العربي خلال هذه المرحلة التاريخية، كانت تختلف باختلاف المحاصيل الزراعية والأنشطة الممارسة حسب كل منطقة، بل وحسب قوى الأيدي العاملة المستخدمة في فلاحة الأرض وتوزيع منتوجها حسب المواسم والأسواق. ومن أبرز أوجه الاختلاف في هذه العلاقات: الانتاج التي كان يعتمد فيه على العبيد الذين هم مصدر قوة المجتمع في الزراعة والريّ وجني الثمار، بالإضافة إلى الفلاحين الأحرار من أصحاب المزارع أو من العمال الزراعيين الموسميين الذين كانوا يتقاضون أجورا عينية ونقدية مقابل ما يبذلونه من جهد عضلي في خدمة الأرض.

غير أنه يمكن التأكيد على أنّ المنتوجات الفلاحية في مختلف الواحات، كانت مكملة لبعضها البعض أو متساوية مع بعضها البعض، وفي كلا الحالتين فقد كانت تسد حاجات السكان عبر أقاليم شبه الجزيرة العربية في جزئها الشمالي، كما هو الحال في جزئها الجنوبي.

وقد استعمل في تنمية الزراعة وترقيتها السماد الطبيعي من فضلات الحيوانات والانسان والطيور وغيرها بهدف تخصيب الأرض وإعادة القوة النباتية للتربة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد استخدمت عملية تلقيح الأشجار بهدف زيادة الانتاج وتحسين نوعه.

وقد استعمل بعض الأثرياء من التجار قسطا من أموالهم في استصلاح الاراضي الزراعية واستثمارها بواسطة العبيد والموالي وفقراء الفلاحين.

وبالرغم من افتقارنا الى إحصاءات كافية عن مساحة الأراضي الزراعية المستثمرة فعلا وعدد العاملين فيها ونسبة عدد سكان شبه الجزيرة العربية في مرحلة الدراسة، فإنه يمكن القول من خلال تتبع المناطق الزراعية وتوسع أعمال الريّ الاصطناعي وزيادة الإنتاج، وتكوين فائض للتبادل التجاري بين سكان مناطقها، إنّ عدد العاملين في الزراعة قد أخذ في الازدياد مع الحركة البطيئة لاستقرار القبائل، وأن الزراعة أصبحت تشكل موردا هاما في اقتصاد المجتمع العربي في تلك الفترة. ويعمل بها السكان الحضر أو نصف الحضر ويعتمدونها مصدرا أساسيا لكسب معاشهم.

وهكذا كانت الزراعة عاملا رئيسا في ربط الإنسان بالأرض وجعله مستقرا في مواضع معينة، ودفعه إلى تكوين نسيج عمراني متجاور في واحات شبه الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب.

هوامش البحث

١- اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ص.٣١٣؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص.٨٢.
٢- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص.٢٤٢.
٣- بلياييف: العرب والاسلام والخلافة العربية، ص.١١٣.
٤- ابن منظور: لسان العرب، ج٣، ص.٤٠٨.
٥- جواد علي: المرجع السابق، ج٨، ص.٢٤٢.
٦- ابن منظور: المصدر السابق، ج٣، ص.٤٠٨.
٧- نفس المكان
٨- ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٥، ص.٨٢.
٩- أبو العباس أحمد بن يحي بن زيد الشيباني: شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ص.٣٧-٤٠.
١٠- ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص.٢٠.
١١- البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة: ١٩٥٦-١٩٥٧؛ ص.١٨؛ السمهودي: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ج٢، القاهرة ١٣٢٦هـ، ص ص.١٥٢-١٥٣.
١٢- اليعقوبي: المصدر السابق، ص.٣١٣.
١٣- صحيح البخاري: شرح الكرماني، ج٣، ص ص.٦٣-١٣٧؛ السمهودي، المصدر السابق، ج٢، ص.١٥٥؛ العاسي: المصدر السابق؛ الحسيني الكتابي الادريسي: التراتيب، ج١، ص.٤١٠-٤١٣.
١١- أحمد ابراهيم الشريف: مكة والمدينة في صدر الإسلام، ص.٣٥٧.
الدرمك: دقيق الحواري.
١٥- البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، ج١، دار المعارف، القاهرة: ١٩٥٩م، ص.٢٧٨.
١٦- نفس المكان
١٧- المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دي غوبه ليدن: ١٩٠٦، ج٤، ص.٧٩؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص.٧.
١٨- عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب، الجزء الأول، عصر ما قبل الاسلام، الإسكندرية، القاهرة: ١٩٦٧، ص.٨.
١٩- جواد علي: المرجع السابق، ج٨، ص.٢٥٩.
٢٠- مجموعة من المؤلفين: دائرة المعارف الاسلامية، المرجع السابق، ج١٥، ص.٥٥.
٢١- الأزرقي: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص.٤٥١.
٢٢- عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص.٥٢٦.
٢٣- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص.٩.
٢٤- البلاذري: المصدر السابق، ج١، ص.٥٧؛ فتوح البلدان، ص.٥٦.
٢٥- البلاذري: المصدر السابق، ج١، ص.١٣٩.
٢٦- الهمداني: مختصر كتاب البلدان، طبعة ليدن: ١٨٨٥، ص.٢٨؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، ج٥، ص.٣٨٦.
٢٧- البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص.٥٧.

٢٨- المصدر نفسه، ج١، ص. ١٤٩.
٢٩- الواقدي: مغازي رسول الله، المصدر السابق، ص. ٢٢.
٣٠- دائرة المعارف الاسلامية، المرجع السابق، ج١٥، ص. ٥٥.
٣١- حمزة فؤاد: قلب جزيرة العرب، المطبعة المسقية، القاهرة ١٩٣٣، ص. ٩٨.
٣٢- حافظ وهبة: صفة جزيرة العرب، ص. ٥٧.
٣٣- المرجع نفسه، ص. ٥٠-٥١.
٣٤- البخاري: أبو عبد الله محمد بن اسماعيل: صحيح البخاري، شرح الكرماني، ج١٠، القاهرة ١٢٨٦هـ، ص ١٥٢-١٦٣.
٣٥- البخاري: المصدر السابق، ج١٠، ص. ١٥١-١٥٢.؛ ابن منظور: المصدر السابق، مجلد ١٩، ص. ١١٨.
٣٦- المزابنة: هو بيع الرطب في رءوس النخل بالتمر كيلا.
أما المحاقلة فهي بيع الزرع بسنبله بالحنطة.
٣٧- البخاري: المصدر السابق، ج١٠، ص. ١٦٣-١٦٦.
٣٨- الهمداني: المصدر السابق، ص. ٥٦.
٣٩- جواد علي: المرجع السابق، ج٨، ص. ٢٦١-٣٢٨.
٤٠- سورة سبأ، الآية: ١٥.
٤١- سورة سبأ، الآية: ١٦.
٤٢- بلياييف: المرجع السابق، ص. ٩٢.
٤٣- جواد علي: المرجع السابق، ج٨، ص. ٢٥٩.
٤٤- الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٧١-١٠٢.
٤٥- جواد علي: المرجع السابق، ج٨، ص. ٢٥٦.
٤٦- ابن الكلبي: كتاب الاصنام، نشره الأستاذ أحمد زكي، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٢٤، بولاق ١٣٣٠هـ، وصورته الدار القومية سنة ١٩٥٦، ص. ٤٤: ياقوت الحموي: معجم البلدان، المصدر السابق، ج٥، ص. ٢٦٦.
٤٧- الهمداني: المصدر السابق، ص. ٧٩-١٩٦.
٤٨- جواد علي: المرجع السابق، ج٨، ص. ٢٦٣.
٤٩- ينتسب هذا النوع من العنب الى مدينة جرش باليمن، انظر الهمداني: المصدر السابق، ص. ٧٩-١٩٦.
٥٠- ينسب هذا الى مدينة كلاف بشرق اليمن، جواد علي: المرجع السابق، ج٨، ص. ٢٦٣.
٥١- الهمداني: صفة جزيرة العرب، المصدر السابق، ص. ١٠٣-١٠٤.
٥٢- المصدر نفسه، ص. ٧٦-١٩٦.

أ. د. محمود السمدني (*)

القمح المصرى: نعمة أم نقمة

«رؤية فى تاريخ مصر فى عصرى البطالمة والرومان»

تمثلت خصوصية الحضارة المصرية القديمة، كما سجلتها المصادر الوثائقية، من نصوص على هيئة مراسلات رسمية، وسجلات حكومية، ووثائق بردية فى أهم ملمح اقتصادى عريق لآلاف السنين، وهو الثراء بكل مظاهره المتباينة، والتى كانت - وقت ضعف الإدارة العليا فى مصر، الحاكمة باسم الفرعون - هى السبب الرئيسى المباشر لتهديد مصالحها الخارجية بل والجرأة أحيانا فى الهجوم عليها وغزوها، واحتلالها حينا من الدهر، ولما كانت بعض القوى والممالك والملوك، فى الشرق القديم هى الأعلم بإمكانيات هذا الثراء، بفضل قربها الجغرافى واتصالها المباشر السياسى أو التجارى بمصر القديمة، فقد كانت تلك القوى هى الأقرب والأسرع لاستغلال ظروف مصر السياسية السيئة، والأوضاع الإدارية غير المستقرة فعرفنا فترات تواجد للأجانب - على أرض مصر - حين ضعفها - وكان من أشهرها احتلال الهكسوس لها، فى القرن (١٧) ق.م وحتى منتصف القرن (١٦) ق.م.

ولعل من أطرف الرسائل الملكية، القادمة من الخارج إلى فرعون مصر آنذاك، وهو الملك أمنحوتب الرابع (إخناتون)، (فى مطلع القرن ١٤ ق.م) وهى رسالة ملك آشور، الندعو «آشور أو باللبيط»، يقول له فيها[1]:

«إلى أمنحوتب أخى، أقول: أنا آشور أو باللبيط، ملك آشور، وأخوك، أدعو بالخير لك، ولأهلك، وبلادك».

كما كتب ملك بابل القديمة إلى فرعون مصر نفسه إخناتون رسالة تنم عن أخوية العلاقات بينهما وزوال سوء الفهم بينهما بمجرد وصول الرسول المصرى إلى بابل، ولكن - فى الوقت نفسه - يحذر الفرعون من

(*) أستاذ بكلية الآداب - جامعة حلوان

اقوام يحاولون تعكير صفو العلاقات المصرية ـ البابلية، ويطلب منه ألا يؤازر أو يساعد منهم أحدا، أو يتحالف معه ضد مملكة بابل، فيقول صراحة:

«وأنت تعرف لماذا يريد صداقتك، فإن كنت تحبني فلا تعقد معه أية معاهدة، وأطرده بعيدا عنك[٢]».

ولكن أهم اعتراف صريح بمكانة مصر الاقتصادية، بأهم ملمح ومظهر لثرائها القديم، جاء أيضا في القرن (١٤) ق.م، وفي رسالة من ملك ميتاني إلى الفرعون أمنحوتب الرابع إخناتون، يرجوه قائلا:

«يا أخي، أرجوك أن ترسل إليّ هدايا من ذهب، كما كان يفعل ابوك، فإن الذهب في بلدك مثل التراب[٣]».

وهكذا طالب الملوك القدماء، في المشرق والشمال صداقة مصر القديمة في القرن (١٤) ق.م، (وقبل أن تضعف مصر مباشرة وتنكفئ على نفسها، وتنشغل بالفكر الديني الجديد للفرعون إخناتون، وإعلانه التوحيد (Monotheism) للإله آتون، الواحد الأحد - كما جاء حرفيا في نصوص قصائد مديحة له[٤] - وقيام حرب خفية بين كهنة آمون وعبادة آتون في أخت آتون/ في تل العمارنة، بوسط الصعيد بالمنيا)، وذلك لسببين اثنين، لا ثالث لهما، هما:

(١) قوة سلطانها وجيوشها الخارجية، وحتى ذلك الوقت.
(٢) ثرائها اللامحدود وبخاصة في معدن الذهب.

وتمر القرون سراعاً وتدخل مصر دوامات صراعات داخلية بين أمراء الشمال وأمراء الجنوب، فتنتهز الفرصة أسرات مهمشة على آخر حدود وأملاك الهيمنة المصرية، فتعتلي العرش الملكي المصري أسرة ليبية وأخرى نوبية مما أسفر عن دخول الآشوريين في نهاية المطاف واحتلالهم لمصر. وعندئذ يجيء إلى العرش أمير من الدلتا ليقيم الأسرة الـ(٢٦) المصرية، ويبعث نهضة جديدة لإحياء التراث المصري القديم، وهو أبسماتيك الأول حوالي ٦٦٤ ق.م، ولكنه وفقط بمساعدة مرتزقة يونان[٥]، استطاع أن يطرد الآشوريين ويؤسس أسرته الحاكمة الجديدة.

وهنا أيضا جاء المرتزقة اليونان (من إيونيين وكاريين) طمعا في مكافآت الفرعون المصري الذي دعاهم فلبوا النداء، كما يعترف بذلك هيرودوت[٦]، ثم جاء آلاف التجار اليونان ومن كل حدب وصوب فأنشأ لهم الفرعون أقدم مستعمرة (مستوطنة) يونانية خالصة لهم هي نقراش (أو/ناوكراتيس: Naukratis) وفق مسماها اليوناني القديم، في غرب الدلتا[٧].

وتذكر المصادر التاريخية اليونانية أخطر نحول وأقدم خبر حول قيام أشهر مدينتين يونانيتين، هما أثينا واسبرطة بالتنافس الشديد للفوز بالقمح المصري القديم في منتصف القرن (٥) ق.م، حين أرسلت أثينا لمصر، لتحقيق هذا الهدف، حملتين عسكريتين بحريتين لمساعدة الأمراء المصريين في ثوراتهم ضد الفرس المحتلين لمصر[٨]، وكان ذلك في عامي ٤٨٥، ٤٦٥ ق.م.

وبعدها أصبح القمح المصري بالنسبة لليونان سلعة استراتيجية، إبان أزمتها في عامي ٤٤٦، ٤٤٥ ق.م[٩]، وكذلك أرسلت مصر مدونة تموينية من القمح، إلى اسبرطة في عام ٣٩٥ق.م، ولكن القوات البحرية الآثينية استولت عليها[١٠].

ثم يأتي الإسكندر الأكبر إلى مصر، وينزل إليها (من بعد إجهازه على مدن الساحل الفينيقي (صيدا وصور)، وعدم موافقته على عرض الملك الفارسي الذي أتى إليه هناك الذي كان أشبه بالاستسلام التام للإسكندر والاعتراف بسيادته على كل الأراضي والولايات الفارسية غرب الفرات) ويمكث فيها قرابة العام، ويعين عليها تاجرا يونانيا، نائبا عنه فيها هو كليومينيس النقراطيسي، الذي تاجر في قمحها باسم الإسكندر وحقق مكاسب طائلة بلغت من (٣) إلى (٥) أضعاف سعر القمح آنذاك، مما أسعد الإسكندر وأبقاه على ولاية مصر طيلة وجوده على عرش الإمبراطورية المقدونية[١١]. وكان بذلك أول من وضع أساس احتكار تجارة القمح المصري لصالح حاكمها الأجنبي!!!

تلك السياسة التي سار على هديها كل الملوك البطالمة من بعده، وكذلك الرومان بالرغم من اختلاف الأعراق، والأهداف لكل من الإدارتين الأجنبيتين المحتلتين لمصر القديمة.

ولنا هنا وقفة قصيرة، فإذا كان الثراء المصري القديم المتمثل أولا، في الذهب، إبان عصر القوة المصرية الفرعونية وازدهار الحضارة المصرية القديمة، عندما كانت قبلة لكل محتاج ومطمعا لكل طموح طماع من القادة والملوك الأجانب، وبداية انهيار تلك الأسرات المصرية العريقة، الحاكمة لشعبها الطيب، وغروب تلك الصفحة من تاريخ تلك الأمة المجاهدة، ووقوعها فريسة تحت أيدي حكام أجانب، من آشوريين وفرس ثم يونان (تحت قيادة مقدونية) فإن تحول ذلك الملمح الاقتصادي الأول لمصر القديمة من منتج صناعي، هو الذهب لخدمة البيت الفرعوني ومتطلبات الأسرة الحاكمة والطبقة الارستقراطية ورجال الدين ومستلزمات طقوس العبادة والدفن، إلى منتج زراعي أولي هو القمح، يعكس:

(أ) استعجال الحاكم الأجنبي وطمعه الشديد وشمول حرصه على استثمار كل شيء على أرض مصر لمصالحه الآنية والمؤقتة ومصالح أباطرته خارج مصر في عواصم امبراطورياتهم البعيدة.

(ب) ويعكس أيضا حالة اليأس والقنوط من عمال وفلاحى مصر فى جدوى العمل أو الإجادة والإبداع كما كان الأمر فى السابق، خدمة لفراعنة البلاد، الذين كانوا يعلون قيمة العدالة والحق والترفع عن قهر أبنائهم الفلاحين الطيبين.

وهذا بالضبط هو ما لفت نظر الجغرافى المؤرخ اليونانى، سترابون، عندما زار مصر وشاهد بأم عينه حال المجتمع المصرى القديم، فى أوائل سنوات حكم الرومان له، إذا كانت - ولا تزال مثلما كانت مع البطالمة - خيرات مصر لها ولملوكها، أى داخل أرضها، فقال (فى الثلث الأخير من القرن الأول ق.م) مايلى:

"... ولمصر خصوصية واضحة: شعب يكدح فى أرضه، ويعطى لمليكه، وملك يعدل فى حكمه، والكل يعمل فى سلام: ... en eirēnē ergazontai»."(١٢)

ولكن الحال قد تبدل تماما من النقيض إلى النقيض بمجرد دخول مصر فى حظيرة الامبراطورية الرومانية، وقد ضمها الغازى الرومانى أوكتافيوس (Octavius)، فى عام ٣٠ق.م إلى أملاكه الخاصة (his personal domain) بالرغم من كذبه الرسمى فى لوحة انتصاراته الخالدة (Res Gestae Divi Augsti) وقوله بأنه «ضمت مصر إلى أملاك الشعب الرومانى».

=C.27: "Aegyptum imperio populi Romani adieci"

النص اليونانى – فى المقابل لذلك [حيث كان النص مزدوج/ ثنائى اللغة] يقول المعنى ذاته تقريبا: «Aigypton demon Romaion Hegemoniai prosetheka»."(١٣)

ومن أشد المواقف تدليلا على ذلك التحول الخطير، لاقتصاد مصر، وخروج ثرواتها جميعا، (على اختلاف مظاهر تلك الثروة والجاه، من مال وقمح وحتى العلماء والمثقفين الذين بدأوا رحلة الهجرة صوب روما، كان هو حال الامبراطور أوغسطس نفسه (Augustus)، عقب عودته إلى روما فى عام ٢٨ق.م، واحتفاله بانتصاره على غريمه أنطونيوس (Antonius) وكليوباترا (Cleopatra) وضم مصر إلى أملاك الشعب الرومانى، كما إدعى هو كذبا، بل اتخذها لنفسه واحتكر دخلها كله له هو شخصيا، واختص ذاته بتعيين واليها من طبقة الفرسان وليس من أعضاء مجلس الشيوخ الرومان(١٤)، كما حرم على أعضاء السناتوس زيارتها إلا بأمر خاص منه(١٥)، ومن أبرز مظاهر خصوصية مصر القديمة وثرواتها المتنوعة (مابين المال والقمح)، بعض الأخبار التى وردت إلينا فى شهادة أحد أهم مؤرخى الرومان، وهو ديون كاسيوس، من القرن الثانى الميلادى، الذى أشار بيقين إلى مايلى(١٦):

(١) قيام أوغسطس بالاحتفال بغزو مصر لمدة (ثلاثة) أيام كاملة، فى روما مستعرضا أمام الرومان الأسرى والهدايا والأسلاب التى استولى عليها فيها.

(٢) وصف المؤرخ هذه الاحتفالات بأنها كانت الأفخم (Polytelestate)، و«الأعظم» (Axioprepestate) من بين احتفالات أغسطس بانتصاراته وفتوحاته الخارجية.

(٣) كان هو شخصياً مديناً لأصدقائه قبل حملته على مصر، فأصبح بعدها دائنا لهم بفضل ما كسب من أموال عقب غزو مصر.

(٤) كان أوغسطس ينثر العملات الذهبية على أطفال موكب الاحتفال فرحاً بما فعل، وغبر عابئ بحجم الإنفاق على هذه الأيام الثلاثة لإبهار شعب روما بعظمة الانتصار وضم مصر (!!!)

إذن هكذا كانت البداية، على أيدى الرومان، وهى تفريغ الخزائن المصرية البطلمية ونقل ثرواتها إلى روما، فى كل حين وبأى شكل، وكان أوكتافيوس قد بدأ ذلك بنفسه، واستولى على كل كنوز البطالمة التى كانت فى حوزة كليوباترا(١٧).

ويقول ديون كاسيوس، أيضا (فى مكان آخر)، «إن من يستولى على مصر، يستطيع أن يقهر روما بمجاعة(١٨)».

وكان المؤرخ الرومانى الأقرب إلى الأحداث والإدارى الرومانى المسئول وهو تاكيتوس (Tacitus)، قد أكد فى تواريخه على المعنى ذاته، مبررا خطوات أوغسطس الإدارية للاستئثار بمصر فقال: «خشية أن يحتل أحد تلك الولاية، ومفتاحى البر والبحر، ولو بحامية بسيطة ضد جيوش ضخمة، فيصيب إيطاليا بمجاعة(١٩)».

وهو الخطر المتوقع فعلا، وقد حدث فيما بعد، حينما طمع أحد حكام وولاة الرومان على مصر، ويدعى دوميتيوس دوميتيانوس، أواخر القرن الثالث الميلادى حينما أعلن نفسه ملكا على مصر، مما أجبر الإمبراطور دقليديانوس (Diocletianus)، على الحضور إلى مصر على رأس جيش قوى فحاصر الإسكندرية وقبض عليه وقتله!!! وهكذا كانت حسابات أوغسطس صحيحة، وصدقت مخاوفه وكذلك صدقت روايات المؤرخين اللاحقين الذين سبق ذكرهم، كان كل ذلك بسبب القمح المصرى، آنذاك بعد أن نفدت خزائن أموالها وذهبها على أيدى الرومان.

وهكذا أيضا انقلب القمح المصرى القديم، بعد أن كان نعمة على بلده وشعبه ومليكه الفرعون، أو حتى الملك البطلمى، أصبح نقمة على كل أفراد ذاك الشعب الطيب المسكين، القانع بقوت يومه، المجبر، (بحد السيف والسجن والغرامات، فضلا عن الإذلال والإهانة له ولكل أفراد أسرته وقريته بالإنابة) على أن يعمل وألا يكل أو يمل لصالح الرومان، بل ولم يكن من حقه أيضا، أن يجأر بالشكوى!!! حتى

وصل الأمر إلى أن يشفق الامبراطور الروماني نفسه، على حال الفلاحين المصريين من قسوة ولاته الرومان وجباة ضرائبه. فأرسل سبتميوس سيفيروس (Severus) في مطلع القرن (الثالث) الميلادي إلى الوالي الروماني - بعد أن أرسل إليه في روما الجزية السنوية (Annona) حوالي (ثلاثة) أضعاف قيمتها المعهودة، فرد عليه الإمبراطور محذراً ومنبهاً إلى سياسة أخرى واجبة التنفيذ على مراحل وليس دفعة واحدة، وقال له: «لقد أرسلتك لتجز الشاة، لا أن تذبحها»[٢٠].

وهنا أود أن أتوقف قليلا عند حال الفلاح المصري، تحت حكم الرومان، وبيان حجم المعاناة، الذي ظهر جليا في نصوص بردية، عبارة عن شكاوى والتماسات إلى الموظفين المسئولين في المراكز وعواصم الأقاليم، وبخاصة في الفيوم (الإقليم الأرسينويتي)، (Arsinoite Nomes)، كما كان يسميه البطالمة، فضلا عن مدينة البهنسا (أو/ أوكسيرينخوس: Oxyrynchus)، ومن بعض كلمات تلك البرديات، نقرأ مايلي، مثلا:

(أ) «إلى..... أرجوك أن تأمرهم أن يدفعوا لي راتبي، لأني أكاد أتضور جوعا»!!.

(ب) «إلى..... أتوسل إليك أن تدفعوا لي أجور سفني (لنقل القمح)، لأدفعها لهم (إلى الملاك) وإلا قتلوني».

ونظرا للحاجة الماسة إلى كميات ضخمة من الغلال لابدأن تصل إلى المخازن الحكومية في الإسكندرية، فقد انتشرت مجموعة من المظاهر الاجتماعية التي هددت سلامة وأمن واستقرار حالة المجتمع المصري الريفي القديم، ومنها:

(١) انتشرت السرقات في القرى من أجران القمح، وشونة القرية أو المركز. وكان على رئيس شرطة القرية التحقيق والقبض على الجناة.

فيما هو إلتماس من كاهن في إحدى قرى الفيوم، يؤرخ بعام ٢١٦م، يؤكد على سؤال سكان القرية عن القمح المسروق، وأنهم تعهدوا بأن يسلموا رئيس الشرطة (سبعة) أرادب من القمح المسروق من مخزنه (٢١)، كما أكدت برديات البهنسا الشيء نفسه (٢٢).

(٢) انتشار وذيوع ظاهرة الهروب من العمل واللجوء إلى الجبال، وترك القرى والإختباء في أماكن بعيدة. وهو ماعرف - في تاريخ مصر تحت حكم الرومان باسم أناخوريسيس (٢٣) (Anachôresis).

(٣) بناء سفن ضخمة (٢٤)، بأنواع وأحجام مختلفة لنقل شحنات القمح المصري الكبيرة وغيرها إلى روما، من الإسكندرية. وقد أشار لوكيانوس (الأديب

الروماني ٨٠ - ١١٥م) إلى أن إحدي هذه السفن كانت أطوالها: ١٢٠ ذراعاً طولا، و٣٠ ذراعاً عرضاً، و٢٩ ذراعاً ارتفاعاً وتصل حمولتها ما بين ١٢٠٠ و١٣٠٠ طن.

(٤) إقرار عقوبة الموت على تصدير القمح من مصر الوسطى سواء صوب الجنوب أو الشمال، غير الإسكندرية (٢٥).

(٥) تقييد عقود الإيجار لوسائل النقل البرى والنهرى، بشروط كثيرة لضمان نقل شحنات القمح سليمة وفي موعدها(٢٦).

أما الطامة الكبرى، التي وقعت على رؤوس الفلاحين المصريين المساكين، فكانت هي تمييز العناصر الأجنبية، غالبا، (اليونانية روما ثم الرومانية من بعدها)، بامتياز طبقي فوقي أو/ إن شئت فقل، عنصري، وهو حصولهم على منح القمح سنويا، المعروفة باسم (to siteresion) وهو الإمتياز الثالث الذي تمتعت به طبقة علية القوم الأجانب في عواصم الأقاليم اليونانية داخل محافظات مصر القديمة، منذ النصف الثاني من القرن (الثالث) الميلادي من زمن الاحتلال الروماني لمصر على أرجح تقدير، أو لعلها تكون قد بدأت مع بداية الاحتلال الروماني لمصر كما تعتقد الزميلة الدكتورة فادية أبو بكر(٢٧). والحق أن البداية الحقيقية لهذه العنصرية السكانية والتميز الطبقي كانت منذ زمن الملوك البطالمة الأوائل الذين صرحوا لليونان أن يعيشوا ويملكوا ويتاجروا، بل ويزرعوا، ومن ثم يمارسون ماشاء لهم من أعمال داخل الريف المصري.

ويعترف رستوفتزف بالوضع المتميز لسكان العواصم (Metropolitai)، في العصر الروماني حيث:

(أ) زيدت مساحات مدنهم.
(ب) وكثرت مدارس التربية البدنية والعقلية لهم (الجمناسيا: Gymnasia).
(ج) وأقيمت لهم الحمامات (Oi Loutroi).
(د) وزخرفت الشوارع ورصفت بالأحجار.
(هـ) وبنيت منازلهم من الأحجار (ek Lithon).
(و) وأقيمت الاحتفالات لهم في كل المناسبات الخاصة بهم.

والأكثر خطورة على الفلاح المصري المسكين، هو تنامي ثروات وأملاك أولئك الأجانب اليونان غالبا فغدت هناك في كل إقليم طبقة ممتازة منهم كما يسميهم أستاذنا الكبير مصطفى العبادي(٢٩)، كما اختلطت الدماء المصرية واليونانية في زواج مختلط بين العنصرين فأصبحت هناك طبقة ارستقراطية مصرية ولكنها متأغرقة(٣٠).

وتؤكد الزميلة فادية أبو بكر أن هناك (٤٨) وثيقة بردية تشير إلى تلك المنح الامبراطورية المقدسة (to ieron siteresion). وتعطيهم الحق، مثل باقى أعضاء الجمناسيون، والمائتى عضو فى مجلس شيوخ العديدة (oi apo gerou sias)، فى ضريبة مخفضة حوالى (١٢) دراخمة فقط كضريبة للرأس عند التعداد العام، كل أربعة عشر عاما. كما وصل عدد المستفيدين من هذه المنح العينية حوالى ٤٠٠٠ (أربعة آلاف رجل) جاءوا كالتالى:

(أ) ٣٠٠٠ شخص ممن قاموا بعمل الفحص للسكان (epikritai).

(ب) ٩٠٠ شخص ممن أدوا للمدينة خدمات عامة طواعية ودون مقابل، وهم المعروفون فى النصوص البردية باسم (Rembai)، ومعهم الرومان وأهل الإسكندرية.

(ج) ١٠٠ شخص من الشباب غير الشرعيين المستبعدين من الفحص، والذين يسمون باسم أمهاتهم، والمشار إليهم باسم «النظراء» (Omologoi).

كل هؤلاء المتميزين بذاك العدد الكبير فى عاصمة إقليمية واحدة، يعكس كمية القمح المطلوبة من القرى المجاورة لسد احتياجات أولئك الشهرية بموجب أردب واحد لكل رجل كتموين شهرى يضمن لهم الكفاية وعدم السؤال!! وضمان حياة كريمة وسط ملايين المصريين المكافحين فى أرضهم أو الأراضى الملكية/الإمبراطورية، وعليهم أعباء والتزامات وضرائب رهيبة أنقت كاهلهم. فتحايلوا على الهرب منها وعدم دفعها!!.

وارتدت العنصرية الطبقية لهذه الفئات وخاصة القائمين على الفحص والمراقبة، عباءات مميزة لها فعرفوا باسم أصحاب العباءات(٣٢) (Khlamydophoreis)، مما زاد إحساس الأهالى المصريين بالدونية وظلام المستقبل، ومن ثم لم يتركوا فرصة للثورة أو للمظاهرات أو حتى السرقة إلا وقاموا بها. وذلك منذ أيام البطالمة وخاصة بعد معركة رفح، فى عام ٢١٧ق.م... يالله من صبر على البلاء؟! لقد كان المصريون جميعا بحق هم أيابيب (جمع أيوب) وقد ضربوا المثل فى الاستكانة وقوة الإيمان، والاحتساب عند ربهم العادل. وقد صور ذلك تارن بصراحة وموضوعية شديدة غير معهودة فيه. أوضاع أولئك المساكين أكثر مرة(٣٣). فى ظل إدارة بطلمية فاسدة. أدى إلى فقر عامة الناس وأصابتهم باللامبالاة. أما تزايد ثروات الأجانب أمام أعينهم واستمتاع الغريب بها وحرمانهم هم أنفسهم من وسائل العيش على الكفاف، فقال:

I ...many of the common people under the rule of corrupt, greedy and lawless officials became sunk in poverty and apathy)(٣٤).

وإذا كان «صوت الناس يفنى، فإن صوت الكاتب يعيش أبد الدهر» – كما قال حكيم مصر الأول والأشهر بتاح حوتب – فإن البردية الأتية تعكس أحوال المصريين الكادحين أمام التميز الطبقى، منذ زمن البطالمة وردود أفعالهم القوية، التى لم يكن يملكون غيرها حيث تقول:

«... وهكذا، فإنك إذا أرسلت رواتبنا، ومؤنتنا فسيكون ذلك طيبا، وأما إذا لم تفعل فإننا سنهرب لأننا لم نعد نتحمل المزيد...»(٣٥).

وكذلك صدق صلاح جاهين، الشاعر الخالد يرحمه الله، ابن مصر الطيبة، حينما قال:

«القمح مش زى الدهب» القمح زى الفلاحين، عيدان نحيله، جدرها بياكل فى الطين زى سماعين ومحمدين. وحسين: أبو عريضة اللى قاسى وانضرب علشان طلب حفنة سنابل، ريها كان بالعرق... عرق الجبين. القمح، زى حسين، يعيش ياكل فى طين، أما اللى فى القصر الكبير، يلبس حرير، والسنبلة يبعت رجاله يحصدوها من على عود الفقير، وعجبى!!

هى دى كانت بلادى... بلد الأمان، والحب والدين، من زمن إيزيس وأزوريس وآمون... بلد البيت، والغيط، والفاس، والطين... بلد الصبر والإيمان. وكل قطين... ما كنا كفرة، يوما، ولا كنا عاجزين... وطال طمع الغريب فينا، بدون ذنب لينا... وكان ربك معانا، طول مافيه يقين فاللهم أغفر لنا وارحمنا كلنا، آمين... آمين.

الهوامش

(١) هى إحدى رسائل تل العمارنة، بمحافظة المنيا، المكتوبة بالخط المسمارى قام عليها وترجمها ضمن رسائل أخرى، الدكتور أحمد فخرى - يرحمه الله، فى كتابه «دراسات فى تاريخ الشرق القديم»، القاهرة، ط٢، ١٩٨٤، ص٨١ .

(٢) محمود إبراهيم السعدنى، تاريخ الحضارة المصرية القديمة، (رؤية حضارية وموضوعات مختارة)، الأنجلو المصرية القاهرة ٢٠٠٥، ص١٥٩ .

(٣) أحمد فخرى، المرجع السابق.

(٤) سليم حسن، الأدب المصرى القديم، الجزء الثانى (كتاب اليوم)، ١٩٩٠، ص١١٥ .

(٥) محمود إبراهيم السعدنى، «العلاقات المصرية - اليونانية القديمة»، ندوة «مصر وعالم البحر المتوسط»، قسم التاريخ بآداب القاهرة ١٩٨٦، تحرير أ.د.رؤوف عباس، الناشر «دار الفكر»، القاهرة ١٩٨٨ .

(٦) الكتاب الثانى، ص١٠٤ .

(٧) هى قرية كوم جعيف الحالية، فى محافظة البحيرة، بالقرب من دمنهور.

(٨) محمود إبراهيم السعدنى، تاريخ وحضارة مصر فى العصر البطلمى، القاهرة ٢٠٠٥، ص ٥٧-٥٨ .

(٩) المرجع نفسه، ص٥٨ فضلا عن المصدر التاريخى اليونانى القديم وهو: Plutarchus, Parallel Lives. Pericles, 37.

(10) Diodorus Siculus, 14:79&

ومن قبله المؤرخ العسكرى الأمين، شاهد العيان والمحلل الموضوعى، توكيديدس المصدر الأوحد لحروب أثينا وأسبرطة «الحروب البيلوبونيزية»، Thoukydides, IV: 53, VIII:35 وجدير بالذكر أن نصوص تلك الحروب هى موضوع رسالة ماجستير الآن قيد البحث وعلى وشك الانتهاء، للباحثة أمال أحمد محمود بكلية آداب حلوان وتحت إشرافى.

(١١) محمود السعدنى، تاريخ وحضارة مصر فى العصر البطلمى، ص٧٤-٧٦ .

(١٢) وهى ترجمة لنا عن الأصل اليونانى القديم عن طبعة Loeb C.L. لنص جغرافيا استرابون (Strabo, Geographia, XVII) والتى ترجمها إلى العربية لأول مرة المرحوم وهيب كامل فى الخمسينات من القرن العشرين.

(١٣) محمد حمدى إبراهيم، علم النقوش، الأنجلو المصرية القاهرة ٢٠٠٤، ص٦٤-٦٥ .

(١٤) محمود السعدنى، تاريخ مصر فى عصر البطالمة والرومان الأنجلو المصرية، القاهرة ٢٠٠٠، ص ١٥١-١٦٠ .

(١٥) المرجع نفسه.

(١٦) المرجع نفسه.

(١٧) المرجع نفسه.

(١٨) محمود السعدنى، تاريخ الحضارة المصرية القديمة، القاهرة ٢٠٠٥، ص١٤ .

(١٩) Historiae, I: 12 .

(٢٠) سيد الناصرى، تاريخ الإمبراطورية الرومانية، نهضة مصر القاهرة.

(٢١) BGU, I:322, Davies, R.W, "The investigation of crime in Roman Egypt," Ancient society, vol. 10 (1973), P. 202,

وكذلك راجع: حسين رزق، الشرطة والقراسات فى مصر فى العصرين البطلمى والرومانى، (رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية الآداب جامعة حلوان، ٢٠٠٥م، ص١٥٢-١٥٣ .

(٢٢) وتؤرخ بعام ٢٤١م، (P.Oxy. I,62) حول اختلاس شحنة قمح وأمر بالتحقيق فيها.

(٢٣) أبو اليسر فرج، الدولة والفرد فى مصر (ظاهرة هروب الفلاحين فى مصر فى عصر الرومان)، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ٢٠٠٠ .

(٢٤) عبداللطيف فايز على، النقل والمواصلات فى مصر فى العصر اليونانى - الرومانى، (دراسة وثائقية من خلال الأوراق البردية)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب بجامعة حلوان، القاهرة ٢٠٠٦، ص٢٢٩، وكذلك راجع المقالة المتخصصة لصاحبها،

Casson, L, "The size of the Ancient Merchant", SOACRP, 1956, Milano, p.232,

(٢٥) عبداللطيف فايز على، المرجع السابق، ص٢٧٦ .

(٢٦) المرجع نفسه، ص٣٢٤-٣٣٣ .

(٢٧) المتروبوليون فى أوكسيرينخوس، (دراسة فى النظم الاجتماعية والاقتصادية والإدارية فى مصر الرومانية)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب جامعة الإسكندرية، ١٩٨٤، ص٣٤-٤٣.

(٢٨) Rostovtzeff, Social and Economic History in Roman Egypt, p297,

(٢٩) مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٩٢، ص٢١٢ .

(٣٠) Jones, A.H.M, The Cities of the Eastern Roman Provinces (2nd ed) Cambridge 1969, p.309.

(٣١) المرجع السابق، ص٣٤، وجميعها من أوكسيرينخوس (P.Oxy. XLI: 2892-2940).

(٣٢) P.Oxy. XL: 2895, col. II, 6 .

(٣٣) Hellenistic Civilization, pp. 197-18, 208-209,

(٣٤) Ibid, p.209 .

(٣٥) محمود السعدنى، تاريخ وحضارة مصر فى العصر البطلمى، الأنجلو المصرية، القاهرة ٢٠٠٥-٢٠٠٦، ص١٥٥-١٥٨ (المرحلة الرابعة: استنزاف المحتل).

أ.د/ عبدالمنعم عبدالحليم سيد (*)

دراسة مقارنة لأوجه التشابه والاختلاف في طرق الزراعة والرى في كل من مصر الفرعونية وجنوب الجزيرة العربية قبل الإسلام

أولا : أثر البيئة الطبيعية فى كل من مصر وجنوب الجزيرة العربية فى هذا التشابه والاختلاف

لقد ادى وجود نهر فيضي دائم الجريان في مصر إلى قيام زراعة منتظمة على مياه نهر النيل الذي يأتي محملا بالطمي الخصب الذي يزيد من خصوبة الأرض الزراعية المصرية . بينما اختلفت طبيعة جنوب الجزيرة العربية التي تفتقر إلى وجود نهر دائم الجريان واعتمادها على الأمطار التي تجلبها إلى أراضيها الرياح الموسمية خاصة في فصل الصيف مما أدى إلى قيام زراعة موسمية تعتمد على مياه المطر التي تجري في الوديان نزولاً من مرتفعات اليمن على هيئة سيول مؤقتة لاتلبث أن تغيض في الصحراء .

ثانيا :إعداد الأرض للزراعة (الحرث)

لعل أساليب الحراثة تكاد تكون واحدة فى المنطقتين ، حيث نرى في مصر أن الفلاح كان يقوم بحرث أرضه باستخدام فأس خشبي قصير أو بواسطة المحراث ولقد صور الفأس على آثار الأسرة الأولى كما تظهر صورته في المناسبة المعروفة التي يقبض الملك فيها على فأس ليقلب الأرض وذلك في جميع العصور حتى العصر المتأخر وفى العصور التالية انتشر المحراث الذى تجره الثيران .

(*) أستاذ التاريخ القديم والآثار غير المتفرغ – قسم التاريخ والآثار – كلية الآداب – جامعة الاسكندرية

أما في جنوب شبه الجزيرة العربية فنرى أنه كان هناك نوعان من أساليب الحراثة هما :-

١- بدائية: وهي باستعمال الحجارة أو الأخشاب أو الفؤوس على اختلاف أنواعها

٢ -متقدمة: وهذا الأسلوب يعتمد على آلات الحراثة التي تجرها الحيوانات وتستعمل هذه الطريقة في حراثة المزارع الكبيرة .

ومن آلات الحرث عند أهل اليمن (في عصور الجاهلية قبل ظهور الاسلام مباشرة) :المسحال : المعول - المخدة - المعزق. ومن الحيوانات المستخدمة في الحراثة الثيران والحمير والخيل والجمال حيث وصلت إلينا بعض النصوص تشير إلي حيوانات تحرث وتجر المحراث ويسوقها الفلاح وهذا مثلما كان يحدث في مصر الفرعونية حيث خصص لكل محراث رجلان احدهما يضغط على مقبض المحراث ويتولى الثاني قيادة الثيران وحثها على السير بعصا .

ثالثا عمليات البذر وري الأرض

١- عملية البذر: في مصر الفرعونية يظهر كاتب الحبوب واقفاً أمام الأكوام المخصصة للتقاوي يلاحظ بدقة الفلاحين الذين يقومون بعملية البذر.

٢- دفن الحبوب في ثنايا الأرض: حيث كانت تتم بواسطة الخراف التي تسير فوق الحقل .

أما في جنوب شبه الجزيرة العربية : فكان الفلاح ينثر الحب مستعملا في ذلك بعض الآلات مثل المعلقة (خشبة تجرها الثيران) والمجنب (تشبه المشط) .

وكذلك كان الفلاحون يقومون بوضع البذور في حفر ثم تدفن بأن يوضع فوقها قليل من التراب لمنع الطيور من التهامها وللمحافظة عليها من اطاحة الرياح بها .

رابعا:- عملية الري :

في مصر الفرعونية كان الفلاحون المصريون يستخدمون طريقة تشبه ري الحياض التي كانت تستخدم في مصر حتى قبل بناء خزان أسوان، كما استخدم المصريون لرفع المياه الى أعلى أداة مثل الجرة الكبيرة أو آلة مثل الشادوف وقد عرف المصريون انشاء السدود مثل سد اللاهون الذى اندثر تماما .

وفى جنوب الجزيرة العربية وخاصة في اليمن : فالأمر مختلف حيث كان مصدر الماء الأساسي ليس نهرا دائم الجريان مثل مصر وانما الأمطار الموسمية التي تهطل على شكل سيول تروي المدرجات الجبلية المزروعة وأيضاً كان هناك العيون والآبار، والتي كانت من مصادر المياه الهامة، وقد برع العرب في سبل تخزين المياه والحفاظ

عليها إلى أقصى درجة ممكنة حيث قاموا بحفر صهاريج وانشاء الأحواض الواسعة العميقة، وأيضاً نقر صهاريج في الصخور وأيضاً عمل التلاع وهي عبارة عن أودية تجري فيها المياه من أعلى المرتفعات حتى بطون الأرض وأيضاً المسايل التي ساعدت في عدم انزال الماء في القنوات الفرعية إلا بقدر، وبذلك فلا تهدر ولا يضيع الماء عبثاً ، ثم الأحباس وهي عبارة عن خشبة أو حجارة تثبت في مجرى الماء لتحبسها . والى جانب هذه الطرق البدائية . تميز اليمنيون القدماء بابتكار وسائل الحفاظ على المياه ورفعها الى مستوى الأراضى الزراعية ببناء السدود. وأضخمها سد مأرب المشهور، الذى مازالت جدرانه الجانبية وبواباته باقية حتى اليوم، على العكس من سد اللاهون فى مصر الذى كان قائما عند مدخل بحيرة قارون ولم يتبق منه شيء ولكن عرفنا المعلومات عنه من روايات الكتاب الكلاسيكيين .

ومن أدوات الري لديهم أيضا ما يشبه الشادوف بنفس فكرته المصرية، والساقية وان كانت اختراع رومانى، وكانت لهم قوانين لتنظيم الري وتوزيع المياه بينهم لتجنب حدوث الخصومات والمنازعات على المياه .

خامسا: الحصاد وتخزين المحصول

فى مصر الفرعونية كان المصريون يستخدمون منجلا قصيرا يتكون من قطعة خشبية مصقولة ومقوسة تثبت في جانبها المعد للقطع شظايا من الصوان رفيعة ثم يربطون السنابل فى حزم وينقلونها للجرن حيث تبسط السنابل على أرضيته وتساق فوقها الحمير أو الثيران لدرسها .

وبعد ذلك تبدأ عملية التذرية وتقوم بها النساء باستخدام لوحات مقوسة من الخشب يدفعن بها الحبوب إلى أعلى فتحمل الرياح التبن بعيداً عن الحبوب، ثم تحمل الحبوب لتخزينها في صوامع على شكل مخروطي وهي تشبه الشونة حالياً

وبالنسبة للحصاد في جنوب الجزيرة العربية : يحصد القمح والشعير بالمنجل وبعد الحصاد يقومون بالتذرية بالمقلة وهي تشبه آلة التذرية المصرية . وكان الفلاحون يدرسون المحصول بأداة تسمى الدياسة، ثم ينقل المحصول لتخزينه في مخازن تحت الأرض

سادسا: المحاصيل الزراعية :

(أ) المحاصيل الحقلية وأهمها :

أ - الحبوب وأهمها القمح وكانت زراعته شائعة فى مصر الفرعونية وقليلة فى الجزيرة العربية، ثم الشعير وكان منتشرا فى كل من مصر الفرعونية والجزيرة العربية .

ب - البقول مثل الفول والعدس والحمص والترمس واللوبياوقد اشتهرت مصر الفرعونية بزراعة البقول منذ عصر ما قبل الأسرات، وقد اهتم العرب فى جنوب الجزيرة العربية بزراعتها .

ج - الأعلاف : مثل البرسيم وقد وجد في مصر الفرعونية في أواخرعصر الدولة الحديثة

(٢) المحاصيل البستانية :

أ- الفاكهة : وتشتمل على نخيل البلح - التين - العنب - الرمان - نخيل الدوم - الزيتون - الخوخ - التفاح - الجوز - اللوز .

ب- الخضر : ومنها :البصل - الثوم - الخس - الخيار - السلق - البطيخ - القرع.

وهذه النباتات والمحاصيل المذكورة كانت مشتركة في كل من مصر وجنوب الجزيرة العربية ولكن الى جانب ذلك ، هناك العديد من المحاصيل التي تنفرد بها كل منطقة على حدة .

سابعا: نظم المعاملات الزراعية :

كان الفلاح فى كل من مصر الفرعونية وجنوب الجزيرة يتمتع بالأهلية فى معاملاته الزراعية من حرية فى التعاقد والبيع والشراء ولم يعرف فى هاتين المنطقتين نظام رقيق الأرض الذى ساد فى أوروبا فى العصور الوسطى والدليل على ذلك :

١- كان أحد شهود عقد بيع في عصر خوفو هو أحد العمال الزراعيين مما يدل على أهلية الفلاح للتعامل

٢- يوجد نص في مقبرة من عصر منكاورع يأمر فيه الملك بأن لا يسخر واحد من العمال بل يعمل على الوجه الذي يرضيه .

٣ - في عصر الأسرة السادسة وجدت أدلة على إحصاء الحقول والمواشي وجميع الالتزامات المستحقة للشخص ولم يذكر أي رقيق .

٤ - تحديد ساعات عمل الفلاح أثناء النهار فهو ليس مملوكا لصاحب الأرض بل يتعاقد معه والدليل على ذلك ما ورد في مرسوم معبد الإله مين للملك بيبى الأول .

٥ - إن الفلاح المصري كان يستأجر الأرض ويدفع لصاحبها جزءاً من المحصول بناء على عقد بينهما مما يدل على أنه كان حراً بدليل مرسوم دهشور من عهد سيتي الأول الذي ينص على أن يدفع المزارعون الأنصبة المستحقة للجهات التي تعاقدوا معها .

٦ - وهناك لوحة وجدت في منشية الصدر للملك رمسيس الثاني يقول فيها: "أنه وفر الطعام والكساء والعطر لعماله لكي يعملوا "بقلب فرح" كما جاء في النص أي برغبتهم وليس بالسخرة .

وفي جنوب الجزيرة العربية :

عرف العرب أنواعا مختلفة من المعاملات الزراعية وتقسيم محصولها أي لم يكن الفلاح العربي عبداً أو رقيقاً ومن هذه المعاملات (في عصور الجاهلية السابقة للاسلام مباشرة) :-

١- نظام المحاقلة : وهو استئجار الأراضى الزراعية مقابل كمية متفق عليها من الحنطة أو الذهب أو أي شيئ آخر .

٢- نظام المزارعة : وهو استئجار الأرض مقابل نسبة معلومة من ثمار المحصول المزروع على أن تكون البذور من مالك الأرض .

٣- القصارة: وهو الاتفاق على ما يتبقى من السنابل ومن الحب الخاص بالقمح والشعير ويكون هناك اتفاق يجعل هذه القصارة من نصيب الذاري أحياناً أو من نصيب صاحب الزرع .

٤- نظام المساقاة : وهو اتفاق بين الطرفين على قيام احدهما بتوصيل الماء وري الأرض للأخر في مقابل أن يقدم الطرف المستفيد من الماء جزءاً من المحصول أو أي شيئ آخر يتفق عليه .

وكانت هناك أيضاً الجمعيات الزراعية التعاونية في بلاد اليمن حيث كان هناك مجلس لكل جمعية يتألف من ثماني أفراد يقومون على إدارة شئون القطاع الزراعي الذي تشرف عليه الجمعية وأيضاً دفع الضريبة المستحقة وتلك الضرائب نوعان :

١- إلزامي : وهو ما تفرضه الحكومة أو المعبد على المواطنين .

٢- طواعية. يدفعها الأهالي للآلهة على هيئة قرابين ونذور تقرباً للآلهة.

ثامنا: أسماء العمليات الزراعية الرئيسية فى كل من النصوص الهيروغليفية ونصوص المسند

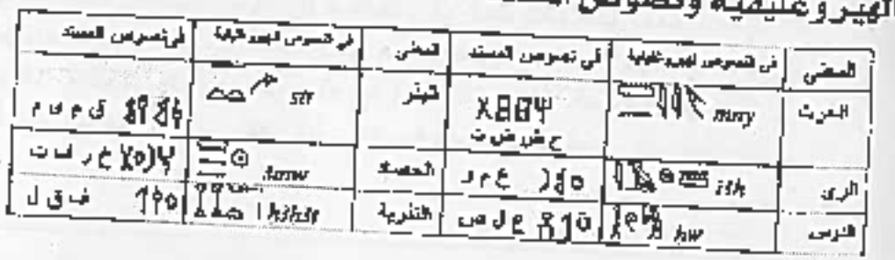

المـــراجـــع

المراجع العربية والمعربة :-

- ارمان، أدولف، مصر والحياة المصرية في العصور القديمة، ترجمة ومراجعة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال، القاهرة ١٩٥٠م.
- بستون، الفريد وآخرون، القاموس السبئي، صنعاء، ١٩٨٠م.
- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء السابع، بغداد، ١٩٦٩
- شفيق شحاته، تاريخ القانون الخاص في مصر، القاهرة، ١٩٥٣م.
- مونتييه، بيير، الحياة اليومية في مصر في عصر الرعامسة، ترجمة عزيز مرقص منصور، مراجعة عبد الحميد الدواخلي، القاهرة، ١٩٦٥
- وليم نظير، الثروة النباتية عند قدماء المصريين، القاهرة ١٩٦٨م.

المراجع الأجنبية :-

-Budge, E. A.Wallis, An Egyptian Hieroglyphic Dictionary, vol 1 ,2, New York, 1978.

-Corpus Inscriptionum, Himyariticnrum, Paris, 1900.

Faulkner, R.O.,A concise dictionary of Middle Egyptian, Oxford, 1972.

-Helck, W, &Otto, E., Lexicon der Aegyptologie, 7vols, 1975 - 80,. Wiesbaden, 1980 - 1986

-Jamme, A, South Arabian Inscriptions, Washington, 1960

-Lisko, Leonard, A dictionary of Late Egyptian, 4 vols, California, 1982.

-Mordtmann, M., Sabaische Inschriften, Berlin,1910.

-Redfort, D.B.j, (ED.) the Oxford Encyclopedia of Ancient Egypt, 3vols, Cairo, 2001.

Rhodokankis, Lexigraphishe Studien, Berlin, 1925.

Ryckmans, G.,Repertoire D'Epigraphie Semetique, Vols 5-8,Paris 1930

أ.د. محبوب غالب أحمد (*)

الصلات التجارية بين جنوب شبه الجزيرة العربية ومناطق الهلال الخصيب ومصر خلال الألف الأول قبل الميلاد

إن الموضوع الذي اخترته، هنا، شديد الاتساع-نسبياً- في الزمان، وأن مادة هذا البحث، هي: جنوب شبه الجزيرة العربية وعلاقاتها التجارية مع بعض بلدان الوطن العربي، خلال الحقبة الزمنية المذكورة سابقاً. غير أنه من الضروري الإشارة إلى مناطق: شمال شرق أفريقيا، وفارس(بسبب سعة رقعة المساحة التي حكمتها الإمبراطورية الفارسية في النصف الثاني من الألف الأول ق.م.) ومناطق حوض البحر المتوسط، لارتباطها أيضاً بالتجارة مع بعضها البعض. أي أنه لا مندوحة من أن نشير إلى تلك المنطقة على سعتها باعتبار أن جنوب شبه الجزيرة العربية لم تكن فقط منتجة لسلعة البخور ولكنها كانت وسيط تجاري، بين شبه القارة الهندية وشمال شرق أفريقيا وبين مناطق حوض البحر المتوسط. فقد أقامت شبكة واسعة من المستوطنات، سواءً داخل شبه الجزيرة العربية ذاتها، أو خارجها. فضلاً عن ذلك امتدت تجارة العرب الجنوبيين القدماء إلى مناطق حوض بحر ابجه، أي إلى بلدان العالم الإغريقي-الروماني.

ظهرت المناطق الحضارية في جنوب شبه الجزيرة العربية مع نهاية النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد(خريطة رقم واحد). وقد اكتسبت صفات: منها مناطقية خاصة بها ومنها حملتها معها من تلك المناطق التي كانت ترتبط معها بعلاقات تجارية وثقافية أو حدثت هجرات متبادلة في ما بينهما. وتشهد عدة حقائق على أنه خلال حقبة زمنية طويلة حافظت الدول اليمنية القديمة أثناء علاقاتها مع تلك المناطق في العالم القديم على خصائص كل منطقة على حدة. على أن بعض الآراء تشير إلى أن

(*) عميد كلية الآداب- جامعة ذمار- اليمن

مؤسسي الحضارة اليمنية القديمة قد وصلوا من هناك. مثال ذلك حضرموت، التي تأثرت فيها الحضارة بخصائص حضارة جنوب بلاد الرافدين (١).

عند بداية الألف الأول قبل الميلاد، حدث تطور واضح في تقنية الري، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع إنتاج المحاصيل الزراعية، ومن ثم تحولت تلك المحاصيل إلى سلع تجارية. ومن المهم أن نعرف الدور المهم الذي لعبته تقنية زراعة الأشجار، التي تعطي محصول الطيوب. لقد اشتهرت سلعة اللادان والمر والكندر والطيوب الأخرى، وأصبحت تجد لها إقبالا شديداً في كل بلاد الشرق الأدنى وحوض البحر المتوسط. كانت تستخدم تلك الطيوب في المعابد أثناء تأدية الطقوس الدينية. وفي تحنيط الموتى، ودخلت في تحضير العقاقير الطبية وبذلك كانت قيمتها مرتفعة جداً.

سبأ على طريق العلاقات التجارية الدولية

شكل إنتاج الطيب مصدراً مهماً لثروة الدولة اليمنية القديمة، لا بل تشير بعض المصادر الكلاسيكية إلى أنها شكلت مصدر دخل خرافي لها. عندها خلع البعض عليها تسمية «العربية السعيدة». إن تصدير الطيوب قد ساعد على زيادة التبادل التجاري وتوسيع العلاقات الثقافية. وأن السبأيين في تلك الحقبة الزمنية كانوا أسياد تجارة ضخمة نقلتها قوافل وصل عدد القافلة الواحدة منها إلى ما يزيد على ثلاثة آلاف جمل. أي أن النصف الأول من الألف الأول ق.م. كان عصر الدولة السبأية، بلا منازع – تقريباً –. حينئذ كان على رأس الدولة حاكم يدعى:«مكرب»(٢). فالمكرب هو لفظ من الجذر «كرب»، وقد عرف المكرب بأنه« لقب رئيس حلف قبلي في العصور المتقدمة»(٣). كما عُرف بأنه «مُجَمِع»(٤). وفي رأي ثالث: أن «المكرب كلمة مشتقة من الجذر «كرب» بمعنى: جمع أو حشد، والمكرب المجمع... ويتميز الملك عن المكرب برؤوسه فقط(لشعب) واحد. وفي هذا السياق فإنه يمكن القول: بأن لفظة مكرب، تعني هنا: مُجَمِع الشعوب أو موحدها»(٥). و يعتقد أحد المستشرقين: أن لقب مكرب يعني رئيس مجموعة من الشعوب (٦).

وفي رأينا أن المكرب ظهر في حقبة زمنية معينة ارتبط بخصائص هذه المنطقة الدينية والاجتماعية وربما الاقتصادية. ومن المحتمل أن هذا المنصب، يشبه منصب لوجال(كبير) الذي حكم في المدن السومرية في عصر ظهورها المبكر. وهو: حاكم موحد جمع بين السلطتين الدينية والدنيوية، في حقبة تاريخية مبكرة وفي بعض المراحل التاريخية اللاحقة، من التاريخ القديم لبلاد العرب الجنوبيين.

لقد شهدت حقبة المكاربة في جنوب شبه الجزيرة العربية أحداثاً مهمة من أجل التطور اللاحق، أهمها: التوسع الكبير لأراضي الدولة السبأية في الربع الثاني من الألف الأول ق.م(من نجران وحتى السواحل الجنوبية لشبه جزيرة العرب ومن سواحل البحر الأحمر حتى حضرموت)، وسيطرتها على المنطقة وعلى التجارة و ما يتبعها من تأثيرات اقتصادية وثقافية ونحو ذلك بمعنى تشكل جهاز دولة معقد، لعبت بواسطته سبأ، في ما بعد دوراً محورياً في المنطقة(٧). نعتقد أنه على أساس معطيات عدة نقوش عربية جنوبية، فإن هذه الحقبة الزمنية من تاريخ الدولة السبأية تتميز بنمو واضح للعبودية(٨)، وتطور الملكية الخاصة للأرض، ونمو دور التجارة، على أساس تخصص كل مقاطعة على حدة، ومن ثم ظهور مراكز تجارية ضخمة(٩).

لذلك فقد وضع هذا النهوض الاقتصادي الدولة السبأية، على طريق العلاقات التجارية الدولية، منذ القرن العاشر قبل الميلاد. أي أنها بدأت تقيم علاقات تجارية وربما دبلوماسية مع بلدان شرق البحر المتوسط. يظهر ذلك من خلال سجلات الملك سليمان(عليه السلام)، عندما ذكر أن ملكة سبأ قد زارته في القدس(١٠). وأنها حملت إليه هدايا فاخرة وعطور بكميات كبيرة. ويشير بعض المختصين بأنها حملت كذلك ١٢٠ مثقالاً من الذهب والأحجار الكريمة(١١). نحن نعرف أنه في تلك الحقبة الزمنية حكمت سبا نساء، لكننا لا نعرفهن بالأسماء. كما تشير الأسطورة إلى بعض التسميات. ولكننا نعرف-كذلك- أن سبأ في ذلك الوقت كانت مصدرة لسلعة تجارية نادرة، كانت مهمة في شرق البحر المتوسط، نقصد بها سلعة البخور(الطيوب).

من المحتمل أنه في ذلك الوقت كانت بعض القبائل العربية الجنوبية ومنها السبأية، قد بدأت تستوطن بعض أراضي إثيوبيا، وتحديداً تلك المنطقة التي سميت بعد حوالي ٨٠٠سنة، باسم أكسوم. بمعنى اجتاز السبأيون ومعهم بعض القبائل العربية الجنوبية البحر الأحمر، في تلك الحقبة الزمنية، وسيطروا على الساحل الاريتري، وتابعوا صعوداً حتى تيغراي، حيث شيدوا المدن هناك ومنها أكسوم. وأقاموا أول دولة في أفريقيا، شكلت في ما بعد أسس مملكة الأحباش. وفي وقت غير متأخر عن القرن الثامن ق.م. بدأت الدولة السبأية تقيم علاقات مع الدولة الآشورية. فقد أشار الملك تجلت بالاصر الثالث في حولياته سنة٧٣٣ قبل الميلاد: أنه من ضمن الأراضي التي حاربها مناطق سبئية. أما سرجون الثاني فقد دون في حولياته(٧١٥ق.م): أنه كان يحصل على هدايا من حاكم سبئي اسمه: يثع أمر. وأخيراً وُجد في أحد النقوش التي تعود إلى عهد سينحاريب(٦٨٥ق.م.) إشارة إلى حاكم سبئي آخر. إلا أنه

لم يذكر اسمه. مما يعني أن تلك الهدايا أو-ربما- رشاوى، كانت تعطى مقابل مرور القوافل التجارية العربية الجنوبية بصورة آمنة. وأن السبئيين، في ذلك الوقت، كانوا قد خرجوا إلى المسرح الدولي للتعامل المباشر مع الجيران القريبين منهم والبعيدين.

في القرن السابع قبل الميلاد تعقد الوضع السياسي في بلاد العرب الجنوبية، وخاصة بالنسبة للممالك السبأية، والقتبانية والحضرمية. إذ أن المملكة الأوسانية(حاضرتها كانت في وادي مرخة، تسمى حاليا «هجر ابو زيد»). في تلك الأثناء سيطرت -تقريباً- على كل أراضي جنوب بلاد العرب[١٢] فحصرت بذلك المملكة السبأية في المناطق الجبلية. وتم لأوسان السيطرة الكاملة-تقريباً- على قتبان بصورة كاملة، وجزء من أراضي حضرموت. فضلاً عن ذلك فقد واجهت سبأ من الشمال تمرد كل من دولة مدينة نجران ودولة مدينة نشان. الأمر الذي عقد الوضع السياسي والعسكري للسبئيين.

في تلك الفترة برز مكرب/ملك سبئي كان يدعى كرب إل وتر بن ذمرعلي، وتمكن من تشكيل تحالف عسكري- قبلي، ضم إلى جانب القبائل السبأية كل من قبائل حضرموت وقبائل قتبان. كان على رأس القبائل القتبانية الملك «ورو إل». وعلى رأس القبائل الحضرمية الملك «يدع إل». ونحن هنا لسنا بصدد تتبع تلك المعارك التي جرت في ما بعد بين سبأ وحلفائها من جهة وبين الدولة الأوسانية من الجهة الأخرى، إذ أن ذلك ليس مجال حديثنا هنا. المهم أن الحرب انتهت لمصلحة السبئيين والحلف التابع لهم، ومن ثم تمكن المكرب/الملك كرب إل وتر من بسط سيطرته على معظم الأراضي في جنوب شبه الجزيرة العربية، وان لفترة محددة. بمعنى أن السبئيين بعد تحقيق انتصارهم على أوسان أقاموا نظام مراقبة على طرق القوافل التجارية في معظم أراضي شبه جزيرة العرب. على الأقل خلال النصف الثاني من القرن السابع وبداية القرن السادس ق.م. فضلاً عن ذلك راقبت مملكة سبأ بعض من تلك المناطق الساحلية، التي كانت تنتج البخور. على أن المناطق الرئيسة، التي تركزت فيها زراعة أشجار البخور والمر والورس والقرفة، كانت تقع ضمن الأراضي الحضرمية، حول خليج القمر وقريبة من ساحل البحر العربي. وفي جزيرة سقطرى.

وبالنتيجة أصبحت طرق التجارة الداخلية والخارجية، وكذلك معظم الأراضي الأوسانية، تحت سيطرة السبئيين أو في الأقل تحت تأثيرهم. في وقت كان الطلب على سلعة البخور يزداد في مناطق الشرق الأدنى. الأمر الذي أمن دخل اقتصادي كبير للدولة السبأية، بالرغم من أنه لم يستمر طويلاً.

فضلاً عن ذلك كانت كلاً من قتبان وحضرموت مرتبطة بالدولة السبأية، بحكم بنود الأخيرة الرئيس الذي لعبته في تحطيم القدرة العسكرية لأوسان عدو الجميع[١٣]. وباختصار كانت مأرب حاضرة السبأيين تسيطر على طرق القوافل الكبرى التي تربط الجنوب العربي بمصر وغزة في الغرب وبلاد الرافدين في الشرق، حيث كان يحكم الآشوريون. وكان السبأيون يصدرون إنتاجهم الخاص وكذلك البخور والطيوب والتوابل والعطور، بوصفهم وسطاء لهذه السلع، إلى تلك المنطقتين.

الصراع السبئي القتباني- ظهور الدولة المعينية

عند ملتقى القرنين السابع والسادس ق. م.، بدت قتبان وكأنها استعادت عافيتها. وبذلك دخلت في صراع مكشوف مع حليفة الأمس(سبأ). يتضح ذلك من خلال بعض المصادر النقشية وكذلك الفراجع، التي تشير إلى تحالف قتباني مع بعض المدن في وادي الجوف(تأسست من هذه المدن في ما بعد دولة معين)، ضد المملكة السبأية[١٤]. وبالرغم من أن المملكة القتبانية قد لحقت بها هزيمة عسكرية. إلا أن موازين القوى بدأت تتغير لصالح خصوم السبئيين. إن وجود مدن الجوف، منذ نهاية العصر الحجري الحديث(وربما منذ بداية الألف الأول قبل الميلاد)، كمنة، هرم، يثيل، قرناو، وغيرها من مدن وادي الجوف، قد لعب دوراً حاسماً في ظهور الدولة المعينية. على أن أهمية مدينة نشان في أعالي ذلك الوادي، كان استثنائياً بالنسبة للمملكة السبأية. فقد حافظت هذه المدينة على علاقات تحالفية مع سبأ خلال مرحلة حكم المكرب/الملك كرب إل وتر[١٥].

في مرحلة ما من القرن السادس ق.م- ربما عند منتصفه- حدث نزاع عسكري بين سبأ ودولة مدينة نجران، في أقصى شمال وادي الجوف. الأمر الذي أضعف -على ما يبدو- نفوذ سبأ في تلك المنطقة. مما أتاح الفرصة لدولة مدينة نشان للإفلات عن سبأ. فلاحظت بقية مدن وادي الجوف، تغير في موازين القوى هناك لغير صالح السبئيين. وبذلك أسست كل من مدينة يثيل ومدينة قرناو(عرفت في ما بعد بمدينة معين)اتحاد سياسي تجاري بينهما. ومن ثم أصبح ذلك الإتحاد القوى الرئيسة في وادي الجوف. أما بقية المدن وهي التي ذكرت سابقاً فقد انضمت الواحدة تلو الأخرى إلى ذلك الإتحاد. في القرن السادس ق.م. عرفنا أول ملك معيني، كان يدعى: عمياس نابط استطاع هذا الملك أن يدحر أول هجوم سبئي على المدن المعينية بعد تأسيس دولة معين، ودافع ببسالة عن مدينة يثيل[١٦]. وهكذا ظهرت معين كنتيجة لاتحاد مدينتين تجاريتين، هما: قرناو ويثيل.

على عكس بقية الدول اليمنية القديمة، التي تشكلت نتيجة توحد مجموعة من القبائل، فقد تشكلت معين نتيجة اتحاد سياسي- اقتصادي. كما أن الدولة المعينية على خلاف البقية لم يحكمها مكرب، فضلاً عن ذلك فقد كانت سلطة الملك مقيدة وصلاحياته محددة. بأعمال بروتوكولية(شكلية). بمعنى أن ملوك معين، وعلى عكس ملوك سبا، نادراً ما كانوا يذكرون بنقوش البناء(١٧) وبالرغم من المعابد الكثيرة التي بنيت في وادي الجوف(حيث أراضي معين) فإنه فقط ذكر الملك المعيني في واحد منها(١٨).

لقد كانت معين دولة صغيرة لم تشغل كل أراضي وادي الجوف، ولكنها لعبت دوراً مهماً في تاريخ اليمن القديم واقتصاده. فقد تركزت بين يدي المعينين، في المرحلة اللاحقة(أي في النصف الثاني من الألف الأول ق.م.)، كل التجارة الخارجية مع دول حوض البحر المتوسط، و جزءاً لابأس به من التجارة الداخلية. ربما المعينيون في بداية نشاطهم، لم يرافقوا القوافل التجارية باتجاه الشمال، إذ كانت ترافق حمولة تلك القوافل القبائل البدوية القاطنة في وسط وشمال شبه الجزيرة العربية، مقابل مبالغ تدفعها القوافل؛ إما عينية أو نقدية. على أن المعينين عند نهاية الربع الثالث من الألف الأول ق.م. امتلكوا شبكة واسعة من العلاقات التجارية مع مناطق شمال الجزيرة العربية والشرق الأدنى كاملة-تقريباً-.

تظهر الوثائق التي تم العثور عليها بين أطلال معبد الرصاف بالقرب من قرناو، أنه عثر بينها على سجل لعدة نساء، خلع عليه الباحثون اسم «سجل المحضيات» (١٩)، مما يعني أنهن لعبن أدواراً مهمة في ذلك الوقت. وفي هذا السجل إشارة إلى أن التجار المعينيين في ذلك الوقت كانوا يتاجرون مع مصر وغزة وصيدة(٢٠). من المرجح أن التجارة كانت تتم بصورة فردية بشكل عام، إلا أننا نعرف عن اثنتين أو ثلاث قوافل كبيرة- في الأقل- اتجهت نحو الشمال. ففي أحد النقوش، (وجد في أطلال مدينة براقش)(٢١)، حديث عن إحدى تلك القوافل، حيث يقول أن:١- «عم صديق، بن حم عثت من عشيرة يفيعن وسعد بن ولج(؟) من عشيرة ذفجان، الاثنان من كبراء(مسؤولي) تجار القوافل... ، وقاما برحلتين تجاريتين.. إلى مصر وأشور وبلاد ما وراء النهر...(٢٢).

٢- وعندما نقلوا ممتلكاتهم فإن إلههم عشتار ذو قبضم(؟)... من مصر أثناء.
٣- الحرب التي جرت بين مذاي(٢٣) والمصريين...»

عند ملتقى القرنين الرابع- الثالث قبل الميلاد تمكن المعينيون من إقامة شبكة واسعة من المستوطنات التجارية على طول شبه الجزيرة العربية، كانت

أبرزها المستوطنة المعينية في تمنع،(حاضرة قتبان- المعينيون يتمنع mnm/timo)، في الجنوب ومستوطنة العلا(ددان)، إلى الشمال من يثرب في الشمال. في شمال غرب الحجاز. وفي أراضي الأمير اللحياني وجدت ما يشبه البورصة التجارية، في الوقت الحالي، عن ذلك تتحدث نقوش كثيرة وجدت بين أطلال قرية العلا، وهي التي أسماها المختصون في التاريخ القديم باسم: «ددان». كما تم العثور هناك على مقابر عديدة لتجار معينيين يمثلون حقب زمنية مختلفة. فضلاً عن ذلك فإن النقوش التي وجدت في ددان(تم العثور على حوالي مائتي نقش معيني) تذكر عدد من الملوك المعينين ومعبد معيني. كان في نفس الوقت عبارة عن مركز تموين نقدي للعمليات التجارية هناك(٢٤). باختصار كانت المستوطنة المعينية في ددان عبارة عن مجتمع صغير للجالية المعينية هناك، يرأسها كبير(٢٥).

يمكن القول، أنه بعد خروج المعينين إلى أسواق الشرق الأدنى القديم، بوقت ليس بالكثير فإنهم واجهوا منافسة شديدة من تجار يمثلون مناطق مختلفة- من غزة ومن جرهاء ومن الجزر اليونانية- وربما من أولئك الذين أسكنهم كسرى فارس: قورش في مناطق دجلة- بحسب ديودور الصقلي (XVII,110,4-5) ومن غيرها. لقد وصل هؤلاء التجار إلى شبه الجزيرة العربية إما عن طريق البحر (استخدموا القناة التي شقها دارا الأول وربطت بين النيل والبحر الأحمر)، أو عبر البر. وعلى العموم لم تشكل تلك المنافسة خطراً فعلياً على التجارة المعينية في ذلك الوقت، ولكنها ظهرت كمنافس حقيقي في ما بعد. لقد كان لموقع بلاد العرب الجنوبيين الملائم، باعتباره، مصدراً لسلعة البخور إلى مناطق العالم القديم، ووسيطاً تجارياً بين الهند ومناطق حوض البحر المتوسط، أن لعب هذا الموقع أدواراً مهمة في التبادل التجاري والثقافي بين حضارات جنوب أسيا والشرق الأدنى وحوض المحيط الهندي ومنطقة حوض البحر المتوسط. وساعدت كذلك الظروف المناخية بلاد العرب الجنوبيين أن تحتكر لنفسها هذا الدور.

بمعنى لقد كانت معرفة نظام الرياح الموسمية (الرياح التجارية) التي تهب في شمال المحيط الهندي، في الشتاء وفي الصيف، أن ساعدت السفن التجارية على الإبحار مباشرة من الموانئ الغربية للهند، إلى موانئ الشواطئ الجنوبية الغربية لشبه جزيرة العرب، وكان يتم الإبحار في هذا الاتجاه في الشتاء والربيع، وفي الاتجاه المعاكس صيفاً. الأمر الذي وظفه العرب الجنوبيون بصورة فعالة في المساهمة الحضارية مع بقية دول العالم القديم في حوضي المحيط الهندي والبحر المتوسط. وبذلك استفاد الهنود والعرب من

هبوب الرياح هذه. والاتجار مع شمال شرق أفريقيا، فضلاً عن استفادة العرب من تجارة الترانزيت(المرور).

ومع ذلك لم تستمر تجارة الهند وبلاد العرب الجنوبيين، مهنة خاصة بقاطني هاتين المنطقتين، فلقد أثارت تلك التجارة دول إقليمية مختلفة حاولت أن يكون لها دولاً تابعة على طريق التجارة بين الهند والعربية الجنوبية وشمال شرق أفريقيا. ففي بداية القرن السادس ق م. وبأمر من فرعون مصر نيخو فتح من جديد الطريق البحري من مصر عبر البحر الأحمر حتى المحيط الهندي. كما دار حول أفريقيا الفينيقيون بناءاً على طلب الفرعون ذاته(٢٦). خلال هذه الرحلة تم البحث عن خط مناسب من النيل إلى البحر الأحمر(٢٧). كتب شارل عيساوي يقول:« كان هذا التركيز على الصناعة والتجارة أمراً فريداً من نوعه في العصور القديمة»(٢٨). وأشار غوردون تشايلد «إلى أن نسبة الذين عملوا بالصناعة والتجارة من الفينيقيين كانت أكبر بكثير من الذين عملوا بها في مصر وبابل وأشور وبلاد الرافدين حيث كانت الزراعة تسيطر على مجمل النشاط الاقتصادي»(٢٩). وقد انعكس ذلك الهيكل الاجتماعي على المؤسسات السياسية الفينيقية، بعد أن سيطر الفرس على مصر أرسل الملك دارا الأول، عند ملتقى القرنين السادس والخامس ق.م.. أحد البحارة الإغريق(كان يدعى؛ سكيلاك)، مع بعثة مرافقة لغرض التأكد من الخط البحري بين الهند ومصر. وقد وفق سكيلاك بالإبحار عبر نهر الجانج(الهند) والمرور بالمحيط الهندي ثم البحر الأحمر قرب سواحل الجزيرة العربية وحتى مصر. استغرقت هذه الرحلة حوالي ثلاث سنوات(٣٠). ثم استكمل شق قناة تربط بين النيل و البحر الأحمر في عهده أيضاً. ويجب أن نضيف أنه في عهد الإمبراطورية الفارسية، التي امتدت إلى الشرق كله،« ربطت الطرق وخطوط البريد الممتازة بين الأقاليم المختلفة والحاضرة. كما تم توحيد القياس والوزن وسك عملات ذهبية وفضية موحدة لكل الأقاليم»(٣١). نتيجة لذلك، شهدت التجارة اتساعاً كبيراً. وهنا يقول غيرشمان:« لقد تجاوز حجم التجارة في القرنين السادس والخامس ق.م أي مقدار عرف في ما سبق في منطقة المشرق القديم. غير أن أهم ما تميزت به التجارة هو أنها كانت تركز بالأساس على المنتجات العادية المستخدمة في الحياة اليومية، وعلى الأدوات المنزلية والملبوسات الرخيصة،... ومن ثم اتجه تطور الصناعة إلى خدمة كل طبقات المجتمع في الإمبراطورية»(٣٢). كما يبدو أن التجارة مع الأقاليم الأخرى كانت على نطاق أوسع من ذي قبل، خاصة مع الهند وجنوب الجزيرة العربية واليونان(٣٣).

ازدهار القوافل التجارية الدولية- معرفة طرق الملاحة البحرية في المحيط الهندي

شهدت الحضارة اليمنية القديمة خلال القرنين الرابع- الأول ق.م. نهوضاً اقتصادياً وثقافياً ملحوظاً، ومعها ازدهرت التجارة الدولية. وفي هذه الحقبة الزمنية برز دور المعينيين في التجارة، على المستويين الداخلي والخارجي. وقد عكس ذلك النهوض الاقتصادي والثقافي، التغيرات الاقتصادية- الاجتماعية المختلفة: زيادة الإنتاج الزراعي والحرفي وتطور العلاقات الاجتماعية. على أن ما وجده الباحثون من مصادر لا يشير إلى تلك التغيرات بصورة مباشرة، ولكنه يفهم من خلال المعايير الحقوقية. وتظهر النقوش التوسع الكبير في ملكية الأرضي، وزيادة عدد الأشجار المثمرة والمنتجة، مثل أشجار النخيل وأشجار البخور والطيوب الأخرى. ونلاحظ كذلك أن التشريعات الحقوقية قد ركزت على ثلاثة اتجاهات: أولاً- تدعيم نظام الضرائب والعطايا أو تقييره، التي تدفع لمصلحة المعابد وجهاز الدولة المحلي أو المركزي. ثانياً- تحديد القواعد القانونية من أجل استخدام الأراضي أو قنوات مياه الري. ثالثاً- تنظيم قواعد التجارة: أي العلاقة بين البائع والمشتري ضبط ضرائب أو رسوم التجارة

كان لزيادة الطلب على البخور في منطقة حوض البحر المتوسط وبلاد الرافدين أن استدعى نمو وتأثر لإنتاج هذه السلعة(٣٤). في هذه الحقبة الزمنية ازدادت حدة الصراع بين سبأ وقتبان من أجل السيطرة على طرق القوافل التجارية. ونتيجة لشدة الصراع اضطرت قتبان أن تسخر كل إمكانياتها لهذه الحرب(٣٥). على أن الخط الرئيس لنقل البخور من حضرموت، كان يمتد عبر الأراضي القتبانية(٣٦). ثم عبر سبأ. مع العلم أن قتبان كانت تنتج كميات ليست بالكثيرة من البخور، وتنقل عبر سبأ أيضاً. في حضرموت كان البخور يجمع تحت الرقابة الصارمة من ملوك الدولة(٣٧). ومن ثم فإن مناطق إنتاج البخور في شرق البلاد كانت مغلقة ليس أمام الأجانب ولكن أمام مواطني الدولة ذاتها(٣٨)، أي أن منطقة إنتاج البخور كانت محصورة ملكيتها لحوالي ثلاثة آلاف أسرة، وكان يتم جمع المحصول وفق طقوس محددة(٣٩)، إذ أن الظروف البيئية كانت قاتلة. لذلك كان يتم إرسال إما عبيد إلى هناك أو بعض المحكومين بجنح مختلفة(٤٠). هكذا كانت أهمية البخور بالنسبة لخزينة الدولة الحضرمية.

استدعت ضرورة اقتسام ضرائب مرور التجارة بين كل من سبأ وقتبان الرغبة لدى الحضارم في التحرر من قيود ذلك الخط التجاري الذي كان يمر

عبرهما. حيث بدأت حضرموت عن طريق بري آخر نحو الشرق باتجاه الخليج حتى مدينة الجرهائيين. فقد كتب في زمنه استرابون يقول: «مارس الجرهائيون التجارة، عبر الطرق البرية، وبالأخص السلع العربية والطيوب»[٤١].

إذ أن الجرهائيين كانوا ينقلون البخور إلى جنوب بلاد الرافدين، وحاولوا في وقت من الأوقات أن ينافسوا المعينيين في مناطق حوض البحر المتوسط. عند منتصف القرن الثالث ق.م. تجرأ أول البحارة البطالمة على البدء بعمليات استكشافية للساحل الغربي من الجزيرة العربية، وبلغوا بأن «اللادان وبقية السلع التي تدخل ضمن الطيوب تصدر إلى فلسطين من قبل المعينيين والجرهائيين»[٤٢]. ولذلك فإن المر الذي كان يصدر إلى العالم الإغريقي- والروماني من بلاد العرب الجنوبية، كانوا يسمونه المر المعيني أو الجرهائي، على الرغم من أن المر سواءً كان المعيني أو الجرهائي لا ينتج إلا في حضرموت وقتبان[٤٣].

بذلك يمكن القول أنه: عند منتصف القرن الثالث ق.م. كان المعينيون قد شغلوا الموقع الرئيس في تجارة البخور، الذي ينتج في بلاد العرب الجنوبية، مع بلدان حوض البحر المتوسط ومصر. ومن ثم تمكن المعينيون من إخراج الجرهائيين من المنافسة التجارية مع تلك المناطق[٤٤]. بدأت تعمل المستوطنات المعينية والبورصات التجارية في شبوة(حاضرة حضرموت) وفي تمنع(حاضرة القتبانيين)، وفي شعوب بالقرب من صنعاء، على مستوى جنوب بلاد العرب. و في شمال شبه الجزيرة العربية وفي غيرها من مناطق حوض البحر المتوسط انتشرت في واحة: ددان ويثرب، وربما في غزة ومصر، بل وفي جزيرة ديلوس-كما سنرى لاحقاً-. أبرز تلك المستوطنات- كما لاحظنا سابقاً- ددان في واحة العلا[٤٥]. كذلك كان لمستوطنة تمنع أهمية كبيرة. إذ أنها مثلت مجتمع معيني مصغر هناك، كان يرأسه كبير[٤٦]. وقد تمت الإشارة لهذه المستوطنة في قانون قتبان التجاري، حيث «تساوى مواطني الدولة المعينية مع موطني قتبان في الحقوق التجارية»[٤٧].

تغلغل التجار المعينيون في بلدان حوض البحر المتوسط(مصر وغزة والجزر اليونانية)، وعاشوا هناك لفترات طويلة. فقد عثر على تابوت الكاهن المعيني زيد إل بن زيد من عشيرة ضيران المعينية، « بين الكهنة المصريين، الذي جلب المر واللبان والطيب من أجل معابد الآلهة المصرية أيام حكم بطليموس بن بطليموس»[٤٨]. كما يفهم من خلال بقية النص أن زيد شخصية مهمة وكاهن في مجمع «ساربيس»[٤٩] وتم كذلك العثور على نقوش معينية

مختصرة على طريق القوافل التجارية في وادي الحمامات في مصر من النيل إلى ميناء القصير[٥٠]. فضلاً عن ذلك فقد تم العثور على نقش معيني ثنائي اللغة(باللغة المعينية واللغة اليونانية) على مذبح في جزيرة ديلوس، سوق التخاسة المعروف في العالم القديم آنذاك[٥١].

بلغت العمليات التجارية المعينية أوج ازدهارها خلال القرنين الرابع- الثالث ق.م. ووصلت قوافلها، كما لاحظنا، حتى مناطق بحر ايجه. في هذه الأثناء لم تستطع أن تكون هذه التجارة مهنة عربية جنوبية خاصة، ولكن برز لها منافسون ومن مناطق مختلفة. فقد كتب ارانوسفين في عصره يقول: إن التجار المسافرين إلى جنوب بلاد العرب، من أجل البخور هم من إيلات[٥٢]. ثم أكد ذلك في وقت لاحق بليني الأكبر[٥٣] ربما هنا أثرت الحوافز التي كان يقدمها للتجار البطالمة (حكام مصر)، وفي ما بعد الإدارة الرومانية في مصر. ومع ذلك فقد كانت القوافل التجارية تنطلق بآلاف الجمال.

نستطيع معرفة طريق القوافل التجارية، من مكان جمع المنتوج وحتى منطقة استهلاكه، من خلال المعلومات التي قدمها الكتاب الكلاسيكيون(أريان، ثيوفراست، ارانوسفين وبليني الأكبر). أي أن كل ما يجمع في حضرموت ينقل إلى الحاضرة الحضرمية شبوة، هناك توجد ما يشبه البورصة، بعد فصل ضرائب المعبد(تصل إلى حوالي الثلث-أحياناً-)، يبدأ المزاد، في وجود التجار القادمين من معين وجرهاء وغزة. بعد ذلك يتم تعبئة البضاعة المشتراة، في شوالات جلدية، وتسوق عبر طريقين مختلفين: في القرنين الرابع- الثالث ق.م.، كان الأول ينطلق من شبوة حتى «جرهاء» على الخليج، وكانت تقطعه القوافل بحوالي أربعين يوماً. من هناك كان الجرهائيون يحملون البضاعة باتجاهين مختلفين-أيضاً-: عن طريق البحر أو عن طريق البر، نحو جنوب بلاد الرافدين، ومن هناك تنقل البضاعة على قوارب جلدية، عبر مجرى النهر، إلى الشمال. والطريق الآخر: يقطع شبه الجزيرة من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، حتى غزة، أينما يبتاع البضاعة التجار المصريون[٥٤].

كان المركز الثاني لبيع الطيب والمر واللادان هو: تمنع- الحاضرة القتبانية. وبالرغم من أن أشجار البخور والمر وغيرها كانت في أراضي قتبان قليلة، إلا أن القتبانيين منذ القرن الرابع ق.م.، تمكنوا من احتكار تجارة البخور والقرفة الذي كان يصل من الصومال، على قوارب حتى الموانئ القتبانية. كانت البضاعة بعد بيعها على التجار المعينيين والجرهائيين وغيرهم من التجار القادمين إلى تمنع، تعبأ في شوالات جلدية. ومن تمنع كان يبدأ طريق القوافل الرئيس الثاني، حتى يصل غزة: وكانت الرحلة تستغرق

فيه٧٠ يوماً. كانت تعبر القوافل التجارية مأرب ومنها إلى وادي الجوف، وتمر في الحاضرة المعينية يثيل ومنها إلى نجران فقرية القاو(حاضرة كندة ومزحج)، ثم العلا(ددان) إلى البتراء. بعد ذلك إلى غزة (خريطة رقم اثنين). مع العلم أنه في مرحلة من المراحل وجد فرع لهذا الخط التجاري امتد من بتراء شرقاً باتجاه بادية الشام ومنطقة الفرات

في القرنين الثاني- الأول قبل الميلاد أثر تنظيم القوافل التجارية بشكل واضح على هذا الطريق، وتم اختصاره إلى٦٥يوماً (بدلاً من٧٠يوم). وعلى طول المسافة هذه، كان لابد من الدفع مقابل الخدمات المختلفة، التي كانت تقدم للقوافل: «...كان يدفع قسط محدد للكهنة وكتبة القصر، كما يتم الدفع للمراقبين والحرس، للبوابين والخدم. ثم بعد ذلك تدفع القوافل مقابل المياه والكلاء للجمال والطعام للناس المرافقين للقوافل ومحطات الوقوف. فضلاً عن الدفع مقابل مرور التجارة في المناطق المختلفة التي تمر بها طريق القوافل. كان يكلف حمل الجمل الواحد، من منطقة الإنتاج وحتى منطقة الاستهلاك حوالي٦٨٨دينار روماني، عدا عن الدفع للملتزمين الرومان. وبذلك كان يصل سعر الرطل الواحد من الطيوب إلى٦دنانير»[٥٥]. كان يجب أن تكون حدود لكل ذلك، أي أن تجارة البخور، عن طريق القوافل البرية أضحت غير مجدية.

نفذ الأنباط في شمال غرب شبه الجزيرة العربية سياسة جمركية، اقتضت الحصول- قدر الإمكان-على مبالغ كبيرة من ضرائب مرور التجارة في منطقتهم، وفي الوقت نفسه عمل البطالمة في مصر ومن بعدهم الرومان، على تغيير طريق التجارة، وإرسال كل البضائع عن طريق البحر، حيث السيطرة الإغريقية- المصرية على الملاحة البحرية وكذلك على التجارة. وبذلك بدأ عصر جديد في دراسات طرق الملاحة البحرية، المتجهة من الغرب نحو شبه الجزيرة العربية والمحيط الهندي. ففي عهد الاسكندر المقدوني، الذي سمع كثيراً عن الثروات في جنوب شبه جزيرة العربية، بعد سيطرته على مصر في عشرينيات القرن الرابع ق.م.، أرسل بعثة بحرية من البحر الأحمر للدوران حول شبه جزيرة العرب[٥٦]. ثم انطلقت بعد ذلك عدة بعثات من أسفل الفرات نحو مصر[٥٧]. على أن تلك البعثات لم تحقق أهدافها التي أرسلت من أجلها وهي الدوران حول خليج عمان. وبالرغم من ذلك حصل عالم البحر المتوسط، بفضل تلك البعثات على معلومات موثوق بها عن إمكانية الإبحار حول الشواطئ الغربية والجنوبية لشبه جزيرة العرب. وإذا أضفنا إلى ذلك إبحار نيارخ وانيسيكريت، اللذين قدما للملاحة البحرية، خرائط موثوق بها عن الملاحة من مصب نهر السند حتى مدخل مضيق هرمز[٥٨]، فإن البحارة الإغريق هم أول

من فتحوا الطريق البحري إلى الهند في القرن الرابع ق.م. على الرغم من مرورها قرب السواحل، لأن الرياح التجارية كانت إلى ذلك الوقت لم تكتشف بعد. وقد رأى أولئك البحارة أشجار البخور، التي كانت تنمو في مزارع ملوك حضرموت، قرب خليج القمر[٥٩].

اتخذ الخطوات التالية، في ما بعد، ملوك مصر من الأسرة البطلمية[٦٠]. عند منتصف القرن الثالث ق.م. وأثناء حكم بطليموس الثاني قام واحد من أقاربه، يدعى أريستون، برحلة حول ساحل شبه جزيرة العرب، وتتبع بدقة الخط البحري حتى عدن[٦١]. و في النصف الثاني من القرن الثالث ق.م. وضع شخص مجهول خريطة ملاحية كاملة حتى الصومال[٦٢]. على أن التجارة البحرية الإغريقية المصرية عند شواطئ شبه الجزيرة العربية في القرن الثالث قبل الميلاد كانت قد بدأت. ولم تتمكن تلك الرحلات البحرية إلا للوصول إلى ميناء عدن، الذي كان يخضع حينئذٍ لقتبان، وكان يتم هناك تفريغ السفن الهندية وتعبئة المصرية[٦٣].

انتقال القوافل التجارية من البر إلى البحر-اختفاء مملكة معين

استفادت قتبان وحضرموت من انتقال تجارة البخور إلى البحر باعتبارهم دول تمتد حتى سواحل البحر العربي في الجنوب ومنطقة باب المندب في الجنوب الغربي. لقد نمت مدن وموانئ جديدة على السواحل: موزع واكيليس جنوب الساحل الشرقي للبحر الأحمر وعدن وقنا وخوريدوري على ساحل البحر العربي. كانت اكيليس ميناء تجاري قتباني مهم مع الصومال، أما قنا فقد كان يصدر منها البخور الحضرمي[٦٤]. بهذا الشكل وحتى منتصف القرن الثاني ق.م. كان البحارة والتجار الإغريق والمصريون قد عرفوا بشكل جيد الملاحة في البحر الأحمر وخليج عدن. فقد كانوا يصلون بسفنهم حتى سواحل الصومال وعدن، حيثما كان يتم تفريغ سفن الهنود واليمنيين وإعادة شحن البضاعة على سفنهم والعودة إلى مصر. في هذه الأثناء كان الأسطول الحربي المصري يجوب مياه البحر الأحمر لحماية السفن التجارية من القراصنة هناك.

في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، وجهت ضربة كبيرة لاحتكار اليمنيين لتجارة الترانزيت بين الهند ومصر. أي أنه في العام١١٦أو١١٥ ق.م. عثر البحار الإغريقي Eudoxus . مع أحد البحارة الهنود جنحت سفينته-على ما يبدو- جنوب البحر الأحمر، على معلومات عن نظام الرياح الموسمية(التجارية) التي تهب في المحيط الهندي، وقام برحلة إلى الهند

والعودة[٦٥]. بعد ذلك كُلف القبطان«هانيبال»، بتعميم كل التجارب السابقة، ولخص أكثر الخطوط اقتصاداً في وقته من مصر إلى الهند مباشرة في وسط البحر بعيداً عن السواحل العربية[٦٦]. وبالنتيجة، بعد حوالي مئة عام، وفي الخط الذي أسسه اقد وكس الكيزيكي، كانت تعبر عباب المحيط الهندي أكثر من١٢٠ سفينة تجارية إلى الهند والعودة [٦٧].

بنتيجة ذلك حرمت بلاد العرب الجنوبية من احتكار تجارة المرور. لقد كان لإقامة خطوط ملاحية بحرية منتظمة ومؤسسة على خرائط موثوق بها ومن ثم مبنية على نظام الرياح الموسمية(التجارية)، أن سمح، مع الوقت، لحضرموت، وفي ما بعد لقتبان أن يتخلصا من وساطة المعينيين والسبئيين، وشحن منتجاتهم من الطيوب والبخور على السفن الإغريقية والمصرية في الموانئ المخصصة لذلك. وبالنسبة للدولة المعينية كان يعني ذلك انهيار كامل لحياتها الاقتصادية. بمعنى أن المعينيين اعتمدوا فيما اعتمدوه في نشاطهم الاقتصادي على التجارة البرية، فحينما تحولت القوافل التجارية إلى البحر، فإنها بذلك وجهت ضربة اقتصادية ماحقة باقتصاد معين، ومن ثم نهاية دولة معين. عندما سيطرت روما على سورية ومصر في القرن الأول قبل الميلاد تعقد الوضع أكثر. أي أن الإمبراطورية الرومانية أقدمت على اتخاذ خطوات مهمة في سبيل وضع التجارة الشرقية تحت رقابتها، وهي التي كانت تدر لها مبالغ ضخمة على شكل ضرائب. وقد ازدادت ضرائب التجارة بشكل ملحوظ، باستخدام الوسائط البحرية في نقل البضائع، التي كانت تنطلق من جنوب بلاد العرب والهند مباشرة إلى الموانئ المصرية. وفي ذلك الوقت بدأ الرومان يدعون حقهم في السيطرة على كل ضرائب التجارة البحرية في شمال المحيط الهندي والبحر الأحمر [٦٨].

وبدأ الصراع بين دول جنوب شبه الجزيرة العربية بشدة، بسبب تضاؤل التجارة واقتصارها على تلك الدول التي كانت تملك موانئ بحرية. وكانت أسباب الصراع هي: كيفية السيطرة ليس على تجارة اللبان، ولكن على الأراضي التي تنتج اللبان، فضلاً عن المناطق، التي توجد بها موانئ التصدير(قنا، عدن وموزع). في غضون ذلك، وفي نهاية القرن الأول ق.م. حاولت الإمبراطورية الرومانية اتخاذ خطوات من أجل السيطرة على المناطق الساحلية، في بلاد العرب الجنوبية. وتحديداً مناطق حضرموت، التي كانت تنمو فيها أشجار البخور. وبذلك قام الأسطول الحربي الروماني بعمليات عسكرية من البحر والبر. فإذا كانت المعلومات التي وصلتنا عن بليني موثوق بها، فإن أسطول الإمبراطور أغسطس، قد قام بتلك العمليات الحربية عند

السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية، أي أنه ضرب عدن[٦٩]. أما صاحب كتاب الطواف فيشير إلى أن الرومان سيطروا لبضعة من الوقت على عدن[٧٠]. وكانت حملة اليوس جالوس ذروة تلك المحاولات، عندما ترأس حملة عسكرية ضخمة انطلقت من ميناء القصير في مصر نحو بلاد العرب، من أجل السيطرة على مناطق إنتاج الطيوب. إلا أن تلك الحملة باءت بالفشل ولم تحقق أهدافها.

الخلاصة

عرفت بلاد العرب الجنوبيين مع نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، زراعة مزدهرة، واستخدمت أساليب متطورة في الري الصناعي. وإلى جانب الزراعة، انتشرت فيها زراعة أشجار البخور والمر والورس والقرفة وغيرها في شرق المملكة الحضرمية وفي أراضي أوسان وبعض أراضي قتبان وفي جزيرة سقطرى. ومن ثم أدت هذه المنطقة دوراً مهماً في التجارة بين الشرق والغرب، في التاريخ القديم. كان عدد الأسر المالكة لأشجار البخور في حضرموت يصل إلى حوالي ثلاثة آلاف أسرة.

خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد برز السبئيون كقوة في جنوب شبه الجزيرة العربية، أقامت علاقات تجارية ودبلوماسية مع بلدان الشرق الأدنى القديم، وسيطرة على تجارة البخور الذي كان يجد إقبالا شديداً في تلك البلدان. الأمر الذي عكس نفسه على مجمل نواحي الحياة في المملكة السبأية، فبنت جهاز دولة متطور وبنت المدن وعاش سكانها في رفاه ملحوظ، ذكره الكتاب الكلاسيكيون وكذلك الكتب الدينية. فضلاً عما ذكرته العصائر النقشية.

عند منتصف الألف الأول قبل الميلاد وبعد صراع مرير بين السبئيين والقتبانيين وبعض مدن وادي الجوف، ضعفت على أثرها المملكة السبأية، فاختلت موازين القوى في جنوب شبه جزيرة العرب، وظهرت بنتيجتها دولة معين في وادي الجوف وسيطرت شيئا فشيئا على تجارة العرب الجنوبيين الداخلية والخارجية.

أقام المعينيون شبكة واسعة من المستوطنات التجارية: في تمنع وشعوب ودان وغزة وربما كانت لهم جالية كبيرة في مصر. فضلاً عن وصولهم إلى جزر بحر إيجة.

تاجر العرب الجنوبيون بالبخور والمر والورس والقرفة، وهي منتجات كانت تنتج في بلادهم، وتاجروا كذلك بمنتجات كانوا يجلبونها من الهند

وشمال شرق أفريقيا. درت تلك التجارة للدول العربية الجنوبية القديمة ثروة كبيرة، بالغ في تقديرها الرحالة اليونانيون والرومان، وكتبوا عنها كثيراً. فوصلت أخبار تلك الثروة إلى مسامع ملوكهم وأباطرتهم، فأثار ذلك رغبتهم في السيطرة على مناطق إنتاج تلك السلع. حاول من وقت لآخر تجار من جرهاء وغزة وصيدة أن ينافسوا المعينيين في احتكارهم للتجارة، لكنهم أزيحوا مع مرور الوقت.

في الثلث الأخير من الألف الأول قبل الميلاد، ازداد الطلب على سلعة البخور والمر، الأمر الذي أدى إلى أن تجمع تلك السلعة مرتين في العام، بعد أن كانت تجمع مرة واحدة. ووصل سعر الرطل الواحد من المر إلى ٦دنانير في مناطق الإمبراطورية الرومانية، وسعر الجمل إلى ٦٨٨ دينار. وحدثت محاولات عدة لتنفيذ رغبة الأباطرة الرومان في السيطرة على مناطق إنتاج البخور، فضلاً عن السيطرة على طرق التجارة. اتبع أولئك الأباطرة في البداية الأساليب العسكرية للاستيلاء على تلك المناطق. وعندما فشلوا استخدموا الطرق الثقافية والدبلوماسية.

تأثر العرب الجنوبيون بتلك المناطق التي أقاموا معها روابط تجارية واجتماعية(زواج وخلافه). وكانوا سادة القوافل التجارية البرية. فقد تم العثور على لقى أثرية في قرية الفاو والعلا(ددان) وفي غزة ومصر وجزيرة ديلوس، شملت نقوش سبئية ومعينية، على التوالي ومذابح(آثار) لآلهة السبئيين والمعينيين. كما تم العثور على بقايا معابد وبورصات تجارية، كلها تدل على التأثير والتأثر الذي كان بين العرب الجنوبيين وسكان مناطق الشرق القديم. بعد تحول الطرق التجارية من البر إلى البحر، تضررت الدول العربية الجنوبية القديمة، التي تقع أراضيها بعيدة عن السواحل البحرية. فاختفى البعض منها مثل الدولة المعينية وضعف البعض الآخر مثل سبأ، وبذلك سيطر على التجارة وطرق القوافل البحرية المصريون والإغريق ثم الرومان، واكتفى العرب الجنوبيون بما كانوا ينتجونه من البخور والمر واللادان وغير ذلك، في كل من حضرموت وقتبان. فضلاً عن ذلك كانوا يحصلون على ضرائب تجارة الترانزيت القادمة من شبه القارة الهندية وشمال شرق أفريقيا.

الهوامش

(١) Boyce G. Rayhun in Bedrahayt, Znunic dte,1985. no.9, p32.

(٢) حول نظام الدولة في سبأ انظر: جلب باوير، المبشر في التاريخ القديم، العدد الثاني الصادر في جامعة موسكو لعام ١٩٦٤، ١٤-٢٥.

(٣) أنظر المعجم السبئي١٩٨٢، ص٧٨

(٤) بافقيه، محمد عبد القادر وآخرون، مختارات من النقوش اليمنية القديمة، تونس١٩٨٥، ص٣٩٨.

(٥) الحطيحي، علي محمد، المكرب، الموسوعة اليمنية، صنعاء١٩٩٢، ص٩٠٢.

(٦) Klck, Stephen: Lexicon of Inscriptionnal Qarabandon, Rome)1989,p87

(٧) أنظر: لوندين، دولة مكربي سبأ(الإيبوتيم السبئي)، الصادر باللغة الروسية في موسكو١٩٧١، ص١٣٦ وص٢٠٤-٢٠٥.

(٨) على الرغم من أن التمايز الطبقي لم يكن واضحاً بعد بما فيه الكفاية. إذ أن الطبيعة الأبوية للعبودية كانت هي السمة الغالبة في العلاقات بين الطبقات. وكان العبد يعد أحد أفراد المجموعة الأسرية.

(٩) لوندين، أيراهام، المحطات الاقتصادية- الاجتماعية للنقوش السبأية القديمة خلال حقبة المكاربة، المبشر في التاريخ القديم، - العدد الثالث الصادر في جامعة موسكو-لعام١٩٦٢، ص٢٥.

(١٠) الكتاب المقدس- كتاب الملوك الثالث١، ١٠-١٥ . ربما حدثت تلك الزيارة سنة٩٤٥ قبل الميلاد: كذلك. ذكرت هذه الزيارة في سورة النمل، الآيات٢٢-٢٤

(١١) كريستيان جولبان روبان، سبأ والسبأيون، في حوليات يمنية، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، صنعاء٢٠٠٥، ص٢٣.

(١٢) أنظر لمزيد من التفصيل في هذا الموضوع: ناصر صالح حبتور، توحيد اليمن قديماً بين ذكر إل وكرب إل، في مجلة سبأ الصادرة عن أقسام التاريخ في جامعة عدن العدد١٢، يوليو٢٠٠٣، ص١٥-٢٨؛ قارن كذلك اسمها ن الجرو، موجز التاريخ السياسي القديم لجنوب شبه الجزيرة العربية(اليمن القديم)، جامعة عدن ط١-٢٠٠٢، ص١٤٧-١٥٠؛ كذلك: مهيوب غالب احمد، مدخل إلى دراسة التاريخ السياسي والحضاري لجنوب شبه الجزيرة العربية (الكتاب الأول: التاريخ السياسي)، صنعاء-ط١-٢٠٠٣، ص٧١-٧٣.

(١٣) ناصر صالح حبتور، توحيد اليمن... المرجع السابق، ص١٥-٢٨؛ قارن كذلك: اسمها ن الجرو، موجز التاريخ السياسي القديم... المرجع السابق، ص١٤٧-١٥٠؛ كذلك: مهيوب غالب احمد، مدخل إلى دراسة التاريخ السياسي والحضاري... المرجع السابق، ص٧١-٧٣؛ عبدالله حسن الشيبه، كرب إل وتر الكبير أول موحد لليمن، ندوة جامعة عدن، فبراير٢٠٠١.

(١٤) أنظر النقش الموسوم بـ (RES 3945)؛ قارن كذلك: بافقيه، محمد عبد القادر، تاريخ اليمن القديم، ط١، بيروت١٩٨٥، ص٥٦؛ كذلك: مهيوب غالب احمد، العلاقات الدولية لليمن القديم في بداية الألف الأول قبل الميلاد، رسالة ماجستير غير منشورة= كلية التاريخ- جامعة موسكو١٩٨٦، الفصل الثالث، ص١٩-٢٤؛ كذلك: اليمن القديم من دول القبائل إلى الدولة الواحدة، مجلة اليمن الجديد، العدد الخامس- السنة الـ١٩، صنعاء١٩٩٠؛ كذلك: كريستيان جولبان روبان، تأسيس إمبراطورية السيطرة السبأية على الممالك الأولى(القرن الثامن- القرن السادس ق.م.)، في: اليمن في بلاد ملكة سبأ، تحرير: يدر الدين عرودكي، معهد العالم العربي- باريس ودار الأعالي، دمشق، (الطبعة العربية١٩٩٩)، ص٨٩- ٩٧؛ كذلك: اسمها ن الجرو، موجز التاريخ السياسي القديم... المرجع السابق، ص١٤٧-١٥٠؛ كذلك: مهيوب غالب احمد، مدخل إلى دراسة التاريخ

السياسي والحضاري ... ، المرجع السابق، ص٧١-٧٣.

(١٥) هذا التحالف معروض، باختصار، في النقشين RES 3945 and RES 3946.

(١٦) أنظر النقش RES 2980. حتى وقت غير بعيد كانت النقوش المعينية غير معروفة، إذ أن بعض من تلك النقوش كانت معروفة على شكل صور منسوخة بخط اليد لدى العالم الفرنسي جوسن هاليفي. فقد نسخها له اليمني حابيم حبشوش في سبعينيات القرن التاسع عشر(١٨٧٠). وصل وجدت لدى الباحث المصري محمود توفيق. والتي نشرها في منتصف القرن الماضي العالم بجر نامي في أعداد مختلفة من مجلة كلية الآداب- جامعة القاهرة، تحت عنوان: نقوش سامية من جنوب بلاد العرب. وقد تمكن المستشرق الروسي إيجرس غريازنيفتش من السفر إلى الجوف وصور القس الأكثر من تلك النقوش، كانت موجودة في حائط مدينة براقش (وهي التي كانت تسمى- سابق يثيل). وتم نشر تلك النقوش مع انطباعات المستشرق المذكور في كتاب عن المدن المعينية حمل عنوان: «البحث عن المدن المطمورة». الفصل «براقش»، ص٢١٥-٢٣٣، موسكو١٩٨٢؛ قارن كذلك جلب باوير، النقوش المعينية من أطلال براقش/ الآثار الكتابية ومشكلات تاريخ وثقافات شعوب الشرق، الندوة التاسعة التي عقدت في معهد الإستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية- قسم لينغجراد، «شبه جزيرة العرب في التاريخ القديم/، موسكو١٩٧٣، ص١٨-٣٢.

(١٧) أنظر النقش RES 3915.

(١٨) أنظر النقش RES 2851.

(١٩) أنظر: جلب باوير، «كشف المخصيات» من معين»، المؤتمر الاتحادي الثامن حول الشرق القديم، والمكرس لذكرى الأكاديمي. فستر وفه/٢/٢/١٨٨٩-١٥/٩/١٩٦٥/، موضوعات بحثية، موسكو٦-٩ فبراير١٩٧٩، ص١٣-١٥.

(٢٠) فمثلاً في واحد من تلك النقوش/ م. ٣٩٢ السطر التاسع من الطبعة الإيطالية للنقوش المعينية/ نقرأ الآتي: «يحوم إل بن= حوحوم من عائلة رتع، عشيرة(أو بدنة حسب الوقت الحالي) غبان أهدى الإله عشتار و في ما بعد اشترى لنفسه امرأة (اسمها تحبس) من مصر». مع العلم أن عشيرة غبان كانت تمثل أكبر اتحاد تجاري معيني.

(٢١) أنظر النقش: RES 3022.

(٢٢) تحت مسمى أشور؛ ربما، يجب أن يفهم ليس أراضي الدولة الأشورية، ولكن منطقة جنوب بلاد الرافدين. أما ما وراء النهر(عبر النهر)،- أغلب الظن- هي ! بحسب مصطلحات العقبة الأخيمينية، منطقة سورية وشرق البحر المتوسط. قارن: دندمايف م. ا.، التاريخ السياسي للدولة الأخيمينية، موسكو١٩٨٥، الحاشية بعنوان: «ما وراء النهر»، ص٣٦٢.

(٢٣) غير معروف، ما إذا يعني مسمى: مذاي (أو مزاي) هل هم القرس في مصر أو القبائل النوبية الجنوبية، قد هاجمت الشمال. وبشكل عام فإن جوهر النقش يسمح أن نحدد زمنه عند نهاية القرن الرابع وبداية القرن الثالث ق.م.

(٢٤) أنظر: عبدالله الحلو، صراع الممالك في التاريخ السوري القديم- مابين العصر السومري وسقوط المملكة التدمرية، ط١، بيروت١٩٩٩، ص٣٩٤.

(٢٥) قارن النقش RES 3946.

(٢٦) كان ذلك في عام ٦٠٠ قبل الميلاد تقريباً؛ أنظر:

Herodotus, The Persian Wars, IV-42, translated by George Rawlinson with an introduction by Francis R.B.Godolphin. Modern Library; 255 (New York; Modern Library, 1947, p. 306.

(٢٧) لمحات من تاريخ أفريقيا، موسكو١٩٧٨، ص١٢٥.

(٢٨) شارل عيساوي، تأملات في التاريخ العربي، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت، ط٥- ١٩٩١، ص٨٠.

(٢٩) Gordon Child, What Happened in History, A Pelican Book(Harmondsworth, Eng.: Penguin Books, 1943), p. 146.

(٣٠) نفسه.

(٣١) شارل عيساوي، المرجع السابق.

(٣٢) R. Ghirshman.Iran London 1952 "n.pb"., pp.145 and181-188.

(٣٣) Mikhail Rostovtsev, The Social and Economic History of Hellenistic World,3vols(Oxford: Clarendon Press,1941), vol. II, pp.83-90.

(٣٤) بحسب بليني الأكبر: (XII,63) عادة كان يجمع البخور مرة واحدة في العام، بسبب قلة الطلب عليه؛ حالياً(في عصر الكاتب)، وقد استدعى الطمع بالمال إلى أن يجمع مرتين في العام.

(٣٥) أنظر: باوير وولندين، تاريخ اليمن القديم، ترجمة أسامة عبد الرحمن النور، عدن١٩٨٤.

(٣٦) أشار بليني الأكبر (XII,63) «إن نقل البخور- المجمع في حضرموت- لايمكن أن يتم إلا عبر قتبان».

(٣٧) كتب بليني يقول:(XII,63) «إن البخور الذي يجمع في حضرموت ينقل على الجمال إلى شبوة(عاصمة البلد)، وهو ما فتحت من أجله عدة أبواب. وقد أكدت القوانين الملكية على ضرورة مراقبة الطرق بصرامة. أنظر كذلك: «كتاب الطواف حول البحر الإريتري»، الترجمة الروسية، في مجلة المبشر في التاريخ القديم لعام١٩٤٠، العدد الثاني الفقرة ٢٨.

(٣٨) بليني الأكبر، XII, 35-45.

(٣٩) نفسه؛ قارن كذلك: محمد السيد محمد عبد الغني، مصابر القرنين الأول والثاني للميلاد حول مناطق إنتاج وتصدير اللبان العربي «رؤية نقدية»، في مجلة المؤرخ العربي، العدد السابع- المجلد الأول، القاهرة١٩٩٩، ص١١١.

(٤٠) أنظر: كتاب الطواف، المصدر السابق، الفقرة٢٩، حيثما يقول: «يجمع الملاذن عبيد الحكومة وأولئك الذين يرسلون إلى هناك كعقاب لهم، لأن تلك الأماكن ليست صحية تماماً...».

(٤١) أنظر استرابون، جغرافيا (XVI,III,2)، قارن كذلك: أريان، الهند، ٣٢، ٧ (المبشر في التاريخ القديم١٩٤٠، ٢) = بوليبي، التاريخ العام... موسكو١٨٩٠- ١٨٩٩، الكتاب الثالث عشر.

(٤٢) ديودور الصقلي، المكتبة II، ٥، ٤٢.

(٤٣) أنظر بليني الأكبر(XII,69)

(٤٤) نفسه، (XII,69)

(٤٥) أنظر: النقش RES 3946.

(٤٦) أنظر النقش رقم٩ الذي أصدره محمود الخول السطرين الأول والثاني، كذلك أنظر الصفحة الخامسة من هذا البحث.

(٤٧) النقش RES 4337.

(٤٨) أنظر النقش المعيني على التابوت الذي وجد في مصر والموسوم بـ RES3427 وهو كما يبدو كان في ذلك الوقت يحكم في مصر بطليموس الأول.

(٤٩) حول مجمع ساربيس، أنظر: عاصم احمد حسين، دراسات في تاريخ وحضارة البطالمة، القاهرة- ط٢-١٩٩١، ص٧٧-٨٧.

(٥٠) غالينيشف ف.س.، نتائج الرحلات الأثرية(النقشية) في وادي الحمامات، شرق- غرب جمعية القسم الأثري الروسي، المجلد الثاني، الجزء ١-٢، ١٨٨٨.

(٥١) في هذا النقش المعيني (RES 3570)، يذكر أن اثنين معينيين: أقاما نصب(منبح) للإله ود وآلهة معينية أخرى في جزيرة ديلوس، السطر٢-٣.

(٥٢) ارتوسفين، في جغرافية استرابون،(XVI, 17,4)

(٥٣) أنظر: بليني .(XII, 64)

(٥٤) أنظر - علاء الدين عبد المحسن شاهين، التأثيرات الحضارية بين مصر الفرعونية و الجزيرة العربية في العصر الحديدي: دراسة نقدية، في مجلة المؤرخ العربي-العدد الحادي عشر المجلد الأول، القاهرة٢٠٠٣، ص١٤.

(٥٥) بليني XII, 64,65؛ قارن كذلك: شابجل غروم، طيوب اليمن، في كتاب: اليمن في بلاد ملكة سبأ، ترجمة بدر الدين عرودكي معهد العالم العربي- باريس ودار الأهالي، دمشق، (الطبعة العربية١٩٩٩، ص٧٣-٧٤.

(٥٦) أنظر: أريان، الهند، المصدر السابق، الفقرة ٤٣، ٧؛ كذلك: فيوفراست، IX، ٣- ٤، ٨. حيث يجري الحديث عن أن المشاركين في هذه الرحلة قد ابحروا من جريتيول في خليج السويس».

(٥٧) أنظر: أريان، رحلة الاسكندر المقدوني، موسكو- لينينجراد ١٩٦٢، (II, 20,6-10) VII.

(٥٨) أريان، الهند، المصدر السابق، ٢١- ٣٢.

(٥٩) أنظر الحاشية رقم أربعين.

(٦٠) أنظر: خفستوف، ميخائيل، تاريخ التجارة الشرقية لمصر الإغريقية- الرومانية، فارزان١٩٠٧

(٦١) أنظر: ديودور الصقلي، المصدر السابق، ٩٦-٤٨، ٤ وبالذات٤٢، ١-٦ ز

(٦٢) نفسه؛ قارن كذلك: لمحات من تاريخ أفريقيا، المصدر السابق، ص٥٣.

(٦٣) لاحظ عن هذا: جلب ياوير، عن موقع جنوب شبه الجزيرة العربية في التجارة البحرية في النصف الثاني من الألف الأول ق.م.، مجلة مروي، العدد الثاني، ص٢٠٩-٢٢٧.

(٦٤) نفسه، كذلك: أسترابون (XVI,4,24) كذلك: بليني الكتاب السادس،١٠٤، ١٥٢؛ كذلك: كتاب الطواف...، الفقرات١٦-١٧، ٢١، ٢٤-٢٥، ٢٧-٣٠.

(٦٥) عن رحلة Eudoxus أنظر: استرابون II,II,4

(٦٦) أنظر كتاب الطواف، الفقرة٥٧؛ وكذلك: بليني، VI,101

(٦٧) كتب استرابون (II,7,1a) يقول «... عرفت أن حوالي ١٢٠ سفينة يقومون برحلات من ميناء القصير(ميوس هرموس على البحر الأحمر) إلى الهند...».

أنظر أيضا : كتاب الطواف، الفقرة ٣١؛ كذلك: بليني، (VI, 84).

(٦٨) بليني، الكتاب الثاني الفقرة١٦٨.

(٦٩) كتاب الطواف، الفقرة ٢٦.

أ. د. محمد السيد عبد الغني (*)

المبادلات التجارية والجمارك بين الواحات والفيوم في العصر الروماني

في بحثين سابقين لي عن الواحات المصرية (في الصحراء الغربية المصرية) في ضوء الوثائق البردية - أحدهما يتناول الواحات في العصر الروماني، والآخر في العصر الروماني المتأخر (البيزنطي) (١) . عالجت موضوعات عديدة تتصل بالواحات تاريخياً كما وردت في كتابات المؤرخين والجغرافيين والكتاب القدماء (الكلاسيكيين) ، وإداريا من حيث تتبع كيفية حكم وإدارة الواحات من قبل السلطات الرومانية في مصر كما يتضح من الوثائق البردية ذات الطبيعة الجدلية والتي استغرقت قدراً من التحليل والنقاش في البحثين . كما خصصت قدراً لا بأس به من هذين البحثين لتتبع أوجه العلاقات المختلفة بين سكان الواحات وسكان وادي النيل في الفترتين الرومانية ثم البيزنطية والأنشطة الاقتصادية لسكان الواحات والمبادلات التجارية بينهم وبين بقية الأقاليم المصرية .

ولما كان موضوع الورقة الحالية يتناول «المبادلات التجارية والجمارك بين الواحات والفيوم في العصر الروماني» فيحسن بنا أن ننطلق من معطيات البحثين السابقين فيما يتصل بأهم منتجات الواحات في تلك الفترة وبالتالي الحديث عن أهمية صادراتها ، ثم ما كانت تحتاج إليه من وادي النيل وما جاوره وبالتالي أهم وارداتها. تُعد الزيوت النباتية (خصوصاً زيت الزيتون) من المنتجات المميزة للإقليم الليبي (الصحراء الغربية المصرية بما فيها - وعلى رأسها - الواحات) منذ العصر البطلمي المبكر كما يتضح من وثيقة عوائد الدخل من عصر بطلميوس الثاني فيلادلفوس(٢) في النصف الأول من القرن الثالث ق.م . ويبدو أن «زيت الواحات» ظل يحظى بشهرة متميزة على مر القرون في أرجاء مصر: فمن بين شروط عقد مرضعة في أوكسيرينخوس (البهنسة) من أواخر القرن الأول

(*) أستاذ كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الميلادي أن تحصل - ضمن ما تتقاضاه نظير إرضاع الطفل - على قارورتين من «الزيت الواحاتي» شهرياً[٣] . ويبدو أنه نظراً لجودة زيت الزيتون الواحاتي كانت تحدث مغالاة في أسعار بيعه من آن لآخر، لذا ينبه أغ أخاه في خطاب من القرن الثالث الميلادي بألاّ ينساق وراء هذه المغالاة وأن يعلم أن السعر السائد آنذاك لزيت واحة آمون (سيوة) هو ٢٢٠ دراخمة في حين يباع زيت الواحة (الواحة الصغرى على الأرجح القريبة من أوكسيرينخوس مصدر هذا الخطاب) بمائتي دراخمة[٤] (لم يُحدد مقدار الزيت الذي يُباع بتلك الأسعار) .

ومن الحاصلات الزراعية الأخرى التي تجود وتكثر زراعتها في الواحات الشعير حيث لا يحتاج إلى كميات كبيرة من المياه . وكذلك الثوم الذي يبدو أن زراعته كانت تجود في الأماكن الصخرية ومنها تربة الواحات كما تشير إلى ذلك إحدى وثائق أرشيف زينون من عام ٢٦١/٢٦٠ ق.م. إذ يُنحي أحد وكلاء زينون باللائمة على بعض القائمين على زراعة الثوم من أنهم لم يقوموا - في الوقت المناسب - بزراعة الثوم في تربة الواحات الصخرية التي تجود زراعته فيها[٥] .

ومن بين حاصلات الواحات الزراعية الشهيرة الكروم وبالتالي اكتسب نبيذ الواحات شهرة عند الكتّاب الكلاسيكيين إذ يشير سترابون إلى جودة وتميز نبيذ واحة سيوة (XVII . 813) ولكن من الغريب أنه رغم إشارة سترابون هذه فإن الكروم والنبيذ من الواحات لا تظهر في الوثائق البردية من الواحات على مدى القرنين الأولين من الحكم الروماني . ربما لعبت الصدفة دوراً في هذا الأمر خصوصاً مع قلة الوثائق البردية عن الواحات من تلك الفترة حتى الآن ، ولعل كشوفاً لاحقة من الوثائق البردية تلقي الضوء على هذه النقطة . ولكن حتى الآن فإن إنتاج الواحات من النبيذ والإشارة إليه في الوثائق كسلعة تصديرية من الواحات لا يتحقق إلاّ مع نهايات القرن الثاني وأوائل الثالث الميلادي كما سنرى . ويبدو أن هذا الاهتمام بزراعة الكروم وصناعة النبيذ في الواحات قد تواصل في العصر الروماني المتأخر (البيزنطي) كما يتضح من تصوير الكروم بدرجة معقولة في عدد من الآثار المسيحية في الواحات ولا سيما مقابر «البجوات» في واحة الخارجية[٦] .

وبخلاف الحاصلات الزراعية فإن تربة الواحات كانت منتجة لبعض العقاقير والعناصر المعدنية ذات الاستخدامات الطبية مثل حجر الشبة وكذلك بعض مواد الصباغة والتلوين طيلة العصر الروماني . فهناك مثلاً سجل لبائع عقاقير (صيدلي) من البهنسة من حوالي منتصف القرن الثالث الميلادي مدوّن به كميات العقاقير الموجودة لديه ومن بينها كميات من الشبة تقدر بثلاثين من «بسوبثيس» عاصمة الواحة الصغرى (البحرية) بالإضافة إلى أصباغ من

الواحات تزن ثلاثة تالنتات ، بالإضافة إلى عقاقير أخرى دوّن كمياتها بدقة[٧]. كما كان من بين المنتجات الواحاتية التي تصدر ملح الواحات الذي كان يُصدّر لبعض المناطق في وادي النيل .

أما عن أهم السلع التي كانت تحتاج إليها الواحات من الوادي ولم تكن متوافرة في الواحات فيأتي على رأسها القمح الذي يحتاج إلى كميات منتظمة ووفيرة من المياه وتربة خصبة جيدة وهي ظروف غير متوافرة في الواحات ، ولذلك كانت الواحات مستثناة من المشاركة في الأعباء الإجبارية المتصلة مثلاً بتوفير حمير ودواب حمل لنقل القمح من المخازن حسبما يتضح من مرسوم للوالي أيميليوس ساتورينليوس عام ١٩٧ إلى حكام نومات إقليم مصر الوسطى السبعة والفيوم - مع استثناء الواحة (الصغرى) التابعة إدارياً لهذا الإقليم - بضرورة إجبار الحمارين في المناطق المعنية على أن يقوم كل منهم بتقديم ثلاثة حمير لنقل القمح إلى المخازن[٨]. كما كان سكان الواحات في حاجة إلى بعض السلع الأخرى المتفرقة التي كانت تأتي من مناطق الوادي ، كما يبدو أنهم كانوا بحاجة إلى شراء دواب الحمل وعلى رأسها الإبل - لنقل سلعهم - تصديراً واستيراداً - بين الواحات ومناطق الوادي ، وكانوا يشترون تلك الدواب في الأغلب من مناطق الوادي الأقرب لكل واحة . ومن الأمثلة على ذلك اليام أحد سكان قرية كوسيس بالواحة الكبرى (الخارجة) بشراء ناقة من أحد جنود الفرسان في دندرة في وثيقة تعود إلى عام ٣٠٢م[٩] .

والآن ننتقل إلى المبادلات التجارية والمعاملات الجمركية بين الواحات وإقليم الفيوم في العصر الروماني، وسوف نستقي مادتنا حول هذه الجزئية بصورة أساسية من الوثائق البردية ولاسيما من إيصالات الرسوم الجمركية التي كان يصدرها موظفو الجمارك لمن يقومون بنقل السلع بين الجانبين[١٠] . وإذا كانت الواحات المصرية متناثرة في الصحراء الغربية لمسافات قريبة نسبياً من وادي النيل (مثل الواحة الصغرى أو «البحرية»)، أو بعيدة إلى حد ما منه (كالواحة الكبرى التي تضم حالياً واحتي الخارجة والداخلة بمحافظة الوادي الجديد)، أو تبعد كثيراً في أقصى الغرب (مثل واحة آمون أو سيوة الحالية التابعة لمحافظة مطروح) فإن إقليم الفيوم كان أشبه بواحة كبيرة تقع على مقربة من وادي النيل عند شماله الغربي. إن منخفض الفيوم يقع على بُعد نحو مائة كيلومتر إلى الجنوب الغربي من رأس الدلتا المصرية، وقد اعتمد في ماهيته ووجوده على موقعه حول بحيرة قارون (بحيرة موبريس القديمة) التي تستمد مياهها من بحر يوسف المتفرع عن النيل[١١]. هذا التشابه النسبي لموقع الفيوم والواحات إلى الغرب من وادي النيل ربما ساعد في ازدياد المبادلات

التجارية بين الجانبين. وسنحاول من خلال بعض الأمثلة المتاحة من إيصالات الرسوم الجمركية المكتوبة على أوراق البردي من العصر الروماني أن نرصد هذه الظاهرة قدر الإمكان. وعلى الرغم من أن العالم «سيبسيتان» في مؤلفه «الرسوم الجمركية في مصر اليونانية الرومانية» قد يسّر هذه المهمة من خلال الجداول التي أعدها حول هذه الرسوم الجمركية وأفرغ فيها بيانات عدد كبير من إيصالات الرسوم الجمركية - الصادرة في أغلبها من جمارك الفيوم - إلاّ أن الصعوبة في بيانات هذه الإيصالات هي أنها نادراً ما تذكر الجهة الصادرة إليها السلعة أو الواردة منها. ومع ذلك فلسوف نبدأ بهذا العدد القليل من الإيصالات الوارد بها أن جهة التصدير أو الاستيراد هي الواحات بصورة مؤكدة، ثم نحاول أن نستنتج - على ضوء ما أسلفنا من سلع الواحات وعلى ضوء البيانات المؤكدة من الإيصالات الواضحة الدلالة - ما يمكن أن يكون له علاقة بسلع الواحات.

إن أقدم ما لدينا من هذه الإيصالات الجمركية المؤكدة الدلالة هو إيصال يعود إلى عام ٧٠م. ويشير إلى بعض سلع الواحات الشهيرة. ففي هذا الإيصال يدفع شخص يُدعى سارابيون رسماً يُقدّر بـ ١٪ على حمولة حمارين أحدهما يحمل ثوماً والآخر يحمل شعيراً من الواحة ولا تتضح جهة المصدر إليها تلك السلع وإن كانت على الأرجح أوكسيرينخوس (البهنسة) إذ أن الوثيقة من بردي أوكسيرينخوس (كما أن الأرجح أن تكون الواحة هي الواحة الصغرى أو البحرية الأقرب إلى أوكسيرينخوس). وعدا هذه الوثيقة لا نكاد نجد إيصالات رسوم جمركية من القرن الأول الميلادي تتصل بسلع الواحات بشكل مؤكد.

أما من القرن الثاني الميلادي فنجد إيصال استلام رسم جمركي صادر من أحد المنافذ الجمركية (يُدعى منفذ أو نقطة «نيتبو» المؤدية إلى الفيوم بأنه قد قام بدفع رسم مقداره ١٣٥دراخمة فضية نظير نقله ثلاثين تالنتاً من الشبة الخفيفة (تعادل وزن ١٢ تالنتاً من المعدن) من الواحة الصغرى إلى إقليم الفيوم. ويعود تاريخ هذه الوثيقة إلى عام ١٤٥م[١٣].

ومن أواخر ذلك القرن الثاني أو أوائل الثالث نجد في بعض الوثائق من بردي لندن إيصالات استلام رسوم جمركية صادرة من جمرك سوكنوبايونيسوس (ديمة) بالفيوم تفيد سداد رسوم جمركية مقدارها ٣٪ على كميات من النبيذ الواحاتي الواردة من الواحات إلى الفيوم على ظهور الإبل[١٤]. وعلى الرغم من شهرة إقليم الفيوم منذ العصر البطلمي المبكر بإنتاج الكروم والنبيذ من أجل استهلاك قاطنيه من المستوطنين الإغريق إلاّ أنه يبدو أن نبيذ الواحات كان ذا مذاق خاص وجودة عالية بحيث حرص إغريق (ورومان)

الفيوم على استيراده رغم توافر المنتج المحلي من النبيذ.

أما عن السلع التي كانت تُصدّر - على الجانب الآخر - من الفيوم إلى الواحات فيأتي على رأسها - كما أسلفنا - القمح. ولدينا بضعة إيصالات استلام خاصة برسوم جمركية على صادرات القمح من الفيوم إلى الواحات وكلها صادرة من منفذ سوكنوبايونيسوس الجمركي. أول هذه الإيصالات بتاريخ عام ١٤٥م. وفيه يدفع شخص يُدعى هارباجاثيس رسماً قدره ٣٪ عن ٢٠ إردب من القمح محمولة على اثنين من الإبل[١٥]. وفي وثيقة ثانية تعود إلى القرن الثاني أو الثالث الميلادي يدفع شخص يُدعى سوتاس رسماً قدره ٣٪ على كمية من القمح محمولة على ظهور جملين ومهر. وفي وثيقة ثالثة ترجع إلى عام ١٨٢ أو عام ٢١٥م. يدفع شخص يُدعى ثيسنوفيس رسماً قدره ٣٪ على القمح المصدّر من الفيوم إلى الواحات عبر بوابة سوكنوبايونيسوس ويبدو أنها كانت كمية كبيرة وذلك من واقع عدد دواب الحمل التي تحملها وهي خمسة من الجمال وأربعة من المهر وثلاثة حمير[١٦] (ولم تُحدد في الإيصال كمية القمح المنقولة).

ومن منفذ جمركي آخر بالفيوم هو منفذ قرية ديونيسياس (قصر قارون) غرب الفيوم نجد سلعاً أخرى تُصدّر من الفيوم إلى الواحات. ففي وثيقة من عام ١٥٨ يقوم أحد الأشخاص بتصدير أربعة من الجمال من ذلك المنفذ إلى الواحة (الصغرى على الأرجح / البحرية)، ويدفع رسماً جمركياً يتمثل في رسم حراسة الطرق الصحراوية eirmofylakia ومقداره في هذه الحالة ثمان دراخمات[١٧].

وفي إيصال آخر من القرن الثاني الميلادي صادر من هذا المنفذ الجمركي يقوم شخص يُدعى بيكوسيس بدفع رسم جمركي مقداره ٣٪ على كمية من السلع والمنتجات المتنوعة ospree التي كانت في طريقها من الفيوم إلى الواحة على متن بعض الجمال من خلال منفذ ديونيسياس الجمركي[١٨].

إذا تأملنا محتويات إيصالات استلام رسوم الجمارك السالفة الذكر بين الواحات والفيوم نلاحظ النقاط الآتية:

النقطة الأولى: أن المنتجات الشهيرة للواحات والتي تمثل صادراتها والتي سبق لنا رصدها في الأبحاث السابقة تظهر بشكل واضح في الإيصالات الحالية وتتمثل في الشعير والثوم والنبيذ الواحاتي وحجر الشبة. ومن المرجح أن تصدير مثل هذه السلع من الواحات إلى الفيوم لم يكن محدوداً كما قد يوحي هذا العدد الضئيل من إيصالات دفع الرسوم الجمركية. هذا العدد الضئيل هو فقط الذي ورد فيه صراحةً أن مصدر هذه السلع هو الواحات. ويبدو أن هناك عدداً آخر وأكبر من الإيصالات لم يحرص محرروه على ذكر مصدر السلعة واكتفوا بذكر

السلع والرسوم الجمركية المفروضة عليها والتي تم دفعها . كما أن هذه الإيصالات الجمركية هي المتاحة حتى الآن (وعددها بضعة مئات) وربما يكشف النقاب عن أعداد غيرها في الحفائر الجارية بالفيوم والواحات ، هذا بخلاف ما ضاع منها واندثر . نفس هذا القول يصدق على السلع التي كانت ترد إلى الواحات من الفيوم وعلى رأسها القمح والإبل والسلع المتنوعة الأخرى .

ولكن مما يلفت النظر في هذه الإيصالات أنها تخلو من سلعة واحاتية شهيرة كان يفترض أن تصدر إلى الفيوم عبر منافذ سوكنوبايونيسوس وديونيسياس ولكننا لا نجدها ممثلة ضمن صادرات الواحات ، هذه السلعة هي زيت الواحات الذي أسلفنا الإشارة إليه . ولكن ما يبدد استغرابنا أن تلك المنافذ الجمركية بالفيوم كانت هي نفسها تصدّر الزيت والزيتون[٢٩] إلى أماكن أخرى كما يتضح من أمثلة كثيرة في جداول هذه الإيصالات وبالتالي لم تكن بحاجة إلى استيراد هذه السلعة من الواحات. وربما كان زيت الواحات يُصدّر إلى أماكن أخرى من وادي النيل لم تكن تكثر بها زراعة النباتات الزيتية كالزيتون .

كما أن صادرات الفيوم من القمح - عبر منفذ سوكنوبايونيسوس الجمركي خاصةً - كثيرة[٣٠] ، ولكنها في أحوال كثيرة تفتقر إلى تحديد الجهة المصدر إليها. وإذا كانت الإسكندرية تستأثر بقدر كبير من سلع الفيوم وغيرها من الأقاليم المصرية باعتبارها عاصمة البلاد فلابد أن الواحات حظت كذلك بنصيب معقول من صادرات الفيوم من القمح في هذه الإيصالات المجهولة الوجهة وغيرها . ويبدو أنه كانت هناك شركات أو مؤسسات بعينها أو أفراداً بعينهم[٣١] تخصصوا في التجارة مع الواحات كما نستشف من بعض الوثائق . وفي وثائق أخرى نجد بعض السلع الآتية إلى الفيوم دون أن تُحدد الجهة القادمة منها، ولكن يبدو أن بعضها على الأقل قد ورد من الواحات نظراً لشهرة الواحات بإنتاجها وتصديرها. من هذه السلع العلح[٣٢] الذي كانت الفيوم تستورده إما من الإسكندرية أو الواحات بكميات كبيرة ربما لتمليح الأسماك التي يتم صيدها من بحيرة موريس[٣٣]. ومن هذه السلع كذلك البلح (التمر) المضغوط (العجوة) Vpathe Vjom [٣٤] الذي تشتهر الواحات حتى اليوم بتصديره .

النقطة الثانية الجديرة بالتوقف عندها في تلك الإيصالات هي الرسوم الجمركية التي كانت تُفرض على السلع المصدّرة من الواحات أو الواردة إليها. نلاحظ من خلال معظم الإيصالات المذكورة والتي ورد بها صراحةً أن الواحات هي المصدّر أو المستورد للسلع المذكورة أن مقدار الرسوم الجمركية المفروضة على تلك السلع - لا سيما اعتباراً من أواخر حكم هادريان (١٣٦م. فصاعداً) - هي رسم يُطلق عليها ضريبة الـ ٣٪ (وتكتب هكذا ١/ و ٢٪ في أغلب الأحيان أو rkai

الاستثناءات القليلة في هذه المجموعة من الإيصالات الخاصة بسلع الواحات هي فرض رسم قدره ١٪ فقط على حمولة من الشعير والثوم صادرة من الواحات للبهنسة عام ٧٠م. . وفي إيصال آخر نجد الرسم المفروض على أربعة جمال مصدّرة من الفيوم إلى الواحة (الصغرى ربما) عبر منفذ ديونيسياس هو الرسم الخاص بحماية الطرق الصحراوية erhmojnlakia

وهكذا نرى أن رسم الجمارك من الواحات وإليها ومن أماكن أخرى داخل مصر ربما كان خلال القرن الأول وجزء من القرن الثاني الميلادي حتى أواخر عصر هادريان كان ١٪ في أغلب الأحوال (و٣٪ في أحوال قليلة)[٣٥]. ولكن يبدو أن ذلك الرسم قد عُمم من أواخر عصر هادريان ليصبح ٣٪ عموماً (من قيمة السلعة على الأرجح وليس رسماً جمركياً ثابتاً كما يرى البعض) [٣٦] .

ولكن الأمر المثير للدهشة والتساؤل هو أننا نادراً ما نجد في إيصالات الرسوم الجمركية الخاصة بالواحات رسم حماية الطرق الصحراوية (الذي كان يُطلق عليه erhmojnlakia أو Vicnou erhmojnlakia في حين نجد هذا الرسم مفروضاً على سلع تنتقل بين الفيوم ووادي النيل إلى منف أو غرب الدلتا أو شمالاً إلى الإسكندرية (دون تحديد للوجهة في معظم الأحيان) لتغطي رسم عبور المناطق الصحراوية بين الفيوم وتلك المناطق . وعبر هذه المناطق نجد في الإيصالات أحد رسوم ثلاثة تفرض على السلع المنقولة وهي إما رسم ٣٪ أو رسم حماية الطرق الصحراوية أو رسم ميناء منف Memjew limhn للسلع المنقولة عبر هذا الميناء النهري منه أو إليه[٣٧] . ولكن في بعض الإيصالات القليلة نجد هذه الرسوم الجمركية الثلاثة تدفع جنباً إلى جنب من قبل من يقوم بنقل السلعة وأحياناً نجد اثنين من هذه الرسوم يُدفعان معاً في نفس الإيصال الجمركي. أما القاعدة فهي أن معظم هذه الإيصالات كانت تحتوي على ضريبة واحدة[٣٨] (وهذا هو الحال بالنسبة للإيصالات المنصوص فيها صراحةً على أنها تخص الواحات).

من هنا لابد من تعليق أو محاولة لتفسير عدم وجود رسم «حماية الطرق الصحراوية» - الذي كان يستغل في حماية القوافل التجارية عبر الصحراء ودفع أجور حراس تلك الطرق وصيانة الطرق الصحراوية ذاتها[٣٩] - في إيصالات رسوم السلع الصادرة من أو الواردة إلى الواحات رغم وجودها في إيصالات أخرى ذات مسافات أقرب كالمسافة من بعض منافذ الفيوم إلى منف مثلاً أو مناطق بالقرب منها في جنوب غرب الدلتا . يحاول البعض[٤٠] تفسير حدود فرض رسم «حماية الطرق الصحراوية» بأنه كان يفرض على السلع التي تنتقل من حدود ابيستراتيجية[٤١] إلى حدود ابيستراتيجية أخرى داخل مصر ،

وان هذا الرسم كان مقداره ٦ دراخمات تفرض على البعير الواحد عند عبوره من الدلتا مثلاً إلى مصر الوسطى بغض النظر عن المسافة التي قطعها ومن أي نقطة في الدلتا بدأ وإلى أى نقطة في مصر الوسطى انتهى .

أعتقد أن هذا الرأي الافتراضي لا يمكن أن يكون دقيقاً وأنه على الأرجح كانت هناك طرق صحراوية بعينها محددة ومعروفة بحيث إذا سلكها ناقل البضائع دفع تلك الرسوم، وأنه كانت هناك بعض من هذه الطرق توصل ما بين الفيوم ومنف على النيل . أو بين الفيوم والضفة الغربية للفرع الكانوبي للنيل في غرب الدلتا إلى الشمال من الفيوم .

إذا كان الحال على هذا النحو ما بين الفيوم ومنف أو الفيوم وغرب الدلتا فما بالنا بالمسافة ما بين الفيوم وأي من واحات الصحراء الغربية المصرية (وأقربها الواحة الصغرى أو البحرية) وهي مسافة تقع كلها في قلب الصحراء أليس الأولى أن تُفرض على ناقلي السلع عبر هذه الصحراء القاحلة رسوم «حماية الطرق الصحراوية»؟ الإجابة المنطقية بغير شك هي بلى بكل تأكيد. إذاً يبقى السؤال الحائر: لماذا لم توجد - والحال كذلك - في إيصالات السلع الواحاتية في الأغلب الأعم؟ . وجوابي – أو بالأحرى – افتراضي هو أن دفع هذا الرسم على سلع الواحات - الصادرة أو الواردة - كان أمراً بديهياً وربما كان يُدفع عند منفذ المغادرة بلا إيصال رسوم ولا يسمح للشخص أصلاً بولوج هذه الطرق الصحراوية والتمتع بحماية حراس الصحراء إلاّ بعد التأكد من دفعه لذلك الرسم . وربما كان هذا الرسم يُدفع على دواب الحمل التي تنقل السلع وربما كان الرسم مُحدداً حسب نوع الدابة (بعير أو حمار أو مهر) وحسب مسافة الطريق. أما السلع فكان يدفع عنها ضريبة الـ ٢٫٥٪ التي صارت لاحقاً ٣٪ كما أسلفنا، وهي التي كان يتسلم إيصالاً عنها .

أما المثال الوحيد الذي ورد به دفع هذا الرسم «حماية الطرق الصحراوية» عن سلع متجهة إلى الواحات فيكاد يؤكد افتراضي السابق . فقد ورد هذا الرسم عند الحديث عن تصدير أربعة من الإبل من قرية ديوتيسياس إلى الواحة الصغرى[٣٦]. وهنا فإن الجمال غير محملة بسلع بل أنها هي نفسها سلعة التصدير ومن هنا دُفع عنها الرسم البديهي الخاص «بحماية الطرق الصحراوية» وحده ولم يُدفع رسم الـ ٣٪ على السلع حيث أنها لا تحمل - في الأصل - سلعاً ؛ لذا لزم التنويه في هذه الحالة بأن الرسم المفروض على الدواب في هذه الطرق قد تم أداؤه . وهناك أمثلة أخرى[٣٧] تؤكد هذه الفرضية وهي فرض رسم «حماية الطرق الصحراوية» وحدها على الإبل أو دواب الحمل الفارغة (التي لا تحمل سلعاً) عند عبورها للطرق الصحراوية .

الهوامش

(١) محمد السيد عبد الغني ، جوانب من الحياة في مصر في العصرين البطلمي والروماني في ضوء الوثائق البردية ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، ٢٠٠٦ :
«الواحات المصرية في العصر الروماني» ص ص ٣١٣–٣٥٠ وهو بحث نشر بالإنجليزية ضمن أعمال الملتقى المصري - الإيطالي الأول بالقاهرة:
Mohamraed Abd-el-Ghany, "The Oases in Roman Egypt in the light of papyri" . Acts of 1st Egyptian - Italian Colloquia (Rome & Egypt) vol) , Antichita Classica , Cairo , 6 - 9 February 1989) , pp. 3 - 12 .
والبحث الثاني في الموضوع ضمن البحوث المنشورة في هذا الكتاب هو :
«الواحات المصرية في العصر الروماني المتأخر» ص ص ٣٥١–٣٨٥ وقد نشر باللغة الإنجليزية ضمن أعمال الملتقى المصري - الإيطالي الرابع في مدينة الخارجة عاصمة الوادي الجديد / أكتوبر ١٩٩٨ :
M . Abd-el-Ghani , "The Egyptian Oases in the Byzantine period in the light of papyri". Acts of the 4th Italo - Egyptian Colloquia (the Culture of the Oases from the Antiquity to the Modern Age), El- Kharga, 22 - 27 October 1998, pp. 59 - 70 .
وسوف يشار إلى البحثين في طبعتهما العربية في الكتاب المذكور أعلاه.

(٢) P . Revenue Laws , Col. 40 , ll. 14 - 20 ; Col . 61 , ll . 1 - 12 .
(٣) P . S . I . 288 , Oxyrhynchos, 87 A. D., ll. 5-6.
(٤) P. Oxy. 2783, 3 rd century A. D., ll. 6-9.
(٥) P. S. I. 433, Fayum, 260/60 B.C., ll. 4 - 7. ٢٩ وحاشية رقم ٣٦٣ ، ص ، السابق ، المرجع ، الغني عبد السيد محمد (١)
(٦) p. Oxy. 2567 , Oxyrhynchos , 253 A.D. , ll . 5 - 7 , 14 - 15 , 20 .
(٧) B. G. U. 15 , Fayyum , 197 A.D. , ll . 1 - 2 , 4 - 6 , 19 - 22 .p
(٨) P. Grenfell II, 74 , ll . 1 - 5 , 6 - 9 .
(٩) P. J. Sijpesteijn , Customs Duties in Greco - Roman Egypt , Zutphen , 1987 .
(١٠) A. K. Bowman , Egypt after the Pharaos , British Museum Publications , 1986 , p. 32 .
(١١) P. Oxy. XII . 1439 , Oasis , 70 A.D.
(١٢) B. G. U. III . 697 , Socnopaei Nesus , 145 a.D.
(١٣) P. Lond. III . 1266 (b) (p. 38) , Socn . Nes . , 24 - 4 . 180 or 212 A.D. ; P. Lond. III . 1266 (a) (p. 38) , Socn . Nes . 9 . 7 . 181 or 211 A.D. ; P.Lond. III . 1266 (c) (p. 38) ; Socn . Nes . , 25 - 5 . 183 or 213 A.D.
(١٤) P. Grenfell II . 50 (b) , Socn . Nes . , 2 . 10 . 145 a.D.
(١٥) S. B. XII , 10932 , Socn . Nes . 31 . 4 . 183 or 215 A.D.
(١٦) P. Fayum Towns 68 , Dionysias , 21 . 5 . 158 A.D.
(١٧) B. G. U. XIII . 2306 , Dionysias , 2nd century A.D.
(١٨) See for examples :
(١٩) P. J. Sijpesteijn , op. cit . , pp. 108 - 109 : nos. 145 , 152 , 154 , 155 - 156 , 160 - 162; pp. 110 - 113 : nos. 163 - 66 , 167 , 172 - 180 ; pp. 124 - 25 : nos. 466 - 470 , 475 .
(٢٠) Ibid., pp. 126 - 127 ; nos. 508 - 518 , 526 - 529 ; pp. 128 - 129 : nos. 541-43 , 548 - 550 , 552 - 57 , 560 , 565 - 68 .
(٢١) انظر على سبيل المثال وتيلتي :

P. Lond. III , 1166 (b) (p. 39) , 181 or 212 A.D. and P. Lond. III , 1266

(p. 38) , 182 or 213 A.D.

حيث يرد في الأولى اسم الشخص الذي استورد نبيذاً من الواحة على أنه «بانوفيس» وفي الثانية يرد اسم مستورد النبيذ من الواحة كذلك على أنه «خانوفيس» والأرجح أنه «بانوفيس» الوارد ذكره في الوثيقة الأولى، لا سيما لتشابه الباء والفاء وانتمائهما لنفس المجموعة الصوتية .

وكذلك وليفتر :

S. B. XII , 10932 , 183 or 215 A.D. and P. Lond. III , 1166 (c) , (p. 38) , 182 or 213 A.D.

حيث يظهر في الأولى شخص يدعى ديستوفيس يصدر قمحاً إلى الواحة وفي الثانية يرد نفس الاسم وهو يستورد نبيذ من الواحة على الأرجح .

(٢٢) أنظر على سبيل المثال الوثائق الآتية التي نجد فيها ملحاً مستوراً إلى الفيوم :

P. Amherst II 77 , 52 , 139 A.D. ; P. Hamb. III 213 , 151 A. D. ;

أنظر كذلك :

P. Siljestrom , op. cit. , pp. 130 - 131 ; nos. 613 - 615

حيث نجد عدداً من الإيل المحملة بالملح والملح الخام المستورد إلى الفيوم .

(٢٣) ibid , p. 51

(٢٤) ibid, nos. 621-624.

(٢٥) أنظر الوثائق الآتية:

P. Ulich. Inv. 6057 (3) , Bacchias, 43 / 44 A. D.

حيث نجد رسما قدره ٢٣ مفروضا على حمار لمحي اللون مستورد إلى الفيوم من مكان آخر

B. G. U III 766 , Karanis , 92 A. D.

حيث فرض رسم ٢٣ على مقدار من الزيت مصدر من الفيوم إلى مكان آخر . أنظر كذلك :

P. Berl. II 95 , Socn. Nes. , 49 A. D.

حيث فرض نفس الرسم على مقدار آخر من الزيت

P. Tebt. II 565 , Tebtunis , 113 A. D.

حيث فرض رسم ٢٣ على ملابس وأربية خاصة بالأطفال والنساء مستوردة للفيوم من مكان آخر .

Cf. P. J. Siljestrom , op. cit. , pp. 25 , 81 and n. 16 ,

(٢٧) Internal customs Duties Ibid., pp. 16 - 26 an.

(٢٨) Ibid., P. 59, note 21

(٢٩) Ibid., P. 32.

عن حراس الطرق الصحراوية وحراس الطرق المؤدية إلى الواحات الجبلية أنظر:

P. Amherst II 77 , 139 A. D. ; P. Achmim 7 , col. II , L. 36 ,

(٣٠) C. A. Nelson in the Introduction to BGU XV 2543 apud P. J. Siljestrom , Op. Cit. , p. 29 .

(٣١) الأبيمارتيجية هي إقليم جغرافي كبير وكانت مصر تقسم ثلاث ابيمارتيجيات هي الدلتا ومصر الوسطى (إقليم النومات السبعة) ومصر العليا (طيبة) وكانت كل منها تنقسم إلى عدة نومات أو مديريات.

(٣٢) See note 17 above.

(٣٣) B. G. U IV 1068 (b), Socn. Nes. , 143 A. D. ; P. Berol. Inv. 25090 , socn. Nes. , 145 A. D. ; P. Lond. III 316 (c) (p. 84), Socn. Nes., 145 D. ; , 147 A. D; P. Coll. Youtie I 47, Socn. Nes. , 145 A. D. ; S. B. XII 10914, Karanis , 214 A.D.

والسلع الواردة في الوثائق السابقة هي بالترتيب : ماشية عربية - حمارٌ جلب لأداء أعمال حقلية فيما يبدو – حمار من دواب الحمل في الوثيقتين - جملان فارغان وهناك أيضاً أمثلة أخرى عديدة من القرن الثاني. أنظر جداول سيلستيان :

P. J. Siljestrom , op. cit. , pp. 143 - 213 .

أ. د. أحمد بن محمد الزيلعي (*)

دينار عثر المضروب فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى ونطاق تداوله فى عثر وماجاورها

قبل الحديث عن هذا الدينار، وعن طُرُز سكّه، ونطاق تداوله، يحسن بناء الإشارة إلى المكان المنسوب إليه والمضروب فيه، وهو مدينة عثَر أو عَثْر التي كانت في زمانها من المدن الإسلامية التاريخية الشهيرة بمنطقة جازان (المخلاف السليماني)، وأقدم عاصمة لذلك المخلاف في تاريخه الإسلامي الوسيط، وهي ترد في المصادر التاريخية والجغرافية بتشديد الثاء (عثّر) أو بتخفيفها(عَثْر) منذ ماقبل الإسلامي، ولكل وجه من أوجه هذا اللفظ شواهده في الشعر الجاهلي، وشعر العصر الإسلامي المبكر؛ فعلى الوجه الأول يقول عروة بن العبد (ت. نحو ٣٠ق. هـ/٥٩٤م)(١).

كأنّ خُوات الرّعْن رِزّ زئيره ... من اللائي يسكنّ الغريف بعثّرا

ويقول آخر(٢):

ليث بعثّر يصطاد الرّجال إذا ... ماالليث كذّب عن أقرانه صَدَقا

أما الوجه الثاني، وهو التخفيف (عَثْر) فقد ورد في قول عمرو بن زيد، أخي بني عوف(٣):

وصلنا إلى عَثْر وفي دار وائلٍ ... بهاليلَ منّا سادةٌ وأسودُ

ومثله قول الشاعر الأحوص (ت ١٠٥هـ/ ٧٢٣م)(٤):

أَلَمّتْ بعَثْرٍ من قَبَاءٍ نَزُورُنَا ... وأنّا قُبَاءٌ للمَزَاوِرِ من عَثْرِ

(*) أستاذ بقسم الآثار – كلية السياحة والآثار – جامعة الملك سعود

وترد عثر في المصادر العربية على أنها مخلاف أي إقليم أو ناحية جليلة كما يصفها المقدسي[٥]. وبذلك يطلق هذا المخلاف على النصف الشمالي من منطقة جازان الحالية والممتد من مدينة صَبْيا (المعروفة حالياً)، فشمالاً إلى حدود المنطقة مع إمارة منطقة عسير من الشمال والشرق؛ أما من الغرب فيحده البحر الأحمر. كما ترد عثر بوصفها محطة من المحطات الرئيسية على طريق الحج والتجارة اليمني الساحلي إلى مكة المكرمة عند كثير من الجغرافيين المسلمين[٦].

كذلك ترد عثر في بعض المصادر العربية على أنها مدينة ساحلية عامرة، وسوقاً تجارياً مزدهراً من ذلك مايصفه بها الهمداني (ت بعد ٣٤٤هـ/ ٩٥٥-٩٥٦م) من أنها «سوق عظيم»[٧]. ويصفها المقدسي (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) بأنها «مدينة كبيرة طيبة مذكورة، لأنها قصبة الناحية، وفرضة صنعاء وصعدة، وبها سوق حسن، وجامع عامر»[٨].

يضاف إلى ذلك أن مدينة عثر عرفت بأنها إحدى دور السك الإسلامية المشهورة في جزيرة العرب، حيث ينسب إليها الدينار العثري الذي هو موضوع هذه البحث المتواضع، وهو واحد من أشهر الدنانير المضروبة في الجزيرة العربية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي[٩]. وكانت تحسب به مقادير العشور التي يتم تقاضيها من اليمن، وبعض أقاليم الجزيرة العربية الأخرى التي يجري فيها تداوله[١٠]. وسيأتي الحديث عن هذا الدينار بعد.

وهكذا نلحظ أن لفظ عثر يطلق على مدينة عثر، وعلى مخلافها الذي يسمى باسمها «مخلاف عثر» والذي أشرنا إليه وإلى حدوده سابقاً. وفيما يخص المدينة نفسها يتضح أنها كانت محطة من المحطات الرئيسية على طريق الحج والتجارة اليمني الساحلي إلى مكة المكرمة. وأنها كانت عاصمة لإقليمها المشار إليه. وكذا كانت ميناءاً نشطاً له اتصالاته التجارية مع موانئ البحر الأحمر شمالها وجنوبها. وكذلك مع بعض موانىء الحبشة في الواجهة البحرية المقابلة من الغرب[١١].

أما اليوم فهي من المواقع الإسلامية المندثرة على ساحل البحر الأحمر بمحافظة صبيا الحالية، وتقع إلى الشمال من مدينة جازان الحالية بحوالي ٤٠كم، بالقرب من قوز الجعافرة المعروف في تلك الجهة. وبالتحديد على خط الطول ٢٦- و٤٢ شرقاً، ودائرة العرض ٠٨ - و١٧ شمالاً. وليس فيها في الوقت الحاضر أي آثار شاخصة، ومايميزها عما حولها من بُعد سوى السياج الذي أدارته عليها الإدارة العامة للآثار والمتاحف بوزارة المعارف (حالياً وكالة الآثار والمتاحف بوزارة التربية والتعليم).

ويعدّ موقع عثر من المواقع الأثرية المهمة في منطقة جازان. يُنسب إليه انه غني بالمعثورات الأثرية التي تظهر على سطحه بين فينة وأخرى من جراء السيول، ومن الرياح القوية التي تعتور سطح الموقع. وتتسبب في الكشف عن بعض المعثورات. وممن أشار إلى هذه الحقيقة المؤرخ محمد بن أحمد العقيلي الذي ينقل عن عبدالقدوس الأنصاري مايشير إلى أن مجموعة من اللقى الأثرية الثمينة وجدت سبيلها إلى متحف الآثار بجدة[١٢]. ويشير العقيلي كذلك إلى أن السيل كشف في بعض السنين عن ثلاثين بئراً في عثر وماحولها[١٣]. ومامن شك أن هذا العدد الكبير من الآبار يدلل اكتشافه على أهمية المكان، واتساعه، وكثافة سكانه، وثروته الحيوانية فيما مضى من عصور ازدهاره. ويؤكد تلك الأهمية لموقع مدينة عثر ماحظي به الموقع من اهتمام الإدارة العامة للآثار والمتاحف (وكالة الآثار والمتاحف حالياً) التي عملت على إجراء مسح شامل له في عام ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م تحت مسمى: القوز (٢١٧-١٠٨) الواقع في مضيق يسمى رأس طرفة. وهو عبارة عن مرسى طبيعي على ساحل البحر الأحمر من تلك الجهة، وذلك طبقاً لما يصفه به التقرير المنشور عن ذلك المسح الذي أجري في العام ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م[١٤]. بعد ذلك قامت الإدارة العامة نفسها بإجراء حفرية اختبارية في موقع عثر في العام ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، مالبثت أن نشرت نتائجها في السنة التالية في مجلة أطلال[١٥]. وكشفت تلك الحفرية عن نتائج في غاية الأهمية، يتعلق بعضها بالموقع من حيث اتساعه وأهميته الأثرية، واشتماله على وحدات معمارية تتمثل في وجود بقايا أساسات لجدران ومنشآت معمارية كانت قائمة في زمان إزدهار المدينة، وبعضها يتعلق بالمعثورات التي كشفت عنها الحفرية. والتي لايعنينا التفصيل فيها في هذا المكان.

دينار عثر:

أشرنا سابقاً إلى أن عثر هي إحدى دور السك المهمة في جزيرة العرب، وخصوصاً في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وهو القرن الذي وصل إلينا عنه حتى الآن أدلة نقدية من عثر. بل إن الدينار العثري بلغ في زمانه درجة كبيرة من القوة في التداول، ومن الشهرة في المصادر التاريخية التي أوردته، والتي عرضنا إلى ذكرها من قبل، بحيث كانت تقدّر به مداخيل الدول التي تتعامل به، وكذلك مستحقاتها من ضرائب وعشور على مختلف الأموال والتجارات السائدة فيها. وقد تقدّم أن مدينة عثر كانت لها أهمية كبرى بوصفها ميناءً يتحكم في تجارة البحر الأحمر بين اليمن والحجاز من جهة، وبينها وبين شرق أفريقيا من جهة أخرى.

يضاف إلى ذلك ما أشرنا إليه سابقاً من أنها كانت محطة من المحطات الرئيسية على طريق الحج اليمني إلى مكة، وأنها حتى اليوم تقع في بيئة زراعية ورعوية خصبة. كما أن النقود المنسوبة إلى عثر - وعلى الرغم من قلة المكتشف منها - فإنها تقع في فترة زمنية شهدت نشاطاً عباسياً ملحوظاً في سك الدنانير الذهبية بجزيرة العرب، وأن تلك الدنانير العثرية كانت من حيث الشكل، ودقة السك، والمضامين تتفوق على نظائرها المسكوكة في أنحاء أخرى متفرقة من الجزيرة العربية[١٦]. وهي مهمة كذلك في كتابة تاريخ منطقة جازان أو المخلاف السليماني: لكونها تعدّ سجلاً تاريخياً صادقاً وحافلاً بعدد من أسماء الحكام المحليين الجديرين بالدراسة في سياق تاريخي متسلسل سيغيّر - دون شك - كثيراً من معلوماتنا عن التاريخ السياسي لمنطقة جازان المعروفة قديماً باسم مخلاف عثر، أو المخلاف السليماني[١٧].

وعلى الرغم من ذكر دينار عثر أو الدينار العثري في بعض المصادر الإسلامية فإن ماوصلنا منه حتى الآن محدود العدد إذ لايتجاوز مائة قطعة موزعة على مختلف متاحف العالم، وبعض المجموعات الخاصة[١٨]، وهي جميعها - كما أوضحنا سابقاً - مؤرخة في سني القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي في حدود ماوصل إلينا من تواريخ هذا الدينار المهم. وأقدم تاريخ رصد له حتى الآن هو عام ٣٣٧هـ/٩٤٨م[١٩]. أما أحدث تاريخ فهو عام ٣٩٣هـ/١٠٠٢م. وهي موزعة على أسماء ثلاثة من الخلفاء العباسيين هم على التوالي المطيع لله (٣٣٤-٣٦٣هـ/٩٤٥-٩٧٣م)، والطائع لله (٣٦٣-٣٨١هـ/٩٧٣-٩٩١م)، والقادر بالله (٣٨١-٤٢٢هـ/٩٩١-١٠٣١)[٢٠].

وإلى جانب أسماء هؤلاء الخلفاء العباسيين الثلاثة حملت دنانير عثر عدداً من أسماء الأمراء المحليين هم على التوالي: محمد بن القاسم، وأبو القاسم علي ابن محمد، وأبو جعفر السعو بن محمد، وأبو محمد المغمر بن محمد، والفرج الطرفي، ويسرى بن عبدالله الطرفي. وهذه كلها أسماء جديدة لم تظهر في المصادر التاريخية المتاحة، وتعد إضافة مهمة إلى المعرفة الإنسانية بتاريخ منطقة جازان، واستقلالها الداخلي في ظل الخلافة العباسية[٢١].

أما طرز السك المتبعة في دينار عثر فهي موافقة لتلك المنفذة في مختلف الدنانير العباسية التي وصلت إلى علمنا من تلك الفترة، وما أمكن رصده منها في المجموعات العثرية التي وصلت إلى علمنا، يندرج تحت أربعة طرز نذكر منها:

١- الطراز الأول:

يحمل هذا الطراز على وجهه شهادة التوحيد، ثم اسم الخليفة العباسي

المطيع لله، يليهما في الهامش البسملة على سبيل الاختصار، وتاريخ الضرب، وعلى الظهر يحمل اسم الأمير الذي أمر بسكه فقط، يليه في الهامش قول الله تعالى: (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً. وننزل من القرآن ماهو شفاء للناس...)[٢٢].

٢- الطراز الثاني:

يحمل هذا الطراز على الوجه لفظ الوحدانية، وفي هامشه: يحمل البسملة المختصرة، وسنة الضرب، وعلى الظهر يحمل عبارة: «لله محمد رسول الله» ثم اسم الخليفة العباسي المطيع لله، وفي الهامش، يحمل الآية المذكورة في الطراز الأول، وإنما تنتهي عند قوله تعالى: (وننزل من القرآن)[٢٣].

٣- الطراز الثالث:

وتعلو وجهه شهادة التوحيد، ثم اسم الخليفة العباسي الطائع لله. يليهما هامشان: أحدهما داخلي، ويشتمل على البسملة المختصرة، وتاريخ الضرب، والآخر خارجي، وفيه قول الله تعالى: (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله). أما الظهر فيعلوه اسم الأمير الذي أمر بسكه. وفي الهامش الداخلي الآية المذكورة في الطراز الأول، وإنما تنتهي فقط إلى قوله تعالى: (وننزل من القرآن ماهو...)، أو (ماهو شفاء)، وفي الخارجي قوله تعالى: (لله الأمر من قبل ومن بعد)[٢٤].

٤- الطراز الرابع:

يشبه هذا الطراز الثالث في محتويات وجهه وظهره، أما الهامش فليس له إلا هامش واحد فقط، وهو يشبه كذلك في محتويات وجهه وظهره تلك التي في الهامش الداخلي من الطراز المذكور، وإن اختلف عنها ففي نص الآية: (وقل جاء الحق) التي تنتهي هنا عند قول الله تعالى: (وننزل من القرآن ما)[٢٥].

تداوله:

أما نطاق تداوله فهو مخلاف عثر حيث دار سكه، واليمن، وخصوصاً تهامتها، وجنوب الحجاز. على أنه لاتوجد تفصيلات كثيرة في المصادر التاريخية عن تداول ذلك الدينار المهم، وما وجد منها فهو لايتجاوز نصين اثنين، ورد أحدهما عند ابن حوقل، والآخر عند عمارة الحكمي: وذلك في أثناء حديثهما عن ملوك تهامة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وخصوصاً ابن زياد، صاحب تهامة اليمن، وعاصمتها زبيد، وابن طرف، صاحب مخلاف عثر، وعاصمته مدينة عثر التي كان يسك فيها الدينار

المنسوب إليها، وهو دينار عثر، موضوع هذه الورقة: فالأول وهو ابن حوقل يورد تسجيلاً دقيقاً لما كان يقبضه ابن زياد من العشور التي ترد إلى خزينته من الديار التي تحت ملكه، وذلك حينما يقول: «وأكثر أمواله [أي إسحاق ابن إبراهيم بن زياد المعروف بأبي الجيش] المقبوضة من العشور، وهي مايقبل على خمسمائة ألف دينار عثري، ومن قبالات زبيد عن جميع مايدخلها، ويخرج عنها، وتشتمل عليه وجوه الأموال، مائتا ألف دينار عثري»[٢٦].

ويذكر ابن حوقل أيضاً أنه يصل إلى أبي الجيش من ميناء عدن مائتا ألف دينار عثري، ذلك غير المبالغ التي تصل إلى يديه من الضرائب المفروضة على العنبر المستخرج من السواحل القريبة من مدينة عدن المعروفة حالياً على خليج عدن بالجمهورية اليمنية[٢٧]. يلي ابن حوقل عمارة الحكمي الذي يذكر هذا الدينار، ويذكر نطاق تداوله من خلال مايورده من تفصيلات عن مبالغ ارتفاع الأعمال الخاضعة لبني زياد، أي الضرائب والعشور التي كانت تجبى بالدينار المذكور، وخصوصاً في أيام اسحاق بن إبراهيم بن زياد المعروف بأبي الجيش، سابق الذكر، ومنها قوله: «ورأيت مبلغ ارتفاع أعمال ابن زياد بعد تقاصرها في سنة ست وستين وثلاثمائة من الدنانير ألف ألف عثرية خارجاً عن ضرائبه على مراكب الهند من الأعواد المختلفة والمسك والكافور والصندل والسنبل والكهبي والصيني وغير ذلك، وخارجاً عن ضرائبه على معادن اللؤلؤ وعن ضرائبه على صاحب جزيرة دهلك»[٢٨].

أما صاحب عثر وهو سليمان بن طرف - على مايذكره عمارة - وعنه يقول: «ومبلغ ارتفاعه في السنة خمسمائة ألف دينار عثرية»[٢٩]. أي أقل إلى النصف من المبالغ الواردة سنوياً من الضرائب والعشور إلى خزينة حاكم زبيد من بني زيادة»[٣٠].

الجدير بالملاحظة أن هذه الأرقام المقدرة بالدينار العثري والتي تعادل في قيمتها تقريباً عشر ماكان منها بأيدي الناس كل عام، هي - دون شك - قليلة جداً مقارنة بأرقامنا الحالية، ولكنها، من ناحية أخرى، تعدّ كبيرة جداً مقارنة بمقدار ماوصلنا من هذا الدينار الذي ذكرنا في مكان سابق بأن عدد ماكتشف منه حتى الآن لايزيد على مائة قطعة، فأين تلك الملايين التي كانت تسك منه في زمن تداوله وانتشاره؟

ومع تسليمنا بأن كثيراً من النقود الذهبية والفضية يعاد سكّها بأسماء الحكومات المتعاقبة، وبعضها يعاد سَبْكه لصياغة الحلي وسواها من وسائل الزينة، فإن هذا الأمر يتطلب مزيداً من البحث والتمحيص والتقصي بغية الكشف عن قطع جديدة من هذا الدينار المهم[٣١].

نخلص مما تقدم إلى أن مدينة عثر من المدن الإسلامية المهمة بمنطقة جازان، وأنها ترد في المصادر العربية بتضعيف الثاء المثلثة (عَثَّر)، أو بتخفيفها (عَثْر)، ولكل من اللفظين شواهده في الشعر الجاهلي، والشعر الإسلامي المبكر. كما نخلص إلى أن شهرتها التاريخية اكتسبتها من عدة وجوه نذكر منها:

١- أنها كانت مخلافاً تهامياً مشهوراً سُمّي باسمها هو: مخلاف عثر، وأنها كانت عاصمة لذلك المخلاف قبل ظهور مسمى: المخلاف السليماني، وبعده حتى انتقال العاصمة منها إلى مدينة جازان العليا.

٢- أدت دوراً مهماً بوصفها محطة من محطات طريق الحج والتجارة اليمني الساحلي بين مكة المكرمة واليمن.

٣- كانت واجهة بحرية لظهير جغرافي زراعي ورعوي واسع، وميناءاً مهماً من موانئ تهامة على البحر الأحمر، له اتصالاته التجارية مع موانئ اليمن والحجاز من جهة، والموانئ المقابلة له من الغرب على الساحل الشرقي الأفريقي من جهة أخرى.

٤- اشتهرت عثر بكونها إحدى دور السك المهمة في الجزيرة العربية في العصور العباسية، ودينارها المنسوب إليها يعدّ أحد أهم الدنانير المعوّل عليها في دراسة اقتصاديات المنطقة، وفي الكشف عن أسماء حكامها، وفي جودة وزنه، ونقاء عياره، وتعدّد طرزه الدالة على كثرة ما سك منه، وكذلك استمرار سكه فترة من الزمن امتدت على مدى سبعة عقود، في حدود ماوصل إلى أيدينا منه، فضلاً عن اتساع نطاق تداوله في اليمن وتهامة وجنوب الحجاز.

الهوامش

(١) ياقوت، شهاب الدين أبوعبدالله الحموي، معجم البلدان، (بيروت: دار صادر - دار الفكر، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م)، جـ٤، ص٨٥.

(٢) ياقوت، المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) ياقوت المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) البكري، أبوعبيد عبدالله بن عبدالعزيز، معجم مااستعجم، تحقيق مصطفى السقا، (بيروت: عالم الكتب، د.ت) جـ٣، ص٩٢١.

(٥) محمد بن أحمد البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٦م)، ص٨٩.

(٦) إبراهيم بن إسحاق، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج، تحقيق حمد الجاسر، (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص٦٤؛ ابن خرداذبة، أبوالقاسم عبيدالله بن عبدالله، المسالك والممالك، تحقيق م.ج. دي غوية، (ليدن: مطبعة بريل ١٨٨٩م)، ص١٤٧-١٤٨؛ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، البلدان، تحقيق م. ج دي غوية، (ليدن: مطبعة بريل ١٨٩٢م)، ص٣١٩؛ قدامة بن جعفر، نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتاب، تحقيق: م. ج. دي غوية، (مطبعة بريل ١٨٨٩م)، ص١٩٢.

(٧) الحسن بن أحمد بن يعقوب، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ص٧٦.

(٨) أحسن التقاسيم، ص٨٦.

(٩) الشرعان، نايف بن عبدالله، «نقود أموية وعباسية ضرب الحجاز ونجد وتهامة محفوظة في مؤسسة النقد العربي السعودي» رسالة ماجستير، قسم الآثار والمتاحف، جامعة الملك سعود ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص١٢١، ١٤١-١٤٥؛ الزيلعي، أحمد بن عمر الزيلعي وآخرون، سلسلة آثار المملكة العربية السعودية: آثار منطقة جازان، مجلد١٠، (الرياض: وزارة المعارف ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م)، ص١١٠، ١٥٦-١٥٧.

(١٠) انظر: ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبي، كتاب صورة الأرض، (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٩٢م)، ص٣٢٥؛ عمارة الحكمي، نجم الدين عمارة بن علي، تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، تحقيق محمد بن علي الأكوع، ط٣، (صنعاء: الدار اليمنية للنشر والتوزيع ١٩٨٥م)، ص٦٣-٦٤.

(١١) الزيلعي، أحمد بن عمر وآخرون، سلسلة آثار المملكة العربية السعودية: آثار منطقة جازان، مجلد١٠، ص١١٠.

(١٢) العقيلي، الآثار التاريخية في منطقة جازان، ط١، (الرياض: دار اليمامة للنشر والترجمة والنشر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ص٢٤.

(١٣) المرجع نفسه، ٢٥.

(١٤) زارنيس، يوريس، وعوض السبالي، «الاستكشافات الأثرية الحديثة في سهل تهامة: موقعي عثر وسهي، أطلال، العدد التاسع (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص٦٩-٧٦.

(١٥) زارنيس، وعوض السبالي، المرجع نفسه، ص٧٦-١٠٣.

(١٦) الشرعان، «نقود أموية وعباسية»، ص٤٤-٤٥.

(١٧) الزيلعي، أحمد بن عمر، «مخلاف عثر في القرنين الثالث والرابع الهجريين»، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الخامس، (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، جـ١، ص١٩٨-١٩٩.

(١٨) الزيلعي وآخرون، سلسلة آثار المملكة العربية السعودية: آثار منطقة جازان، مجلد١٠، ص١٥٩.

(١٩) الشرعان، «نقود أموية وعباسية»، ص١٢٩.

(٢٠) الزيلعي، وآخرون، سلسلة آثار المملكة العربية السعودية: آثار منطقة جازان، مجلد١٠، ص١٥٩.

(٢١) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٢٢) الشرعان، «نقود أموية وعباسية»، ص١٤٠، لوحة ١٣

(٢٣) المرجع نفسه، ص١٤١، لوحة ١٤.

(٢٤) المرجع نفسه، ص١٤٢، لوحة ١٥، ص١٤٣، لوحة ١٦.

(٢٥) المرجع نفسه، ص١٤٤، لوحة١٧؛ وانظر أيضاً الزيلعي وآخرون، سلسلة آثار المملكة العربية السعودية: آثار منطقة جازان، مجلد١٠، ص١٥٧.

(٢٦) صورة الأرض، ص٣٢.

(٢٧) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٢٨) العقيد في أخبار صنعاء وزبيد، ص٦٤.

(٢٩) المصدر نفسه، ص٦٣-٦٤.

(٣٠) ابن حوقل في كتابه: صورة الأرض، صفحة ٣٢، يقرر صراحة بأن مايصل إلى ابن مارف صاحب عثر، من الجبايات هو نصف مايصل إلى أبي الجيش صاحب زبيد.

(٣١) للاطلاع على بعض أشكال الدنانير الخطرية انظر: العش، محمد أبو الفرج، النقود العربية المحفوظة في متحف قطر الوطني، (الدوحة: وزارة الإعلام في دولة قطر، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص٣٠٦، لوحة٢٨، رقم ١٣٥٦؛ الشرعان، «نقود أموية وعباسية»، ص٢٩٣-٢٩٨، اللوحات رقم١٣-١٨

أ.د. عبدالرحمن عبدالواحد محمد الشجاع (*)

الضرائب والمكوس في اليمن
خلال القرون الخمسة الهجرية الأولى

كثيراً ما يقترن مصطلحان معاً ما ذكر أحدهما إلا وذكر الآخر وهما الضرائب والمكوس فما دلالتهما .. وما العلاقة بينهما .. ثم ما موقعهما في النظام الاقتصادي الإسلامي المتبع في ديار الإسلام عامة وفي اليمن خاصة .. فالضرائب جمع والواحدة منها ضريبة وهي التي تؤخذ إجبارياً في الأرصاد أي المناطق أو المراكز التي تحدد لرصد الداخلين والخارجين وما يحملونه من أشياء.. وتطلق الضريبة أيضاً على الجزية وهي ضريبة الرؤوس وعلى الخراج وهي ضريبة الأرض[1] وربما قيل ضريبة الزكاة .

والضريبة - كما يعرفها علماء الاقتصاد المحدثون - هي فريضة إجبارية تفرض بواسطة سلطة عامة[2] أو أنها مدفوعات إجبارية للحكومة نظير قيامها بالمصالح العامة بصرف النظر عن المنفعة التي تعود على دافعها[3] . وتدفع في النظام الاقتصادي الحديث نقداً لا عيناً[4] .

فإذا كان مصطلح الضريبة قد يقبل ويمكن استعماله في الموارد المالية في النظام الاقتصادي الإسلامي فيطلق على الزكاة والجزية والخراج والعشور وغيرها فإن (المكس) ليس مقبولاً ولا يعمم على إطلاقه.

فالمكس جمع مكوس ويقصد به فرض مبلغ من المال على السلع المباعة في الأسواق ، أو هو المال غير المفروض شرعاً يأخذه الجابي للزكاة بعد جباية المال المفروض شرعاً[5] وقد جاء النهي عنه في قول رسول الله (ص) : «لا يدخل الجنة صاحب مكس»[6] .

وقد يستبدل مصطلح فيحل محله مصطلح (الضريبة) إلا أنه مسمى (تهربي). فبدلاً من الاسم المرفوض حاولوا اتخاذ اسم مقبول ..

(*) أستاذ التاريخ والحضارة - قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة صنعاء

فالزكاة ممكن يطلق عليها ضريبة بينما لا يمكن أن يطلق عليها مكس وهكذا بقية واردات الدولة .

ولم يدخل (المكس) ضمن مسميات واردات الدولة الإسلامية . وربما كان يمارس من قبل أفراد أو جهات غير رسمية في الدولة . أما ما تفرضه الدولة فهو ضريبة ولكن له مسميات أخرى غير (المكس). إلا في العصور الإسلامية المتأخرة حيث أصبح مسمى (المكس) مصطلحاً مستعملاً حتى ضمن ما يحصل رسمياً وتصل إيراداته إلى خزينة الدولة(٧) .

وحينما تراجع التاريخ الاقتصادي لليمن في القرون الخمسة الهجرية الأولى تجد فرقاً واضحاً بين مسمى الضريبة ومسمى المكس .

وقبل أن ندخل في تتبع الضرائب المفروضة في اليمن لا بد أن نعرف وضع اليمن ضمن التصور الإسلامي لملكيته للأرض لأن هذه الملكية بحسب نوعها تتحدد الضريبة المفروضة عليها .

فالأرض كلها في التصور الإسلامي ملك لله سبحانه ويتعامل النظام الإسلامي مع الأرض التي في حوزة المسلمين بأحد صورتين إما أن تكون أرضاً تعرف بأنها أرض عشرية وهي الأرض التي أسلم عليها أهلها طواعية . أو أرض العرب عامة لأنه لا يقبل منهم إلا الإسلام فتصير أرضهم أرضاً عشرية . أي عليها العشر وهي الزكاة ويطلق عليها عشرية على سبيل العموم بينما في الواقع تختلف مقاديرها فالزراعة عليها العشر (١٠٪) أو نصف العشر (٥٪) بحسب حالة وطبيعة ري الأرض .

وهناك ربع العشر وهو المفروض على الذهب والفضة . والأنعام . والتجارة(٨).

والنوع الثاني من الأرض هو الأرض الخراجية وهي ما يفرض عليها من المال بحسب ما تراه الدولة فيسمى خراجاً أو مال صلح(٩) .

فاليمن بهذا التحديد هي أرض عشرية اي عليها زكاة فقط ولا خراج عليها. والزكاة محددة في كل الأنواع التي تجب عليها زكاة. .

ومن ثم فهناك صنفان من الموارد المالية : صنف مقرر شرعاً تؤخذ من اليمن ومنه الزكاة ويلحق بها ومال الصلح الذي كان يؤخذ من نصارى نجران(١٠) إضافة إلى الجزية المفروضة على أهل الذمة. وصنف لم يرد الشرع بالنص عليها . بل استحدثت فيما بعد . وسنعرض لكل أصناف الموارد بصفتها ضرائب تحصل للدولة بغض النظر عن مشروعيتها من عدمه. .

ولا توجد في اليمن إلا الزكاة والعشور والجزية أما الخراج والغنائم فلا توجد من اليمن لأنها صارت دار إسلام .

أولاً : الزكاة :

الزكاة لفظ يعني النماء والطهارة والبركة . وصار له معنى عملياً ويقصد به المال المأخوذ عن نصاب من المال . تفرض على ذوي الأموال لتعود على المحتاجين له . . وبمعنى آخر «إيجاب طائفة من المال في مال مخصوص لمالك مخصوص»(١١) .

وجاء النص على فرضية الزكاة في القرآن الكريم في أكثر من آية منها «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها»(١٢) بينما تصت السنة النبوية على التحديد والتفصيل لأنواعها وأنصبتها والمستحق على كل نصاب من أي نوع من أنواع الأموال(١٣) .

ومن الملاحظ أن معظم التفاصيل التي وردت عن أنصبة الزكاة وأنواعها وما عليها من زكاة جاءت ضمن رسائل تبادلية تمت بين الرسول صلى الله عليه وسلم من جهة . وبين أمراء أو وجهاء في اليمن في عهد النبوة(١٤). وصارت هذه النصوص عامة وتحتذى في الأمصار الأخرى(١٥) .

أما الأساس الذي من أجله فرضت الزكاة أو ضريبة الزكاة فإنها ليست على النحو الذي تفرض الضرائب فهي لم تفرض من قبل دولة ما وإنما فرضت لتكون من أسس الإيمان فهي فرض اعتقادي لا يبتغى من ورائه منفعة مادية في الدنيا وإنما يبتغي استكمال دينه وسلامته أولاً ثم يبتغي الأجر والثواب من ربه . ثم هو يدفعها ليسد بها حاجة المحتاجين . فهي ليست مفروضة بقوة القانون . ولا بحكم سلطة الدولة . وإنما بحكم العقيدة التي يدين بها الفرد. فهي تختلف عن أي ضريبة تفرضها الدولة . فهو حق معلوم للسائل والمحروم كما قال تعالى « والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم»(١٦) .

وقد حددت النصوص النبوية هذه الأموال التي فيها حق الزكاة وإن كان يمكن أن نسميها أوعية الزكاة . وهي على النحو التالي:

١- زكاة النقود :

وقد حدد النصاب بعشرين ديناراً من الذهب (= ٨٥ جراماً) أو مائتي درهم من الفضة (= ٥٩٥ جراماً) وزكاة النقود هو ربع العشر (٢,٥٪)(١٧)

٢- زكاة الثروة الزراعية

وهي الزروع والثمار فيما أخرجته الأرض بعد الحصار أو في المحصول بغض النظر عن تحقق شرط الحول(١٨). ولعل الضابط للزروع هو القيمة الإنتاجية والاستهلاكية وقيمتها في العائد منها . وإذا كان هذا الضابط صحيحاً

فستدخل منتجات زراعية كثيرة ولا أدعي الاجتهاد الفقهي هنا ولكنها خاطرة ألحت عليّ فأحببت إضافتها في هذا الموضع، فحتى الخضروات التي لم يكن عليها زكاة صارت اليوم لها قيمة إنتاجية ضخمة. وبالطبع يختلف مقدار الزكاة باختلاف الأرض ما إذا كانت مزروعة بجهد بشري من حيث الآلات المستخدمة ووسائل الري فهذه عليها نصف العشر (٥٪) وإذا كانت مزروعة بماء المطر دون جهد بشري فعليها العشر (١٠٪)[١٩]. ولا داعي لأن نذكر أنواع المزكى عنها وما لم يزكى عنها، وآراء العلماء في ذلك فليس هذا الموضع هو موضعها[٢٠].

٣. زكاة الثروة الحيوانية:

ولا شك أنها ثروة واسعة الأصناف ولكن المحددة والمعروفة هي الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم وقد حددت أنصبتها، ومقادير الزكاة عليها[٢١]، ولها شروط منها:

١. أن يبلغ النصاب.
٢. أن يحول عليها الحول.
٣. ألا يكون عاملة في الحقول.
٤. أن ترعى في مراعي مباحة.

٤. زكاة الثروة التجارية (عروض التجارة)

وهي «كل ما يعد للبيع والشراء بقصد الربح، أو هي الأصول المتداولة المملوكة بغرض الاتجار وتحقيق الربح، ولا تدخل فيها الأصول الثابتة التي تم شراؤها بهدف الاستخدام والمساهمة في النشاط التجاري وليس بهدف الاتجار بها»[٢٢].

وزكاتها كزكاة النقود وهي ربع العشر (٢,٥٪).

هذه الأموال التي تؤخذ عنها الزكاة أو ما يمكن أن تسمى (ضريبة الزكاة). هذه الضريبة لها أطر شرعية وضوابط بحيث لا يترك للأمراء والجبّاه الحبل على الغارب لاحتلاب الأموال دون ضابط. وبالرجوع إلى كتب السنن التي تضمنت النصوص الضابطة للزكاة، وكيفية جبايتها نجد أن النصوص النبوية المحددة لذلك كله كانت مروية عمن أرسل إلى اليمن من الأمراء، أو عن شخصيات يمنية تلقت رسائل من رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢٣]، وصار هذه المروي من الأحاديث هو الأساس للتعامل في الزكاة على جميع المستويات في البلدان المختلفة..

أما ضوابط التحصيل فهي ضوابط دقيقة مقررة شرعياً:

١- اليسر: فالرسول (يوصي معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري بقوله: «يسرا ولا تعسرا، ولا تنفرا»[٢٤] ولذا كان من التيسير أخذ الثياب بدلاً عن الحبوب ممن يصنعون الثياب[٢٥].

٢- ألا تؤخذ كرائم الأموال، هذا والضابطان التاليان هو ما أبلغه رسول الله، صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل.

٣- اتقاء دعوة المظلوم، وهذا يعني ألا يحصل الظلم.

٤- أن تؤخذ الزكاة من الأغنياء وترد على الفقراء[٢٦].

٥- عدم استخدام الخداع والمباغتة، وإخراج المخفي في البيوت.

٦- ألا تؤخذ الزكاة عن الشاة المرصودة للاحتلاب والاستفادة من لبنها[٢٧].

٧- ألا يفرض جامع الصدقات على أصحاب الأموال بجمع أنعامهم بل يذهب إلى مكان تجمعها للشرب[٢٨].

٨- إذا لم تنتج الأرض أو أصابتها آفة فلا زكاة عليها[٢٩].

٩- أن تقسم المال من الزروع والأنعام ثلاثة أثلاث يأخذ صاحب المال ثلثاً حسب رضاه واختياره، ثم تؤخذ الزكاة من الثلثين الباقيين[٣٠].

١٠- زكاة النقود وعروض التجارة تحصل من خلال أمانة صاحب المال.

هذه الزكاة بصفتها أول مورد شرعي تعاملت معه الدولة كونه فرضاً عقدياً وتكليفاً ربانياً، ومن ثم كان الناس عموماً يتقدمون لدفع ما عليهم من زكاة دون أية متاعب. والدولة لا تبذل جهوداً كبيرة في التحصيل لأن من يتولى تحصيل الزكاة يتصف بتقوى الله والعدل والعفة والدراية والكفاءة، ولا تكون العبرة هي الاستزادة من التحصيل بغض النظر عن مراعاة مصالح الناس[٣١].

وقد صرح المؤرخون بأن ما ارتفع من اليمن في عهد المأمون أي في مطلع القرن الثالث الهجري بلغ ستمائة ألف دينار[٣٢]، ولم يفصل ما إذا كان هذا من الزكاة أم من غيرها؟ وهل أعطي الفقراء في اليمن حقهم فهذا المبلغ - إن كان من الزكاة - هو الفائض بعد الصرف على المحتاجين في موضع تحصيل الزكاة.

وقد وقف المقدسي[٣٣] عند كلمة (خراج اليمن) وتساءل ما المقصود من ذلك؛ لأن المعروف أن جزيرة العرب عُشرية واليمن جزء منها فلا خراج عليها، ولم يجب المقدسي على تساؤله لأنه لا يملك أي معطيات تؤهله للإجابة، والباحث هنا يقف الموقف نفسه ولكن يمكن احتمال أن الكلمة استخدمت استخداماً لغوياً ومعناه الإتاوة[٣٤] أو المال الخارج من البلد الفلاني لتحصيله إلى الدولة فيدخل فيه ما بقي من الزكاة والعشور التي تفرض على التجارة الداخلة إلى اليمن.

وإذا كان هذا في مطلع القرن الثالث الهجري فإننا نلاحظ في مطلع القرن الرابع الهجري أنواعاً من الضرائب لم يكن معمولاً بها في السابق . سيأتي عنها الحديث لاحقاً .

ثانياً : الجزية :

الجزية هي مال يؤخذ من أهل الذمة[٣٥] وقد سموا بأهل الذمة ليتذكر المسلمون أن هذه الشريحة هم في كفالتهم وعهدهم: لأن الدولة الإسلامية أعطتهم عهداً - إما مكتوباً أو عرفياً - يأمنون به على أموالهم وأعراضهم ودينهم[٣٦] .

والجزية لا تكون إلاّ على الرجال الأحرار العقلاء ، فلا تؤخذ على النساء ولا الشيوخ ولا العجزة ، وتؤخذ مرة واحدة في العام[٣٧] .

وأهل الذمة في اليمن هم من اليهود والنصارى ومن بقي على مجوسيته . والأبرز وجوداً اليهود والنصارى ، فاليهود يعيشون في أوساط بعض القبائل مثل كندة وحضرموت وحمير وبني الحارث بوادي نجران[٣٨] . وكان جميعهم يعيشون في جوار المسلمين دون صراع ، ولا إكراه على الدين ، ولا تخاصم إلاّ على ما يجري مثله بين المسلمين إما لمصالح أو حقوق[٣٩] فهؤلاء عليهم الجزية . ويستثنى من اليهود عموماً اليهود الذين كانوا يقطنون مدينة نجران ، فهؤلاء خضعوا لشروط الصلح الذي عقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم ونصارى نجران[٤٠] .

فالنصارى في اليمن لهم وضعان . وضع عام يدخلون به مع نظام التعامل مع أهل الذمة كاليهود والمجوس فكانت عليهم جزية حددت بتوجيه رسول الله (ص) نفسه وهي دينار (= ١٠ أو ١٢ درهماً) أو ما يعادلها من الثياب[٤١] . وهذا غير ما فرض على أهل الذمة في العراق والشام ومصر ، فنتيجة لوضعهم المادي الأحسن فقد كان عليهم أكثر مما على أهل الذمة في اليمن[٤٢] ، فالنصارى إذاً مثلهم مثل بقية أهل الذمة وكانوا موجودين في مناطق منها حمير وحضرموت . ولكن نصارى مدينة نجران كان لهم وضع آخر ، فقد فرض عليهم (مال الصلح) لا ينبغي أن يزاد عليه وفق شروط محددة منها ما يخص المال المفروض عليهم :

١- أن يترك لهم كل ما في أيديهم من زروع وأموال نقدية وعبيد .
٢- أن يدفعوا ألفي حلة ثمن كل حلة أوقة (أوقية = ٢٨,٣٢ جراماً من الفضة) وتكون على دفعتين ألف في رجب وألف في صفر من كل عام .
٣- وعليهم استضافة من يأتي لأخذ مال الصلح بحيث لا يقل عن عشرين يوماً ولا يزيد عن شهر[٤٣] .

وقد عرف المال المدفوع من نصارى نجران بأنه مال صلح ، وأطلق عليه مجازاً جزية .

والجزية قد يطلق عليها (ضريبة الرؤوس) وكانت موجودة في النظام الفارسي والرومي ولكن لابد من إدراك الفرق بين الجزية في النظام الإسلامي والجزية في النظام غير الإسلامي .

فالجزية فرضٌ عند الجانبين ثم بينهما اختلاف بين ذلك من ناحية شروط فرض الجزية ، ومقاديرها ، وعلى من تفرض ، وكيفية جبايتها ، وحماية أهلها عرضاً ومالاً وعقيدة ، وحرية معايشهم وتحريم فتنتهم عن دينهم أو تكليفهم ما لا قدرة عليه[٤٤] .

ولم تصلنا أي حادثة عن تعذيب لأهل الذمة جرت في اليمن ، وإن تضمنت المصادر حوادث جرت في مناطق أخرى كالشام والعراق ومصر ، ولكن يبدو أن هذا كان أثراً مما كان يمارس في عهد الفرس والروم . وقد وقف العلماء والأمراء لهذه الحوادث وتصدوا لكل من يقوم بذلك ، وإذا ما حصل شيء من هذا فهو مخالفة وليست فرضاً وقانوناً متبعاً[٤٥] .

ثالثاً : العشور :

وكلمة (العشور) مأخوذة من القيمة التي تؤخذ ، فهي العشر أو ربع العشر أو نصف العشر ، فعرفت بالعشور . ولم تعرف عند المسلمين بالضريبة وإنما اكتفوا بتسميتها العشور .

وتفرض على التجار المارين من المنافذ التجارية وكانوا أصنافاً . فتجارة أهل الحرب عليها العشر (١٠٪) ، وتجارة أهل الذمة نصف العشر (٥ ٪) ، وتجارة المسلمين ربع العشر (٢,٥ ٪) ، وتعد زكاة مع التخفيض على أهل الحرب إن قدموا بالمواد الضرورية كالحنطة والزيت[٤٦] .

ورغم أنها لم تفرض هذه الضريبة من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولم توجد إلاّ في عهد عمر بن الخطاب بحكم معالجة الواقع سواء للحاجة ومواجهة متطلبات الدولة ، أو للمعاملة بالمثل مع الدول المجاورة (دار الحرب) .

رغم ذلك إلا أن هذه الضريبة صارت مشروعة بشروطها المحددة في كتب الفقه[٤٧] ولكن الأنظمة الحاكمة التي جاءت بعد ذلك استغلت هذه الضريبة استغلالاً فاحشاً حتى صارت سيفاً مسلطاً على رقاب التجار بغض النظر عن المسلم والذمي والحربي .

وبما أن اليمن كانت محطة تجارية برية وبحرية فقد كانت التجارة تشكل قسماً مهماً من دخل اليمن .

ونشير هنا إلى أن المكرم بن علي الصليحي أمهر زوجته (سيدة بنت أحمد) سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م خراج عدن فكان يصل إليها كل عام مائة ألف دينار يزيد ولا ينقص[٤٨] . وقبل هذا في عهد بني زياد أواخر القرن الثالث وطوال القرن الرابع الهجري ومطلع القرن الخامس في عهد بني نجاح كانوا جميعاً قد استخدموا ضريبة العشور استخداماً واسعاً .

ووضعت المراصد على الموانئ وعلى أبواب المدن التجارية كمدينة زبيد[٤٩] فكانت أكثر أموال بني زياد من العشور سواء التي تحصل من زبيد أو من عدن[٥٠] . ولم يكن مستخدماً حينذاك التفتيش وإيقاف الناس وحصر ما معهم، ولا يستخدم الضمان بحيث يتقبل رجل الميناء ويدفع مبلغاً معيناً، وإنما كان الاعتماد على الأمانة . فكل واحد يؤمن أمانة ويدفع ما يراه مستوجباً عليه[٥١] . ولم تكن العشور تؤخذ من الموزن الرئيسية مثل الحنطة والدقيق والسكر والأرز والصابون[٥٢]، ثم تحول الأمر فيما بعد وصارت العشور هذه ضرائب على كل شيء كما سيأتي .

رابعاً : الضرائب والمكوس :

ظهرت الضرائب سواء بهذا المصطلح أو بمسميات أخرى كالمكوس . وقد أشارت المصادر إلى بعض هذه الضرائب في القرن الثالث الهجري ولا ندري ما إذا كانت موجودة في السابق أم لا؟

إلا أننا لا نستطيع أن نصرح بعدم وجودها . وربما استخدمت ضريبة العشور في استخلاص الأموال . فإذا كان في عهد المأمون يتم تحصيل ستمائة ألف دينار من اليمن ومائة ألف دينار من الحرمين[٥٣] فلعل ضريبة عشور التجارة كانت هي الوعاء الذي يتم تحصيل المال منه .

ومع هذا وجدت أنواع من الضرائب عبر القرون الخمسة الهجرية الأولى، ونحن سنعرض لها دون ترتيب لأن كثيراً منها لا يوجد تحديد لتاريخ فرضها[٥٤].

ولكي نطلع على أنواع الضرائب والمكوس نحاول إفراد كل نوع على حدة من خلال المعلومات المتوفرة لدينا في المصادر.

١- ضريبة الضمان أو التقبيل :

الضمان أو التقبل أو الكفيل وكلها تؤدي إلى معنى واحد وهو أن «يجعل الرجل لنفسه قبيلاً أو كفيلاً أو ضامناً يحصل باسمه الخراج ويأخذه لنفسه لقاء

أجر معلوم يدفعه إليه وغالباً ما كان القبيل أو الكفيل من العمال وذوي الجاه والسلطان[٥٥] .

وكان الضمان إما ضمان عام أو تقبل للولاية كلها . وإما تقبل لمنشآت إنتاجية كمصانع أو لمناطق تجارية كأسواق أو لأنشطة تجارية أو زراعية .

وأول ضمان عام يعرف في اليمن - في العهد الإسلامي - كان في عهد يزيد بن معاوية (ت ٦٤هـ/٦٨٣م) حيث أسند اليمن إلى بحير بن ريسان الحميري مقابل أن يدفع لبيت مال المسلمين مبلغاً من المال بعضه عيناء وبعضه نقداً[٥٦] .

وربما كان هذا الإجراء إجراءاً إدارياً أكثر منه مالياً فقد كانت الدولة في عهد يزيد تتعرض لأكثر من هزة في الحجاز والعراق فكان لابد من المحافظة على بقية أجزاء الدولة بأية وسيلة فلعل الضمان هذا كان أحد هذه الوسائل . .

ومن الضمانات أو التقبلات الذي وصل إلينا خبره ضمان أو تقبل باب زبيد في عهد بني زياد - القرن الرابع الهجري - فكان المتقبل يقوم برصد وحصر كل ما يدخل إليها وكل ما يخرج منها على أن يدفع مائتي ألف دينار عشري[٥٧] .

وقد تفنن بنو زياد حيث كانت لهم ضرائب عدة بعضها بالضمان، وبعضها بالإشراف المباشر وبعضها بالأمانة . والاحتمال الغالب أن هذه الضرائب كانت طارئة أو حصل تدرج في استخداماتها . وقد لوحظ وجودها في بلاد التهائم بينما هي تكاد تكون منعدمة في الجبال . ولعل السبب في هذا وجود تواصل بين تهامة اليمن والحجاز وهذه البلاد كانت حاكية لما يحصل في الشام ومصر والعراق .

فدولة آل يعفر كانت لهم مستخلصات ولكن لم تحدد بكونها ضرائب أو غيرها[٥٨] . . ولهذا تعددت أنواع الضرائب .

فمنها ضريبة جني النخيل حيث كانت تدفع إلى متقبل نظير سبعين ألف دينار تدفع سنوياً وتصل إلى مائة ألف دينار[٥٩] .

ومنها ضريبة ضمان السفابيق (الزوارق) الصيادين[٦٠] ولعل هذا في عدن وسواحل زبيد والشحر .

ومنها ضريبة ضمان على الخضر والبقول وما يدخل إلى زبيد[٦١] .

ومنها ضريبة دار ضرب السكة حيث كان المتقبل يدفع سنوياً ثلاثة عشر ألف دينار[٦٢] ولعلها هي التي كانت تضرب في زبيد . ويبدو واضحاً أن دار الضرب ليست داراً حكومية وإنما هي مملوكة لشخص فيتقبلها شخص آخر .

ويدفع مقابل هذا الضمان ما تفرضه عليه الدولة . فالعملة لم تكن تشكل علامة من علامات سيادة الدولة كما هو الحال في عصرنا هذا وإنما هي حسب المصلحة فقد يتم التعامل بأكثر من عملة في وقت واحد وبأوزان مختلفة وتصدر في ظل دول عدة.

ومنها: ضريبة ضمان دار النبيذ. فكان المتقبل يدفع مبالغ تصل إلى اثني عشر ديناراً[٦٣] عن كل يوم، ويقصد به الدار التي أعدت لصناعة المشروبات الطبيعية عرفت بدار النبيذ ولا يقصد به (الخمرة) فالنبيذ يستخدم من الزبيب والتمور وهو ما لم يخمر فيعد حلالاً .

فهذه ضريبة ضمان لمنشأة إنتاجية، مثلها مثل ضريبة تقبل (ضمان) مدابغ الجلود فكان يتقبلها متقبل ليدفع ثلاثة عشر ألف دينار كل عام[٦٤] وربما هذا النوع من الضريبة يمارس في المناطق التهامية والجبلية فصعدة في القرن الرابع الهجري كما يفيدنا ابن حوقل[٦٥] كان العلوي – يقصد به الإمام الزيدي في صعدة – كانت له جباية كثيرة ومستغلات من المدابغ . وكانت صعدة مشهورة بدباغة الجلود .

ومنها ضريبة الضمان لسوق السمك بزبيد بمبلغ يدفع الضمين للخزينة عن كل يوم ثلاثة عشر ديناراً[٦٦] .

إن مما يستوقف الباحث وهو يتابع أنواع الضرائب المفروضة على الضمين ومقدارها يجد أن المبالغ المستخلصة لا شك كبيرة فإذا كان الذي يدفعه مبلغاً كبيراً سواء على مستوى الشهر أو السنة أو اليوم فإن الضامن لا بد أن يكون قد حصل من المال ما يغطي به مدفوعاته، وفوقه الكثير لكي يكون مستفيداً من هذا الضمان.. ومن المتوقع لكي يتحصل على هذه الأموال لابد أن يستخدم من الوسائل الاستقصائية والإجراءات التفتيشية والحصرية ما يعنت به التجار وأصحاب الأموال وقد وضعت (مراصد) مناطق تفتيش على أبواب المدن والموانئ فيحدثنا المقدسي[٦٧] – وهو ممن دخل اليمن في القرن الرابع الهجري – لن (المراصد) تكثر في زبيد، والذي يتولى أخذ الضريبة كان لديه أسماء أنواع السلع فيأخذ عن كل سلعة مبلغاً من المال وتختلف قيمة هذه الضريبة من سلعة إلى سلعة تصل إلى دينار، بينما بقية (المراصد) (نقاط التفتيش الأخرى) غير زبيد تعطي درهماً علوية أي من النقود التي ضربها الهادي وأولاده في صعدة .

ويدخل ضمن ضريبة الضمان ما عرف في عهد الصليحيين بالإقطاع السياسي أو الحربي فقد أوكلت قيادة الدولة الصليحية إلى أفراد من الأسرة الصليحية والمقربين إليهم لتولي إقطاعات على المدن أو المناطق أو القلاع مما

يوفر الإدارة السياسية المضمونة لهم والإيرادات المالية الوافية التي تتولاها إدارة الإقطاع فهو شبيه بالضمان ولكن ضمان سياسي واقتصادي وإداري معاً[٦٨]

هذه السياسة أرهقت الناس وصاروا يتطلعون للخلاص من سيادة رؤساء الإقطاع والتمرد عليهم كلما سنحت لهم الفرصة كما هو حال عدن التي أوكلت إلى بني معن أولاً ثم زريع وآله والتي انتهى إلى تمردهم على الدولة الصليحية[٦٩] .

٢. ضريبة على المراكب :

فرض آل زياد ومن جاء بعدهم ضرائب عدة وبالذات في المناطق التجارية والبحرية حيث كانت تفرض سلطانها على ميناء عدن وغلافقة (قرب زبيد) والمخا.

من هذه الضرائب ضرائب على مراكب أهل الهند التي تحمل بضاعة قادمة من الهند وأبرز ما تحمله هذه المراكب المسك والكافور[٧٠] . وضريبة على مراكب الزبالع[٧١] القادمة من الحبشة[٧٢] .

٣. ضريبة على الجزر التجارية :

وفي عهد بني زياد أيضاً كان لهم سيطرة على جزر تطل على سواحل زبيد وبعض هذه الجزر كانت لها أهمية تجارية كبيرة كجزيرة دهلك[٧٣] ، فقد فرضت عليها ضريبة عينية تتمثل في العبيد فقد فرض عليهم دفع خمسمائة وصيف وخمسمائة وصيفة[٧٤] .

وكانت جزيرة فرسان يؤخذ بها مكس من كل حمل[٧٥]. ومثلها جزيرة كمران[٧٦].

٤. ضريبة على معادن اللؤلؤ والعنبر :

السواحل اليمنية ثرية بالثروات المتعددة فكان الناس يستغلون هذه السواحل الممتدة من سواحل تهامة الحجاز في الشمال الغربي، إلى عُمان في الشرق والجنوب الشرقي مروراً بسواحل عدن والشحر.

فهناك الثروة السمكية وهي ثروة متجددة لا تنقطع. وهناك ثروة أخرى تتمثل باللؤلؤ والعنبر وكانت متوفرة على السواحل الممتدة من باب المندب إلى الشحر، فلم يترك أصحاب السلطان هذه الثروة يستمتع بها الناس لوحدهم بل فرضوا عليها ضريبة وأول ذكر لهذه الضريبة كانت في عهد بني زياد[٧٧]، ولعلها استمرت بعد ذلك في ظل الدولة اللاحقة.

٥. ضريبة ومكس على المدن والقرى :

أشارت المصادر إلى استغلال المدن لجباية الأموال المطلوبة فمدينتي زبيد وعدن كانتا أبرز هذه المدن. ولكن لابد أن تكون هناك مدن أخرى لها

أهمية مثل صعدة بالنسبة للدولة الهادوية بل قبل الدولة الهادوية (الزيدية) لأن صعدة تعد مدينة تجارية. وكذلك صنعاء فهي مركز ترد إليه كل السلع التي تُسوَّق داخل صنعاء، ولا نظن أنها تخلو من ضريبة ما. إما على شكل زكاة لما يدخل إليها. أو على شكل عروض التجارة، أو على شكل ضرائب أخرى.

وإن كان أبرز المدن هي المدن التجارية وبالذات البحرية فقد كانت مدينة (الخوخة)(٧٨) وقرية النخيلة(٧٩) يؤخذ منها (مكس) عن كل حمل من السلع يدخل إلى المدينة ويختلف قيمة ما يؤخذ عن كل حمل بين المدينة والقرية فالمدينة يؤخذ منها أكثر مما يؤخذ من القرية(٨٠).

فمدينة (عثر)(٨١) مثلاً يؤخذ على كل حمل دينار بينما الخوخة السدس والنخيلة نصف الربع(٨٢).

وبالطبع أن القائمين على هذه المدن أو على استخلاص الضرائب والمكوس لابد أنهم يستخدمون وسائل تفتيشية وصفها المقدسي(٨٣) بالصعبة. وأن مكس بلدان السواحل هين إلا غلافقة(٨٤) فهو صعب. إلى حد أن المقدسي ينقل بأن ما يصل إلى خزانة السلطان يبلغ ثلث أموال التجارة، فإذا كان هذا صحيحا فهي عملية ابتزازية فضيعة لم تكن تحمل ذرة من العدل والنصفة.

نخلص في نهاية هذه الورقة إلى أن نظام الضرائب والمكوس كان سبباً في جني الأموال الطائلة للأنظمة الحاكمة. حيث أكثروا من أنواعها العديدة، ولم يكتفوا بالموارد المالية الشرعية بل استغلوا ما يعرف بعشور التجارة ليوسعوا فيه توسيعاً كبيراً، ويطبقوه بصورة بشعة في كل منفذ من المنافذ التجارية، أو الزراعية، حتى صار عبئاً على رقاب الناس ولم يجنوا أي فائدة.. فالرعية لم ينالوا أي مقابل. بل كانت تصرف العائدات على متطلبات الحكام حتى أولئك الذين كانت دخولهم قليلة إلا أن ما يصرفونه لم يكن لصالح الناس وإنما تصرف على أبهة سلطانه للضيوف وقاصديه كما هو حال آل يعفر(٨٥).

فالمبالغ المستخلصة من اليمن هائلة ويكفي أن نشير إلى أن آل زياد وحدهم تصل إلى خزائنهم مليون دينار كل عام(٨٦) فوق ما يتحصلونه من ضرائب ومكوس، وما يستخلصونه من زكاة وكان هذا في عام ٣٦٦هـ/٩٧٦م.

وإذا كان لهذه الورقة من توصية فتتمثل في الدعوة لدراسة مظاهر الظلم الاجتماعي والاقتصادي الواقع على الناس ومدى كونه سبباً في سقوط الأنظمة.. والعمل على رصد الانحرافات التي وقعت فيها الدول الحاكمة التي صارت جرائيم انقضت على جسم المجتمع الإسلامي، وحصل ما حصل من اضطراب وخلل، ثم سقوط تحت براثين أعداء الأمة.

الهوامش

(٧) انظر: ابن منظور، لسان العرب ٤/١١٥.

(٧) إبراهيم فؤاد، الموارد العالية في الإسلام ٢٨٤.

(٧) المرجع نفسه ٢٨٧، وانظر: الطب إبراهيم محمد، النظم العالية في الإسلام ٣١ - الربيدي، الضريبة المحاسبية ٣١.

(٤) أبو كريش، إدارة المنازعات الضريبية ١٦٦؛ وانظر: الفروق بين الضريبة والزكاة - الربيدي، الضريبة المحاسبية ٤١، ٤٢.

(٥) ابن منظور، لسان العرب ٦/٤٢٤٨.

(٦) رواه أبو داود وأحمد وغيرهما عن عقبة بن عامر مرفوعاً وصححه ابن خزيمة والحاكم إنظر: العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس ٢/٣٧١).

(٧) انظر: البيومي إسماعيل، النظم العالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك.

(٨) إبراهيم فؤاد، الموارد العالية في الإسلام ٣٧، ٣٩، ٤٤، ٨٥.

(٩) أبو عبيد، الأموال ٦١٦، ٦١٧؛ أبو يوسف، الخراج ٦٨، ٦٩.

(١٠) أبو عبيد، الأموال ١٨٩.

(١١) الجرجاني، التعريفات ١١٤.

(١٢) الآية ١٠٣ من سورة التوبة.

(١٣) صبحي الصالح، النظم الإسلامية ٣٥٥.

(١٤) انظر: ابن ماجة، السنن ١/٥٨١؛ ابن آدم، الخراج ١١٦، ١٤٤، ١٤٩؛ أبو عبيد الأموال ٤٤٧، ٤٧٤؛ الطبري، تاريخ ٣/١١٨؛ السهيلي، الروض الأنف ٧/٤١٤، ٤٢١ ابن سمرة، الطبقات ٢٦، ٢٧؛ الرازي، تاريخ مدينة صنعاء ٢٥٣.

(١٥) انظر: الشجاع، النظم ٦٦.

(١٦) الآية ٢٤، ٢٥ من سورة المعارج

(١٧) الربيدي، الضريبة المحاسبية ٣٧.

(١٨) احمد، المسند ٥/٢٢٨؛ أبو عبيد، الأموال ٥٦٧، ٦٠٠؛ ابن آدم، الخراج ١١٦، ١٤٤؛ أبو يوسف، الخراج ٥٤؛ البلاذري، فتوح البلدان ١/٨٤، ٨٩، وانظر: الربيدي، الضريبة ٣٨، ٣٩.

(١٩) البلاذري؛ فتوح ١/٨٥؛ ابن آدم: الخراج ٦٨، ١١٣، ١١٦؛ ابن ماجة، السنن ١/٥٨١، أبو عبيد، الأموال ٣٥ - السهيلي، الروض الأنف ٧/٤١٤.

(٢٠) انظر: أبو عبيد، الأموال ٦٠٦؛ البلاذري، الفتوح ١/٨٥.

(٢١) انظر: أبو داود، السنن ١/٣٦٣ ابن ماجة، السنن ١/٥٨٠؛ النسائي، المجتبى ٥/١٧؛ أبو عبيد، الأموال ٣٤، ٣٥، ٤٦٨.

(٢٢) الربيدي، الضريبة ٣٨.

(٢٣) انظر: ابن آدم، الخراج ١١٦، ١٤٤، ١٤٩؛ أبو عبيد، الأموال ٤٤٧، ٤٧٤؛ ابن ماجة، السنن ١/٥٨١.

(٢٤) ابن حجر، فتح الباري ١٢/١٧٩، ١٨١.

(٢٥) أبو داود، السنن ٣/١٤٧؛ المباركفوري، تحفة الأحوذي ٣/٣٦٧؛ ابن سعد، طبقات ٥/٥٢٣؛ أبو عبيد، الأموال.

(٢٦) الترمذي، الجامع ٢/٦٩؛ النسائي، المجتبى ٥/٣ - أبو داود، السنن ٣/٢٦٦ ابن ماجة، السنن ١/٥٨٠.

(٢٧) ابن سمرة، طبقات ٩٦، ٢٧؛ حميد الله، الوثائق السياسية ٢٤٩.

(٢٨) ابن الأمير الصنعاني . سبل السلام ٢/٦٦٧ .

(٢٩) إبراهيم فؤاد . الموارد المالية ٦٥ .

(٣٠) هذا ما وضعه عمر بن الخطاب لعمال الصدقات (انظر : أبو عبيد . الأموال ٧١٩ - الرازي . تاريخ صنعاء ٢٩٥ ، ٢٩٦) .

(٣١) قدامة بن جعفر . الخراج ٢٥٢ . وقد وضع مقارنة بين ما تحصلته الدولة الفارسية وهي أقل مساحة حيث بلغ ٦٠٠ مليون دينار وبين ما تحصلته الدولة العباسية في عهد المأمون . وقد بلغت الدولة مساحة ضخمة حيث بلغ ٧٣ مليون دينار و ٨٠٠ ألف درهم .

(٣٢) المصدر نفسه ٢٤٩ ، ٢٥٦ : المقدسي . أحسن التقاسيم ١٠٥ .

(٣٣) أحسن التقاسيم ١٠٥ مع العلم أن ما يرتفع من الحرمين مائة ألف دينار .

(٣٤) الرازي، مختار الصحاح ١٧٣ .

(٣٥) الرازي، مختار الصحاح ١٠٣ .

(٣٦) أبو يوسف . الخراج ٧٣ : وانظر : الشجاع . النظم الإسلامية ٧٠ .

(٣٧) الماوردي، الأحكام السلطانية ١٤١ : أبو يوسف . الخراج ١٣٩ ، ١٣٢ : ابن القيم . زاد المعاد ٣/٥١.

(٣٨) ابن حبيب . المحبر ١٨٥ : اليعقوبي . تاريخ ١/ ٢٥٧ : ابن حزم . جمهرة أنساب العرب ٤٩١ : ابن قتيبة . المعارف ٦٣١ .

(٣٩) مسلم. الصحيح بشرح النووي ٣/ ١٥٨ : أحمد . المسند ٥/ ٢٦١، ٢٦٣ : ابن رسته. الأعلاق النفيسة ٢٠٥.

(٤٠) الطبري . التاريخ ٤/ ١١٢ .

(٤١) أبو داود . السنن ١/ ٣٦٣ : الترمذي . الجامع ٣/ ٦٨ : النسائي . المجتبى ٥/ ٤٧ : ابن آدم . الخراج ٦٨ ، ١١٢ ، ١١٦ : البلاذري . فتوح ١/ ٨٥ ، ٨٦ : أبو عبيد: الأموال ٢٩ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٦٨ .

(٤٢) أبو عبيد. الأموال ٥١ : البلاذري . فتوح ١/ ٨٧ .

(٤٣) أبو يوسف . الخراج ٧٧ -٧٩: ابن القيم زاد المعاد ٣/ ٤٧ - ٥١ وانظر : الشجاع . النظم ٧٣-٧٤.

(٤٤) كانت الجزية لدى الروم والفرس سبعة أمثال الجزية عند المسلمين. انظر : حسن إبراهيم حسن، النظم الإسلامية ٢٤٧ ، أبو عبيد، الأموال ٢٩: وانظر : قاسم عبده قاسم. أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى ٢٩ والشجاع النظم الإسلامية ٧٦ .

(٤٥) أبو يوسف . الخراج ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٤٦) إبراهيم فؤاد . الموارد المالية في الإسلام ٢٠٧ .

(٤٧) انظر مزيداً عن شروطها وآدابها : عبد الخالق النواوي، النظام المالي في الإسلام ١١٥ -١٢٤ إبراهيم فؤاد . الموارد المالية في الإسلام ٢٠٨ - ٢١٦ .

(٤٨) الحجوري، روضة (مخطوطة) ت ٢٤٤/أ - ابن المجاور . تاريخ المستبصر ١٢١ : ١٢٩ : يا مخرمة، ثغر عدن ١/ ٤٠ .

(٤٩) المقدسي . أحسن التقاسيم ١٠٥ .

(٥٠) ابن حوقل، صورة الأرض ٣٢ يتحصل من زبيد مائة ألف دينار عشري . ومن عدن مائتي ألف دينار عشري.

(٥١) المصدر نفسه والصفحة: وامن حوقل كان تاجراً ومعاصراً لهذه المدة ودخل هذه المناطق .

(٥٢) ابن المجاور . تاريخ المستبصر ١٤٢

(٥٣) المقدسي . أحسن التقاسيم ١٠٥

(٥٤) وفي عهد الزريعيين استحدثت ضرائب بأهمية استمرت في العصور التالية وقيل إن الذي استحدثها

لهم يهودي كان يعمل لديهم في ميناء عدن (ابن المجاور . تاريخ المستبصر ١٤٠ ، ١٤١) .

(٥٥) عبشي الصالح . النظم الإسلامية ٣٨٦ .

(٥٦) الخزرجي . العسجد ٢١ يحيى بن الحسين . غاية الأماني ١/ ١٠٠ .

(٥٧) ابن حوقل . صورة الأرض ٣٢ - والدينار العشري نسبة إلى مدينة عشر التي تضرب فيه هذه العملة.

(٥٨) المصدر نفسه والصفحة حيث يقول : إن أمواله كانت دون أربعمائة ألف دينار في السنة .

(٥٩) ابن المجاور . تاريخ المستبصر ٨٠ ، ٩٠ .

(٦٠) ابن المجاور . تاريخ المستبصر ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢ .

(٦١) المصدر نفسه والصفحة .

(٦٢) المصدر نفسه والصفحة .

(٦٣) المصدر نفسه ٩٠ : انظر : الشجاع . اليمن في عيون الرحالة ١٦١ ، ١٦٢ .

(٦٤) المصدر نفسه ٨٩ .

(٦٥) صورة الأرض ٣٣ .

(٦٦) ابن المجاور . تاريخ المستبصر ٢٤٣ .

(٦٧) أحسن التقاسيم ١٠٥ .

(٦٨) انظر : الهمداني . الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ٢٣٢ – ٢٣٤ .

(٦٩) الحجوري . الروضة (مخطوط) ٢٤٤/ق أ . ب : يامخرمة . ثغر عدن ١/ ٤١ .

(٧٠) يامخرمة . ثغر ٢/ ١٧ .

(٧١) الزيالع : هم سكان زيلع وهي : فرضة على خليج عدن وميناء تهم ومنفذ بحري لتجارة شرق أفريقيا (عطية الله . القاموس الإسلامي ٣/ ٦٠) .

(٧٢) ابن المجاور . تاريخ المستبصر ٩٩ ، ١٠٠ .

(٧٣) لرخبيل مكون من ثلاثة جزر صغيرة يقع بالقرب من الساحل الجنوبي الغربي للبحر الأحمر وعلى مسافة تبعد ٢٣ ميلاً عن ميناء مصوع (عطية الله . القاموس ٤/ ٣٤٧) .

(٧٤) يامخرمة . ثغر ٢/ ١٧ .

(٧٥) ابن المجاور . تاريخ المستبصر ٩٣ .

(٧٦) المقدسي . أحسن التقاسيم ١٠٤ .

(٧٧) يامخرمة . ثغر ٢/ ١٧ .

(٧٨) الخوخة : مدينة تقع على البحر الأحمر جنوب غرب مدينة حيس بمسافة ٢٨ كم (المقحفي . معجم البلدان ٦٢٧) .

(٧٩) قرية صغيرة في تهامة .

(٨٠) ابن المجاور تاريخ المستبصر ٩٢ .

(٨١) عَثّر : مدينة تهامية تقع في شمال تهامة (المقحفي . معجم البلدان ٤٣٨) .

(٨٢) المقدسي . أحسن التقاسيم ١٠٤ ، ١٠٥ - ابن المجاور . تاريخ المستبصر ٩٢ ، ٩٣ .

(٨٣) أحسن التقاسيم ١٠٤ ، ١٠٥

(٨٤) غلافقة : ميناء ومرسى من مراسي تهامة . وهي شمال غربي مدينة زبيد (المقحفي . معجم البلدان ٤٨٩).

(٨٥) ابن حوقل . صورة الأرض ٣٢ .

(٨٦) يامخرمة . ثغر ٢/ ١٧ .

المصادر والمراجع

- إبراهيم فؤاد أحمد علي : الموارد المالية في الإسلام، ط٣ ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- أحمد بن حنبل (الإمام) (ت ٢٤١هـ/٨٥٥م)
المسند، المكتب الإسلامي ودار صادر، بيروت.
- ابن آدم، يحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٣هـ/٨١٨م)
الخراج: تحقيق / أحمد محمد شاكر، ط٢، السلفية، القاهرة ١٣٨٤هـ.
- ابن الأمير الصنعاني، محمد بن إسماعيل (ت ١١٨٢هـ/١٧٦٨م)
سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام لابن حجر (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م) تعليق / محمد عبد العزيز الخولي، ط الرابعة) مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.
- البرهان فوري، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري (ت ٩٧٥هـ/١٥٦٧م)
كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. ضبط وتصحيح / بكري حياني وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)
- فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، النهضة المصرية، القاهرة.
- البيومي إسماعيل:
النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨م.
- الترمذي، (الإمام) أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)
الجامع الصحيح (سنن الترمذي). المكتبة السلفية، المدينة المنورة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
- الجرجاني: علي بن محمد (ت ٨١٦هـ/١٤١٣م)
التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ابن حبيب، أبو جعفر محمد (ت ٢٤٥هـ/٨٥٩م)
- المحبر: أخرجه وصححه محمد حميد الله و إليزة ليختن شتيتر، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، حيدر آباد، الهند ١٣٦٠هـ/١٩٤٢م.
- ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- الحجوري، أبو محمد يوسف بن محمد بن الحفيص (من علماء القرن السابع)

روضة الأخيار وكنوز الأسرار. مخطوط، نسخة مصورة لدي عن نسخة الدكتور/ محمد السروري ولعلها هي مصورة عن نسخة شخصية حيث تبدأ من سيرة معاوية بن أبي سفيان.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن سعيد الأندلسي (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٤م)
جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، ط الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧١م.
- حسن إبراهيم حسن
النظم الإسلامية. ط الرابعة ١٩٧٠م، النهضة المصرية، القاهرة حميد الله. محمد الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة. ط الرابعة، دار النفائس، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م)
صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩م.
-الخزرجي، أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي بكر (ت ٨١٢هـ/١٤٠٩م) العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، وزارة الإعلام، المخطوط مصوراً بدار الفكر، دمشق (د.ت).
- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني السنن، تعليق أحمد سعد علي، ط الأولى، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.
- الرازي، أحمد بن عبد الله (ت ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م)
تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق حسين العمري وعبد الجبار زكار، ط الأولى ١٩٧٤م، بيروت.
- الربيدي، محمد علي الربيدي
المحاسبة الضريبية، ط الرابعة، ٢٠٠٣ (بإشراف المؤلف).
- ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (كان موجوداً عام ٢٩٠هـ/٩٠٣م)
الأعلاق النفيسة. مطبعة بريل، ليدن، هولندا، ١٨٩١م.
- ابن سعد، محمد (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م)
الطبقات الكبرى، بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- ابن سمرة الجعدي، عمر بن علي (ت بعد ٥٨٦هـ/١١٨٩م)
طبقات فقهاء اليمن، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٧م.
- السهيلي، عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد الخثعمي (ت ٥٨١هـ/١١٨٥م)
الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام (ت ٢١٨هـ/٨٣٣م)
تحقيق عبد الرحمن الوكيل، ط الأولى، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- الشجاع عبد الرحمن عبد الواحد

النظم الإسلامية ميلاداً ونشأة . دار الفكر ، ودار الفكر المعاصر ، دمشق ، بيروت ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .
– صبحي الصالح:
النظم الإسلامية ، ط٦ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٢م
– الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)
تاريخ الرسل والملوك. المعروف بتاريخ الطبري. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط الثانية ، دار المعارف ، القاهرة .
– أبو عبيد ، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م)
الأموال ، تحقيق / محمد خليل هراس ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ودار الفكر ، بيروت ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .
– العجلوني ، إسماعيل بن محمد (ت ١١٦٢هـ/ ١٧٤٨م)
كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس(د. ت و ط).
– عطية الله ، أحمد:
القاموس الإسلامي ، ط الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
– قاسم عبده قاسم:
أهل الذمة في مصر العصور الوسطى ، دار المعارف ، القاهرة .
– ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت٢٧٦هـ/٨٨٩م)
المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، ط الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م .
– قدامة بن جعفر (توفي بين ٣١٠ و ٣٣٧هـ/٩٢٢ و ٩٤٨م)
الخراج وصنعة الكتابة . (نشر مع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة) .
– قطب إبراهيم محمد
النظم المالية في الإسلام .
– ابن قيم الجوزية ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م)
زاد المعاد في هدي خير العباد محمد صلى الله عليه وسلم ، المطبعة المصرية ومكتبتها ، القاهرة.
– أبو كرش: شريف مصباح: إدارة المنازعات الضريبية في ربط وتحصيل الضرائب. ط الأولى ، ٢٠٠٤م ، دار المناهج ، عمان
– ابن ماجة ، (الحافظ) أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ/١٠٥٨م)
السنن : تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبعة عيسى الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٤م.
– الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت٤٥٠هـ/١٠٥٨م)

الأحكام السلطانية والولايات الدينية ط الثانية ، مطبعة مصطفى الحلبي ، القاهرة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
– ابن المجاور ، جمال الدين وأبو الفتوح يوسف بن يعقوب بن محمد الشيباني الدمشقي (ت ٦٩٠هـ/١٢٩١م)
صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة (تاريخ المستبصر) تصحيح وضبط أوسكر لوتغرين ، مطبعة بريل ، ١٩٥١م ، ليدن .
– بامخرمة ، أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد (ت ٩٤٧هـ/١٥٤٠م)
تاريخ ثغر عدن ، ط ثانية ، ١٩٩١م ، مكتبة مدبولي ، القاهرة .
المفحفي ، إبراهيم أحمد
معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ط الثانية ، دار الكلمة ، صنعاء ، ١٩٨٥م.
المقدسي ، محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي البشاري
(ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م)
٤٢. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط الثانية ، مطبعة بريل ، ليدن ، هولندا ١٩٠٦م.
ابن منظور ، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكر بن على (ت ٧١١هـ/١٣١١م)
لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة .
النسائي (الحافظ) أبو عبد الرحمن بن شعيب (ت ٣٠٣هـ/٩١٥م)
المجتبى (السنن): ط أولى ، مطبعة مصطفى الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٤م.
النواوي ، عبد الخالق .
النظام المالي في الإسلام: ط الثانية ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٧٣م.
النووي ، محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م)
شرح صحيح مسلم ، المطبعة المصرية ، ومكتبتها ، القاهرة .
الهمداني ، حسين بن فيض الله
الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن (من سنة ٢٦٨ إلى سنة ٦٢٦هـ) ، وزارة الإعلام والثقافة ، صنعاء .
يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٠هـ/١٦٨٩م)
غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار المكاتب العربي ، القاهرة ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
أبو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري (القاضي)
(ت ١٨٢هـ/٧٩٨م)
الخراج. تصحيح محيي الدين الخطيب ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م.

د. عبدالحكيم عبدالحق محمد (*)

جهود العلماء فى تنمية الحياة الاقتصادية فى العصر العباسى الأول

المقدمة

إن مما دفعنى للبحث فى هذا المجال من الدراسات التاريخية، الحاجة والرغبة معا لمعرفة دور الأمة فى صناعة التاريخ وتحريك أحداثه من خلال التركيز على دور شريحة العلماء وجهودهم فى الحياة الاقتصادية فى المجتمع الإسلامى.

والتاريخ الاقتصادى من أهم الميادين التى تحتاج إلى دراسات لشتى جوانبه لتعميق المعرفة به، مما يعزز فرص وضع أسس الاقتصاد الإسلامى الذى يعوّل عليه فى حل كثير من المشكلات الاقتصادية المعاصرة التى أفرزتها النظريات الاقتصادية الحديثة التى الم تنحاز مع مصالح واضعيها ضد مصالح الأكثرية، فإنها لاشك يكتنفها القصور والعجز عن تلبية متطلبات الإنسان فى الزمان والمكان، أو على الأقل تشذيب هذه النظريات وتهذيبها بما يكيفها مع مصلحة المجتمع والفرد على السواء.

إلى جانب إبراز دور العلماء فى الحياة الاقتصادية، هل كان لهم من أثر فى تنميتها وتطويرها، من خلال جهودهم النظرية بالتوجيه والوعظ، أم العملية بالممارسة والمشاركة، أم أنهم اتخذوا مواقف سلبية منها؟ فتركوا ما لله لله وما لقيصر لقيصر؟

فضلا عن إعطاء الصورة الحقيقية للمجتمع الإسلامى فى نظرته للمال وتعامله به.

خصوصا أن العلماء قد وجدوا أنفسهم فى العصر العباسى الأول إزاء تيار انعزل الحياة العامة لاسيما الاقتصادية، لاعتقاد أصحابه أن فى العزوف

(*) أستاذ مساعد التاريخ الإسلامى بقسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة تعز

عن الدنيا كبح لجماح الشهوات، وإخراجها من قلب المؤمن الذي يجب أن يمتلئ نفسه فحسب لأغراض الآخرة، وأن يوحد الهم، ويجعله هما واحدا.

فأكد العلماء في العصر العباسي الأول على أن العمل واكتساب المال وتثميره، وإعمار الدنيا وأخذ المسلم نصيبه منها، لايتعارض مع حقيقة الزهد والورع، ولا مع العمل للآخرة، ولا مع الحكمة والغاية التي خلق الله الإنسان من أجلها، واستعمره في الأرض.

وهي قضية سيطرت على الكثير من المسلمين في القرون الأولى، بل وربما نتج عنها ظهور الاتجاهات الصوفية التي عزفت عن الحياة، نتيجة ما رأوه من متغيرات اقتصادية نتجت عن تدفق الأموال بكثافة على خزانة الدولة، وعلى المسلمين، وما استتبع ذلك من ارتفاع في مستوى معيشة المجتمع وتطور أساليب حياته. وانتقاله من طور الإقلال إلى طور الوفرة، وتأنق الناس في مأكلهم ومشربهم وملبسهم ومسكنهم ومركبهم. رأى بعض التابعين أن هذه المتغيرات وما نتج عنها لايتفق وحياة النبي صلى الله عليه وسلم وحياة الصحابة، فتشبث هذا الفريق من التابعين بتفاصيل حياة الجيل الأول، ورأوا الالتزام الكامل بها مهما كانت المتغيرات من حولهم، كل هذا الموقف أفرز لنا اتجاها انعزاليا تصوفيا، اتجاها لم يدرك حقيقة الإسلام، في أنه دين يضع اتباعه في صميم الحياة، ويطلب منهم أن يعيشوا على هذه الأرض ويتفاعلوا معها، يكتشفوا أسرارها، وينتفعوا بخيراتها، لتيسير حياتهم أن تسعى أقدامهم وتعمل أيديهم على الأرض، ولكن على أن تظل قلوبهم معلقة بالسماء.

«جهود العلماء في تنمية الحياة الاقتصادية وتطويرها»

بالرغم من أن تعاليم الإسلام دأبت على تحذير المسلم من الانغماس في الحياة الدنيا والإغراق في شهواتها وملذاتها، إلا أن ذلك لم يكن يعني أن يعيش المسلم على هامش الحياة، لأن الله قد أراد من المسلم قبل غيره من الناس عندما استخلفه في الأرض عمارتها وفق المنهج الذي أعطاه، وبمقتضى ذلك الاستخلاف، قال تعالى: «إني جاعل في الأرض خليفة»[1] وقال عز وجل في موضع آخر: «وهو الذي جعلكم خلائف الأرض»[2]

وأراد الله للمسلم أن يكون سيدا على الأرض، لا أن يكون مسودا، قال تعالى: «إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»[3] وقال عز وجل: «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون»[4] وهذه السيادة والوراثة لاتكون إلا من خلال اكتشافه لأسرار هذا الكون، الذي أودع الله فيه سننا من أخذ بها تمكن من تسخير ما فيها

لمصلحته، ولذلك فإن أبرز أهداف الاقتصاد الإسلامي، إعمار الأرض واستصلاحها وفق المنهج الذي أراده الله تعالى.

١- إبراز قيمة العمل بالنسبة لرخاء الأمة:

رأى العلماء في العصر العباسي الأول على إبراز قيمة العمل والكسب بوصفه شرطا ضروريا لرخاء الأمة، ولتلبية حاجات ومتطلبات الفرد التي لايغني له عنها مهما بلغت درجة تقواه وورعه وزهده وعزوفه عن الدنيا واتجاهه إلى الآخرة، وبينوا أن إهمال هذه الحاجات والمطالب قد يخل بالتوازن في حياة المسلم القائمة أصلا على الموازنة بين الروح والمادة، الآخرة والدنيا، بين سمو الروح وحاجات الجسد، وإن إغفالها وإهمالها قد يؤدي إلى تلبيتها بطرائق غير مشروعة، فيعرض ذلك حياة الفرد والمجتمع للاختلال والخطر.

وإذا كان العلماء قد بينوا حاجات الإنسان وضرورة تلبيتها لاستمراره في الحياة، ولتطور المجتمع واستطالته، فإنهم شددوا كذلك على تلبية هذه الحاجات والمطالب للعلماء، بوصفهم الضابط الذي يعيد التوازن إلى حياة المجتمع، ولأنهم المعيار والقدوة التي يقيس الناس عليها سلوكهم وتنضبط بها حياتهم، ولأن الكتاب والسنة قد حثا على العمل والكسب، سواء للعلماء أم للناس كافة، في حشد من الآيات والأحاديث النبوية، قال تعالى: «هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور»[5] وقال عز وجل: «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله»[6] وقال عز وجل: «للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن»[7]، كما حفلت السنة النبوية بكثير من الأحاديث التي تحض على العمل والكسب، فقد روى الإمام أحمد بن حنبل أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أفضل الكسب. قال: «عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور»[8] بل عد العمل والكسب لغرض الاستعفاف عما في أيدي الناس وكفالة من يعول، ضربا من الجهاد، فقد روى مسعد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما أنفقتم على أهليكم في غير إسراف ولا إقتار فهو في سبيل الله»، وأن من قصرٌ في ذلك آثم، فقال صلى الله عليه وسلم «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول». وقد أكد ذلك وسار عليه الصحابة والتابعون.

لهذا كله حث العلماء في العصر العباسي الأول الناس على العمل والكسب، وإلى التمتع بثمار العمل والكسب، في الحلال، وبينوا أن ذلك لاينافي حقيقة الزهد ولامقتضيات التقوى، بل يساعد على تحقيقها.

بدأ العلماء بأنفسهم، قبل أن يدعوا أقرانهم وسائر الناس إلى العمل والكسب، حتى لايخالفوا الناس إلى ما ينهونهم عنه من البطالة والاعتماد على غيرهم في معاشهم، والعفة عما في أيدي الناس. ثم بعد ذلك عززوا قيم العمل والكسب والعفة بعد أن أصبحوا قدوة للناس فيها.

فكان لسفيان الثوري تجارة مع بعض التجار يقتات منها[٩]. ثم لما توارى عن المهدي في البصرة عمل أجيرا في بستان ليكتسب قوته[١٠]. وكان يدعو الناس إلى حسن إدارة المال وإصلاحه وتثميره، قائلا: «من كان في يده شيء من هذه الدراهم فليصلحه. فإنه في زمان إن احتاج أول ما يبذل دينه»[١١]. فهو يرى أن المال خير معين على التقوى، والعفاف[١٢]، خصوصا للعلماء، أولئك الذين أنيط بهم تصويب انحرافات الدولة والمجتمع، لأن العالم إن اعتمد في معاشه على ما يعطى إليه من السلطان أو من الناس، عندها سيفقد قدرته على محاسبتهم وتقويمهم، فضلا عن امكانية استخدامه لتسويغ بعض أغراضهم، وقد أضاء هذه القضية سفيان الثوري عندما لامه أحد أقرانه لحرصه على المال، فقال: «والله لولا هذه الدنانير لتمندل بنا هؤلاء الملوك»[١٣](يعني لجعلنا بنو العباس مناديل يمسحون بها أوساخهم). وكان يقول: «لأن أترك عشرة آلاف يحاسبني الله عليها أحب إلي من أن احتاج إلى الناس»[١٤].

لم يكتف سفيان بالتزام قيم الإسلام الحاضة على العمل والكسب للاستعفاف عما في أيدي الناس، في نفسه، بل دعى غيره إليها، خصوصا أقرانه من العلماء، فقد كتب إلى أحد إخوانه، قائلا:

«أحسن القيام على عيالك»[١٥]. ولما مر بفتيان في إحدى حلق العلم منقطعين إلى تعلم القرآن وقد كفاهم الناس أمر معاشهم، دعاهم إلى الإستعفاف عما في أيدي الناس لأن في ذلك ذل لهم، قائلا: «يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح الطريق، واعملوا ولا تكونوا عالة على الناس»[١٦]. فما كان منهم إلا أن تفرقوا وتوجهوا إلى الكسب، وكان يقول: «ما وضع أحد يده في قصعة غيره إلا ذل له[١٧]»

وكان هذا دأب إبراهيم بن أدهم فلقد عرف بتحريه الحلال، ويدعونه الناس إلى العمل للعفة عما في أيدي الناس، وقرن العمل بالعبادات المفروضة، فقال: «إن الصائم القائم المصلي الحاج المعتمر الغازي، من أغنى نفسه عن الناس»[١٨]، بل إنه فضل السعي في طلب الرزق لتحقيق الكفاية والعفة على نوافل الصلاة والصوم[١٩].

ولم يكن هذا العالم الجليل ليدعو الناس إلى العمل والسعي في طلب الرزق ثم يقعد هو يتكفف الناس أو ينتظر ما يعطى له منهم، بل عرف بأنه كان لا يأكل إلا من عمل يده وكده. فكان يرتحل في طلب المال الحلال من بلد إلى آخر رافضا ما يفيض عليه إخوانه من فضلاتهم[٢٠]. فتوجه إلى الشام، لا مرابطا ولكن طالبا لكسب الحلال، وقد عبر هو عن ذلك حيث قال: «أنا بالشام منذ أربع وعشرين سنة ما جئت لجهاد ولا لرباط ولكن لأشبع من خبز حلال»[٢١].

وكان سفيان بن عيينه يدعو الناس إلى العمل للدنيا ما داموا فيها، وتحصيل مالابد لهم منه، لتحقيق الكفاية، وعمارة الأرض التي استخلفهم الله فيها مشيرا إلى أن ذلك ليس من حب الدنيا والتعلق بها، حيث قال: «ليس من حب الدنيا طلبك منها ما لابد منه»[٢٢]. لأنه إن احتاج إلى ما لابد منه فإنه سيبذل في سبيل الحصول عليه كل ما لديه، فطالب باستصلاح المال وتنميته لذلك قائلا: «من كان له مال فليصلحه فإنك في زمان من احتاج فيه إلى الناس كان أول من يبذله دينه»[٢٣].

وأشار ابن المبارك إلى أهمية الكسب بين العبادات، فقال: هو بمنزلة الجهاد في سبيل الله، إن لم يكن أفضل منه[٢٤] فالمال في نظره مكمل للدين[٢٥]. بل ذهب إلى أنه قوام الدين، ونلمس هذا المذهب من إجابته على بعض من لامه لبكائه على بضاعة فقدها، إذ قال: «هو قوام ديني»[٢٦] (يقصد المال).

ولما عوتب الشافعي على كثرة تنقله بين البلدان، قال:

رزقي نشتت في البلاد وإنني ... أسعى لجمع شتاته وأطوف
فكأنني قلم بأنمل كاتب ... وكان رزقي في البلاد حروف[٢٧]

وكان يرى كسب المال وحيازته من كمال الدين والعقل، ومن خير الدنيا والآخرة، إذ قال خير الدنيا والآخرة في خمس خصال، ذكر منها الكسب الحلال، وكان يقول: «لاتشاور من ليس في بيته دقيق»[٢٨] كناية عن أن الفاقة تذهب بالعقل.

وكان أحمد بن حنبل لاينشط للحديث حتى يؤمن حاجته من المال من كسب يده لئلا تلجئه الحاجة إلى استعطاء الناس، أو حتى قبول ما يعطوه، فكان يقول: «اللهم كم صنت وجهي عن السجود لغيرك فصن وجهي عن المسألة لغيرك»[٢٩] فرفض ما كان يقدم له من هبات السلطان، ومن كرامات الإخوان، وإنما اعتمد على كسب يده[٣٠]. وبين لمعاصريه أهمية العمل والكسب، فقال لرجل استنصحه: «الزم السوق تصل به الرحم وتعود به المريض»[٣١] واتهم من ينقطع للعبادة دون أن يأخذ نصيبه من الدنيا بكسب يده، بالجهل[٣٢]، ولما

سأله أحد الصوفية عما تلين به القلوب قال: «بأكل الحلال»[٣٣] وهو انتقاد مبطن لمنهج الصوفية في الحياة إذ يتركون الكسب الحلال في الدنيا زهدا في الدنيا ورغبة في الآخرة، ثم تلجئهم الحاجة بعد ذلك إلى مالابد منه من مطالب الحياة، إلى التفريط في دينهم، فيتسولون المال من الأمراء والأغنياء والناس، فتتضع منزلتهم في أعين الناس وتزول هيبتهم في نفوس الناس، فضلا عن عجزهم عن تحقيق مقتضيات الاستخلاف.

ب - ممارسة العلماء للأنشطة الاقتصادية:

إذا كان العلماء كما عرفنا في السياق الماضي، قد أبرزوا قيمة العمل وأهمية الكسب، سواء للفرد أم للمجتمع، فإننا في هذا السياق سنتبدل ما في وسعنا من جهد لتكثيف النظرة إلى ما قام به هؤلاء العلماء من أدوار في الحياة الاقتصادية، من خلال مشاركتهم في الأنشطة الاقتصادية المعروفة حينذاك، وكيف نظروا إلى تلك الأنشطة الاقتصادية، وطرائق ممارستهم لها.

وإذا ما أردنا التعرف على أهم الأنشطة الاقتصادية التي وجدت في العصر العباسي الأول، فإننا سنجدها تتلخص في أنشطة ثلاثة هي التجارة والزراعة، والصناعة، فكانت التجارة أكثر هذه الأعمال حظا من مشاركة العلماء، لأنهم كانوا يعدونها من أشرف الأعمال وأعلاها قدرا، وربما دعاهم إلى ذلك أيضا الإشارات القرآنية المتكررة إلى أهمية التجارة، قال تعالى:

«يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم»[٣٤] وقال تعالى: «أحل الله البيع وحرم الربا»[٣٥] وقال عز وجل في موضع آخر: «إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها»[٣٦]، وإلى أن سابقة الصحابة والتابعين كانوا يتجرون[٣٧].

ولم تكن الزراعة نقل شأن عن التجارة في العصر العباسي الأول، بوصفها نشاطا اقتصاديا ومواردا أسهم في تنمية الحياة الاقتصادية، إلا أنها لم تشهد ذات الإقبال الذي شهدته التجارة من العلماء، ولذلك أسبابه[٣٨]. كما ظهرت في العصر العباسي الأول عدد من الصناعات والحرف مثل الخزازة[٣٩] والحياكة[٤٠] والدباغة[٤١] وعمل النسيج، والحدادة، والصياغة، والصباغة إلا أن الموالي[٤٢] والعبيد واليهود كانوا يحتكرون معظم هذه الصناعات، ومع ذلك فقد كان هناك مشاركة محدودة للعلماء في هذه الأعمال.

فضل العلماء التجارة على سائر الأنشطة الاقتصادية، فكانوا يرونها أشرف المهن وأعلاها قدرا[٤٣] ولذلك كانوا يفضلون أموالهم من التجارة على سائر أموالهم[٤٤].

وكان من نتائج هذه النظرة، وذلك التفضيل، أن اهتم العلماء في العصر العباسي الأول بالتجارة وعمل معظمهم بها، فكان أبوحنيفة يعمل في تجارة الخز[٤٥]، وكان رأس ماله ثلاثين ألف درهم[٤٦]، وكان لسفيان الثوري بضاعة يتجر بها، ويعاونه في ذلك غلمانه[٤٧] وكان يستفيد من رحلاته العلمية لطلب الحديث، في البيع والشراء، فعندما زار عبدالرازق الصنعاني في اليمن لأخذ الحديث عنه، ضارب فيها بأربعة آلاف درهم، فأنفق من ربحها على رحلته[٤٨]، ولما توفي ترك بضاعة بمائة دينار[٤٩]، وعمل عبدالله بن المبارك في تجارة البز [٥٠]، فكان يربح من تجارته في السنة مائة ألف درهم[٥١]، وعمل سوى هؤلاء بالتجارة، أمثال وهيب بن الورد[٥٢]، والواقدي،[٥٣] وداود الطائي[٥٤]، وحجير بن المثنى [٥٥]، والفضل بن دكين [٥٦]، ويوسف بن موسى القطان[٥٧]، وحمزة بن عمار الزيات[٥٨]، والسري السقطي[٥٩] والبخاري[٦٠].

وبالرغم من عمل العلماء بالتجارة إلا أنه لم يكن هدفهم منها تكوين الثروات، وإنما هدفوا من ذلك تحقيق الكفاية التي يضمنون منها العفاف عما في أيدي الناس، فضلا عن الهدف الحضاري الاجتماعي، المتمثل في تبادل المنافع، وقضاء حوائج الناس، وهو أمر ضروري لاستمرار المجتمع وتطوره، ولذلك فلا نستغرب إذا ما علمنا أن بعض هؤلاء العلماء كانوا أحيانا يبيعون بضائعهم من غير ربح، ودعوا التجار إلى ذلك، فكان معروف الكرخي يقول: «اشتر وبع ولو برأس المال»[٦١]، وعاتب بشر بن مروان أحد معاصريه لتركه العمل في السوق، قائلا: «الزم السوق وإن لم تربح»[٦٢].

بل إن ما كانوا يربحونه، ينفقون جزءا كبيرا منه على المحتاجين، وصلات لأقرانهم من العلماء، وعلى طلاب العلم، فكان عبدالله بن المبارك، يقول: «والله لولا خمسة ما اتجرت»[٦٣] وعد خمسة من أقرانه العلماء، وكان أبوحنيفة يتعهد أبا يوسف بالدراهم، وهو تلميذه[٦٤].

وعمل عدد من العلماء بالزراعة فكان لليث بن سعد، ضياع بمصر تغل في السنة عشرين ألف دينار[٦٥] وكان لسحنون زيتون يبيع ويقتات منه[٦٦].

وكان للحرف الصناعية مساحة من اهتمامات العلماء، بالرغم من غلبة الموالي واليهود والعبيد عليها، فكان أبوخزيمة يصنع الأرسان[٦٧] ويبيعها قبل أن يلي قضاء مصر[٦٨]، وكان لسفيان الثوري إماء يغزلن[٦٩]، واشتغل أبوداود الحفري[٧٠]، بغزل الصوف[٧١]، وورث أحمد بن حنبل عن أبيه طرزا، كان يؤجرها لنفقته[٧٢] وكان إذا أعوزته الحاجة نسخ الكتب للناس بأجر[٧٣].

(٨٤) الزبير بن بكار: جمهرة نسب قريش، ص١٢٤.

(٨٥) الفسوي: المعرفة والتاريخ، ص٤٨٦؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٨، ص١٥٧.

(٨٦) الفسوي: المعرفة والتاريخ، ص٤٨٦.

(٨٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٧، ص ص ٣٢٧، ٤٦٩.

(٨٨) المصدر نفسه، ص٣٢٢.

(٨٩) المسيب بن شريك، من بني شقرة بن تميم، يكنى بأبي سعيد، ولد بخرسان ونشأ بالكوفة، سمع الحديث عن الأعمش وغيره، وعُدَّ من الضعفاء في الحديث، قدم بغداد فنزلها وولي بيت المال لهارون الرشيد، توفي ببغداد سنة (١٨٦هـ/ ٨٠٢م). ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ٧، ص٣٣٣.

(٩٠) الجراح بن مليح بن عدي بن الفرس بن سفيان بن الحارث بن كلاب بن عامر بن ربيعة، يكنى بأبي وكيع، فهو أبو وكيع بن الجراح، اهتم بالحديث، وولي بيت المال في بغداد لهارون الرشيد، ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٦، ص ٣٨٠ – ٣٨١.

(٩١) الخطيب: تاريخ بغداد، جـ٥، ص٤١٣.

(٩٢) خالد بن مهران الحذاء، يكنى بأبي المنازل، وهو من موالي قريش، ويسمى بالحذاء لأنه كان يجلس إلى الحذائين، وهو من العلماء الثقاة، كثير الحديث، استعمل على دار العشور بالبصرة، في خلافة المنصور، وتوفي بها سنة (١٤١هـ/ ٧٥٨م). ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٧، ص ٢٥٩، ٢٦٠.

(٩٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٧، ص٢٦٠.

(٩٤) الحسبة: مصدر احتسب، ومنه احتساب الأجر على الله، كقولك فعلته حسبة، واحتسب فيه احتسابا، إذا عمله وطلب أجره في الآخرة، وهي وظيفة يقوم بها بعض الناس للأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، وللنهي عن المنكر إذا ظهر فعله، ثم أصبحت بعد ذلك وظيفة رسمية تعين الدولة من يقوم بها لمراقبة الأسواق وللحفاظ على الآداب العامة، وكان للمحتسب سلطات تغيير المنكر في الأسواق، وولايته أدنى من ولاية القاضي، ابن منظور: لسان العرب، جـ٣، ص٨٢٦؛ ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص٧؛ انظر الكبيسي: أصالة نظام الحسبة العربية الإسلامية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ٧، ٨. انظر: أحمد مصطفى: الحسبة في الإسلام، ص١٢.

(٩٥) عاصم بن سليمان الأحول، يكنى بأبي عبد الرحمن، من موالي بني نعيم، أحد علماء الحديث الثقات، عمل في جهاز الدولة، فولي قضاء المدائن للمنصور، ثم على الحسبة في المكاييل والموازين للمنصور أيضاً، وتوفي سنة (١٤٢هـ/ ٧٥٩م). ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٧، ص٢٥٦.

(٩٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٧، ص٢٥٦؛ ابن الجوزي: صفة الصفوة، جـ٣، ص٢٠٣، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، جـ٨، ص٣٩.

(٩٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٦، ص٢٦٧.

(٩٨) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٠، ص٩٧؛ الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك، ص٥٤؛ مرعي بن يوسف: تنوير بصائر المقلدين، ص٣٨.

(٩٩) الخطيب: تاريخ بغداد، جـ٦، ص٢٢٨.

(١٠٠) ابن منظور: لسان العرب، جـ٣، ص١٥٧٣، انظر محمود منصور: الربا في الشريعة الإسلامية والقانون، دار النهضة العربية، القاهرة، د. ت، ص٣٢.

(١٠٣) البقرة: الآية ٢٧٦.

(١٠٢) ربا النسيئة، أو الربا الجلي، وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، فيؤخذ دينه ويزيده في المال، وكلما أخره زاده، ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين، جـ٢، ص١٢٩.

(١٠٣) البقرة: الآية ٢٧٥.

(١٠٤) البقرة: الآية ٢٧٦.

(١٠٥) البقرة الآية: ٢٧٨.

(١٠٦) رواه مالك في الموطأ، كتاب الصرف وأبواب الربا، حديث رقم ٨١٦، ص٢٨٩.

(١٠٧) مالك بن أنس: الموطأ، ص٢٩١.

(١٠٨) المصدر نفسه، ص٢٩١.

(١٠٩) أبو نعيم: حلية الأولياء، جـ٩، ص٦٨.

(١١٠) ابن الجوزي: صفة الصفوة، جـ٢، ص١١٥؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٦، ص٢٦٢.

(١١١) الشافعي: الأم، جـ٣، ص٣، ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين، جـ٣، ص٢٤٦؛ ابن حجر: سيرة الإمامين الليثي والشافعي، ص٧٠.

(١١٢) ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين، جـ٢، ص١٢٩.

(١١٣) المزابنة: بيع الثمر بالتمر من نفس النوع، كبيع التمر بالتمر، والعنب بالزبيب واستكراء الأرض بالحنطة، مالك بن أنس: موطأ الإمام مالك، ص٢٧٥، ٢٧٦، الشافعي: كتاب الأم، جـ٣، ص٥٥، ٦٥.

(١١٤) النَّجْش: هو تواطؤ رجلان أو أكثر على زيادة سلعة حتى يسمع بذلك المشتري، فيأخذها بأكثر من ثمنها، مالك بن أنس: الموطأ، ص٢٧٣، ابن حجر: سيرة الإمامين الليثي والشافعي، ص٥٩.

(١١٥) مالك بن أنس: موطأ الإمام مالك، ص١٧٤.

(١١٦) كان سفيان الثوري يروي أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في النهي عن بيع الغرر، أبو نعيم: حلية الأولياء، جـ٧، ص١٠.

(١١٧) أبو نعيم: حلية الأولياء، جـ٨، ص٢٣٤، الخطيب: تاريخ بغداد، جـ٥، ص٣٢٩.

(١١٨) أبو يوسف: كتاب الخراج، ص٩٤.

(١١٩) رواه مالك في الموطأ، كتاب البيوع، باب ما يكره من بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها، رقم ٧٥٩، ص ٢٩٨.

(١٢٠) ابن حجر: سيرة الإمامين الليثي والشافعي، ص٦٥.

(١٢١) الشافعي: كتاب الأم، جـ٣، ص٤٠، ٤١، ٤٥، ٥٧.

(١٢٢) حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، وكنى بأبي خالد، صحابي من الطبقة الرابعة ممن أسلم بعد الفتح، وكان يبكي لإبطائه في الإسلام، شارك في غزوة حنين مع النبي صلى الله عليه وسلم، وحرص على صحبته لإدراك ما فاته، فنزل المدينة وتوفي بها سنة (٥٤هـ/ ٦٧٤م). ابن الجوزي: صفة الصفوة، جـ١، ص٣٦٨، ٣٦٩.

(١٢٣) مالك بن أنس: موطأ الإمام مالك، ص٢٦٩.

(١٢٤) المصدر نفسه: ص٢٩٣.

(١٢٥) ابن حجر: سيرة الإمامين الليثي والشافعي، ص٦٩.

(١٢٦) مالك بن أنس: موطأ الإمام مالك، ص٢٧٧؛ أبو نعيم: حلية الأولياء، جـ٩، ص١٦٩؛ ابن حجر: سيرة الإمامين الليثي والشافعي، ص٥٨.

(١٢٧) الشافعي: كتاب الأم، جـ٣، ص٩.

(١٢٨) مالك بن أنس: موطأ الإمام مالك، ص٢٧٥، ٢٧٦؛ الشافعي: كتاب الأم، جـ٣، ص٥٤، ٥٥؛ ابن حجر: سيرة الإمامين الليثي والشافعي، ص ص٥٩، ٦٤.

(١٢٩) مالك بن أنس: موطأ الإمام مالك، ص٢٧٣؛ ابن حجر: سيرة الإمامين الليثي والشافعي، ص٥٩.

(١٣٠) الشافعي: كتاب الأم، جـ٣، ص٦٥.

(١٣١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ص٢٧٢، ٢٧٣.

(١٣٢) أول من ضرب الدنانير والدراهم الإسلامية عبد الملك بن مروان وكانت منقوشة بنقوش إسلامية، أمر الحجاج بضربها أواخر سنة (٧٥هـ/ ٦٩٤م). ثم أمر بضربها في النواحي سنة (٧٦هـ/ ٦٩٥م)، وخلصها، وكتب عليها «الله أحد الله الصمد» وسميت مكروهة، لأن الفقهاء كرهوها لما عليها من القرآن، ولد يحملها الجنب والمحدث، ثم جودها عمرو بن هبيرة عندما ولي العراق في عهد يزيد بن عبد الملك، فضربها أحسن مما كانت، ثم جودها أكثر خالد بن عبد الله القسري وشدد في تجويدها، وجودها بعد ذلك يوسف بن عمر فأفرط في التجويد والتشديد، فكانت الهبيرية، والخالدية، واليوسفية أجود نقود بني أمية، وكان المنصور يتعامل بها. الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٧٢، ٢٧٣.

(١٣٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٥، ص١٣٥.

(١٣٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص٦٥٩.

(١٣٥) محمد بن سيرين الأنصاري، يكنى بأبي بكر، أحد فقهاء البصرة وكبار التابعين بها ومن العباد بها، وشهر بتأويل الرؤيا، مات بالبصرة سنة (١١٠هـ/٧٢٨م)، ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار، ص٨٨.

(١٣٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٤، ص٦٣٠؛ الكتاني: التراتيب الإدارية، جـ١، ص٤٢٦.

(١٣٧) مالك بن أنس: موطأ الإمام مالك، ص٢٩٣.

(١٣٨) السكة هي الأصل الحديدة (القالب) التي يطبع عليها الدراهم والدنانير، ثم انسحب الاسم على الدراهم والدنانير المضروبة، أو المختومة أو المطبوعة، أو المنقوشة، وهي بمعنى واحد، الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٧٤؛ أبو يعلى: الأحكام السلطانية، ص١٨٣؛ ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص٣٦١.

(١٣٩) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٧٤.

(١٤٠) البلاذري: فتوح البلدان، ص٦٥٨.

(١٤١) أبو يعلى: الأحكام السلطانية، ص١٨٢.

(١٤٢) أبان عثمان بن عفان، ابن الخليفة عثمان بن عفان، أحد كبار التابعين، يكنى بأبي سعيد، كان أعلم الناس بالقضاء، وقد ولي المدينة لمعاوية بن أبي سفيان، أصيب بالفالج، وتوفي به في خلافة يزيد بن عبد الملك، ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار، ص٦٧.

(١٤٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٦٥٨؛ الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٧٥، أبو يعلى: الأحكام السلطانية، ص١٨٣.

(١٤٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص٦٥٨.

(١٤٥) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ص٢٧٥، ٢٧٦.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: المخطوطات:

مرعي بن يوسف، (ابن أبي بكر بن أحمد الكرمي الحنبلي ت ١٠٣٣ هـ/ ١٦٢٣م).

- تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمة المجتهدين، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢٣٩٨)، ميكروفيلم، (٣٥٧٨٢)، تاريخ طلعت.

ثالثا: المصادر المطبوعة:

ابن الأخوة، (محمد بن محمد بن أحمد القرشي ت ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م)

- معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق روبن ليون، مكتبة المتنبي، القاهرة، د.ت.

ابن أعثم، (أبومحمد أحمد الكوفي ت ٣١٤ هـ/٩٢٦م)

- كتاب الفتوح، دار الندوة الجديدة، بيروت ط١، د.ت

الألوسي، (محمود شكري البغدادي ت١٣٤٢هـ/١٩٢٣م).

- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، المكتبة الأهلية، القاهرة، ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م.

البلاذري، (أحمد بن يحيى بن جابر ت٢٧٩هـ/٨٩٢م).

- فتوح البلدان، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، عمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

البيهقي، (إبراهيم بن محمد: كان يعيش زمن المقتدر ٢٩٥ - ٣٢٠هـ/ ٩٠٨ - ٩٣٢م).

- المحاسن والمساوئ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

ابن تغري بردي (جمال الدين أبوالمحاسن يوسف ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الأوقاف والإرشاد، القاهرة، د.ت

الجندي، (محمد بن يوسف بن يعقوب، ت٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م)

- السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق محمد بن علي بن الحسين الأكوع، وزارة الإعلام والأوقاف، صنعاء، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

ابن الجوزي، (أبوالفرج جمال الدين عبدالرحمن البغدادي ت٥٩٧هـ/١٢٠١م)

- التذكرة في الوعظ، تحقيق طه عبدالرءوف سعد، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د.ت.

- تلبيس إبليس، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط٤، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م

- صفة الصفوة، تحقيق إبراهيم رمضان، سعيد اللحام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

- صيد الخاطر، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د.ت.
- الضعفاء والمتروكين، تحقيق عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م.
- مناقب الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق سعد كريم الفقي، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د.ت
- مناقب الإمام أحمد بن حنبل، مطبعة السعادة، القاهرة، ط١ د.ت.
- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ/١٩٩٢م.
الجويني، (أبوالمعالي ت٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م).
- غياث الأمم والتياث الظلم، تحقيق، مصطفى حلمي، فؤاد عبدالمنعم، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
ابن حبان (أبوحاتم بن حبان أحمد السبتي التميمي ت ٣٥٤ هـ/ ٩٦٥م)
- مشاهير علماء الأمصار، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت
ابن حجر، (أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)
- سيرة الإمامين الليثي والشافعي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ١٤١٥ هـ/١٩٩٤م.
- مناقب الإمام الليث بن سعد، تحقيق محمد منير عبداللطيف، مكتبة فيصل الإسلامية، القاهرة، ط١، د.ت.
الخطيب، (أبوبكر أحمد بن علي البغدادي ت٤٦٣هـ/١٠٧١م)
- تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت
ابن الخطيب، (محيي الدين محمد بن القاسم بن يعقوب، ت٩٤٠هـ/ ١٥٣٤م).
- روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار، المطبعة المصرية (بولاق)، القاهرة، ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م
ابن خلدون، (عبدالرحمن بن محمد الحضرمي ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م).
- مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
ابن خلكان، (أبوالعباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د.ت.
الدواداري (أبوبكر بن عبدالله بن أيبك ت ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م).
- كنز الدرر وجامع الغرر (الدرة الزكية في أخبار الدولة العباسية)، تحقيق بورد نياكرافولسكي، ثيوتايب الكترونيك، بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
الذهبي، (أبوعبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م).
- تذكرة الحفاظ، مجلس دائرة المعارف النظامية، الهند، ١٣٣٣هـ/ ١٩٥١م.
- تذكرة الحفاظ، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢.

١٤٠٢/١٩٨٢م
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- ميزان الاعتدال في الرجال، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، د.ت
الرقي (ابراهيم بن أحمد الحنبلي ت٧٠٣هـ/١٣٠٤م).
- أحاسن المحاسن، تحقيق محمد علوي المالكي، مطبعة دار التأليف، القاهرة، ط١، ١٤٠٩ هـ/١٩٨٨م.
الزبير بن بكار، (ت٢٥٦هـ/ ٨٧٠م)
- جمهرة نسب قريش وأخبارها، تحقيق محمد محمد شاكر، مكتبة فياض، بيروت ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.
ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع ٢٣٠هـ/٨٤٥م)
- الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.
الشافعي، (محمد بن إدريس ت٢٠٤هـ/ ٨١٩م)
- الأم، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م
الطبري، (محمد بن جرير ت٣١٠/٩٢٢م)
- تاريخ الأمم والملوك، تحقيق نخبة من العلماء الأجلاء، مكتبة الاستقامة، القاهرة، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.
- تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
ابن عبدالحكم، (أبوالقاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن أعين المصري ت٢١٤هـ/ ٨٢٩م).
- فتوح مصر وأخبارها، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
ابن عبدربه (أبوعمر أحمد بن محمد الأندلسي ت٣٢٨هـ/ ٩٤٠م)
- العقد الفريد، تحقيق عبدالمجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢ ١٤٠٧/١٩٨٧م
الغزالي، (أبوحامد محمد بن محمد ت ٥٠٥هـ/١١١١م).
- إحياء علوم الدين، تحقيق محمد عبدالملك الزغبي، مكتبة فياض، المنصورة د.ت.
الفسوي، (أبو يوسف يعقوب بن سفيان ت ٢٧٧هـ/٨٩٠م)
- المعرفة والتاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٣٩٤هـ/١٩٧٥م
ابن قيم الجوزية، (أبوعبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر ت٧٥١هـ/١٣٥٠م)
- أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق عبدالرحمن الوكيل، دار إحياء التراث

العربي، بيروت، د.ت.
الكتاني (عبدالحي)
- التراتيب الإدارية، الناشر (حسن مهنا)، بيروت، د.ت.
ابن كثير (أبوالفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)
- البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط١، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م
- البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة، د.ت.
مالك بن أنس الأصبحي، (١٧٩هـ/ ٧٩٥م)
- موطأ الإمام مالك (رواية محمد بن الحسن الشيباني)، تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف، دار القلم، بيروت، ط١، د.ت.
الماوردي، (أبوالحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ت٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة د.ت.
المزي، (جمال الدين أبوالحجاج يوسف ت٧٤٢هـ/١٣٤١م)
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٨٧م.
ابن منظور، (محمد بن مكرم ت٧١١هـ/ ١٣١١م).
- لسان العرب، تحقيق عبدالله علي الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة، (مصورة عن طبعة بولاق)، ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م
أبونعيم، (أحمد بن عبدالله الأصفهاني الشافعي ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٩م)
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧م
أبويعلى، (محمد بن الحسين الفراء ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م).
- الأحكام السلطانية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.
ابويوسف (يعقوب بن إبراهيم ت ١٨٢هـ/٧٩٨م)
- كتاب الخراج، المطبعة السلفية، بيروت، ط٥، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

ثالثا: المراجع العربية
أحمد مصطفى الراعي: الحسبة في الإسلام، مطبعة الحلبي، القاهرة، د.ت.
بابللي، محمود محمد:
إعمار الأرض في الاقتصاد الإسلامي واستثمار خيراتها بما ينفع الناس، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
الشرباصي، أحمد:
المعجم الاقتصادي الإسلامي، دار الجيل، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

د. ياسر أحمد نور (*)

الصناعات والحرف في العهد النبوي

الصناعة في اللغة تعني الحرفة التي يتكسب منها الصانع[١] أما ابن خلدون[٢] فيعرفها «بأنها ملكة أمر عملي فكري، وبكونه عمليا هو جسماني محسوس...» ومن التعريف يتبين أن الصناعة قبل أن تكون ممارسة عملية بطرق أعضاء الجسم فهي نتاج فكر، كما يقرر ابن خلدون أيضا أن الصنعة لكي تنقل من المعلم إلى المتعلم فبالممارسة لا عن طريق الإرشاد النظري، ولكي يتكون لدى المتعلم ملكة ويصبح راسخا في صنعته، فعليه كثرة العمل والتكرار في ادائها. وأضاف ابن خلدون شرطاً آخر وهو التعليم، وتمكن المعلم من حرفته فعلى «قدر جودة التعليم وملكة المعلم، يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته»[٣].

كان هذا هو التعريف بجوهر الصناعة وفيما يلي نحاول الكشف عن الصناعات والحرف التي مورست في العهد النبوي.

صناعات الفخار

يظهر من النصوص أن صناعة الفخار من الحرف الأساسية في مجتمع المدينة في العصر النبوي، وقد تفرع منها العديد من الصناعات الأخرى حسبما أشارت بعض روايات الحديث بشكل عابر منها:

صناعة الجرار «والقلال»:

جاءت الإشارة في النصوص عن الجرار أو القلال في مقام الحديث الفقهي بشأن أحكام النبيذ موضوع «النبيذ» وكان من أنواعه «نبيذ الجر» ويطلق على الشراب المسكر الذي ينتج عن وضع العنب في جرار مملوءة المياه وتركها فترة من الوقت حتى تتخمر، وهو معروف في كتب الفقه والحديث ب «نبيذ الجر» وهذا واضح في حديث ابن عباس «جرم رسول الله صلى الله عليه وسلم نبيذ الجر»[٤].

(*) مدرس بكلية الآداب - جامعة المنصورة

وهذا يظهر من النصوص أن أداء صانع الجرار فى العصر النبوى لم يتوقف عند حدود إنتاجها من المادة الخام بل أضاف إليها لمسة جمالية، حيث طلاها بالعديد من الألوان كان أشهرها اللون الأخضر أو ما عرف فى النصوص «بالجر الأخضر»[٥] أو ما أطلق عليها «الحنتم»[٦] وهناك من الجرار ما طلى باللون الأحمر والأسود والأبيض[٧].

وهذه الجرار أو القلال كان الصانع يشكلها فى أحجام مختلفة: منها الكبير وكان يطلق عليه «القلال الجوابى» والتى تتميز عن الجرار الصغيرة[٨] وكان هناك مكان مخصص لتصنيع هذه الجرار وهى قرية فى ظاهر المدينة كانت تسمى بهجر وكانت ذات شهرة كبيرة فى صناعة القلال فى الحجاز بوجه عام[٩] وهى التى شبه الرسول بجرارها ثمار سدرة المنتهى فى الجنة عندما شاهدها فى رحلة الإسراء والمعراج[١٠].

ومما يلزم ذكره فى هذا الشأن أنه بالرغم من عدم العثورعلى نصوص ترشد إلى أدوات إنتاج الفخار أو الجرار على نحو خاص فإن وجود استخدامهم للجرار دال بطبيعة الحال على تواجد أدوات إنتاجها، بمعنى أنه لإنتاجها يلزم تواجد آلة «الدولاب الدوار» الذى يعمل بحركة الأرجل. ويعنى أيضا تواجد أفران لحرق الجرار بعد تصنيعها، ويعنى كذلك وجود أمشاط من الخشب للتحكم فى أشكال الجرار.

كما أن عمل هذه الصناعة يقتضى وجود نوعية معينة من التراب يجلب من مناطق معينة من الجبال، وهذا يعنى أيضا أن صانع الجرار كان عالما بطريقة تجهيز طينة الفخار لتكون صالحة لتشكيلها جرارا هذا فضلا عن درايته بالمواد الخام التى كان يصنع منها ألوان طلاء هذا الجرار. وللعلم لا تزال هذه الحرفة قائمة بالمدينة حتى اليوم[١١].

ومن الحرف التى ارتبطت بصناعة الفخار فى العصر النبوى، صناعة التنور والتنور هو الشىء الذى يخبز فيه[١٢] ويذكر صاحب المختار[١٣] أنه ليس كهيئة الفرن الذى يخبز عليه الفرنى ولعله يقصد من حيث الشكل والحجم، وإن ذكر أن الفرن يخبز به الخبز الغليظ، وهذا يعنى أن التنور يخبز فيه الخبز الرقيق.

وعلى الرغم من أنه لم يصلنا وصفا دقيقا لهيئة التنور فإنه يمكن تخيل شكله من خلال وصف النبى صلى الله عليه وسلم له فى رحلة الإسراء والمعراج فقال: «فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته نارا»[١٤] ومن هذا النص يتبين شكل بناء التنور أقرب إلى الشكل الكمثرى

مجوف من الداخل. له حلق دائرى يبدأ ضيقا ثم يأخذ فى الاتساع إلى أن يكتمل شكل التجويف فى الجزء السفلى وبهذا الجزء السفلى فتحه أمامية ليوضع من خلالها العجين داخل التنور. وله قاعدة يثبت عليها ومفرغة ليوضع فيها الحطب ليوقد به على التنور.

ومن الواضح أن التنور كان من لوازم البيوت فى عهد النبوة، كما هو الحال فى البيوت الريفية عندنا اليوم وذلك من استخدامه فى طهى الخبز وخذ مثال بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم «إذا دعا الرجل زوجته لحاجته فلتجبه وإن كانت على التنور»[١٥] وكذا حديث جابر بن عبد الله حين دعا الرسول إلى طعام فى بيته يوم كانوا يبنون الخندق فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم قل لها لا تنزع الخبز من التنور[١٦] وكذا قول كعب بن مالك لما أرسل إليه ملك الغساسنة يدعوه إلى الشام فقال- «فسجرت لها التنور فأحرقتها فيه»[١٧].

الصناعات الحجرية

ارتبطت الصناعات الحجرية فى عهد النبوة بطبيعة البيئة المحيطة، حيث تفاعل معها الصانع فطوعها تلبية لحاجياته. وقد أخذت هذه الصناعات صورا مختلفة منها:

صناعة البرام

البرام وهى القدور. كان البرام من الأدوات المستخدمة فى طهى الطعام فى عصر النبوة وهذا واضح فى العبارات التى وردت فى حديث جابر بن عبد الله «حتى جعلنا اللحم فى البرمة»[١٨] «لا تنزلن برمتكم»[١٩] «وجعلتها فى البرمة»[٢٠]. وكشفنا عن البرمة أما عن مادة صناعتها فكنت أظن أنها من الفخار ولكن تبين أنها كانت تصنع من حجارة خاصة لونها تسمى الصيد[٢١] معروفة بالحجاز واليمن[٢٢]. ويرتبط بهذا الحجر مهنة وصناعة خاصة وهى «مهنة المبرم» وهو الشخص الذى يقتلع حجارة البرام من الجبل ويقطعها ويسويها وينحتها[٢٣].

صناعة الرحى:

ومن الصناعات الحجرية التى كانت مشهورة ومتداولة فى عصر النبوية صناعة الرحى[٢٤] والرحى كما هو معروف آلة لطحن الحبوب، وكانت تصنع من أحجار خاصة وهيئتها عبارة عن حجران يأخذان الشكل الدائرى يطلق عليهما «الضرتان»[٢٥] وكانت تصنع من حجر خاص كان يطلق عليه «الظر»[٢٦].

ويرتبط بهذه الآلة مجموعة من المصطلحات ذات الدلالات الخاصة، ورد بعضها في العديد من الأحاديث. فهناك قطب الرحى وهي الحديدة المثبتة في حجر الرحى السفلى ويدور عليه الحجر الأعلى.[٢٨] أما المقبض الذي كانت تدار منه الرحى فأطلق عليه «الرائد»[٢٩] أو «القسعرى»[٣٠] أو «الخذورف»[٣١] والحجر الأعلى كان يصنع فيه فتحه يوضع فيها الحبوب. كان يطلق عليها اللهوة[٣٢] وكان يوضع تحت الرحى قطعة من الجلد يطلق عليها النقال يجمع عليها ما تخرجه الرحى من طحين وكانت تسمى «بالنقال»[٣٣] أو «الوفاض»[٣٤] وجاء هذا المسمى في حديث النبي صلى الله عليه وسلم أما هذا الطحين المستخرج من الحبوب فسمي ب «النفي»[٣٥].

أما عن الآلة التي كانت تقطع بها حجار الرحى فكانت تسمى ب «المنقار»[٣٦] وهو عبارة عن حديدة كالفأس «مشككة مستديرة لها خلف يقطع به الحجارة والأرض الصلبة» وأحيانا ما كان يستخدم في النقر حجر بدلا من الحديد كان يطلق عليه البرطيل وهو من أصلب الحجارة وأحدها[٣٨].

أما من كان يحترف قطع حجر الرحى فكان يطلق عليه «الواقع» وجمعه وقعة[٣٩] وهذا لا يعني أن الواقع هو صانع الرحى فهذه حرفة أخرى مستقلة ومن يقوم بها كان يطلق عليه «المرحي»[٤٠] أي الذي يقوم بنحتها على نحو مستدير، وشق فتحه اللهوة، وتثبيت القطب في الحجر السفلي، والرائد في الحجر العلوي، إلا أننا لم نقف على نص يرشدنا عن أدوات إنتاج هذه الصنعة.

ومن استقراء النصوص تبين أن هناك نوعين من الرحى استخدمتا في العهد النبوي] رحى اليد حيث كانت تدار بواسطة مقبض مثبت في الحجر العلوي كما أشرنا، وهي صغيرة من حيث الحجم كانت تستخدمها النساء في بيوتهن كما يدلنا الحديث أن فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى من أثر الرحى»[٤١].

أما النوع الثاني فهي الرحى الكبيرة التي كانت تدار بواسطة الدواب، وهذا ظاهر في سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن علي رضي الله عنه فقال: أين علي؟ فقالوا: أنه في الرحى يطحن، قال: وما كان أحدهم ليطحن؟»[٤٢] وفي بادئ الأمر أصابنا هذا النص بالحيرة إذا كيف يكون علي في الرحى؟ فالنص على هذا النحو ملغز إلى حد ما، يشي وجود مكان لطحن الحبوب، وقد أعيانا البحث عن شاهد يفصل ما يكتنف النص من إبهام فلم نجده إلا في وصف الرسول صلى الله عليه وسلم لحال من كان يطاع في معصية الله «...يجاء بالذي كان يطاع في معصية الله عز وجل فيخاصمه رعيته عليه فيدفع في النار فتندلق أقتابه فيستدير في النار كما يستدير الحمار في الرحى»[٤٣].

وبهذا يكشف لنا هذا النص عن وجود مبنى مشيد للرحى بالمدينة، وكانت أداة إدارتها الدواب مما يعني أنها كبيرة الحجم. ويبدو أن تكوين هذه الرحى لا تختلف كثيرا عن تكوين الطواحين الأهلية الموجودة عندنا في القرى المصرية وإن كانت الأخيرة تدار اليوم بالموتور الكهربي بدلا من الدواب.

كما يكشف النص عن وجود مهنة الطحان أي الذي يقف على هذه الرحى ليطحن لأهالي المدينة. وكان علي بن أبي طالب فيما يظهر من النص أحد الذين احترفوا هذه المهنة وهناك نص آخر يدعم النص السابق وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم «نهى عن.. قفيز الطحان»[٤٤] وهذا الحديث عرضت له العديد من كتب الفقه والحديث في أبواب الإجارات. وهذا النص يعطينا دلالة على أن هذا النوع من الرحى كانت من الملكيات الخاصة، وكان صاحبها يستأجر لها طحانا ليقوم على إدارة الرحى نظير أجر معلوم.

ويبين الحديث السابق الطريقة التي كان يتكسب بها الطحان لأجره والتي نهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم وهي المشار إليها «بقفيز الطحان»، وقد اختلف الفقهاء في تفسير النهي عن قفيز الطحان فهناك من فسره بأن صورته أن يقال للطحان أطحن بكذا وكذا بزيادة قفيز من نفس الطحين، وقيل هو طحن الصبرة[٤٥] ولا يعلم مكيلها بقفيز منها[٤٦] وهناك من أوضح أن النهي عن قفيز الطحان على ما كان يفعل من دفع القمح إلى الطحان ليطحنه بقفيز من دقيقه الذي يطحنه له فكان ذلك استئجار بما ليس عند المستأجر لأن دقيق قمحه ليس عنده وقت العقد فدل أن الاستئجار لا يكون بما ليس عند المستأجر يوم يستأجر كبيع ما ليس عنده يوم بيع والابتياع بما ليس عند المشتري مما ليس معناها معنى الأثمان كالدراهم والدنانير والمكيل والموزون الذي قد يكون دينا في الذمة[٤٧] ويحتمل أن تكون جميع هذه الصور مورست كأجر للطحان في عهد النبوة إلى أن نهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن ناحية أخرى تشي صناعة هذه الرحى بتواجد تجارة الطحين حيث أن رحى اليد الصغير لا تسعف في إنتاج كميات كبيرة من طحن الحبوب ولهذا كان اللجوء إلى الرحى الكبيرة لتلبي حاجة التجار، ويؤكد ذلك ما أخرجه الترمذي[٤٨] من حديث سهل بن سعد أن فاطمة قالت لعلي بن أبي طالب: «أذهب إلى فلان اليهودي فخذ دقيقا فجاء اليهودي فاشترى به دقيقا».

صناعة القواطع الحجرية:

ويرتبط بالحجارة أيضا صناعة القواطع، فأحيانا ما كانوا يجعلون من حجر الضرار أداة لذبح الصيد كما يظهر ذلك في حديث عدي بن حاتم عندما

سأل النبي فقال: «أنا نصيد الصيد ولا نجد ما نذكي به إلا الظرار.. قال أمر الدم بما شئت». والظرار قطعة من الحجر له حد كحد السكين[٤٩] ويبدو أن استخدام الظرار كان يتم في الحالات الاستثنائية التي لا يتوافر فيها السكين.

صناعة الطوب الأجر والقصب

الطوب كما يظهر من النصوص صنع في العهد النبوي على شكلي الطوب اللبن وهو الذي يصنع من عجينة الطين بعد أن تختمر وكان هو الأكثر تداولا حيث شيد به المسجد النبوي وأكثر بيوت المدينة وكذا المقابر.

وعلى الرغم من عدم وقوفنا على نص يرشد عن طريقة تصنيعه فمن المؤكد أنه لا يختلف كثيرا عما يفعله الصانع في الريف المصري اليوم من حيث صنع عجينة الطين من مزج الماء بالتراب، وتقسيمه إلى قوالب عن طريق آلة تأخذ شكل مستطيل مفرغ من داخلها، ثم تركها لتجف وبعدها تصبح صالحة للبناء.

أما النوع الثاني فيسمى الآجر وهو لفظ فارسي معرب وأصلها «كج»[٥٠] وهو لا يختلف في تصنيعه عن النوع الأول إلا بإدخاله النار حيث يتحول إلى حجر أبيض اللون[٥١] ومن يقوم بالبناء به يسمى «آجور»[٥٢] واستخدام هذا النوع من الطوب في البناء كان يعد من مظاهر الترف كما ذكر ابن قدامة [٥٣] وقد شيد منه بعض الصحابة بيوتهم كعثمان بن عفان. وورد آثار عن النبي صلى الله عليه وسلم تفيد كراهة استخدام الآجر في صناعة القبور،[٥٤] وقد وأرجع البعض العلة في ذلك لكونه «من بناء المترفين وسائر ما مسته النار تفاؤلا بأن لا تمسه النار»[٥٥].

أما عن الوسيلة التي تحرق بها مادة الآجر فلم نقف عن نص يدلنا عليها ويحتمل أيضا أنها لا تختلف عما يمارس اليوم في الريف من حيث تشييد بناء من الطوب اللبن به فتحه مجوفة من الداخل توقد فيها النار فتسري وتتوزع حرارتها على جميع أجزاء هذا البناء ويظل يوقد عليه فترة من الزمن حتى يتحول الطين اللبن إلى آجر. ولكن صاحب لسان العرب يذكر أنه كان ينصب للطوب اللبن بيتاً يحرق فيه حتى يصير آجرا. وكان يسمى ب «الميفى»[٥٦].

الصناعات الجلدية

أنتج الصانع في العصر النبوي العديد من الصناعات الجلدية كشفت النصوص عن بعضها منها:

الدباغـــة

حرفة الدباغة من الصناعات التي مورست بشكل أساسي في المجتمع الإسلامي في عهد النبوة وذلك لارتباطها بشكل مباشر بمعطيات البيئة حيث توافر جلود الإبل وقد جاءت الإشارة إليها في مصادر السنة في مقام التعرض لمسألة طهور جلود الميتة. فجاءت روايات تنهى عن الإفادة من جلود الميتة كحديث عبد الله بن حكيم لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب». وروايات أخرى تبيح الإفادة من جلودها كقوله صلى الله عليه وسلم أيما أهاب دبغ فقد طهر[٥٧] وهناك حديث الزهري عن شاة ميمونة وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول. مر على شاة لميمونة ميتة فقال هلا أخذتم إهابها فدبغتموه فانتفعتم به فقالوا إنها ميتة فقال إنما حرم أكلها[٥٨].

والذي يهمنا بيانه من النصوص السابقة - والتي سلفي - كلمتي «إهاب» و«دبغ» لكونهما شاهدتان على حرفة الدباغة. فأما «الإهاب» فالمشهور عند أهل اللغة وأهل العلم أنه الجلد الذي لم يدبغ، فكل جلد لم يدبغ فهو إهاب[٥٩] وكان يطلق عليه أيضا «الأفيق»[٦٠]. ويؤيد هذا حديث ابن عباس قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «ثم إذا دبغ الإهاب فقد طهر»[٦١].

وتظهر النصوص أن الإهاب كان له بعض الاستخدامات في هذا العصر، منها أنه كان يستخدم كحلية أو زينة تعلق في أركان المنازل. ويبدو هذا في رواية عمر بن الخطاب عندما دخل على النبي (ص) فرأى في بيته «أهبة ثلاثة»[٦٢] ليس هذا فحسب بل تظهر بعض النصوص أنه كان يستخدم كلباس. ولكنه دال على فقر ورقة حال من يرتديه فعن عمر رضي الله عنه قال نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا عليه إهاب كبش قد تنطق به فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «انظروا إلى هذا الذي نور الله قلبه لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ولقد رأيت عليه حلة شراها أو شريت بمائتي درهم فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ما ترون» [٦٣].

كما يظهر من بعض النصوص أن الإهاب كان من السلع التي تاجر فيها الصحابة بأسواق المدينة ويتجلى ذلك عندما طلب عبد الرحمن بن عوف من سعد بن الربيع أن يدله على سوق المدينة ليتجر فيه فدله «فكان يشترى.. الإهاب»[٦٤].

أما فيما يخص الدباغة فهي عملية تخليص ما علق بالجلد من زوائد وشحوم وهي من صنف الصنائع التي تطلب أدوات ومواد خاصة بها وصاحبها يطلق عليه «دباغ» وبالرغم من عدم وقوفنا على أحد من شخصيات الصحابة

الذى احترفوا هذه المهنة فإن نصوص السنة والحديث الثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم تقطع بوجودها، بل أن بعض النصوص تشير إلى المواد التى استخدمت فى الدباغة فى العهد النبوى كما يدل حديث أم المؤمنين ميمونة أنه مر برسول الله صلى الله عليه وسلم رجال من قريش يجرون شاة لهم مثل الحمار فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أخذتم إهابها فقالوا إنها ميتة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يطهرها الماء والقرظ»[٦٥]. والقرظ كما تعرفه المصادر نبت طيب الرائحة يدبغ به الجلود[٦٦] وذكرت بعض المصادر أسماء[٦٧] لمواد أخرى لهذا الغرض كالسبت [٦٨] الشث [٦٩] الشب[٦٩].

ويبدو أن القرظ كان أكثر هذه المواد انتشاراً، وكان التجارة فيه منتشرة والشخصية البارزة فى هذا الشأن شخصية الصحابى سعد القرظ. وسمى بالقرظ «لأنه كان كلما اتجر فى شىء وضع فيه فاتجر فى القرظ ربح فلزم التجارة فيه»[٧٠] وفى هذا النص دلالة من ناحية أخرى على رواج وازدهار تجارة الجلود المدبوغة.

ويبدو أن بعض أنواع الخشب الخشنة كانت تستخدم أيضا فى عملية الدباغة كخشب «العرن أو العريتنان»[٧١] وربما كان الغرض من استخدامه فصل الشحوم والمواد الزائدة عن الجلد.

صناعة النعال:

ومن الصناعات الجلدية التى مورست فى العهد النبوى أيضا، صناعة النعال وقد وقفنا على نص يشير إلى النبى صلى الله عليه وسلم كان يلبس نوعا من النعال أطلق عليه «النعال السبتية»[٧٢] وملابسات هذا النص ترجع إلى أن ابن جريج سأل ابن عمر عن سبب ارتدائه للنعال السبتية فأجابه بأنه أراد التشبه والاقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك. ويذكر صاحب الفائق أن سؤال ابن جريج جاء على سبيل التعجب لأن هذه النعال «نعال أهل النعمة والسعة»[٧٣] وكان طبيعتها أنها نعال رقاق لينة وكانت من لباس الملوك والسادات[٧٤] وهو ما يعنى أن هناك نوعان من النعال كانت تصنع من الجلد: نعال بها شعر أى يترك شعر الحيوان على الجلد وهو ما كان يلائم إمكانات الفقراء من حيث رخص الثمن والجودة. أما النوع الثانى فكان من دون شعر وهو ما كان يلبسه النبى صلى الله عليه وسلم وما كان يسمى «بالنعال السبتية» وأراد به الصانع أن يلبى حاجة أهل اليسار والظاهر أن صانع النعال فى العهد النبوى كان يراعى البعد الاجتماعى فى صنعته حيث أن منتجه منها لم يكن على وتيرة واحدة بل خاطبوا صنوف الناس على حسب أحوالهم الاقتصادية

صناعة الزقاق والقرب

ومن الصناعات الجلدية المهمة التى مورست فى العهد النبوى صناعة ما سمى بالزقاق أو المشاعل وهى التى كان يصنع فيها النبيذ أم.ا عن هيئة المشعل أو الزقاق فقدم صاحب لسان العرب وصفاً دقيقاً فقال: «المشعل بكسر الميم شىء يتخذه أهل البادية من أدم يخرز بعضه إلى بعض كالنطع ثم يشد إلى أربع قوائم من خشب فيصير كالحوض ينبذ فيه لأنه ليس لهم جباب»[٧٥].

أما القرب أو السقاء فكانت تصنع من جلود الإبل أيضا وكان لكل منهما اختصاص فى الاستعمال ف السقاء يكون للبن والماء والقربة تكون للماء خاصة»[٧٦] وعلى هذا فالقربة نوع من الأساقى كما ذكر صاحب لسان العرب[٧٧]. على أية حال فكلاهما يصنع من الجلد وكلاهما أيضا يمر بمراحل التصنيع التى وقفنا على شىء منها.

فالسقاء أو القربة يجعل له فوه ليحقن فيها الماء أو اللبن وهو موضوع الشارب منها أيضا وهذا الموضع يسمى «بالوكاء» [٧٨] وهو الذى قال عنه صلى الله عليه وسلم «احفظ عفاصها ووكاءها» [٧٩] وفى الحديث أوكوا الأسقية أى: شدوا رؤوسها بالوكاء لئلا يدخلها حيوان أو يسقط فيها شىء، وفى الحديث أيضا نهى عن الدباء والمزفت وعليكم بالموكى أى السقاء المشدود الرأس لأن السقاء الموكى قلما يغفل عنه صاحبه لئلا يشتد فيه الشراب فينشق فهو يتعهده كثير[٨٠].

ومن هذا الموضع أيضا يشد رأس السقاء أو القربة ليحول دون تسرب الماء منها، وسمى فى بعض الأحاديث بالشناق كما يدلنا على ذلك قول ابن عباس «بت عند النبى صلى الله عليه وسلم وأله وسلم فقام من الليل يصلى فحل شناق القربة. .»[٨١] ويطلق على عملية شد فى السقاء «بالكتب» [٨٢].

وبعد جهد مضن وقفنا من بعض النصوص على مراحل تصنيع السقاء، فالمرحلة الأولى بطبيعة الحال يأتى بجلد الإبل الذى سيصنع منه السقاء، ثم يدبغ هذا الجلد للتخلص مما يلتصق به من دهون وأنسجة تالفة[٨٣].

ثم تأتى مرحلة «التخريز» حيث يخاط بها طرفى قطعة الأدم أو الجلد، ثم بعد ذلك يطلى السقاء من الخارج بطبقة من القطران، بواسطة ما سمى بـ «الثعلة» وهى خرقة أو قطعة من الصوف كانت تستخدم لهذا الغرض ولأغراض أخرى في العهد النبوى[٨٤] وإذا لم يقم صانع القربة بعملية الدهن فى التصنيع يصاب الجلد بالتشقق وكثرة الخروم التى تسمى «التعيين»[٨٥] وفى هذه الحالة يطلق على السقاء «سقاء رحم»، أى السقاء التالف نتيجة عدم دهنه[٨٦]. ثم

تأتى بعد ذلك مرحلة «التسريب» وهى عملية اختبار تقوم على صب الماء فى السقاء أو القربة بعد دهنه بالقار حتى تنتفخ بغرض تبين المواطن التى ينفذ منها نتيجة التخريز سدها (٨٧) أو كتمها(٨٨) وهذه العملية يطلق عليها أيضا «التمريح» وقيل أن التمريح هى عملية تطييب القربة أو السقاء الجديد بنوع من الأعشاب كالشيح أو الأزخر للقضاء على ما قد يعتريها من رائحة كريهة(٨٩). وهناك من يجعل الطين بدلا من هذه الأعشاب وهذه العملية تسمى ب «التشريب» (٩٠) ومن مكونات السقاء أو القربة قطعة من الجلد توضع على مكان الخرز تسمى الطبانة وأما الغرض منها فهو حماية الخيط الذى خرز به جلد السقاء (٩١) وعملية الخرز تتم بعد شد الجلد على خشبة تسمى ب «الإسكابة»(٩٢). وهناك قطعة أخرى كانت تضاف فى بعض الأحيان كمكون للسقاء أو القربة أطلق عليها «القرعة» وهى جلدة كانت تزاد فى السقاء إذا لم يكن هناك وفر فى الجلد (٩٣).

ويبدو أنه كانت للقرب أحجاما مختلفة كما هو واضح من مسمى «القسة» وهى القربة الصغيرة(٩٤) ويبدو أن هذا النوع كان يستخدم فى الأسفار والرحلات لسهولة حملها وهناك «الحضجر» وهو السقاء الضخم (٩٥).

ولتبريد ماء السقاء أو القربة فكانت تعلق فى الهواء أو كانت توضع على ما يسمى المشجب وهو ثلاثة خشبات تربط جميعا من رأسها ثم تفرج بين قوائمها(٩٦) وهذه الأسقية المبردة كان يطلق عليها «الخرص» (٩٧).

ويتصل بالسقاء بعض الآثار النبوية فقد نهى النبى عن الشرب فى السقاء مباشرة، وأول صاحب لسان العرب هذا النهى على أن الرسول ربما لأن الشرب المباشر ممن فى السقاء ينتنها ويغير ريحها، وقيل أنه لا يؤمن أن يكون فيها حية أو شىء من الحشرات، وقال ابن الإثير أنه جاء فى حديث آخر إباحته، واضطلع بإجراء الجمع فذكر أنه يحتمل أن يكون النهى خاص بالسقاء الكبير والإجازة خاصة بالسقاء الصغير الذى كان يطلق عليه الإداوة(٩٨).

صناعة النبيذ

ويتصل بالسقاء والزقاق (المشاعل) العديد من الصناعات: فإذا ما بدأنا بالزقاق أو المشاعل فهى خاصة فقط بصناعة الخمور، ومعلوم أن صناعة الخمور ظلت تصنع فى العهد النبوى حتى نزلت آية تحريمها، والصحابى كيسان كان من أبرز الصحابة الذين كانوا يتاجرون فيها(٩٩). ومن الواضح أن حكم التحريم لم ينسحب على غير المسلمين من اليهود لا سيما يهود خيبر بدليل أنه عبد أن أجلاهم عن المدينة كان من ضمن ما خلفوه بعد إجلاء النبى

صلى الله عليه وسلم لهم عن المدينة مشاعل وزقاق الخمر فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بشقها وإحراقها(١٠٠).

على أية حال فصناعة النبيذ فى الزقاق والمشاعل كانت من الصناعات التى مورست بالمدينة فى العهد النبوى وكان يهود خيبر يمثلون أساس هذه الصناعة بالمدينة ويبدو ذلك فى حديث جابر بن عبد الله قال: «كان رجل يحمل الخمر من خيبر فيبيعها بين المسلمين..»(١٠١).

صناعات الألبان

هناك بعض الصناعات المستخرجة من اللبن المرتبطة بشكل مباشر بالسقاء، وهى صناعة الزبد فالزبد كان من الأطعمة التى صنعت من اللبن فى عهد النبوة ومن الأمثلة الدالة عليها وصف الرسول صلى الله عليه وسلم لماء حوضه الذى سيروى منه أمته يوم القيامة «.. أشد بياضا من اللبن وألين من الزبد» (١٠٢) بل كان صلى الله عليه وسلم «كان يحب الزبد»(١٠٣).

أما عن طريقة صناعة الزبد فكان اللبن يوضع فى السقاء ثم يمخض كما يدل على ذلك حديث أبى موسى «مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم تمخض مخض الزق..» (١٠٤) فهذا وصف مستنبط بلا شك من البيئة المحيطة به وكان هناك ثلاث طرق للتمخيض أما أن يوضع على ظهور الإبل والبعير فيحدث التمخيض بحركتها(١٠٥) أو أن تقوم المرأة نفسها بعملية التمخيض بأن تضع السقاء على ركبتيها ثم تخضها. وفى هذه الحالة كان يطلق عليها «النخج» (١٠٦) وهناك طريقة ثالثة للتمخيض كان يطلق عليها «التطنيب» وهو أن تعلق السقاء على عمود بالبيت ثم تمخض(١٠٧).

وكانت هناك أنواعاً عديدة من الزبد فهناك زبد الغنم والبقر هو أفضلها وهناك «النخيخة» وطريقته أن يأتى باللبن الراثب أو الخاثر فيوضع عليه لبنا حليبا فيخلص منه زبدة هاشة غير متماسكة كان يطلق عليه النخيخة (١٠٨) نوع آخر يشبه الزبد يسمى «الجباب» وكان يستخرج من لبن الإبل(١٠٩) هذا النوع من الزبد رقيق لأن ألبان الإبل قليلة الدسم. قياسا بلبن الغنم والبقر

ومن الصناعات المرتبطة أيضا بالسقاء صناعة «الخاثر» أو اللبن الرائب وكان يطلق عليه اللبن الصمالخى أو السمالخى كما يقول ابن شميل (١١٠) وكان يطلق عليه أيضا «العاثب»(١١١) ويطلق عليه أيضا الحمض «والماضر» (١١٢) وطريقة صناعته تتم بأن اللبن كان يحقن فى السقاء ثم يفحر له حفرة فيوضع فيها حتى يروب(١١٣).

وهناك أيضا صناعة «الأقط» وهو لبن مجفف يطبخ به(١١٤). وذكر صاحب

لسان العرب أنه يتخذ من اللبن بعد تمخيضه ثم يطبخ ثم يترك حتى يعصل أي يسيل (١١٥) والإقط كان من مخرجات زكاة الفطر في العهد النبوي، فيروى أبي سعيد الخدري أنهم كانوا يخرجون في زكاة الفطر «... صاعا من أقط». (١١٦)

ومن الصناعات التي تقوم على اللبن في العهد النبوي صناعة الجبن فعن ابن عمر أنه «أتي النبي (ص) بجبنة من تبوك فدعا بسكين فسمى وقطع» (١١٧) وعلى أساس هذا النص بوب ابن حبان كتابا في صحيحه بعنوان «ذكر الخبر الدال على أن الجبن الذي أكله المصطفى صلى الله عليه وسلم كان من عمل المسلمين» (١١٨) وهذا يعني أنهم وقفوا على طريقة عمل الأنافح اللازمة لتصنيع الجبن.

صناعة الصباغة

ومن الصنائع التي كانت متداولة في عهد النبوة حرفة الصباغة، أما عن ألوان الصباغة فورد في الروايات اللون الأصفر والأحمر والأبيض والأخضر (١١٩) ويقال أنه كان أحب الأصابغ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفرة (١٢٠). ويقال الخضرة (١٢١).

أما عن المواد التي كان يستخرج منها ألوان الصباغة في عهد النبوة فكشفت النصوص عن العديد منها كالزعفران، والعصفر والورس والصرف.

فأما الزعفران فهو النبات المشهور وكان يستخدم للصباغة باللون الأصفر وهو من الأصباغ المحببة للنبي صلى الله عليه وسلم حيث كان يصبغ به ثيابة وملحفته وعمامته (١٢٢). وهناك أيضا الصباغة بالعصفر والعصفر نبات يخرج بأرض العرب منه ما هو ريفي أي يزرع، ومنه ما هو برى (١٢٣) وهو من العواد التي نهى النبي عن الصباغة بها (١٢٤) وذكر البعض أن السبب في ذلك لكونه يخرج لونا أحمر، والنبي صلى الله عليه وسلم نهى في المطلق عن اللباس المصبوغ بهذا اللون (١٢٥) قيل لأنه في تشبه بالكفار لأنهم يصبغون به وقيل لأنه فيه تشبه بالنساء (١٢٦).

وتشير بعض نصوص السنة إلى أن اللون الأحمر كان له درجات مختلفة منها «المفدم» وهو المعصفر، ويطلق هذا المعنى على الثوب المشبع بالحمرة كما ذكر الحسن وقد نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم (١٢٧). ومن درجات اللون الأحمر أيضا «العورد» (١٢٨) وهو الثوب المصبوغ بلون أحمر خفيف الحمرة (١٢٩) وهو قريب من لون الورد (١٣٠).

وهنالك بعض الثياب التي كانت تصبغ لونين في وقت واحد وليس لونا

واحدا كما هو الحال مع البرود اليمنية حيث كانت تصبغ بلونين أحمر وأسود وأو غيره على هيئة خطوط (١٣١)، وهذه الطريقة في الصباغة كانت تنتج ما عرف باللون الأحمر الموشى أي الذي لم يكن الصبغ يصل إلى الغزل بشكل كامل (١٣٢)، ولهذا السبب أجاز الفقهاء ارتدائه لأنه ليس مشبعا بالحمرة شأن الثوب المعصفر (١٣٣).

وتظهر بعض نصوص الحديث إنه كان يضاف إلى الثياب بعد صباغتها بعض العطور «كالقسط والظفر» (١٣٤) وقيل هما من أنواع البخور والغاية منهما كما ذكر النووي (١٣٥) ليس التطيب ولكن لإزالة الرائحة الكريهة بالثوب نتيجة الصباغة.

ومن الأصباغ الشهيرة أيضا ما كانت تستخرج من نبات الورس وكان أيضا من الأصباغ المحببة للنبي صلى الله عليه وسلم (١٣٦) والورس نبات أصفر ويذكر أبو حنيفة أنه ليس نباتا بريا بل يزرع ونباته مثل نبات السمسم (١٣٧) وأحيانا ما كان يستخدمه مع الزعفران للصاغة في وقت واحد كما يدل حديث أنس «كان له ملحفة مصبوغة بالورس والزعفران» (١٣٨) وربما كان لحصول درجة عالية من الصباغة باللون الأصفر أما عن «الصرف» فهو صبغ أحمر كان يصبغ به الجلود ويدل على استعماله في العهد النبوي وما ورد في وصف وجه النبي صلى الله عليه وسلم عندما تغير لما اعترض البعض على قسمته للغنائم يوم حنين فقال عبد الله بن زيد: «فتغير وجهه حتى كان كالصرف» (١٣٩).

هذ وتشير بعض النصوص إلى استخدام الخل في الصباغة فورد عن ابن عباس أن الخل كان أحب الصباغ إليه صلى الله عليه وسلم (١٤٠) ويبدو أن استخدام الخل ليس كمادة صابغة ولكن لتثبيت اللون المراد الصباغة به أو لإعطاء درجات مختلفة من الألوان فقد نقل السيوطي (١٤١) عن ابن عباس أن الخل إذا أضيف إليه نحاس أخرج لونا أخضر. أما إذا أضيف إلى حديد أخرج لونا أسود، والمؤكد أن المقصود بالحديد والنحاس ليس مواد صلبة ولكنها مواد مطحونة كالبودرة. كما كانوا يستخدمون البول أيضا في الصباغة (١٤٢) وإن كنا نجهل تقنية استخدامه ولكن من المحتمل استخدامه كمادة مثبتة لألوان الصباغة شأن الخل.

ومن طرق الصباغة التي أفصحت عنها نصوص الحديث الصباغة بالطين فكان هناك نوع مخصوص من الطين الأحمر يصبغ به الثياب (١٤٣)، والثوب المصبوغ بهذه الطريقة كان يطلق عليه الثوب «الممشق»، وقد ترجم له ابن حبان بابا له بعنوان «باب إباحة إبدال المحرم ثيابه في الإحرام والرخصة في لبس الممشق من الثياب وإن كان الممشق أنه مصبوغ بالطين» (١٤٤).

صناعة الثياب

تظهر نصوص الحديث أن بعض نوعيات الثياب كانت تجلب إلى المسلمين من خارج شبه الجزيرة العربية كالثياب القبطية[١٤٥] التى كانت تصنع فى مصر، والديباج الكسرواني[١٤٦] والثياب السيرية[١٤٧]، ولكن ليس معنى ذلك إنه لم يكن هناك تصنيع للثياب فى جزيرة العرب فى العهد النبوى فمن يستقرىء النصوص فى هذا الشأن سيتبين أن بعضا من أنواع الثياب كانت تصنع فى العهد النبوى، وأنها كان تمر بمرحلتين أساسيتين:

مرحلة الغزل ومرحلة النسج

أما عن مرحلة الغزل، فأشار إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى: «ولا تكونوا كالتى نقضت غزلتها من بعد قوة أنكاثا»[١٤٨] وقد نزلت لتشبيه من يحلف ويعاهد ويبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزولها وتفتله محكما ثم تحله، ويرى أن امرأة حمقاء كانت بمكة تسمى ريطة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة كانت تفعل ذلك فبها وقع التشبيه[١٤٩]، كما ورد ذكرها أيضا فى قول عائشة: «صرير مغزل المرأة يعدل التكبير فى سبيل الله..»[١٥٠] هذا وتظهر النصوص أن هذه الصنعة فى العهد النبوى كانت من أعمال النساء كما يظهر ذلك من النص السابق وقول النبى صلى الله عليه وسلم من حديث عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «..علموهن المغزل وسورة النور»[١٥١] وعن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى صلى الله عليه وسلم قال توضع الرحم يوم القيامة لها حجنة كحجنة المغزول تكلم بلسان طلق ذلق[١٥٢].

ومما يتصل بآلة المغزل الخفش وكلمة الخفش مأخوذة من الانخفاش وهو الانضمام وأصله الوعاء التى تضع فيه المرأة غزلها[١٥٣] ويدل عليه الحديث الذى قال فيه للذى بعثه ساعيا على الزكاة «هلا قعد فى حفش أمه ينظر هل يهدى إليه أم لا؟»[١٥٤].

تأت بعد ذلك مرحلة النسج، وهى نتاج طبيعى لعملية الغزل فاستخراج الخيوط من الشعر والصوف غايته النهائية استخراج الخيوط منها لأجل نسجها، ولعل ما يؤكد تواجد النسج فى عهد النبوة بقية حديث عائشة الآنف أيما امرأة ألبست زوجها من غزلها كان لها بكل سدى ولحمة مائة ألف حسنة»[١٥٥] وعن عبد الله بن عمرو قال وقام آخر فقال يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق أصحهما أم نسج ينسج فضحك بعض القوم..»[١٥٦].

فالسدى واللحمة لا وجود لهما إلا على نول النسيج وليس المغزل، فالسدى معناها الخيوط المفرقة التى يضمها النساج بواسطة أدوات النول إلى اللحمة وهو الخيوط المجتمعة التى تشكل من جسم الثوب[١٥٧]. وقيام النساج بإدخال السدى فى اللحمة كان يطلق عليه «الوصاد»[١٥٨] وهذا ما يعنى بوضوح أن النول كان موجودا فى عهد النبوة وموروث أعمال نسج الثياب فى عهد النبوة.

ومما سبق يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن هناك من الصحابة من كان يعمل بصناعة النسيج ويدل على ذلك حديث سهل بن سعد رضى الله عنه قال: «جاءت امرأة ببردة قال أتدرون ما البردة فقيل له نعم هى الشملة منسوج فى حاشيتها قالت يا رسول الله أنى نسجت هذه بيدى»[١٥٩].

وهذا يعنى بالتبعية وجود آلة النسيج وهى النول وقد وردت بعض أوصاف النول فى العديد من النصوص فى كتب المعاجم والآثار النبوية، ومن يقوم بالعمل عليه كان يسمى النساج أو الحائك[١٦٠] أما عن الأداة التى كان يسوى بها السدى واللحمة فكان يطلق عليها «الصيصية» أو «المخط»[١٦١] أما عن الخشبة التى كان يلف عليها الحائك الغزل لينسجه.

فكانت تسمى بـ «الوشيع» أو «الحف»[١٦٢] أو الشهرق وهى لغة فارسية[١٦٣] وكانت مكونة من قصبات ثلاث[١٦٤] ويقال أن حجم هذه الخشبة إذا كان صغيرا كانت العرب تطلق عليه «الحلو»، أما إذا كان كبيراً فتطلق عليه «الوشيع»[١٦٥] وهذا يعنى أن النول كانت أحجامه متفاوتة فى الكبر والصغر اما لفظ الوشيعة فكان يطلق على كم المغزل المعد للنسج[١٦٦].

وتجدر الإشارة إلى أن أعمال النسج انحصرت فى إنتاج الثياب بالمدينة أو الجزيرة العربية فى العهد النبوى وارتبطت بخامات النسج المتوفرة فى البيئة بمعنى أنه إذا كانت الثياب القبطية والسيرية كانت تنتج خارج المدينة أو الجزيرة العربية لكون خامات غزلها مرتبطة بالبيئة التى تنتجها فالنساج بالجزيرة العربية أو فى المدينة سيعنى فى الغالب بإنتاج الثياب المغزولة من الصوف ومثال البرود اليمانية التى كان ينتجها نساج اليمن وربما انتجت كذلك بالمدينة لما استقرت دولة الإسلام بها وهاجر إليها الكثير من أهل اليمن لا سيما بعد عام الوفود[١٦٧] فقد كان للنبى صلى الله عليه وسلم له برد يمنى كما يؤكد حديث سهل بن سعد السابق طوله ست أذرع فى ثلاث أذرع وشبر[١٦٨].

وطريقة تصنيع هذه البرود أكثر أنواع المنسوج التى وردت بشىء من التفصيل لكونها تتعلق ببعض أحكام النبى صلى الله عليه وسلم فى اللباس،

منها ولا نلبس ثوبا مصبوغا إلا العصب. والمقصود بالعصب البرود اليمانية. وقد بحث الفقهاء والمحدثين عن أسباب هذا الاستثناء فأفصحوا عن طريقة نسجها، حيث كان يعصب أى يربط غزلها ثم يصبغ ثم ينسج مصبوغا فيخرج موشى لبقاء ما عصب به أبيض لم ينصبغ[١٦٩].

وهناك النسج العمانى فقد كان للنبى صلى الله عليه وسلم إزار من نسج عمان طوله أربع أذرع وشبر فى ذراعين وشبر[١٧٠] وقد أهدى حلة من هذا النسج إلى فروة بن مسيك المرادى[١٧١]. ومن النسج المشهور أيضا فى الجزيرة العربية نسج مدينة هجر بالبحرين[١٧٢].

ويبدو من النصوص أن الخز كان ينسج كذلك فى جزيرة العرب لكون غزله ينتج من الصوف والحرير كما قال ابن الأثير[١٧٣] وقد لبسها العديد من الصحابة كأنس بن مالك وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدرى[١٧٤] ولعل ذلك هو سبب استدلال الفقهاء بجواز ارتداء الثوب المشوب بحرير حيث نهى صلى الله عليه وسلم عن الثوب المصمت أى الذى يتكون نسجه من حرير خالص[١٧٥].

ومن الثياب التى يبدو أنها نسجت بالمدينة أو جزيرة العرب «الخميصة» والإنبجانية وقد ورد ذكرهما فى بعض الآثار كحديث عائشة قالت أن النبى صلى الله عليه وسلم فى خميصة لها أعلام فقال شغلتنى أعلام هذه أذهبوا بها إلى أبى جهم وأتونى بأنبجانية[١٧٦].

والخميصة لباس رقيق معلم أى عليه نقوش أو رسوم يصبغ بالحمرة أو بالسود أو الصفرة وكانت الخمائص من لباس أشراف الناس،[١٧٧] وقد سميت خميصة لرقتها ولينها وكانت تصنع إما من الصوف أو الخز[١٧٨]. وبهذا يترجح أن مكان نسجها المدينة أو الجزيرة العربية بوجه عام لأن مادة نسجها كانت متوافرة أما الانبجانى فهو كساء غليظ كالكبد[١٧٩] وكلمة انبجانى اختلف العلماء فى نسبتها فقيل أنها مدينة منبج بالشام ولكن ابن الأثير اعترض على ذلك واعتبره من باب التعسف وقيل تنسب لموضع اسمه انجبان[١٨٠] وقيل أذربيجان[١٨١] ولم نعلم بعد البحث على مكان هذا الموضع. ولكن من المادة التى ينسج منها هذا الثوب وهى الصوف بل الصوف الغليظ يترجح أنه كانت تنسج بالمدينة أو بموضع ما من جزيرة العرب ربما يسمى انبجان فنسبت إليه.

وتظهر بعض النصوص البعد الاجتماعى فى نسيج الثياب فعن ابن عمر «. أنه كانت الحلة تنسج لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تبلغ الحلة

الف درهم أو أكثر». وكانت هيئة هذه الحلة عبارة عن ثوبين إزار ورداء مادة غزلها من القز[١٨٢]. وفى هذا إشارة إلى أن نسج الحرير كان يتم فى الجزيرة العربية أو فى مدينة الرسول – صلى الله عليه وسلم.

هذا ويرتبط بصناعة النسيج حرفة مهمة وهى حرفة تجارة الثياب أو البز[١٨٣]. وكان يطلق على من يحترفها «البزاز»، وتكشف بعض الروايات عن بعض الصحابة الذين مارسوا التجارة فى البز أو الثياب كان أبرزهم أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – وعثمان بن عفان – رضى الله عنه[١٨٤] بل إن الخزاعى أرجع ثراء عثمان وقدرته على تجهيز جيش العسرة لتجارته فى الثياب[١٨٥]. وممن امتهن تجارة الثياب من الصحابة أيضا طلحة بن عبيد الله، وعبدالرحمن بن عوف[١٨٦]. وتجارة هؤلاء وغيرهم من الصحابة فى الثياب لا يعنى أن دورهم اقتصر فقط على جلب الثياب التى تنسج من خامات لا تنتج فى الجزيرة العربية، بل تورد إلى الأقاليم الأخرى نوعيات الثياب المنتجة فى المدينة والجزيرة العربية عموما لاسيما المصنعة من الصوف.

صناعة أردية الخيل والدواب

ومن الصناعات التى امتهنت كذلك فى العهد النبوى أردية الخيل والدواب، وقد أشارت إليها بعض الأحاديث أشهرها حديث أسامة بن زيد أن النبى – صلى الله عليه وسلم – ركب حمارا عليه إكاف تحته قطيفة فدكية..»[١٨٧] ولو فككنا النص سنجده يشير إلى شيئين الإكاف والقطيفة الفدكية. أما الإكاف، فيشبه البرذعة التى توضع على ظهر البعير[١٨٨]. وتصف بعض النصوص أن هذا الإكاف كان محشوا بالليف[١٨٩] ليحصل للراكب الراحة أثناء ركوب الدواب.

أما عن القطيفة الفدكية، فالواضح من مسماها أنها كانت تصنع بفدك[١٩٠]. والقطيفة هى الدثار أو الكساء الذى يكسى به الشىء[١٩١] وكانت تصنع من أنواع مواد عديدة. والظاهر من رواية أسامة أن قطعة القطيفة الفدكية من لوازم أردية الدواب، ويبدو منها أيضا أن هذه القطيفة كانت توضع أعلى الإكاف لتحجب خشونته عن الراكب، كما يظهر من رواية ابن هشام، «على حمار عليه إكاف فوقه قطيفة فدكية»، عن أسامة بن زيد بن حارثة حب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال ركب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى سعد بن عبادة يعوده من شكو أصابه مختطمة بحبل من ليف[١٩٢].

ويبدو أن الإكاف كانت له أحجام مختلفة بحسب نوع الدابة، فهناك «القتب» وهو إكاف صغير كان يوضع على سنام البعير[١٩٣]. وهناك الإكاف ذو

الحجم الأكبر الذى يشبه البرذعة، وهو خاص بذوات الحافر[١٩٤]، وكان يسمى أيضا فى عصر النبوة بالقرطان أو القرطاط[١٩٥].

صناعة الصياغة

ومن الصنائع الشهيرة بالمدينة فى العهد النبوى «الصياغة»، ويدلنا عليها قول على بن أبى طالب.. فلما أردت أن ابتنى بفاطمة بنت النبى - صلى الله عليه وسلم - واعدت رجلا صواغا من بنى قينقاع أن يرتحل معى فنأتى بإذخر أردت أن أبيعه من الصواغين وأستعين به فى وليمة عرسى[١٩٦]. ففى النص وغيره[١٩٧] إشارة إلى أن يهود بنى قينقاع كانوا يحترفون هذه الصناعة. وقد علق الخزاعى[١٩٨] على ذلك بقوله: «يحتمل أن تكون الصياغة فى أول الإسلام حرفة اليهود، ولم يكن أحد من المسلمين يحترف بها فلينظر هذا». لكن كلام الخزاعى فيه نظر فيما يخص أنه لم يكن أحد من المسلمين يحترف الصياغة. فهناك من كان يحترف هذه المهنة من الصحابة غير اليهود، كالصحابى أبى رافع مولى النبى - صلى الله عليه وسلم[١٩٩] - فقد نقل عنه قوله «قال كنت أصوغ لأزواج النبى - صلى الله عليه وسلم[٢٠٠]، ويحتمل أنه تعلمها من اليهود بالمدينة.

أما ما وقفنا عن أشكال الحلى التى كان يصنعها الصاغة فى العهد النبوى، وقد وردت جلها فى تفسير قوله تعالى «ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها»[٢٠١] فذكر أن المقصود بالزينة: السوار والخلخال والقرط[٢٠٢]. ويضاف إليها كذلك الخواتم. فأما السوار - وهو الحلية التى تحاط بالمعصم - فورد ارتداله العديد من الصحابيات كخليدة بنت قعنب فقد كان لها سواران من ذهب[٢٠٣]. أما القرط - هو ما يلبس فى شحمة الأذن - والخاتم، وقد ورد فى استجابة الصحابيات لخطبة النبى - صلى الله عليه وسلم «.. فجعلن يتصدقن من حليهن يلقين فى ثوب بلال من أقرطتهن وخواتمهن..»[٢٠٤]. وفى رواية أخرى «.. فجعلت المرأة تلقى الخرص والخاتم..»[٢٠٥]، و«الخرص» هى الحلقة الصغيرة التى توضع فى شحمة الأذن[٢٠٦]. وتظهر بعض النصوص أن صناعة الخواتم كانت تطبع بالأحجار الكريمة، فقد أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يشترى بعض بنى جعفر بن أبى طالب خاتما «فصه من عقيق»[٢٠٧].

أما صناعة الخلخال، فورد فى حديث أبى رافع قال: «خرجت بخلخالين أبيعهما..»[٢٠٨]، ويضاف إلى ما سبق صناعة «القلائد». وكانت تصنع من مواد مختلفة وتطعم بالأحجار كما يتضح من قول فضالة بن عبيد الأنصارى.. «أتى

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو بخيبر بقلادة فيها خرز وذهب»[٢٠٩]، ومن وصف القلائد يتبين أن الصانع كان يهتم باللمسة الجمالية فى صناعة القلائد.

تجارة الصرف

هذا ويرتبط بصناعة الصياغة مهنة مكملة لها، بل لا تقوم إلا بها وهى مهنة أو تجارة الصرف وتعنى التجارة فى الذهب والفضة، وهى من التجارات التى كانت متداولة فى أسواق المدينة قبل الإسلام.

ويتعلق بتجارة الصرف مجموعة من التشريعات والأحكام التى قررها النبى - صلى الله عليه وسلم - بعد وصوله المدينة فهما من صنف الأموال التى حذر النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يجرى فيها الربا، فكانت صورة التعامل فى المدينة قبل هجرة النبى - صلى الله عليه وسلم - كما تشى النصوص أن يباع الذهب بالفضة أو العكس، أو يباع الذهب بالذهب أو الورق بالورق، ولكن بتفاضل نوع على الآخر كأن يأتى المرء بذهب مكسر أو تبر وأراد أن يشترى به ذهبا مصنعا، فإنه لا يجوز التفاضل فى هذا مقابل الصنعة، فقد فهى نهى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - عن البيع على هذا النوع، واعتبره ربا وقرر ذلك فى قوله: «لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلا بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ولا تبيعوا الورق بالورق إلا مثلا بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ولا تبيعوا شيئا منها غائبا بناجز»[٢١٠]، وقال أيضا: «الفضة بالفضة والذهب بالذهب سواء بسواء فمن زاد أو ازداد فقد أربى الآخذ والمعطى سواء»[٢١١].

ومن الصور التى نهى عنها النبى - صلى الله عليه وسلم - فى تجارة الصرف أن تباع الحلى من الذهب أو الفضة معترجة بالخرز، كما يدل على ذلك حديث فضالة بن عبيد الأنصارى «.. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذهب التى فى القلادة فنزع وحده ثم قال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذهب بالذهب وزنا بوزن»[٢١٢] ومن أبرز الصحابة الذين مارسوا هذه المهنة البراء بن عازب وزيد بن أرقام - رضى الله تعالى عنهما[٢١٣].

حرفة العطار

حرفة العطار من المهن التى تدولت فى عهد النبوة، ويدل عليها حديث أبى موسى الأشعرى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال: مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة..»[٢١٤].

اما عن أنواع العطور المشهورة فى العهد النبوى فتمثلت فى: المسك الذى كان أحب العطور لدى النبى – صلى الله عليه وسلم – بل اعتبره أطيب الطيب[٢١٥]، وعن عائشة رضى الله عنها قالت: «كأنى أنظر إلى وبيص المسك فى مفرق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو محرم»[٢١٦]. ومن أنوه هذه العطور أيضا العنبر، وقد تطيب به العديد من الصحابة أمثال: أبوقتادة، وأبوهريرة، وابن عمر، وأبواسيد الساعدى[٢١٧].

ومن أنواع الطيب الشهيرة أيضا «العود الهندى»، وجاء وصفه كطيب فى حديث أبى هريرة عن صفة أهل الجنة قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –«ومجامرهم من الألوة»[٢١٨]، وقد فسر الترمذى وغيره[٢١٩] الألوة بأنها العود الهندى، وكان يطلق على العود الهندى أيضا «القسط»[٢٢٠]، وقد استخدم كذلك فى هذا العصر كبخور للملابس المصبوغة لإزالة ما بها من رائحة كريهة[٢٢١].

ومن أنواع الطيب التى استخدمت كذلك فى العصر النبوى «الكافور»، ويذكر ابن عمر أن النبى – صلى الله عليه وسلم – «كان إذا استجمر يجعل الكافور على العود»[٢٢٢]. ومعنى «الاستجمار» أن يضع الكافور على العود فى المبخرة[٢٢٣].

ومن الجدير بالذكر أن مهنة العطارة لم تكن حكرا على الرجال فى العهد النبوى، بل شاركهم فيها النساء أيضا، فعن أنس قال: كانت امرأة بالمدينة عطارة[٢٢٤]، وعن يعلى بن أمية قال: زوجنى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – امرأة.. عطارة»[٢٢٥]، ومنهم من صرت المصادر بأسمائهم أمثال أسماء بنت مخرمة. قال الواقدى: «كانت تبيع العطر بالمدينة»[٢٢٦] ومنهن كذلك مليكة والدة السائب بن الأقرع[٢٢٧] والحولاء بنت تويت[٢٢٨].

والتساؤل الذى يطرح نفسه: هل ثمة صناعة للعطور كانت قائمة بالمدينة أو الجزيرة العربية فى عهد النبوة؟ أم أن العطور كانت من السلع المجلوبة بقصد التجارة فيها؟.

الواضح من النصوص أن العطور كانت من نوع التجارات المجلوبة، ويبدو ذلك فى مقولة عمر بن الخطاب «لو كنت تاجرا ما اخترت على العطر شيئا إن فاتنى ربحه لم يفتنى ريحه» [٢٢٩]، كما يجلى ذلك أيضا فى قول النبى – صلى الله عليه وسلم – «مثل الجليس الصالح مثل الدارى إن لم يصبك من عطره يلحقك من ريحه..»[٢٣٠]، فالرسول ضرب مثل الجليس الصالح بالدارى وليس صانع العطر والدارى هو العطار، وهو منسوب إلى بلدة «دارين» بالبحرين، وقد اشتهرت بأن بها سوقا يحمل إليها المسك، والعنبر من ناحية الهند[٢٣١].

ويبدو أن مصر كانت تورد العطور إلى الجزيرة العربية، كما يظهر ذلك فيما نقله ابن هشام عن أبى خيثمة قوله:

أتانى الذى لا يقدر الناس قدره لزينب فيهم من عقوق ومأثم
وإخراجها لم يخز فيها محمد على ليحجا وبيننا عطر منشم[٢٣٢]

والعطر المنشم كما قال أبوعبيد منسوب إلى المنشية بضم الميم وسكون النون وكسر الشين والياء مشددة، وهى اسم لأربع قرى بمصر إحداها من كورة الجيزية من الحبس الجنوبى والثانية من عمل قوص والثالثة من عمل إخميم يقال لها منشية الصلعاء، والصلعاء قرية إلى جانبها والرابعة المنشية الكبرى من كورة الدنجاوية[٢٣٣]، وهناك أيضا مدينة «أظفار» وهى مدينة معروفة بسواحل اليمن يجلب إليها القسط الهندى، وهو ما يعرف بالعود، وكذا أيضا المسك[٢٣٤]. كذلك العنبر كان يجلب من بعض المدن الهندية الساحلية[٢٣٥].

ولكن هذا لا يمنع من كون العطار كان يضطلع بتصنيع تركيبات من العطور المختلفة، وشهد على ذلك عطر أو طيب «الذريرة» وقد ورد فى حديث عائشة رضى الله عنها قالت: «طيبت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بيدى بذريرة فى حجة الوداع للحل والإحرام»[٢٣٦]، والمقصود بالذريرة فى هذا الحديث «هو نوع من الطيب مجموع من أخلاط[٢٣٧] أى من أنواع مختلفة من العطور.

وللعطار أدوات كان يحفظ فيها عطره، ورد ذكر بعضها فى بعض نصوص الحديث، كـ «جؤنة عطار»، وهى السفط الذى فيه متاع العطار هكذا فسره الجمهور. هى سليلة مستديرة مغشاة يضع فيها أدواته[٢٣٨]، وهناك القوارير، وهى من الزجاج.

حرفة الحداد

من الحرف المهمة التى قامت على أساسها العديد من المهن والصناعات الأخرى، حرفة الحدادة، وأدوات الحداد فى عصر النبوة لا تختلف كثيرا عن أدواته فى الوقت الراهن، ويبدو ذلك فى قول ابن عباس: «نزل آدم من الجنة ومعه من الحديد خمسة أشياء من آلة الحدادين السندان والكلبتان والميقعة والمطرقة والإبرة. وحكاه القشيرى قال: والميقعة ما يحدد به يقال وقعت الحديدة أقعها أى حددتها وفى الصحاح والميقعة الموضع الذى يألفه البازى فيقع عليه وخشبة القصار التى يدق عليها والمطرقة والمسن الطويل[٢٣٩]، وهناك أيضا الكير، وكبر الحداد وهو زق أو جلد غليظ ذو حافات[٢٤٠]، ووظيفته

ضخ الهواء لفصل الخبث عن الحديد، وهذا الوصف ظاهر فى قول النبى – صلى الله عليه وسلم – «... لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها كما ينفى الكير خبث الحديد»[٢٤١]. وقد عمل بهذه الحرفة العديد من الصحابة ومنهم أبى سيف القين[٢٤٢]، وخباب بن الأرت[٢٤٣] كما كان سيرين أبو محمد بن سيرين قينا حداداً[٢٤٤].

ويلحق بحرفة الحدادة عدد من المهن والصناعات الأخرى، كتجارة السلاح فأبى الحارث نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب، كان يتاجر فى الرماح[٢٤٥]. ويبدو أن خباب بن الأرت كان يتاجر فى السيوف، حيث كان يشترى السيف المحلى بالورق[٢٤٦]. هذا وتشير النصوص إلى العديد من الأدوات التى تنتج بواسطة الحداد فى ذلك العصر، والتى كانت تمثل عصبا للكثير من الحرف الأخرى، فإضافة إلى صناعة السيوف والحراب، هناك العديد من الأدوات الأخرى التى كان يصنعها الحداد مثل: «المقراض»، وهو الذى يستخدمه الصائغ فى قطع الذهب أو الفضة[٢٤٧]، قادوم ومنشار النجار، وفأس الحطاب، وهى التى يستخدمه الحطاب فى قطع الحطب.

صنعة النجار

ومن الحرف المهمة فى العهد النبوى «النجارة»، وجاءت الإشارة إليها فى غلام امرأة من الأنصار صنع منبرا للنبى – صلى الله عليه وسلم –[٢٤٨] وقد اختلفت النصوص فى تحديد اسمه، فقيل صنعه غلام امرأة من الأنصار قال ابن بشكوال اسمه «ميناء». قال ويقال صنعه بقول مولى العاص بن أمية، ويقال صنعه ميمون النجار، وقيل صنعه صباح غلام العباس بن عبدالمطلب، وقال ابن فتحون إن الذى عمله غلام قبيصة المخزومى، وقال ابن رشد عمله غلام لسعد بن عبادة وقيل لامرأة من الأنصار وقيل غلام للعباس، وقال الخزاعى: فلعلهم كلهم اجتمعوا على عمله[٢٤٩].

وعلى الرغم من قلة المتاح من النصوص التى تعطينا تصورا أوضح عن هذه الحرفة، إلا أن ثمة إشارة تؤكد رقى هذه بمقاييس هذا العصر، ويتمثل ذلك تحديدا فى صناعة آلتى حرب الحصار: الدبابة[٢٥٠] والمنجنيق، فقد استخدمها النبى – صلى الله عليه وسلم – فى حربه ضد أهل الطائف وكان هذا اليومى يسمى يوم «الشدخة»، وكانت هذه أول محولة لصناعة هاتين الآلتين فى الإسلام كما ذكر ابن هشام[٢٥١]، ويذكر الواقدى[٢٥٢] أن من قاما بصناعتيهما عروة بن مسعود، وغيلان بن سلمة بأرض جرش، وجرش مدينة عظيمة باليمن[٢٥٣].

الهوامش

١- ابن منظور: لسان العرب ج ٨: ص ٢٠٩؛ الجوهرى الصحاح ص ٣٩٧؛ ابن دريد: جمهرة اللغة، ص ٢٦١؛ القالى ج١ ص ١٧٥.

٢- المقدمة، ص ٣٩٩.

٣- نفسه، ص ٤٠٠.

٤- أنه صلى الله عليه وسلم نهى «عن نبيذ الجر الأخضر». صحيح مسلم حديث رقم ١٩٩٧ ج٣ ص ١٥٨١.

٥- ورد فى حديث عبد الله بن أبى أوفى صحيح ابن حبان ج ١٢، ص ٢٢٣.

٦- سئل أبى هريرة ما الحنتم؟ قال: «الجرار الخضر» صحيح مسلم حديث رقم ١٩٩٧ ج ٣، ص ١٥٨٣.

٧- يؤكد ذلك حديث ابن عباس عن الرسول صلى الله عليه وسلم الدر «أى الجرار المصنوعة من الطين» كله حرام أسوده وأحمره وأخضره وأبيضه». المعجم الأوسط ج٥، ص ٢٤١.

٨- عون المعبود، ج ١ ص ٧١. حاشية ابن القيم ج١ ص ٧٩.

٩- عون المعبود، ج١ ص ٧٣. وزعم البعض أن المقصود بها قرية هجر بالبحرين ولكن غالب الأمر اه على أنها قرية هجر التى بظاهر المدينة انظر فتح البارى ج٧ ص ٢٢٨، تحفة الأحوذى ج١ص١٨١، ١٨٥ ج٤ ص ٤٤٣. شرح النووى على صحيح مسلم ج٣ ص ٩٦. الديباج، ج١ص٢٦٤، تلخيص الحبير ج١ ص٤٥.

١٠- يقول النبى صلى الله عليه وسلم: «... ورفعت لى سدرة المنتهى فإذا نبقها كأنه قلال هجر» صحيح البخارى، حديث رقم ٣٠٣٥، ج٣ ص ١١٧٣.

١١- www.alwatan.com.sa/daily/2004-01-29/culture(1).htm-32k, www.sodayr.com/vb/archive/index.php/t-1220.html-30k.

١٢- مختار الصحاح، ج١، ص٣٣.

١٣- نفسه ج١ص٢١٠.

١٤- صحيح البخارى ج١ص٤٦٩.

١٥- صحيح ابن حبان حديث رقم ٤١٠٥ ج٩ص٤٧٣؛ انظر كذلك صحيح البخارى حديث رقم ٤١٥٦ ج٤ ص ١٦٠٦؛ صحيح مسلم حديث رقم ٢٧٦٧ ج٤ص٢١٢٥.

١٦- صحيح البخارى حديث رقم ٣٨٧٥ج٤ص١٥٠٥.

١٧- صحيح ابن حبان حديث رقم ٢٧٦٩ ج٨ص١٦٠.

١٨- صحيح البخارى حديث رقم ٣٨٧٥ج٤ص١٥٠٥

١٩- نفسه حديث رقم ٣٨٧٥ج٤ص١٥٠٥.

٢٠- سنن الدرامى حديث رقم ٤٢ج١ص٣٣.

٢١- نفسه حديث رقم ٤٢ج١ص٣٣.

٢٢- لسان العرب ج٣ص٢٦٢.

٢٣- نفسه ج١٢ ص ١٥.

٢٤- لسان العرب ج١٢ص٤٥.

٢٥- أخرج الأزرقى من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «...

وأول من أحدث الأرحية بطحنها بمكة إسماعيل بن إبراهيم النبي صلوات الله على محمد عليهما وسلم أخبار مكة ج٣ص٢٠٩.

٣٦- لسان العرب ج١ص٤٨٧.

٣٧ - لسان العرب، جـ١، ص٤٨٧ .

٣٨- مختار الصحاح ج١ص٣٢٦؛ لسان العرب ج١ص٦٨٢.

٣٩- لسان العرب ج٣ص١٩١.

٤٠- نفسه ج١ص٢٣٦، ج٥ص١١١.

٤١- نفسه ج٩ص١٢.

٤٢- الفائق ج١ ص ٣٧٢، لسان العرب ج١ص٢٣٦.

٤٣- نفسه ج١ص٢٢٤، لسان العرب ج١١ص٨٥.

٤٤- لسان العرب ج٧ص٢٥٠.

٤٥- الفائق ج٣ص٦؛ لسان العرب ج٤ ص ٢٣٦.

٤٦- لسان العرب ج٥ص٢٢٧.

٤٧- نفسه ج ٥ص ٢٢٧.

٤٨- نفسه ج١١ص٥١.

٤٩- نفسه ج٨ ص٤٠٨.

٥٠- نفسه ج١٤ص٣١٣.

٥١- صحيح البخاري حديث رقم ٥٣٠٢ ، ٢٩٤٥ ج٣ ص ١١٣٣، ١٣٥٨، صحيح مسلم، حديث رقم ٢٧٧٦ ج٤ص ٢٠٩١.

٥٢- المستدرك على الصحيحين حديث رقم ٤٦٥٢ ج٣ ص١٤٣ السنن الكبرى حديث رقم ٨٦٠٢ ج٥ ص١٧٩.

٥٣- مسند أسامة حديث رقم ٥٢ ، ٥١ ج١ ص ١٣١ ، ١٣٥ مقدمة فتح الباري ج١٣ ص ٥٢؛ حلية الأولياء ج١٤ ص ١١٢

٥٤- سنن البيهقي الكبرى حديث ١٠٦٣٦ ج٥ ص ٣٣٩؛ سنن الدراقطني حديث رقم ١٩٥ ،ج٣ص٤٧؛ تلخيص الحبير حديث رقم ١٢٨٦ ج٣ ص ٦٠.

٥٥- الصبرة أي الشيء الذي لا كيل فيه ولا وزن. مختار الصحاح ص ٣٥٥.

٥٦- تلخيص الحبير حديث رقم ١٢٨٦؛ ج٣ ص٦٠.

٥٧- مختصر المختصر ج١ص٣٦٥، ٣٦٦.

٥٨- سنن أبي دواد، حديث رقم ١٧١٦ ج٢ ص١٣٨.

٥٩- لسان العرب ج٤١، ص ٤٨٧.

٦٠- مختار الصحاح ص٣، عون المعبود ج٢ ص٨٥.

٦١- مقدمة فتح الباري ج١ ص ١٨٢.

٦٢- لسان العرب ج٤ص١١.

٦٣- المغني، ج٢، ص١٩٠.

٦٤- مصنف ابن أبي شيبة حديث رقم ١١٧٢٥، ج٣ص٢١.

٦٥- المغني ج٢ ص١٩٠.

٦٦- لسان العرب ج٥١ ص٤٠١.

٦٧- ناقش ابن حبان هذه المسألة في صحيحه وخلص إلى أن «خبر عبد الله بن حكيم أن لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب يريد به قبل الدباغ والدليل على صحته قوله صلى الله عليه وسلم أيما إهاب دبغ فقد طهر» صحيح ابن حبان باب جلود الميتة ج٤ ص ٩٦.

٦٨- صحيح مسلم باب طهارة جلود الميتة بالدباغ ٣٦٣، ٣٦٤ ج١ص٢٧٦. يقول ابن عبد البر وهذا الحديث رواية ابن شهاب أصح وثبوت الدباغ في جلود الميتة عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة صحاح ثابتة قد ذكرناها في باب زيد بن أسلم من كتابنا هذا وبيننا الحجة على من أنكر الدباغ بما فيه كفاية من جهة النظر والأثر التمهيد لابن عبد البر ج٩ ص ٥١.

٦٩- فتح الباري ج٩ ص ٦٨٨؛ عون المعبود ج١١ ص ١٩٠؛ شرح النووي على صحيح مسلم جـ١٠، ص٨٧.

٧٠- ويدل على ذلك بعض وصف عمر بن الخطاب لحال بيت النبي صلى الله عليه وسلم «وإذا أفيق عكن» انظر صحيح مسلم باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن وقوله تعالى وإن تظاهرا عليه ١٤٧٩ج٢ص١١٠٥.

٧١- صحيح مسلم باب طهارة جلود الميتة بالدباغ ٣٦٦ ج١ص٢٧٧؛ سنن البيهقي الكبرى ج١ص٢٠ .

٧٢- صحيح البخاري باب إماطة الأذى حديث رقم ٢٣٣٦ج٢ص٨٧١.

٧٣- الترغيب والترهيب حديث رقم ٣١٦٣ج٣ص٨١.

٧٤- مسند عبد بن حميد، حديث رقم ١٣٨٣ج١ص٤٠٧.

٧٥- سنن البيهقي الكبرى باب وقوع الدباغ بالقرظ أو ما يقوم مقامه، حديث رقم ١٣ ج١ص١٩.

٧٦- سنن النسائي «المجتبى» باب ما يدبغ به جلود الميتة ٤٢٤٨ج٧ص١٧٤؛ المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم ج٤ ص ١٦١؛ السنن الكبرى ج٣ ص ٨٥؛ تلخيص الحبير ج١ص ١٧٩.

٧٧- ثبت يدبغ به انظر فتح الباري ج١ص٢٢٩.

٧٨- شجر طيب الريح مر الطعم ينبت في جبال الغور ونجد. التعريف في التصحيف ١١٧ج١ص ٧٧، ٧٨. تلخيص الحبيرج١ص٤٩.

٧٩- شرح النووي على صحيح مسلم ج٤ ص٥٥؛ التعريف في التصحيف ١١٧ج١ص٧٧، ٧٨.

٨٠- الاستيعاب ٩٤٣ ج٢ص٥٩٣؛ تهذيب الأسماء ج١ ص ٢٠٧. تلخيص الحبير ج١ص١٧٩.

٨١- معجم البلدان ج ٤ ص ١١١، ص ١١٣.

٨٢- مسند أحمد حديث رقم ٥٨٩٤ ج٢ص١١٠.

٨٣- الفائق ج٢ص١٤٨.

٨٤- نفسه ج٣ص١٠٣، ١٠٤.

٨٥- لسان العرب ج١١ص٣٥٥ انظر أيضا الفائق ج٢ص٢٤٩.

٨٦- مختار الصحاح مادة سقى ج١ص١٢٨.

٨٧- لسان العرب ج١ص٦٦٨.

٨٨- مختار الصحاح مادة وكى ج١ص٣٠٦؛ الفائق ج١ص٣٩٥.

٨٩- نفسه ج١ص٣٠٦.

٩٠- لسان العرب ج١٥ ص ٤٠٦.

٨١- الفائق ج٢ ص ٢٦٣.

٨٢- لسان العرب ج١ ص ٧٠١.

٨٣- لسان العرب مادة فرظ ج٧ ص ٤٥٤.

٨٤- وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه طلى بعيرا من الصدقة بقطران فقال له رجل لو أعرت عيرا كفاكه فضرب بالنعلة في صدره وقال عبد أحمد منى النعلة بفتح اللام والميم صوفة أو خرقة يهنأ بها البعير ويدهن بها السقاء. لسان العرب ج١١ص٩٣

٨٥- نفسه ج١٣ص٣٠٧.

٨٦- نفسه مادة رحم ج١١ ص ٢٣٣

٨٧- نفسه، مادة سرب ج١ص٤٦٦.

٨٨- نفسه، مادة كتم ج١٢ص ٥٠٧.

٨٩- نفسه ج٢ ص ٥٩٢

٩٠- لسان العرب ج٢ ص ٥٩٢.

٩١- نفسه مادة طب ج١ ص٥٥٥.

٩٢- نفسه ج١ص٤٧١.

٩٣- نفسه ج٨ص٢٤٩.

٩٤- نفسه ج٦ص ١٧٥.

٩٥- نفسه ج٤ ص ٢٠٢.

٩٦- وهذه المشجب كانت تستخدم في عهد الرسول أيضا لكي يوضع الثياب عليها كما يدل حديث جابر «ولويه على المشجب» نفسه ج١ ص٤٨٤.

٩٧- نفسه ج ٧ ص ٢٤.

٩٨- لسان العرب ج ٢ ص ١٤٥، ١٤٦.

٩٩- مجمع الزوائد ج٤ ص ٨٨.

١٠٠- شق المشاعل يوم خيبر وذلك أنه وجد أهل خيبر يتنبذون فيها، والمشعل هي الزقاق. الفائق ج ٢ ص ٢٤٩.

١٠١- مجمع الزوائد ج٤ ص ٨٨.

١٠٢- المستدرك على الصحيحين، حديث رقم ٢٥٥ ج١ص١٤٨.

١٠٣- سنن أبي داود حديث رقم ٣٨٣٧ الأحاديث المختارة حديث رقم ٥٠ج٩ص٦٦ ٦٧. مجمع الزوائد ج ٥ ص ١٦٥.

١٠٤- مسند أحمد ج٤ ص ٤٠٦؛ سنن البيهقي الكبرى حديث رقم ٦٦٤٦ ج٤ص٢٢.

١٠٥- لسان العرب ج٧ص٢٣٠.

١٠٦- نفسه ج٢ص٣٧٥.

١٠٧- نفسه ج١ص٥٦٢.

١٠٨- لسان العرب ج٢ ص ٣٧٥.

١٠٩- نفسه ج٤ ص ٢٥٢؛ لسان العرب ج٣ص٦١.

١١٠- نفسه ج٢ ص ٣٥.

١١١- نفسه ج١ص١٣٤.

١١٢- فتح الباري، ج٦، ص٥٢٩.

١١٣- لسان العرب ج٣ص ٣٥.

١١٤- مختار الصحاح مادة أقط ص ٨.

١١٥- لسان العرب مادة أقط ج٧ ص ٢٥١؛ انظر الفائق مادة أقط ج١ ص ١٧٩.

١١٦- صحيح البخاري حديث رقم ١٤٣٥ ج٢ص٥٤٨؛ صحيح مسلم حديث رقم ٩٨٥ج٢ص٦٧٩.

١١٧- صحيح ابن حبان حديث رقم ٢٤٦٥ج١٢ص٤٦؛ سنن أبي داود حديث رقم ٣٨١٩ . ج٣ص٣٥٩؛ سنن البيهقي الكبرى ج١٠ ص ٦.

١١٨- صحيح ابن حبان ج١٢ص٤٦؛ ويذكر القرطبي أن الجن كان يجلب للمسلمين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ومن بعده من أرض العجم. ولا تعارض مع ما هو مذكور في المتن حيث يحمل على أن بعض من الجبن قد صنعه المسلمون والبعض الآخر كان يجلبه التجار من بلاد فارس تفسير القرطبي ج٢ص٢٢١.

١١٩- مجمع الزوائد ج٥ ص ١٢٨، ١٢٩.

١٢٠- عن عبد الله ابن أبي قال: «قال كان أحب الصباغ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفرة» مجمع الزوائد ج٥ ص ١٢٩ انظر الجامع الصغير للسيوطي ج١ ص ٥٢.

١٢١- مجمع الزوائد ج٥ ص ١٢٩.

١٢٢- المستدرك على الصحيحين ٧٣٩٥ ج٤ ص ٢١٠؛ مجمع الزوائد ج٥ ص ١٢٩ ؛الجامع الصغير للسيوطي ج١ ص ٥٢

١٢٣- لسان العرب ج٤ ص ٥٨١.

١٢٤- تحفة الأحوذي ج٨ ص٧٥.

١٢٥- الواقع أن النهي عن لباس الثياب المصبغة باللون الأحمر نحل خلاف بين العلماء. أنظر عون المعبود ج١١ ص ٨٤.

١٢٦- فتح الباري ج١٠ص٣٠٦.

١٢٧- أخرج ابن ماجة عن ابن عمر قال: «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المقدم» ولما سئل الحسن عن المقدم قال المشبع بالعصفر. سنن ابن ماجه حديث رقم ٣٦٠١ح٢ص١١٩٦ انظر كذلك التمهيد لابن عبد البر ج ١٦ص١٢٣.

١٢٨- حدثنا أبو بكر قال ثنا حماد بن خالد عن عبد الله بن عمر عن عبد الرحمن بن القاسم عن عبد الله قال كان الفتيان يجرمون مع ابن عمر في العود لا ينهاهم ولا ينكر عليهم، مصنف ابن أبي شيبة، حديث رقم ١٢٨٦٢ ج٣ص١٤٢.

١٢٩- التمهيد لابن عبد البر ج١٩ ص ١٢٣.

١٣٠- ابن حجر الفتح، ج٣ ص ٤٠٦.

١٣١- حاشية ابن القيم ج١١ص٨٠

١٣٢- شرح الزرقاني ج٣ ص ٣٠٣ في بروذ مخاطلة والغصب الفتل والغصاب العزال إلا أن يكون عصبا غليظا فتلبسه لأنه لا كبير زينة فيه حملا لحديث أم عطية في الصحيحين مرفوعا لا تحد امرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر.

١٣٣-تحفة الأحوذي ج٥ ص ٣٢١.

١٣٤- شرح السيوطي ج٦ ص٢٠٣؛ حاشية السندي ج٦ ص ٢٠٣، ٢٠٤.

١٣٥- حاشية السندي ج٦ص ٢٠٣، ٢٠٤.

١٣٦- فعن عائشة قالت: «كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثوب مصبوغ بورس»، وعن أنس ان الرسول «كان له ملحفة... مصبوغة بالورس» أنظر مجمع الزوائد ج٥ص ١٢٩؛ الجامع الصغير للسيوطي ٣٩٢ج١ص٢٣٤

١٣٧- مختار الصحاح مادة ورس ص ٣٩٨ لسان العرب مادة ورس ج٦ ص ٢٥٤.

١٣٨- الجامع الصغير للسيوطي ٣٩٢ ج١ ص ٢٣٤.

١٣٩- صحيح مسلم حديث رقم ١٠٦٢ ج ٢ص٧٣٩؛ الديباج حديث رقم ١٠٦٢ ج ٣ ص ١٥٠.

١٤٠- الجامع الصغير للسيوطي حديث رقم ٤٣ ج١ ص ٥٢.

١٤١- الجامع الصغير للسيوطي ج١ ص ٥٢.

١٤٢- مصنف عبد الرزاق باب ما جاء في الثوب يصبغ بالبول أحاديث ١٤٩٣،١٤٩٤ ج١ص٣٨٢،٣٨٤.

١٤٣- التمهيد لابن عبد البر ج١٦ ص ١٢٣؛ تحفة الأحوذي ج ٨ ص ٧٥.

١٤٤- أنظر: صحيح ابن خزيمة حديث رقم ٢٦٨٨، ٢٦٨٩ ج٤ ص ٢٠٢.

١٤٥- والقبطي ثوب من كتان رقيق يعمل بمصر نسبة إلى القبط. عن أسامة بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم كساه قبطية مما أهداه له فكسوتها امرأتي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك لا تلبس القبطية قلت كسوتها امرأتي فقال مرها أن تجعل تحتها غلالة فإني أخاف أن تصف عظامها بسناده حسن. الأحاديث المختارة. حديث رقم ١٣٠٥ ج٤ ص ١٤٩؛ عون المعبود ج١١ص١١٧

١٤٦- حدثنا أبو بكر قال حدثنا جرير عن عبد الملك عن عطاء قال كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة مبايسة علبها لبنة ديباج كسروانى كان يلبسها. مصنف ابن أبي شيبة. حديث رقم ٢٤٦٨٥ج٥ص١٥٥.

١٤٧- حدثنا عثمان بن عمر الضبي ثنا محمد بن كثير ثنا سفيان عن عبد الله بن محمد بن عقيل قال سمعت بن عمر يقول لم كساني رسول الله صلى الله عليه وسلم. قبطية وكسى أسامة بن زيد حلة سيراء. المعجم الكبير حديث رقم ١٣٤٣٣ ج١٢ ص ٣٨٧.

١٤٨- النحل٩٢.

١٤٩- تفسير الطبري ج١٤ ص ١٦٥، ١٦٦؛ تفسير القرطبي ج١٠ص ١٧١.

١٥٠- الفردوس بمأثور الخطاب حديث رقم ٣٧٧٢ ج٢ص٣٩٩.

١٥١- قال عنه الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». المستدرك على الصحيحين حديث رقم ٣٤٩٤ ج٢ص٤٣٠؛ وكذا المعجم الأوسط حديث رقم ٥٧١٣ ج٦ص٣٤.

١٥٢- مجمع الزوائد ج٨ ص ١٥٠.

١٥٣- فتح الباري ج١ ص ٥٣٤؛ شر الزرقاني ج٣ ص ٣٠٠.

١٥٤- شرح الزرقاني ج ٣ ص٣٠٠.

١٥٥- الفردوس بمأثور الخطاب حديث رقم ٣٧٧٢ ج٢ ص ٣٩٩؛ وكذا حديث جابر لما وصف النبي صلى الله عليه وسلم لما قام إلى الصلاة في حجة الوداع «فقام في نساجة ملتحفا بها... صحيح سنن حديث رقم ١٢١٨ ج٢ ص ٨٨٦؛ صحيح ابن حبان حديث رقم ٣٩٤٤ ج٩ ص ٢٥٣.

١٥٦- مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٤١٥

١٥٧- لسان العرب ج ٢ ص ٣٧٦.

١٥٨- نفسه ج ٣ ص ٤٦٠.

١٥٩- صحيح البخاري، باب ذكر النساج، حديث رقم ١٩٨٧ ج٢ ص ٧٣٧.

١٦٠- لسان العرب ج ٣ ص ٣٧٦، ج ١٠ ص ٤٩٨؛ مختار الصحاح ج ١ ص ٦٨، ٢٨٥.

١٦١- نفسه ج ٧ ص ٥٣، ٢٨٨

١٦٢- لسان العرب ج ٨ ص ٣٩٤.

١٦٣- نفسه ج ١٠ ص ١٩٢

١٦٤- نفسه ج ٩ ص ٥١.

١٦٥- نفسه ج ٨ ص ٣٩٤.

١٦٦- نفسه ج ٨ ص ٣٩٤.

١٦٧- انظر: الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٢٧.

١٦٨- الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٥٠.

١٦٩- فتح الباري ج ٩ ص ٤٩١.

١٧٠- الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٥٠.

١٧١- الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٢٧، ج ٨ ص ٤٢٤.

١٧٢- لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن علي الحنفي يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتابا فلدم عليه وأنزله وحباه وقرأ كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ورد ردا دون رد وكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني فاجعل لي بعض الأمر أتبعك وأجاز سليط بن عمرو بجائزة وكساه أثوابا من نسج هجر فقدم بذلك كله على النبي – صلى الله عليه وسلم –. الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٦٢.

١٧٣- نيل الأوطار ج ٢ ص ٨٢.

١٧٤- سنن البيهقي الكبرى، حديث رقم ٥٨٩٠، ج ٣ ص ٢٧١.

١٧٥- لمزيد من التفاصيل انظر نيل الأوطار ج ٢ ص ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥.

١٧٦- صحيح البخاري، حديث رقم ٧١٩ ج ١ ص ٢٦٢؛ صحيح مسلم، حديث رقم ٥٥٦، ج ١ ص ٣٩١، ٣٩٢.

١٧٧- التمهيد لابن عبدالبر ج ٢٢ ص ٣١٥.

١٧٨- الفائق ج ٢ ص ١٦٧.

١٧٩- التمهيد لابن عبدالبر ج ٢٢ ص ٣١٥.

١٨٠- لسان العرب، مادة تبجن ج ١٣ ص ٣٨.

١٨١- شرح سنن ابن ماجة ج ١ ص ٢٥٩.

١٨٢- سنن البيهقي الكبرى، حديث رقم ٥٨٨٥ ج ٣ ص ٢٧١؛ مصنف عبدالرزاق حديث رقم ١٤٩٩، ج ١ ص ٣٨٤.

١٨٣- في المحكم البز الثياب والبزاز بائع البز وحرفته البزازة وقال الجوهري البز من الثياب أمتعة البزاز وفي ديوان الأدب البز بفتح الباء متاع البزاز.

١٨٤- ابن قتيبة: المعارف ١٣٠.

١٨٥- الدلالات السمعية ص ٧٢٠.

١٨٦- ابن قتيبة: المعارف، ص ١٣٠.

١٨٧- صحيح البخاري: باب عيادة المريض راكبا وماشيا وردفا على الحمار ٥٣٣٩ ج ٥ ص ٢١٤٣؛ صحيح مسلم: باب في دعاء النبي - صلى الله عليه وسلم - وصبره على أذى المنافقين ٧٠٩٨ ج ٤ ص ١٤٢٢.

١٨٨- مقدمة فتح الباري ج ١ ص ٨٠.

١٨٩- صحيح ابن حبان ٧٠٢٨ ج ١٥ ص ٥٠٠.

١٩٠- الديباج ١٧٩٨ ج ٤ ص ٤٠٩.

١٩١- لسان العرب ج ٩ ص ٢٨٦.

١٩٢- ابن هشام: السيرة النبوية ج ٣ ص ١٢٩.

١٩٣- لسان العرب ج ١ ص ٦٩١.

١٩٤- مقدمة فتح الباري ج ١ ص ٨٠.

١٩٥- لسان العرب ج ١٣ ص ٣٤٢.

١٩٦- صحيح البخاري باب ما قيل في الصواغ، حديث رقم ١٩٨٣ ج ٢ ص ٧٣٦

١٩٧- طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٢٩؛ تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٩.

١٩٨- الدلالات السمعية ص ٧٢٧.

١٩٩- أسلم يقال هو اسم أبي رافع مولى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو بكنيته أشهر وسياتي هناك وممن جزم بأن اسمه أسلم البخاري. الإصابة ترجمة رقم ١٣٠ ج١ ص ٦٢.

٢٠٠- مسند أحمد حديث أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - ٢٤٣٨٤ ج ٥ من ٢٧١. مجمع الزوائد ج ٤ ص ٢١٥

٢٠١- النور/ ٣١.

٢٠٢- تفسير الطبري ج ١٨ ص ١٢٠؛ مجمع الزوائد ج ٧ ص ٨٢.

٢٠٣- مجمع الزوائد ج ٥ ص ١٤٩؛ الأحاد والمثاني ٣٣٠١ ج ٦ ص ٨٨.

٢٠٤- صحيح مسلم كتاب صلاة العيدين ٨٨٥ ج ٢ ص ٦٠٣. انظر شرح النووي على صحيح مسلم ج ٦ ص ١٧٦.

٢٠٥- سنن ابن ماجة باب ما جاء في صلاة العيدين ١٢٧٣ ج ١ ص ٤٠١؛ سنن البيهقي الكبرى ٥٩٩٥ ج ٣ ص ٢٩٦.

٢٠٦- شرح النووي على صحيح مسلم ج ٦ ص ١٧٦.

٢٠٧- مجمع الزوائد ج ٥ ص ١٥٥.

٢٠٨- نفسه ج ٤ ص ١١٥.

٢٠٩- المنتقى لابن الجارود، حديث رقم ٦٥٤ ج ١ ص ١٦٤.

٢١٠- المنتقى لابن الجارود حديث رقم ٦٤٩ ج ١ ص ١٦٣.

٢١١- نفسه، حديث رقم ٦٤٨ ج ١ ص ١٦٣.

٢١٢- نفسه، حديث رقم ٦٥١ ج ١ص ١٦٤.

٢١٣- صحيح البخاري، حديث رقم ٣٧٢٤ ج ٣ ص ١٣٤٣؛ سنن الدارقطني، حديث رقم ٥٣ ج ١ ص ١٧.

٢١٤- صحيح البخاري، باب المسك، حديث رقم ٥٢٩١ ج ٥ ص ٢١٠١.

٢١٥- صحيح مسلم باب استحباب المسك وأنه أطيب الطيب وكراهة رد الريحان والطيب، حديث رقم ٢٢٥٢ ج ٤ ص ١٧٢٦؛ الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٩٩.

٢١٦- صحيح مسلم، باب الطيب للمحرم ثم الإحرام، حديث رقم ١١٩٠ ج ٢ ص ٨٤٩، سنن أبي داود باب في المسك لميت، حديث رقم ٣١٥٨ ج ٣ ص ٢٠٠؛ التاريخ الكبير ١٧٨٦ ج ٢ ص ٨٨.

٢١٧- مجمع الزوائد ج ٥ ص ١٩٤، شعب الإيمان ٦٤٢٤ ج ٥ ص ٢١٧.

٢١٨- سنن الترمذي باب ما جاء في صفة أهل الجنة حديث رقم ٢٥٣٧ ج ٤ ص ٦٧٨.

٢١٩- سنن الترمذي باب ما جاء في صفة أهل الجنة حديث رقم ٢٥٣٧ ج ٤ ص ٦٧٨، فتح الباري ج ٦ ص ٣٢٤؛ الجامع الصغير للسيوطي، حديث رقم ٥٦٩ ج ١ ص ٣١٠؛ شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٧ ص ١٧٢.

٢٢٠- الديباج ج ٥ ص ٢٢٤.

٢٢١- انظر ص .

٢٢٢- الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٩٩.

٢٢٣- فتح الباري ج ٦ ص ٣٢٤.

٢٢٤- مجمع الزوائد ج ٤ ص ٢٩٢

٢٢٥- مجمع الزوائد ج ٥ ص ١٥٥، المعجم الأوسط ج ٧ ص ١٦٣

٢٢٦- يقول ابن حجر في ترجمة الربيع بنت معوذ ابن عفراء الأنصارية: «قد مضى ذكر نسبها ثم ذكر أبيها وأعمامها لها البغوي ورواية روى عنها أهل المدينة وكانت ربما غزت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال أحمد بن زهير: سمعت أبي يقول: الربيع بنت معوذ بن عفراء من المبايعات تحت الشجرة ذكر الزبير عن عمه مصعب عن الواقدي قال: كانت أسماء بنت مخرمة نثيبع العطر بالمدينة وهي أم عياش وعبدالله ابني أبي ربيعة المخزومي، فدخلت أسماء هذه على الربيع بنت معوذ ابن عفراء ومعها عطرها في نسوة فسألتها فانتسبت الربيع بنت معوذ فقالت لها أسماء: أنت ابنة قاتل سيده تعني أباجهل. قالت الربيع: فقلت: بل أنا ابنة قاتل عبده. قالت: حرام على أن أبيعك من عطري شيئا، قلت: وحرام على أن أشتري منه شيئا فما وجدت لعطر عطرك ثم قمت وإنما قلت ذلك في عطرها لأغيظها». الاستيعاب ٣٣٣٦ ج ٤ ص ١٨٣٧. مسند إسحاق بن راهوية ٤٠٥- ٥- ص ١٤٢

٢٢٧- الإصابة ١١٧٧٢ ج ٨ ص ١٢٤.

٢٢٨- الإصابة ١٠٠٦٧ ج ٧ ص ٥٩٢، شرح النووي على صحيح مسلم ج ١ ص ١١٣.

٢٢٩- الدلالات السمعية ص ٧٠٤.

٢٣٠- مسند الشهاب ١٣٨٢ ج ٢ ص ٢٨٩.

٢٣١- معجم البلدان ج ٢ ص ٤٣٢، مختار الصحاح، ج ١ ص ٨٥؛ الدلالات السمعية ص ٧٠٤؛ شرح النووي على صحيح مسلم ج ١ ص ١٤٢. صيانة صحيح مسلم ج ١ ص ٢١٩.

٢٣٢- سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٠٦.

٢٣٣- معجم البلدان ج ٥ ص ٢١٠.

٢٣٤- فتح الباري ج ١ ص ٤١٤.

٢٣٥- معجم البلدان ج ٣ ص ٣٢٧، معجم البلدان ج ١ ص ٣٣٣.

٢٣٦- صحيح البخاري، باب الذريرة، حديث رقم ٥٥٨٦ ج ٥ ص ٢٢١٦.

٢٣٧- لسان العرب ج ٤ ص ٣٠٤.

٢٣٨- شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٥ ص ٨٥.

٢٣٩- تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٢٦١.

٢٤٠- الدلالات السمعية ص ٧٢٨

٢٤١- صحيح مسلم باب الترغيب في سكنى المدينة والصبر على لأوائها. حديث رقم ١٣٨٠ ج ٢ ص ١٠٠٥.

٢٤٢- صحيح البخاري، باب قول النبي - صلى الله عليه وسلم - إنا بك لمحزونون. حديث رقم ١٢٤١ ج ١ ص ٤٣٩. وقال أبوعمر البراء بن أوس بن خالد بن الجعد بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم ابن مازن بن النجار هو أبوإبراهيم ابن النبي - صلى الله عليه وسلم - من الرضاع لأن زوجته أم برذة أرضعته بلبنها.

٢٤٣- صحيح مسلم باب سؤال اليهود النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الروح وقوله تعالى «ويسألونك عن الروح» الآية ٧٧٩٥ ج ٤ ص ٢١٥٣. صحيح البخاري باب ذكر الغين والحداد ١٩٨٥ ج ٢ ص ٧٣٦. ٧٩٥. الاستيعاب ٦٢٨ ج ٢ ص ٤٣٨.

٢٤٤- مسند ابن الجعد ١١٥٩ ج ١ ص ١٧٩.

٢٤٥- ويظهر ذلك في قول الرسول له لما أسر يوم بدر افد نفسك قال مالي شيء افتدي به قال افد نفسك برماحك التي بجدة قال والله ما علم أحد أن لي رماحا بجدة غيري بعد الله أشهد أنك رسول الله فدى نفسه بها وكانت ألف رمح. الاستيعاب.

٢٤٦- مصنف ابن أبي شيبة، في السيف المحلى والمنطقة المحلاة ج ٤ ص ٢٨٥. المحلى ج ٨ ص ٤٩٦.

٢٤٧- مجمع الزوائد ج ٤ ص ١١٥

٢٤٨- صحيح البخاري باب الاستعانة بالنجار والصناع في أعواد المنبر والمسجد. حديث رقم ٤٣٧. ٤٣٨ ج ١ ص ١٧٢. صحيح البخاري، باب النجار، حديث رقم ١٩٨٨ ج ٢ ص ٧٣٨.

٢٤٩- الدلالات السمعية ص ٧٢٤.

٢٥٠- الدبابات آلات خشبية تسوى لحرب الحصار يدخل تحتها الرجال. لسان العرب ج ٢ ص ٢١٦.

٢٥١- السيرة ابن هشام ج ٥ ص ١٥٥.

٢٥٢- المغازي، تحقيق: مارسدن ط ٣، بيروت: عالم الفكر، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ج ٣ ص ٩٢٤.

٢٥٣- معجم البلدان ج ٢ ص ١٢٦.

أ.د. حياة ناصر الحجي (*)

بعض مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية في سلطنة المماليك

شهد مجتمع سلطنة المماليك في مصر والشام حضار إسلامية تميزت بخصائص منفردة حتمتها عو امل عسكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية وقد كانت الحروب الصليبية على رأس هذه العوامل المؤثرة في ظهور الحضارة الإسلامية وقتذاك بطابع خاص ثم يأتي عامل إحياء الخلافة العباسية في القاهرة بعد انهيارها في بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م أمام جحافل المغول حيث حقق هذا الوضع للمماليك طابع الشرعية الذي افتقدوه عند توليهم السلطة في أعقاب السلطنة الأيوبية لقد استطاع السلطان الظاهر بيبرس البندقداري «٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٢١-١٢٧٧م» بهذا العمل الاستراتيجي أن يحول مركز الثقل السياسي إلى القاهرة، بل لقد كانت هذه الخطوة الكبيرة تتويجا للانتصار الكبير الذي أحرزه المماليك ضد المغول في عين جالوت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ثم شهدت بلاد الشام انتصارا ثانيا لا يقل أهمية عن عين جالوت في موقعة شقحب سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م ليسجل تاريخ بلاد الشام صفحة رائعة في التصدي للأخطار الأجنبية(٢).

كذلك وجه المماليك دفة الجهاد الإسلامي لتحقيق هدف التخلص من الصليبيين في مدن الشام(٣) في عهود السلاطين الظاهر بيبرس البندقداري والمنصور قلاون (٦٧٨-٦٨٩هـ/ ١٢٨٠ - ١٢٩٠م) والأشرف خليل بن قلاون (٦٨٩ - ٦٩٣هـ/ ١٢٩٠ - ١٢٩٤م) وتوجت هذه الانتصارات الإسلامية الرائعة ضد الأعداء الطامعين في البلاد الإسلامية بنجاح الناصر محمد بن قلاون في فترة حكمه الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١ هـ/ ١٣٠٩ - ١٣٤٠م) في تطهير جزيرة

(*) أستاذ بقسم التاريخ

أرواد من الصليبيين الاستيطانية لينعم المجتمع الإسلامى بعد ذلك بمراحل متميزة من الاستقرار والرخاء والازدهار.

لقد تبلور عن واقع الحروب الصليبية فى مصر والشام التى استمرت من ٤٩٠هـ/١٠٩٧مإلى ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م وضعا اجتماعيا حتم تبتدالخ العلاقات الإسلامية الصليبية حيث نتج عن ذلك ظوواهر اقتصادية واجتماعية لها طابعها الاستثنائى حضاريا لقد كانت الرابطة الإسلامية هى الإطار الذى احتوى المماليك وأهالى مصر والشام، ومن ثم كان الانتماء الإسلامى عاملا مهما فى القضاء على الفوارق العرقية واللغوية والحضارية كما كان الانتماء للأرض عاملا أقوى فى توحيد جميع طوائف سكان مصر والشام ليكونوا يدا واحدة تحت القيادة المملوكية فى التصدى للأخطار الخارجية لقد تلقى المماليك تعليما دينيا مفصلا ومكثفا إلى جانب اتقانهم فنون الحرب والفروسية فشكلو طبقة من الفرسان ومثلما حقق إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة هدف الشرعية لحكم المماليك كذلك حقق لهم لدفاع عن مصر والشام وهزيمة المغول والصليبين هدف الشعبيةح بين مختلف الفطوائف الأهلية علاوة على ذلك حقق استخدام الفئات المتعلمة من أهالى البلاد فى دواوين الدولة هدف أولوية المصلحة العامة لمنفعة المجتمع الإسلامى وقد هيأت هذه الأحوال الملائمة طابعا متصلا من الاستقرار والرخاء طيلة قرنين ونصف القرن تقريبا وهى الفترة التى استغرقها حكم المماليك لمصر والشام.

وكما كان لسلطنة المماليك الفضل فى هزيمة المغول وطرد الصليبين كذلك يرجع لها الفضل الكبير فى التصدى للخطط الصليبية التى استمرت طيلة القرنين الثامن والتاسع الهجريين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين وقد نتج عن هذا الاستقرار والسلام ازدهارا اقتصاديا كبيرا فى التجارة والزراعة والصناعة للمجتمع ثروة طائلة كانت لها آثارا إيجابية عظيمة على مختلف مظاهر الحياة فى مصر والشام.

لقد كان نظام الوقف أحد ثمار ذلك المد المادى الغزير الذى حظيت به سلطنة المماليك وشمل الحماس الوقفى المعطاء بناء العديد من المنشآت الفخمة الدينية والتعليمية والاجتماعية مثل الجوامع والمساجد والخانقاوات والأربطة والزوايا والمدارس. إلى جانب دور رعاية الأيتام وأسبلة الماء للإنسان والحيوان كما تحقق هذف الرعاية الصحية من خلال بناء البيمارستانات الكبيرة.

كذلك حرص السلاطين المماليك على حسن رعاية أهل الذمة، حيث أنهم من أهل مصر والشام، بل أنهم تولوا الكثير من المناصب الرفيعة فى الدولة

كذلك يعود الفضل إلى السلاطين المماليك فى وصول الإسلام إلى مناطق أرمينيا الصغرى بين جامعات الأرمن فى سيس وملطية وتل حمدون وقلعة جعبر. وكذلك انتشر الإسلام بين مغول فارس حيث أسلم خان المغول غازان وتسمى باسم محمود غازان فى عهد السلطان الظاهر بيبرس علاوة على ذلك انتشر الإسلام بين جموع مغول القفاجق فى عهد السلطان الظاهر بيبرس وزيادة على ذلك انفردت السلطنة المملوكية لنظام قضائى دقيق اعتماد على تنظيم السلك القضائى حسب المذاهب الفقهية الأربعة وشمل جميع المدن والضواحى والمراكز على التوالى كما صاحب ذلك ارتقاد التعليم وظهور الدراسات الشرعية والقرآنية والقضائية حيث تضمن ذلك الحصول على الإجازات العليا ونظام تصنيف سلك المدرسين من أستاذ ومدرس ومعيد وكان السلطان المملوكى يخشى دائما صاحب الفكر والكلمة ويجله أكبر إجلال ويحرص على رضاء موقفه.

زيادة على ذلك زدهرت العلاقات الدبلوماسية فى سلطنة المماليك فى مماليك آسيا وأوروبا وأفريقيا مثل إيلخانية مغول فارس ومغول القفجاق واليمن والحبشة وأراغون وقشتالة وصقلية وفرنسا وإيطاليا والبابوية وقبائل الكانم فى السودان الأوسط كذلك تميزت التجارة الخارجية بالتعامل بالذهب دون الدينار والدرهم مما يدل على قوة الاقتصاد فى سلطنة المماليك وأنشأ السلطان الناصر محمد بن قلاون ديوان الميزان فى الإسكندرية لإتمام عمليات البيع والشراء بين المسلمين والتجار الأجانب الذين كانت لهم أحياءهم التجارية الخاصة بهم والشاملة كافة الخدمات الاجتماعية وقد هيأت هذه الأحوال المستقرة أرضا خصبة للعلماء حيث تفوقوا فى تاليف الموسوعات العلمية والقواميس اللغوية مثل لسان العرب لابن منظور ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ونهاية الأرب للنويرى وصبح الأعشى للقلقشندى.

ومن الثابت أن وفرة المصادر المخطوطة التى كتبت فى العصر المملوكى دليلا مؤكدا على عمق الاهتمام بالتعليم والعلماء بالإضافة إلى بروز أعلام من الفكر والعلم والمعرفة مازالت أفكارهم مصدرا لكثير من الدراسات فى العصر الحديث مثل بدر الدين ابن جماعة وعز الدين ابن جماعة وابن دقيق العيد وأحمد بن عبد الحليم بن تيمية.

ومن جانب آخر توطدت علاقة السلاطين المماليك بعامة الناس وبذلوا جهودا كبيرة فى سبيل تطوير الأوضاع الداخلية فى المجتمع الشامى والمصرى من أجل أن تحظى هذه الفئة بالخدمات المناسبة فى ظل الحكم المملوكى لقد كان هدف

توفير المواد الغذائية في الأسواق بأسعار معقولة تناسب طبقات العامة محور أعمال السلاطين المماليك وبخاصة في أوقات الغلاء والمجاعات كما سعى هؤلاء السلاطين من أجل توفير الحماية لعامة الناس من خلال الحد من تسلط كبار المسئولين على مصالحهم وممتلكاتهم ومن ناحية أخرى حققت المؤسسات الدينية والتعليمية والاجتماعية منافع عديدة للعامة بالإضافة إلى خدمات المواصلات والري والزراعة مثل الجسور والقنوات والسدود والسواقي والبحيرات العذبة الصناعية والخدائق مثل سرياقوس والأزبكية كذلك عنى السلاطين المماليك عناية بالغة في إلغاء الكثير من المكوس والضرائب التي كانت تشكل عبئا ثقيلا على كاهل تلك الفئات الفقيرة من أهالي البلاد في مصر والشام.

وقد حققت مسئوليات أولئك الحكام تطورا واضحا على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للعامة كما انعكس ذلك إيجابيا على أوضاع ذلك المجتمع حيث ازدهرت كافة مظاهر الحياة فيه، حيث استحق اهتماما كثير من الباحثين المعاصرين.

الأوضاع الاقتصادية

أبعاد الجهاد الإسلامي:

لقد هيأ الإسلام نظاما تشريعيا ودولة مؤسسات استمرت سبعمائة سنة ثم تداعت بالتأثيرات المادية والرغبة في السلطة وقد هيأت هذه الأحوال الصعبة فرصة مناسبة للسلطة البابوية كي تمارس أطماعها في مد النفوذ الصليبي إلى البقاع العربية الإسلامية، إلا أن عامل الجهاد الإسلامي كان فاعلا فتأكا فلعب دورا رائعا في التصدي للأخطار الصليبية على مدى قرنين في العصرين الأيوبي والمملوكي لقد وثق الإسلام رابطة الأخوة بين أعراق مختلفة فوجدت نفسها متحدة يدا واحدة يدافع من الإحساس بالانتماء الاجتماعي الإسلامي ووحدة المصير، ومسئولية الدفاع عن الإسلام والمسلمين تطبيقا للآية الكريمة «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم»(٧) صدق الله العظيم. وقد حققت هذه الجماعات العربية وغير العربية المسلمة عقيدة وجهادا أروع الانتصارات العسكرية مسجلة بذلك نماذج خالدة من التضحية والفداء.

لقد استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يستعيد بيت المقدس من الصليبيين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م كما نجح الأيوبيون والمماليك معا في تحقيق النصر الكبير فارسكور في محرم ٦٤٨هـ / نيسان - أبريل ١٢٥٠م(٨).

ثم توالت انتصارات المماليك ضد التتار سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م في عين جالوت بقيادة السلطان سيف الدين قطز، وضد الصليبيين عندما فتح السلطان

الظاهر بيبرس انطاكية سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م بالإضافة إلى انتصاراته الكبيرة في قيسارية وحيفا ويافا وأرسوف وعثليث وكذلك حقق السلطان المنصور قلاون أجمل الانتصارات ضد الصليبيين في المرقب سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م وطرابلس ٦٨٥ هـ / ١٢٨٩م وأنزل هزيمة منكرة بالمغول في حمص سنة ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م وأخيرا تم فتح آخر معقل صليبي في ساحل الشام بانتصار السلطان الأشرف خليل في عكا سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م وبذلك عادت بلاد الشام بانتصار السلطان وبشكل شامل ومتكامل عربية إسلامية

من الشمال حتى الجنوب غير أن هذه الانتصارات لم تكن كافية للمماليك الذين أرادوا تأمين سلامة حوض البحر الأبيض المتوسط فحرصوا على فتح جزيرة أرواد على يد السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م، ثم جزيرة قبرص على يد الأشرف برسباي سنة ٨٢٨هـ / ١٤٢٧م حيث أسر ملك قبرص، وحمل مقيدا إلى مصر.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه على الرغم من أن الخدمة العسكرية الرسمية اقتصرت على تلك الفئات المملوكية المسلمة إلا أن الشعوب العربية في مصر والشام كان لها دور واضح في أعمال الجهاد الإسلامي ضد أخطار الصليبيين والتتار حيث تجلى ذلك بشكل واضح في التبرع بكل ما تملك في سبيل تحقيق هدف الجهاد الإسلامي(٩) وكذلك بالمشاركة في فعاليات المقاومة الأهلية ضد هؤلاء الأعداء كما حدث سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م عندما تتبع الناس بديار بكر التتار، فقتلوا منهم خلقا كثيرا(١٠).

التقسيم الإداري:

لقد أدرك الأيوبيون والمماليك أهمية حسن إعداد الجيش تدريبا وعتادا، كما تيقنوا من أهمية تطبيق نظام الإقطاع بحيث يتيح ذلك خلق رابطة انتماء المحارب بأرض الإسلام قلبا وقالبا ولهذا حرصت الدولة الإسلامية إبان تلك الحقبة على تنفيذ عملية توزيع الأرض بين المحاربين كل حسب رتبته العسكرية ومسئولياته الدفاعية وقد تيسر ذلك خططا وتنفيذا من خلال إنجاز مشروع التقسيم الإداري الذي عمله صلاح الدين الأيوبي وعرف «بالروك الصلاحي» وقسمت وفقه أرض مصر إلى أربعة وعشرين قيراطا كان للسلطان منها أربعة قراريط، وللأجناد عشرة قراريط وللأمراء عشرة قراريط(١١).

واستمر تطبيق النظام الإقطاعي في عصر سلطنة المماليك حتى تداعى بعد أكثر من قرنين ونصف بعد حدوث التحولات الاقتصادية في العالم المعاصر وقتذاك. والجدير بالذكر هنا أن النظام الإقطاعي المملوكي كان يمثل

التصور النهائى لتأثيرات ثلاثة نظم إقطاعية هى المغولى والإسلامى والأوروبى الوسيط(١٢).

وقد تغير التقسيم الإدارى لمصر، تغيرا جزريا وشاملا بعد الروك الناصرى»(١٣). وهى عملية مسح الأراضى المصرية وإعادة توزيعها فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون عام ٧١٥هـ / ١٣١٥م.

وعند تناول موضوع الروك الناصرى يجب التساؤل عن الأهداف التى تطلع الناصر محمد لتحقيقها من وراء عمل هذا الروك وما طبيعة العوامل المؤثرة فى عملية الروك الناصرى سواء أكانت عوامل سياسية أم عسكرية أم اقتصادية؟

يعد الروك الناصرى ثانى روك للأراضى المصرية فى عهد المماليك البحرية على اعتبار أن الروك الحسامى هو الأول ويبدو أن الناصر محمد أراد أن يعرف على نحو دقيق حجم مساحة الأرض فى مصر، سواء المزروعة أو غير المزروعة من أجل إعادة توزيعها بشكل واضح وفقا لما كان يراه هو شخصيا فى مصلحة مصر وخدمة لأهدافه الظاهرة والباطنة كما يظهر أن الهدف الرئيسى من وراء الروك الناصرى هو تقوية مركز السلطان الناصر محمد عن طريق أولا: إضعاف سلطة كبار الأمراء المماليك من خلال مساحة وإنتاجا وثانيا: زيادة الإقطاعات السلطانية «الخاص السلطانى».

وفى سبيل تنفيذ مشروع الروك الناصرى أرسل الناصر محمد الأمراء المماليك إلى مختلف الولايات والأعمال لقياس الأرض وعبرة كل جزء منها وقد عادت هذه البعثات الأميرية بعد أن أنجزت المطلوب منها سواء ما كان يتعلق بقياس الأرض أو بسجلات كل بلد أو عبرة كل أقليم وفى ذى الحجة سنة ٧١٥هـ نيسان/ أبريل سنة ١٣١٦م بدأ السلطان الناصر محمد فى توزيع الإقطاعات بين الأمراء والأجناد والمماليك بالتتابع وتكمن أهمية الروك الناصرى فيما ترتب عليه من تقسيم إدارى وثقل اقتصادى.

لقد كان الإقطاع مصدرا للدخل تقدمه السلطة إلى الأمير أو الجندى كتمليك مؤقت بحيث يدر عليه سنويا ريعا يتناسب مع رتبته العسكرية.

وفى سبيل إضعاف سلطة الأمراء والأجناد حرص الناصر محمد -إلى جانب تقليص إقطاعاتهم- على تفريق الإقطاع الواحد فى عدة جهات فيلحق بالمقطع الكثير من التعب وزيادة الكلفة وتفتيت السلطة علاوة على ذلك اعتبر الناصر محمد ما كان يقدمه الفلاحون إلى الأمراء من العسل والحبوب واللحوم، والكعك، والدواب، وهو ما كان يعرف باسم «حق الضيافة» جزءا

أساسيا مما يتحصل للأمراء والأجناد فى إقطاعاتهم.

وعلى ذلك فإن أرض مصر قسمت إلى أربعة وعشرين قسما قيراطا وزعت كالآتى: عشرة قراريط لصالح الخاص السلطانى وأربعة عشر قيراطاً يتم توزيعها كأقطاعات بين الأمراء والأجناء وبذلك فإن مخصصات السلطان تكون قد تضاعفت مرة ونصف المرة عما كان عليه الوضع أيام الروك الحسامى.

ويشير ابن الجيعان إلى هذه النواحى التى خصصت بأكملها لصالح الخاص السلطانى أو الخاص الشريف فمن ذلك على سبيل المثال من أقليم ضواحى القاهرة ناحية «منيل الفولاذ» وعبرته ٥٠٠ دينار وناحية «منيل الزجاج» وعبرته ٢٥٠٠ دينار ومدينة نسترواه وعبرتها ١٦٥٠٠ دينار وكذلك البرلس وبلطيم وعبرتها ٣٤٠ دينارا أما سنجار فقد كانت عبرتها ٨٠٠٠ دينا. ثم أصبحت ٤٠٠٠ دينار لديوان الخاص الشريف وهكذا يعدد ابن الجيعان عددا كبيراً من النواحى والأقاليم التى كانت مخصصة للخاص السلطانى(١٤).

ومن ثم يمكن القول بأن مشروع الروك الناصرى ومال ترتب عليه من توزيع الإقطاعات المختلفة وهى العملية التى استغرقت خمسة شهور تقريبا قد تمخضت عن تغييرات عديدة ومهمة.

ولا شك أن تنفيذ الروك الناصرى قد أرسى قواعد أساسية فى تنظيم النهج المملوكى فى توزيع الرواتب العسكرية حيث قسمت مصادر الدخل فى الأقاليم بين السلطان والأمراء وبالتالى أمكن تحديد الأعداد المطلوبة من الحاميات العسكرية بما يتناسب مع الرواتب المصروفة لمختلف الفئات والرتب العسكرية ومن خلال هذا التنظيم أصبح السلطان هو القائد المباشر للجيش المملوكى والمتصرف الوحيد بمختلف مصادر الدخل فى البلاد.

ويلاحظ فى مصر فى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى أن إقطاعات ولاة الأقاليم كانت جميعها مبعثرة أو أغلبها خارج حدود الأقليم الذى ورثوا السلطة فيه جيلا بعد جيل.

وهكذا توزعت إقطاعات ولاة الأقاليم خارج حدود أقاليم ولا يتهم، وذلك للحيلولة دون ممارسة والى الأقليم لسلطته داخل حدود الإقليم لما فيه مصلحته الشخصية علاوة عما يهيئه ذلك من تقويض سلطة الولاة حين تكون إقطاعاتهم مصدر قوتهم المادية- بعيدة عن مناطق نفوذهم بل ومبعثرة فى مناطق متعددة.

وقد أجبرت المسافة البعيدة بين المدن التى يقطنها صغار المقطعين وبين إقطاعاتهم فى المناطق النائية أن يعمل هؤلاء على وضع إقطاعاتهم تلك

تحت حماية شخصيات قوية للعناية بها مقابل مبلغ من المال يجمعونه من الفلاحين، ويقتطع من الأجور التى يدفعونها إلى المقطعين.

وقد خصصت مناطق عديدة من النواحى فى الأعمال المختلفة للعربان وإن كان يلاحظ أنها متباعدة ومجزأة بدافع من الرغبة فى إخضاعهم لنفوذ السلطة المركزية المملوكية.

كما اعتنى عند توزيع إقطاعات أجناد الحلقة بأن تكون متباعدة فى مناطق مختلفة من أجل إضعاف مكانتهم فعلى سبيل المثال حرص ألا يجاور إقطاع كبير تابع لأمير مملوكى ذى رتبة عسكرية عالية إقطاع زميل له من نفس الرتبة، بل تكون المسافة بين إقطاعى هذين الأميرين متباعدة.

وقد استمر نظام هذا التقسيم الإدارى المملوكى فى مصر أكثر من قرنين ونصف، ولعل من أسباب هذا الاستمرار والثبات هو استقرار الأوضاع الإدارية لملائمتها للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وقد هيأ الروك الناصرى التنظيم الإدارى المطلوب للديار المصرية ولعل الدليل على ذلك استمراره لفترة طويلة و اعتماد المؤرخين المعاصرين عليه فى تسجيلاتهم الإحصائية لمصر طيلة العصر المملوكى.

ويبدو أنه لم يكن هناك تعارض بين عمليتى التقسيم الإدارى وتوزيع الإقطاعات، ولذا يلاحظ أنه مع ثبوت عملية الأقسام الإدارية منذ الروك الناصرى إلا أن توزيع الإقطاعات كان فى حالة تغير مستمر، بل إن التغيير فى توزيع الإقطاعات ارتبط ارتباطا وثيقا باعتلاء سلطان جديد كرسى السلطنة، أو تحول زمام الأمور إلى يد أحد كبار الأمراء المماليك.

وعلى ذلك يمكن القول بأنه إذا كان التقسيم الإدارى لمصر فى زمن المماليك يتضمن بين ملامحه الطابع الإسلامى من الناحية الاقتصادية والصبغة الأوروبية الوسيطة من الناحية الإدارية فإنه يحمل بالتأكيد صفة مملوكية بحتة من الناحية السياسية والعسكرية.

وهكذا استخدم السلاطين المماليك أسلوبا اقتصاديا لتحقيق أهداف سياسية، ومنهجا إداريا واجتماعيا لتحقيق مآرب عسكرية إذ لا يمكن إطلاقا القول بأن الروك كان مشروعا اقتصاديا أو إداريا فقط فقد تمخضت عن إتمامه أهداف سياسية وعسكرية لم تغب عن أنظار المؤرخين المعاصرين ولم يفتهم بالتالى تسجيلها.

إذن كان الروك الناصرى مشروعا ناجحا جاء بعد دراسة متأنية ليملك

من أسباب القوة الذاتية ما يسر له حقبة طويلة من الثبات.

أما على المستوى الشعبى فيلاحظ أن الروك الناصرى قد خفف كثيرا من الأعباء المالية التى عانى منها الفلاحون فى العهود السابقة.

فى الوقت نفسه أكد الروك الناصرى النفوذ العادى للحكومة المركزية وذلك بمضاعفة ما كان تحت يدها من مساحات زراعية واسعة وزيادة الوارد لبيت المال من النقد درهما أو دينارا.

كما أن توزيع إقطاعات الأمراء بين أقاليم مصر المختلفة فى الوجهين البحرى والقبلى أضفى على كافة النواحى والأعمال القريبة والنائية الصغيرة والكبيرة أهمية بالغة ومتساوية واختفى ما كان يعرف بالمناطق المهملة أو قليلة الأهمية أو عديمة المنفعة ولابد أن يصاحب هذه الأهمية الإدارية اهتمام اقتصادى بمعطيات الناحية، وعناية اجتماعية بحاجاتها وهذا ما يعرف بالنهضة الإدارية الشاملة التى شهدتها مصر خلال هذه الحقبة من حكم المماليك.

ولا شك أن أكبر دليل على هذا القول كتابات المعاصرين من إحصائيات تفصيلية دقيقة لجميع النواحى والأقاليم حيث توضح مساحتها بالفدان وعبرتها بالدينار دون إهمال أى ناحية أو قرية بعيدة أو قريبة صغيرة أو كبيرة، زراعية أو غير زراعية ومن المؤكد أن هذه القوائم الإحصائية تعتبر مظهرا اقتصاديا متقدما يوضح عناية ودقة الجهاز الإدارى فى سلطنة المماليك[٩٥].

العلاقات الإسلامية الصليبية:

ولعل من أهم مظاهر العلاقات الإسلامية الصليبية فى منتصف القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى ذلك النشاط التجارى بين المسلمين والصليبيين والذى بلغ قمته فى تلك الفترة مع وجود الممالك الصليبية فى ساحل الشام، الأمر الذى جعل الملك الفرنسى لويس التاسع بعد هزيمته فى فارسكور وأسره ثم فداء نفسه أن يتوجه نحو عكا سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠ م كى يعمل على الحد من رغبة التجار الأوروبيين فى التبادل التجارى مع التجار المسلمين[٩٦]. إلى جانب أن هذا النشاط التجارى مكن المسلمين من الحصول على المواد اللازمة لصناعة السفن الحربية والسلاح اللازم للجهاد الإسلامى مثل الأخشاب والحديد والبياض الأمر الذى يخالف رغبة السلطة البابوية والدول الصليبية فى إقامة ممالك صليبية فى ساحل الشام[٩٧].

ومن العوامل التى ساعدت على قيام حركة النشاط التجارى فى ساحل

الشام إبان الاحتلال الصليبى الموقع الاستراتيجى للمنطقة إلى جانب تنوع منتوجاتها حيث حصلت أوروبا الغربية على كافة احتياجاتها من السكر والقماش[١٨] فى حين حرص تجار المدن الإيطالية على شراء المنسوجات الحريرية والكتانية بالإضافة إلى الصناعات الزجاجية وكان الإقبال شديدا فى أسواق أوروبا الغربية على شراء التوابل والأصباغ والعطور والحرير والخزف القادم من أسواق مصر والشام[١٩].

وكانت بداية هذا التبادل التجارى فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى وبلغ قيمته فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى.[٢٠] وتكثفت السفن الأوروبية بنقل مختلف أنواع السلع والبضائع من موانئ مصر وساحل الشام مثل الإسكندرية وبيروت وطرابلس حيث تحملها عبر البحر الأبيض المتوسط إلى موانئ أوروبا الغربية ثم تعود من هناك بأنواع أخرى من البضائع ذات الطلب فى المدن الإسلامية ومن جانب آخر احتكر التجار المسلمون كافة أنواع النشاط التجارى الخاص بالسلع الشرقية القادمة من شرق آسيا وشرق أفريقيا[٢١]. وتميز البحر الأحمر بدور كبير فى تجارة العبور «الترانزيت» التى بلغت الأوج فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى الأمر الذى رغب الصليبيون فى السيطرة عليه. ولكن صلاح الدين الأيوبى تصدى لهم وأفشل محاولتهم وأنزل بهم هزيمة فادحة[٢٢]. وقد حقق هذا الوضع الاقتصادى المتنامى فرصة كبيرة لسلطنة المماليك كى تكبر وتنشط فى علاقاتها مع البلدان الأخرى الشرقية والغربية على حد سواء حيث هيأ لها هذا الوضع أرباحا وفيرة كانت عاملا فعالا فى الرخاء الاقتصادى والاستقرار الاجتماعى اللذين شهدهما مجتمع مصر والشام فى تلك القرون المتأخرة من العصور الوسطى. وقد حصل التجار الأوروبيون على امتيازات كبيرة فى موانئ مصر والشام، كما حصل التجار المسلمون على ذات الامتيازات فى الدول الأوربية الغربية[٢٣] وتطورت العلاقات التجارية إلى مرحلة تبادل السفراء والرسائل الدبلوماسية بين سلطنة المماليك والإمبراطورية البيزنطية[٢٤] علاوة على توثيق مثل تلك العلاقات الدولية مع المدن الإيطالية. وممالك أراغون وقشتالة وصقلية[٢٥].

وقد اهتم سلاطين المماليك بتوفير الراحة والأمان لجميع التجار القادمين إلى الموانئ والثغور فى جميع سواحل مصر والشام[٢٦].

وقد عنى التجار الأوربيون وبشراء التوابل والكارم والفلفل والعطور والبخور والمعادن والمنسوجات الحريرية وكان يؤتى بالفلفل من شرق أفريقيا والهند والشرق الأقصى حيث تزاحم التجار الأوربيين على شرائه على

الرغم من ارتفاع سعره[٢٧].

وقد نتج عن هذا التبادل التجارى الكبير والشامل بين سلطنة المماليك ودول أوروبا الغربية أن سعت الأخيرة إلى عقد الاتفاقيات الدولية مع سلطنة المماليك كى يتهيأ لها علاقات تجارية أوسع مع التجار المسلمين فى موانئ ومدن مصر والشام[٢٨].

والجدير بالذكر أن عدد التجار الأوربيين فى مصر فى القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى بلغ ثلاثة آلاف تاجر[٢٩]. من المدن الإيطالية والممالك الأسبانية وفرنسا بل أن السلطة فى سلطنة المماليك سمحت للجاليات التجارية القادمة من هذه الدول والمستقرة فى موانئ وثغور ومدن سلطنة المماليك أن تقيم لها محاكم خاصة بها تطبق ذات القوانين السارية فى تلك الدول عند النظر فى جميع أنواع الخلافات التى قد تنشب بين تجارها[٣٠] كما تهيأ لهذه الجاليات التجارية حرية الاستقرار والأمان فى الأحياء الخاصة بها فى هذه المناطق الإسلامية إلى جانب ما توفر فيها من خانات ووكالات وكنائس وحمامات عامة[٣١].

كما شهدت الإسكندرية عددا من القناصل يمثلون الدول الأوروبية ذات الاهتمامات التجارية ومن بين هؤلاء القنصل البندقى الذى التقى به الراهب ماريوإسبوزيتو Mario Esposito فى أبريل سنة ١٣٢٤م أثناء قيامه برحلته إلى مصر[٣٢].

وقد أدى نمو التبادل التجارى بين الأوربيين والمسلمين إلى ظهور الكثير من الكلمات الأجنبية فى اللغة العربية مثل كلمة فندق وقنصل وقبسارية وغيرها[٣٣].

وهكذا مع انحصار المد الصليبى عن ساحل الشام بدأت الجهود الأوروبية واضحة تسعى إلى إقامة علاقات دبلوماسية مع سلطنة المماليك بعد أن حقق هؤلاء انتصارات رائعة فى الساحل الشامى ففى أعقاب انتصارات المنصور قلاون (٦٨٧ - ٦٨٩هـ/ ١٢٨٧ - ١٢٩٠م) فى المرقب سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥م واللاذقية ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م وطرابلس سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م وصلت إلى البلاط المملوكى بعثة دبلوماسية من قبل الملك الأرغوانى ألفونس الثالث (١٢٨٥ - ١٢٩١م) بالاتفاق مع ملك صقلية جميس حيث كان القصد من هذه السفارة عقد أو معاهدة بين سلطنة المماليك ومملكتى أراغون وصقلية[٣٤].

وتلا ذلك عقد معاهدة دبلوماسية أخرى سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨١م بين سلطنة المماليك ومملكة قشتالة بل أن ملك أراغون جميس الثالث لم يتردد فى الإفراج عن سبعين من الأسرى المسلمين المحتجزين فى مملكة أراغون منذ فترة طويلة

والجدير بالذكر أن نصوص هذه الاتفاقيات الدبلوماسية تضمنت استعداد الممالك الأوروبية للوقوف إلى جانب سلطنة المماليك فى حالة تعرضها لأى عدوان يأتى من أى كيان أوروبى(٣٧).

وقد تم عقد المعاهدة الدبلوماسية الثانية بين سلطنة المماليك ومملكة أراغون سنة ٦٩٢هـ / ١٢٩١م فى أعقاب الانتصار الكبير الذى حققه الأشرف خليل بن قلاون فى فتح عكا آخر معقل صليبى فى ساحل الشام(٣٨).

وهكذا بدأت حقبة جديدة من العلاقات الدبلوماسية بين سلطنة المماليك والممالك الأوروبية حيث أدركت الأخيرة عدم جدوى الحروب التى لا تحقق سوى دمار العلاقات الدولية. ومن هنا كان حرص جميع الدول شرقا وغربا على إقامة علاقات صداقة مع سلطنة المماليك حيث يذكر المقريزى ضمن حوادث سنة ٧١٦هـ / ١٣١٦م وفيها قدمت رسل أزبك ورسل الكرج ورسل طغاى قريب أزبك بهدايا فأجيبوا وسيرت إليهم الهدايا، فاجتمع فى هذه السنة ثمانية رسل وهم جوبان وأبى سعيد وأزبك وطغاى وصاحب برشلونة وصاحب اسطنبول. وصاحب النوبة وملك الكرج، وكلهم يبذل الطاعة ولم يتفق فى الدولة التركية مثل ذلك(٣٩).

كذلك شهد البلاط المملوكى فى سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م قدوم سفراء الأمبراطورية البيزنطية ومملكة أراغون وأرمينيا الصغرى ومملكة مغول القفجاق ومملكة مغول فارس ومملكة النوبة ومملكة جورجيا(٤٠) فى سبيل توثيق العلاقات مع سلطنة المماليك وتحقيق الاتفاقيات السياسية والامتيازات الاجتماعية والمصالح الاقتصادية ويلاحظ بين هؤلاء الرسل شخصيات تمثل البابا يوحنا الثانى والعشرين، تؤكد رغبة البابوية زعيمة الدعوة الصليبية والحملات العسكرية فى بناء علاقات مودة وسلام مع سلطنة المماليك وتبع البابوية فى نهجها الجديد هذا ملك فرنسا شارل الرابع حيث أرسل سفراء إلى بلاط الناصر محمد فى مبادرة طيبة من أجل إقامة علاقة صداقة مع سلطنة المماليك.

وعلى ذلك يمكن القول بأن هذه السفارات قد حققت الكثير من الأهداف التى جاءت من أجلها، إذا كان السلاطين يبذلون الجهد فى هذا المضمار حرصا على الروابط الطيبة التى تربطهم بهذه الدول لقد شهدت حقبة اضمحلال وسقوط المعاقل الصليبية فى ساحل الشام بداية عصر جديد من هذه العلاقات الدولية التى كانت تهدف إلى إرساء قواعد علاقات جديدة قائمة على الثقة والإخلاص لما فيه خدمة المصالح المشتركة بين مجموعات هذه الدول فى مجالات التبادل التجارى، والتواصل الاجتماعى، والتكامل الاقتصادى.

العامة والأحوال الاقتصادية فى العهد المملوكى:

١- ظاهرة الغلاء وأسبابها:

تعتبر الحياة الاقتصادية فى أى مجتمع إنسانى من أكثر المظاهر تأثرا بالوضع السياسى السائد فى ذلك المجتمع كما أنها تعتبر أشد الجوانب تأثرا بما يحدث فى تلك الدائرة الاجتماعية من تغييرات سياسية وانعكاسات ناتجة من تطور طبيعة المنهج المتبع فى نظام الحكم بالإضافة إلى ذلك وجد نوع من الارتباط الطردى بين الاستقرار السياسى والازدهار الاقتصادى فى جميع المجتمعات الإنسانية بدون استثناء.

وقد كان الغلاء من أكثر الظواهر الاقتصادية إضرارا بالعامة فيقاسون الجوع والمرض حيث ينتشر الوباء بين فئاتهم المختلفة وينالهم أوخم العواقب. وغالبا ما كان الجفاف وتوقف نزول المطر هو السبب الرئيسى لحدوث الغلاء كما حدث فى سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م فى عهد السلطان العادل كتبغا واشتدت الأزمة:

وتزايد الوباء بحيث كان يخرج من كل باب من أبواب القاهرة فى كل يوم ما يزيد عن سبعمائة ميت ويغسل فى الميضأة من الطرحاء فى كل يوم نحو المائة والخمسين ميتا ولا يكاد يوجد بابا أحد من المستورين بالقاهرة ومصر إلا ويصبح على بابه عدة أموات قد طرحوا حتى يكفنهم ويدفنهم فيشتغل نهاره بهم، ثم تزايد الأمر فصارت الأموات تدفن بغير غسل ولا كفن، فإنه يدفن الواحد فى ثوب ثم ساعة ما يوضع فى حفرته يؤخذ ثيابه حى يلبس لميت آخر فيكفن فى الثوب الواحد عدة أموات.

وكذلك اشتد الغلاء ببلاد الشام والحجاز «حتى أبيعت الغرارة القمح فى مكة بألف ومائتى درهم.

٢- الدلالات التى تحملها ظاهرة الغلاء:

١- إن توقف زيادة النيل كان يؤدى بشكل حتمى إلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية.

٢- كان الأمراء فى أثناء حكم سلطان ضعيف يمارسون حقهم فى عدم بيع القمح والمخزون فى شونهم باستثناء أولئك الأمراء الذين اتسموا بالخلق الكريم.

٣- كان هناك من الأمراء المماليك من رغب فى عمل الخير ومساعدة المحتاجين والفقراء من العامة حتى ولو كان ذلك على حساب تحقيق الربح المادى.

٤- خروج العامة مع بقية الناس برفقة الخطباء لتأدية صلاة الاستسقاء والدعاء من الله تعالى لنزول الغيث.

٥- عادة الربط عند الناس بين شخص السلطان الجديد وما يحدث عند اعتلائه كرسى السلطنة من ارتفاع أو انخفاض فى الأسعار فإذا ارتفعت الأسعار فهو نذير شؤم وإذا انخفضت الأسعار فهو دليل خير.

٦- الشجاعة التى اتصف بها العامة فى التعبير عما فى نفوسهم من مقت وكراهية للسلطان ونائبه.

٧- تعرض العامة لغضب السلطان الجالس على كرسى الحكم بسبب إظهارهم ما يشعرون به نحوه من بغض وحقد فكان ينالهم نتيجة جرأتهم ألوان من العقوبات الشديدة.

٨- الشعبية الواسعة التى تمتع بها السلطان الناصر محمد بين صفوف العامة سواء فى أثناء توليه الحكم أو حين اعتزاله فى الكرك.

٩- تعتبر العلاقة الودية بين السلطان الحاكم وبين عامة مصر سببا أساسيا فى قيام دولة قوية تتميز بالعدل الاجتماعى إلى جانب الاستقرار السياسى.

١٠- كانت الأغانى الشعبية تمثل صورة بسيطة وصادقة وطبيعية فى تعبير العامة عما فى نفوسهم بسبب عدم وفاء النيل.

الوضع الاقتصادى المعاصر لهذه الحقبة فى دولة المماليك:

١- إقدام بعض الصيارفة على تزييف النقد فى سبيل تحقيق مزيد من الفائدة المادية والربح الشخصى

٢- انتشار العملة الورقية فى دمشق فكان ذلك سببا رئيسيا لتزايد ظاهرة الغش فى النقد.

٣- كان ارتفاع الأسعار فى الأسواق نتيجة حتمية وفورية للتزييف فى النقد

٤- عندما صدر الأمر السلطانى بوزن الفلوس بحيث يكون كل رطل من الفلوس يساوى ثلاثة دراهم فضة. أغلق التجار حوانيتهم نتيجة الخوف من حيازة نقود مزيفة.

٥- تهاون السلطة مع المزيفين كان دافعا مشجعا لهم للتمادى فى ضرب نقد مزيف يحمل ختم الحكومة.

٦- كان العامة أكثر الناس تضررا بظاهرة التزييف النقدى هذه خاصة صغار التجار منهم.

٧- جرأة العامة على المجاهرة العلنية أمام الناصر محمد عن سوء معاناتهم الاقتصادية

٨- موقف الناصر محمد الصارم من الأمراء الذين حرصوا على تخزين الغلال فى الأهراء والشون حتى تنتهى الأزمة.

٩- فى سبيل حل الأزمة عمل الناصر محمد على سك عملة نقدية جديدة تحمل ختم حكومى مميز لكى تعود الثقة إلى النقد.

٢- جهود الناصر محمد من أجل حل مشكلة الغلاء:

وكان لابد من حل سريع لمشكلة الغلاء ولذا بادر الناصر محمد إلى طلب الغلال من الأقاليم المملوكية وخاصة المدن الشامية بأن يسرع حاكمها ونوابها وولاتها بحمل الغلال إلى القاهرة على الفور بالإضافة إلى ذلك اجتهد فى إصدار مرسوم سلطانى رسمى بتحديد سعر القمح بثلاثين درهم الإردب، ومن باع بأكثر من ذلك نهب ماله وصودرت حواصله.

ومن الظواهر غير العادية التى شهدتها السنوات الأخيرة من عهد الناصر محمد ما يذكره المقريزى أنه فى عام ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م «اتضح سعر الغلال حتى أبيع الأردب القمح الصعيدى بعشرة دراهم».

هذه الحادثة تبين بشكل واضح أن بعض كبار المسئولين فى الدولة عندما تنخفض الأسعار لا يناسبهم بيع غلالهم حسب تلك الأسعار المنخفضة إذا لا يحقق ذلك لهم ما يطمحون فيه من الربح الوفير.

وعلى ذلك يمكننا القول إنه لولا وجود سلطان يتميز بقوة الشخصية والصلابة مع التمسك بمبادئ العدل والمساواة بين الرعية ولولا توفر بعض المسئولين أصحاب الأمانة والخلق الكريم لعانى العامة الضعفاء الكثير من صور الظلم ومظاهر الاستعباد والتعسف على يد كبار الموظفين الذى لا يعنيهم سوى جنى الربح والمنفعة الواسعة حتى ولو كان ذلك على حساب معاناة الغالبية العظمى من الرعية أصحاب البلاد الأصليين.

٤- مظاهر الغلاء فى عهد الناصر محمد:

كذلك من مظاهر الغلاء التى قاساها عامة الناس فى عهد الناصر محمد تلك الواقعة التى حدثت فى ربيع الآخر سنة ٧٤٠هـ تشرين الأول- أكتوبر سنة ١٣٣٩م نودى بالقاهرة أن يكون صرف الدينار بخمسة وعشرين درهما بعدما كان بعشرين درهما.

وبذلك نلاحظ عادة بعض السلاطين المماليك فى الاستدانة من كبار

التجار فى القاهرة لتوفير حاجات خاصة ومطالب شخصية، حيث كان ذلك بواسطة ناظر الخاص القائم بالشئون المالية فى الخزانة السلطانية.

علاوة على ذلك كانت هجرة أهل الريف إلى المدن. وكذلك عدم الأمان فى الطرقات العامة بين المدن والأقاليم نتيجة حوادث النهب والسلب للمسافرين على يد قطاع الطرق.

كما كان الصراع الدائم والمشاحنات المستمرة بين القبائل البدوية وجماعات العربان فى الصعيد والصحراء الغربية والصحراء الشرقية وأقاليم بلاد الشام من العوامل التى كانت تشكل عناصر رئيسية فى حدوث ظاهرة الغلاء فى المدن الرئيسية بشكل خاص والمناطق بصورة عامة.

ويشير المقريزى إلى إحدى ثورات العامة التى وقعت فى محرم سنة ٧٤٩هـ نيسان - أبريل سنة ١٣٤٨م عندما رجمت العامة ابن الأطروش المحتسب.

طبيعة الوضع الاقتصادى فى العهد المملوكى:

أولا: تحديد السلطة المسئولة عن الشئون الداخلية لسعر الخبز من أجل الاستقرار فى الأسعار بحيث تصبح ثابتة فى سبيل راحة المواطن.

ثانيا: بيع بعض الخبازين الخبز بسعر أقل مثل ثمانية أرطال خبز بسعر درهم واحد.

ثالثا: معاقبة المحتسب لهذا الخباز وضربه من أجل أن يتقيد بالسعر الرسمى المحدد من الحكومة.

رابعا: العامة الذين يناسبهم كثيرا السعر الرخيص القليل لكمية كبيرة من الخبز.

خامسا: قبض الوالى على عدد من العامة ومعاقبتهم جزاءا وعقابا على ما اقترفوه فى حق المحتسب من الرجم والإهانة.

سادسا- كان من المفروض أو بالأحرى من الممكن أن نتقبل بشكل عادى مسألة وقوف العامة إلى جانب المحتسب ضد التجار، غير أننا نلاحظ هنا وقوف العامة إلى جانب التجار ضد المحتسب وهو أمر لا شك غريب ويستحق الدراسة.

سابعا: خوف المحتسب من ظاهرة انخفاض سعر الخبز. ربما لأن ذلك قد يؤدى إلى رخص سعر القمح.

وكان عدم حدوث فيضان مياه النيل من الأسباب الرئيسية التى يترتب

عليها ارتفاع سعر المواد الغذائية فإذا توالى حدوث ذلك فى سنوات متعاقبة تصبح الخسارة فى كمية المحاصيل الزراعية جسيمة وتزداد أسعار الأطعمة والأقوات بشكل فاحش يهدد بوقوع كارثة اقتصادية وأزمة اجتماعية يعانى منها الناس بمختلف طبقاتهم.

٦- صور من العطف السلطانى والأميرى:

وبناء على استفحال محنة ارتفاع الأسعار وشدة مقاساة عامة الناس من الجوع والفاقة والمرض والوباء وانتشار الموت بين طبقة العامة بوجه خاص، اجتهد أصحاب السلطة فى مد يد العون إلى أولئك المتألمين الجياع حيث تم توزيعهم على الأمراء المماليك الأغنياء فيتكفل كل أمير بإطعام عدد من الفقراء والعناية بهم حتى تنتهى الأزمة.

وفى شهرى رجب وشعبان ٧٧٦هـ كانون الثانى -يناير، شباط- فبراير سنة ١٣٧٥م اشتد الغلاء فبلغ سعر الزردب القمح مائة وخمسة وعشرين درهما والأردب الشعير تسعين درهما والأردب الفول ثمانين درهما، والبطة الدقيق زنة خمسين رطلا بأربعة وثلاثين درهما.

وفى رابع عشرين شعبان انتدب الأمير منجك نائب السلطان لتفرقة الفقراء على الأمراء وغيرهم فجمع أهل الحاجة والمسكنة

فلما فنى معظم الفقراء وخلت دور كثيرة خارج القاهرة ومصر لموت أهلها فشت الأمراض من أخريات شهر رمضان فى الأغنياء.

وفى أول ذى القعدة وصلت تراويج القمح الجديد فانحل السعر وعلى ذلك التلاحم الشعبى حيث يخرج الجميع لأداء صلاة الاستسقاء.

٧- نتائج ظاهرة الغلاء فى مصر العهد المملوكى:

أولا: دور القضاء والفقهاء فى رعاية عامة الناس فى أثناء هذه المحن، حيث يجتهدون فى التخفيف من آلام الناس وأحزانهم.

ثانيا. كان بعض الناس يرجع أسباب المحن إلى الحالة الأخلاقية السيئة التى يعيشها بعض الناس. وبالتالى كان عقاب الله تعالى نتيجة طبيعية لهذه الظاهرة.

ثالثا: مشاركة الأمراء الكبار مثل اقتمر عبدالغنى نائب السلطنة بالديار المصرية ووعدد من طبقة الأمراء المماليك الأوليجاركية لعامة الناس فى الخروج إلى منبر قبة النصر خارج القاهرة للدعاء إلى الله لنزول الغيث.

رابعا: انعدام الثقة بين المسئولين الإداريين في الدولة مثل الوالي والمحتسب وبين العامة الذين يرون في وجود هؤلاء الأشخاص.

خامسا: كان تكرار المحن الاقتصادية والأزمات الاجتماعية عاملا فعالا في تزايد أسعار المواد الغذائية بحيث يتعذر تخفيضها عند عودة الوضع إلى حالته الطبيعية العادية.

سادسا: تلازم ظهور أزمة الغلاء والجوع والمرض والوباء حيث تكون الأخيرة نتيجة طبيعية للظاهرة الأولى ولا يخفف من آثارها السيئة سوى جهود السلطة.

سابعا: انتشار الشحاذة والسؤال بين طوائف الحرافيش والأوباش والبطالين حيث تزدحم طرقات مدينة القاهرة بهؤلاء الشحاذين يسألون الناس الصدقة.

وقد شهدت دولة المماليك خلال هذه الفترة تكرار تهالك الناس في طلب الغلال والبقول لحفظها في المخازن والأهراء والشون ثم بيعها عندما تشتد الأزمة بسعر أعلى لتحقيق ربح أكبر

٨-المناسبات الدينية:

وتعتبر مواسم الحج مناسبات خاصة يوليها السلاطين عناية كبيرة حيث يغرقون الكثير من أموالهم وصدقاتهم وزكاتهم على فقراء البيت الحرام ولم يقتصر الحرص على إنجاز الخير في أثناء تأدية فريضة الحج على الأمراء والمماليك وإنما شمل ذلك الحكام المسلمين في البلاد القريبة والبعيدة دون تميز.

يظهر أن المنصور قلاون عندما أسس البيمارستان وخصص لتمويله الأوقاف الكثيرة كان يتطلع إلى قصدين رئيسين:

أولا: توفير المال اللازم لاستمرار البيمارستان في تقديم الخدمات المطلوبة منه في مجالات الطب والوقاية والتمريض.

ثانيا: استثمار هذه الأوقاف حسب القواعد المشروعة في نظام الوقف الإسلامي لتحقيق الربح المادي الكثير.

(٩) بعض المنكرات المنتشرة في المدن المملوكية:

١- وجود الحانات والخمارات التي يعكف مرتادوها على شرب الخمر دون رقابة أو عقوبة.

٢- اعتداء الأمراء المماليك على حقوق التجار والعامة في سبيل تحقيق شيء من المنفعة الشخصية.

٣- تعود الأمراء وكبار تجار المدينة ورجالاتها على تقديم الهدايا الغالية إلى النائب كي يغض بصره عما يقترفونه من مظالم وتطاول على حقوق الآخرين.

٤- إهمال المساجد والمدارس والأوقاف إلى درجة الخراب الواضح

٥- عدم ملاحظة تقاسيم المياه والمجاري والطرق إلى حد عدم صلاحيتها في تأدية الوظائف المطلوبة لتحقيق خدمة المصلحة الشاملة.

٦- توقف الناس الميسورون عن دفع الزكاة للفقراء رافضين المبدأ الإسلامي القائل بحق الفقير في مال الغني.

٧- انتشار عادة تسخير العامة في الأعمال الشاقة دون أقل تقدير لقدراتهم الجسمانية أو الفكرية أو المعنوية مما كان له أثر كبير في بروز صورة اجتماعية واضحة.

٨- استفادة نواب المدن من وجودهم في مناصبهم تلك مما يتيح لهم فرصة ملائمة لتحقيق الكثير من الفوائد الخاصة والمنافع الشخصية.

(١٠) النتائج المترتبة على بعض المظاهر الاقتصادية في المجتمع المملوكي:

١- ارتباط حالة الوضع الاقتصادي في البلاد بكيفية طبيعة النظام السياسي القائم في الدولة.

٢- تعرض البلاد لحالة عدم استقرار سياسي يؤدي بشكل فوري وحتمي إلى ارتفاع الأسعار.

٣- كانت الطبقة العامة هي الطائفة الأكثر تأثرا بظاهرة ارتفاع الأسعار حيث تزداد معاناتهم من الجوع.

٤- كانت صلاة الاستسقاء من أكثر الظواهر الاجتماعية التي تصور أصدق نموذج للتلاحم الشعبي الطبيعي بين مختلف الطبقات دون تمييز.

٥- تكرار قدوم جماعات الوافدية إلى سلطنة المماليك سواء من فارس أو التتر.

٦- انتهاز بعض القصابين في كثير من الأحوال أزمة ارتفاع الأسعار، فيلجأون إلى بيع لحوم الكلاب والقطط على أنها من لحم المواشي.

٧- تعرض سلطنة المماليك لفترات من الجوع المهلك حيث تكون المجاعة سببا فى أكل الناس لحم الميتة من أجل البقاء وعدم مواجهة الموت بسبب الجوع.

٨- اتباع بعض السلاطين المماليك عادة إلزام كبار الأمراء والأغنياء من التجار وأصحاب العقار التكفل بإطعام عدد من الفقراء الجياع على أن يكون لدى كل ميسور عدد معين من هؤلاء المعدمين يتناسب مع وضعه المادى.

٩- ارتباط حالة الانتعاش الاقتصادى فى البلاد بظاهرة ارتفاع النيل.

١٠- عادة الأمراء المماليك تخزين الغلال فى الأهراء والشون وقت الغلاء والمجاعة والوباء لتحقيق عدة أهداف.

١١- موقف بعض السلاطين من هؤلاء الأمراء الطامعين، وإلزامهم ببيع الغلال من شونهم فى الحال حسب الأسعار الحكومية المقررة.

١٢- ارتباط حالة الوضع الاقتصادى فى الأقاليم المملوكية ببعضها كأعضاء فى جسم واحد. فحينما يحدث غلاء فى إقليم الشام يمتد تأثير ذلك إلى مصر.

١٣- ظاهرة قيام بعض الصيارفة بتزييف النقد وطرحه فى الأسواق على أنه عملة حكومية رسمية مختومة.

١٤- الجرأة والشجاعة التى اتصف بها العامة فى مواجهة السلطان الحاكم بالظلم الذى يعانونه بسبب الفساد الاجتماعى أو طمع وجشع التجار.

١٥- العرف الذى اتبعه بعض السلاطين فى إباحة النهب والسلب للعامة من غلال الأهراء التى يخزنها الأمراء ويمتنعون عن بيعها.

١٦- اعتياد بعض كبار المسئولين فى الدولة طرح بضائعهم فى الأسواق بأسعار غالية دون رقابة الحكومة. بل إجبار الناس على شرائها بهذه الأثمان الباهظة.

١٧- وجود بعض كبار الموظفين المخلصين فى سلطنة المماليك، حيث اجتهدوا فى إصلاح الأحوال والحيلولة دون وقوع الظلم.

١٨- كان السلطان المملوكى لا يجد مانعا من أن يستلف بعض المبالغ من التجار للصرف على متطلبات البلاط السلطانى، وحاجاته الشخصية فى الترفيه والمتعة من حيث اعتبر هذه العادة أمرا طبيعيا.

١٩- تلاعب الجهاز الحاكم بقيمة الدينار المملوكى من الدرهم حيث

تعرضت الدولة أكثر من مرة لظاهرة التضخم المالى.

الأحوال الاجتماعية

طبيعة الوضع الاجتماعى:

لقد شهد العالم الإسلامى فى أعقاب الحروب الصليبية ظواهر اجتماعية كانت بمثابة عوامل حاسمة فى خصوصية الصورة الاجتماعية التى ميزت المجتمع الإسلامى إبان هذه الحقبة.

لقد حركت الحروب الصليبية مشاعر الجهاد الإسلامى لدى شعوب هذا المجتمع الإسلامى فشاركت فى الدفاع عن عقيدتها وأرضها ضد الأخطار الأجنبية، وتولى العلماء والقضاة والفقهاء مهمة تنظيم الصفوف الأهلية وقيادتها من أجل الوصول إلى مقاصدها فى الأمان والسلام والاستقرار (٤١).

لقد أبلت الطبقات الشعبية بلاء خالدا فى الدفاع عن بلادها مصر والشام (٤٢)، مؤكدة أن دورها فى تطهير هذه الأرض لا يقل أهمية عن دور الجيوش النظامية بالرغم فى سبيل تحقيق الهدف الواحد النفس والمال على حد سواء (٤٣).

وقد نتج عن هذا التلاحم والتآخى نوعا جديدا من العلاقة بين الشعوب والحكام اختفى عبر قرون من طغيان الحضارة المادية. وأحس الجميع بوحدة الانتماء لهذه الأرض، وضرورة استمرارها بيد السلطة الإسلامية التى تحمل راية الدفاع عن كل من يستقر عليها بسلام وأمان.

لقد اتسمت العلاقات الاجتماعية الإسلامية الصليبية فى بلاد الشام بالحقد والكراهية بين الصليبيين وشعوب البلاد خلال القرن الأول من الاحتلال الصليبى (٤٤). ولكن عوامل الاستقرار والتداخل والتعامل أدى إلى ظهور علاقات اجتماعية مشتركة، وقد انعكس ذلك بشكل واضح فى ظهور الطابع الشرقى فى قصور كبار الصليبيين مثل اتساع الأفنية والسجاد الشرقى والرياش الجميلة والزجاجيات الملونة والأوعية النحاسية، وكذلك فى ارتداء الصليبيين الملابس الشرقية الفضفاضة (٤٥). وأصبحت المرأة الشرقية نموذجا لنساء الفرنجة فى اللباس والزينة (٤٦). كما تعودت المطابخ الفرنجية إعداد الأطعمة والمشروبات العربية (٤٧). وشهدت الحمامات الشرقية العامة إقبال الصليبيين نساء ورجالا مثل غيرهم من أهل البلاد (٤٨).

ومع انتهاء الوجود الصليبى فى ساحل الشام ظهرت التأثيرات الإسلامية واضحة فى مجتمع أوروبا الغربية بإنشاء المدارس والبيمارستانات أسوة بما هو موجود فى المجتمع الإسلامى (٤٩).

أما الوضع الاجتماعي في مصر وبلاد الشام في ذلك الوقت فقد تكون من عناصر عديدة أهمها:

١- السلطان هو أمير قوي حاكم حسب مبدأ «الأول بين أقرانه».

٢- الأمراء هم مجموعة فرسان تجمع بينهم روابط التعاون في حالة تعرض مصلحة البلاد للخطر. فإذا انتفى الخطر كان الهاجس هو المنفعة الشخصية والوصول إلى كرسي السلطة.

٣- العامة وكان صوتهم دائما عاليا ومسموعا ويصل إلى دور السلطان والأمراء داخل أسوار القلعة بمختلف الوسائل والطرق.

٤- طبقة التجار من أهل البلاد، وكانت علاقتهم وثيقة بالطبقة الحاكمة من المماليك. كما كانت مساهماتهم في أوقات الأزمات واضحة.

٥- فئة العلماء والقضاة والفقهاء وكانوا على علاقة وثيقة بكل من أصحاب السلطة والعامة على حد سواء.

وقد كان تفاعل هذه العناصر الاجتماعية عاملا بناء في تطور المجتمع الإسلامي عبر تلك العقود المهمة من تاريخ العالم العربي الإسلامي.

لقد كان المماليك جماعات أجنبية من البلاد المختلفة شرق وشمال وغرب العالم الإسلامي. ولكنهم نجحوا رغم أجنبيتهم، وغربتهم العرقية واللغوية وبفضل استمرارهم في حكم مصر والشام أكثر من قرنين ونصف. ونتيجة لصفات الكفاءة العسكرية، والتفاني في خدمة المصلحة العامة. ومراعاة حقوق الرعية أن يشيدوا بناء اجتماعيا متماسكا استطاع تجاوز الكثير من المحن السياسية والأزمات الاجتماعية. لقد أثبتت الحوادث المختلفة حرص عدد من الأمراء المماليك على تقديم المساعدات لعامة الناس. كما اجتهد كثير من السلاطين على تحديد أسعار مناسبة لمختلف الحاجات الضرورية في الأسواق، مع العمل على ثبات هذه الأسعار في أوقات الغلاء.

كذلك حظي مجتمع مصر والشام بوجود عدد من العلماء والفقهاء والقضاة والباحثين عن العلم والمعرفة. فتهيأت بذلك أرض خصبة للتفوق الحضاري. كما أن المؤسسات السلطانية الدينية والاجتماعية والتعليمية أوجدت رابطة قوية بين تلك الطبقة المتعلمة الحريصة على النهوض بالمستوى التعليمي والاجتماعي للناس وبين فئات الشعب على مختلف طبقاتهم.

نظام الوقف:

بالإضافة إلى ذلك كانت رغبة المماليك في التقرب إلى الشعب من الأسباب

التي أدت إلى ازدهار الوقف في أيام المماليك. فقد تعددت وتنوعت المظاهر والوسائل الداخلية التي مارسها المماليك للتقرب إلى الشعب خدمة لكل فئة. فوجدت الجوامع والمساجد لأهل الدين وأحبائه، والمدارس لطالبي العلم والتعليم، والأربطة والزوايا مأوى للفقراء المحتاجين، والخانقاوات للصوفية المتعبدين [٥٠]. وبالنتيجة زادت أوقاف العصر زيادة كبيرة، استلزمها الإنفاق على هذه المراكز.

فما أن ينتهي العمل من إنشاء مسجد أو تشييد مدرسة أو بيمارستان أو إقامة خانقاة [٥١]، حتى يكون الرصد في الأوقاف قد استوفى عددا هائلا من الدور والأراضي والأجزاء، لتكون مصدرا شرعيا ثابتا للصرف. يمكن هذه المؤسسات من القيام بوظائفها كاملة وبصفة مستمرة. وقد اشترك في تدعيم هذه الرابطة الدينية مع الشعب، السلاطين والأمراء وزوجات السلاطين على حد سواء، وحسب قدراتهم المالية.

وقد بلغت غزارة الجوامع والمساجد في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي أنه «صارت الجملة مع ما تجدد من الخطب بالمدارس في الدولة الناصرية إحدى وثلاثين خطبة [٥٢]. كما شيدت ثلاثة جوامع في دمشق هي: جامع تنكز الحسامي، وجامع كريم الدين الكبير، وجامع شمس الدين غبريال. وكان التجديد والتنظيم في الجوامع والمساجد مستمرا ولم يقتصر على الهندسة المعمارية، بل شمل أوقاف هذه المؤسسة الدينية وجميع العاملين فيها من علماء وفقهاء.

وإلى جانب ذلك شهد العصر المملوكي بناء الخانقاوات، ولعل من أشهر الخانقاوات «خانقاة سرياقوس» التي كانت أنموذجا للتنظيم الداخلي، والاكتفاء الذاتي المعيشي في الخانقاة، ويمكن القول بأن الخانقاة كانت توفر للصوفي كل ضروريات الحياة المعيشية، من مسكن وطعام وملبس ومصروف ورعاية صحية وعناية اجتماعية. ومن ثم تهيئ له مناخا دينيا مناسبا لممارسة التصوف. والقيام بالفرائض. والتقرب إلى الله بالدعاء وقراءة الكتاب الكريم، والعزلة الروحانية أو بعبارة أخرى الانقطاع شبه الكلي للعبادة.

ويلاحظ هنا أن الاهتمام بتحديد أعداد الصوفية المقيمين والواردين كان يهدف إلى المحافظة على مستوى المعيشة داخل الخانقاة، وبالتالي توفير الراحة لكل فرد فيها، حيث إن زيادة أعداد الصوفية سيؤدي إلى انخفاض مستوى المعيشة، وبالتالي عدم ارتياح الصوفية.

نظام القضاء:

علاوة على ذلك كانت الحاجة ملحة إلى نظام قضائي عادل يحقق هدف الاستقرار الاجتماعي الذي سعى إليه السلاطين المماليك. كما اقتضى التغير في العناصر الحضارية المؤثرة وجود جهاز قضائي شامل ودقيق في سلطنة المماليك (٥٣). فظهر المنصب القضائي الجديد المسمى «قضاء القضاة»، حيث أصبح لكل مذهب من المذاهب الفقهية الأربعة «قاضي القضاة» (٥٤). ويتبع كبير القضاة هذا جهاز إداري متخصص في مختلف الشئون القضائية والشرعية من أجل تنظيم العمل، وتوفير الخدمة القضائية المطلوبة للرعية، وتأكيدا لمبدأ التخصص، خصص للعسكر المملوكي أكثر من قاض للإشراف على احتياجاته الشرعية والاجتماعية.

وكان الوصول إلى هذه المناصب العليا، يتم بناء على ترشيح من المجالس العالية، ثم موافقة من السلطان شخصيا، حيث يصدر مرسوما سلطانيا شريفا حسب القواعد المتعارف عليها حينذاك بالتعيين في هذه المناصب الرفيعة الأربعة.

واستنادا إلى ابن بطوطة، الرحالة المعاصر الذي زار مصر سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م، يمكن القول بأنه كان يوجد في مصر خلال هذه الفترة أربعة رؤساء للقضاء وهم قاضي القضاة الشافعية، وقاضي القضاة المالكية، وقاضي القضاة الحنفية، وقاضي القضاة الحنابلة. ويذكر ابن بطوطة أنه وجد عندما جاء إلى مصر أن قاضي قضاة الشافعية كان أعلى القضاة الأربعة منزلة، وأكبرهم قدرا، وبيده تعيين القضاة بمصر وعزلهم. وكان آنذاك القاضي بدر الدين محمد بن جماعة «ت ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٢م» (٥٥).

وقد تميز النظام القضائي في زمن المماليك بحرص بعض السلاطين المماليكي على الجلوس للقضاء، فالناصر محمد بن قلاوون أعلن في جمادى الأولى سنة ٧١١ هـ/ أيلول – سبتمبر سنة ١٣١١ م، أنه سوف يداوم على الحضور إلى «دار العدل» كل يوم اثنين، للنظر في شكاوى الرعية، وبالفعل بدأ الناصر محمد في الحضور إلى «دار العدل» كل يوم اثنين. ويضيف ابن بطوطة وكل يوم خميس أيضا. واستمر الناصر محمد على عادته هذه في الجلوس في «دار العدل» يومي الاثنين والخميس طوال العام، فيما عدا شهر رمضان. ويبدو أن جلوس السلطان في «دار العدل» يوم الخميس كان من أجل بعض الأمور الأخرى في الحكم والدولة (٥٦).

وكان نظام الجلوس في «دار العدل» أن يجلس السلطان المملوكي في صدر

القاعة، ويقعد قضاة القضاة الأربعة عن يساره، حيث يكون أعلاهم منزلة في الجلوس قاضي قضاة الشافعية، ثم قاضي قضاة الحنفية، ثم قاضي قضاة المالكية، ثم قاضي قضاة الحنابلة، ولكن بعد وفاة قاضي قضاة الحنفية شمس الدين الحريري، «ت ٧٢٨ هـ/ ١٣٢٧م» جعل السلطان الناصر محمد مكانه، مما يلي قاضي قضاة المالكية، على أساس أن العادة كانت هكذا من قبل، وتم تنفيذ ذلك منذ ذلك العهد. كما كان الحضور يشمل أيضا الخليفة العباسي، ونائب السلطنة، والوزير والوكيل الشخصي للسلطان.

أما عن طبيعة القضايا التي ينظر فيها السلطان في «دار العدل» فهي تلك التي أعيت من دونه فصلها، أي ما استعصى على كبار القضاة البت فيها، واستلزم الأمر أن تعرض على السلطان شخصيا للحكم فيها، ولاشك أن في ذلك رغبة أكيدة لتحقيق العدل، فعندما تستنفد كل الأجهزة المسئولة في الدولة طاقاتها الشرعية في إبداء رأي مناسب بقضية ما، فإن المدعي يحق له طرق باب آخر لابد أن يتوافر فيه حل ملائم، ألا وهو عرض القضية بين يدي السلطان، كي يفصل فيها برأي عادل، بعد أن يتشاور في الموضوع مع القضاة الأربعة المتواجدين في «دار العدل»، وجميع كبار المسئولين في الدولة، وبذلك يصبح عند كل صاحب قضية مستعصية أمل أخير في حل عادل على يد السلطان في «دار العدل». وعلى ذلك يمكن القول بأن «دار العدل» هذه كانت بمثابة «محكمة العدل السلطانية» أو «محكمة الاستئناف العليا»، بالمفهوم المعاصر اليوم، للنظر في القضايا الشائكة والمؤجلة. وكان الرأي فيها جماعيا يتم بتشاور السلطان مع قضاة المذاهب الأربعة، وكبار الإداريين. ولاشك في أن تسمية هذا المجلس القضائي السلطاني بـ «دار العدل» يمثل رغبة سلطانية في نشر العدل بين الرعية، وحصول أصحاب القضايا المعقدة على حل مناسب من السلطان ذاته مباشرة.

ولاشك في أن حرص السلطان المملوكي على وجود هؤلاء القضاة الكبار الأربعة، مع استمرارية حضوره إلى «دار العدل» بانتظام، دليل على عنايته البالغة في توافر الحماية الاجتماعية اللازمة للفرد. كما كان السلطان أيضا حريصا على أن يكون الفصل في الموضوعات التي تعرض وفقا لمبدأ الشورى، والتشاور، من أجل التوصل إلى حكم عادل ومناسب لأصحاب الشأن.

ومن المؤكد أن مجلس الشورى السلطاني هذا يمثل درجة متقدمة من الوعي الحضاري بأهمية توفير حق العدالة الاجتماعية للفرد، سواء أكان من الخاصة أم العامة. ولكن هذا لا يعني المثالية المطلقة لذلك الوضع، فقد يحدث أنه عندما تتعارض المصلحة الشخصية للسلطان مع مصالح بعض

الأفراد أن يكون الحكم السلطاني لصالح الطرف الأول غير أنه – إنصافا للحقيقة – يجب القول بأن السلطان على الرغم من عنايته أحيانا بمصالحه الخاصة، فإن ذلك لم يكن دائما على حساب المصلحة العامة وحقوق الأفراد.

أحوال العامة:

أما عن أحوال العامة [٥٧] خلال هذه الحقبة المهمة من التاريخ الإسلامي فقد جاءت الإشارات عن العامة في مصادر التاريخ الإسلامي في عصر المماليك المخطوطة والمكتوبة في شكل صياغة ضمنية للحوادث ولم يكن أبدا موضوعا بحد ذاته، لقد اهتم كبار المؤرخين في عصر المماليك بالحوادث الكبيرة، ووقائع الجهاد الإسلامي، وأعمال السلطان وعلاقته بالأمراء المماليك، ولم يكترثوا في ذكر العامة إلا إذا اقتضى سرد الوقائع ذكرهم بشكل عابر.

هذه الإشارات العابرة تدل على أن العامة كانوا إحدى ركائز المجتمع الإسلامي في مصر والشام في ظل حكم المماليك. ويمكن ذكر بعض الملاحظات عن العامة خلال هذه الفترة المهمة من التاريخ الإسلامي كما يلي:

- العامة هم جمهور الناس من عامة الشعب.

- كانت علاقة العامة بالسلاطين المماليك مباشرة، وقوية، ومتفاعلة.

- الحوادث السياسية أثبتت أهمية وجود العامة ثم ولاؤهم ثم ثلاحمهم مع السلطة الحاكمة.

- ارتبطت علاقة العامة بالسلطان بطبيعة استقرار الحياة الاقتصادية، لقد رفض العامة حكم السلطان كتبغا بسبب وقوع المجاعة ثم الطاعون، وابتهجوا لحكم السلطان حسام الدين لاجين نتيجة انفراج الأزمة سنة ٦٩٦ هـ/ ١٢٩٦ م [٥٨].

ويتجلى الدور السياسي للعامة فيما يلي:

١- ظاهرة التأييد الشعبي التي حرص العامة على إظهارها نحو بعض السلاطين تعتبر ظاهرة غير عادية لطبقة حرمت من كل شيء في بعض الأوقات.

٢- مشاركة العامة في الوفود الرسمية عند وقوع المفاوضات بين السلطان الغاضب والمماليك الأقوياء تدل على أهمية دورهم في المجتمع [٥٩].

٣- تميز العامة بالشجاعة في التعبير عن مشاعرهم ومواقفهم نحو كثير من الحوادث، فكلفهم ذلك أحيانا الكثير من العقاب الجسماني الشخصي.

٤- شارك العامة في جميع أنواع الاحتفالات مثل حفلات افتتاح جامع

جديد، [٦٠] أو مدرسة، أو خانقاة، أو تأمير بعض المماليك، أو استقبال السلطان العائد من الشام أو من الحج، أو من الجهاد ضد المغول أو ضد الصليبيين.

ومما يدل على تفاعل العلاقة بين الحاكم الشرعي والعامة أنهم عملوا في بعض الأحيان كعيون أو جواسيس ينقلون للسلطان ماذا يجري في الأسواق والأحياء والأنحاء. كما حرص العامة على المشاركة في جميع الاحتفالات الخاصة بالسلاطين الذين تمتعوا بشعبية بينهم، فكانوا يحرصون على الهتاف باسم السلطان، وترديد الأهازيج الشعبية، والاصطفاف على جانبي الطرق وفي أعلى أسطح المنازل ابتهاجا لرؤية السلطان. ومن هؤلاء السلاطين الذين حظوا بشعبية كبيرة المنصور قلاوون والأشرف خليل والناصر محمد بن قلاوون والسلطان الظاهر برقوق، والسلطان المؤيد شيخ والسلطان الأشرف برسباي والسلطان الأشرف قايتباي.

ومن أهم وسائل تودد السلاطين إلى العامة هي عنايتهم بإنشاء بيمارستانات والجوامع والمساجد والمدارس والخانقاوات والزوايا والأربطة ودور السبيل لرعاية الأيتام، حيث استفاد العامة من هذه المؤسسات العلمية، والمراكز الاجتماعية ودور الإرشاد والرعاية رجالا ونساء وأطفالا.

وقد كان الصراع المستمر بين الأمراء في سبيل السلطة من أهم الأسباب التي دعمت الروابط العميقة بين السلطان والعامة، حيث حرص السلاطين المماليك على إرضاء العامة، فاعتبر العامة أنفسهم قائمين على مصلحة السلطان الذي أدرك أن العامة يشكلون قوة يمكن أن يعول عليها كثيرا في ظل تنافس الأمراء على السلطة [٦١].

وبالإضافة إلى ذلك عمل كثير من السلاطين على كسب ولاء العامة بواسطة إلغاء الضرائب والمكوس مثل السلطان حسام الدين لاجين والناصر محمد والظاهر برقوق [٦٢]. كما كانت الصدقات من وسائل كسب محبة العامة فأكثر كثير من السلاطين توزيع الصدقات في مختلف المناسبات خاصة الدينية منها، كذلك تتجلى مظاهر العطف السلطاني على العامة في إنشاء «دار الأيتام» للنظر في مصالح الأيتام وحفظ التركة للقصر منهم حتى بلوغهم سن الرشد.

ومن جانب آخر شعر العامة بأهمية العلاقة المباشرة والقوية التي ربطتهم بالسلطان خاصة أن لقاء السلطان شخصيا كان أمرا سهلا وميسرا في «دار العدل» وغيرها [٦٣]، علاوة على أن كون القضاة القائمين على تطبيق قواعد الشرع الشريف من الشعب، مع تواجدهم المستمر في المجلس السلطاني جعل

العامة يشعرون دائما بأن هناك من يمثلهم، ويدافع عن مصالحهم بحضور السلطان وكبار الأمراء.

لقد شارك العامة في الكثير من التجمعات السياسية [٦٤]، إما لهدف المناداة بعودة السلطان المخلوع للحكم، أو لعزل السلطان المغتصب، أو للمطالبة بالإصلاحات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، وظهرت أبسط صور الرفض العامي الجريء لبعض القيود القسرية في إغلاق الأسواق والتوقف عن حركة البيع والشراء. فإن لم يتغير الوضع قاموا بنهب منزل من يقترف الظلم ضدهم سواء الناظر أو القاضي أو المحتسب.

وعندما كان يتعذر الاتصال بالسلطان بسبب إقفال «دار العدل» لمرض السلطان، أو لاحتمال حدوث فتنة يلجأ العامة إلى الحمام الزاجل - وسيلة البريد المعتمدة محليا - فيرسلون بواسطته الرسالة تلو الرسالة عبر أسوار القلعة، حيث يطلع السلطان على ما يجرى في شوارع القاهرة وأحيائها من مختلف الأمور والشئون. واعتبر العامة حق المطالبة بالإصلاحات السياسية أمرا مشروعا [٦٥]، لهم فمارسوه بمختلف الوسائل، إما بالتحدث فيه مع قاضي القضاة الذي غالبا ما يتخذ مجلسه في أحد الجوامع أو المدارس، أو بالتجمعات الشعبية حول أسوار القلعة والهتاف عاليا بضرورة التحدث مع السلطان مباشرة، أو برسائل الحمام الزاجل الذي لعب دورا كبيرا في الاتصال البريدي بين العامة والسلطان، أو بإغلاق الأسواق والدكاكين وتجميد النشاط الاقتصادي بمختلف صوره وأشكاله، أو باقتراف النهب في ممتلكات الفئة المتسلطة.

ومن ناحية أخرى تعرض العامة للتعسف والظلم والغبن في أوقات مختلفة كان السلطان فيها لا يملك من أمر نفسه شيئا، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر أن الأمير قوصون - أقوى الأمراء في عهد السلطان المنصور أبوبكر - أجبر العامة على إنارة الشوارع في أرجاء القاهرة ليلا بإنارة الشموع فيها على حسابهم الخاص. فتحمل العامة ذلك الظلم قهرا، فلما كانت فتنة قوصون للاستيلاء على الحكم، ثم هزيمته وقتله كان العامة هم الجماعة التي نهبت دوره وإسطبلاته ومخازنه فلم تبق على شيء فيها إطلاقا [٦٦].

إلى جانب ذلك كثيرا ما كان التحالف السلطان الشعبي يأخذ مكانه في مواجهة الفتن الأميرية الساعية لتحقيق الرغبات الشخصية من أجل تحقيق الاستقرار الشامل في البلاد وهو الهدف الذي سعى إليه العامة دائما [٦٧]. وقد تجلى هذا التحالف السلطاني - الشعبي دائما في تحقيق الانتصار الكبير ضد المؤامرات الأميرية الهادفة للاستيلاء على السلطة [٦٨]، كما أثبتت الحوادث على

مر العقود إدراك المماليك السلطانية والأمراء المستقلين بإيجابية تحالفهم مع العامة، فتم ذلك مرارا وتكرارا في مواجهة جميع الفتن [٦٩]، وقد أعطت هذه الأهمية السياسية للعامة حق العمل من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية، فلم يسلم من له يد في أسباب الفساد من الملاحقة والنهب بما في ذلك بعض القضاة والخطباء والمحتسبين ونظار الأوقاف والدواوين [٧٠].

كما كان للعامة في كثير من الأحيان دور كبير في التعيينات الإدارية مثل تعيين وال أو عزل آخر، أو تنصيب خطيب صلاة الجمعة أو توقيف آخر عنها، أو مطاردة المحتسب وتعيين آخر. بالإضافة إلى ذلك اعتبر العامة أنفسهم دائما قائمين على استتباب الأمن في البلاد، فكانوا لا يترددون في ملاحقة من يعمل على زعزعة الاستقرار داخل البلاد. وقد ارتبطت العلاقة الطيبة بين العامة وأصحاب السلطة ارتباطا طرديا مع استقرار الأوضاع، وكان توتر تلك العلاقة يؤثر سلبيا على استقرار المجتمع، ولهذا حرص أصحاب السلطة على تلبية مطالب العامة السياسية الاقتصادية والاجتماعية دائما من أجل هدف استقرار الأوضاع، وكان إهمال مطالب العامة سببا رئيسيا في تهديد مظاهر الاستقرار بمختلف صوره.

وكثيرا ما كان العامة يظهرون تعاطفهم مع السلطان الضعيف، أو الطفل المسلوب الإرادة، فينظمون أنفسهم لرفض تسلط كبار الأمراء، حيث يضطر هؤلاء الأمراء خوفا من حدوث كارثة اجتماعية أو انتشار أعمال السلب والنهب، أو تحويط أسوار القلعة، إلى الرضوخ إلى مطالب هؤلاء العامة، كذلك حرص عدد كبير من السلاطين على تنفيذ الأحكام الشرعية فتوطدت علاقاتهم بالعامة.

علاوة على ذلك أثبتت الحوادث وجود محاولات جادة بين أصحاب السلطة والعامة للقضاء على مظاهر الفساد في مختلف فترات حكم المماليك في مصر والشام، ولعل أبرزها تلك العلاقة الوطيدة بين نائب الشام تنكز الحسامي والشاميين على مدى واحد وثلاثين عاما من النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي [٧١].

لقد اجتهد العامة كثيرا في تقديم الخدمات للسلطة وفي مناهضة جميع أنواع الأخطار الأجنبية التي هددت مدن مصر والشام وكافة الثغور الإسلامية على سواحلهما [٧٢]. وكانت نوايا الأمراء المماليك المصلحين صادقة في التعاون مع العامة للانتقام من أصحاب النفوذ الظالمين، مثل نائب الإسكندرية الأمير الحاج آل ملك والأمير برقوق والأمير تنكز الحسامي والأمير بكتاش الفخري ناظر الجيش وغيرهم. كما أثبتت الحوادث تعاون أصحاب

السلطة والعامة معا على رضوخ الفرنجة لمبادئ الشريعة الإسلامية في نيابات مصر والشام وثغورهما (٧٣)، وتحدوا بذلك معارضة الطامعين إلى تحقيق المنافع المادية على حساب مصلحة البلاد.

وكان وقوع فتنة في القلعة من أجل السلطة يعني اضطراب الأوضاع السياسية، وبالتالي تشنج حركة النشاط الاقتصادي، وإغلاق الأسواق، وكافة الحوانيت، فترتفع الأسعار، ويشتد الغلاء، فلا يجد العامة بدا من الوقوف إلى جانب السلطة الشرعية ومناهضة أصحاب المنافع الذاتية تحقيقا للاستقرار الاجتماعي والرخاء الاقتصادي. لقد كان هدف الاستقرار السياسي والعدالة الاجتماعية، مطلب الأغلبية، فانتصر النظام القائم في الاستمرار أكثر من قرنين ونصف شهدت فيها بلاد مصر والشام أجمل صور الجهاد الإسلامي. علاوة على ذلك حرص عدد كبير من السلاطين على تنفيذ الأحكام الشرعية فتوطدت علاقتهم بالعامة.

المرأة والمجتمع:

كذلك تمتعت المرأة بقسط وافر من الاحترام في عصر سلاطين المماليك، والأدلة على هذا كثيرة في مصادر تاريخ هذه الحقبة. ولاشك في أن الفضل الكبير للنصر الساحق الذي حققه المسلمون ضد الصليبيين مع أسر قائدهم لويس التاسع في موقعة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠م يعود بالدرجة الأولى إلى حكمة شجر الدر، وحسن تدبيرها، وفطنتها السياسية. فنجحت في استمرار حالة الاستقرار الداخلي في البلاد، مع شحذ النفوس بمشاعر الجهاد الإسلامي من أجل تطهير البلاد من الصليبيين، ونصرة الإسلام والمسلمين، وقد قال فيها المؤرخ ابن تغرى بردي: «وإليها غالبا تدبير الديار المصرية في حياة سيدها الملك الصالح وفي مرضه وبعد موته، والأمور تدبرها على أكمل وجه»(٧٤). لقد كان لهذه السلطانة شرف التاريخ، كما استحقت العلامات المؤكدة للسلطة وهي: الخطبة وسك النقود، فكانت أكثر السلطانات المسلمات شهرة، ولم ينسها المؤرخون أبدا.

بالإضافة إلى ذلك فقد شهد عصر سلاطين المماليك أدلة واقعية كثيرة تثبت دور نساء السلاطين والأمراء في شئون الدولة لهدف الاستقرار والعدالة، فلقد تمتعت أم السلطان السعيد بركة ابن الظاهر بيبرس بنفوذ عظيم بين أمراء الدولة، لذا فعندما نشب الخلاف الشديد سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م بين السلطان السعيد بركة وأمرائه لم يجد خيرا من أمه ليبعث بها للتفاوض مع الأمراء في الصلح، فأظهروا لها التبجيل والاحترام، وتوصلت معهم إلى شروط اتفقوا عليها من أجل إخماد الفتنة، واستقرار البلاد.

كذلك كانت خوند جلبان زوجة السلطان الأشرف برسباي التي «عظمت حرمتها في الدولة وقصدها الناس لقضاء حوائجهم.. وكانت من عظماء النساء ولو عاشت حتى تسلطن ولدها العزيز يوسف، لكانت تبرت ملكه أحسن تدبير»، (٧٥) وهكذا يمكن القول بأن المرأة المسلمة تمتعت بنفوذ واسع في عصر سلاطين المماليك، كما سخرت هذا النفوذ من أجل مساعدة المظلومين، ولإخماد الفتن، ورفع الضرر عن العباد.

أما في مجال العلم فإن المؤرخ السخاوي يسجل أسماء الكثيرات من النساء ممن اشتغلن بالنحو ونظم الشعر مثل فاطمة ابنة القاضي كمال الدين محمود بن شيرين، وكانت بينها وبين المؤرخ شمس الدين محمد السخاوي كثير من المراسلات الشعرية، فأشاد بها وبشعرها في كتابه الضوء اللامع، وأشار أكثر من مرة إلى علاقته الأدبية بها (٧٦).

أما في مجال الفقه والحديث والتدريس بهما فتكفي الإشارة هنا إلى أم زينب فاطمة بنت عباس شيخة رباط البغدادية التي وصفها المقريزي بأنها «سيدة نساء زمانها»، وذكر عنها أنها «كانت فقيهة وافرة العلم زاهدة قانعة باليسير عابدة واعظة، حريصة على النفع والتذكير، وانتفع بها كثير من نساء دمشق ومصر، وكان لها قبول زائد، ووقع في النفوس» (٧٧).

ودأبت كثيرات من هؤلاء الفقيهات والمحدثات على التنقل بين الشام ومصر شأن فقهاء ذلك العصر، للسماع من كبار المحدثين والفقهاء والعلماء، كذلك اختصت بعضهن في الحديث بصحيح البخاري في قلعة الجبل، إلى جانب الفقهاء مثل ست الوزراء التي حدثت بصحيح البخاري في القاهرة والفسطاط (٧٨).

والجدير بالذكر أن كثيرا من فقهاء عصر المماليك سمعوا من بعض المسندات الشهيرات اللاتي قمن بتدريس هؤلاء الفقهاء والإجازة لهن. وقد اعترف هؤلاء الفقهاء الكبار بمكانة هؤلاء العالمات وفضلهن في التدريس والعلم، فابن حجر أحد علماء القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي يذكر في كتابه «إنباء الغمر في أنباء العمر»، أنه حصل على إجازتين من شمس بنت ناصر الدين محمد، والثانية خديجة بنت العماد الصالحية (٧٩)، كما أجازت لابن حجر أيضا ملكة ابنة الشرف عبدالله المقدسية التي درست علم الحديث على أيدي كبار المحدثين في ذلك العصر مثل إسحق الأمدي والشيرازي(٨٠).

علاوة على ذلك يصف المؤرخ السخاوي كيف تزاحم طلبة العلم في عصره على أنس ابنة عبدالكريم زوجة المؤرخ ابن حجر العسقلاني التي حدثت في

حياته وبعد وفاته. ويفخر السخاوى أنه ممن أخذوا الحديث عنها (٨٤).

وقد خصص المؤرخ السخاوى جزءا كاملا من كتابه «الضوء اللامع» لترجمات هؤلاء العالمات العاملات فى التدريس، مما يؤكد كثرة إقبال عامة نساء عصر المماليك على مجالس العلم والدين، ولاشك فى أن العمل فى مجال العلم طلبا وعطاء هو جهاد فى سبيل الله.

وخلاصة القول أن التأثيرات الاقتصادية والاجتماعية لسلطنة المماليك امتدت فشملت البلاد المجاورة، والإمبراطوريات البعيدة، كما تركت بصمات واضحة فى تلك المجتمعات المختلفة عنها دينا ولغة وتاريخا، حيث لم يمنعها كل ذلك من الترحيب بذلك المد الحضارى المتدفق فوق الحواجز، لذا يجد الباحثون فى تاريخ سلطنة المماليك كثيرا من المصادر تكمن فى خزائن مكتبات تلك الدول التى نعتبرها ذخائر نادرة لا يمكن التفريط بها بأى ثمن فيرحل إليها محبو العلم والمعرفة، ويكفى هذا وحده مجتمع مصر والشام فى عصر المماليك صفة وفخرا.

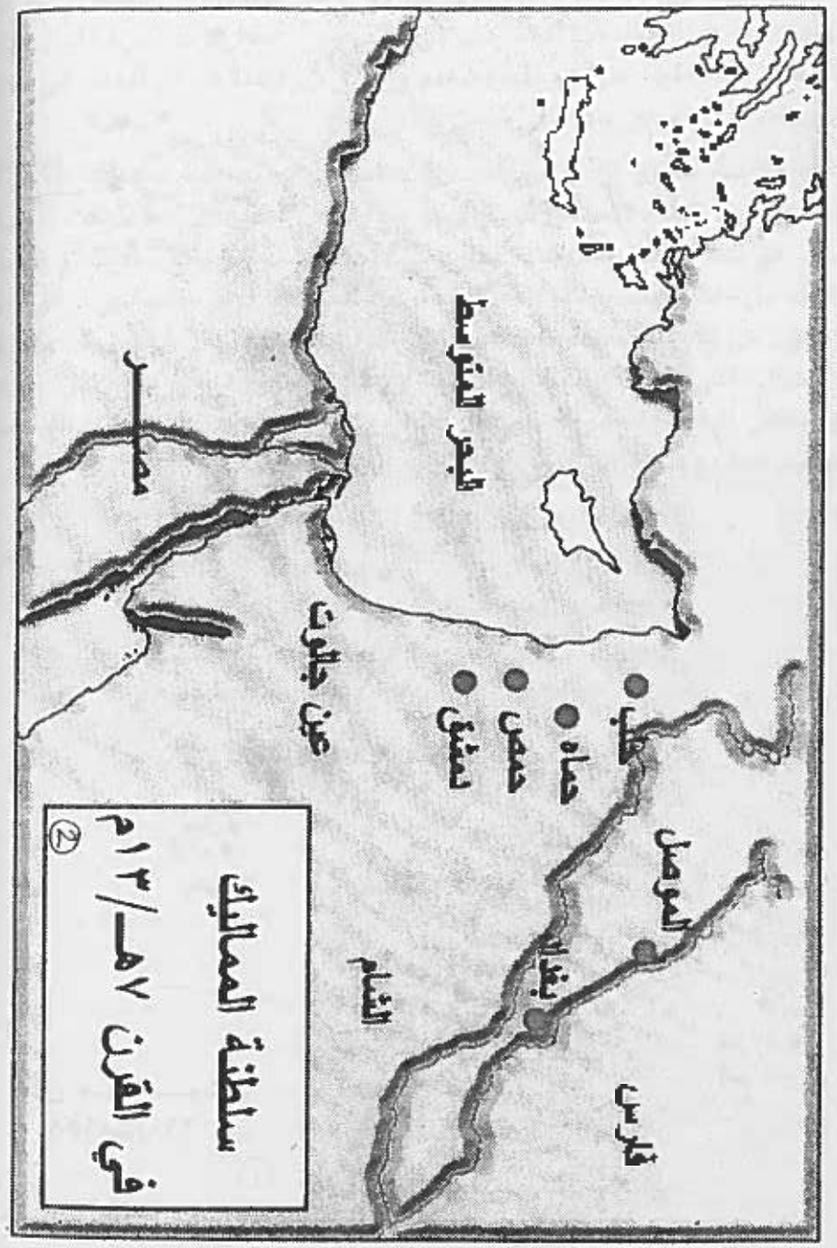

الممالك الصليبية في الساحل السوري

في القرن ٦هـ / ١٢م

بلاد الشام
(٤)

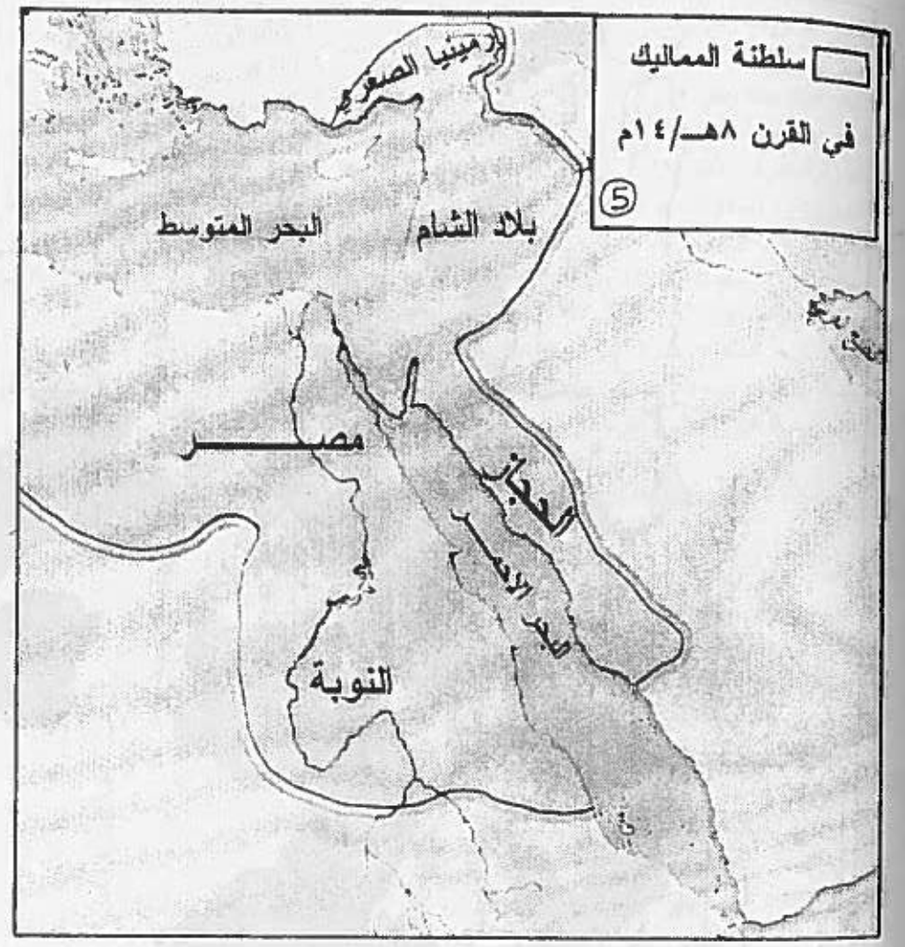
سلطنة المماليك
في القرن ٨هـ/١٤م
(٥)
البحر المتوسط
بلاد الشام
مصر
الحجاز
النوبة

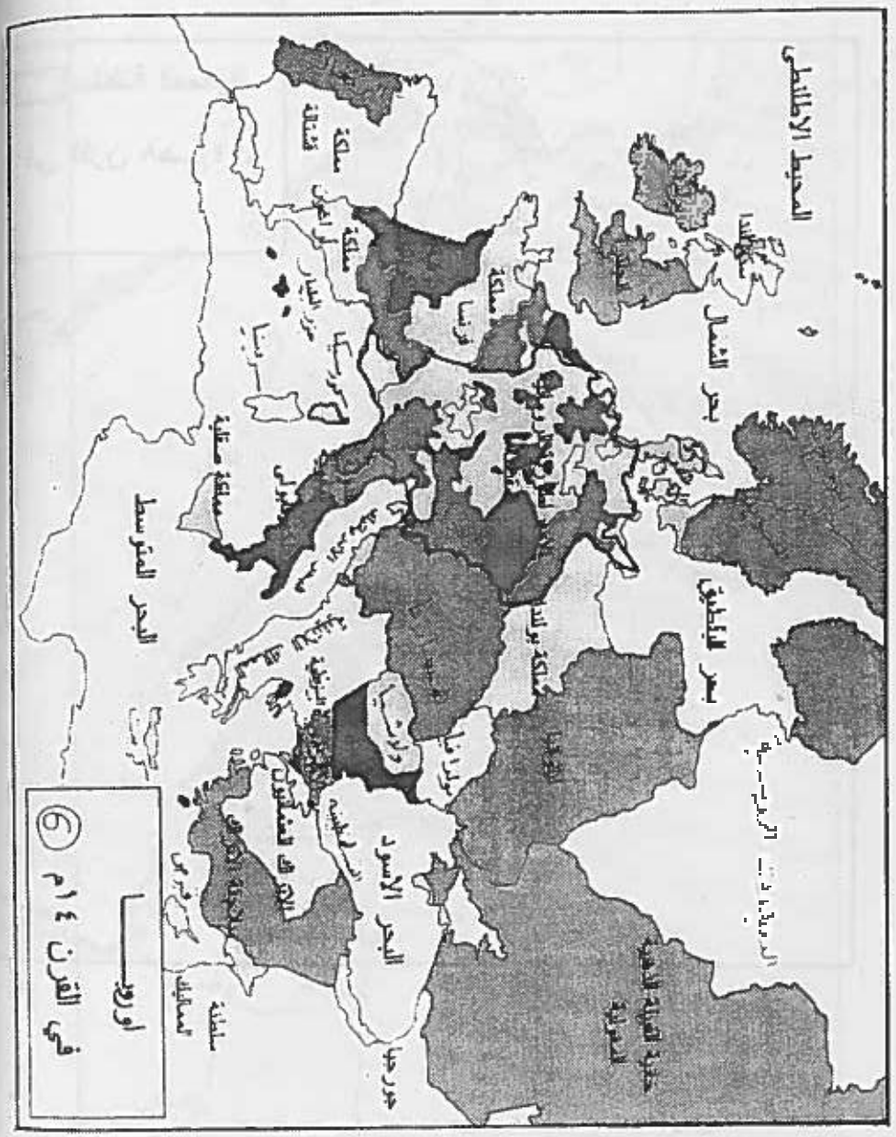

الهوامش:

١- انظر الخريطة رقم «٥».
٢- انظر الخريطة رقم «٢».
٣- انظر الخريطة رقم «٣».
٤- انظر الخريطة رقم «٤».
٥- انظر الخريطة رقم «٥».
٦- انظر الخريطة رقم «٦».
٧- سورة البقرة، الآية ١٩٥
٨- المقريزي، السلوك، جـ ١، ص ٣٥٥- ٣٦٤؛ ابن تغري بردي، النجوم، جـ ٦، ص ٣٦٤- ٣٦٨؛ ابن الحماد، شذرات الذهب، جـ ٥، ص ٢٣٩ - ٢٤٠؛ أبو الفدا، المختصر، جـ ٣، ص ١٨٠- ١٨١
٩- المقريزي، السلوك، جـ ١، ص ٩٠٦- ٩٠٧؛ ابن تغري بردي، النجوم، جـ ٨، ص ١٣٤- ١٣٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ١، ص ١٤٣- ١٤٤
١٠- المقريزي، السلوك، جـ ١، ص ٩٠٣، انظر كذلك ابن تغري بردي، النجوم، جـ ٨، ص ١٣٩- ١٤٠
١١- المقريزي، السلوك، جـ ١، ص ٨٤١- ٨٤٢، هامش ٣، إبراهيم طرخان، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، ص ٩٦.

Poliak, Feudalism in Egypt, Palestine and Lebanon, p. 23.

١٢- Poliak, Some Notes on the Feudal System of The Mamluks The Journal of the Royal Asiatic Society, 1937, p. 7.

١٣- المقريزي، الخطط، جـ ١، ص ٩٠.
١٤- ابن الجيعان، التحفة السنية، ص ٧، ١٣٧- ١٣٨.
١٥- ابن الجيعان، التحفة السنية، الإحصائيات التي تشمل المساحة والإنتاجية.
١٦- ابن جبير، الرحلة، ص ٢٦٠- ٢٦١.
١٧- الحجي، السياسة الصليبية للملك القديس لويس التاسع، ص ٩٧، ١١٠.
١٨- رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٦٠١- ٦٠٣.
١٩- المصدر السابق، ص ٦٠٤- ٦٠٥.
٢٠- المصدر السابق، ص ٦٠٩.
٢١- عمر كمال، الدبلوماسية الإسلامية، ص ٩٩.
٢٢- أبو شامة، الروضتين، جـ ٢، ص ٣٥- ٣٧.
٢٣- ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ١٦٢؛ عنان، مصر الإسلامية، ص ١٦٩.

Santon, Los Documentos Arabes Diplomatico, pp.169, 277, 308.

٢٤- المقريزي، السلوك، جـ ٢، ص ١٦٣- ١٦٤.
٢٥- المقريزي، السلوك، جـ ٢، ص ١٦٣- ١٦٤، ٢٥٩؛ أبو الفدا، المختصر، جـ ٤، ص ٩١

Aldya, Egypt And Aragon, pp. 44-55 Santon, Los Documentos Arabes Diplomatico, pp.361-362.

٢٦- القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ١١، ص ٤٢٠- ٤٢١
٢٧- عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص ٢٩٢، فهمي، طرق التجارة الدولية، ص ١٩٧
٢٨- الحجي، العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية، ص ٣٥٤
٢٩- Kammerer, Le Regime et statut des Etrangers en Egypte, p.17

٣٠- Runciman, The Crusade in the Later Middle Ages, p. 113.

٣١- الحجي، العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية، ص ٢.

٣٢- Mario Esposito, Itinerarium Symonis Semeonis Ab Hybernia Ad Terram Sanctam, p. 75.

٣٣- ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٢٢٤- ٢٢٥.

٣٤- ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ١٥٦.

٣٥- المصدر السابق، ص ٥٠.

٣٦- المصدر السابق، ص ١٥٦.

٣٧- المصدر السابق، ص ١٥٩- ١٦٠.

٣٨- Santeo, Las Documentos Arabes Diplomaticos, pp339.

٣٩- المقريزي، السلوك جـ ٢، ص ١٦٣- ١٦٤.

٤٠- المصدر السابق، ص ٢٥٩.

٤١- المقريزي، السلوك جـ ١، ص ٨٨٩؛ زيتير شتين، ص ٦٠؛ ابن أيبك الدواداري، الدر الفاخر، جـ ٩، ص ١٩- ٢٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ٨، ص ١٢٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ١، ص ٤٠٤.

٤٢- زيتير شتين، ص ٧٩.

٤٣- زيتير شتين، ص ٧٩؛ ابن الدواداري، الدر الفاخر، جـ ٩، ص ٢٥.

٤٤- ابن منقذ، الاعتبار، ص ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥.

٤٥- زكي النقاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ص ١٤٦- ١٤٧.

٤٦- المرجع السابق، ص ١٤٨.

٤٧- ابن منقذ، الاعتبار، ص ١٤٠؛ زكي النقاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ص ١٥٠.

٤٨- ابن منقذ، الاعتبار، ص ١٣٦- ١٣٧.

٤٩- علي عبدالرحيم، الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، ص ٢٧٢- ٢٧٤.

٥٠- الحجي، صور من الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٣٩- ١٩٥ «دراسة عن نظام التعليم في مصر زمن المماليك»، ص ٢٠٩- ٢٤٤ «دراسة عن البيمارستان المنصوري».

٥١- الحجي، السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، ص ٧- ٨، ٨٣- ٨٦.

٥٢- زيتير شتين، ص ١٣٦.

٥٣- القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ١، ص ٤١٩، جـ ٤، ص ٣٥، جـ ١١، ص ١٧٤؛ السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ٢، ص ١٦٥- ١٦٦.

٥٤- القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ١١، ص ١٧٥.

٥٥- ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٦٠- ٦١.

٥٦- ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٦١.

٥٧- لمزيد من التفاصيل عن أحوال العامة انظر كتاب حياة الحجي، أحوال العامة في حكم المماليك، الفصول الأول والثاني والثالث.

٥٨- المقريزي، السلوك، جـ ١، ص ٨١٣، قارن ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ٨، ص ٥٢، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ١، ص ١٣٣- ١٣٤.

٥٩- المقريزي، السلوك، جـ ٢، ص ٥٩٥، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ١٠، ص ٥٢.

٦٠- المقريزي، الخطط، جـ ٢، ص ٢٩٩- ٣٠٠.

٦١- المقريزي، الخطط، جـ ٣، ص ٣٠٥.

٦٢- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ١١، ص ٣٢٣.

٦٣- ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٦١، المقريزي، السلوك، جـ ٢، ص ١٠٣، المقريزي، الخطط، جـ ٢، ص ٢٠٨.

٦٤- المقريزي، السلوك، جـ ٣، ص ٢١٢- ٢١٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ١١، ص ٦٠، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ١، ص ٢٢٨.

٦٥- المقريزي، السلوك، جـ ٢، ص ٣٧٥، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ٩، ص٣٠٢.

٦٦- المقريزي، السلوك، جـ ٣، ص ٥٩١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ١٠، ص ٤٤- ٤٦.

٦٧- المقريزي، السلوك، جـ ٣، ص ٣١٥، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ١١، ص ٦١- ٦٢.

٦٨- المقريزي، السلوك، جـ ٣، ص ٦١١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ١١، ص ٢٨٠، ٢٨٢- ٢٨٤، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ١، ص ٢٧٤.

٦٩- المقريزي، السلوك، جـ ٣، ص ٦١١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ١١، ص ٢٨٠، ٢٨٣- ٢٨٤، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ١، ص ٢٧٤.

٧٠- المقريزي، السلوك، جـ ٣، ص ٨٧٦.

٧١- ابن حجر الدرر، جـ ٢، ص ٥٩، المقريزي، السلوك، جـ ٢، ص ٤٦٧- ٤٦٨، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ٩، ص ١٥٢.

٧٢- المقريزي، السلوك، جـ ١، ص ٨٠٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ٨، ص ١٢٩- ١٣٠.

٧٣- المقريزي، السلوك، جـ ٣، ص ٢٦٧.

٧٤- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ٦، ص ٣٧٣.

٧٥- المصدر ذاته، ص ٨٤٢.

٧٦- السخاوي، الضوء اللامع، جـ ١٢، ص ١٠٧- ١١٣.

٧٧- المقريزي، الخطط، جـ ٢، ص ٤٣٨.

٧٨- المقريزي، السلوك، جـ ٢، ص ١٦٩.

٧٩- ابن حجر، إنباء الغمر، جـ ٢، ص ١٤٠.

٨٠- السخاوي، الضوء، جـ ١٢، ص ١٢٧.

٨١- المصدر ذاته، ص ٩٠- ٩١.

المصادر والمراجع

أولا: مصادر ومراجع عربية:

- أبوشامة: شهاب الدين أبي محمد عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي ت ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧م، الروضتين في أخبار الدولتين، جزءان، نسخة مصورة، دار الجيل، بيروت.
- ابن إياس، محمد بن أحمد ت ٩٣٠ هـ/ ١٥٢٤م، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٣ أجزاء، القاهرة، ١٨٩٣ - ١٨٩٦م
- ابن جبير: محمد بن أحمد الأندلسي ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م، رحلة ابن جبير، بيروت، ١٩٤٩م
- ابن تغري بردي: أبوالمحاسن يوسف ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٢ جزءا، القاهرة، ١٩٢٩- ١٩٥٦م
- جوزيف: نسيم يوسف:
الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي، الطبعة الأولى، الإسكندرية، ١٩٦٦
- ابن الجيعان: يحيى بن شاكر ت ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م،

التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، بإشراف ب. مورتز، القاهرة، ١٨٩٨م.
– الحجي، حياة ناصر
صفحات من تاريخ الكويت في ظل الاحتلال العراقي أغسطس ١٩٩٠م – فبراير ١٩٩١م «دراسة وثائقية تاريخية»، الطبعة الأولى، مؤسسة الكويت والتقدم العلمي، الكويت ١٩٩٥م.
– السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك في فترة حكم السلاطين المماليك البحرية من سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٦٤م إلى سنة ٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢م، [دراسة تاريخية وثائقية في واقع الممارسات المختلفة السلطانية والأميرية]، الطبعة الأولى، منشورات جامعة الكويت، الكويت، ١٩٩٧م.
ابن حجر: أحمد علي «ت ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٩م»
– الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٥ أجزاء، القاهرة، ١٩٦٦م.
– إنباء الغمر في أبناء العمر، جزءان، حيدر آباد، ١٩٦٧م
– الدواداري: أبوبكر بن عبدالله بن أيبك «معاصر للناصر محمد بن قلاوون»
كنز الدرر وجامع الغرر، جـ ٩ الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق هـ. ر. روبمر، القاهرة، ١٩٦٠م.
– رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: الباز العريني، ٣ أجزاء، بيروت، ١٩٦٩م.
زكي القفاش
– العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، بيروت، ١٩٥٨م.
زيتير شتين، تاريخ سلاطين المماليك، نشرة كارل ف. زيتير شتين، ليدن، ١٩١٩م.
السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن «ت ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٧م»
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزءا، القاهرة، ١٣٥٣– ١٣٥٥ هـ/ ١٩٣٤– ١٩٣٦م.
– السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر «ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م».
حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزءان، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٦٧– ١٩٦٨م
– طرخان: إبراهيم، النظام الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٨م.
– عاشور، سعيد عبدالفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة، ١٩٦٥م.
– ابن عبدالظاهر: محيي الدين أبو الفضل عبدالله «ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م»
تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: م. كامل، القاهرة، ١٩٦١م.
علي: عبدالحليم محمود، الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، الطبعة الثانية، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٣م.
– ابن العماد: عبدالحي أحمد «ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٩م»
شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨ أجزاء، القاهرة، ١٩٣١– ١٩٣٢م.
– ماجد، عبدالمنعم، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت، ١٩٦٦م
المقريزي: أحمد بن علي «ت ٨١٥هـ/ ١٤٤٢م»
– المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار «الخطط المقريزية»، جزءان، القاهرة، ١٨٢٣م
– السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ٢ تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ج ٣، ٤ تحقيق: سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٣٩– ١٩٧١م
ابن منقذ: أسامة، الاعتبار، حرره: فيليب حتى ر. ف. برونسون، ١٩٣٠م.

ثانيا: المصادر الأجنبية:

-Alarcon Y. Santon, Maximiliano and Roman Garcia De Linares,
-Los Documentos Arabes Diplomaticos Del Archivo La Corona De Aragon, Madrid, 1940.
-Atiya, Aziz Suryal,
- Egypt and Aragon, Leipzig, 1938
- The Crusade In the Later Middle Ages, London, 1938,
Esposito, Maria,
-Itinerarium Symonis Ai Hyberuia Ad Terrum Sanctum. Dublin, 1960,
Al - Hajji, Hayat Nasser,
-The Internal Affairs in Egypt During the Third Reign of Sultan Al - Nasir Muhammad B. Qalawun 709-741, A. H./ 1309 - 1341 A. D. Second Edition, Kuwait, 1995
Kammerer, A. Albert,
-Le Regime et la Statut des Etrangers en Egypt, Tom. II,Cairo, 1929.
Pholak, A. S.,
- Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and Lebanon, London, 1939,
- Some notes on the Feudal System of the Mamluks, Journal of the Royal Asiatic Society, 1937, pp. 97- 107.

أ. د. محمد عبده السروري(*)

صناعة الجلود والخوص والصناعات الخشبية والملبوسات فى اليمن

فى القرن السابع الهجرى/الثالث عشر الميلادى

مقدمة

تعتبر الصناعة من أهم الدلائل المميزة على معرفة ما حققه المجتمع والدولة فى اليمن من نهوض وتطور وتقدم فى المجالات العلمية والسياسية والاقتصادية، ومن أهم الدلائل المميزة لهذه الصناعة الازدهار الحضارى والحرفى والفنى، وهذا الجانب يعطينا مؤشرا كبيرا يبين لنا ما بلغه المجتمع والدولة من الثراء والترف إبان تلك الفترة، بالإضافة إلى أنها مؤشر مهم يحدد مدى ما بلغه المجتمع من تفنن وتأنق وإجادة فى الصنعة.

ولم تنشأ الصناعة من فراغ فى ذلك الزمن بل تطلب توفر عدة عوامل منها:

١ – اهتمام الدولة والمجتمع بالصناعة.
٢– توفر المواد الخام الزراعية والمعدنية التى تحتاجها الصناعة.
٣– وجود الحرفيين المهرة الذين يجيدون الأعمال الفنية الصناعية.

فمن ناحية اهتمام الدولة والمجتمع فى اليمن فقد بذل سلاطين بنى رسول دورا كبيرا فى الاهتمام بالصناعة من ذلك أنهم كانوا يستقدمون الحرفيين المهرة من مصر والشام للعمل فى الصناعة. وذلك ما أوضحه ابن فضل الله العمرى بقوله: (ولاتزال ملوك اليمن تستجلب من مصر والشام طوائف من أرباب الصناعات لقلة وجودهم فى اليمن)(١) وأهم من حكموا اليمن من بنى رسول فى القرن السابع الهجرى السلطان نورالدين عمر بن رسول ت (٦٤٧هـ) وابنه المظفر يوسف ت (٦٩٤هـ)(٢). كذلك عمل

(*) أستاذ بكلية الآداب – جامعة صنعاء

سلاطين اليمن وأغنياؤها على تشجيع الصناعة بالاقبال على شراء أنواع المصنوعات مثل الأوانى المنزلية والخشبية والملبوسات وغيرها، مما أدى إلى رفع مستوى الصناعة وزيادة مستوى الحياة الاقتصادية والاجتماعية للدولة والمجتمع بزيادة الدخل الاقتصادى للحرفيين والدولة. كذلك وضعت الدولة الرسولية فى اليمن آنذاك عدة أنظمة للصناعة يحدد فيها نوع الصناعة وحجمها وسعتها وسعرها وكيفية صناعتها وطرق تلوينها وغيرها، فسهل ذلك على إقبال الحرفيين على الصناعة.

وبالنسبة لتوفر المواد الخام فقد وجد فى زراعة شجرة القرظ التى تستخدم فى دباغة الجلود فى كل من صعدة وزبيد وصنعاء[٣] كما وجد فيها زراعة القطن، بالإضافة إلى عدة أشجار تستخدم فى صناعة الخشب مثل شجرة الجميز والعرج والسرو[٤] وأيضا وجود زراعة النخيل والدوم التى تستخدم فى صناعة الحبال والحصير، وكذلك وجد فى اليمن عدة أنواع من المعادن مثل الذهب والفضة والحديد بالإضافة إلى أن اليمن اشتهرت بوجود أنواع العقيق والجزع[٥] وهذه المواد الخام ساعدت على ازدهار الصناعة فى اليمن وخاصة فى عهد الدولة الرسولية التى أولت الصناعة اهتماما كبيرا.

وبخصوص وجود الحرفيين المهرة. هناك عدة عوامل مساعدة ساهمت فى زيادة عدد الحرفيين، منها حرية الانتقال بين البلدان الإسلامية والتى كان لها أهمية كبيرة فى تواجد الحرفيين فى اليمن، نتيجة توفر المواد الخام فنقل ذلك خبرة الحرفيين الصناعية من بلد لآخر، وذلك أدى إلى زيادة الحرفيين والتفنن فى أنواع الصناعات، ورفع مستوى الرخاء والرفه فى المجتمع اليمنى، كما أدى إلى زيادة إقبال رجال الدولة والأثرياء على شراء هذه الصناعات الجيدة، فعكس ذلك على تشجيع الحرفيين التأنق والاتقان والإجادة لأنواع الصناعات.

ومنها: متطلبات واحتياجات الإنسان فى المجتمع والدولة للصناعة من الناحية الدنيوية والدينية. فمن الناحية الدنيوية حاجة الإنسان إلى أن يحيا حياة أكثر ترفا وأكثر رخاء ورفاهية بتوفر جميع الحاجات الضرورية والكمالية، ومن الناحية الدينية فإن القرآن الكريم حث على العمل اليدوى سواء بالزراعة أو الصناعة أو غيرها من ذلك قوله تعالى: «ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون» وقول الرسول «صلى الله عليه وسلم» (ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده) وقوله أيضا (لئن يأخذ أحدكم حبلا فيأتى بحزمة من الحطب على ظهره فيبيعها فيكف به وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه)[٦]، ساهم ذلك فى إقبال الحرفيين على أنواع الصناعات وزيادة مهاراتهم ومصنوعاتهم.

أهم أنواع الصناعات:

١- دباغة الجلود: لقيت دباغة الجلود والصناعات الجلدية اهتماما كبيراً من قبل المجتمع اليمنى وحكامه خلال عصورها التاريخية المتعددة، وفى العصر الإسلامى وخاصة عصر الدولة الرسولية ازدهرت دباغة الجلود والصناعات الجلدية ازدهاراً كبيراً، وذلك لعدة أسباب منها:

- توفر الجلود المعدة للدباغة[٧]
- وجود أشجار القرظ التى تستخدم فى دباغة الجلود.
- توفر الحرفيين الذين يجيدون دباغة الجلود.
- أهمية الجلود فى عدة صناعات

فمن حيث توفر الجلود، فاليمن يوجد بها العديد من الحيوانات التى تستخرج منها الجلود مثل الأبل بأنواعها المهرية والمجيدية والأرحبية، والأبقار بأنواعها الجندية والخديرية والجيلانية[٨]، بالإضافة إلى الماعز والأغنام.

واشتهرت اليمن بدباغة الجلود، حيث بلغت قيمة الجلد للبقر الجيلانية عشرة مثاقيل إلى عشرين مثقالا[٩] كذلك توفرت الجلود عن طريق استيرادها من عدة بلدان مثل الحبشة ومكة ونجران وعمان وفارس وزيلع وغيرها[١٠]

ومن جهة توفر أشجار القرظ، فإن هذه الشجرة توجد فى اليمن بكثرة فى مناطق متعددة مثل صعدة وصنعاء وزبيد وعدن وغيرها، وكمثال لذلك فقد ذكر الرازى أن مطاحن القرظ التى تدبغ بها الجلود فى صنعاء بلغ عددها حوالى ٣٣ مطحنة[١١] مما يدل على كثرة دباغة الجلود فيها. وبالنسبة لتوفر الأيدى العاملة فى دباغة الجلود، فقد وجدت أعداد كثيرة من الدباغين فى عدة مناطق مثل صعدة وزبيد وصنعاء وعدن وغيرها، واستجلب دباغون وصانعون من عدة أمصار إسلامية وذلك ما سبق الإشارة إليه.

وبخصوص أهمية الجلود ودخولها فى عدة صناعات، فإن صناعة الجلود تعد من أهم الصناعات وأكثرها انتشاراً فى اليمن وغيرها، وذلك لطول عمر الصناعات الجلدية. وكذلك ملائمتها للاستخدام لعدة أغراض فهى تستخدم لحفظ أنواع السوائل مثل الزيت والمياه والعسل[١٢]. كما أنها تستخدم لتلبية حاجات الرى للمزروعات مثل الدلاء والقرب والأحواض وغيرها، كما أن الجلود تستخدم لصناعات عدة أنواع من الملبوسات وخاصة للمناطق الباردة، وتصنع من الجلود أنواع الأثاث المنزلية مثل البساطات والأغطية وأيضا تصنع منها عدد الخيول والجمال للسروج والهوادج وغيرها، كذلك تظهر أهمية الصناعات الجلدية أنها مادة أساسية لصناعة النعال أو الأحذية والأخفاف[١٣].

أهم الصناعات الجلدية:

الأنطاع: أى البساط: وهى كل ما يبسط على الأرض والنطع والبساط هى ضرب من الفرش وتنسج من الصوف أو الجلد أو نحوه[١٤] ويوجد فى اليمن أنواع ومقاسات متعددة من الصناعات الجلدية للانطاع او البسط أو الفرش منها.

١- النطع السردق والمعرق: وهو النطع الذى توضع على حواشيه وأطرافه جلد أسود وأبيض غير سميك مع وضع بطانة له من جلد الفرس. ووضع خرز على أطرافه وحواشيه.

٢- النطع المعرق دوائره وزواياه وهو الذى يوضع على أطرافه جلد غير سميك وخرز مع تبطينه بماء الذهب.

٣- النطع المعقد المسردق المعرق. وهو النطع المشدود المتصل ببعضه مع وضع خيوط جلدية غير سميكة وخرز على حواشيه وأطرافه بالإضافة إلى وضع عقد كى تعطيه القوة والمتانة وحتى لا ينقطع سريعا. وهناك عدة أنواع أخرى من الأنطاع غير مبطن دوائره وزواياه وغير ذلك.

ومن حيث الاستخدام فالأنطاع لها استخدامات متعددة منها فرش لأنحاء المنازل والمحال وفرش لسروج الخيل والجمال من أجل الركوب وللزينة، كذلك تستخدم الانطاع للأثاث العنزلية للجلوس والراحة فتوضع على السراير والكراسى وأنواع المحال وتستخدم للزينة بعد تطريزها بأنواع الأحجار الكريمة، كذلك تستخدم لأغراض أخرى مثل السطائح والأغطية لعدة أشياء وغير ذلك[١٥]. وبالنسبة للمقاسات فقد تعددت مقاسات الأنطاع فمنها الطويلة ومنها المتوسطة ومنها القصيرة ومنها العريضة والمدورة وغير ذلك.

وعن جودة الجلود فقد اختلفت جودة صناعة النطع من حرفى لآخر، وذلك بحسب نوع الجلد ونوع دباغته، فهناك الأنطاع الجيدة وغير الجيدة وهناك الأنطاع المبطنة بجلد لين أو المبطنة بأنواع الحرير أو القطن أو الكتان. وهناك الأنطاع غير المبطنة. كذلك تعددت الأنطاع من حيث اللون فمنها من لون بعدة ألوان ومنها السادج الذى يحمل لونا واحدا. بالإضافة إلى ذلك فقد تفنن الحرفيون اليمنيون فى الصناعة الجلدية فزينوا الأنطاع بأنواع الخرز المصنوعة من أنواع الأحجار الكريمة بجميع ألوانها وأشكالها.

عدة السقائين: استفاد الحرفيون اليمنيون من متانة وليونة الجلود فصنعوا منها عدة السقائين وهى الأوعية التى تستخدم للمياه منها: ١- الزمازم

٢- القرب ٣- الدلاء ٤- الأحواض ٥- الراويا ٦- البيارى ٧- المحالة، وهذه كلها أوعية للمياه تختلف سعة كل وعاء، كما أن لكل وعاء مقاسات متعددة منها الأوعية الكبيرة والمتوسطة والصغيرة، فمثلا لذلك الأحواض تتكون من أحواض عشارية والتى ثمنها عشرة دنانير والأحواض الثمانية، والسداسية والرباعية، والثلاثية وهى تختلف بجودتها وسعتها وثمنها.

ومثال آخر ففى ذى جبلة تصنع الزمام بعدة مقاسات منها الزمزمية التى تسع أربع شربات وهى أكبر زمزمية، والتى تسع ثلاث شربات، والتى تسع شربتين، أو تسع شربة ونصف أو تسع شربة، ومنها ما تسع نصف شربة، وثلث شربة، وربع شربة، علما بأن عيار الشربة من الماء تساوى ثلاثة أرطال بغدادى ولكل سعة من هذه الزمزمية لها سعر وهكذا تعددت سعة الأوعية ونوعها وسعرها[١٦].

أوعية السوائل الأخرى: وصنعت كذلك من الجلود أوانى لحفظ الزيوت والسمن والدهون والعسل من ذلك البطط وهى أوانى على شكل بطة لحفظ الدهون، كذلك استخدمت القرب وهى مصنوعة من الجلد لحفظ اللبن والزيت إضافة إلى الماء[١٧]، كما صنعت أوانى مدورة الشكل من الجلد تسع جرة تستخدم لحفظ العسل والزيت والسمن.

عدة الخيول والجمال: نظرا لأهمية استخدام الخيول فى الحرب والجمال فى نقل البضائع والحجاج. فقد لقيت العدد الخاصة بالخيول والجمال اهتماماً كبيراً فصنعت من الجلود العفارش والأغطية (الغواشى) المستخدمة للسروج والهوادج والمحامل وغيرها، كذلك صنعت من الجلود شقق المحامل والهوادج وهى الجانب الأيسر والجانب الأيمن لمحامل وهوادج الجمال.

الحبال والأربطة والأحزمة: نتيجة لمتانة الصناعات الجلدية وليونها فقد صنع منها الحرفيون أنواع الأربطة أو الحبال استخدمت لأغراض متعددة منها النوازن وهى حبال من الجلد تشد بها الصناديق على ظهور الجمال كذلك صنعت من الجلد أنواع الأحزمة التى استخدمها الرجال والنساء[١٨] بشد وسطهم.

النعال والأحذية: تعتبر صناعة الأحذية أو النعال فى اليمن من أهم الصناعات لكثرة وجود دباغة الجلود بها. وقد اشتهرت اليمن بصناعة النعال منذ القدم، وزاد الاهتمام بها فى العصر الإسلامى، فوجد فى صعدة صناعة النعال الجيدة[١٩] كما صنعت فى صنعاء النعال المشعرة[٢٠] وصنعت فى اليمن النعال الترخمية التى لها شهرة كبيرة[٢١] كذلك اشتهرت اليمن بصناعة النعال من الإبقار التى تربى فى محلات بنى مجيد حيث بلغ النعل منها دنانير[٢٢].

وفى عصر الدولة الرسولية ازدهرت صناعة الأحذية الجلدية فصنعت أنواع الأحذية النسائية والرجالية من ذلك ١- الشراميز النسائية وهى أحذية بغير رقبة وزينت هذه الشراميز النسائية المصنوعة من الجلد برقائق الذهب على وجه الشرموز وشراكه. وذلك لإعطاء الشرموز اللون الذهبى، كما بطن الشرموز بالحرير ووضع له كعب. وأيضا صنعت عدة أنواع من الشراميز الرجالية، منها شرموز له رأس منحنى إلى باطنه أو ظهره أو سقف القدم. ومنها شرموز مستقيم بغير انحناء للرأس، بالإضافة إلى ذلك فقد صنعت أصناف من الأحذية أو النعال الرجالية والنسائية منها حذاء رجالى مبطن بجلد غنمى مبشور، وحذاء نسائى مبطن بجلد غنمى مبشور، ومنها منعل رجالى قوى مبطن بجلد بقرى مبشور، ومنعل رجالى قوى جدا مبطن بجلد بقرى غير مبشور، وأيضا منعل نسائى مبطن بجلد بقرى ظاهره وباطنه غير مبشور[١٣] وهناك عدة صناعات جلدية أخرى منها غلف الزرد وهو عبارة عن غلاف أديم ذو لون أبيض وأسود مبطن بشملة.

شغل الطفى (الخوص) (المنسوجات من عسف النخيل والدوم والياف الأشجار)

نظرا لتشكل عسف النخيل والدوم والياف بعض الأشجار إلى عدة صناعات، فقد قامت عليها صناعة أشغال الطفى أو الخياصة، واعتبرت من أهم الصناعات فى اليمن وذلك لوجود زراعة هذه الأشجار فى اليمن، ولأن هذه الصناعة تستخدم فى جميع المنازل ولجميع شرائح المجتمع لرخصها وتعدد أغراض الاستفاع منها، فيصنع من الحصر (الفرش) بمقاسات متعددة، كما يصنع منها أنواع عديدة من حاجيات المنازل والتى بواسطتها يتم نقل الحبوب والفواكه والخضراوات أو حفظها مؤقتا، وكذا حفظ الدقيق والخبز ونقلهما، مثل المهاجن والأجاب بالإضافة إلى ذلك هناك عدة صناعات من الطفى (الخوص) تختص بنخل الدقيق ونسف الحبوب وغربالها.

أهم صناعات الطفى (الخوص)

١- الحصر ٢- المهاجن ٣- الأجاب ٤- الحوارة ٥- الخدور
٦-المناخل ٧- المناسف ٨- الغرابيل[١٤] ٩- المكانس ١٠- الصحون

- فالمهاجن (مفرده مهجن) وهو وعاء أشبه بالطبق الكبير، يستخدم للحبوب والخبز والدقيق وغيره.
- والأجاب، وعاء عميق يستخدم للمحاصيل الزراعية والفواكه والخضراوات
- والمناسف، ما ينسف به الحبوب، وهو الغربال الكبير.

- والمناخل: أداة النخل ونخل الشيء غربله وصفاه.
- والغرابيل الكبار: أداة تشبه الدف ذات ثقوب تصفى به الحب من الشوائب[١٥].
- الحوارة هى: الدائرة الشبكية للمنخل وكل هذه الأشياء مصنوعة من الخوص أو الطفى أو لحاء الشجر.

ويختلف اشتغال الطفى (الخوص) باختلاف صنعة ونوع سعفه من حيث النعومة والخشونة فالطفى (الخوص) الذى بلحه أحمر غليظ جرز لايصلح لأن يصنع منه القصرية، ولكن يصنع منه المهاجن والأسباط وغيرها والطفى المولد أو الذى له ثلاث أصناف وهى مقصاب وذبل وذخر فمنه الثخين ومنها الرقيق. كما أن الطفى يختلف من حيث نوعه سواءا أكان ذكرا أم أنثى، فطفى النخيل الذى يحمل هو الأنثى فإنه أرق من طفى النخل الذى لايحمل وهو الذكر، كذلك يختلف عسف النخيل من حيث موقعه من النخلة، فالعسف الذى فى قلب النخلة والمسمى المجمور أرق ما يكون وقد لا يصلح للصناعة لرقته، أما العسف المجاور للقلب فهو يصلح لصناعة الحصر وغيرها، وعلى كل فإن الصانع يختار أو ينتقى ما يحتاج لنوع الصناعة التى يريدها[١٦].

الحصر (البسط والفرش): تعتبر صناعة الحصر (البسط والفرش) من أهم الصناعات التى اشتهرت بها اليمن، نتيجة توفر المواد الخام التى تدخل فى صناعة الحصر (البسط والفرش) مثل عسف النخيل والدوم ولحاء بعض الأشجار والقنبار والكتان وغيره، وتوفر الأيدى العاملة فى هذه الصناعة، إذ لاتخلو مدينة من مدن اليمن لاتوجد بها صناعة الحصر (الفرش)، وكذلك نتيجة لرخص قيمة الحصر (الفرش) التى تصنع من هذه الأشجار، إذ أنها تعد من أرخص أنواع الفرش، لذلك استخدم هذه الحصر جميع فئات وشرائح المجتمع اليمنى فانتشرت فى جميع المنازل، ويكثر استخدام الحصر للقماعد (السراثر) والمجالس والمساجد وغير ذلك، وقد تنوعت أشكال الحصر وأنواعها وأصنافها وألوانها، فمنها الحصر الخاص، وحصر الحرم الشريف، ومنها الحصر الذى به عدة ألوان والحصر ذو اللون الواحد (الساذج) ومنها الحصر التى تزين أطرافها وحواشيها بحزام من نسيج متداخل الألوان[١٧]

أشغال الحصر

اهتم الحرفيون اليمنيون بوضع أشغال للحصر بلون واحد أو عدة ألوان، وذلك لتوفر مادة صباغة الألوان وملاءمة الحصر لتزينها بعدة ألوان، وعلى

ذلك فهناك نمطان من الحصر نمط سادج له لون واحد ويصنع بعدة مقاسات ويختلف كل مقاس باختلاف مادته وجودة صناعته، ونمط يلون بعدة ألوان وله عدة أصناف وهي الآتي:

الصنف الأول، النوع الخاص الأول: منه

١ – شغل خاص يصنع حسب نظام القعائد السلطانية، ولون باطنه أبيض، ولا يرسم عليه أشكال هندسية مثل الجامات والدوائر ولكن يوضع على ظهره نقش سعادة وكتابة، ويأخذ شكل الحصر المصرية ولونه أحمر.

٢– شغل خاص آخر ملون كل شبر منه لون ويجمع عدة نقوش وينسب إلى المنطقة التي تصنعه أو اشتهرت به أو يأخذ شكله مثل «عدني، فساقي، وعبداني، وكتائب، وخواتم».

النوع الخاص الثاني: وهو أقل جودة وقيمة من الأول ومنه:

١– حصر بها عدة نقوش وتجمع ثلاثة ألوان وهي: (عدني، فساقي، وكتائبي)

٢– حصر شغل كافوري أبيض وباطنه فسقيه وحرفين وخواتم وأطراف خطوط وكتائب وهو قليل الحمرة.

٣– حصرة شغل مدنر وسط، عليها مصفوفة الجامات صف بعد صف[٢٨].

الصنف الثاني: المسمى الخرجي ومنه:

١– القزين بزخرفة تسمى جامات، كل شبر بعده صف جامات وأطرافه طرز وكتائب كرفاسية.

٢– رسمي أبيض من غير جامات طرازين في الطرف.

ويصنع من هذا الصنف عدة أنواع من الحصر (المفارش) حسب ما أوردها كتاب نور المعارف.

١– حصر المساجد، وهو شغل أبيض خسف، فيه رسم محراب أحمر.

٢– حصر مطارح، الباطن ثلاث فساقي نصفين، وكامل، وحروف، وخواتم ودوائر.

٣– حصر مطارح في الباطن فسقية وحروف وخواتم وحاشية ودوائر.

٤– حصر بيض سوادج بكتابة في الطرف وسلسلة، ومن هذا عدة مقاسات.

٥– حصر بيض رباعية طرفه سلسلة ورمامين.

٦– سجاجيد بيض، ومنه عدة أنواع منه سجاجيد طرفه سلسلة ورمامين[٢٩].

وكما يتضح أن هذه الحصر (المفارش) مصنوعة من عدة مواد منها الخوص أو عسف النخيل والدوم، والسلب والكتان، والقطن والحرير والخليط

من الكتان والقطن والحرير وغير ذلك.

القيمة: اختلفت قيمة الحصر (المفارش) بحسب جودة صناعتها ومادتها ونوع النقوش عليها ومقاساتها من ذلك.

الصنف الأول: المسمى الخاص قيمة الحصير المنقوش من الخاص الذراع دنانير ونصف والخاص الذي أقل منه في النقوش الذراع دينار، والوسط منه الذراع نصف دينار وربع.

والصنف الثاني المسمى الخرجي: الذي عليه نقش الجامات بالحمرة (وهي زخرفة هندسية على شكل جامات) العدة الواحدة دينارين ونصف والأبيض السادج منه دينارين.

أنواع المطارح الكتان: تنوعت المطارح (المفارش) من حيث الحجم والقيمة والجودة والمقاس والألوان ومنه مطارح الكتان المطرح التام والمطرح الرفيع العال الخاص، ومنه الوسط من حيث الجودة والأقل جودة ومنه المطارح غير الكتان وعن طريقة تلوين هذه المطارح، فهناك المطرح العال الذي يجمع عدة نقوش ومنه المطرح الخاص دون السابق في النقوش، ومنه المدنر الخاص والذي به جامات، ومنه المطرح الأبيض العال الرومي بغير نقوش، وتختلف مقاسات هذه المطارح بين الكبيرة والمتوسطة والصغيرة، وهناك تحديد لقيمة كل صنف ونوع نقوشه ومدة العمل به[٣٠].

صناعة المراوح: ويصنع من عسف النخيل أو الدوم عدة أنواع من المراوح وهي أداة يجلب بها نسيم الهواء في الحر في اليد ويصنع منها عدة أصناف منها الخاص الكبار الطروح، وطولها شبر وأربعة أصابع (حوالي ثلاثين سنتيمترا) وعرض شبر وستة أصابع (حوالي خمسة وثلاثين سنتيمترا)، كما يصنع منه هذا الطول بقليل وأصغر منه أيضا بقليل، ومنها الصنف المسمى الخرجي المعتدل، العرض شبر وأصبعين (٢٦ سنتيمترا) والطول شبر وأصبع (حوالي ٢٤ سنتيمترا) وهو المخرم، ومنه صنف الطعامية وتسمى الأميرية أيضا وهي كبيرة عرضها دون الذراع، وطول أقل من العرض، وكما يتضح أن هذه المروحة تستخدم لمواقيد الطعام، علما بأن عرض المروحة هو الملتصق بالجريد.

صناعة الحبال: تعتبر صناعة الحبال من الصناعات المهمة في اليمن نتيجة لاحتياجها في عدة أعمال فهي تدخل في أغراض متعددة وتستخدم لشد البضائع على الجمال وتثبيت المحامل والهوادج عليها، وشد البضائع على الحمير والبغال وربط السروج، كذلك فإن للحبال أهمية كبيرة في تعليق الكثير من صناعة الطفي والصناعات الخشبية وخاصة الأوعية، وللحبال أهمية في تعليق الأسلحة، كما أن

الحبال تستخدم في ربط الدواب وجرها، ولها أغراض أخرى متعددة.

وتصنع الحبال من عسف النخيل والدوم ومن القنبار والسلب (وهو قشر شجر يصنع منه الحبال) صناعة الحبال: يصنع عدة أنواع تستخدم لعدة أغراض منها حبال الدولات وهي أوعية السقي وحبال الدرعة، ومجاري الجمالية، وحبال الرباع والقصاع، وحبال المشارب، وتربط بها البضائع على ظهور الجمال عند نقلها[٣١].

ويصنع من السلب الذي منه الحبال أنواع الحجز وهي الحبال التي تشد بها البضائع عند نقلها على ظهور الجمال والبغال والحمير كذلك يصنع من السلب المخال والمخلاه (هي ما يجعل فيه العلف ويعلق على عنق الدابة) كما يصنع من السلب الغرائر وهي (وعاء من الخيش ونحوه توضع فيه الحبوب) كذلك يصنع منه الأعدال وهي التي توضع على البعير[٣٢].

صناعة الخيزران: يصنع من قصب اليرع الخيزران عدة أنواع منها قعائد (سرائر) ومجامر ومشاجب ومكاب بأحجام متعددة، الكبيرة والمتوسطة كذلك يصنع من الخيزران السلال والكراسي.

الصناعات الخشبية:

لقيت الصناعة الخشبية وفنون النجارة اهتماما كبيرا من أهل اليمن منذ الأزمنة المبكرة، نتيجة لقابلية الأشجار للاستخدام لعدة أغراض، ولم نجد عصرا من العصور إلا والصناعات الخشبية لها دور فعال في حياة الناس، وازداد ازدهار الصناعات الخشبية وفنون النجارة في عهد الدولة الرسولية في اليمن، وذلك لأهمية استخدام الأخشاب في أغراض متعددة من مجالات الحياة، ومن أهمية استخدام الأخشاب أنه يصنع منها الأبواب والنوافذ والكراسي والسرائر، كما يصنع منه الصناديق والسفن والهوادج والمحامل والملاك والمحابر، وأيضا يصنع منه بعض الأسلحة مثل النبال والسهام والنشاب والحراب والأقواس والرماح، بالإضافة إلى ذلك يصنع منه أوعية تستخدم للمكاييل من الأقداح والصياع والقصاع.

وقد ساعد على ازدهار الصناعة الخشبية في اليمن توفر الأشجار المستخدمة في الصناعة مثل شجرة الجميز (السقام) والعرج والسرو، إضافة إلى استيراد أخشاب الأشجار من غير اليمن مثل الأهليلج والساج، كما ساعد على ازدهار هذه الصناعة تمكن الحرفيين اليمنيين من التأنق والتفنن في الصناعة الخشبية من حيث عملية الخراطة، وطريقة إدخال أنواع المنقوشات على أنواع المصنوعات الخشبية كما ساعد على ذلك ما وصل إليه المجتمع اليمني والدولة من الرفه والترف، جعل الكثير يقبلون على شراء أنواع

المصنوعات الخشبية الجيدة الصنع[٣٣].

أهم أنواع المصنوعات الخشبية:

الصناعات الخشبية المتنوعة:

الأبواب - الصناديق - الألواح - الهوادج - سرائر - مجالس - المعاشر - النوافذ - الكراسي - السفن - المحامل - مقاديف - الشقادف - اقتاب.

صناعة الأوعية الخشبية

الأحقاف - الملاك - الجون - العدورة - القوب - الصياع - الأقفاص - الكعد - المحابر - الأطباق - الأقداح - القصاع - المشارب - الطاسات.

صناعة الأسلحة الخشبية:

النبال - النشاب - الأقواس - المجانيق - السهام - الحراب - الرماح - العردات[٣٤]

الصناعات الخشبية المتنوعة:

يصنع من الخشب عدة أنواع من الصناديق تسمى صناديق عرائسي، أو خزائني، أو موكب، ويصنع منها مقاسات عدة منها الكبيرة والمتوسطة واللطيف وهي ما بين الصغيرة والمتوسطة، ويصنع من هذه الصناديق الجيدة وغير الجيدة حسب نوع الخشب. كما يصنع من الخشب عدة أنواع من القعائد منها الكبيرة والمتوسطة والصغيرة، بقوائم خشب هليلج أو خشب عرج أو ساج، وتشد مقاعدها بالحبال أو القماش. كذلك يصنع من الخشب أنواع الكراسي كبيرة وصغيرة وكراسي مطابخ وكراسي الخراطين وكراسي شرب خاناه وكراسي البواطي والأطباق وبيت الماء وغيرها.

بالإضافة إلى ذلك يصنع من الخشب عدة أنواع منها اقتاب وشقادف وهي مركب أكبر من الهودج يركب بها الحجاج، كما يصنع من الخشب ألواح متعددة تستخدم لأغراض ومنافع مهمة مثل الأبواب والنوافذ وألواح الكتاب، ويجد طول وعرض وسمك اللوح، كذلك يصنع من الخشب محفة وهي سرير تعمل للملك أو مركب للنساء كالهودج ليس فيه قبة، أو هودج لا قبة له تركب فيه المرأة[٣٥].

الصناعات الخشبية للأوعية: استفاد الحرفيون من مادة الخشب فصنعوا منه أنواعا متعددة من الأوعية للشرب، والأكل، والمكاييل، وحفظ ونقل الفواكه والخبز وغيره. من ذلك صنعوا جون الخبز، وهي عبارة عن سلة مستديرة يحفظ فيها الطيب مغشاة بالجلد، كما صنعوا من الخشب العدورة

برسم الزبدانة. وهو وعاء لحفظ بعض الأسلحة كالدرع وغيره.

تعددت مقاسات هذه الأوعية فمنها الكبيرة والصغيرة والمتوسطة والواسعة والعميقة والمسطحة كما اختلفت جودة صناعتها ونوع خشبها وقيمتها ونوع خرطها وتزيينها. كما أن بعض هذه الأوعية يصنع له غطاء وبعضه بدون غطاء والمثال على ذلك الآتي:

١- طبق خشب كبير فتح ذراع ونصف. ومتوسط فتح ذراع. وصغير فتح شبر.

٢- (قصعة الحلوى طولها بغطائها شبر ينقص أصبع وعرضها ثلث شبر وعمقها فتح أربعة أصابع القيمة درهمين).

تعددت أنواع المشارب منها الطويلة والتي يقال لها القوب ومنها المدورة، وتنوعت سعة هذه المشارب منها ما تسع زبدى ونصف، وما تسع زبدى وما تسع نصف زبدى(٣٦).

تزين بعض هذه المصنوعات الخشبية بالجلد أو تبطن بالقطن والحرير. فالصناديق بأنواعها تزين بالأديم الأحمر والصناديق المدورة تزين بأديم بقر. والجونة تغطى بالجلد كذلك تبطن الصناديق العرائسى ببطانة من القطن المقصور (المبيض).

ويضاف إلى هذه الصناعة عملية السجف، وهى وضع ستور أو أغطية للمحامل أو الهوادج من جميع جوانبها، وأهم ما يسجف به أو يستر به الأنطاع، وتوجد ثلاثة أصناف من السجف وهى الكبيرة والمتوسطة والصغيرة. فالصنف الكبير يسجف أو يستر بنصف نطع لكل جهة وهى سماء وجانبه الأيمن وجانبه الأيسر والمقدمة والمؤخرة. والصنف المتوسط يسجف أو يستر بثلث نطع لكل جهة والصنف الصغير يسجف أو يغطى بربع نطع لكل جهة(٣٧).

ألوان الخرط: يعمل الحرفيون بالخراطة على تلوين مصنوعاتهم. وهناك نوعان من ألوان الخراطة هما النوع الخاص والنوع الخرجى، والنوع الخاص يتكون من صنفين هما الأسحاقى والسلخ. فالأسحاقى يتكون من شكلين هما الأبيض ويسمى الأرزى وظهارته بيضاء. هذا الشكل له خمسة ألوان هى أصفر أخضر، أحمر، أسود، أبيض، والشكل الثانى وهو السلخ. فيتكون من خمسة ألوان ويتكون من ثلاثة ألوان ومن لونين فالخمسة ألوان هى: أخضر، أصفر، أحمر زنجفر، أبيض، أسود. بالإضافة إلى ذلك فهناك النوع الخرجى وهو الطرح.

وعلى ذلك فأجرة نفس القطعة فى الصنفين الأسحاقى والسلخ تساوى نصف ثمنها. أما أجرة نقشها فى الصنف الطرح فتساوى ربع ثمنها(٣٨).

تحبيل وتشتيت الآنية المخروطة: اهتم الحرفيون بوضع تحبيل وتشتيت للآنية المخروطة، وكما يتضح أن التحبيل هو وضع حبال ملونة متداخلة من الطول والعرض بحيث يشكل نسيجا متماسا وهى أشبه بعمل النسيج. أما التشتيت فهو وضع هذه الحبال المتداخلة بطريقة متباعدة أو مشتتة بحيث يجعل نسيج الحبال أشبه بشبكة حبال مصنوعة حول الآنية المخروطة. ويتم وضع عملية التحبيل والتشتيت للآنية المخروطة من أسفلها وأجانبها أو استدارتها وتوضع على قدر مقاس الآنية، والهدف من هذا التحبيل والتشتيت هو الإمساك بالآنية ونقلها وتعليقها.

وهناك ثلاثة أصناف من الشتوت هى: الأسحاقى، والسلخ، والطرح، فالأسحاقى وهو حبل رفيع محض غال مفضض، والسلخ، والطرح خيطهما رفيع من السلب، فالسلخ خيط أبيض رفيع منقوش، والطرح خيط أبيض ساذج. وعلى ذلك فهناك تحديد لكل نوع من الصناعة الخشبية المخروطة وأجرة شتوتها فمثلا (مشربة تسع أربعة أخباس سنقرى، (أجرة شتوتها) اسحاقى بدرهم وخمسة فلوس، سلخ خمسة قراريط، طرح سدس، نقش سبع فلوس).

كذلك يحدد طول وعرض وعمق الآنية الخشبية وقيمتها ونقشها والمثال على ذلك (القصاع الموكبية الكبيرة دينارين، سلخ نصف وثلث، نقش نصف وربع، شت ربع وثمن، حبك قيراط، وطول الموكبية بغطائها شبر وخمس أصابع مضمومة، وعرضها شبر وأصبعين، وعمقها من غير غطائها فتح وشبر أصبع).

ضريبة أشغال الخرط: تحدد قيمة الخرط لكل إناء خشبى مخروط حسب سعته وحجمه ونوع نقشه فمثلا (مشارب كبار، تسع المشربة زبديين سنقرى، ماكان اسحاقى منقوش المشربة بنصف وثمن، ما كان سلخ منقوش، المشربة بنصف، ما كان طرح بطراز، المشربة بربع وثمن) وتختلف قيمة الإناء المخروط المتوسط والصغير عن الكبير وعن الأنواع الأخرى. ونوع نقشه من إسحاقى إلى سلخ إلى طرح(٣٩)

الصناعات النسجية (الملبوسات)

تحتل الصناعات النسجية (الملبوسات) المراتب الأولى بين أنواع المصنوعات. نظرا لأهمية هذه الصناعة وضرورة احتياج شرائح المجتمع

لها، فهي تستر عورته وتقيه من الحر والبرد، وتعطيه التزين المناسب لثرائه وترفه ومكانته الاجتماعية. وجاء اهتمام المسلمين في العصر الإسلامي بصناعة المنسوجات نتيجة احتياجهم لها ونتيجة ورود التعاليم الدينية التي تحث على التزين عند كل مسجد وتحث على الأدناء بجلابيب النساء وغيرها، فأدى ذلك إلى زيادة النشاط الصناعي للملبوسات في جميع الأمصار الإسلامية ومنها اليمن.

وقد اشتهرت اليمن منذ القديم بصناعة الملبوسات منها البرود. وهي كساء مخطط يلتحق به والشمائل وهي كساء من صوف أو شعر يتغطى به أو يتوشح ويلتحف به. والوصائل وهي ثياب ملونة بأحمر أو أبيض أو مخططة بأبيض وأحمر(٤٠).

وأكثر ما اشتهرت به اليمن الثياب الموشاة (المنقوشة) ومن أهمها البرود التي تبلغ قيمة البرد منها خمسمائة دينار(٤١). وازدهار صناعة الملبوسات في عهد الدولة الرسولية وخاصة في القرن السابع الهجري، نتيجة لما وصل إليه المجتمع اليمني والدولة من حياة الترف والرفاه، فأدى ذلك إلى كثرة شراء الملبوسات، فانعكس ذلك على زيادة عدد الحرفيين وتمكنهم من التفنن والتأنق في صناعة الملبوسات.

أدت عملية الاهتمام بصناعة الملبوسات في اليمن إلى وجود عدة حرف مساعدة لها، منها حرفة الحياكة (النسيج) والخياطة وحرفة التطريز، وحرفة الصباغة، وحرفة الغزل، وحرفة الخطابة، وغيرها. وأهم المناطق التي اشتهرت بصناعة المنسوجات في اليمن هي زبيد، عدن، ظفار، لحج، وغالبا ما كانت الملبوسات من القطن والكتان والحرير والصوف بالإضافة إلى المخلوط من صنفين أو ثلاثة.

أهم أنواع المنسوجات (الملبوسات):

تنوعت صناعة الملبوسات في اليمن منها القطعة الواحدة التي تستر الجسم كله للرجال والنساء مثل القميص والثوب، ومنها ما يتلفح به فوق هذه الملابس، ومنها ما يلبسه الرجال لنصف الجسم العلوي، أو نصفه السفلي، ومنها ما يلبس تحت القمصان أو الأثواب مثل السراويل. ومنها ما يلبس فوق الملابس كالدرعة والجبة وغيرها.

نصف تلك الأنواع بالآتي:

ملابس الجسم كله: تعتبر الملابس التي تتكون من قطعة واحدة والتي

تستر الجسم كله، من أهم الملابس عند المسلمين ومن أهمها القمصان والثياب. ويلبسها الرجال والنساء تحت نفس التسمية. ومن الأهمية أن تلبس النساء تحت القميص أو الثوب سراويل وتربط برباط تسمى الحزة، كما يلبس الرجال السراويل، وتسمى القميص والحزة والسراويل التي تلبسها النساء باسم (شمقشة)، كما يسمى القميص والحزة والسراويل عند الرجال باسم (بغلطاق).

وهناك ملابس أخرى من قطعة واحدة تستر الجسم كله أهمها (الحبرة والجوخ) فالحبرة (ثوب من قطن أو كتان أو غيره مخطط كان يصنع باليمن، وملاءة من الحرير كانت نساء مصر ترتديه) والجوخ (تنسج من الصوف صنف ناعم)(٤٢).

البذلة: ومن ضمن الملابس التي تستر الجسم كله البذلة، وهي تتكون من قميص وحزة وبغلطاق. وهذا البغلطاق هو ثوب بدون أكمام مفتوح الصدر، ويلبس تحت الفرجية، أي أن البذلة يلبس فوقها ملابس فوقية.

وغالبا ما يوضع للبذلة بطانة وخاصة البغلطاق والتي تبطن بالصنادات (الملاحف) أو تبطن بفراء الحيوان (بقندس)، ومن جهة أنواع البغلطاق فهناك بغلطاف رجالي أو نسائي، أو بكم ضيق أو صدرية بدون أكمام، وبالنسبة لأنواع البذلات وألوانها، فهناك عدة أنواع وألوان منها البذلة التامة والوسط، وألوانها منها ما هو لون واحد ساذج ومنها ما هو مطرز تطريز رفيع أو تطريز متوسط أو تطريز بخيوط الذهب(٤٣).

الملابس الفوقية: غالبا لا يكتفي الكثير من الناس بلباس القميص والثوب والحبرة لوحدها، فعادة ما يلبسون فوقها ملابس أخرى مثل الجبة والدراعة، والفرجية، وهذه الملابس كلها عبارة عن ثياب من قطعة واحدة واسعة الأكمام مشقوقة في المقدمة، كذلك يندرج القباء ضمن الملابس الفوقية وهو (ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص أو وينمنطق عليه)، وعادة ما يتم تزيين مقدمة الملابس الفوقية والتي تغطي الجسم كله بعدة أشكال وألوان، من ذلك وضع للدراعة محراب في صدر الثوب مصنوع من خيوط حريرية ومعدنية ذهبية وفضية وهو مطرز بعدة ألوان وأشكال، كذلك وضع للدراعة وغيرها من الملابس طوق وهو ياقة الدراعة أو رقبته أو ما يحيط بالعنق مطرزة بعدة ألوان وأشكال(٤٤).

ملامح التلفح: اعتاد الكثير من الناس في اليمن وغيرها أن يلبسوا ملابس فوقية يلتحفون بها أو يتوشحون بها، مثل الرداء، والملحفة، وعادة ما تلبس

ملابس التلحف فوق القمصان أو الثياب، وهي سهلة اللبس والنزع. وتساعد في حماية الجسم من البرودة، ومن ضمن ما يتلحف به (البرود) وهو كساء مخطط يلتحف به، والشملة وهي (قطعة من الثياب ذات خمل يتوشح ويلتحف بها أو كساء من صوف أو شعر يتغطى به ويلتحف به).

وقد تعددت أنواع الشمال فمنها الشملة الكبيرة والوسط للرجال، ومنها شملة للأولاد الصغار، وبالنسبة لألوان الشمال فهناك شملة بدنها أسود وأطرافها أحمر، وهناك شملة بدنها أسود وأطرافها أبيض، وبالإضافة إلى ذلك هناك الشملة المطرف والمخصر وهي التي أطرافها أحمر ومخططة بأبيض وغير ذلك[٤٥].

ملابس نصفية: استخدم بعض الناس في اليمن وغيرها ملابس نصفية مثل الإزار والفوطة، وهناك طريقتان لاستخدام هذه الملابس النصفية الطريقة الأولى هي أن تلبس للنصف السفلي للرجل مثل الأزار والفوط وللنصف العلوي للرجال مثل الرداء، وغالبا ما تستخدم هذه الطريقة في المناطق الريفية، أما المدن فغالبا لا تستخدم هذه الطريقة، والطريقة الثانية هي أن يلبس الفوطة والأزار فوق القمصان أو الثياب أو تحتها وذلك من أجل حماية الملابس والقمصان من التوسخ أو حماية الجسم من البرد إذا كانت القمصان خفيفة غير سميكة وهذه الطريقة هي الأكثر استخداماً.

ملابس تحتية: من الأهمية وجود ملابس تحتية للرجال والنساء لزيادة الاستتار، من ذلك السراويل التي هي جزء أساسي من لباس الرجال والنساء، إضافة إلى ذلك فإن الأزار والفوط كثيرا ما يستخدم كملابس تحتية للرجال والنساء، وهي تساعد في حماية القمصان والثياب كذلك تستخدم الغلالة والشعار كملابس تحتية.

تصنع الملابس من الحرير والكتان والقطن أو الصوف والمخلوط من نوعين منها أو أكثر. وغالبا ما تصنع ملابس النساء من الحرير والمخلوط بكتان أو قطن. وأحيانا تصنع من القطن أو الكتان وغيرهما. أما ملابس الرجال فغالبا ما تصنع من القطن أو الكتان أو الصوف أو المخلوط.

ولتوضيح أنواع الملابس نورد أسماء هذه الملابس التي تغطي الجسم كله والفوقية والنصفية والتحتية مع التعريف بها كما وردت في المعجم الوجيز.

أسماء الملابس التي تغطي الجسم كله وتتكون من قطعة واحدة:

١- قميص: الشعار تحت الدثار ولبس رقيق يرتدي تحت السترة غالبا.

٢- الثوب: ما يلبس: ولفة كاملة من القماش مختلف المقدار.
٣- الحبرة: ثوب من قطن أو كتان مخطط كان يصنع باليمن وملاءة من الحرير ترنديها نساء مصر.
٤- الجوخ: ينسج من صوف ضيق ناعم.
٥- الغلالة: ثوب رقيق يلبس تحت الدثار وهي أيضا من ملابس النساء[٤٦].

أسماء الملابس التي تلبس فوق الثياب:

١- القباء: ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص ويمتنطق عليه.
٢- الجبة: ثوب سابغ (بدون حواشي) واسع الكمين مشقوق المقدمة يلبس فوق الثياب.
٣- الفرجية: ثوب واسع طويل الكمين يتزيا به علماء الدين.
٤- الدراعة: ثوب من صوف والدراعة (جبة) يلبسها الرجال والنساء والدراعة المدرعة ضرب من الثياب مشقوق من المقدمة[٤٧]

أسماء الملابس النصفية التي تلبس فوق الثياب:

١- الشملة: هي شقة من الثياب ذات خمل يتوشح به ويتلفع به وكساء من صوف أو شعر يتغطى به أو يلتحف به.
٢- الفوطة: إزار كالميدعة يلبس فوق الثياب ليقيها في أثناء العمل ونسيجه من قطن أو غيره.
٣- الملاءة: ثوب تلف به المرأة جسمها ينسج من حرير أو قطن.
٤- الرداء: ما يلبس فوق الثياب كالجبة أو العباة والثوب يستر الجزء الأعلى من الجسم فوق الأزار.
٥- البردة: كساء مخطط يلتحف به من قطن أو صوف أو غيره.
٦- الأزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.
٧- الملحفة: الملاءة التي يلتحف بها. واللحاف: ما يلتحف به وغطاء من القطن المضرب يتدثر به النائم.
٨ - الطرحة: كساء يلف على الكتف ويستعمل حديثا بمعنى غطاء ويطرح على الرأس والكتفين ومنه طرحة العروس.
٩- الدثار: الثوب الذي يكون فوق الشعار. والشعار ما ولى جسم الإنسان دون سواه من الثياب[٤٨].

ونورد أنواع الملبوسات التي صنعت في اليمن وهي الآتي:

١- الثوب الغال، كالملاية الطفارية، المصرية، الثوب، الدرى، الحبرة، المطرف.

٢- الملحفة اللحجية: البندقية، الصندات (الملاحف) المقاطع.

٣- الفوطة اللحجي: الظفارى، السكندرى، المعزى، السوسى، الشحرية، الأبينية، العشرقية.

٤- الثوب الظفارى، الكبير، والصغير، القميص، السراويل، الحزة، البغلطاق، الشمقشة، البذلة، الجبة، الفرجية، الدراعة، القباء، الجوخ.

٥- الحرير الزبيدى: عمائم زبيدية، شاشات، سباعات، مطارح، رداء، أبراد، محارم، آزار، كوفية[٤٩].

صناعة الملابس الحريرية:

أولى حكام الدولة الرسولية فى اليمن اهتماماً كبيراً فى صناعة المنسوجات الحريرية، فانشأوا دار للديباج فى كل من زبيد وعدن، والديباج (ضرب من الثياب سداه ولحمته من الحرير)[٥٠]

أصناف الحرير:

المكمم - الخطاى - الصينى - الابريسم: وهو أحسن الحرير
العتابى: وهو ثوب مخطط بأبيض وأسود يشبه جلد الحمار الوحشى.

أنواع الحرير حسب السعر:

المكمم - الأقساط - الباجوى - القصرى - الخضارى - الخطاى

ويصنع من الحرير حمالات أو علاقات أو جعب للأسلحة مثل حمالة السيف وحمالة الخنجر وحمالة كنانة وحمالة الهيكل وغيرها، ويصنع من الحرير والقطن والكتان الفوط فى كل من الشحر وابين وعدن، ولحج وزبيد وغيرها، كذلك صنع فى اليمن الكوافى المطرزة والمنقوشة بعدة ألوان منها كوفية منقوشة أو مطرزة (بجامات منبت مخرم) وكوفية مطرزة بجامات وعصابة على شكل نبات[٥١].

المفارش: من قماش القطن مفارش وأغطية داخلها حشوة من العطب (القطن) وهى عدة أنواع منها الفرش الكبيرة التى يزن عطبها (قطنها) فقط ٢٨/رطلا والمتوسطة ١٦/ رطلا و١٥ رطلا أما الأغطية التى تصنع داخل قماشها

حشو قطن تسمى لحاف، ويصنع منها اللحاف الكبير الذى يزن عطبة (قطنه) فقط سبعة أرطال والمتوسط ستة أرطال وخمسة ارطال. كذلك يصنع من القماش فى حشو قطن عدة مخاد (وسائد) منها المخاد الكبيرة والتى يزن عطبها (قطنها) فقط عشرة أرطال والمتوسط ثمانية أرطال، وسبعة أرطال، كذلك يصنع مخدة مدورة كبيرة وزن عطبها عشرة أرطال[٥٢].

هناك عدة حرف لها علاقة بصناعة الملبوسات منها:

١- التطريز: وهو نقش الثوب وزخرفته وهناك أربعة أنواع من التطريز كل نوع له اسم وهى (الكرجى، والقمرى، والفكهرى، والزبيدى) وهذه الأنواع الأربعة تطرز بها صنفين من الحرير هما الحرير البندقى، والحرير السوسى، ويطرز كل نوع من الأنواع السابقة الصنفين الحرير بمستويين هما المستوى الرفيع المغشى والمستوى المتوسط. أى أن الحرير السوسى يطرز بالمستوى الرفيع المغشى لكل نوع من الأنواع السابقة الذكر، ويطرز بالمستوى المتوسط المغشى لكل نوع وهكذا الحرير البندقى، وكل نوع مع كل صنف، وكل مستوى له ألوانه وسعره[٥٣].

٢- التخريم: وهى وضع زخرفة على الثوب على شكل ثقوب، وأهم الملبوسات الحريرية التى يتم تخريمها، صنفان هما الحرير البندقى، والحرير السوسى، وكل صنف من هذين الحرير يخرم بمستويين هما المستوى العال والمستوى المتوسط، وكل مستوى وصنف له ألوانه وأسعاره.

٣- الثقوب: وتوجد عدة نماذج من الثقوب منها المدورة الكبيرة والمدورة الصغيرة، والمستطيلة، (المطولة)، وتوضع هذه الثقوب ثلاث صفات أو أكثر فى الأطراف السفلية للثياب أو القصمان، وتطرز حولها بعدة ألوان.

٤- تحبيش الشريط:

وهى عملية وضع شريط للثوب مصنوع من خطوط حريرية أو فضية أو ذهبية. بالاضافة إلى نوع من الزركشة يرسم فيها أنواع من الأشكال مثل الوفواق وغيره، وتتم عملية التحبيش للشريط بمستويين هما المستوى العال والمستوى المتوسط، وكل مستوى مع كل شكل له ألوانه وسعره[٥٤].

٥- الحظاية:

وهى وضع حواشى مزخرفة على أطراف الثوب، أو هى وضع عدة خيوط ملونة تشكل شريطاً أسفل الثوب وأطرافه والمقدمة (الصدر) والأكمام، وذلك لتزين الثوب وحمايته من التمزق، وتوجد أصناف كثيرة من الحظاية أو

الأشكال الزخرفية هى الآتى: (شبكة، نقش، كوثر خاناد، ميمات، صدر الباز، شمسى، علسة، سن القار، عين الدرة، أميال، حجوب). وهناك أنواع كثيرة من الثياب الحريرية التى تدخل عليها الحظاية أو الأشكال الزخرفية، مثل الملاية الطفارية و اللحجى، والمصرية، والحبرة، والمطرف، والملحفة البندقى واللحجى، والقوطة الظفارى واللحجى، والثوب الدرى، وغير ذلك من الثياب العوال الحرير، ويتم وضع الحظاية أو الأشكال الزخرفية على الثياب الكبار أو الصغار وكل شكل زخرفى ونوع الملبس ومقاسه له ألوانه وأسعاره.

وعن كيفية وضع الحظاية أو الأشكال الزخرفية للثياب فإنه يتم وضعها على أطراف الثوب من الجهتين البطانة والظهارة أو الداخلية والخارجية.

٦- مدة التطريز أو النقش:

تستغرق أعمال التطريز أو النقش أوقاتا طويلة من الصانع وذلك بحسب أنواع التطريز وأشكالها وألوانها، فمساحة الشبر أى الذى يساوى ٢٥ سنتيمتر يطرزه الصانع (نقش عزيز فى يومين) ومثلا لذلك (الدراعة النقش العميقة) يستغرق مدة شهرين والجفت يوم، أما البغلطاق العتاب فيستغرق النقش يومين و(الكوفية بجامات وعصابة الجميع نبات) تستغرق ثلاثة أيام[٥٥].

٧- التفصيل:

تعتبر عملية التفصيل من أهم العمليات التى تحول القماش أو الثياب إلى ملابس، وقد أهتم بها الحرفيون اليمنيون أهتماماً كبيراً. فأنشأوا لها حرفة خاصة بها هى الحياكة والخياطة وهى عملية تقطيع الملابس إلى عدة قطع على مقاس الشخص ثم خياطتها بما يلاءم مقاسه، وفى هذه العملية يتم تحديد طريقة تفصيل الثياب وسعرها وغير ذلك، فمثلا (البغلطاق) أو الجبة أو الجوخة طويل الكم، بعد غسله، (ينعمل من قطعة ونصف، وطوله ستة أشبار ونصف ودوره أثنى عشر شبرا وطول كمه ثلاثة أشبار) ومثال أخر (جوخة مشدودة على سبيل الجبة للدفاء ينعمل من قصبة ونصف يكون طولها ستة أشبار ونصف ودورها أثنى عشر شبرا وكمها أربعة أشبار) و(الأزرق والفستقى ينعمل من قصبتين فى عرض الأسقلاط هذا هو التفصيل المعتاد، بحيث يكون طولها سبعة أشبار ونصف ودور سفلها أربعة عشر شبرا وكمها طوله خمسة أشبار ونصف)[٥٦].

٨- الأزار:

تتم عملية تركيب الأزار للعديد من الملابس، ويوجد عدة أنواع من التركيبات وتحسب التركيبة بعدد خيوطها فمنها التركيبة الكبيرة وعدد خيوطها ٢٥ خيطا من حرير التطريز، والتركيبة الوسطانية وعدد خيوطها ٢٥

من حرير الخياطة، والتركيبة الصغيرة وعدد خيوطها ١٩ خيطا من حرير الخياطة، وكما يتضح أن طريقة استخدام هذه التركيبة من الأزار أنه عند شد الخيوط يتم أغلاق الثوب وعند أرخائها يتم فتحه[٥٧].

٩- الصباغة:

تعتبر الصباغة من أهم العمليات التى تعطى المنسوجات أو الثياب جمالها ورونقها وقيمتها. وهى من أبرز مراحل صناعة المنسوجات، وهناك طريقتان للصباغة أحداهما صباغة الخيوط ثم صناعة الثياب بعدة خيوط ملونة. والثانية تلوين الثياب أو القماش بعد نسجها وقصارتها، وقد تمكن الحرفيون اليمنيون من جعل منسوجاتهم أكثر شهرة وجودة عن طريق إضافة تقنيات جديدة منذ القديم. باستخدام الأصباغ النباتية لتلوين المنسوجات بالألوان المتعددة وذلك لتوفر الأشجار التى تستخرج منها هذه الألوان مثل الورس والعصفر والفوة. وأهم الألوان التى استخدمها اليمنيون هى الأبيض، الأسود، الأصفر، الأخضر، الفرطى (وهو الأزرق غير الصافى) والأزرق، والأخضر الفستقى، وهناك ألوان أخرى هى النارنجى، البقمى، الذهبى، العودى، الخمرى، البنفسجى[٥٨].

١٠- عملية القصارة:

تهتم القصارة بتجهيز المنسوجات لصباغتها، فبعد غزل المنسوجات يتم قصارتها و هى (إزالة اللون من ألياف النسيج أو تخفيفه)، ليصبح أبيض ناعماً، والهدف من قصارة الثياب أو المنسوجات هى تنظيفها بإخراج ما فيها من الأوساخ والدنس والبيس والغلط، ولكل نوع من أنواع المنسوجات طريقة لاستخدام القصارة، فهناك طريقة لقص الحرير الخالص «الصرف» أو الحرير المخلوط بكتان أو الكتان أو القطن أو الصوف أو غيرها، ولكل نوع من أنواع الحرير طريقة للقصارة فالحرير العتابى طريقة وللحرير السوسى أخرى، وللملاحف والملايات طرق مختلفة، وطريقة القصارة وصفها صاحب كتاب المخترع ملخصها على الماء بالصابون ثم وضع منسوج الحرير أو غيره وتقليبه بقصب اليرع حتى يتم تصفيته، ثم إخراجه وغسله بالماء العذب ثم تجفيفه فى الشمس وبعد ذلك تتم عملية صباغته[٥٩].

١١- الصباغة هى تلوين الثياب: ولك نوع من ألوان الصباغة طريقة مع كل نوع من أنواع الثياب أو المنسوجات الحريرية أو القطنية أو الكتانية أو الصوفية. فالحرير الذى يلون بأحمر له طريقة غير طريقة تلوينه بأخضر. وهناك ذكر لكل نوع من المنسوجات فى كتاب المخترع وهو يذكر مادة اللون

نباتية أو معدنية أو حيوانية، ونسب خلطها وتركيبها وكيفية معالجتها، لكل نوع من الأقمشة، وأى لون تريده، وملخص طريقة وضع الصباغة هى على المادة الملونة بالماء مع الثياب أو المنسوجات، ثم عرك الثياب وعصرها وتنظيفها وتجفيفها.

الأمثلة : فمثلا لذلك اللون الأصفر له طريقتان أحدهما وضع شب مسحوق وتذويبها مع الماء ثم وضع الحرير فيه وتركه لمدة ليلة، ثم غسله بعد ذلك وضع حشيشة الصباغ وصب الماء عليه ووضع الحرير فيه وعركه وعصره عدة مرات، والطريقة الثانية وضع مادة الهرد بدلا عن الشب، وتتم عملية الغلى والعرك والتنظيف بطريقة تختلف عن الأولى.

ومثال آخر اللون الذهبى : يدق مقدار من قشر الرمان ويوضع فى الماء حتى يغلى ثم وضع الحرير فيه وتركه لمدة ساعة، ثم يضاف إليه مقدار من الزاج المسحوق، وبترك يغلى جيدا، ثم ينزل ويغسل بالماء النقى، وبعد ذلك يوضع ما صفى من نقع خل الخمر والحديد الذى نقع لمدة ثلاثة أيام، ويترك يغلى غلياً جيداً، وبعدها يرمى الحرير فيه ويترك حتى يغلى مرة ثانية غلية خفيفة، ثم ينزل ويترك يبرد ثم يغسل بالماء النقى حتى يخرج منه جميع الوسخ[٦٠].

الخاتمة : من خلال استعراض صناعة الجلود والخياطة والمصنوعات الخشبية والملبوسات فى اليمن فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى، نجد أن الحرفيين اليمنيين فى هذه الصناعات كان لديهم غالبا ما يكفى احتياجهم من المصنوعات، أو ما يسمى بالاكتفاء الذاتى، وهى عملية مهمة أن يتمكن اليمنيون من تحقيق الكثير من احتياجهم من صناعة الأوانى والأوعية المنزلية الخشبية مثل الأقداح والقصع والمشارب، وما يكفى احتياجهم من الأثاث المنزلية الخشبية من سرائر (قعائد) وكراسى لجلوسهم ووضع أنواع الأشياء فوقها مثل كراسى الماء وكراسى المطابخ وغيرها. وكذلك صنع اليمنيون ما يكفى احتياجهم من الملبوسات من قمصان وأثواب وملاحف وأزر، وغيرها من الملابس التى تغطى الجسم كله أو الملابس الفوقية أو التحتية. بالإضافة إلى ذلك فقد صنع الحرفيون اليمنيون ما يكفى حاجتهم من الفرش والحصر والأثاث المنزلية، التى تصنع من الخوص، كما تمكنوا من صناعة ما يكفيهم من الأحذية الجلدية الرجالية والنسائية، كذلك اتقن الحرفيون اليمنيون إجادة صناعة الألوان التى تصبغ بها أنواع الملابس وتزينها وزخرفتها، بالإضافة إلى نقش وزخرفة أنواع المصنوعات الخشبية، وبذلك حقق الحرفيون اليمنيون تقدماً كبيراً فى الصناعة فى اليمن أبان القرن السابع الهجرى.

الهوامش :

١- ابن فضل الله العمرى، شهاب الدين أحمد ت(٧٤٩هـ): مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (ممالك مصر والشام واليمن)، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد الفرنسى، القاهرة، د. ن، ص٥٢، القلقشندى، أبو العباس أحمد ت (٨٢١هـ): صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، جمع دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٢م، ص٣٦، السروري، محمد عبده : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى اليمن فى عهد الدويلات المستقلة، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، اليمن، بيروت، سنة ٢٠٠٤، ص٤٧٠.

٢- لمزيد من التفاصيل انظر، ابن حاتم : السمط الخزرجى : المسجد، العقود، ابن الديبع : قرة العيون، الفضل المزيد

٣-ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد : رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت ١٩٦٤، ص١٤٨، السروري : المرجع السابق، ص ٤٧٥.

٤- نور المعارف فى نظم وقوانين وأعراف اليمن فى عهد المظفر، تحقيق محمد عبد الوحيم جازم، المعهد الفرنسى للآثار والعلوم الاجتماعية صنعاء، مطبعة الآفاق، ط١ سنة ٢٠٠٣م، ١/٣٠.

٥- الهمدانى أبو الحسن بن أحمد ت(٣٦٠هـ): صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد الأكوع، دار الآداب، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ص٣٢١-٣٢٢، الإكليل ج٨، تحقيق محمد الأكوع، مطبعة السنة المحمدية ١٩٦٣م، ٨٦/٨، السروري: الحياة السياسية، ص ٤٧٢.

٦- سورة يس آية رقم ٣٥، محمد عوض الهزايمة، وآخران : الفقه الإسلامية، دار عمان، الأردن، ط١، ١٩٩٩م ص٣٢-١٣٣.

٧- الزيلعى، أحمد عمر : مكة وعلاقتها الخارجية (٣٠١-٤٧٨هـ)، الدار العربية للموسوعات، ط٢، ٢٠٠٥م، ص ٤٧٦.

٨- الهمدانى، صفة، ص٢٣، ٢١٩، ٣١٦، الزيلعى : مكة، ص١٩٠، السروري : الحياة، ص٤٥٤-٤٥٥

٩- الهمدانى، صفة، ص٣٤٠، السروري : الحياة، ص ٤٧٥-٤٧٦

١٠-ابن المجاور : محمد بن مسعود ت(٦٩٠هـ) : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، تحقيق أوسكر لوفغرين، طبع ليدن، مطبعة بريل سنة ١٩٥١م، ص٩٧-٩٨، السروري : الحياة، ص ٤٩١.

١١- الوزير، أحمد بن عبد الله ت(بعد ٤٦٠ هـ) : تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق حسين العمرى، دمشق ط٢، ١٩٨١م، ص١١٥، السروري، الحياة، ص ٤٧٦.

١٢- الزيلعى : مكة، ص، ١٨٩.

١٣- الهمدانى : صفة، ص٢٠١، برهان الدين دلو: جزيرة العرب قبل الإسلام، دار الفارابى، دت، ص١١٤- ١١٦

١٤- مجمع اللغة العربية : المعجم الوجيز، دار التحرير للطبع والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٨٠، ص٥١، ٦٢.

١٥- نور المعارف، ٤٦- ٥.

١٦- نور المعارف، ١/١٥-١٦، عبد الحكيم محمد ثابت العراشى : الدولة الرسولية فى عهد السلطان المظفر الأول يوسف بن عمر (٦٤٧-٦٩٤هـ) دراسة سياسية حضارية، رسالة ماجستير، جامعة عدن،

سنة ٢٠٠٦م، ص١٣٢-١٣٣.

١٧- المعجم الوجيز، ص٢٩٢، مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٣٥٠.

١٨- نور المعارف، ٩، ١٣، ٦٨، ٨٥، ١١٧.

١٩-ابن خرداذبة: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ت(حوالي ٣٠٠ هـ): المسالك والممالك، ليدن، مطبعة بريل، ١٨٨٩م، ص١٣٩، السروري، الحياة، ص ٤٧٥.

٢٠- ابن رستة، أبو علي أحمد بن عمر ت(٢٩٥هـ): الإعلاق النفيسة، طبع ليدن، مطبعة بريل، ١٨٩١م، ص١١٢، السروري، الحياة، ص ٤٧٦.

٢١- الهمداني: الإكليل، ٢/ ٣٢٦، السروري: الحياة، ص ٤٧٦.

٢٢-عبد الله يوسف الغثيم (محقق): جزيرة العرب من كتب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري، ذات السلاسل للطباعة والتوزيع، ط١، ١٩٧٧م، ص٢٧، السروري: الحياة، ص ٤٧٦.

٢٣- نور المعارف، ص١٢-١٤-٢١.

٢٤- نور المعارف، ص٣٣-٣٤.

٢٥- المعجم الوجيز، ص٤٤٧.

٢٦- نور المعارف، ص٢١٦-٢١٧.

٢٧- نور المعارف، ص٨٣.

٢٨- نور المعارف، ص٢١٨-٢١٩.

٢٩- نور المعارف، ص٢٢٠.

٣٠-نور المعارف، ص٢٢٤

٣١- نور المعارف، ص٩٢، ٩٤-٩٦، ٩٦.

٣٢- المعجم الوجيز، ص٢١١، ٤٢٨، ٤٠٩.

٣٣- نور المعارف، ص٣٠، ١٣٨، برهان الدين دلو، مصدر سابق، ص١٢٣، عبد الحكيم العراشي، نفس المرجع، ص ١٣٦، ١٣٥.

٣٤- نور المعارف، ص ١٧٠-٣٣، ٢٢٦-٢٣٦.

٣٥- نور المعارف، ٣٠، ١٧-٤٢، ٢٢٩-٢٣١: المعجم الوجيز، ص ١٦١، ٣٤٧، الرسولي: المختزع، ص١٥٦.

٣٦- نور المعارف، ص١٧، ٢٢١، ٢٣٣، المعجم الوجيز، ص ١٢٨.

٣٧- نور المعارف، ص١٧-٢١، ٨٣-٨٤.

٣٨- نور المعارف، ص٢٣٦-٢٣٨

٣٩- نور المعارف، ص٢١٤-٢١٥، ٢٢٨، ٢٣٦، ٢٤١.

٤٠- ابن سيدة، أبو الحسن علي بن إسماعيل: المخصص، المطبعة الأميرية، بولاق مصر، ١٣١٦هـ، ٤/ ٧٢، ٩٤، برهان الدين دلو: مرجع سابق، ص١١٠، السروري، الحياة، ص٤٧٩-٤٨١، المعجم الوجيز، ص٤٤-٣٥٩.

٤١- أحمد عبد الباقي: معالم الحضارة العربية في القرن الثالث الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١ ١٩٩١م، ص١٢٦، السروري: الحياة، ص٤٨٠.

٤٢- نور المعارف، ص١٢٥، ١٣١، المعجم الوجيز، ص١٢٥.

٤٣- نور المعارف، ص٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٦، ٤١٤، الخطيب: الألقاب، ص٨٢.

٤٤- المعجم الوجيز، ص ٩١، ١٣٢، ٢٢٥، ٢٢٦، ٤٨٩.

٤٥- نور المعارف، ص٣٥٤-٣٥٥، المعجم الوجيز، ص٤٤، ٣٥١.

٤٦- المعجم الوجيز، ص٥١٥، ٥٤٥، ١٣١.

٤٧- المعجم الوجيز، ص، ٩٦، ٢٢٦، ٤٦٥، ٤٨٩ هامش نور المعارف، ص٢٣٧.

٤٨- المعجم الوجيز، ص، ٣٦١، ٣٥١، ٤٨٤، ٥٨٨، ١٥، ٤٤، ٢٢١، ٣٨٨، ٣٤٤، ٥٣٣.

٤٩- نور المعارف، ص٨٢، ١٤٥، ١٣٥، ٢٨٤، ٤٨٦، عبدالحكيم العراشي، نفس المرجع، ص ١٣١، ربيع حامد خليفة، متاسج الطراز الخاصة بمدينة صنعاء، دراسة حول المنسوجات اليمنية في العصر الإسلامي، مجلس الإكليل، عدد ٢وسنة ١٩٨٨م، ص٥١.

٥٠- نور المعارف، ص٦٣، ٦٦٩، المعجم الوجيز، ص٢٦٩.

٥١- نور المعارف، ص١٣٠، ١٣٤، ١٣٦، ٤٨٦-٤٨٨؛ أحمد عبد الباقي: معالم الحضارة، ص١٢٠.

٥٢- نور المعارف، ص٣٢٢-٣٢٣.

٥٣- نور المعارف، ص١٤٣-١٤٤، ٢٨٨، المعجم الوجيز، ص٤٨٩.

٥٤- نورالمعارف، ص١٤٣-١٤٤، ١٥١.

٥٥- نور المعارف، ص١٤٤-١٤٥-١٤٧، ١٤٨.

٥٦- نور المعارف، ص ٢٠٥، ٢٨٦، أحمد عبد الباقي، معالم الحضارة، ص١٢٠.

٥٧- نور المعارف، ص١٤٠.

٥٨- المظفر، يوسف بن عمر بن علي بن رسول ت (٦٩٤هـ/١٢٩٤م): المختزع في فنون الصنع، تحقيق محمد عيسى صالحية، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ١٩٨٩م، ص١٥٩-١٦٨، نور المعارف، ص١٣٠، برهان الدين دلو: مرجع سابق، ص١١٢.

٥٩- المظفر الرسولي: المختزع، ص٣٧، ١٥٩.

٦٠- المظفر الرسولي: المختزع، ص١٦٦.

د. إلهام حسين دعروج(*)

ملاحن بعض الحرفيين فى الأسواق فى مصر المملوكية

الجذور الأولى للملاحن:

إن ما قيل عن الصلة الوثيقة بين الإنسان وحضارته، فى قولهم: «لا إنسان بلا حضارة، ولا حضارة بلا إنسان»، يصدق على الفولكلور، إذ لا مجتمع بلا فولكلور، ولا فولكلور بلا مجتمع، فمادة الفولكلور قديمة قدم الثقافة. أى منذ أن تطورت لدى الإنسان القدرة على التعلم، بمعنى الاستفادة من التجربة، والقدرة على التميز، أى منذ ظهور اللغة التى مكنت الناس من التفاهم فيما بينهم.

وقد دونت مادة الفولكلور(١)، منذ بدأ عصر التدوين، ضمن المواد الأخرى، وهى مواد اشتملت على الكثير من القصص، والخرافات والمعتقدات، والعادات والتقاليد، ومن مثل ما اشتملت عليه كتب الرحالة، والمغامرين، والمكتشفين، والمبشرين، والتجار الأوروبيين، من فولكلور الأمم غير الأوروبية، ويصدق هذا القول على مواد الفولكلور العربى، فهى كذلك قديمة قدم المجتمعات العربية، وهى كذلك رويت ضمن ما روى مشافهة قبل عصر التدوين بالعربية، ثم دونت ضمن ما دون من المعارف العربية، دون أن تفرد لها مصنفات أو مخطوطات خاصة بها(٢).

إن كلمة «التراث الشعبى» مصطلح شامل نطلقه لنعنى به عالما متشابكا من الموروث الحضارى، والبقايا السلوكية والقولية التى بقيت عبر التاريخ، وعبر الانتقال من بيئة إلى بيئة وهو بهذا المصطلح يضم البقايا الأسطورية كما يضم الفولكلور العربى فى البيئات العربية المختلفة سواء كان الفولكلور القولى أو الفولكلور العربى فى البيئات العربية المختلفة سواء كان الفولكلور القولى أو الفولكلور التفعى أو الفولكلور المعارس، وسواء ظل على لغته الفصحى أو تحول إلى العاميات المختلفة السائدة فى كل بيئة من هذه البيئات وسواء كان من الفولكلور النمطى العربى، أم كان من الفولكلور البيئى الذى تفرضه ظروف البيئة

وظروف الممارسات الحياتية فى هذه البيئة، ويضم هذا المصطلح أيضا الأدب الشعبى، المدون والشفاهى وكما هو تراث منقول عبر المكان والزمان[٣].

يرتكز الموروث الشعبى العربى القولى على ما حفظته لنا ذاكرة الحفظة، ثم دونته الأخبار والتفاسير والأدب من حكايات وأخبار وقصص تقصر حينا حتى لاتزيد عن سطور، وتطول حينا حتى تصل إلى حدود الملاحم[٤]. من هذا نجد السير الشعبية التى استولت ليس على الوجدان العربى فحسب، بل على وجدان الشعوب التى ترجمتها.

إن السير الشعبية هى تعبير عن إبداع طوائف الشعب وحفظ قصصهم وتاريخهم إلى جوار تاريخ الملوك والقواد التى ركز عليها أغلب المؤرخين. لذا جاءت السير الشعبية التى اهتمت بعادات وتقاليد فئات الشعب. وأبرزت صور إنسانية غير التى دأب المؤرخون على الكتابة عنها. من أمثلة ذلك صور التجار والعاملين بالأسواق[٥]. بالرغم ما فيها من خيال إلى جانب إظهار الفروسية والشجاعة مثل أبوزيد الهلالى[٦]. فهو صاحب الحيل والمكر وهذا يعبر عن مهارته. كما تحدثت عن النصابين والعيارين والشطار[٧] إلى جانب الجوارى والخصيان والمهرجين والرهبان... إلخ.

ولقد كان لهذا أثره لاشك على لغة السيرة الشعبية، فهى تندرج بنفس الطريقة الزمنية لتخلق لنا اللغة الثالثة التى ليست فصحى بالمعنى الإعرابى، وليست عامية بالمعنى الإقليمى الضيق.. بل هى مزيج بين صحة الفصحى، وبين رقة العامية، بحيث نستطيع أن نقول أن السيرة الشعبية خلقت اللغة المشتركة بين كل أبناء المنطقة، تحمل سمات العاميات المختلفة، ولاتبعد كثيرا عن الفصحى بحسها اللغوى وعبقريتها العرفية.. واتسعت هذه اللغة لعاميات المدن، ولهجات الأقاليم، كما اتسعت للهجات الحرف، ولغات الطوائف. واتسعت أيضا للغات أعجمية من أبناء الشعوب التى تم الاختلاط بها إما اقترابا كاملا، وإما مجاورة ومعايشة، وسنلمح فى السير لكنات المغاربة والأفارقة والشوام والقاهريين والبغداديين وأبناء اليمن، كما سنلمح فى السير عاميات الصيادين والشطار والزعر والحرافيين والبنائين والعطارين والشيالين والكاوية والتجار. كما سنلمح أيضا لغات الروم والعجم واليهود والقساوسة والرهبان[٨].

معنى الملاحن وتشأتها ونموها:

يقول ابن منظور[٩] عن معنى ملاحن من لحن - ولحن الرجل يلحن لحنا: تكلم بلغته وتحقق له لحن لحنا قال له قولا يفهمه عنه ويخفى على غيره لأنه

يميله بالتورية عن الواضح المفهوم. وقال ابن الأثير: اللحن الميل عن جهة الإستقامة قال. لحن فلان فى كلامه إذا مال عن صحيح المنطوق.

يقول الله سبحانه وتعالى عز وجل: «ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفتهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم» صدق الله العظيم[١٠].

إن دلالة لفظة لحن على اختلاف استخداماتها اللغوية تعنى الخفاء والتورية والرمز والسرية والانحراف بالكلام على غير معناه ليفهم من تريد إفهامه ويخفى على غيره، فأول معنى لهذا اللفظ هو ما ذكره ابن فارس، وهو إمالة الشىء عن جهته ثم أطلق اللفظ على الغناء والطرب. لما فيه من تحريك الكلام عن جهته فى الترنم ثم استعمل اللحن بمعنى إنك تريد الشىء فتورى عنه أو ترمز إليه بقول أو لفظ آخر. وهناك معنى آخر وهو استخراج معنى معلوم من لفظ مجهول مثل تغيير حروف كلمة معينة أو تقديم حرف على حرف أو قراءتها معكوسة إلى غير ذلك مثلا كلمة سعد تقال دعس مثلا كلمة سابع تقال عابس وكلمة أسد تقال دأس.. إلخ[١١].

روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أثناء غزوة الخندق أنه أرسل بعض الصحابة إلى بنى قريظة ليتأكد من صدق عهدهم معه. فقال عليه الصلاة والسلام: إن كان حقا فالحنوا لى لحنا أعرفه، فلما رجع إليه الرسل ذكروا له كلمتى العضل والقارة وهما اسما قبيلتان غدرتا بأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من قبل. فعلم النبى صلى الله عليه وسلم من ذلك إن بنى قريظة نكثوا عهدهم[١٢].

الملاحن هى لغة سرية شعبية لأرباب الحرف المختلفة. لكل حرفة رموز خاصة. انتقلت من حرفى إلى آخر فى نطاق الحرفة أو نوع التجارة التى يعملون بها فحفظت مشافهة أكثر مما حفظت بالتدوين، فهى ليست مسجلة أو مكتوبة. لذا ظلت سرية بين أصحابها يتحدثون بها فيما بينهم وهى فى مصر تسمى «السيم» مأخوذة من سيما لقول الله تعالى: «سيماهم فى وجوههم» بمعنى علامتهم أو دلالتهم وأن الألفاظ التى يتكون منها «السيم» هى رمز للحقيقة المقصودة.

ويوجد لهذه اللغة مصطلحات أخرى فى بعض اللغات الأجنبية، فكما هى عند العرب «لحن» فهى عند الإنجليز Slang ويطلق عليها الفرنسيون كلمة Argot وعند الإيطاليين Gergo والسيم عند المصريين.

وقد أفرد الباحث محمد لطفى جمعة جزءا كبيرا من كتابه مباحث فى الفولكلور للغة السرية أو الملاحن ويقول أن اللحن أو اللغة السرية المشافهة

بين أفراد كل طائفة أو فئة يعرفون مفرداتها[١٣]. كما وضع قاموسا لكل ما استطاع جمعه من مفردات لغة سرية لفئات وطوائف مختلفة كما نقل آراء العلماء الغربيين في هذا الموضوع مثل باتزيني Panzine الذي وضع قاموسا سنة ١٩٠٥م للغات بعض الحرفيين مثل صانعي الحرير والنجارين والبحارة الإيطاليين، ونيتشفورو Neceforo الذي وضع القواعد الأساسية للغات الرمزية سنة ١٨٩٧ وخاصة اللغة القديمة للمتشردين واللصوص (Cant) وفرق بينها وبين لفظة Slang الأحدث[١٤].

يرجع بعضهم أصل اللغات السرية إلى اللغة العبرية أو الفارسية أو التركية أو الهندية، ويذهبون إلى أن اللغة السرية أو ملاحن الصاغة بالذات في مصر أقرب إلى اللغة العبرية، بل إنها مشتقة من هذه اللغة بشكل يكاد يكون كاملا، لأن اليهود في مصر كانوا يستأثرون بتجارة المصوغات الذهبية فاصطنعوا لأنفسهم لغة سرية يتفاهمون بها فيما بينهم حتى يسهل عليهم غش الزبائن أو بيع البضاعة سيئة الصنع أو بيعها بأقل من وزنها الحقيقي، فكلمة يافت أي زبون جيد أصلها في اللغة العبرية كلمة ياقاه أي جيد، كما أن كلمة دفش التي يستخدمها الصاغة بمعنى الزبون الغني أو المربح معناها في العبرية عسل»[١٥].

يقول الأستاذ/ رابح لطفي.. لانعتقد أن ملاحن بعض طوائف الحرفيين على إطلاقها ترجع في أصولها إلى اللغة العبرية أو التركية أو الفارسية أو غيرها من اللغات، ذلك أننا نلاحظ أن بعض مفردات هذه اللغة مستمدة مباشرة من الحرفة ذاتها أو الأدوات التي تستعمل مباشرة من الحرفة ذاتها أو الأدوات التي تستعمل فيها، فالرجل أو الزبون عند المنجدين مثلا يسمى الكستبان والفتاة أو المرأة تسمى إبرة، وواضح من ذلك أن هذين اللحنين من الأدوات التي يستعملها المنجدون في حرفتهم، كذلك المرأة عند المعماريين والنجارين تسمى الخشب والرغيف يسمى العدماك والنقود تسمى قوايم، وهذه كلها ألفاظ مستمدة من حرفة المعمار أو النجارة، في حين أن صاحب المحل عند الطباخين يسمى ساطورا وصاحبة المحل تسمى سكينة وهما أداتان مما يستعملهما الطباخون[١٦].

إن هناك سلسلة لغوية لها عدة حلقات، اللغة الفصيحة الواضحة الجلية المفهومة من الجميع وهي ملك كل إنسان ومدونة في القواميس، ثم تأتي اللغة التي يتكلم بها الجماعات الأقل اختلافا من العامة مثل الأطباء والمحامين والمعلمين، ولكل فئة منهم تعبيرات ومصطلحات فنية ولكنها مفهومة، ثم تأتي اللغة العامية التي يتكلمها طبقات الشعب المختلفة أي العوام كما

ذكرنا. ثم اللغة الحوشية التي هي لغة خاصة ونكاد تكون لحنا أو أرغوتا[١٧] ويتكلمها السوقة والطبقات النازلة، ثم يأتي الظلام التام الحالك حيث توجد الملاحن الحقيقية بين الجماعات التي غايتها إخفاء أفكارها عمن سواها.

ويلاحظ هنا أن ثلاث حلقات من الحلقات الخمس السابقة لايقصد فيها إخفاء الفكر، وأن الحلقتين الأخيرتين فقط يوجد فيهما قصد الإخفاء[١٨].

فاللحن أو الأرغوت إذن هو لغة خاصة تبقى قصدا مكتومة وسرية، ومن خصائصها استعمال كلمات غير مفهومة أو اختراع كلمات جديدة أو قديمة تبهم المعنى، وغايتها أن تكون سلاحا يحمي المتكلمين بها ضد سواهم.

ولدى الحرفيين نوعان من اللغة – لغة خاصة بمدلولات الحرفة أو الصناعة التي يمارسونها فعلى سبيل المثال صناعة المشغولات النحاسية نجد ألفاظا أو مصطلحات مثل: سندال/ ترجة/ أقلام/ صلب الهوا. وفي صناعة مواقد الكيروسين نجد: طربوش/ عفشة الوابور علني وليس هدفها إخفاء أسرار مثل اللغة السرية وهي اللغة الثانية لدى الحرفيين وهي الملاحن مفردها لحن.

فالقصد الوحيد من اللحن إذن هو حماية الفريق أو المثنى الذي يتكلم، كما أن الإصرار على كتمان ألفاظه ومعانيها هو السمة المميزة له، ومن هنا فإن كل لحن هو لغة خاصة محورة ولكن ليست كل لغة خاصة لحنا.

وهناك لكل فئة أو طبقة من المجتمع لغة خاصة حتى اللصوص لهم لغة خاصة وقد أشرنا لذلك الجاحظ في مقدمة كتابه عن نوادر البخلاء قال «ذكرت حفظك الله أنك قرأت كتابي في تصنيف حيل لصوص النهار، وفي تفصيل حيل سراق الليل»[١٩].

وقد وضع العلامة نيتشفورو Neceforo سنة ١٨٩٧ قاعدتين أساسيتين للغات الرمزية، الأولى أن كل جماعة تتألف من اثنين فأكثر وتشعر بالاحتياج للدفاع عن نفسها ضد الوسط الذي تعيش فيه، تخترع أرغوتا أو لحنا تخفي بواسطته أفكارها عن غير أعضائها. هذه القاعدة هي قانون الوجود أو المنشأ للغات الرمزية أو سبب اختراعها.

والقاعدة الثانية هي أنه كلما اشتدت ضراوة الدفاع واشتد الصراع وحميت نار الجهاد بين الطائفة المخصوصة وبين الوسط الذي تعيش فيه، كلما اتسع نطاق اللغة الرمزية. هذه القاعدة هي قانون نمو اللغات الرمزية أو سبب تقويتها[٢٠].

إطلالة سريعة على عصر المماليك

يقول د. سعيد عاشور[٢١] أن هناك عدة عوامل أدت إلى طبع الحياة الاجتماعية في مصر في عصر المماليك بطابع خاص مميز أهمها طبقة المماليك

بالذات فهم دخلوا مصر وحكموا المصريين حكما مستقلا مدة تزيد على قرنين ونصف من الزمان. ولم يحاولوا الاختلاط بالمصريين أو يتأثروا بنظمهم وعاداتهم، بل ظل الاتصال أو الاختلاط بطريقة محدودة.

أكثر المماليك من شراء الرقيق لتكون لهم عصبية يعتمدون عليها في حكم البلاد[٢٦].

ويرتبط ذلك بالمماليك الوافدة الذين هاجر أغلبهم من بلاد المغول أحرارا لا أجلابا مملوكين. وملأ المغول مصر وانتشرت بها عاداتهم وطرقهم[٢٧] لذا ظهرت لغة جديدة يرجع أصلها إلى لغة هؤلاء المماليك الأصلية.

إن المماليك برغم ابتعادهم عن الناس انقسموا فيما بينهم إلى أحزاب وشيع لكل حزب زعيم ،وكان المملوك شديد التمسك بالأمير أو السلطان الذى ابتاعه وكان عظيم التقييد بحزبه وبأسرته حتى بعد وفاته بل بعد أجيال عدة ويدل على ذلك أننا نجد منهم: الظاهرون والمؤيديون والأشرفيون وغيرهم ممن تسموا بأسماء قوادهم وسلاطينهم[٢٨] كما كان فى نفوس المماليك إلى جانب ذلك خيانة ومثالب وإن ظهر بينهم حكام معتدلون محسنون، لكن لاننسى أنهم صدوا الصليبيين والمغول عن العالم العربى.

اهتم المماليك بتعليم فنون الحرب ونالوا قسطا وافرا من الثقافة العسكرية وكانوا يربون فى مدارس الحرب والسلم وكانوا فى حداثة سنهم ينبغون أحيانا فى بعض العلوم كالفلسفة والفقه. كما فى الفروسية واستعمال الأسلحة ليصيرون جديرين بالوظائف السامية وولاية الأمور[٢٩]. مثلما كانوا بارعين فى أساليبهم الحربية التى نصرتهم على أعداء الإسلام.

قسم ابن خلدون[٣٠] تقسيمان أساسيان بمصر فى عصر المماليك «إنما هو سلطان ورعية» بمعنى «هناك طبقة حاكمة مسيطرة تمثل السادة من المماليك وطبقة من المحكومين المغلوبين على أمرهم يمثلون أهل مصر جميعا أو المجتمع المصرى ككل.

نمت العلاقات التجارية بين الشرق والغرب نتيجة الحروب الصليبية واستمرت رغم ذلك فى نمو وازدياد وأصبح للتجار الكبار بالذات وضع مميز فى المجتمع فى ذلك الوقت ومكانة بارزة فى مختلف الأنحاء. كثرت الثروات فى أيدى التجار لذا صاروا مطمع لسلاطين المماليك فغالوا فى فرض الرسوم والضرائب كما كثرت المصادرات ويتحدث المقريزى[٣٢] أن التجار دعا بعضهم على أنفسهم أن يغرقهم الله حتى يستريحوا مما هم فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة فيهم.

بالنسبة للصناع وأرباب الحرف فقد كان بمصر فى هذا العصر طوائف كبيرة وكثيرة من الصناع وأصحاب الحرف والمهن التى كانت تخضع لنظام

النقابات السائر بين أفراد كل حرفة أو صنعة أو مهنة[٣٨] ويرأس كل طائفة شيخ ينتخبه الأساتذة من رجال الحرفة وبذلك يصبح المتصرف الأول للحرفة ويعاونه رئيس وأمين صندوق وكاتب: ويلى هذا الشيخ أحد الكبار أو المسنون من بين أساتذة الحرف ويدعى أسطى أو معلم.

ويروى المقريزى عن قيسارية لطشتمر «كان لهم منظر بهى وتحت يد كل معلم منهم عدة صبيان من أولاد الأتراك وغيرهم»[٣٩].

وكان لشيخ الطائفة سلطة كبيرة على أفراد الطائفة. فيعاقب الأسطى الذى يخالف المهنة، مثل الحط من قيمة الحرفة فى نظر الناس، وإذ تعرض أحد المعلمين للإفلاس أو مر بضائقة مالية فإن الشيخ يعقد اجتماعا يحضره أعضاء الطائفة، ويقدمون له كل ما يحتاج إليه[٤٠]. وهذا يدل على أنه كانت هناك تقاليد راسخة متفق عليها بين أفراد الحرفة الواحدة ولما كان دخول أى فرد غريب فى حرفة من الحرف يؤدى إلى منافسة أصحابها الأصليين، فإنهم لايطلعون أحد على طرق صناعتهم إلا إذا كان من أبنائهم، ولايسمحون لأى شخص مشاركتهم إلا إذا كان قد جاء ليحل محل أحدهم، وفى هذه الحالة يقبل بشروط خاصة[٤١].

تعرضت هذه الطوائف لقهر اقتصادى أدى إلى معاناتها وتدهور أحوالها، ومن مظاهر القهر الاقتصادى الذى تعرضت له هذه الطوائف احتكار الدولة التجارى لبعض السلع الأساسية وتحديد سعرها بما لا يتناسب مع القدرات الشرائية لهذه الطبقات وقد زادت وطأة المعاناة الاقتصادية فى دولة المماليك الثانية (بدأت فى عام ٧٨٤هـ/١٣٢٨م) نظرا لتعدد الفتن والاضطرابات الداخلية وبخاصة فى أواخر هذا العصر مما أثر على الوضع الاقتصادى عموما تأثيرا سلبيا[٤٢] أدى هذا التدهور إلى أن فئات من الحرفيين زاولوا مهنا أخرى إلى جانب حرفتهم الرئيسية مثل قرض الشعر لوصف أحوالهم والتنفيس عن همومهم واستطاع الكثير منهم إثبات وجوده فى الشعر الذى كان يعبر عن حياتهم اليومية ومعاناتهم كما كان وسيلة من وسائل الكسب. كما لجأ البعض منهم للغش التجارى، أو الانضمام للعيارين والشطار[٤٣] والعيارون جماعة من باعة الأسواق الفقراء بدأ ظهورهم فى أواخر القرن الثانى من الهجرة فى بغداد ثم انضم إليهم أفراد من مختلف طبقات المجتمع ثم انتشر العيارون فى سائر المدن الإسلامية بعد ذلك خاصة أثناء الحروب الصليبية إذ أن مناخهم المناسب هو وقت الفتن والحروب والمنازعات لذا نجد أنهم تزايدوا فى عصر المماليك. وكان لهم نظم خاصة بهم مثل نظام كتائب الجيش[٤٤].

وكلمة عيارين فى اللغة (بالشدة على الياء) تعنى الكثير التجوال والطواف وقد اتصفوا بالشجاعة والإقدام والصبر، ولهم مثلما لأهل الفتوة من

صفات، وإن كان منهم من لجأ لطريق اللصوصية وقطع الطريق والحيلة والذكاء فمثلا اللص الشاطر هو الذى يستعمل الحيلة فى موضعها والقوة فى موضعها[٣٥] وهذه الكلمة لغويا تعنى من أعيا أهله من الخبث والدهاء وقد كتب الجاحظ عنهم وعن لغتهم[٣٦] السرية كما أسلفنا مما يدل على هذه اللغة الخاصة بهم كان منبعا أساسيا من منابع قوتهم ودهاءهم.

ولحماية أنفسهم نجد أن فى لغتهم السرية ألفاظا كافية للدلالة على رجال الشرطة وأنواع المسروقات وخططهم للسرقة والتحذير والحماية من رجال الشرطة فهذه الألفاظ تيسر لهم النجاة من الشرطة وعدم إتمام السرقة فيقول أحدهم لزميله «سوح البضاعة لحسن المعلم مقطم» يعنى اترك الشىء المراد سرقته لأن صاحبه منتبه[٣٧]

مما سبق عن ظروف أصحاب الحرف والصناعات فى العصر المملوكى وما وصلوا إليه من قهر وتدهور اقتصادى ترجح الباحثة نمو اللغة السرية بينهم لنفس الأسباب التى سبقت وهى الحماية والتحذير والحديث دون خوف من الشرطة أو المحتسب أو الوالى أو الشيخ أو جامعى الضرائب. كنتاج للتفاعل بينهم وبين بيئتهم المحيطة بهم فى هذا العصر. متخذة شكل ظاهرة اتخذت شكل تيار اجتماعى ظل مستمرا بين أجيال الحرفيين بشكل تلقائى. وهذه الظاهرة لم تصلنا عبر كتابات المؤرخين أو الوثائق التاريخية لماذا؟ لأنها ظلت شفاهية فيما بينهم وتناقلت فيما بينهم بطريقة خاصة بهم فظلت لموروث شعبى يعبر عنه حكمهم وفلسفتهم وتفسيرا لرؤيتهم لأحوالهم الاقتصادية والاجتماعية.

تعتبر ملاحن الحرفيين نوعا من إبداعاتهم الشعبية الخاصة، لكل طائفة منهم تراث شعبى لايزال بوظائفه الحيوية والفكرية مؤثرا إلى اليوم[٣٨]. وهذه الملاحن فى رأى الباحثة كالأغنية الشعبية أو الموال الذى يعبر عن شىء لهم أو لمصر. ومع تغير الظروف الاقتصادية والاجتماعية قد تضيع بعض الكلمات أو الأشعار وتتحول إلى صورة أخرى منها، ولكن حالتها الوظيفية مازالت موجودة مثل قطعة موسيقية قد تتغير بعض النغمات فيها لكن الإيقاع الأصلى مازال كما هو. وهذا وإلا ما كان التطور والارتقاء فى كل نواحى الحياة[٣٩].

بالنسبة لملاحن الحرفيين أو بعضهم فى العصر مماليكى فإننا نجد دخول لغات متعددة ولهجات كثيرة إلى مصر فهناك لغات المماليك المتعددة ولغات أخرى من آسيا وأوروبا تبعا للتبادل التجارى بين الشرق والغرب والحروب الصليبية كذلك التجارة مع أفريقيا إلى جانب اللغة العبرية لغة اليهود الذين كان لهم وجود فى العصر المملوكى وكانوا يتميزون فى المجتمع عن طريق علامة صفراء على عمائهم كما يخبرنا المقريزى[٤٠].

امتزج اليهود بالمجتمع فى عصر المماليك ولم يكونوا مجرد أقلية منعزلة. ولعبوا دورا كبيرا فى بعض النواحى الإدارية وفى مجال الطب الذى صار لهم فيه منزلة رفيعة بخاصة بعد أن استعان بعض سلاطين المماليك بأطباء يهود فى قصورهم[٤١].

كما كان لهم أنشطة اقتصادية كثيرة وعملوا فى حرف كثيرة وفى عدة صناعات على رأسها صناعة الحلى من الذهب والفضة وصناعة الحرير والسكر والنسيج، إلى جانب براعتهم فى المهن التى تتعلق بالمال كالإقراض بالربا وأعمال الصرافة[٤٢].

وقد ذكر العديد من الرحالة[٤٣] أن عددا كبيرا من اليهود كانوا يعملون بصياغة الذهب وتركزت أعمالهم فى منطقة الصاغة التى كانت تقع على الطريق الرئيسى لحى بين القصرين الذى تنتشر به الدكاكين فقد جاء فى وصف ليو الأفريقى باب زويله.. «لتجد كذلك عددا لايحصى من الصناع وقرب هذا الزقاق فندق كبير يسمى خان الخليلى، حيث يقيم التجار الفرس....» ويوجد فى الطابق السفلى من فندق خان الخليلى حجرات يستقبل التجار زبائنهم فى السطح الثمينة ويستطرد ليو «... وتشتمل سلعهم على التوابل والأحجار الكريمة.. إلخ». وفى الجانب الآخر من الزقاق الرئيسى حى يقيم فيه بائعو العطور.. وعلى نفس الزقاق يفضى إلى حى الصاغة وهم يهود تمر بين أيديهم ثروات عظيمة.. إلخ»[٤٤].

ونفهم من النصوص السابقة لليو الأفريقى أنه كان هناك تجار فرس يردون إلى مصر، ويقيمون فى فندق خان الخليلى، ليبيعوا ما لديهم من جواهر كريمة وكذلك أوضح ليو أنه فى عصره كان أغلب الصاغة من اليهود[٤٥].

بعض ملاحن من قاموس أ.محمد لطفى جمعة[٤٦]

لحن الجواهرجية والصاغة:

أحاد: يعنى واحد عند الصاغة أبوربيع: أربعة

اشفور: الزبون الردىء أو ثقيل الظل وتطلق أيضا على الذهب القالصو وكذا الفضة.

اتبغدد عليه: يقولها الصائغ لزميله أو معاونه إذا كان ثمن البضاعة أو المصوغات مربحا له ويريد أن يرفع السعر بمعنى أصبر عليه.

اشتقل: اشترى يقول الجواهرى اشتقل منه أى اشترى منه.

افقس: انصرف يقول الجواهرجى خد الدفش وافقس يعنى اطرد الزبون

أهيف: الجنيه الذهب.

اتحبس: يقولها الصائغ لزميله إذا أراد أن يحذره بمعنى خذ حذرك
اشتغاله: سمسرة فى لحن الجواهرجية يقول الجواهرجى لزميله: الاشتغال على البنانى وإلا أصيعه بمعنى المكسب مناصفة ولأجل الزبون ينصرف.
بار: الذهب الفالصو البرقة: الزبونة
جفتك: اسكت خموشة: يعنى خمسة
الخشتا: يقولون الخشتا اللى ماشى ده كويس: يعنى هذه المرأة حسنة
دفشة: امرأة دفش: رجل
الدفش بيمنجه: يعنى الزبون يكذب
ربصه: أى بع له يقولها الصائغ لزميله أو معاونه إذا كان السعر مناسبا وقولهم اربص فى دلله أى تمسك به. ربص: أخبره
شنابن: اثنان (قرشان) شلوشة: ثلاثة (قروش)[٤٧]
شيشة: ستة (قروش) شيشة وأحاد: سبعة (قروش)
شمونيا: ثمانية (قروش) شمونيا وأحاد: تسعة.
شفر الأجر: خفض السعر يقولها التاجر لصانعه بمعنى خفض المصنعية.
على: يعنى المخبر فى لحن الجواهرجية عليات جاية: يعنى الشرطة قادمة
على أشفرو: يعنى لا خوف من المخبر. عنترة: عشرة
فقسه: يعنى أطرده باللطف أو بالذوق وفقس اليرقة. يعنى اطرد الزبونة برفق.
فقسه له: يعنى بع له صايع: زبون ردئ
مشتقلاتى: الزبون اللص الذى يسرق المجوهرات ليبيعها.[٤٨]
مشط: ريال (عشرون قرشا) هات الجفت: اسكت
يافت: الذهب الجيد أو الذهب الخالص أو الزبون الجيد أو المربح أو الغنى.
يافت الأجرة: بمعنى زد الأجرة يقولها التاجر لصانع المصوغات فى حالة رفع المصنعية.
يفت الدبشة اللى فى شلك: يعنى حسن البضاعة للمرأة التى عندك أو أمامك[٤٩].

من قاموس رايح لحلفى جمعة:

لحن المنجدين:

إبرة: امرأة ابعتها: اسكت
أفقه: اجعله ينصرف. بنت البيضة: الجين.
بندير: قوس المنجد. بزم: اسكت
تعديبة: العملية إطلاقا. فيقال تعديبة عصتة أى: عملية مربحة، وتعديبة كتيانة: عملية سيئة أو غير مربحة وتعديبة مأكبرة: أى عملية كبيرة.

وتعديبة مكزغرة: أى عملية صغيرة أو غير مربحة.
حبال: أرغفة خبز. حرفنا: جعنا
الزبون كاته ما بيربص الطعن: الزبون هذا بخيل لايدفع جيدا.
الزبون مربص طعن عصته: زبون جيد وكريم.
سرون: شاى سرور مأسودة: قهوة
سليق القطن: فرفر القطن طراحة: مرتبة
عايز أقابل: أريد أن أكل. عديب: منجد ماهر
عضوان: لحم فينو: الخيط
قطون: رجل قطونة: امرأة
قفة: محل المنجد
الكستبان ربص: صاحب الشغل حضر الكستبان المأكبر: الرجل الكبير.
الكستبان المأصغر: الرجل الصغير. ويقولون: الكستبان المأصغربده يأفف: أى يريد أن ينصرف.
الكستبان المأكبر ربصه طعم: أعطاه نقودا.
الكستبان معذب مقابلة عصتة: الزبون أعد لنا أكلا جيدا وغاليا[٥٠]
مأكبر عصته: المعلم الكبير.
مشط: خمسة جنيهات، نص مشط: عشرة جنيهات، ربع مشط: عشرون جنيها
هفف التعديبة: أنه العملية أو الشغل بسرعة.
باللانبدر الخاموق: هيا نندف القطن بالقوس. يتسيا: المخدة

لحن المعمار:

اعجر: اشتغل بسرعة.
أعجر منهم: صاحب الشغل جاهل أو غشيم. أعقده: أهمل الشغل.
أوايم: نقود ربص: صاحب الشغل إذا حضر.
رابصة: نقود. رخى الخيط شوية: اشتغل بسرعة.
شد الخيط: اشتغل أو ابن على مهل أو بالراحة.
الشرد حبك: صاحب الشغل حضر. الشعة كادت: الشمس غابت.
الشفر حضر: المرأة حضرت. العبارة أمطة: أزمه أو مشكلة.
عاوزين نصطلح: نريد أن نأكل عوض جاى: صاحب الشغل.
عطش: انهوا أو شطبوا الشغل. مدماك رغيف
هات إيدك: أنه أو شهل الشغل شوية هات الدراع: صاحب الشغل حضر
هات اللوح: اسكت. وش شوية: على مهلك فى الشغل.
الولى جاء: الظهر جاء

لحن النجارين:

أسفين: اللحم　　أسفلت: أرز باللبن.
الأمطة هوت: تقال عند الجوع.　　بدنا نخوبر: نريد أن نأكل.
خابور: رغيف.
الأسطامة دى بوصة ٣: امرأة جميلة.
السكينة جايرة: زوجة صاحب الشغل إذا حضرت
ضيق السندو: اسكت　　المحز كاد: الزبون مشى.

لحن الخياطة:

ابن البحر: السمك　　برايس: عيش أو خبز
بنت الزغندية: اللحم　　بنت اليمن: قهوة
تفاويح: حسن أو جيد　　زمارة: سيجارة
شرع: اتركه　　كتف: اسكت
مقدح: جيد أو حسن　　المقص ده مقدح: هذا الولد جدع
المقص كاسي: الشخص المعروف قادم مقص مأذعز: ولد.
يادلو: يا ولد.　　يا جارر: يا رجل[٥١]

لحن الإسكافية:

اخلع فردة: اسكت.　　رغلة: أكل
محز مشفور: صاحب المحل حرامى محط: رجل
هات ليرة: انظر أو انتبه.　　هندازة: امرأة[٥٢]

لحن القصابين:

حوش الوريد ماتنشش الحقينة: تقال عند رؤية صاحب اللحم حاضرا والجزار يسرق منه.
خمسماية: قرشان ونصف قرش　　ستماية: ثلاثة قروش
شديت الغربال: سرقت الدهن وهو منديل الذبيحة.
لف البدرى: اسكت وتقال عند حضور المعلم.

لحن الفحاحين (تجار القمح)

اشكح: قمحة مليحة　　يوهى: قمحة رديئة
دبانة: طينة. وهى ما يختلط بالقمح من طين الأرض.
عود: سمسرة. فيقول السمسار للتاجر فى حضور المشترى: القمحة دى فيها عود أى فيها سمسرة.
عليها نأص (نقص) كتير: أى الغلة كثيرة الطين.

فأش: قمحة رديئة.
الناعمة على القمحة: أى عليها تراب.
واحدة على القمحة: القمح مسوس.

لحن الحمامية:

بياضة: الصابونة:　　تابوت: المعلم أو صاحب الحمام.
جرارة: حذاء.　　حلاها: خذها.
حليلى من الوحيدى يوم: خذ من الراجل قرشا.
حلى من الدوشق يوم: خذ من الولد قرشا.
دفاميق: نقود.　　دوشق: ولد
رجيعة: بنت　　الكبوتى: المعلم.
المعششة: الفوضة　　الوحيدى: الرجل.

وجد الأستاذ/ محمد لطفى جمعة ملاحن العيارين والشطار وكان يطلق عليهم ابن رابية: (٥٣)

برغل اللى منجدى فيحى: يعنى فلاح فى لحن ابن رابية
برغل جهرة: عمدة　　تخويمة: جلابية
تفتافة: سيجارة أو سيجائر　　التازى المأكير: المأمور أو الضابط.
التازى منجدى: العسكرى قادم.　　تازى شلف: غفير
تازى منجدى لئيم: العسكرى يريد أن يأخذنى.
جدى: الموكن: افتح الباب.　　حوة: فلوس.
حصحصته شلف: أعور.　　حصاصات: عينان
خليه يبده: يعنى بلاش الشغلة دبه　　خضرمان مأحلى: بطيخ.
دراجة: حذاء أو جزمة.　　دراجات: رجلان (مثنى رجل).
رخوة: أكل.　　رغاية: صابونة.
رشة: محل القهوة　　سندسة: ستة قروش صاغ.

لحن ابن رابية:

أشاير: اسكت فى لحن ابن رابية　　انفع: أنا قاهم ردا على «أشاير»
ابريم مأكير: قرش واحد　　أبريم ماصغر: نصف قرش
أبريمين: قرشان　　وثلاث أباريم أى ثلاثة قروش
الرشفة: القهوة يقول ابن رابية لزبنه انجدى الرشفة يعنى هات القهوة.
أطفيه بتلومة: اقتله بسكين　　أنجدى: تعال.
بدهان: استعجل قليلا فى الشغل　　بهلولة: جوزة.
برغل صرماتى: فقيه　　برغل　　مهيجاتى: فتوة.

خاتمة

إن التقديم العلمي الذي شمل كل شيء ووجود التليفون والموبايل والتليفزيون والدش والأقمار الصناعية كل هذا جعل للحياة اليومية إيقاعات سريعة متلاحقة وأصبح العالم مثل قرية صغيرة عن طريق الدش والأقمار الصناعية والإنترنت لكنه خلق تباعد بين أفراد المجتمع فأغلب الناس مشغولون عن غيرهم بأنفسهم وكل يدعو في طريقة ليتحقق أكثر مما يستطيع لذا أصبحت لكل جماعة بخاصة الشباب لغة مستحدثة يتحدثون بها ليتقاربوا فوامها – نفض بمعنى الترك الهموم – روش نفسك بمعنى استمتع والبس – رشة جريئة: عزومة.

والشباب في الجامعات لهم ملاحن خاصة بهم مثلا يقول أحدهم للآخر عن زميل لهما أنه (سكن مدريد) أي أحب فتاة واستقر في حبه – أو أقطع لي اسكت – أو أنا ماشفر: مقلس – العمارة معتمة: مشاكل – الجو رايق بمعنى قبض مصروفه – كتياتة: فتاة غير جميلة – كما تجولت الباحثة في أسواق وكالة البلح وخان الخليلي لتتعرف على مدى تطور الملاحن بين الحرفيين ففي لحن بائعي القماش في وكالة البلح طش حبجزي = طش حيستني (يقصد الزبون) – الدفش يافت = الزبون جيد – الدفش فشك مفركاتي = الزبون الذي أمامك حرامي – عشارة = عشرة – خموشة = خمسة – شبعة – ولو حلون = عشرين – صفر = مائة – دفش مفركاتي = زبون حرامي – شنكيرة = بقشيش(٥٤)

أما ملاحن بائعي أقمشة التنجيد وأغلب ملاحنهم تشبه ما سبق. لكن الباحثة استطاعت التقاط بعض ملاحن بائعي الأحذية – بعض الكلمات: يمين نورة = زبونة جديدة – الأبجيك = النقود – المجيدي = الجنيهات الكثيرة – المقاس ضيق = الزبون بخيل – المقاس واسع = الزبون كويس – حصاصة = مراية – حط الغرد = اكتم لو اسكت – بلبل = زبون فرايحي – مشمش = زبون عبيط – أبو دبنة= فلوس. ورقية من فئة الجنيه إلى مائة.

أما في الصاغة استطاعت الباحثة أن تلتقط بعض ملاحنهم: اشتكلوا = اشترى (كان هناك سيدة تبيع سلسلة ذهبية) – اشفترون – زبون ليس معه نقود أو ثقيل الظل وهو تطور لأشفور – اقسم محزي = أطرد الزبون المتعب – يافت بار = زبون فالصو أي لا يشتري – دفشة فشك بانت = المرأة التي أمامك جيدة.

إن اللغة المصرية العامية لغة متداولة بين جميع الفئات والطبقات وهي لغة مرنة غنية لذا تعتبر أوضح مظهر من مظاهر الحياة الشعبية على الأخص فعن طريقها نعرف الكثير عن حياة الحرفيين في الأسواق في الماضي، ونعرف الكثير عن أحفادهم في الأسواق في وقتنا الحاضر، ولم نجد إلا تطورا طفيفا لملاحنهم التي مازالت مستمرة على الرغم من قلة ما استطاعت الباحثة جمعه نوعا ما لأن هذه الملاحن ستظل في الخفاء ربما قرونا أخرى.

والله أعلم...

الهوامش

(١) إن مصطلح «فولكلور» المكون من الكلمتين «فولك» بمعنى الناس أو عامة الشعب، و«لور» بمعنى المعرفة أو الحكمة، فقد أنشأه لأول مرة، الكاتب الإنجليزي وليام جون تومز، عندما استعمله في رسالة بعث بها إلى صحيفة «ذي أثينيوم» في فبراير ١٨٤٦م باسم مستعار هو «ميرون ميرتون» واقترح استعمال هذا المصطلح كاسم يشمل أشياء كثيرة كالأساطير والقصص الشعبية لكن د. محمد الجوهري عدله إلى تقسيم رباعي على النحو الآتي: المعتقدات والمعارف الشعبية. ثانيا: العادات الشعبية. ثالثا: الأدب الشعبي وفنون المحاكاة. رابعا: الفنون الشعبية والثقافة المادية. وكل قسم يحتوي على فروع عديدة. اهتم بعض مترجمي الفولكلور في الخارج «بجراز» نصيب عديد من الطوائف والفئات خاصة الشعبية منها من التراث. أنظر محمد الجوهري علم الفولكلور ط القاهرة ط أسنة ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠١م جـ ١ ص ٥٤.

(٢) عبداللطيف اليرغوثي، الفولكلور والتراث، مجلة عالم الفكر، مجلد ١٧ عدد ١ ص٩٣.

(٣) فاروق خورشيد: الجذور الشعبية للمسرح العربي. ط١ القاهرة، الهيئة العامة للكتاب. مكتبة الأسرة ٢٠٠٦، ص١٣.

(٤) المرجع السابق ص٣٩.

(٥) كما في سيرة الظاهر بيبرس إذا تعمقت فيها سيرتهم وغيرهم مثل: الحمامي والحلاق، والعلاف، والزيات والدلالة وخاصة بما يمارسونه يوميا. أنظر قاسم عبده. من التاريخ والفولكلور، ط القاهرة دار عين ١٤٢١هـ/٢٠٠١ م صفحات ٤٠ –٥٥.

(٦) السيرة الهلالية أشعارهم وأخبارهم، ط القاهرة مطبعة الصناديقية.

(٧) كما في سيرة علي الزيبق. أنظر فاروق خورشيد، نفس المرجع، ص١٣.

(٨) نفس المرجع ص١٣٨.

(٩) لسان العرب، دار المعارف، جـ ٥ ص ٤٠١٣.

(١٠) سورة محمد آية رقم ٣٠.

(١١) لطفي جمعة، مباحث في الفولكلور، مراجعة رابح لطفي. ط القاهرة عالم الكتب ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩م، ص٧٩–٩٩.

(١٢) المرجع السابق، نفس الصفحة

(١٣) مرجع سابق

(١٤) رابح لطفي، اللغة السرية لبعض الطوائف والمهن الشعبية في مصر، مجلة المأثورات الشعبية عدد ٣٧ يناير ١٩٩٥ص ٤٧ وما يليها

(١٥) أنظر علي عيسى، اللغات السرية ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م، ص٩٧. وأنظر رابح لطفي، مرجع سابق ص٥٠.

(١٦) رامح جمعة، نفس المرجع السابق، ص ٥٠.

(١٧) أرغوتا من المصطلح الفرنسي Argot أنظر ص ٤ من هذا البحث.

(١٨) لطفي جمعة، مرجع سابق ص ١٢٩. ١٢٥ أنظر: الفولكلور العربي بحوث ودراسات إشراف محمد الجوهري – ط مركز البحوث والدراسات الاجتماعية كلية الآداب – جامعة القاهرة – سنة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م. ط١، ص١٨١ وما يليها.

(١٩) أبو عثمان عمر بن بحر يكنى بالجاحظ، البخلاء، ط – بيروت. ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص٥.

(٢٠) نفس المرجع جزء اللغة السرية.

(٢١) أنظر كتابه المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ط ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢م ص٨.

(٢٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢٣) علي مبارك – الخطط التوفيقية – ط ١ جـ ١ – ص٥٠.

(٢٤) وليم موير، تاريخ دولة المماليك. ترجمة سليم حسن ومحمد عابدة. سلسلة من تاريخ المصريين رقم ٢٥ ص ٢٠٣– ٢٠٤.

(٢٥) المرجع السابق ص ٢٠٤.
(٢٦) المقدمة. ط دار الشعب ص١٨٣. انظر سعيد عاشور، نفس المرجع، ص١٦.
(٢٧) أحمد بن علي المقريزي (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١ م):السلوك، جـ٤ ص ٤٤٤ وانظر سعيد عاشور، نفس المرجع، ص٤١.
(٢٨) نفس المرجع. ص٤٣. وانظر محاسن الوقاد. الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، سلسلة تاريخ المصريين ص ١٥٢ ط الهيئة المصرية للكتاب ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م ص ١٤٩ وما يليها.
(٢٩) هنخر أمير مملوكي أنشأ هذه القيسارية التي تقع بجوار سوق الوراقين عام ٧٣٠/ هـ ١٣٢٩ م أنظر المصدر السابق جـ٣ ص١٤٧. أما كلمة قيسارية فتعني السوق الصغير الذي يباع فيه سلع معينة وهي كلمة غير عربية.
(٣٠) محاسن الوقاد، مرجع سابق، ص١٥.
(٣١) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١٤ مادة صنقر. ولمزيد من التفاصيل أنظر سعيد عاشور: الدور الاقتصادي في دولة سلاطين المماليك في كتاب دراسات وبحوث ط ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣، ص١٢٥.
(٣٢) سعيد عاشور: الدور الاقتصادي. ص١٢٥.
(٣٣) انظر محمد رجب النجار، الشعر الشعبي في عصور المماليك، عالم الفكر م١٤ عدد ١ ص٢٠٩. وانظر نفس المرجع ص١٥٨ وما يليه.
(٣٤) لمزيد من التفاصيل أنظر محمد رجب النجار، حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي سلسلة عالم المعرفة. ط الكويت ١٤٠١هـ/ ١٨٨١ م ص ٧-٨ وما يليها.
(٣٥) المرجع السابق، نفس الصفحات.
(٣٦) فقد هذا الكتاب ولكنه عبر عنه في مقدمة كتابه عن البخلاء، ص٥.
(٣٧) رابح جمعة، مرجع سبق ذكره، ص٤٩.
(٣٨) قاسم عبده، بين التاريخ والفولكلور، الصفحات من ٤ - ٥٥.
(٣٩) انظر يوري سوكولوف: الفولكلور تاريخه وقضاياه. ترجمة عبدالحميد حواس وحلمي شعراوي، ط القاهرة ص٢١.
(٤٠) الخطط، ص٢٦٧ لمزيد من التفاصيل أنظر محاسن الوقاد، اليهود في مصر المملوكية، ط القاهرة سلسلة تاريخ المصريين رقم ١١٣٥، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
(٤١) المرجع السابق، ص١٧٢.
(٤٢) نفس المرجع ص٢٢٩.
(٤٣) منهم ليو الإفريقي، وصف أفريقيا، وهو الحسن بن محمد بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليو الأفريقي (ت٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م)، وصف أفريقيا، ترجمة محمد صبحي ومحمد الأصفر، دار الغرب الإسلامي ١٤٠٣هـ/١٢٨٣م القسم ٨ ص ٢٠٤.
(٤٤) المصدر السابق نفس القسم ص٢٠٦.
(٤٥) نفس المصدر نفس القسم والصفحة.
(٤٦) مرجع سبق ذكره انظر ص١٦١ - ١٦٤.
(٤٧) نفس المرجع ص١٦٢.
(٤٨) نفس المرجع ص١٦٣.
(٤٩) نفس المرجع ص١٦٤.
(٥٠) مرجع سبق ذكره صفحات ٥٣ - ٥٤.
(٥١) نفس المرجع ص٥٤ - ٥٥.
(٥٢) نفس المرجع ص٥٥.
(٥٣) انظر مرجع سبق ذكره ص١٥٢ - ١٥٤.
(٥٤) أخبرني بعضهم ببعض أسرار ملاحنهم كسر خطير لايعرفه سواهم

أهم مصادر ومراجع البحث

- الجاحظ: أبوعثمان عمرو بن بحر البصري (٢٥٥هـ/٨٦٩م): كتاب البخلاء ط بيروت - المكتبة الثقافية ط٢ ١٣٩٨ هـ /١٩٧٨م
- الحسن الوزان: هو الحسن بن محمد بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليو الأفريقي (٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م): وصف أفريقيا ترجمة محمد صبحي ومحمد الأصفر، ط دار الغرب الإسلامي ١٤٠٣هـ/ ١٢٨٣م.
- ابن خلدون. عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي (٨٠٨ هـ/ ١٤٣٠م) المقدمة، تحقيق عبدالواحد وافي، ط القاهرة دار الشعب ١٣٨٠هـ/١٩٦١م.
- المقريزي: أحمد بن علي بن تقي الدين (٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ط بيروت (بدون).
- ابن منظور: جمال الدين أبوالفضل بن مكرم بن على أحمد ابن القاسم بن منظور الأفريقي المصري (٧١١هـ/١٣١١م) لسان العرب. تحقيق عبدالله على الكبير - محمد أحمد حسب الله هاشم الذالي، ط - القاهرة، دار المعارف ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- دائرة المعارف الإسلامية. ط القاهرة.
- سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط القاهرة ١٤٨٢هـ/ ١٩٩٢م .
- الظاهر بيبرس إعلام العرب ١٤ ط. القاهرة ١٣٨٢هـ /١٩٦٣م.
- فاروق خورشيد: الجذور الشعبية للمسرح العربي، ط القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب القراءة للجميع مكتبة الأسرة ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- على مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة، ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، ط القاهرة بولاق ١٣٥٩ هـ/ ١٩٣٩م.
- قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور ط القاهرة دار عين ١٤٢١ هـ/٢٠٠١م.
- محاسن محمد الوقاد: الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية. ط القاهرة سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٥٢. ١٤١٩هـ / ١٩٩٩ م. الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- اليهود في مصر المملوكية في ضوء وثائق الجنيزة، ط القاهرة سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٣٥، ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩م.

محمد الجوهري: علم الفولكلور. ط القاهرة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١ م الجزء الأول.

- الفولكلور العربي - بحوث ودراسات إشراف محمد الجوهري. ط القاهرة مركز البحوث والدراسات الاجتماعية. كلية الآداب جامعة القاهرة ١٤٢١ /٢٠٠٠م.

- محمد رجب النجار: حكايات الشطار والعيارين فى التراث العربى، ط الكويت سلسلة عالم المعرفة ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م.
- محمد فهمى عبداللطيف، أبوزيد الهلالى، ط بيروت ١٤٣٠هـ/١٩٨٣م.
- محمد لطفى جمعة: مباحث فى الفولكلور، مراجعة رابح لطفى جمعة، ط القاهرة عالم الكتب ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- وليم موير: تاريخ دولة المماليك، ترجمة سليم حسن، ومحمد عابد، ط القاهرة سلسلة من تاريخ المصريين رقم ٢٥.

ومن أهم الدوريات،

- مجلة أخبار الأدب ط القاهرة لعام ١٩٩٩ - ١٩٩٢.
- مجلة عالم الفكر مجلد ١٧ عدد ١ .
- مجلة المأثورات الشعبية (الدول الخليج) عدد ٧م عام ١٩٩٥م، عدد ٥، ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧م.

ومن أهم مراجع السير الشعبية

سير العرب الهلالية سيرة بنى هلال وشعرهم، ط القاهرة مكتبة الجمهورية العربية بدون سنة طبع مجلة عالم الفكر مجلد ١٧ عدد الأشهر ٤ - ٥- ٦ لسنة ١٩٨٦؛ مجلة الفنون الشعبية ط القاهرة ،الهيئة العامة للكتاب أعداد ٥٠ - ٥١ - ٥٢.

أ/ نجاة محمد المغلبى (*)

أحوال القاهرة الاقتصادية فى عينى الرحالة

دومنيكو تريفيزانو Domenioco Trovisano

(١٠١ مايو ١٥١٢ -٢ أغسطس ١٥١٢م / ٢٣ صفر ٩١٨ - ٢٠ - جمادى الأول ٩١٨ هـ)

دراسة مقارنة مع الرحالة الأوربيين المعاصرين

طوال تاريخ القاهرة العظيم، قصدها كثير من الرحالة العرب والأجانب، بعضهم جاءها للسياحة، وبعضهم للدراسة، والبعض الآخر جاء في مهام رسمية.

وقد سجلوا ما لاحظوه ورأوه في كتب تصف أحوال القاهرة، تلك المدينة العظيمة ذائعة الصيت.

ولقد اغتنم العديد من الحجاج الأوروبيين في العصور الوسطى فرصة السفر إلى بيت المقدس للمرور على القاهرة خاصة، وبعض بلدان المشرق الإسلامي عامة: للوقوف على الأحوال الحضارية لتلك البلدان، والبحث عن منافع لهم .

حظيت مصر في أواخر عهد سلطنة المماليك الجراكسة (١٣٨٢-١٥١٧م/٧٨٤-٩٢٣هـ) على وجه الخصوص في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلاديين / أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجريين بتوافد العديد من الرحالة الأوروبيين أمثال :-

«ميشولام بن مناحم» Meshullam Ben Manahem التوسكاني الأصل اليهودي العقيدة، الذي زار القاهرة في ١٤ يونيو ١٤٨١م. وجان أيرتس (١٤٨٣م) Astre Jnae و«جوس فان غسل» Josse Van Ghistele و«فيلكس فابري» (١٤٨٥م) Felix Fabri ورفيقه في الرحلة برنار«بريدنبخ» (١٤٨٥م) Bica Bnedyer، والرحالة اليهودي الإيطالي الأصل «عوبديا» دا برتينورو، Barenitre and Obaidab الذي وصل إلى القاهرة سنة ١٤٨٨م، و«فرنسيسكو سريانو (١٤٩٤م) SonsiruS Focsecnar، ولرنولد

(*) أستاذ مساعد- التاريخ الوسيط - كلية التربية أرحب - جامعة صنعاء

فون هارف١٤٩٧م)[٥]. Arnold Von Harff وأخيراً السفير والرحالة البندقي (دومنيكو تريفيزانو[٦] ١٠ مايو ١٥١٢– ٢ أغسطس ١٥١٢م) Domenico Trevisano موضوع بحثنا.

فهؤلاء بمجرد عودتهم إلى بلادهم حرصوا على تسجيل ما شاهدوه حرصاً منهم على نفع غيرهم. واتسمت كتاباتهم بالصدق وبعض المبالغة العديد أحياناً.

ومن بين زوار القاهرة الذين وفدوا إليها في مهمة رسمية كان «تريفيزانو» أحد عظماء البنادقة الأكفاء الذي نجح نجاحاً بالغاً في إنجاز المهمة الموكلة إليه والتي نتج عنها توثيق العلاقات بين جمهورية البندقية وسلطنة المماليك الجراكسة. والذي يهمنا في تلك السفارة، ما سجله في أسطر تتعلق بأحوال القاهرة الاقتصادية قبيل سقوط سلطنة المماليك الجراكسة بخمسة أعوام. دون الغوص في تفاصيل أخرى تبعدنا عن عنوان البحث.

وبوصول تريفيزانو إلى بولاق[٣] بصحبة أولاده في السادس عشر من مايو ١٥١٢م الموافق ٢٩ صفر ٩١٨هـ، بدأ بالتجوال في العديد من شوارع القاهرة، فلاحظ أنها تعج بجمع غفير لا يصدق من راكبي الخيول والمشاة وراكبي الحمير، واستخلص أن هذا دلالة على كثافتها السكانية آنذاك[٤]. وليس هذا بجديد، فقد أجمع كافة الرحالة الأجانب على ذلك. والملاحظ أن الفارس الألماني الرحالة «أرنولد فون هارف» أمير مقاطعة كولونيا والذي زار القاهرة سنة ١٤٩٧م ـ كما سبق القول ـ في رحلة دامت ثلاث سنوات أورد في منصف رحلته أن القاهرة مدينة كبيرة تعج بالسكان[٥]. كذلك أورد «فرنسيسكو سْريانو» الذي قام برحلته إلى مصر في عام ١٤٩٤م، وعاد إليها ثانية عام ١٥٠٣م، وأمضى في أحد سجون القاهرة عامين في الفترة ما بين ١٥١٠– ١٥١٢م أي حتى قيام تريفيزانو بسفارته والذي نتج عنها إطلاق سراح هذا الرحالة. ذكر أن مدينة القاهرة مزدحمة بالسكان إذ أن عددهم لا يحصى[٦].

كما جاء في مصنف الرحالة اليهودي «عوبديا دا برتينورو» وقوله:

«لن أتحدث عن عظمة القاهرة ولا عن كثافتها السكانية، ولا عن الجمع الغفير من الناس الذين تراهم يتجولون في شوارعها، إذ وصفها كثيرون قبلي وكل الذي قالوه عن تلك المدينة حقيقة واقعة»[٧].

وإذا رجعنا إلى تريفيزانو، فقد انتابه الذهول من فخامة قصر السلطان الغوري إذ قال إنه لا شبيه له في أي مكان آخر حتى وصل به الأمر أن قدر ثمنه بمائة ألف من الدوكات Ducat[٨] الذهبية بل وأكثر من ذلك، وأنهمك في وصف رسوم هذا البلاط[٩] ونستخلص من روايته تلك مدى ثراء السلطان رغم الانتكاسة

الاقتصادية التي أصيبت بها مصر آنذاك نتيجة عوامل عديدة، منها على سبيل المثال ضعف سلطنة المماليك الجراكسة وتحول طريق التجارة من مصر إلى رأس الرجاء الصالح وذلك سنة ١٤٨٢م، إضافة إلى زيادة خطر العثمانيين. إلا أن تفسير هذا الثراء مرجعه محاولات السلطان الغوري جمع أموال طائلة بكافة الأساليب المشروعة منها وغير المشروعة. إذ في مواجهة خزانته المفلسة عمد إلى جمع ضرائب عشرة أشهر مقدماً دفعة واحدة ووصلت ضرائبه إلى الطواحين والمعديات والسفن وكافة دواب النقل، بل وطالت الأوقاف الخيرية.

ولم يكتف بذلك، بل حرص على غش العملة ليستفيد من الفارق، كما عانى التجار في عصره من مضاعفة المكوس والرسوم الجمركية[١٠].

وبالتالي فمظهر بلاطة الفخم كان على حساب شعبه المطحون والمحطم آنذاك.

ومما يذكر أن الرحالة فيلكس فابري ورفيقه في الرحلة بريدنبخ وصفا بلاط السلطان الأشرف «قايتباي» (٨٧٢– ٩١٠هـ / ١٤٦٨ ١٤٩٧- وانبهرا في وصفه[١١].

وقد أفاض جوس فان غسنل في حديثه عن السلطان قايتباي وبلاطه، إذ خصص خمسة فصول من مصدره[١٢]. ومما يذكر أن الرحالة ميشولام بن مناحم ذكر أنه: «أثناء وجوده في بلاط السلطان قايتباي يوم الجمعة ٢٢ يونيو ١٤٨١م وجها لوجه ممتطياً جواده ومحاط بأكثر من ألفي جندي»[١٣].

وفي حديثه عن صناعة الأسلحة، أورد تريفيزانو أنه أثناء اجتيازه أحد الميادين الصغرى في بلاط السلطان «المحاط بأسوار» وجد معلقاً على تلك الأسوار أسلحة معروضة كأنها للزينة: كما وجد في نفس المكان مصنعاً للأسلحة يعمل به ما يقرب من خمسين صانع، بعضهم يقوم بتصنيع الرماح وصقل الخوذ، والبعض الآخر يطرق الحديد على السندان.

ومن المؤكد أن هدف الغوري من هذا العرض للأسلحة القتالية إظهار مدى تقدم المماليك واستعراض قوتهم العسكرية. وأكد ما ذهبنا إليه قول تريفيزانو أنه عاد ثانية إلى نفس الموضع بعد ساعتين، ولم يجد أحد[١٤].

والملاحظ أن أرنولد فون هارف، أورد أن الثكنات العسكرية بها مصانع للأسلحة. وصور أحد المحاربين بزيه الكامل ويشتمل على طاقية فوق الرأس مصنوعة من الفراء، وبيده اليسرى يقبض على نبوس، وباليمنى يمسك بمقبض سيفه المنقوش الذي يتمنطق به ويشد وسطه كمران وفي قدميه خف من الجلد (سقمان)[١٥].

ويقول تريفيزانو بعد ذلك إنه رأى ثلاثة حيوانات لم يرها من قبل هي زرافة[١٦]. وفيل وأسدين[١٧]. وأخذ في وصفها[١٨]. كذلك انبهر برؤية تمساح حي[١٩] ونمر[٢٠].

وفي السابع والعشرين من يونيو توجه بصحبة حرس مكون من مائة فارس لزيارة المطرية تلك المنطقة المقدسة التي تباركت بلجوء عائلة السيد المسيح عليه السلام إليها هرباً من المذبحة التي أقامها الحاكم «هيرودوس» وتحدث عن شجرة البلسان التي لا توجد في مصر سوى في المطرية[٢١]. ومما يذكر أن المطرية وشجرة البلسان حظيت باهتمام كافة الرحالة الأوربيين ومنهم فيلكس فابري الذي اعتبرها نبتة ذهبية مقدسة. فتتبع أطوار زراعتها وقيمتها.

ومن المعلومات الطريفة التي أوردها أن شجرة البلسان موطنها الأصلي الهند وتم إحضارها من ضمن الهدايا التي أهدتها الملكة اليمنية بلقيس للنبي سليمان عليه السلام[٢٢].

وأورد «فابري» أن شجرة البلسان تصل في ارتفاعها طول الإنسان[٢٣]. أما غسترل فقد ذكر أنها تصل إلى ارتفاع الركبة أو أعلى قليلاً. وتتميز بتفتحها مع الشمس[٢٤]. بينما تقاربت رواية بريدنبخ مع فابري[٢٥]. ونلاحظ أن فابري يذكر أن البلسم يستخدم في الطب وعلى وجه الخصوص في علاج الجروح وحفظ جثث الموتى، وتتميز هذه الأشجار برائحتها العطرية الجميلة. ويستخرج من أشجار البلسان أنواع عديدة من البلسم متفاوت الجودة[٢٦].

ويذكر الرحالة اليهودي ميشولام بن مناحم أنه شاهد ذات مرة عاملاً قد أصيب بقدمه وبفضل استخدامه البلسم شفي تماماً[٢٧].

ثم انتقل تريفيزانو إلى وصف الاحتفال بوفاء النيل مؤكداً أن الفيضان كان سبباً في وجود المياه والحياة على أرض مصر، فقلة مياه الفيضان تؤدي إلى انتشار المجاعة في ربوع البلاد. وأورد أنه بعد أن تغيض المياه ينتظر الفلاحون تراجعها حتى يقوموا ببذر بذور محاصيلهم التي تنمو وتنضج دون الحاجة إلى أمطار، بل على مياه فيضان النيل[٢٨].

ومما يذكر أن معظم الرحالة الأجانب تحدثوا عن أهمية النيل بالنسبة للمصريين وعن فيضانه[٢٩]. واستنتج «تريفيزانو» أن القاهرة تتمتع بثراء فاحش[٣٠]، فهي المدينة الأكثر ثراء في المشرق الإسلامي والأكثر ازدهاراً في الأنشطة التجارية، والنقود فيها وفيرة للغاية أي أن حركة الأسواق نشطة نتيجة ازدهار العاصمة اقتصادياً وبالتالي فالمدينة كبيرة[٣١]. ومزدحمة للغاية. حتى قيل أن تعدادها السكاني قارب على المليون ونصف من البشر[٣٢].

ويؤكد أنها مدينة تجارية من الطراز الأول، إذ تنتقل إليها التوابل وكافة أنواع السلع والبضائع عن طريق القوافل من بلاد الهند ومكة المكرمة وبلاد فارس. وعندما تصل إليها قافلة جمال آتية من الهند محملة بالتوابل والبضائع الأخرى، تنتقل إلى الإسكندرية حتى يتم تصديرها عن طريق البحر بالسفن إلى البلدان الأوربية[٣٣] وسجل «تريفيزانو» أيضاً غزارة إنتاج مصر من القمح ورخصه مقارنة بالبندقية. وأشار إلى عملية طحنه وغيره من الحبوب الصالحة للطعام لتحويله إلى دقيق بواسطة رحى تحركها الخيول والأبقار.

ولاحظ أن مصر لا تعرف الطواحين الهوائية التي تستخرج المياه من بطن الأرض. ويخبز الخبز في أفران تشتعل بروث الجمال والخيول بعد تجفيفه في الشمس الحارقة. كما يتم طهي كافة الأطعمة باستخدام الأوراق أو جريد النخيل أو حتى القش المقطع إرباً. وسبب ذلك غلاء الأخشاب الفاحش[٣٤] إذ يتطلب استخدامه كوقود مبالغ طائلة مقابل كمية خشب صغيرة[٣٥]. حتى إن عوبديا ذكر أن المرء يدفع أكثر من ثلثي الدوكة مقابل حمل خشب يحمله بغلان[٣٦].

وانتقل بعد ذلك السفير البندقي إلى الحديث عن الأسواق والمحال والدكاكين، إذ يذكر أن دكاكين بيع المأكولات الجاهزة عددها كبير للغاية مقارنة بباقي المحال. إذ أن نسبتها تصل إلى الخمس تقريباً. وأرجع سبب ذلك إلى أن سكان القاهرة لا يتناولون وجبة الغداء في منازلهم على الإطلاق، إذ يختارون أحد هذه الدكاكين ليتناولون فيه ما يروق لهم من طعام. وحين يمر المرء أمام أحد هذه المطاعم يستنشق رائحة من أكثر الروائح المثيرة للغثيان[٣٧]. وسبب قوله هذا أنه لم يتذوق الطعام المصري، فكل فرد يأكل الطعام الذي يروق له والذي اعتاد على تذوقه وأكله.

وقد لفتت كثرة مطابخ القاهرة وطباخيها أنظار غالبية الرحالة الأوروبيين. وكان من الطبيعي أن يختلفوا في تقدير عددها وعدد الطباخين العاملين بها. فقد تطابقت رواية «فيلكس فابري» مع رواية بريدنبخ في هذا الصدد إذ ذكر أن عدد المطابخ الشعبية والطباخين أصحاب المطابخ الخاصة يتعدى إثنى عشر ألفاً[٣٨]. في حين اكتفى ليوناردو فيرسكوبالدي Leonardo Frescobaldi الذي زار القاهرة سنة ١٣٨٤م/ ٨٨٩هـ بالقول إنه صادف عدداً هائلاً من الطباخين يقومون بطبخ الأطعمة ليل نهار[٣٩].

هذا بينما أورد أرنولد أن لكل شارع مطبخ عام ومخبزان أو أكثر حسب طول الشارع وحاجة سكانه. لذا نجد في المدينة أربعة وعشرين ألف مطبخ عام وثمانية وأربعين ألف مخبز[٤٠]. وفي قوله هذا مبالغة عددية واضحة تتنافى مع ما ذكره فيلكس فابري الذي لم يخل هو أيضاً من المبالغة.

ويواصل أرنولد سرده قائلاً إن هناك العديد من الشوارع بلا مطابخ أو مخابز، إلا أن المرء يجد في كثير من الشوارع بها ما بين مائة ومائة وخمسين مطبخاً وسبب تلك الكثرة راجع إلى أن أكثر الناس لا يطبخون في منازلهم إلا نادراً، إذ يعتمدون على شراء مأكلهم من المطابخ والمخابز. كما أرجع أرنولد كثرة المخابز إلى حرص سكان القاهرة على أكل الخبز ساخناً خارجاً لتوه من المخبز. ويردف أرنولد قائلاً إن شدة حرارة الشمس تجعل الخبز - غير الساخن- كالحجر في صلابته، وبالتالي يصعب أكله وبلعه[٤١].

ولقد ذكر فابري أسباب إقدام المصريين على تناول طعامهم خارج منازلهم. وأرجع ذلك إلى نظافة العاملين في هذه المطابخ فتدر هذه النظافة عليهم أموالاً طائلة، وبالغ في القول حين ذكر أن هذه النظافة غير متوفرة في المنازل دائماً. أما السبب الثاني من وجهة نظره هو احتقار المصريين لنسائهم إذ يأنفون من أكل طعام أعدته امرأة آنذاك. وإذا اضطروا لإعداد طعام في المنزل، يبعدون النساء عنه[٤٢].

وفي قوله هذا تجنى على النساء علماً بأن هذا يتنافى مع العقل والمنطق أما ثالث تلك الأسباب هو غلو أسعار الأخشاب حتى أنه يباع بالميزان، لكونه يستورد من الخارج. فمصر ليس بها غابات، وبالتالي لا تتوفر فيها المواد القابلة للاحتراق[٤٣].

وقد أورد أرنولد فون هارف أن ندرة الأخشاب دفعت الطهاة إلى طهي الطعام مستخدمين في ذلك روث الجمال لندرة الأخشاب في مصر واستيرادها من الخارج من كريت وقبرص. ويباع بالرطل، وأشار إلى أن مصر والبلدان العربية الأخرى لا يوجد بها أخشاب سوى أخشاب النخيل ولا تصلح على الإطلاق للبناء[٤٤].

أما جان نينو Jean Thenaud فقد قال إنهم يستخدمون أفرع النخيل وروث الحيوانات الممزوج بالقش لطهي الطعام، وأرجع ذلك كسابقيه إلى ندرة الأخشاب في مصر[٤٥].

وإذا تتبعنا صغار الطباخين نلاحظ أنهم يتسمون بالفقر. فهم لا منزل لهم ولا مطبخ. ففي سبيل كسب لقمة عيشهم نجدهم يعدون أفراناً من الطمي ذات ثلاثة قوائم ومملوءة بفحم مشتعل، فوقه أوانى لطهي الأطعمة المختلفة أو اللحوم المشوية. وكان هؤلاء الباعة الجائلون يتنقلون من شارع إلى آخر حاملين على رؤوسهم الأطعمة منادين بصوت عال عن أطعمتهم من لحوم أو أسماك أو دواجن وبازلاء وأشياء مطهية أخرى[٤٦]. فيشتري الناس منهم ما يروق لهم من طعام في حين يشتري الفقراء والغرباء طعام يتناولوه في جانب من الطريق وذلك في أطباق صغيرة يقدمها لهم البائع[٤٧].

ولقد أورد أرنولد أن الطهاة كان لديهم كميات كبيرة من الدجاج المسلوق أو المحمر. وأرجع ذلك إلى فكاهة طريفة تقول إن بالقاهرة ديكاً واحداً فقط، لديه تحت إمرته أربع وعشرين دجاجة تفرخ إثنى عشرة مرة في العام. فتنتج في العام ما بين ثلاثة إلى أربعة آلاف كتكوت. لذا فسكان القاهرة يأكلون الدجاج بكثرة[٤٨].

ويذكر تريفيزانو أن لحوم الأبقار تباع بدون عظم. كما أن لحوم الماشية الأخرى رخيصة الثمن[٤٩]. وتتميز لحوم الخراف بطعم ومذاق رائعين. وأطراف ذيلها ممتلئ بالشحوم حتى أن وزن الواحد منها يتعدى الثلاثين ليبرة[٥٠] (الليبرة ٥٠٠جرام). هذا بينما يرى أرنولد أن الطهاة عامة ما يقومون بطهي لحم الجمال، ويبدو أنها أعجبته كثيراً حين أقبل على أكلها لأول مرة في حياته: إذ قال إنها تتميز بمذاق طيب للغاية. كذلك يُعد هؤلاء الطهاة الكثير من لحوم الضأن. ورسم أرنولد في مصنف رحلته صورة لأحد الخرفان، وأورد أن الخرفان في القاهرة ذيولها طويلة وعريضة، أما آذانها فهي طويلة للغاية[٥١].

وقد سجل تريفيزانو، أن الدجاج وفير للغاية في القاهرة، وتتم عملية التفريخ بالطريقة التالية: يتم وضع ثلاثة أو أربعة آلاف بيضة في فرن مبني خصيصاً لهذا الغرض، ويشعلون به ناراً هادئة. فتفقس الكتاكيت. ويخصص يومياً لبلاط السلطان خمسمائة دجاجة، إضافة إلى لحوم أخرى[٥٢].

وحظيت عملية التفريخ بإعجاب الرحالة الأوربيين فكانت بالنسبة لهم شيئاً غريباً لكونه عملاً فنياً رائعاً ينافس الطبيعة نفسها دون تدخل من الدجاج إذ يتم استخراج كتاكيت صغيرة من البيض بعمل نفقيس صناعي.

ولقد أورد فيلكس فابري أن المصريين توارثوا عبر الأجيال وبرعوا في التفريخ الصناعي وزودنا بأحسن وصف يتسم بالدقة لتلك العمليات الغريبة التي لم يألفها الغربيون آنذاك[٥٣].

وقد وصف فابري - كما سبق القول - تفاصيل ذلك إذ أورد أنه تتم تلك العملية في منزل قليل الارتفاع يتسم بالطول والعرض. وفي داخل هذا المنزل عدة أفران منخفضة يتم وضع البيض فوق تلك الأفران، ويتسع الفرن أحياناً لعدة آلاف من البيض[٥٤]. وفي هذا القول مبالغة واضحة. علماً بأن البيض - حسب قول فابري - كان يوضع بين كمية من القش مساوية للكمية التي يرقد عليها الدجاج[٥٥].

والملاحظ أن بريدنبخ أورد أن مزارع التفريخ استخدمت أيضاً روث الحيوانات، وأنه رأى فرناً كبيراً به عدة عيون[٥٦] أما غسل، فقد ذكر أيضاً

استخدام روث الحيوانات في أفران شديدة الشبه بمعالف الحيوانات، لأنها كانت مرتبة في صفوف طويلة[٥٧].

كما أورد فابري أن معامل التفريخ كانت تتلقى من النساء البيض المراد تفريخه. وفي الموعد المحدد للتفريخ يتم إشعال الأفران بنار هادئة ومنتظمة كأنه تدفئة طبيعية فتنمو الكتاكيت الصغيرة رويداً رويداً داخل البيض. وفي اليوم الثاني عشر ترى الكتاكيت النور، وتسلم الكتاكيت إلى ذويها مقابل أجر. والملاحظ أن خلال تلك العملية يتم استبعاد البيض غير الصالح للتفريخ[٥٨].

واستفسر الرحالة فابري القائمين على مزارع التفريخ بصدد الشهور المناسبة. فأخبر أنه لا تتم إلا في مايو ويونيو ويوليو ولاحظ أن الكتاكيت الصغيرة تجري خلف القائمين على هذا العمل كما تجري وراء الدجاج ويبدو أن سبب ذلك راجع إلى أن الشخص الذي يتساق وراءه الكتاكيت يمسك بعصى طويلة بطرفها ريش يكنس بها التراب فتعتقد الكتاكيت أنه الغذاء[٥٩].

وبعين الفاحص المدقق نلاحظ أن رواية فابري وبريدنبخ اللذان زارا مصر في الفترة من ٣ سبتمبر إلى٥ نوفمبر سنة ١٤٨٣م/ ٣٠ رجب ٥٠ شوال ٨٨٨هـ أن هذه الفترة لا تتزامن مع فترة التفريخ السابق ذكرها إذ المزارع آنذاك لا تعمل وبالتالي فلم يشاهد عملية التفريخ وخطواتها على الطبيعة، مما يؤكد أنهما استقيا معلوماتهما من العاملين في مزارع التفريخ، وبالتالي سجلا بعض الروايات التي فيها بعض المبالغة ومنها: القول أن عامل التفريخ كان يقود أكثر من خمسمائة كتكوت إلى أن يصل إلى السوق دون أن يفلت منه واحد حتى لو صادفه جمع من الناس أو الخيول[٦٠].

أما الرحالة جوس فان غسنل لم يسلم هو أيضاً من المبالغة حين قال أن أسراب الكتاكيت تتجه للشرب من المجاري المائية والنهر، وأورد أن عددها يقارب الستة أو السبعة آلاف[٦١].

كما أورد أرنولد الجديد من المعلومات عن طريقة التفريخ آنذاك، فيقول مازحاً إن الديك هو السلطان، لديه أربع وعشرين دجاجة، وهناك أفران للتفريخ، بها أعداد من الثقوب المستديرة، كل ثقب على شكل كأس ويتم وضع البيض في تلك الكؤوس. بعد ذلك يتم تغطية كل مساحة أفران التفريخ تماماً بالروث، ثم توقد ناراً هادئة أسفلها حتى يفقس البيض بانقضاء ثلاثة أسابيع بفعل النار الهادئة، والروث الساخن وهواء القاهرة الحار.

وبعد انفلاق البيض عن الكتكوت، يتم تجميع الكتاكيت معاً في قبو مثقب

حيث يتم إطعامها. وبعدها يتم بيعها. وسجل أرنولد طريقة بيع الكتاكيت آنذاك، إذ أورد أن التاجر كان يضع الكتاكيت في مكيال، ثم يضغط عليهم بيديه كما لو كان يبيع قمحاً. فكان سعة أحد المكاييل عشرين كتكوتاً وآخر أربعة وعشرين[٦٢].

ويأخذ «تريفيزانو» على المرأة القاهرية إنفاق أموالاً طائلة لشراء الأقمشة الحريرية والعطور: مما يدل على الرخاء الاقتصادي[٦٣] من وجهة نظره.

كما سجل كثرة عدد الحوانيت: إلا أنه أخذ عليها صغر مساحتها، وتباع فيها الأقمشة الحريرية، وتلك الموجة واللامعة، والحلل المطرزة القادمة من بلاد فارس، وكذا المسك والعنبر وكافة أنواع العطور الأخرى. كما نجد بتلك الحوانيت كميات وفيرة من الأقمشة الكتانية والقطنيات مثل الإزار Lisare ونسيج قنب كامبري Cambra أي الدنتلا والباتستا. وأقمشة الموصل Mousselines، وكافة أنواع المناشف الحريرية والكتان المطرز عند طرفيها[٦٤].

ولاحظ «تريفيزانو» أن مصر لا تنتج الكريز - أي حب العلوك - دون أن يذكر أن طقسها لا يصلح لزراعته[٦٥]. وقال أيضاً إن الكمثرى غير متوفرة بكثرة، أما التفاح فهو نادر وقليل الجودة. في حين أن العنب ممتاز للغاية، والبلح يوجد بغزارة، بينما الفواكه الأخرى فهي قليلة الانتشار[٦٦].

هذا وقد تحدث فابري عن أشجار الكروم إذ أورد أنها تثمر بكثرة ومذاق ثمارها جميل وتحتوي على نسبة عالية من السكر. ولاحظ أن مثل تلك الثمار بإمكانها إنتاج أجود أنواع النبيذ: إلا أن مصر لا تصنعه[٦٧]. متجاهلاً ذكر أن الإسلام حرم شرب الخمور بكافة أنواعها.

كما ذكر فابري تحت فصل بعنوان «شجرة النخيل الشجرة المصرية» أن البلح عذب المذاق كأنه مغموس في العسل[٦٨]. ولاحظ أن أشجار النخيل لا تنمو في أوربا بسبب برودة طقسها وبالتالي كان البلح غريباً على الأوربيين وأورد أيضاً كما كان يعتقد ان أشعة الشمس وحرارة الجو كانا سبباً في نمو البلح في مصر[٦٩]. ويؤخذ عليه قوله أن شجرة النخيل لا تثمر قبل بلوغها مائة عام(٧٠). ويبدو أن سبب ذلك جهله بتلك الأشجار التي لا تعرفها المانيا وقد أنزلق إلى نفس الخطأ جوس فان غسنل إلا أنه عاد وصححه قائلا: أنه رأى أشجاراً صغيرة محملة بلحاً أي أنها لم يصل عمرها المائة عام[٧١].

وأورد تريفيزانو أن بالقاهرة كثير من الشمام في أي وقت من الأوقات. كما يزرع بها ثلاثة أنواع من البطيخ طوال العام. وأخيراً، يتميز التين بطعمه اللذيذ وفق رأيه[٧٢].

والملاحظ أن تريفيزانو لم يذكر الموز «شجرة آدم» وفق قول فيلكس فابري[٢٣]، الذي خصص فصلاً بكامله عن تلك الفاكهة التي لم يراها أو يسمع عنها من قبل.

وأخيراً سجل السفير البندقي توجه خمسة عشر ألف جمل في اتجاه النيل مرتين يومياً لإحضار مياه الشرب لسكان القاهرة. وتباع حمولة الماء بما يقرب من أربعة سو Sous أي ١/٢٠ من قيمة الفرنك الفرنسي آنذاك كما يشرب القاهريون أيضاً من مياه الآبار[٢٤].

وأختتم «تريفيزانو» زيارته الناجحة للغاية إلى سلطنة المماليك بأن عاد ثانية إلى البندقية في ٢ أغسطس سنة ١٥١٢م الموافق ٢٣ جمادى الأول سنة ٩١٨هـ مطمئناً بأن العلاقات بين المماليك والبندقة أصبحت أقوى من ذي قبل، وقطع أوصال العلاقات الفرنسية المملوكية التي كادت تطيح بتجارة بلاده مع المماليك.

ختام القول، يعد السفير البندقي «تريفيزانو» أفضل من كتب من معاصريه في وصف أحوال القاهرة الاقتصادية زمن «السلطان الغوري» لذا حرصنا على ذكر ما أورده عنها، ومقارنته قدر الاستطاعة بمعاصريه من الرحالة الأوربيين الذين ازدادوا كثرة آنذاك.

الهوامش

(١) ينتمي «أرنولد فون هارف» Arnold Von Ileff لأسرة رفيعة من دوقيات «جلدر» Geldr و«جوليه» Juliers وأصبح مستشاراً في بلاط «جلدر». ولد في هارف بالقرب من كولونيا سنة ١٤٧٦م. وفي سن الخامسة والعشرين. في نوفمبر ١٤٩٦م خرج في رحلة طويلة ترك نصها المطبوع بلغة ألمانية أحدى هذا النص إلى الدوق «جيوم دو جوليه» Guillaume de Juliers وإلى زوجته «سيبل» سَبِيلْ. ويبدو أن نص تلك الرحلة تداول آنذاك. لأنه عثر على عشرة مخطوطات من نص رحلته. (Arnold Von Harff. Trad. P.H. Dopp. Le Caire vu par les voyageurs Occidentaux du Moyen Age. dans Bulletin de la Societe de Geographie d' Egypte, t. XXVII. le Caire, Septembre 1954, P.32) وسنشير إلى النسخة الفرنسية على هذا الشكل Dopp. أما النسخة الإنجليزية فسنشير إليها بـ Arnold, Ed. Lens. قام «أرنولد» أولاً بزيارة إيطاليا فتواجد في روما في ربيع ١٤٩٧م واستقبل من قبل البابا «الكسندر السادس» ثم توجه إلى البندقية حيث أبحر إلى «إستريا» و«الماشيا» ووصل إلى «كريت» ثم «رودس». وأخيراً أصبح في مواجهة ميناء الإسكندرية. وأدعى «أرنولد» أنه تاجر لذا دفع «دوكتين» رسوم الدخول بدلاً من خمس دوكات لكونه من الحجاج. وأمضى بضعة أيام في الإسكندرية ثم أبحر إلى «رشيد» على متن قارب في النيل. ثم توجه حتى وصل إلى القاهرة بعد خمسة أيام مقابل دوكاً واحداً ولكون الرياح مواتية أبحر على متن مركب «لراعي». ولا نعلم متى وصل إلى القاهرة إلا أنه ذكر وقت رحيله عنها متجهاً إلى ميناء كان ذلك في أوائل أغسطس سنة ١٤٩٧م (Arnold. trad. Dopp. P.51.) وإذا كان «أرنولد» جنح إلى المبالغة أحياناً في حديثه عن القاهرة فهذا لا يقلل على الإطلاق من نص رحلته. ذلك لأن المؤلف أرنولد قد أقام بحق في المدينة ووصفها لنا بجدية وصراحة بالغة. وقد آثرنا بترجمة هذا الرحالة لكونه أقرب زمنيا إلى تريفيزانو في رحلته إلى مصر.

(٢) لعب «تريفيزانو» دوراً بالغ الأهمية في تاريخ البندقية إذ أختاره السناتو في جلسته المنعقدة في ١١ نوفمبر ١٥١١م وكلفه بالتفاوض مع مسئولي القاهرة في إقامة علاقات تجارية وصداقة. ومما يذكر أن قليل من رجال جمهورية البندقية تبوأوا مناصب نشطة وحيوية وكثيرة الأهمية مثل تريفيزانو ففي عام ١٤٨٥م أرسل في سفارة للعثول أمام دوق ميلانو «جان جالياه ماري سفورزا» Gean Galeas Maria Sforza والبابا «أنوسنت الثامن» وفي نفس العام، قام بتهنئة الإمبراطور «فردريك» Frederic وابنه «مكسمليان» Maximilien الذي توج ملكاً على الرومان. وفي عام ١٤٧١م توجه إلى القسطنطينية بصفته سفيراً للعثول أمام السلطان بايزيد وفي عام ١٤٩٥م أرسل إلى فورتسا يحمل تهاني جمهورية البندقية إلى شارل الثامن وفي عام ١٤٩٧م. كلف بمهمة في أسبانيا للعثول أمام الملك فرديناند Ferdenando وفي العام التالي عين بوديستا Podesta (أي حاكم) القرم الذي قامت البندقية بغزوها لتوها. وفي عام ١٥٠٠م. قام برحلة إلى فرنسا لتهنئة لويس الثاني عشر حين قام بغزو ناپولي وفي عام ١٥٠٩م عين بوديستا على بادوا. أما في عام ١٥٠٥م توجه تريفيزانو إلى معسكر لويس الثاني عشر الذي كان قد وصل لتوه إلى إيطاليا لاستعادة مدينة جنوة. وفي عام ١٥٠٩م كلف بالتفاوض مع جيل الثاني لكي يقنعه بإبرام اتفاقية سلام مع جمهورية البندقية. وفي عام ١٥١١م عاد ليلتقي بالبابا في بولونيا Bologne. ثم في روما. وفي ١٥١٢م توجه إلى مصر لبتفاوض مع السلطان المملوكي الغوري. وفي العام الثاني أوفده «دوج» البندقية لتهنئة ليون العاشر بتولي السدة الرسولية.

ومما يذكر أنه كان مشجعاً للأدباء. وبدأ دراسته الكلاسيكية في سن الخمسين وفي سن الستين بدأ دراسة اليونانية وتوفي طاعناً في السن في ٢٨ ديسمبر ١٥٣٦م.

Trevisan, D., Le Voyage d' outremer de la Relation de l' Ambassade de Domenico Trevisan aupres du Soudan d' Egypte 1512, publie par Ch. Schefer. Paris, 1884, P.I.XV- LXVI, N.1

(٣) أورد عوبديا أن «بولاق تُعد مدخلاً للقاهرة فهي أول ما تصادف زائر تلك الخاصة». أنظر: Obadiah. ch. 8. In Jewish travelers [Ed. Adler, E.N., London, 1930, P. 223. والملاحظ أن النسخة الفرنسية لم تذكر أن بولاق كانت مدخلاً للقاهرة إذ بدأت بالقول إلى الوصول إلى بولاق شاهدنا مبنيين قديمين. أنظر: Obadiah Jere da Bertinoro. Trad. . P.H. Dopp. Le Caire vu par les voyageurs Occidentaux du Moyen Age, dans Bulletin de la societe de Geographie d' Egypte, t. XXVII, le Caire, Septembre 1954. P.23. وسنشير إلى النسخة الفرنسية على هذا الشكل Obadiah, Ed. Adler. أما النسخة الإنجليزية فنشير إليها بـ Obadiah. trad. Dopp.

(٤) Trevisan, P. 174.

(٥) Arnold, trad. Dopp, P. 40, Arnold, Ed. Leeb, P. 109. Aertsen, trad. Dopp, Le Caire vu par les Voyageurs Occidentaux du Moyen Age, dans Bulletin de la societe de Geographie d' Egypte, t. XXVI, le Caire, Aout 1953, P. 118.

(٦) Francesco Suriano, trad. P.H. Dopp, Le caire vu par les voyageurs occidentaux du moyen age, dans Bulletin de La societe de Geographie d' Egypte, t. XXVII, le Caire, Septembre 1954, PP. 26-27.

(٧) جاء في الترجمة الفرنسية:-

«Je ne parlerai pas de La grandeur du Caire ni de La multitude des hommes qu'on y voit circuler; beaucoup d'autres ont decrit cela et tout ce qu'on a dit de la ville est vrai.»

أنظر كما جاء في النسخة الإنجليزية Obadiah. trad. Dopp. P.24. :

«I Shall not speak of the grandeur of Cairo and of the multitude of men to be seen streaming there, for many before me have described them, and all that has been said of town is true.

أنظر Obadi Ed Adler, P.224

(٨) ورد في «فيلكس فابري» أن الدوكة الواحدة تساوي خمسة وعشرين من الدراهم الفضية (Félix Fabri, Le Voyage en Egypte de Felix Fabri, ed. Masson, S.J., Paris, 1975, t. II, P.570 ووافقه على ذلك رفيقه في الرحلة «برنار بريدنبخ» أنظر: Breyden Bach, B., Les Saintes Peregrinations, Bernard de Breyden Bach, trad. P. Larivaz, S.J., Le Caire, P. 1904.P.46 هذا بينما ذكر رأفت محمد النبراوي في بحث له بعنوان «الدوكات الذهبية البندقية» – مجلة الدارة - العدد الرابع، السنة السابعة عشرة - سنة ١٤١٢ هـ - ص ٩-١٠. حاشية رقم ٢٥. أن الدوكة آنذاك كانت تزن ما بين ٣,٣٠ جرام و ٣,٤٨ جرام من الذهب.

(٩) Trevisan, P. 189

(١٠) سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ الأيوبيين المماليك – القاهرة ١٩٦٢، ص ٣٣٥–٣٣٦.

(١١) Fabri, t. II, P. 510; t. III, P. 936; Breyden Bach PP.60-61.

(١٢) Ghistele, J.V. voyage en Egypte de Jean van Ghistele (1482-1483), trad. Bouvens. Presses Le Caire, 1976. PP. 25-36: وسنشير إلى هذه الطبعة بـ Ghistele, Ed. Bouvens; Jehve de Ghistele إلى Ghistele, trad. Dopp, Le Caire Vu par les Voyageurs Occidentaux du Moyen Age, dans Bulletin de la Societe de Geographie d' Egypte, t. XXVII, Le Caire, Septembre 1954, PP. 10-17

(١٣) إذ جاء في النسخة الفرنسية:-

«Le Vendredi 22 Juin 1481, j'ai Vu le sultan en haut perso... Il etait a cheval, accompagne de plus de deux mille soldates mamelouks.» Meshullam, trad, Dopp, Le caire vu par les voyageurs occidentaux du moyen age, dans Bulletin de la societe de Geographie d' Egypte, t. XXVII, le Caire, aout 1953, P. 115.

أما النسخة الإنجليزية فقد ورد فيها:-

«On Friday, the 22nd June 1481, I saw the Sultan Face to Face he was riding, and more than two thousand Mamelouk Soldiers Were With him.»

Meshullam, Ed. Adler, P. 170. In Jewish travelers, Ed. Alder, E.N., London, 1930.

(١٤) Trevisan, P. 183.

(١٥) Arnold, trad. Dopp, P. 47; The Pilgrimage of Arnold von Harff, Ed. Letts, London, 1946, P.121.

(١٦) لمزيد من التفاصيل أنظر: Fabri, t. II, PP.421- 423.

(١٧) عن الأسد، أنظر: Fabri, t. II, PP.423- 425.

(١٨) Trevisan, p. 194.

(١٩) ومما يذكر أن الرحالة «عوبديا» رأى التماسيح في النيل فذكر أنها فصائل ضخمة من الضفادع عاشت منذ أيام موسى (عليه السلام). أنظر: Obadiah, Ed. Adler, PP. 223-224 والملاحظ أن النسخة الفرنسية أغفلت ذكر رؤية عوبديا للتماسيح في النيل، إذ بدأت بالقول «قبل الوصول إلى بولاق شاهدنا مبنيين قديمين...».

أنظر: Obadiah. trad. Dopp. P.24

(٢٠) الملاحظ أن «تريفيزانو» أخذ في وصف التمساح واكتفى بالإشارة إلى رؤيته نمراً. أنظر Trevisan, p. 197

(٢١) Trevisan, PP. 201- 203.

(٢٢) Fabri, t. I, P. 388; t. II, P. 398; Ghistele, Bouvens, PP. 73-74.

(٢٣) Fabri, t. I, p. 389 T. II, P. 903

(٢٤) Ghistele, Bouvens, PP.74

(٢٥) قارن: Breyden Bach, P. 61 مع Fabri, t. I, P. 343.

(٢٦) Fabri t. Fabri, t. I, P. 396 ومما يذكر أن فابري خصص العديد من الصفحات عن البلسم أنظر: II. PP.903-906 ووصف حديقة البلسان أنظر: Fabri, t. I. PP. 387- 388 وذكر ما قرأه عن شجرة البلسان. أنظر: Fabri, t. I, PP. 388-391 مما يؤكد أنه واسع الثقافة وقرأ عن مصر قبل أن يأتي إليها. كما وصف شجرة البلسان وكيفية استخراج البلسم منها أنظر: Fabri, t. I, PP.39; 393.

(٢٧) Meshullam, Ed. Adler, P. 175.

(٢٨) Trevisan, PP. 201 - 203.

(٢٩) Fabri, t. II, PP. 641 - 643; t. III, PP. 929 - 930.

وعن روعته انظر: Fabri, t. III, PP. 930 - 931; Francesco, PP. 27, 31, Meshullam, trad. Dopp, t. XXVI, P. 61 - 63 Breyden Bach, PP. 57 - 58

أورد جوبر، فان غسل في فصله الثامن عشر وصف النيل منبعه، مجراه، ويقال أنه ينبع من الجنة

(٣٠) سبقه في ذلك الرحالة ميشولام بن متاحج إذ أورد:-

«رأيت مصر [يقصد القاهرة] ورصدت حياة سكانها فهذا الكتاب سوف لن يكفيني ويمكنكم افتراض أن نصف ثروتها وثروات شعبها تساوي ثروات كل من روما وميلانو وبادوا وفلورنسا واربع مدن أخرى».

أنظر: Meshullam. ed. Adler. P. 160; Meshullam. trad. Dopp. t. XXVI, P.113

(٣١) أشار فابري إلى أن القاهرة أكبر من باريس سبع مرات وخصص فصلا بكاملة تحت عنوان «هل جاء في هذا المعنى بالفرنسي:

«Il est dit que le Caire est sept fois plus grand que la ville de Paris»

أنظر: Fabri t. II, PP. 592-236

(٣٣) Trevisan, PP. 207-208.

(٣٤) Trevisan, P.208.

(٣٥) أورد فابري، أن هذا البلد تنقصه «الأخشاب» Fabri, t. II, P. 530. :أنظر "Ce Pays manque de bois" وأرجع نقص الوقود لاتعدام الغابات في مصر وبالتالي الأخشاب غالية الثمن وتباع بالوزن أنظر:
Febri, T. II, P. 568.

(٣٥) Trevisan, PP. 209-210.

(٣٦) Obadiah, trad. Dopp, P. 25; Obadiah, Ed. Adler P. 228.

(٣٧) Trevisan, P 210.

(٣٨) Fabri, t.II. PP. 568-569; Breyden Bach, P. 60.

(٣٩) Leonardo Frescobaldi, trad. Dopp, Le Caire vu par Les voyageurs Occidentaux du Moyen Age, dans Bulletin de la societe Royale de Geographie d' Egypte, le Cairo, Juin 1950, t. XXIII, P. 135.

(٤٠) Arnold, trad. Dopp, P. 40; Arnold, Ed. Letts, P. 109.

(٤١) Arnold, Trad. Dopp, P. 40-41; Arnold, Ed. Letts, P. 109.

(٤٢) Fabri, t. II, P. 568; t. III, P. 928.

(٤٣) Fabri, t. II, P. 5 t; III, P. 928 ; Ghisiele, Trad. Dopp, P.19.

(٤٤) Arnold, trad. Dopp, P. 41; Arnold, Ed. Letts, PP. 109-110.

(٤٥) Thenaud, J, Le voyage d'outremer de Jean Thenaud, publie CH. Schefer, Paris, 1884, P.22.

(٤٦) Fabri, t. II, P. 569; t. II, P. 928; Breyden Bach, P. 60; Arnold, ed. Letts, P. 109.

(٤٧) Fabri, t. II. P. 569; t. III, P. 928; Breyden Bach, P. 60.

(٤٨) Arnold, trad. Dopp, P. 41; Arnold, Ed, Letts, PP. 109-110.

(٤٩) يرى عوبديا خلاف رأي تريفيزانو لن اللحوم والفواكه غالية الثمن. أنظر: Obadiah, trad. Dopp. P. 25; Obadiah, ed. Adler, P. 228

Trevisan. P. 210.

توافق رأي عوبديا مع رأي تريفيزانو في قوله أن اللحوم تتميز بمذاق طيب خاصة ذيل الخروف.
أنظر: Obadiah, trad. Dopp. 25; Obadiah, ed. Adler, P.228

(٥٠) أنظر: Arnold, ed. Letts, P. 110 والملاحظ أن هذه الصورة وغيرها من الصور التي أوردها «ارنولد» وردت فقط في النسخة الإنجليزية بينما النسخة الفرنسية التي نشرها Dopp لم ترد فيها أي صور. وقد اختصر روايته بريدنبخ. أنظر: Breydenbach, P. 61 كذلك أورد رواية شبيهة كل من جوس فان غسنل وأرنولد أنظر: Ghisiele, Bauwens, PP. 55-56; Arnold, ed Letts, P.110

(٥١) Arnold, trad. Dopp, P. 41; Arnold, ed, Letts, PP. 110-111.

(٥٢) Trevisan, PP. 210-211.

(٥٣) Fabri, t. II, PP. 479-481; t. III, PP. 925-929.

وقد اختصر روايته بريدنبخ. انظر: Breyden bach, P. 61 كذلك أورد رواية شبيهة كل من جوس فان غسنل وأرنولد انظر: Ghisiele, Bauwens, PP. 55-56' Arnold, ed. Letts, P.110

(٥٤) Fabri, t.II, P. 479; t. III, P. 924.

(٥٥) Fabri, t. II, P. 479.

(٥٦) Breyden Bach, P. 61.

(٥٧) Ghisiele, Bauwens, PP. 55-56

(٥٨) Fabri, t. II, P. 479; t. III, PP. 924-925;Ghisiele, Bauwens, P.55.

(٥٩) Fabri, t. II, P. 480; t. III, P. 924.

(٦٠) Fabri, t. II, P. 481; t. III, PP. 924-925.

(٦١) Ghisiele, Bauwens, P. 56.

(٦٢) Arnold, trad. Dopp, P. 41; Arnold, ed, Letts, PP. 110-111.

(٦٣) Trevisan, P. 211; Leonardo Frescobaldi, t. XXIII, P. 134.

(٦٤) Trevisan, P. 211-212.

(٦٥) أنفرد تريفيزانو دون غيره من الرحالة الأوربيين بذكر تلك المحلوة وربما بحث عنه في الأسواق لرغبته في أكله ولم يجده.

(66) Trevisan, P. 210.

(٦٧) Fabri, t, II. P. 644.

(٦٨) Fabri, t, II, PP. 643-644; t. III, P.J. 949; Ghisiele, Bauwens, P. 60.

(٦٩) Fabri, t. II. PP. 643-644; t. III, P. 949.

(٧٠) Fabri, t, II, P. 644.

(٧١) Ghisiele, Bauwens, P. 62.

(٧٢) Trevisan, P.210.

(٧٣) Fabri, t, III, PP, 902-903

(٧٤) Trevisan, pp. 211-212.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأجنبية

. Aerts J.,
Trad. Dopp, Le Caire vu par les Voyageurs Occidentaux du Moyen Age, dans Bulletin de la societe de Geographie d' Egypte, t. XXVI, le Caire, Aout 1953, PP.116-118.

. Arnold Von Harff,
. Trad. F.H. Dopp, Le Caire vu par les Voyageurs Occidentaux du Moyen Age, dans Bulletin de la societe de Geographie d' Egypte, t. XXVII, le Caire, Septembre 1954, P.32-49.
. The Pilgrimage of Arnold von Harff, Ed. Letts, London, 1946.

. Breyden Bach, B.,
Les Saintes Peregrinations, Bernard de Breyden Bach, trad. F. Larrivaz, S.J., Le Caire, 1904.

. Felix Fabri,
Le Voyage en Egypte de Felix Fabri, ed. Masson, S.J., Paris, 1975, 3 vols.

. Francesco Suriano,
trad. F.H. Dopp, Le Caire vu par les Voyageurs Occidentaux du Moyen age, dans Bulletin t. XXVII, le Caire, Septembre 1954, PP. 26-31 de La societe de Geographie d' Egypte.

. Ghistele, J.V;
- Voyage en Egypte de Jean van Ghistele (1482-1483), trad. Rauwens- Preaux, Le Caire, 1976., trad. Dopp, Le Caire Vu par les Voyageurs Occidentaux du Moyen Age, dans Bulletin de la societe de Geographie d' Egypte, t. XXVII, Le Caire, Septembre 1954, PP. 26-31.

. Lionardo Frescobaldi,
trad. Dopp, Le Caire vu par Les Voyageurs Occidentaux du Moyen Age, dans Bulletin de la societe Royale de Geographie d' Egypte, le Caire, Juin 1950, t. XXIII, P. 131-137.

. Mesholiam, R. M.,
trad, Dopp, Le Caire vu par les Voyageurs Occidentaux du Moyen Age, dans Bulletin de La societe de Geographie d' Egypte, t. XXVII, le Caire, Aout 1953, P.112- 116.
In Jewish travelers, Ed. Alder, E.N., London. 1930.

- Obadiah Jere da Bertinoro,
Trad. F.H. Dopp, Le Caire vu par les Voyageurs Occidentaux du Moyen Age, dans Bulletin de la societe de Geographie d' Egypte, t. XXVII, le Caire, Septembre 1954, PP.23-26.
In Jewish travelers, Ed. Alder, E.N., London. 1930.

- Thenaud, J,
Le Voyage d'outremer de Jean Thenaud, public CH. Schefer, Paris, 1864.

- Trevisan, D.,
Le Voyage d' outremer «La Relation de l' Ambassade de Domenico Trevisan aupres du Soudan d' Egypte 1512, public par Ch. Schefer, Paris, 1864.

ثانياً: المراجع العربية

- رأفت محمد النبراوي: «الدوكات الذهبية البندقية» مجلة الدارة - العدد الرابع السنة السابعة عشرة - ١٤١٢هـ.
- سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ الأيوبيين والمماليك - القاهرة ١٩٦٠.

دكتور السيد حسين جلال (*)

دور قناة السويس فى تنمية النقل البحرى

يمتلك العالم العربى العديد من الموارد الطبيعية والبشرية، وقناة السويس إحدى تلك العناصر، فهى تقع فى قلب العالم العربى، فكانت من العوامل المهمة فى تنمية صناعة النقل البحرى العربى ممثلاً فى ثلاثة أبعاد رئيسية هى: الموانىء العربية والأسطول التجارى العربى والتجارة العربية المنقولة بحراً.

فقد سهلت عملية النقل البحرى العربى بين الشرق والغرب مختصرة المسافات والزمن وتكاليف النقل البحرى الذى يتميز بأنه أقل تكلفة وأكثر قدرة على نقل أحجام كبيرة من الشحنات، وذلك بالمقارنة بوسائل النقل الأخرى البرية والجوية.

أن أكثر من ثلاثة أرباع التجارة العالمية يتم نقلها بحراً، ويمر عبر القناة حوالى ٧٪ من اجمالى تجارة العالم المنقولة بحرا وبيان اتجاهات هذه التجارة المارة عبر القناة كالآتى:

- ٣٥٪ ينقل من وإلى البحر الأحمر والخليج العربى.
- ٢٠٪ ينقل من وإلى موانى الهند وجنوب شرقى آسيا.
- ٣٩٪ ينقل من وإلى منطقة الشرق الأقصى.

والسفن الآلية الحديثة ذات الأبدان القوية والمصممة حسب نوع البضاعة التى تنقلها، ومن هنا ظهر العديد من أنواع السفن لمواءمة ما يمكن نقله من مكان لآخر.

وقد اهتمت الدول العربية بتطوير وتحديث مشروعاتها البحرية من خلال البرامج التى وضعتها لهذا الغرض مثل إنشاء الموانىء العامة والمتخصصة وترسانات بناء السفن وإصلاحها، بالإضافة إلى زيادة أعداد وأحجام الأساطيل التجارية البحرية العربية.

(*) أستاذ غير متفرغ بكلية الآداب بدمنهور - جامعة الإسكندرية

وقد جاءت قناة السويس كمركز تجمع للخطوط الملاحية العربية فيما بين الموانىء العربية فى الخليج العربى والبحر الأحمر والبحر المتوسط. كما أعادت قناة السويس لهذه الموانئ مكانتها على طريق مسار التجارة البحرية العالمية وشدت إليها حركة السفن التجارية التى كانت تستخدم طريق رأس الرجاء الصالح، بعثت الحياة فى المواقع التجارية القديمة مثل عدن وجيبوتى وكولومبو وغيرها لتعمل كموانىء إمداد بالوقود.

تعتمد هذه الدراسة بشكل أساسى على المؤشرات الإحصائية التى توضح وتؤكد هذه الحقيقة بالنسبة للمحاور الثلاثة التى تقوم عليها الدراسة وهى.. السفينة والميناء والبضائع.

تتمثل أهمية قناة السويس فى المقام الأول فى الوفر فى المسافات كما يوضحه الجدول رقم (١) حيث تراوحت النسبة المئوية للوفر ما بين ٨٨٪ كما هو الحال فيما بين ميناء جدة وميناء بيريه فى اليونان، ٣٠٪ فيما بين ميناء رأس تنورة وميناء نيويورك.

والوفر فى المسافة يؤدى إلى وفر فى زمن الرحلة. فمثلاً الوفر فى المسافة بين ميناء البصرة وميناء روتردام هو ٤٨٠٠ ميلاً بحرياً، وهو ما يعادل مسيرة ١٤,٣ يوماً عندما تكون سرعة السفينة ١٤ عقدة فى الساعة(١).

جدول (١) [٢]

(الوفر فى المسافات عبر قناة السويس بالمقارنة بطريق رأس الرجاء الصالح)

جدول (١) [١]

(الوفر في المسافات عبر قناة السويس بالمقارنة بطريق رأس الرجاء الصالح)

من	إلى	المسافة بالميل البحري		% النسبة المئوية للوفر في المسافة
		عبر قناة السويس	عبر رأس الرجاء الصالح	
رأس تنورة	كراتشي	٤١٤٤	١٢٠٩٤	٦٦,٠
رأس تنورة	لاڤيرا (جنوب فرنسا)	٤٩٨٤	١٠٧٨٣	٥٧,٠
رأس تنورة	روتردام	٦٤٣٦	١١٦١٩	٤٢,٠
رأس تنورة	هيريوك	٨٢٨١	١١٧٩٤	٣٠,٠
البصرة	تارانتو	٤٢٦٧	١١٧٤٩	٦٣,٢
البصرة	روتردام	٦٦٤٩	١٦٤٥٩	٤١,٩
البصرة	بالتيمور	٨٧٩٤	١٤٤٢٦	٢٧,٥
ميناء الأحمدي	روتردام	٦٩٩٠	١١٤٦٠	٤٢,٥
ميناء الأحمدي	تريستا	٤٦٠٠	١١٨٩٠	٦١,١
ميناء الأحمدي	فيلادلفيا	٨٥٧١	١٢٠٠٠	٢٨,٥
جدة	بيريه	١٢٢٠	١١٢٠٨	٨٨,٠
جدة	لاڤيرا	١٢٤٥	١٠٤١١	٨٧,٤
جدة	روتردام	٣٩٩٧	١٠٧٩٧	٦٣,٠
عدن	لاڤيرا	٢٤١٩	٨٧١٧	٧٠,٠
عدن	روتردام	٤٩٦٨	١٠٦٠٢	٥٣,٥
بنبع	لاڤيرا	٤٠٦٩	١٠٥٦١	٨٠,٠
بنبع	روتردام	٣٨٢١	١٠٩٤٧	٦٩,١
الحديدة	روتردام	٢٦٨٤	٩٩٤٠	٧٣,٠
المخا	لاڤيرا	٦٤٠٩	١٠٩٠٧	٨٩,٦
المخا	روتردام	٢٩٤١	١١٢٤٣	٦٧,٣
بورسودان	روتردام	٤٠٥٥	١٠٧٥٤	٦٢,٣
بورسودان	لاڤيرا	٤٣٠٣	١٠٣٦٨	٧٢,٨
جيبوتى	لاڤيرا	٢٨٩٩	٩٨٧٦	٧٠,١
جيبوتى	روتردام	٤٦٥١	١٠٢١٢	٥٤,٥

[1] Reed's Marine distance tables. Thomas Reed Publications, LTD Sutherland & London. P.

وأيضاً بالنسبة لميناء الأحمدى وروتردام نجد أن رحلة السفينة عبر قناة السويس فى رحلة الذهاب والعودة تستغرق ٣٥,٩٢ يوماً – بينما رحلتها عبر طريق رأس الرجاء الصالح فى الذهاب والعودة تستغرق ٥٩,٦٨ يوماً ونسبة الوفر ٢٣,٨ يوماً.

ونجد أيضاً أن عدد الرحلات التى تقوم بها الناقلة فى العام عبر قناة السويس تساوى تسع رحلات، بينما تبلغ عدد رحلات الناقلة عبر طريق رأس الرجاء الصالح فى العام ٥,٥ رحلة.

وتتراوح نسبة الوفر فى زمن الرحلة للسفن بالأيام فى الموانىء العربية الواقعة على البحر الأحمر عبر الطريق الملاحى فى قناة السويس ما بين ١٩ يوماً و٥ أيام(٣).

الوفر فى تكاليف الرحلة البحرى:-

ينعكس الوفر فى مسافة الرحلة البحرية على الوفر فى التكاليف مثل.. تكلفة الوقود وعناصر التكاليف المرتبطة بالزمن مثل الإيجار الزمنى والتأمين وتكلفة رأس المال المحتجز فى البضاعة واستهلاك المياه وعنصر تكلفة الطاقم والصيانة. وكل هذا يعنى أن إجمالى وفورات كل سفينة تتفاوت حسب طول الرحلة التى تقطعها بين الموانىء المختلفة، أى حسب طول المسافة التى توفرها قناة السويس للسفن العابرة.

وسنقوم فيما يلى بتحليل للعناصر الثلاثة فى هذه الدراسة...

أولاً: أسطول النقل البحرى العربى:-

تتمحور صناعة النقل البحرى بشكل أساسى حول السفينة، ومن ثم تتعدد أنشطة تلك الصناعة بتعدد الأطراف ذات الصلة بالسفينة، وبالتالى يشتمل قطاع النقل البحرى على كل أصحاب المصالح المرتبطة بالسفينة بدءاً من بنائها إلى تشغيلها إلى الموانىء والممرات الملاحية ثم الخدمات البحرية. فالسفينة تؤثر فى الموانئ والممرات الملاحية كما تتأثر بها ايضاً، كما وأن البضائع تحدد شكل وتصميم السفينة أيضاً(٤).

اهتمت الدول العربية بامتلاك أساطيل بحرية تجارية تخدم عملية نقل تجارتها الخارجية وتساهم فى نقل المعدات والأجهزة والمواد الوسيطة لتنفيذ برامج التنمية بها، ويزيد من هذا الاهتمام أن الدول العربية تمتلك المقومات اللازمة لنجاح تنفيذ المشروعات الملاحية من البضائع ورأس المال مع التركيز على التعليم والتدريب البحرى.

و تمثل الدول العربية مركزاً من أهم المراكز التجارية فى العالم، وفى نفس الوقت لديها فوائض بترولية يتم نقلها بحراً بناقلات متخصصة للعالم الخارجى.

وتوضح الإحصائيات الملاحية العربية أن أسطول النقل البحرى العربى كان فى آخر ديسمبر ١٩٨٠ كالاتى(٥):-

٤٢٤ سفينة إجمالى حمولتها الكلية المسجلة ٨,٠٥ مليون طن وحمولتها الوزنية (DWT) ١٣,٥ مليون طن، وتمثل ناقلات البترول العربية ٦٧,٩٪ من إجمالى الحمولة الوزنية للأسطول العربى تليها سفن البضائع العامة والتى تكون ما نسبته ١٨,٨٪ من إجمالى الحمولة الوزنية، وتكون بقية أنواع السفن ما نسبته ١٣,٣٪.

وتمثل حمولة الأسطول العربى ٢,٢٪ من إجمالى حمولة أسطول النقل البحرى العالمى. وبالنسبة لأنواع السفن المختلفة تمثل السفن العربية النسب المئوية الآتية بالنسبة للإجمالى العالمى:-

ناقلات البترول تمثل ٣,١٪ من أسطول ناقلات البترول العالمى، وحاملات الغاز تمثل ٧٪ وحاملات الكيماويات ٤,٣٪ والناقلات الأخرى ١,٤٪ وحاملات الخام الصب ٠,٢٪ وسفن البضائع العامة ٢,٨٪، وسفن الركاب ٣,٤٪، وسفن الحاويات ٠,٨٪، والعبارات وسفن الركاب ٢٪، وسفن نقل الماشية ٤٠,٩٪.

وأهم نوعان تمتلكهما الدول العربية هما ناقلات البترول (Tankers) وسفن البضائع العامة. ويبلغ وإجمالى حمولة ناقلات البترول العربية ٥,٥ مليون طن مسجل بما يمثل ٦١,١٪ من إجمالى أسطول النقل البحرى العربى، كما تمثل الحمولة المسجلة لسفن البضائع العامة ٢,٣ مليون طن بنسبة ٢٥,٤٪ من إجمالى الأسطول العربى.

وتمتلك خمس دول عربية ناقلات بترول حمولتها المسجلة٥ مليون طن بنسبة ٩٢,١٪ من أسطول الناقلات العربى وفق النحو الآتى..

الجزائر ٥٩٢ ألف طن بنسبة ١٠,٩٪، والعراق ١١٤٩ ألف طن بنسبة ٢١,١٪ (يلاحظ أنه منذ عام ١٩٩١ وحتى الآن تم إلغاء الأسطول التجارى العراقى)، والكويت ١٣٤٨ ألف طن بنسبة ٢٤,٨٪، وليبيا ٧٩٦ ألف طن بنسبة ١٤,٦٪، والسعودية ١١٢٩ ألف طن بنسبة ٢٠,٧٪، وباقى الدول العربى تمتلك الحمولة الباقية بنسبة ٧,٩٪.

وبالنسبة لناقلات الغاز المسال (Liquefied Gas) فهناك ٤ دول فقط تمتلك حاملات الغاز المسال وهى: الجزائر، الكويت، المغرب، الإمارات. أما ناقلات

المواد الكيميائية (Chemical Tankers) نجد ٤ دول فقط تمتلك مثل هذه النوعية من السفن وهى الكويت، ليبيا، المغرب، تونس وبالنسبة لترتيب الدول العربية من حيث حجم الملكية (حتى آخر عام ١٩٨٠) فنجد أن الكويت هى أكبر دولة مالكة لسفن النقل البحرى، فهى تملك أسطولاً حمولته المسجلة ٢,٥ مليون طن يمثل ٢٨٪ من حجم الأسطول العربى، كما تمتلك السعودية أسطول نقل حمولته المسجلة ١,٤ مليون طن بنسبة ١٥,٣٪ من حجم الأسطول العربى، كما كانت العراق تمتلك أسطولاً تبلغ حمولته المسجلة ١,٣ مليون طن بنسبة ١٥,٢٪ من الأسطول العربى. وتمتلك الجزائر أسطولاً حمولته المسجلة ١,٢ مليون طن بنسبة ١٣,٥٪، كما تمتلك ليبيا أسطولاً حمولته المسجلة ٨٦٩ ألف طن بنسبة ٩,٧٪.

ومعنى هذا أن هذه الدول الخمس تبلغ حمولة أساطيلها المسجلة ٧,٢ مليون طن بنسبة ٨١,٧٪ من إجمالى أساطيل الدول العربية.

وعلى أية حال فإن هناك اتجاه متزايد للدول العربية نحو تملك الأساطيل التجارية البحرية الوطنية، وما يترتب عليه من دفع النولون للسفن الوطنية بدلاً من السفن الأجنبية، وما يترتب على ذلك من زيادة أرباح الصادرات وقلل من الإنفاق على الواردات.

وفى مصر تم تأميم شركات النقل البحرى الخاصة فى عام ١٩٦١، وتأسست الشركة العربية المتحدة للنقل البحرى (الشركة المصرية للملاحة البحرية حالياً) وقد ازدادت أحجام الأسطول التجارى البحرى المصرى خلال السنوات الأخيرة زيادة مضطردة، وفى عام ١٩٧١ تم إنشاء مؤسسة نقل بحرى موحدة بين مصر وسوريا وليبيا لنقل البترول فى التجارة العالمية.

الشركات الملاحية العربية:

بلغ عدد الشركات الملاحية فى الدول العربية أكثر من ثلاثمائة شركة ملاحية نذكر هنا أهم هذه الشركات الملاحية العربية..

شركة ناقلات الكويت (الكويت)، الشركة العربية البحرية لناقلات البترول (الأوبك)، الشركة الوطنية الجزائرية للملاحة (الجزائر)، الشركة المتحدة للملاحة العربية (خليجية)، ناقلات النفط العراقية (العراق- لم تعد حالياً تعمل منذ عام ١٩٩١)، الشركة الوطنية العامة للنقل البحرى (ليبيا) الشركة المصرية الملاحية (مصر)، شركة ساسكو (السعودية)، قمر لاين (السعودية)، كوتوناف (تونس)، بنرومار (المغرب)، الخطوط البحرية السودانية (السودان)، عرى للملاحة (السعودية)، المؤسسة العامة للموانىء العراقية (العراق).

حركة السفن العربية فى قناة السويس (١٩٨٦-٢٠٠٥):

يوضح الجدول رقم (٢) أعداد السفن العربية التى عبرت قناة السويس خلال العشرين عاماً الماضية، وبتحليل هذا الجدول نجد أن أعداد السفن العربية فى تناقص خلال هذه الفترة فقد عبرت قناة السويس فى عام ١٩٨٦ (١٣١٧ سفينة عربية) بلغ إجمالى حمولاتها الصافية ٢٤,٣ مليون طن[١] بينما عبرت القناة فى عام ٢٠٠٥ عدد (٦٠١ سفينة عربية) إجمالى حمولاتها الصافية ١٧ مليون طن ورغم انخفاض عدد السفن- إلا أننا نلاحظ ارتفاع حمولاتها، فبالمقارنة نجد أن هناك زيادة فى الحمولة الصافية بمقدار ٦ مليون طن صافى نسبياً بالمقارنة بعدد السفن فى كل من عامى ١٩٨٦ و ٢٠٠٥، بالإضافة إلى زيادة أحجام السفن نلاحظ أن انخفاض أعداد ناقلات البترول العملاقة العابرة للقناة خلال هذه الفترة بسبب زيادة طاقة خط السوميد (العين السخنة/سيدى كرير) فقد بلغ إجمالى طاقته السنوية ١٢٠ مليون طن[٢].

وباستعراض الجدول رقم (٣) نجد أن الكويت تأتى على قمة الدول العربية المستخدمة لقناة السويس خلال السنوات الخمس الماضية حسب إجمالى الحمولات الصافية لسفنها، فقد بلغت عام ٢٠٠١ (٤,٢٥ مليون طن)، وفى عام ٢٠٠٢ (٣,٩ مليون طن)، وفى عام ٢٠٠٣ (٥,٢ مليون طن).

وجاءت السعودية فى المرتبة الثانية فقد بلغ إجمالى الحمولة الصافية لسفنها التى عبرت القناة خلال عام ٢٠٠١ (٣,٤ مليون طن)، وفى عام ٢٠٠٢ (٣,١ مليون طن)، وفى عام ٢٠٠٣ (٣,٢ مليون طن)، وفى عام ٢٠٠٤ (٣,٢ مليون طن)، وفى عام ٢٠٠٥ (٣,٥ مليون طن).

وتأتى فى المرتبة الثالثة دولة قطر حيث بلغ إجمالى الحمولات الصافية لسفنها التى عبرت قناة السويس خلال عام ٢٠٠١ (١,٦ مليون طن)، وفى عام ٢٠٠٢ (١,٦ مليون طن)، وفى عام ٢٠٠٣ (١,٥ مليون طن)، وفى عام ٢٠٠٤ (١,٧ مليون طن)، وفى عام ٢٠٠٥ (١,٥ مليون طن).

وتأتى البحرين فى المرتبة الرابعة، ونلاحظ أن سفن الحاويات تمثل نسبة كبيرة من السفن البحرينية العابرة للقناة، وتأتى مصر فى المرتبة الخامسة بالنسبة للسفن العربية.

كما يوضح الجدول رقم (٣) أعداد ناقلات البترول العربية التى عبرت القناة خلال الفترة من عام ٢٠٠١ حتى عام ٢٠٠٥ وكانت كالآتى: ١٣٥ ناقلة، ٩٧ ناقلة، ١١٧ ناقلة، ١١٢ ناقلة، ١٤٥ ناقلة - على التوالى.

كذلك يوضح الجدول رقم (٢) اختفاء السفن التى ترفع العلم العراقى اعتباراً من عام ١٩٩١ وحتى الآن، بعد أن كانت تعبر القناة أعداد كبيرة من السفن العراقية (١٢٢ سفينة عام ١٩٨٦، ١٠٨ سفينة عام ١٩٧٨، ١١٦ سفينة عام ١٩٨٨، ١٠١ سفينة عام ١٩٨٩، ٥٧ سفينة عام ١٩٩٠).

هذا فى الوقت الذى شهدت فيه قناة السويس تزايداً فى أعداد السفن الأمريكية اعتباراً من عام ١٩٩٧ فقد بلغت ١٣٥ سفينة. زادت لتصبح ٥٤٤ سفينة فى عام ٢٠٠٣. ولا شك أنها أصبحت تنقل تجارة العراق الخارجية.

جـــدول (٢)

أعداد السفن العربية المارة فى قناة السويس

(١٩٨٦ – ٢٠٠٥)

اسم الدولة / السنة	١٩٨٦	١٩٨٧	١٩٨٨	١٩٨٩	١٩٩٠	١٩٩١	١٩٩٢	١٩٩٣	١٩٩٤	١٩٩٥	١٩٩٦	١٩٩٧	١٩٩٨	١٩٩٩	٢٠٠٠	٢٠٠١	٢٠٠٢	٢٠٠٣	٢٠٠٤	٢٠٠٥
البحرين	٤٢	٣٣	٢٩	٢٩	٣٠	٣٠	٣٠	٣٠	٣٠	٣٠	٣٠	٣٠	٣٠	٣٠	٣٠	٣٠	٣٠	٣٠	٣٠	٣٠
مصر	١٤٤	١٠٣	١٠٢	١٠٠	٩٧	٩٦	٩٥	٩٥	٩٥	٩٥	٩٥	٩٥	٩٥	٩٥	٩٥	٩٥	٩٥	٩٥	٩٥	٩٥
الأردن	١١	٩	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨
الكويت	٢١٥	١٧٩	١٧٦	١٧٣	١٧٠	١٦٩	١٦٨	١٦٨	١٦٨	١٦٨	١٦٨	١٦٨	١٦٨	١٦٨	١٦٨	١٦٨	١٦٨	١٦٨	١٦٨	١٦٨
لبنان	١١١	١١٢	١١٢	١١٢	١١٢	١١٢	١١٢	١١٢	١١٢	١١٢	١١٢	١١٢	١١٢	١١٢	١١٢	١١٢	١١٢	١١٢	١١٢	١١٢
ليبيا	٨	٣٤	٣٤	٣٤	٣٤	٣٤	٣٤	٣٤	٣٤	٣٤	٣٤	٣٤	٣٤	٣٤	٣٤	٣٤	٣٤	٣٤	٣٤	٣٤
المغرب	٦١	٦٤	٦٤	٦٤	٦٤	٦٤	٦٤	٦٤	٦٤	٦٤	٦٤	٦٤	٦٤	٦٤	٦٤	٦٤	٦٤	٦٤	٦٤	٦٤
عمان	٣	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢
قطر	٦١	٥١	٥١	٥١	٥١	٥١	٥١	٥١	٥١	٥١	٥١	٥١	٥١	٥١	٥١	٥١	٥١	٥١	٥١	٥١
السعودية	٢٤٨	١٩٦	١٩٦	١٩٦	١٩٦	١٩٦	١٩٦	١٩٦	١٩٦	١٩٦	١٩٦	١٩٦	١٩٦	١٩٦	١٩٦	١٩٦	١٩٦	١٩٦	١٩٦	١٩٦
الصومال	١٦	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨	٨
سوريا	١٦	١٦	١٦	١٦	١٦	١٦	١٦	١٦	١٦	١٦	١٦	١٦	١٦	١٦	١٦	١٦	١٦	١٦	١٦	١٦
تونس	٥٠	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣
الإمارات	٧١	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣
اليمن	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢
موريتانيا	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢
الجزائر	٢٢	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧
الإجمالى	٦٧٤	٥٤٤	٥٤٤	٥٤٤	٥٤٤	٥٤٤	٥٤٤	٥٤٤	٥٤٤	٥٤٤	٥٤٤	٥٤٤	٥٤٤	٥٤٤	٥٤٤	٥٤٤	٥٤٤	٥٤٤	٥٤٤	٥٤٤

المصدر: نشرات هيئة قناة السويس السنوية (١٩٨٦ – ٢٠٠٥م)

جـــدول رقم (٢)

حركة السفن العربية فى قناة السويس

حسب الجنسية والنوع والعدد والحمولة الصافية

Algeria : (1000 Ton)

	2001		2002		2003		2004		2005	
	No	Net Ton	No	Net Ton	No	Net Ton	No	Net Ton	No	Net Ton
Tankers	1	7							1	4
Bulk Carr.	3	120	2	36	4	82	3	60	4	77
G. Cargo	3	58	1	31	1	67	1	43		
Total	7	185	3	67	5	149	4	103	5	81

Bahrain : (1000 Ton)

	2001		2002		2003		2004		2005	
	No	Net Ton	No	Net Ton	No	Net Ton	No	Net Ton	No	Net Ton
Tankers	1	91			1	126	1	135	1	133
Bulk Carr.							1	14	1	8
G. Cargo	2	59	2	39	1	83				
Container Ships	28	899	28	845	28	889	28	944	28	996
Others			3	5			3	3		
Total	31	1049	33	889	30	1098	33	1096	30	1137

Egypt : (1000 Ton)

	2000		2000		2001		2004		2005	
	No	Net Ton	No	Net Ton	No	Net Ton	No	Net Ton	No	Net Ton
Tankers	19	27	13	28	13	88	17	93	21	129
Bulk Carr.	33	46	33	596	14	413	16	413	39	656
G. Cargo	16	80	12	62	11	139	2	24	2	8
Container Ships	2	41			1	13			1	109
Ro/Ro	3	48	3	33	3	46	4	23	4	89
War Ships	46	1	29	1						
Others	111	438	108	170	61	82	42	39	61	88
Total	270	681	208	890	103	781	81	592	128	1079

Jordan : (1000 Ton)

	2001		2002		2003		2004		2005	
	No	Net Ton	No	Net Ton	No	Net Ton	No	Net Ton	No	Net Ton
Bulk Carr.	1	18							1	14
G. Cargo			2	10	2	14	1	14	1	8
Container Ships										
Ro/Ro			10	68	14	118	3	78	4	53
Passenger Ships			1	11			1	11		
Total	1	18	13	89	16	132	5	103	6	75

Kuwait : (1000 Ton)

	2001		2002		2003		2004		2005	
	No	Net Ton	No	Net Ton	No	Net Ton	No	Net Ton	No	Net Ton
Tankers	137	1376	96	1810	33	3104	31	3018	36	4075
G. Cargo	3	84								
Container Ships	422	2114	82	2114	82	2150	80	1712	58	1785
Ro/Ro					1	46				
Others									1	
Total	562	3574	178	3924	116	5300	111	4730	95	5860

Lebanon : (1000 Ton)

	2001		2002		2003		2004		2005	
	No	Net Ton	No	Net Ton	No	Net Ton	No	Net Ton	No	Net Ton
Tankers							3	21	1	
Bulk Carr.	11	318	6	184	6	83	5		2	35
G. Cargo	90	169	58	113	84	128	33	67	33	38
Ro/Ro					5	10				
Car Carr.							1	1	1	11
Others	1	1								
Total	102	488	64	297	95	221	42	89	37	84

المصدر: وحدة البحوث الاقتصادية (هيئة قناة السويس)

تابع جـــدول رقم (٢)

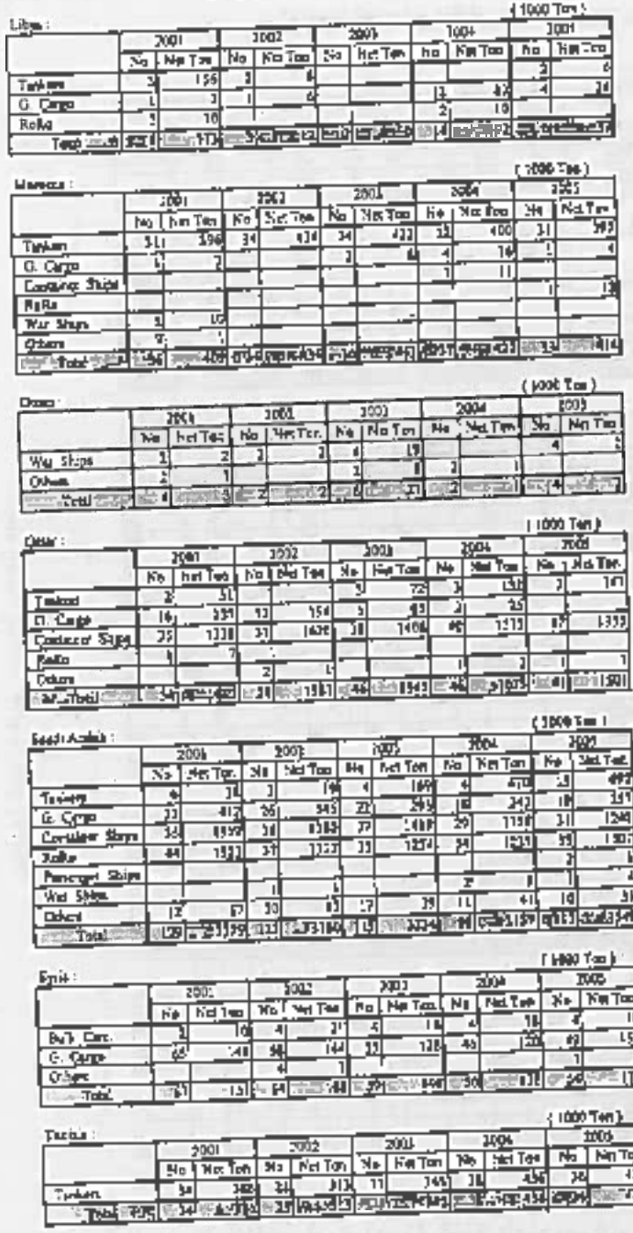

المصدر: وحدة البحوث الاقتصادية (هيئة قناة السويس)

الحوافز التى تقدمها قناة السويس للسفن العربية:

تمنح قناة السويس تخفيضات فى رسوم العبور للسفن العربية لتشجيعها على عبور قناة السويس، وقبالها بمنافسة السفن الأخرى وتتمثل فى الآتى:

أولاً: تخفيضات قدرها ٣٥٪ لسفن الغاز الطبيعى المسال (LNG) القادمة من الخليج العربى، تشجيعا لها لفتح اسواق جديدة فى أوروبا.

ثانياً: تخفيضات أخرى مرتبطة بكمية الغاز المنقولة كالآتى:

- ٥٪ للكميات العابرة التى تزيد عن نصف مليون طن وحتى مليون طن.
- ١٠٪ للكميات العابرة التى تزيد عن مليون طن وحتى ٢ مليون طن.
- ١٥٪ للكميات العابرة التى تزيد عن ٢ مليون طن.

وقد اسفرت هذه التخفيضات عن فتح اسواق جديدة لغاز الخليج العربى فى الدول الأوروبية مثل: أسبانيا وفرنسا وتركيا.

ثالثاً: منح تخفيضات لناقلات البترول المحملة، وهذا مرتبط بكمية البترول الخام العابر للقناة وفقاً للآتى:

- ٥٪ للكميات العابرة التى تزيد عن مليون طن وحتى ٢ مليون طن.
- ١٠٪ للكميات العابرة التى تزيد عن ٢ مليون طن وحتى ٣ مليون طن.
- ٣٠٪ للكميات العابرة التى تزيد عن ٣ مليون طن.

رابعاً: تقديم تخفيضات ثابتة فى رسوم عبور السفن المحملة بالحبوب وتكون قادمة من الشمال ومتجهة إلى ميناء العقبة الأردنى وقدرها ١٠٪ من رسوم العبور وذلك تشجيعا للنقل إلى ميناء العقبة الأردنى عبر قناة السويس بدلاً من استخدام النقل البرى عبر إسرائيل.

خامساً: تخفيض ممنوح للسفن السياحية التى تعبر القناة وتزور الموانى المصرية على البحر الأحمر أو البحر المتوسط بنسبة تصل إلى ٥٠٪ من رسوم العبور فى رحلتى الذهاب والعودة فى حالة توقفها بغرض السياحة.

سادساً: تعاون هيئة قناة السويس مع خط السوميد بالسماح للناقلات العملاقة المحملة التى لا تستطيع عبور القناة- لكبر غاطسها- بتخفيف جزء من حمولتها فى خط السوميد ثم عبور القناة بباقى الحمولة وطبقاً لهذا فإن هذه السفن تحصل على تخفيضات طبقاً لكميات البترول العابرة للقناة.

ثانياً: الموانئ البحرية العربية:-

تحتاج البضائع ويحتاج الركاب الذين يستخدمون النقل البحرى إلى وسيلة لتسهيل الوصول إلى السفن ومغادرتها. وهذه التسهيلات هى التى تقدمها الموانئ البحرية، وكذلك تحتاج السفن إلى كل ما يؤهلها للقيام

برحلاتها. وهذه الاحتياجات من مياه عذبة ووقود وإصلاحات وغير ذلك تحصل عليها من الموانئ أيضاً.

والميناء هو الجزء الذى تنتهى إليه حركة السفينة أو تبدأ منه، وظهير الميناء Hinterland يضم الإنشاءات الهندسية مثل الأرصفة والروافع والمخازن وغير ذلك من وسائل التسهيلات الأرضية.

أن كل الدول العربية دولاً ساحلية تطل على البحار والمحيطات. ويبلغ طول سواحلها ١٢٠ ألف كيلو متر، وإجمالى عدد موانيها البحرية ١٠٨ ميناء- منها ٣٩ ميناء للبترول و ٦٩ ميناء للبضائع العامة والركاب والصيد (انظر الجدول رقم ٤).

وتقع هذه الموانئ فى الخليج العربى وحوض البحر الأحمر والبحر المتوسط، وتقع قناة السويس فى قلب هذه الشبكة الملاحية البحرية التى تمر بهذه الموانئ البحرية، وأصبحت مركزاً لحركتها التجارية حيث قربت لها المسافات (راجع الجدول رقم ١) مما أدى إلى ازدياد حركة الملاحة بالموانئ العربية وسرعة تطويرها.

كنا أن هناك بعض الموانئ العربية اعتمدت بصفة أساسية على حركة الملاحة فى قناة السويس واستفادت منها مثل ميناء عدن وميناء جيبوتى وغيرها، وتأثرت بشدة عند إغلاق قناة السويس فى الفترة من (١٩٦٧-١٩٧٥).

وإذ استعرضنا الموانئ العربية نجدها تقع على البحار الآتية:-

١- حوض البحر المتوسط:-

شرقاً متمثلاً فى موانئ لبنان وسوريا وفلسطين (المحتلة) والموانئ المصرية الشمالية، وغرباً نجد موانئ دول الساحل الشمالى لأفريقيا فى ليبيا وتونس والجزائر ومراكش، وقد استفادت موانئ هذه الدول من قناة السويس إذ سهلت لها الاتصال بحوض البحر الأحمر والخليج العربى والمحيط الهندى.

٢- حوض البحر الأحمر:-

لاشك فى أن الموانئ البحرية العربية الواقعة على حوض البحر الأحمر هى أكثر الموانئ استفادة من جود قناة السويس لأنها قريبة منها ويوضح الجدول رقم (١) كيف أن ميناء جدة قد بلغت نسبة الوفر فى المسافة بينه وبين ميناء بيريه على البحر المتوسط ٨٨٪، وكذلك ميناء عدن وينبع والحديدة والعقبة وبورسودان كلها قد استفادت من قناة السويس بنسب مختلفة من الوفر فى المسافات، ولذا راجت أوضاعها الاقتصادية وازداد تعداد سكانها وما تبع

جـــدول رقم (٤)

الموانئ البحرية العربية

يوضح الجدول الآتي طول السواحل العربية وعدد الموانئ بكل دولة وتقسيمها إلى مـوانئ تصـدير البترول والمنتجات البترولية وموانئ البضائع للحالة والركاب والصيد ..

اسم الدولة	عدد الموانئ	موانئ البترول	موانئ بضائع حالة وركاب وصيد	طـــول السواحل بالكيلومتر
الجزائر	١٠	٤	٦	١٢٠٠
البحرين	٢	١	١	١٥٠
مصر	١٢	٤	٨	٢٤٠٠
العراق	٥	٣	٢	٧٠
الأردن	١		١	٢٥
الكويت	٥	٤	١	٢٠٠
لبنان	٤	٢	٢	٢١٠
ليبيا	١١	٦	٥	١٨٥٠
موريتانيا	٢		٢	٧٥٠
المغرب	٨		٨	١٨٠٠
عمان	٢	١	٢	١٧٠٠
قطر	٣	١	٢	٣٠٠
السعودية	١٠	٤	٦	٢٥٠٠
الصومال	٤		٤	٢٨٠٠
السودان	٢		٢	١٨٥
سوريا	٣	١	٢	١٨٥
تونس	٨	٢	٦	١٢٠٠
الإمارات	١١	١	٥	٦٣٠
اليمن	٤		٤	١٧٥٠
	١٠٨	٣٩	٦٩	٢٠٠٢٠٠

المصدر: Arab ports Traffic. A.M.T. A, Alexandria 1976.

ذلك من اتساع نطاقاتها العمرانية وازدياد مجال الخدمات البحرية بها.

أضف إلى ذلك دور البحر الأحمر كمسار رئيسى لناقلات النفط العربية وغيرها المتجهة للأسواق العالمية. وهو أمر زاد من أهمية الموانئ العربية فى البحر الأحمر، وحدد هياكل تركيبها الاقتصادى، كما هو الحال بالنسبة لكل من عدن وينبع ورأس عيسى (اليمن) وبشاير (السودان) والعين السخنة (مصر)(٨).

٣- الخليج العربى:-

تطل الدول الخليجية- على الخليج العربى- وهى الكويت وقطر والبحرين والإمارات وسلطنة عمان والسعودية والعراق، ومن أهم موانيها البحرية نجد ميناء الأحمدى بالكويت، ميناء سلمان بالبحرين، والشارقة بدبى، والفجيرة بالإمارات، وميناء صلالة بعمان، وميناء الدمام ورأس تنورة بالسعودية، والبصرة وأم القصر بالعراق، وميناء الدوحة وأم سعيد بقطر.

وترتبط هذه الموانئ بقناة السويس بخطوط ملاحية منتظمة وأهمها خطوط ملاحية لنقل بترول الخليج العربى إلى أوروبا والولايات المتحدة عبر قناة السويس - أيضاً حركة الحاويات Containers المتزايدة بين الموانئ العربية على الخليج العربية وبين موانئ أوروبا والولايات المتحدة (كما توضحه الإحصائية رقم ٦, ٧)

أهم الموانئ البحرية العربية:

السعودية لديها ١٠ موانئ منها ٤ للبترول هى «رأس تنورة، الجعيمة، الزلف، رأس الخفجى» وستة موانئ للبضائع العامة هى «جدة، الدمام، ينبع، جيزان، الجبيل، الخبر».

وبالكويت ٥ موانئ منها أربعة للبترول هى «الأحمدى، عبدالله، سعود، الشعيبة»، وميناء للبضائع العامة هى الشويخ.

والعراق لها خمسة موانئ منها ثلاثة للبترول هى «البكر، خور العمية، الفاو Fav» وميناءين للبضائع العامة هما «البصرة، أم القصر».

وبالبحرين يوجد ميناء سترة وهو ميناء بترولى، وميناء سلمان للبضائع العامة.

ويوجد بقطر ثلاثة موانئ عامة وبترول هى «أم سعيد، جزيرة حلول».

أما ميناء الدوحة فهو للبضائع العامة (الحاويات). وبدولة الإمارات يوجد أحد عشر ميناءً منها ستة موانئ بترول هى «جبل طنة، جزيرة داس، ومباراس،

وأبوالبكوش، وميناء الفاتح بدبى، وميناء مبارك بالشارقة». وهناك ثلاثة موانئ للبضائع العامة هى «ميناء زايد بأبى ظبى، راشد بدبى، خورفكان».

وفى دولة عمان ثلاثة موانئ منها ميناء بترول الفحال، وميناءى قابوس والريسوط، وفى اليمن ميناء عدن والمكلا والحديدة. والصومال أربعة موانئ بضائع عامة هى «مقديشيو، قسامايو، بربرة، وبركة»، وفى الأردن ميناء العقبة، وفى السودان نجد موانئ بورسودان وسواكن للبضائع العامة.

أما فى مصر فهناك ١٢ ميناء منها أربعة موانئ لتصدير البترول هى «رأس غارب، رأس شقير ومرسى الحمراء (العلمين)، وادى فيران «وثمانية موانئ بضائع عامة هى «السويس، الإسكندرية، بورسعيد، دمياط، أبو زنيمة، القصير، الأدبية، سفاجا».

وفى لبنان أربعة موانئ منها ميناءين للبترول هما «طرابلس، صيدا» أما ميناءا بيروت وشكة للبضائع العامة.

وفى سوريا ثلاثة موانئ ميناء بانياس لتصدير البترول، واللاذقية وطرطوس للبضائع العامة.

أما فى ليبيا يوجد أحد عشر ميناءا منها خمسة موانئ للبضائع العامة هى «طرابلس، بنى غازى، طبرق، درنة» وستة موانئ للبترول هى «مرسى السدر، الزويتينة، مرسى البيجة، رأس لانوف، مرسى الحريقة، الزاوية».

وفى تونس ثمانية موانئ منها ميناءين للبترول هما الشخيرة، اشغارات» وستة موانئ بضائع عامة هى «بيزرته، قابس، منزل، بورقيبة، صفاقس، صوصة، حلق الوادى».

وبالجزائر عشرة موانئ منه أربعة لتصدير البترول والغاز الطبيعى هى «أرزو، بجاية، سكيلدا، ليس» وستة موانئ للبضائع العامة «الجزائر، وهران، عنابة، مستغانم، غزاوبت، بنى صاف».

وفى المغرب يوجد ثمانية موانئ كلها للبضائع العامة ونقل الركاب وهى «الدار البيضاء، صافى المحمدية، القنيطرة، أغادير، طنجة، الجديدة، السويرة».

مؤشرات حركة التجارة فى الموانئ العربية (شحن وتفريغ):

يوضح لنا الجدول رقم (٥) بجلاء كميات البضائع المفرغة (الواردات) والمشحونة (الصادرات) من وإلى الموانئ فى بعض الدول العربية خلال الفترة من عام ١٩٨٥ حتى عام ١٩٩٠.

١- واردات الموانئ العربية:

بدراسة الجدول (٥) نجد أن أعلى معدل كميات بضائع مفرغة يتم فى الموانئ السعودية وقد بلغت عام ١٩٨٥ حوالى ٣١,٥ مليون طن بنسبة ٢٤٪ تقريباً من إجمالى الكميات الواردة من البضائع من الدول العربية، تليها مصر بكمية ٢٨,٣ مليون طن بنسبة ٢١,٥ من إجمالى الكميات الواردة، ثم الجزائر بكمية ١٨,٩ مليون طن بنسبة ١٤,٤٪ من الإجمالى. ثم المغرب بكمية ١٣ مليون طن تقريباً بنسبة ٩,٨٪ من الإجمالى، وفى عام ١٩٩٠ كانت مصر على رأس قائمة الدول، فاستوردت أكبر كميات من البضائع حيث بلغت الكميات الواردة إلى موانيها ١٩,٧ مليون طن تليها المغرب ١٧,٦ مليون طن، وتأتى السعودية فى المرتبة الثالثة بكمية قدرها ١٧,٥ مليون طن، وتأتى تونس فى المركز الرابع بكمية قدرها ١٠ مليون طن تقريباً.

٢- صادرات الموانئ العربية:-

فى عام ١٩٩٠ تصدرت السعودية قائمة الدول المصدرة بكمية ٤٤,٦ مليو ن طن، تليها المغرب بكمية قدرها ٢٠,٢ مليون طن. ثم سوريا بكمية ١٧,٤ مليون طن، تليها اليمن بكمية قدرها ١١,٨ مليون طن.

ويرجع التغيير الكبير فى خريطة الدول العربية المصدرة فى عام ١٩٩٠ عن عام ١٩٨٥ إلى التغير فى كميات البترول المصدرة عبر الموانئ العربية خلال تلك الفترة.

* موانئ النفط العربية:-

وهى كما ذكرنا ٣٩ ميناء فى الدول العربية تتركز فى مناطق إنتاج وتكرير النفط، وتقوم هذه الموانئ فى مواقع مناسبة وتستقبل الأرصفة والمرابط ناقلات النفط من كل الأحجام فى القاطس المناسب وتزود فى بعض الأحيان بنظام بكفل شحن النفط فى الناقلات المعلاقة التى تقف خارج الميناء، وتتضمن هذه الموانئ شبكة من الأنابيب التى تتولى عملية نقل النفط من الحقول مباشرة أو من صهاريج التخزين الضخمة أو من معامل التكرير، وتمتد هذه الأنابيب إلى الأرصفة والمرابط بشكل مباشر. كما تزود الموانئ المتخصصة فى النفط بمحطات للضخ تتولى مهمة ضخ البترول إلى ناقلات النفط

ويمكن أن تكون ميناء النفط على أرصفة صناعية فى عرض البحر لكى تخدم إنتاج البترول فى عمق المحيط، كما هو الحال فى حقول بترول بحر الشمال- كما يمكن أن تكون ميناء النفط على خط الساحل مباشرة، ومن شأن الأنابيب أن تنقل إلى هذا الموقع النفط من حقول إنتاجه.

كذلك يمكن أن تكون ميناء النفط فى موقع بعيد وتكون الأعمال الاصطناعية فى عرض البحر وتمثل رأس تنورة ميناء للنفط على الخليج العربى.

جدول رقم (٥)

البضائع المفرغة والبضائع المحملة فى موانئ الدول العربية

(١٩٨٥-١٩٩٠)

الدولة	١٩٨٥		١٩٨٦		١٩٨٧		١٩٨٨		١٩٨٩		١٩٩٠	
	مفرغ	محمل	مفرغ	محمل	مفرغ	محمل	مفرغ	محمل	مفرغ	محمل	مفرغ	محمل
الأردن	٦٣٧٠	٨١٢٨	٧٠٤٦	٨٤٨٧	٨٣٤٤	١١٣٢٢	٩١٤٣	١٠١٥٣	٨٧٩٧	١٠٨٦٤	٩١٦٥	٨٨٧٢
تونس	٧٠٢٦	٤٨٨٧	٨٠٤٠	٦٠٠٠	٨١٣٣	٦٢٤٤	١٠٠٢٤	٦٥٠٩	٩٨٨٤	٦٠١٤	٩١١٨	٩٥٨٠
الجزائر	١٨١٠٠٠	٤٤٠٠٠	١٨٠٠٠٠	٤٤٠٠٠	٤٩٦	٤٩٦	٤٧٤	٤٧٤				
جيبوتى	٤٢٠	١٤٠	٤٢٠	١٤٠	٢٢٦٠٣	٢٢٦٨٨	٢١٤٦٨	٢٣٨٣٨				
السودان	٥٤٣٠	٢٠٤٥٠	٥٤٣٠	٦١١	٤١٠٩	٣٩٩٩	٣٩٩٦	١٠٤٣	١٦٠٢	٢٠٤٠	٢٠٤٠	٤٧٨٣
سوريا	٩٩٢٤	٩٩٢٤	٩٩٢٤	٩٩٢٤	٩٩٢٤	٦٥٢١	٩٤٢٧	٨٤٢٧	١٢٠٥	٩٨٨٤	٤٨٨٥	٢٤٨٧
الجزائر	١٧٠٠	—	١٧٠٠	—	١٣٤٩	١٣٤٣	٢٦٦٤١	٢٦٦٤١	٢٤٠٤	٢٤٠٤	٢٤٠٤	٢٤٠٤
ليبيا	١٤٤٥	—	١٤٤٥	—	١٣٢٦	١١٠٤	١٣٦٠		٢٤٠٤			
مصر	٢٨٢٤٨	٢٢١٥٤	١٧٩٥١	١٠٧٣١	٢٠١٩٩	٢٢٧٠٤	١٠٤٨٠	٢٠٢٠	٢٠٠٢٩	١٠٤٠٤	١٠٤٠٤	١٠٤٠٤
الغربية	٢٠٧٥٢	٢٠٧٥٢	١٢٨٤٣	٢٠٧٥٢	٤٢٠	١٠١٤٠	١٩٣٧٧	١٩٣٧٧	٢٠٠٢٩	١٠٤٠٤	١٠٤٠٤	١٠٤٠٤
موريتانيا	٤٧٥	٩٧٠٣	٤٢٠	٩٧٠٣	٦٣٩٤	٦٣٩٤	٨٣٩٦	١٥٤٩	١٣٣٩	١٥٤٩	١٥٤٩	١٥٤٩
اليمن	٢٣٤٩	٢٣٤٩	٢٣٤٩	٢٣٤٩	١٥٦٠	٦٣٩٤	٨٣١١	١٠٠٤٤	٢٣٦٨	١٠٠٤٤	٢٣٥٨	١٣٧٢٧

المصدر: كتاب التجارة الاحصائية لدول الوطن العربى، العدد الثالث، ١٩٩٢، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، الإدارة الاقتصادية، إدارة الاحصاء.

أنواع أخرى من الموانئ:

هناك موانئ للصيد وموانئ للخدمات (عدن، بورسعيد، فالتا) على الطرق الملاحية وموانئ التخزين (مستودعات) وموانئ الترانزيت والموانئ الحرة وموانئ العبارات، والموانئ المتخصصة فى تداول الحاويات (ميناء دمياط، شرق تفريعة بورسعيد).

حركة تداول الحاويات بالموانئ العربية:

الحاويات Containers هى أحد وسائل نقل البضائع العامة فى التاريخ المعاصر، فقد ثبت كفاءتها فى عمليات النقل متعدد الوسائط عبر أراضى الدولة وموانيها وعلى السفن المتخصصة فى نقل الحاويات، وقد بلغ الآن إجمالى ما تنقله أحدث سفن الحاويات ١٢٠٠٠ حاوية، ولقد سارعت الدول العربية بتطوير موانيها وبناء الأرصفة المتخصصة فى تداول الحاويات، ونجحت فى ذلك أيما نجاح، وها هى دولة الإمارات العربية المتحدة تأتى فى المرتبة الثالثة عشر على مستوى العالم بالنسبة لعدد الحاويات المتداولة فى موانيها (دبى وخورفكان والفجيرة والشارقة).

فقد تم تداول ما يقرب من ٧ مليون حاوية فى موانيها خلال عام ٢٠٠٣ (راجع جدول رقم ٦، ٧)، وهى تأتى فى المرتبة الأولى بالنسبة للدول العربية، وفى المرتبة الثانية تأتى السعودية، و تأتى مصر فى المرتب الرابعة بتداول ١,٥ مليون حاوية فى موانيها (خلال عام ٢٠٠٣).

هذا وقد عبرت قناة السويس ١٤٢ سفينة حاويات عربية خلال عام ٢٠٠٥ موزعة على الدول العربية الآتية (الكويت ٥٠ سفينة، قطر ٣٧ سفينة، السعودية ٣١ سفينة، البحرين ٢٠ سفينة، مصر ٤ سفن). وتمثل هذه السفن نسبة ٢,٢٪ من إجمالى عدد سفن الحاويات التى عبرت قناة السويس خلال عام ٢٠٠٥ وعددها ٦٥٥٧ سفينة حاويات، وتمثل سفن الحاويات هذه نسبة قدرها ٣٦٪ منه إجمالى السفن التى عبرت قناة السويس فى عام ٢٠٠٥ وعددها ١٨١٩٣ سفينة(٩).

إجمالى حركة الحاويات فى موانئ الدول العربية
(بسعة الدولة وترتيبها بالنسبة لدول العالم)
(٢٠٠٣-٢٠٠٠)

م	الدولة	عام ٢٠٠٠		٢٠٠١		٢٠٠٢		٢٠٠٣	
		عدد الحاويات	المرتبة	عدد الحاويات	المرتبة	عدد الحاويات	المرتبة	عدد الحاويات	المرتبة
١	الإمارات	٥٠٥٥٨٠١	١٣	٥٠٨١٩٦٤	١٤	٥٨٧٢٦٤٤	١٣	٦٩٥٧٥٠	١٣
٢	مصر	١٦٢٥٦٠١	٢٧	١٧٠٨٩٩٠	٢٧	١٢٢٤١٣٣	٢٥	١٤٥٧٩٧٦	٢٥
٣	السعودية	١٥٠٢٨٩٣	٢٩	١٦٧٧٤١٣	٢٨	١٩٣٠٠٥١	٢٣	٢٤٤٠٣٢٧	٢٤
٤	عمان	١١٦١٥٤٩	٣٤	١٢٣٥٤٩٣	٣٢	١٤١٥٤٩٨	٣١	٢٢٤٦٨٢٦	٢٥
٥	اليمن	٢٤٨١٧٧	٦٤	٣٧٧٠٨	٥٧	٣٨٨٤٣٦	٥٣	–	–
٦	المغرب	٣٢٨٨٠٨	٥٧	٣٤٦٧٢٤	٥٩	٣٧٥٨٣٧	٥٥	–	–
٧	الجزائر	٢٦٧٥٣٠	٦١	٣١١١١١	٦٠	٣٣٨١٥٢	٥٧	–	–
٨	لبنان	–	–	٢٩٩٤٠٠	٦٧	٢٩٨٨٧٩	٥٨	–	–

المصدر: Containerization International Year Book 2003, 2004, 2005, London.

جـــدول رقم (٧)

حركة الحاويات في الموانئ العربية

(٢٠٠٠ - ٢٠٠٣)

الميناء	اسم الدولة	عام ٢٠٠٠		٢٠٠١		٢٠٠٤		٢٠٠٣	
		عدد الحاويات	المرتبة	عدد الحاويات	المرتبة	عدد الحاويات	المرتبة	عدد الحاويات	المرتبة
دبي	الإمارات	٢٠٥٨٨٨٦	١٣	٣٥٠١٨٢٠	١٣	٤١٩٤٢٦١	١٣	٥١٥١٩٥٨	١١
صلالة	عمان	١٠٣٢٦٩٢	٥٧	١١٨٧٧٥٣	٥٢	١٢١١٦٣٤	٥٩	٢٠٠٠٠٠٠	٣٧
جدة	السعودية	١٠٤٣٦١٧	٥٥	١١٨٠٤٢٧	٥٣	١٢٦٦٩٠٢	٥١	١٧٧٧١١٥	٣٩
خورفكان	الإمارات	١٠١٤١٦٢	٦٠	١٠٨٩٨٦٦	٥٨	١٢٦٦١٣١	٥٦	١٤١٩٤٥١	٥٦
دمياط	مصر	٦١٦٧٥٩	٨١	٦٣٩٣٢٥	٧٩	٧١٢١٣٦	٨٠	٩٥٥٠٤٥	٧٤
بورسعيد	مصر	٥٠٣٧٩٣	٩٥	٥٦٩٤٣٦	٨٥	–	–	–	–
الإسكندرية	مصر	٥٠٥٠٤٩	٩٣	٥٠٠٢٢٩	٩٧	٥١٠٩٩٧	١٠١	٤٩٥١٨٦	١١٨
الدمام	السعودية	٤٥٤٦٤٠	١٠٤	٤٨٩٩٦١	٩٩	٥٩٣١٤٩	٩٠	٦٣٢٧٧١	٩١
الفجيرة	الإمارات	٥١٠٧٧٥	٨٧	٣٧٩٩٦٨	١١٩	٢٨٦٣٣٦	١٤٠	٢٠٢١٥٦	١٨٥
عدن	اليمن	٢٤٨١٧٧	١٥٠	٣٧٧٧٠٨	١٢٠	٣٨٨٤٣٦	١٢٨	١٥٥٧١٧	٢١٣
كازابلانكا	المغرب	٣١٢٠٥٠	١٣٥	٣٤٦٧٢٤	١٣٥	٣٧٥٨٢٧	١٢٢	–	–
الجزائر	الجزائر	٢١٦٠٥٢	١٦٢	٢٤٩٤٢٧	١٤٩	٣٢٨١٥٢	١٢٩	٣٥١٧٢٤	١٤٠
الشعيبة	الكويت	١٨٥٩٠٤	١٧٤	١٩٥٩٧٣	١٧١	–	–	–	–
جيبوتي	جيبوتي	١٥٧٩٩٠	١٨٨	١٩٠٩٧١	١٧٣	١٧٨٤٠٥	١٧٦	٢٠٦٤٤٧	١٨٧
السلطان قابوس	عمان	١٢٨٨٥٧	٢٠٨	١٣٧٣٤٠	١٩٨	٢٠٣٨٦٤	١٦٩	٢٦٤٨٢٦	١٣٨
بورسودان	السودان	٩٤١٨٢	٢٣٧	١٢٠٧٠١	٢٠٩	١٢٩٠٩٣	٢٢١	١٥٦٦٠٧	٢١١
الشارقة	الإمارات	١٠٤٠١٨	٢٣٢	١١٠٣١٠	٢١٨	١٢٥٥١٣	٢٢٤	١٥١٦٣٦	٢١٨
وهران	الجزائر	٥١٤٧٨	٢٩٤	٦٦٦٨٤	٢٧٢	–	–	–	–
بيروت	لبنان	–	–	٢٩٩٤٠٠	١٢٩	٢٩٨٨٧٦	١٣٥	٢٠٥٩٣٣	١٥٥
العقبة	الأردن	–	–	٢٤٦٣٧	١٥٦	٢٧٧٣٠٧	١٥١	٢٨١٢١٥	١٦٣
اللاذقية	سوريا	–	–	٢٢٢٠٩٨	١٦٣	٢٦٧٥٨٦	١٤٥	٢٩٦٣٠٠	١٦٧
ميناء سلمان	البحرين	–	–	١٤٠١٤٤	٢٠٤	١٥٥١٣٧	١٨٧	١٦٥٧٠٠	٢٠٢
الدوحة	قطر	–	–	–	–	١٨١٨٣	٢٢٧	١٦٤١٣٧	٢٠٣

جدول ٦ . ٧ المصدر Containerization International Year Book 2003, 2004, 2005, London.

ثالثاً: حركة التجارة العربية فى قناة السويس:

ترتبط التجارة الخارجية ارتباطاً مباشراً بفائض الإنتاج والرغبة في الاستهلاك، وتؤثر نفقات النقل على ثمن السلعة محل التجارة الدولة فى كل من الدولة المصدرة مع ثمنها فى الدولة المستوردة وبالتالى تحد هذه النفقات من أثر التجارة الخارجية فى تعادل ثمن السلعة ما بين مختلف الدول الأطراف فيها، وذلك على نحو يجعل الثمن أعلى فى الدولة المستوردة عنه فى الدولة المصدرة بمقدار نفقات النقل.

وموارد القوى المحركة تدخل فى التجارة الدولية وتشمل «البترول، الغاز الطبيعى، الفحم». وكما هو معروف فإن منطقة الشرق الأوسط تمتلك معظم احتياطى العالم من البترول، بينما تفتقر القارة الأوروبية إلى أى احتياطى يذكر، فى نفس الوقت الذى لاتزيد فيه فى نسبة احتياطى البترول فى الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى عن ٢٠٪ من الاحتياطى العالمى، ويزداد صادرات بترول الشرق الأوسط فى توجهه إلى دول أوروبا والولايات المتحدة واستراليا والصين والهند.

حجم التجارة العربية المنقولة بحراً وتطورها (١٩٧٠-١٩٧٤):

توضح الإحصائيات الخاصة بحجم التجارة العربية المنقولة بحراً[١٠] أن إجمالى تجارة الدول العربية المنقولة بحراً بلغ فى عام ١٩٧٠ حوالى ٦٠٨ مليون طن، وفى عام ١٩٧١ بلغ ٦٨٤ مليون طن. وعام ١٩٧٢ يبلغ ٧٦٨ مليون طن. ثم قفز إلى ٨٨٢ مليون طن فى عام ١٩٧٣. وفى عام ١٩٧٤ بلغ ١٠٢٥ مليون طن، وقد بلغت نسبة الزيادة فى هذه السنوات كالآتى.. (١٢,٤٪، ٢٦,٣٪، ٤٥٪، ١٨,٥٪) على التوالى باعتبار عام ١٩٧٠. ٧,٥٣٪ عام ١٩٧١، ٦,٥٦٪ عام ١٩٧٢. ٧,٥٦٪ عام ١٩٧٣. ٢,٥٢٪ عام ١٩٧٤

كما تكون التجارة الخارجية المنقولة بحراً لأربع دول عربية هى السعودية والكويت والإمارات والجزائر ٦٦٪ من إجمالى حجم التجارة العربية المنقولة بحراً عام ١٩٧٠. ٦٧,٧ فى عام ١٩٧١. ٧٠,٨ عام ١٩٧٢، ٧١,٥٪ فى عام ١٩٧٣. ٦٥,٦٪ فى عام ١٩٧٤[١١].

التجارة الخارجية للدول العربية:

نمت قيمة التجارة الخارجية العربية بمعدل مرتفع عام ٢٠٠٤ نتيجة الارتفاع الكبير فى قيمة الصادرات العربية فى ضوء ارتفاع الأسعار العالمية للنفط وزيادة الدول العربية الكميات المصدرة منه لمقابلة الطلب العالمى

المتزايد. كذلك ارتفعت قيمة الواردات العربية بمعدلات عالية فى عام ٢٠٠٤ وذلك بسبب تراجع سعر صرف الدولار مقابل معظم العملات الرئيسية الأخرى.

وعلى صعيد اتجاهات التجارة العربية الإجمالية ارتفعت حصة الصادرات العربية إلى الصين الشعبية وباقى دول اسيا وانخفضت إلى الاتحاد الأوربى واليابان والولايات المتحدة. وبالنسبة لمصادر الواردات العربية الإجمالية ارتفعت حصة الواردات العربية من الصين الشعبية والولايات المتحدة بينما تراجعت الواردات العربية من الاتحاد الأوربى واليابان.

كما ارتفعت كل من الصادرات والواردات البينية العربية بمعدلات عالية فقد وصلت التجارة البينية العربية إلى ١٠٪ من إجمالى التجارة العربية الإجمالية.

و فيما يتعلق بالهيكل السلعى للتجارة العربية نجد أن الوقود المعدنى استأثر بالحصة الكبرى فى مكونات الصادرات العربية ثم تلتها المصنوعات والآلات ومعدات النقل والمنتجات الكيماوية والأغذية والمشروبات، واحتلت الآلات ومعدات النقل أعلى حصة فى هيكل الواردات العربية تلتها المصنوعات ثم الأغذية والمشروبات.

وبالنسبة للتطورات فى التجارة البينية انتهى تطبيق البرنامج التنفيذى لإقامة منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى فى مطلع عام ٢٠٠٥ حيث من المقرر أن تصبح السلع العربية المنشأ والمتبادلة بين الدول العربية الأعضاء فى المنطقة معفاة من الرسوم الجمركية[١٢].

جدول رقم (٨) التجارة الخارجية العربية الاجمالية(١٢)

(٢٠٠٠-٢٠٠٤)

	قيمة بـ(مليار دولار)				
	٢٠٠٠	٢٠٠١	٢٠٠٢	٢٠٠٣	٢٠٠٤
الصادرات العربية	٢٥١,٧	٢٣٦,٢	٢٤٥	٣٠٤	٣٩٦,٥
الواردات العربية	١٤٩,٧	١٥١	١٧١,٥	١٩٤,٩	٢٤٣,١
دين الصادرات العربية فى الصادرات العالمية (٪)	٤,١	٣,٩	٣,٨	٤,١	٤,١
وزن الواردات العربية فى الواردات العالمية (٪)	٢,٧	٢,٥	٢,٦	٢,٥	٢,٦

وبدارسة الجدول السابق رقم (٨) يتضح الأتى:-

أدت القفزة الكبيرة فى أسعار النفط الخام، والتى ابتدأت فى منتصف عام ٢٠٠٤ إلى تنامى قيمة الصادرات العربية الإجمالية من ٣٠٤ مليار دولار عام

٢٠٠٣ إلى ٣٩٦,٥ مليار دولار عام ٢٠٠٤، أى بنحو نسبة ٣٠,٤٪، وقد تجاوزت نسبة نمو الصادرات العربية عام ٢٠٠٤ نسبة نمو الصادرات العالمية التى بلغت ٢١,٣٪ فى ذلك العام.

وبذلك ارتفعت حصة الصادرات العربية فى الصادرات العالمية من ٤,١٪ فى عام ٢٠٠٣ إلى ٤,٤٪ عام ٢٠٠٤[١٤].

ونجد أن صادرات العراق من النفط الخام قد ارتفعت بنسبة بلغت ٨٢٪. وتعزى هذه الزيادة إلى رفع العقوبات الدولية عنه فى الدرجة الأولى. وحل بعده السودان بنسبة ٤٨,٦٪ فليبيا بنسبة ٤١,٧٪ والكويت بنسبة ٣٩٪ ومصر بنسبة ٣٦,٥٪ والسعودية بنسبة ٣٥,١ وقطر بنسبة ٣٣,٨٪ والجزائر بنسبة بلغت ٣١,٧٪ والإمارات بنسبة ٢٣,٣٪ تليها اليمن بنسبة ٢٠٪ ثم عمان بنسبة ١٤,٤٪ فالبحرين بنسبة ١٣,٤٪[١٥].

وعلى صعيد الواردات فقد سجلت الواردات العربية الإجمالية أيضاً نمواً استثنائياً حيث تنامت بنسبة ٢٤,٧٪ من ١٩٤,٩ مليار دولار فى عام ٢٠٠٣ إلى ٢٤٣,١ مليار دولار فى عام ٢٠٠٤. فقد ارتفعت قيمة واردات جميع الدول العربية عام ٢٠٠٤ بسبب عاملين أساسيين هما: استمرار انخفاض سعر صرف الدولار الأمريكى مقابل جميع العملات، وثانياً ازياد وتيرة النمو الاقتصادى فى الدول العربية خلال عام ٢٠٠٤ وما تطلبه ذلك من زيادة حجم الواردات.

وقد سجل العراق أعلى نسبة نمو فى قيمة الواردات بلغت ٨١,٦٪ نتيجة رفع العقوبات الدولية عنه وإعادة البناء ثم تبعه الأردن الذى ارتفعت وارداته بنسبة ٤٢,٤٪ بسبب ارتفاع قيمة واردات النفط ومشتقاته وكذلك الواردات من الالات ومعدات النقل. ويلى ذلك السودان الذى ارتفعت قيمة وارداته بنسبة حوالى ٤١,٤ فمصر بنسبة ٤٠,١٪ وقطر بنسبة ٣٩,٨٪ وسوريا بنسبة ٣٢٪. وكل ما لبنان وعمان بنسبة ٣١,١٪[١٦].

وقد حققت معظم الدول العربية فائضاً فى فجوة الموارد فى عام ٢٠٠٤ باستثناء الدول الاتية «الأردن، تونس، جيبوتى، السودان، العراق، لبنان، مصر، المغرب، موريتانيا»، وتراوحت نسبة تغطية الصادرات الإجمالية للواردات الإجمالية فى هذه الدول فى عام ٢٠٠٤ ما بين ٥٤,٢٪ فى موريتانيا و٩٨,٢٪ فى مصر.

ويلاحظ أن نسبة تغطية الصادرات للواردات فى هذه الدول فى تحسن منذ منتصف التسعينات وخاصة فى كل من السودان واليمن بعد الاكتشافات النفطية فيها. ودخول النفط كسلعة أساسية ضمن صادراتها.

اتجاهات التجارة الخارجية العربية:

بالنسبة لاتجاه الصادرات العربية فقد سجلت قيمة الصادرات العربية المتجهة لآسيا أعلى معدلات زيادة لها فى عام ٢٠٠٤ وضمن هذه المجموعة ارتفعت قيمة الصادرات العربية إلى الصين بأعلى معدل نمو لها بلغ ٤٩,٣٪ فى عام ٢٠٠٤ مقارنة بنسبة ٤٧,٢٪ فى عام ٢٠٠٣ ويليها ارتفاع الصادرات العربية المتجهة لبقية دول اسيا (باستثناء الصين واليابان) بما نسبته ٣٩,٢٪، وارتفعت قيمة الصادرات العربية إلى اليابان بنسبة أقل بلغت ٢٠,٥٪[١٧].

هذا ويلاحظ أن صادرات أو واردات الدول العربية الخليجية إلى آسيا تكون بعيدة عن نطاق قناة السويس، بعكس دول شمال أفريقيا وشرقى البحر المتوسط العربية فإن حركة تجارتها فى آسيا تمر عبر قناة السويس. هذا وقد سجلت قيمة الصادرات العربية البينية زيادة قدرها ٣٦,١٪ فى عام ٢٠٠٤.

أما فيما يتعلق بالصادرات العربية المتجهة لكل من الاتحاد الأوربى والولايات المتحدة فقد سجلت معدلات زيادة أقل حيث بلغ متوسط الزيادة فى الصدرات العربية إلى الولايات المتحدة ما نسبته ٢٦,٥٪ فى عام ٢٠٠٤، وقد سجلت الصادرات العربية إلى الاتحاد الأوربى نسبة زيادة بلغت ١٤,١٪ فى عام ٢٠٠٤، وتراجعت بذلك عن نسبة الزيادة ٢١,٤ التى سجلتها فى عام ٢٠٠٣.

ويلاحظ أن حركة تجارة دول الخليج مع أوربا والولايات المتحدة تمر عبر قناة السويس، كما يلاحظ أن التجارة البينية العربية تتمركز بين الدول المجاورة نتيجة لانخفاض كلفة النقل ولسهولة التسويق. وهى بذلك تكون بعيدة عن نطاق قناة السويس.

وتشير البيانات الأولية لاتجاهات التجارة البينية العربية لعام ٢٠٠٤ أن صادرات العراق إلى الدول العربية تركزت فى دولة مجاورة واحدة هى الأردن بنسبة ٧٨٪ من صادراتها البينية، وكذلك تركزت صادرات ليبيا البينية فى دولة مجاورة واحدة هى تونس بنسبة ٦٩٪- فى حين تركزت الصادرات البينية لتونس فى ليبيا بنسبة ٥٣٪، كما تركزت صادرات عمان البينية فى دولة واحدة هى الإمارات بنسبة ٦٢٪ وقد تركزت صادرات سوريا البينية فى دولتين هما العراق والسعودية بنسبة ٣٢٪، ٢٢٪ على التوالى.

جدول رقم (٩)

اتجاه التجارة الخارجية للدول العربية

(٢٠٠٠-٢٠٠٤)

متوسط معدل النمو السنوى خلال الفترة (2000-2004)	صادرات (فوب) دولار				متوسط معدل النمو السنوى خلال الفترة (2000-2004)	واردات (فوب) دولار				متوسط معدل النمو السنوى خلال الفترة (2000-2004)
	2004	2003	2002	2001	2000		2004	2003	2002	2001	2000	
معلم	259,677	236,749	204,959	180,964	172,251	16,054	196,486	164,048	144,959	127,598	111,846	14,981
الدول العربية	75,176	68,964	57,210	52,344	47,031	9,561	46,482	36,714	26,343	27,989	24,881	13,366
الاتحاد الأوربى	66,766	60,574	51,988	42,739	37,031	9,561	102,536	78,392	61,988	60,574	51,813	14,631
الولايات المتحدة	42,739	37,031	35,902	9,561	7,544	9,561	51,813	42,560	35,902	37,031	27,544	13,366
آسيا	27,989	24,881	16,739	13,959	12,965	9,561	20,484	15,219	9,119	9,561	7,544	13,366
- اليابان	60,574	51,988	43,091	37,031	27,544	9,561	30,537	22,014	16,739	13,959	12,965	13,366
- الصين	42,739	37,031	35,902	9,561	7,544	9,561	45,193	31,376	43,091	30,869	27,544	13,366
- باقى دول آسيا	71,800	65,766	51,988	42,739	37,031	9,561	23,446	20,484	15,219	9,119	7,544	13,366
باقى دول العالم	15,966	13,959	9,119	9,561	7,544	9,561	6,119	5,830	4,119	3,119	2,544	13,366
	50,869	43,091	35,902	9,561	7,544	9,561	23,446	20,484	15,219	9,119	7,544	13,366
البلدان	71,800	65,766	51,988	42,739	37,031	9,561	23,446	20,484	15,219	9,119	7,544	13,366
	15,966	13,959	9,119	9,561	7,544	9,561	6,119	5,830	4,119	3,119	2,544	13,366
	50,869	43,091	35,902	9,561	7,544	9,561	23,446	20,484	15,219	9,119	7,544	13,366
البلدان	71,800	65,766	51,988	42,739	37,031	9,561	23,446	20,484	15,219	9,119	7,544	13,366
	15,966	13,959	9,119	9,561	7,544	9,561	6,119	5,830	4,119	3,119	2,544	13,366
	50,869	43,091	35,902	9,561	7,544	9,561	23,446	20,484	15,219	9,119	7,544	13,366
البلدان	71,800	65,766	51,988	42,739	37,031	9,561	23,446	20,484	15,219	9,119	7,544	13,366
	15,966	13,959	9,119	9,561	7,544	9,561	6,119	5,830	4,119	3,119	2,544	13,366
	50,869	43,091	35,902	9,561	7,544	9,561	23,446	20,484	15,219	9,119	7,544	13,366

- تحرير أول.
- المصدر: الأمانة العامة لاتحاد الغرف العربية، الإحصاءات الاقتصادية، العدد الثامن، ٢٠٠٥.
- ملاحظة: بيانات الصادرات والواردات لبعض الدول العربية لعام ٢٠٠٤ بيانات أولية.
- الجدول من إعداد الباحث.

أما الصادرات البينية للكويت فقد تركزت فى ثلاث دول هى السعودية بنسبة ٢٦٪، العراق بنسبة ٢٣٪، الإمارات بنسبة ١٩٪ ، وكذلك الأمر بالنسبة للسودان التى توجهت صادراته البينية إلى السعودية بنسبة ٣٨٪ ومصر بنسبة ٢٥٪ والإمارات بنسبة ٢٢٪(١٩).

ويتضح من ذلك أن قناة السويس لاتحظى بشىء من التجارة البينية العربية..

الهيكل السلعى للتجارة البينية العربية:-

يمثل الهيكل السلعى للتجارة البينية العربية فى عام ٢٠٠٤: المواد الخام والوقود المعدنى جاءت فى الصادرات بحصة وصلت إلى ٥٤,٨٪ عام ٢٠٠٤، وجاءت بعدها مجموعة الأغذية والمشروبات بحصة ١٧,٨٪ ثم مجموعة المواد الكيماوية بنسبة ١٤,٦٪ فالمصنوعات بنسبة ٧,٨٪ وأخيراً مجموعة الالات ومعدات النقل بحصة بلغت نسبتها ٥٪(٢٠).

قيام منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى وأثرها على قناة السويس:

شهد مطلع عام ٢٠٠٥ التطبيق الفعلى الكامل لاتفاقية منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى، والتى بدأ تنفيذها فى عام ١٩٩٨ والتى تنص على إزالة الرسوم الجمركية بين ١٧ دولة عربية، وذلك فى سبيل العمل على زيادة التجارة البينية بين الدول العربية والتى اقتصرت على أقل من ٩٪ من إجمالى التجارة الخارجية العربية فى عام ١٩٩٧، ثم بلغت ١٥,١٪ فى عام ٢٠٠٤ علاوة على المحافظة على مصالحها أمام التكتلات الاقتصادية الدولية(٢١).

وقيام منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى (جافتا) هو صورة من صور التكامل الاقتصادى العربى فى ظل العولمة.

ولا شك أن نمو حركة التجارة البينية العربية فى ظل قيام منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى (الجافتا GAFT)(٢٢)، بين دول المشرق والمغرب العربى سيظهر أثاره فى حركة ملاحة السفن العربية فى قناة السويس مستقبلاً.

حركة البضائع العربية فى قناة السويس:-

تعتبر قناة السويس بمثابة ترمومتر ومؤشر دقيق لحركة التجارة العالمية (المنقولة بحراً) والمارة بها بصفة عامة وحركة التجارة العربية المنقولة بحراً بصفة خاصة.

وتوضح جداول الإحصائيات أرقام (١٨:١٠) كميات البضائع العربية التى عبرت قناة السويس خلال الفترة من ٢٠٠١ حتى ٢٠٠٣، وتم تقسيمها كالآتى:-

أولاً: الدول العربية العربية الواقعة على البحر المتوسط:

حركة البضائع العربية التى عبرت قناة السويس للدول العربية الواقعة غرب وجنوب غرب البحر المتوسط وتمثلت فى الجزائر وليبيا وتونس والمغرب، ونلاحظ النمو التدريجى فى حجم تجارتها المارة فى قناة السويس فقد كانت ٨,٨ مليون طن فى عام ٢٠٠١ ثم ٩,٨ مليون طن فى عام ٢٠٠٢، وارتفعت لتصل إلى ١٥ مليون طن فى عام ٢٠٠٣، وتناقصت فى عام ٢٠٠٤ لتبلغ ٩,٢ مليون طن، وفى عام ٢٠٠٥ ارتفعت لتصل إلى ١١,٩ مليون طن أما دول شرقى البحر المتوسط متمثلة فى مصر وسوريا ولبنان فقد تزايدت تجارتها المارة فى قناة السويس بشكل تدريجى خلال الأعوام ٢٠٠١ – ٢٠٠٥ لتكون ١٢,٧ مليون طن، ١٤,٢ مليون طن، ١٢,٧ مليون طن، ١٤,٢ مليون طن، ١٧,٢ مليون طن، ١٩,٦ مليون طن على التوالى.

ثانياً: الدول العربية الواقعة على البحر الأحمر:-

ممثلة فى السعودية ومصر والأردن والسودان واليمن وجيبوتى فقد بلغ إجمالى كميات البضائع الخاصة بها والتى عبرت قناة السويس فى الاتجاهين خلال الفترة من ٢٠٠١-٢٠٠٥ كالآتى: ٥٤,٢، ٥٣,٨، ٤٣,٣، ٦٥,٣، ٧٣,٣ مليون طن- أى زيادة ٣٥٪ فى عام ٢٠٠٥ بالنسبة لعام ٢٠٠١ (أنظر الإحصائية جدول رقم ١٤ ، ١٥).

ثالثاً: الدول العربية الواقعة على الخليج العربى:-

وهى السعودية والإمارات والعراق والكويت وقطر وعمان والبحرين ويوضح الجدولان ١٦، ١٧ حجم الصادرات والواردات التى عبرت قناة السويس لهذه الدول خلال نفس الفترة كالآتى ٥٣,١، ٤٦,٥، ٦٥,٣، ٧٧,١، ٨٨,٩ مليون طن، وبذلك نجد أن الزيادة فى عام ٢٠٠٥ قد بلغت ٦٧٪ بالمقارنة بعام ٢٠٠١.

رابعاً: الدول العربية الواقعة جنوب قناة السويس:

وهى الدول العربية المطلة على حوض البحر الأحمر والخليج العربى ولها وزن نسبى أكبر فى حركة التجارة العربية فى قناة السويس.

ويوضح الجدول رقم (١٨) كميات البضائع من وإلى جنوب القناة بالنسبة للدول العشر الأولى فى حجم هذه التجارة، ومنها يتضح أن السعودية هى الدولة الأولى ذات الوزن النسبى لحركة البضائع المارة (من وإلى) جنوب القناة.

وذلك خلال الفترات من عام ١٩٨٦ حتى عام ٢٠٠٥. حيث بلغت إجمالى حمولاتها العابرة للقناة فى عام ٢٠٠٥ حوالى ٧٨ مليون طن بنسبة ١٣,٧٪ من إجمالى الحمولات العابرة للقناة (٥٧١ مليون طن)، والسعودية بذلك تمثل العميل الأول للقناة بالنسبة للدول الواقعة جنوب القناة.

ومن الدول العربية المستفيدة من القناة وتأتى داخل مجموعة العشر الأول نجد الإمارات العربية المتحدة والأردن ومصر، وقد تراوحت نسبة مشاركتها فى إجمالى البضائع المارة فى قناة السويس خلال العشرين عاماً الماضية (١٩٨٦-٢٠٠٥) وفق الجدول رقم (١٨) ما بين ٦, ٤٠٪ و ٢, ١٢٪.

التوزيع النوعى للتجارة العربية المارة بقناة السويس:

١- البترول:

ترتبط حركة البترول فى قناة السويس ارتباطاً وثيقاً بحركة التجارة العالمية للبترول، الدول المصدرة والدول المستوردة، وكان لمنطقة الخليج العربى والبحر الأحمر نصيب الأسد فى حجم هذه التجارة. فقد بلغت نسبة المواد البترولية التى مرت فى قناة السويس عام ١٩٦٦ (أى قبل إغلاقها عام ١٩٦٧) نسبة ٦٤٪ من إجمالى حركة البضائع فى القناة.

وبعد عودة الملاحة للقناة عام ١٩٧٦ انخفضت تلك النسبة لتصبح ٣, ٢٠٪ من إجمالى البضائع المارة فى القناة. ثم أخذت تتناقص هذه النسبة عاماً بعد عام بسبب خط أنابيب السوميد- ولكن مع عام ١٩٨٢ وبعد إتمام المرحلة الأولى من تطوير قناة السويس أخذت تتزايد هذه النسبة بعض الشىء ولكنها تراجعت لتصل إلى ٩, ٥٪ فى عام ١٩٩٨، وفى عام ١٩٩٩ بلغت نسبتها ٣٪ من الإجمالى. وفى عام ٢٠٠٥ بلغ إجمالى البترول العربى العابر للقناة من الشمال ومن الجنوب ٥٦, ٨ مليون طن بنسبة ٥٩, ٩٪ من إجمالى البضائع المارة فى القناة[٢٣]. ويوضح الجدول الآتى الدول العربية المصدرة للبترول عبر القناة خلال عام ٢٠٠٥ من الشمال للجنوب (بالألف طن).

ليبيا	٣٢٤٣	
الجزائر	١٧٤٦	
مصر	١٠٢٧	الإجمالى = ٦٠١٦
ومن الجنوب للشمال		
السعودية	١٩٠٦٩	
العراق	١٠١٧٣	
الكويت	٨٦٧٦	
الإمارات	٤٧٦١	
قطر	٤٣٧٣	الإجمالى = ٥٠٧٨١
عمان	١٤٦٦	
مصر	١١٧٣	
البحرين	٨٠٧	
اليمن	٣٨٣	
الإجمالى	٥٦٧٩٧	ألف طن

ومن هنا تأتى السعودية على رأس الدول العربية من حيث كمية البترول المارة فى قناة السويس تليها العراق فالكويت فالإمارات وقطر.

٢- الحبوب:

توضح مؤشرات حركة الحبوب فى قناة السويس المتجهة للدول العربية خلال عام ٢٠٠٥ حوالى ١١ مليون طن جاءت معظمها من أوكرانيا وروسيا والولايات المتحدة وفرنسا وكندا. وتمثل السعودية أكبر رقم فى حركة الحبوب وهو ٥, ٥ مليون طن تليها الأردن ١, ٤ مليون طن فاليمن مليون طن خلال عام ٢٠٠٥.

٣- المعادن المصنوعة:

والدول المستوردة للمعادن المصنوعة خلال عام ٢٠٠٥ هى الإمارات والسعودية وعمان واليمن والسودان ومصر، وبلغ إجمالى ما استوردته عبر قناة السويس ٩, ٣ مليون طنه، و وقد جاءت الإمارات على رأس القائمة، فقد استوردت ٤, ٨ مليون طن تليها السعودية ٣, ٣ مليون طن.

٤- الكيماويات:

صدرت المغرب وتونس ومصر ٣, ٣ مليون طن كيماويات عبر القناة من الشمال إلى الجنوب فى عام ٢٠٠٥ واستوردت كل من السعودية والأردن ومصر والإمارات ١, ٤ مليون طن عبرت القناة من الشمال، كذلك صدرت كل من السعودية والإمارات وقطر والكويت والبحرين حوالى ٦, ٢ مليون طن كيماويات عبرت القناة من الجنوب إلى الشمال عام ٢٠٠٥. كذلك استوردت تونس والمغرب ١, ٩ مليون طن كيماويات عبر قناة السويس.

٥- الأسمدة:

صدرت كل من المغرب وتونس والجزائر ٣, ٩ مليون طن أسمدة عبر قناة السويس واستوردت السعودية ٣٢٤ ألف طن فى عام ٢٠٠٥.

٦- الخامات والمعادن:

استوردت كل من السعودية وقطر والبحرين حوالى ٢, ٧ مليون طن من الخامات والمعادن وصدرت عمان والعراق ٦٥ ألف طن فى عام ٢٠٠٥.

٧- الفحم:

صدرت كل من الإمارات والكويت والسعودية وسوريا ٧١٨ ألف طن، كما استوردت السعودية والبحرين ومصر ٦٩٩ ألف طن- أى بلغ إجمالى حمولة الفحم التى عبرت قناة السويس للدول العربية ١, ٤ مليون طن عام ٢٠٠٥.

جـــدول رقم (١٠) [٢٥]

حركة البضائع العربية (الدول غرب وجنوب غرب البحر المتوسط العربية)

الصادرة منها عبر قناة السويس (٢٠٠١-٢٠٠٥)

(الكمية بالألف طن)

اسم الدولة	٢٠٠١	٢٠٠٢	٢٠٠٣	٢٠٠٤	٢٠٠٥
ليبيا	١٨٩٧	١٤٧٧	٢٦٨٥	١٨٩٧	٢٧٨٤
الجزائر	٢٧٣٥	٣٣١٤	٢٩٣٦	٢٥٢٠	٢٣١٨
تونس	١٣٣٢	١٤٩٩	١٢٤١	١٤٥٨	١٥٨٤
المغرب	٥٢٢	٤٧٥	٣٢٥	٦٦٤	١٠٨٢
الإجمالي	١٤٥٦	١٧٣٦	٧١٨٧	٦٥٣٩	٨٧١٨

جـــدول رقم (١١) [٢٦]

حركة البضائع العربية (الدول غربي وجنوب غربي البحر المتوسط العربية)

الواردة إليها عبر قناة السويس (٢٠٠١-٢٠٠٥)

(الكمية بالألف طن)

اسم الدولة	٢٠٠١	٢٠٠٢	٢٠٠٣	٢٠٠٤	٢٠٠٥
ليبيا	٨٢٦	١٣١٧	١٣٥٢	١١٧٩	١١٩٢
الجزائر	٦٤٠	٧١٧	٨٣٨	٥٨٥	٨٠٥
تونس	٣٤٢	٣٣٨	٨٣	٣٩٠	٧١٢
المغرب	٥٣٥	٧٦١	٦٨٢	٥٠١	٣٦٩
الإجمالي	٢٣٤٣	٣٠٤٣	٢٨٥٥	٢٦٥٥	٣٠٧٨

إجمالي الصادرات والواردات لدول غرب وجنوب غرب البحر المتوسط	٨٧١٩	٩٧٩٦	١٠٠٤٢	٩١٩٤	١١٨٧٦

جـــدول رقم (١٢) [٢٧]

حركة البضائع العربية (الدول شرقي وجنوب شرقي البحر المتوسط العربية)

الصادرة منها عبر قناة السويس (٢٠٠١-٢٠٠٥)

(الكمية بالألف طن)

اسم الدولة	٢٠٠١	٢٠٠٢	٢٠٠٣	٢٠٠٤	٢٠٠٥
مصر	٨١٤٥	٩٣٥٢	١٢٢٧٨	١١٧٤٠	٩٨٥٢
سوريا	٨٩٦	١٦٨١	٨٦٢	٦٥٣	٣٦٠
لبنان	٢٤٤	٢٠٣	٢٢٧	٢٧٢	٢١٨
الإجمالي	٩٢٨٥	١١٣٣٧	١٣٣٦٧	١٢٦٤٥	١١٠٣٠

جـــدول رقم (١٣) [٢٨]

حركة البضائع العربية (الدول شرقي وجنوب شرقي البحر المتوسط العربية)

الواردة إليها عبر قناة السويس (٢٠٠١-٢٠٠٥)

(الكمية بالألف طن)

اسم الدولة	٢٠٠١	٢٠٠٢	٢٠٠٣	٢٠٠٤	٢٠٠٥
مصر	٢٤٨٢	١٩٩٦	١٨٦٥	(٢٧٦	٥٢١٩
سوريا	٣٠٥	٦٠٢	٢٢١٦	١٥٣١	٢١٥٧
لبنان	٩٧٤	٣٩٨	٧٧٩	٨١٣	١٢١٣
الإجمالي	٣٤٦١	٢٩٩٦	٣٨٦٠	٦٦٢٠	٨٥٨٩
إجمالي الصادرات والواردات	١٢٧٤٦	١٤٢٣٣	١٧٢٢٧	١٩٢٦٥	١٩٦١٩

إجمالي الصادرات والواردات لدول العربية عبر قناة السويس الواقعة على حوض البحر المتوسط					
شرقي البحر المتوسط	١٢٧٤٦	١٤٢٣٣	١٧٢٢٧	١٩٢٦٥	١٩٦١٩
غربي البحر المتوسط	٨٧٩٩	٩٧٩٦	١٠٠٤٢	٩١٩٤	١١٨٧٦
الإجمالي	٢١٥٤٥	٢٤٠٢٩	٢٧٢٦٩	٢٨٤٥٩	٣١٤٩٥

جـــدول رقم (١٤)[٣٠]

حركة البضائع الصادرة من موانئ الدول العربية

على البحر الأحمر عبر قناة السويس .(٢٠٠١-٢٠٠٥)

(الكمية بالألف طن)

اسم الدولة	٢٠٠١	٢٠٠٢	٢٠٠٣	٢٠٠٤	٢٠٠٥
السعودية	٧٧٠١	٥٧٥٥	٨٨٠٨	١١٩٨٨	١٢٦٧١
مصر	٤٣٤١	١٧٣١	١٩٠٨	٢٠٣٠	٢٣٥٤
الأردن	١٥٧٥	١٩٥٧	٢٣٠٩	٢٧٥٦	١٤٥٧
السودان	٥٥٧	٥٣٥	٤٧٥	٢٦٦	٢٨٥
اليمن	٦٥٠	٤٠١	٤٣٥	٤٧٣	٣٠٦
جيبوتي	١٦٠	١٦٧	١٠٠	٣٩	٨٧
الإجمالي	١٩٩٨٤	١٠٥١٦	١٤٣٠	١٧٠٤٨	١٧٦٦٤

جـــدول رقم (١٥)[٣١]

حركة البضائع الواردة إلى موانئ الدول العربية

على البحر الأحمر عبر قناة السويس .(٢٠٠١-٢٠٠٥)

(الكمية بالألف طن)

اسم الدولة	٢٠٠١	٢٠٠٢	٢٠٠٣	٢٠٠٤	٢٠٠٥
السعودية	٢٧٣٩٦	٤٨٨٤٢	٣٦٣٤٣	٣٩٤٧٦	٤٥٦٩٧
الأردن	٨٥٩٥	٧٤٦٥	٦٣٧٢	٣١٥٦	٣٩٢٨
مصر	٨٩٣	١٢٥٠	١٦٩٦	١٥٢٢	٢٠٠١
اليمن	٣٠٦١	٣٠٥٠	١٢٥٩	١٢٠٣	١٢٠٤
السودان	٩١٦	٦٧٠	١٠٠٣	٨٧٧	١٥٤٢
جيبوتي	١٤٠١	٧٦٧	١٤٠١	٩٤٧	١١٤٣
الإجمالي	٤٢٢٥٣	٧٢٢٤٥	٧٤٣٧٤	٨٢٧٧	٥٦٠١٥
إجمالي الصادرات والواردات للدول العربية على البحر الأحمر	٥٤٢٣٧	٥٣٤٩١	٤٣٨٠٩	١٥٣٢٥	٧٣٢٧٧

جـــدول رقم (١٦)[٣٢]

حركة البضائع الصادرة من موانئ الدول العربية

على الخليج العربي عبر قناة السويس .(٢٠٠١-٢٠٠٥)

(الكمية بالألف طن)

اسم الدولة	٢٠٠١	٢٠٠٢	٢٠٠٣	٢٠٠٤	٢٠٠٥
السعودية	١٥٩١٠	٨٩٣١	١٤٦١٤	١٥٧٩٣	١٦١٤٧
الإمارات	٦٤٢٧	٧٠٦٨	٩٢٧٨	١٠٤٨٤	١١٧٩٧
العراق	٢٤٢٧	٢٠٦٩	٢٨٥٧	١١٦٣٢	١٠٨٩٩
الكويت	٧٥٣٠	٤٣٣٤	١٠١٠١	٨٥٦٥	٩٨٤٣
قطر	٢٢١٠	٢٧٥٨	٢٨٢٨	٤٧٦٠	٥٨٧٦
عمان	١٩٥٣	٢٠٨٠	١٥٠١	٢٧٧٣	٣١٠٧
البحرين	١٨٧٦	١٠٧١	٦٣١	١٩٤٢	١٢٩١
الإجمالي	٢٧٨٣٣	٢٨٥١١	٤٦٨٣١	٥٣٠٦٩	٥٨٩٩٣

جـــدول رقم (١٧)

حركة البضائع الواردة إلى موانئ الدول العربية

على الخليج العربي عبر قناة السويس .(٢٠٠١-٢٠٠٥)

(الكمية بالألف طن)

اسم الدولة	٢٠٠١	٢٠٠٢	٢٠٠٣	٢٠٠٤	٢٠٠٥
الإمارات	٤٩٣٥	٩٢٨٤	١٢٢٠٥	١٦٦٦١	١٨٧٤٤
عمان	٥٢٩٩	٣٤٣٧	٤٨٦٥	٤١٧٢	٥٥٥١
السعودية	٣٠٢٤	١١٢٧	٤٨٨٩	٤٣٤٤	٣٤٩٧
قطر	٣٠٥	٣٦٠	٤٧٥	٢٧٥	١٢٩٨
العراق	١٤٢٥	٣٨٨	٥٣	٤٨	٦٢١
البحرين	٣٨	١٥٤	١٠٠	٩٧	٣١٧
الكويت	٢٥٦	١٥١	٥٣٢	٤٤١	٢١٤
الإجمالي	١٥٣١٢	١٨٠٠١	٢٢٠١٩	٢٧٠٣٨	٣٠١٥٩
إجمالي صادرات وواردات الدول العربية على الخليج العربي	٥٣١٤٥	٤٦٥٠٢	٦٥٣٤٠	٧٧١٠٧	٨٨٨٥٢

جدول رقم (١٨)[٣٠]

كميات البضائع (من وإلى) العشر دول الأولى

(دول عربية على البحر الأحمر أو الخليج العربي) جنوب القناة (١٩٨٦-٢٠٠٥)

اسم الدولة	كمية البضائع (بالألف طن)	ترتيبها	نسبتها المئوية	السنة	مجموع الفترة
السعودية	٢٢٣٨٨٢	٢	%١٣,٧	٢٠٠٥	%١٩
الإمارات	٣٠٥٣٨	٩	%٥,٢	٢٠٠٥	
السعودية	٢٢٠٠٨	١	%١٣,٩	٢٠٠١	%١٨,٢
الإمارات	٢٣٠٨٢	٨	%٤,١	٢٠٠١	
السعودية	٦٤٠٨٩	١	%١٣	٢٠٠٣	%١٨,٢
الإمارات	٢١٥٠٢	٨	%٤,٢	٢٠٠٣	
السعودية	١٧٦٨٦	١	%١١,٦	٢٠٠٢	%١٣,٥
الإمارات	١١٨٨٢	١٠	%٤,٦	٢٠٠٢	
السعودية	٥٣٨٢٧	١	%١١,٥	٢٠٠٠	%١٤,١
السعودية	٥١٩٤٧	١	%١١,١	٢٠٠٠	%١٤,١
السعودية	٥٠١٣٢	١	%١٨	١٩٩٩	%١١,٥
الأردن	٩٦٢٨	٩	%٢,٥	١٩٩٩	
السعودية	٥٨٩٤٦	١	%١٠,٤	١٩٩٨	%١٦,٤
مصر	١٩٦٨	١	%٤,٦	١٩٩٨	
الأردن	١٧١٤	١٠	%١,٨	١٩٩٨	
السعودية	٢٦٤٠١	١	%٨,٦	١٩٩٧	%١٢,٧
الأردن	١٢٥١	٩	%١,٦	١٩٩٧	
الإمارات	٥٠٦٩	١٠	%١,٣	١٩٩٧	
السعودية	٢٨٢٩٠	١	%١٠,١	١٩٩٦	%١٢,٨
الأردن	٥٩٢٩	١٠	%٢,١	١٩٩٦	
السعودية	٢٢٦٦٠	١	%١١,٦	١٩٩٥	%١٢,٢
الإمارات	٦١٣٠	١٠	%٢,٠	١٩٩٥	
السعودية	١٩٠٥٨	١	%١٥,٩	١٩٩٤	%١٧,٨
مصر	٨٦١٩	٧	%٥,٨	١٩٩٤	
السعودية	١٩١٢٤	١	%١١,٥	١٩٩٣	%١٩,٨
مصر	٩٨٣٠	٧	%٥,٣	١٩٩٣	
السعودية	١٩٠٨١	١	%١٣,٩	١٩٩٢	%٢٠,٠
مصر	١٣٠٣٧	٥	%٥,٩	١٩٩٢	
الإمارات	٧٥١٧	٧	%٥,٧	١٩٩٢	
الأردن	٥٩٧٣	١٠	%٣	١٩٩٢	
السعودية	٥٩٤٣٣	١	%١٥,١	١٩٩١	%٢٦,٦
مصر	١٦٢٧٣	٣	%٦	١٩٩١	
الأردن	١٠٠٧٧	٦	%٣,٧	١٩٩١	
السعودية	٥١٤٤٠	١	%١٣,٦	١٩٩٠	%١٠
مصر	١٧٦٩٨	٣	%٦,٩	١٩٩٠	
الإمارات	٣٩٩٢	١٠	%٢,٩	١٩٩٠	
السعودية	٣٠٩٤٧	١	%١٦,١	١٩٨٩	%١٨,٤
مصر	١٨٣٩٩	٥	%٦,١	١٩٨٩	
الأردن	١١٩٥٥	٣	%٤,٥	١٩٨٩	
الكويت	٨٩٠٠	٩	%٣,٤	١٩٨٩	
السعودية	٤٤٨٩٢	١	%١٧,٨	١٩٨٧	%٢١,١
مصر	١٦٦٩٠	٤	%٦,٦	١٩٨٧	
الأردن	١٠٢٨٩	٣	%٤,٤	١٩٨٧	
الكويت	٦٠٧٢	٨	%٢,٤	١٩٨٧	
الإمارات	٥٧٠٦	٩٠	%٢,٢	١٩٨٧	
السعودية	٥٢٥٨٤	١	%٢٤	١٩٨٦	%٤١,٩
مصر	١٥١٧٨	٢	%٧,٨	١٩٨٦	
الكويت	١٣٢٢١	٥	%٦,٤	١٩٨٦	
الإمارات	١١٠٩٤	٦	%٥,٢	١٩٨٦	
الأردن	٩٠٢٥	١٠	%٤,٤	١٩٨٦	

٨- الآلات وأجزاؤها:

صدرت كل من السعودية والأردن والإمارات ٧٦ ألف طن واستوردت كل من الجزائر وسوريا ومصر ٢١٥ ألف طن من الآلات وأجزاؤها.

٩- الزيوت النباتية:

صدرت مصر والسعودية والإمارات ٣٠٤ ألف طن واستوردت الجزائر ١٠١ ألف طن من الزيوت النباتية عبر قناة السويس[٣٤].

خاتمة ونتائج:

أوضحت المؤشرات الاقتصادية التي وردت في البحث (وعددها ١٨ جدولاً احصائياً) مدى أهمية قناة السويس للنقل البحري العربي ممثلاً في محاوره الثلاثة: الموانئ والأساطيل التجارية والتجارة المنقولة بحراً، عبر قناة السويس.

وأكبر برهان على أهمية قناة السويس للنقل البحري العربي، وبالأخص لدول حوض البحر الأحمر والخليج العربي، هو أغلاق قناة السويس في الفترة من يونيو ١٩٦٧ حتى يونيو ١٩٧٥.

فقد أضيرت بشدة اقتصاديات الدول العربية بصفة عامة دول حوض البحر الأحمر والخليج العربي بصفة خاصة نتيجة هذا الأغلاق. فقد تحملت أعباء إضافية ضخمة في تكاليف النقل البحري وبالأخص في قطاع البترول.

ففي عام ١٩٦٦، وهو آخر عام قبل إغلاق قناة السويس- بلغ إجمالي البضائع المارة في قناة السويس ٢٤٢ مليون طن (منها ١٧٦ مليون طن بترول و٦٦ مليون طن بضائع جافة) وأن ٣٦٪ من إجمالي البترول قد تم تحميله من موانئ الخليج العربي عبر قناة السويس، و٤١٪ للبضائع الجافة (المشحونة والمفرغة) كانت لموانئ الخليج العربي و٣٢٪ لموانئ البحر الأحمر وشرقي أفريقيا[٣٢].

وبعد إغلاق قناة السويس تحول مسار التجارة حول طريق رأس الرجاء الصالح وتحملت دول حوض البحر الأحمر والخليج العربي رسوماً إضافية عرفت في العالم البحري باسم «الرسوم الإضافية لتغيير مسار الرحلة» Deviation Sur Charge وهي رسوم إضافية فرضتها الشركات الملاحية على البضائع المنقولة من أوربا إلى موانئ البحر الأحمر والخليج العربي التي كانت تستخدم قناة السويس قبل إغلاقها[٣٣]. والنسبة المئوية لهذه الرسوم

الإضافية هي:-

٢٥٪ لموانئ الخليج العربي، ٣٥٪ لميناء عدن، ٤٥٪ لميناء جدة، ٤٠٪ لميناء جيبوتي، ٥٠٪ لميناء بورسودان(٣٤).

وبعد عودة الملاحة فى قناة السويس (١٩٧٥) عاد النشاط للنقل البحرى العربى وتزايدت التجارة العربية فى قناة السويس عاماً بعد عام، وبالأخص المملكة العربية السعودية، فقد بلغت كمية البضائع المتداولة فى موانيها على البحر الأحمر (عبر قناة السويس) حوالي ٧٨ مليون طن فى عام ٢٠٠٥ وكانت فى عام ١٩٨٩ حوالى ٣١ طن، أي بزيادة قدرها ٢٥٢٪ خلال ١٦ عاماً(٣٥).

الهوامش

(١) الميل البحرى = ١٨٥٣ مترا، والعقدة مقياس للسرعة البحرية وهى ميل بحرى فى الساعة.

Reed's Marine distance tables, Thomas Reed- Publications, LTD Sutherland and London 1990.

(٢)

(٣) راجع لمؤلف «دور قناة السويس فى التطور الاقتصادى لموانئ البحر الأحمر» ندوة اتحاد المؤرخين العرب عن «البحر الأحمر عبر عصور التاريخ» حصاد (١١) عام ٢٠٠٣ ص٢٩٢.

(٤) لمزيد من التفاصيل عن السفينة وأنواع السفن- راجع لمؤلف كتاب: السفينة وصناعة النقل البحرى- دار المعارف، ١٩٨٥.

Sea Trade. Arab Shipping, London 1981, P. 191.

(٥)

(٦) الحمولة الصافية الخاصة بقناة السويس هى التى يتم على أساسها احتساب رسوم المرور فى قناة السويس، ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع للمؤلف كتاب «السفينة وصناعة النقل البحرى» دار المعارف ١٩٨٥ ص٢٧٥-٣٢٦.

(٧) بخصوص مد خط أنابيب السوميد- راجع للمؤلف «دور قناة السويس فى التطور الاقتصادى لموانئ البحر الأحمر»، مرجع سبق ذكره ص٣١٦. وأيضاً كتاب «قناة السويس والطرق البديلة والمنافسة» دار المعارف ١٩٨٥ ص١٤٦- ١٥٩

(٨) راجع للمؤلف «دور قناة السويس فى التطور الاقتصادى لموانئ البحر الأحمر»- مرجع سبق ذكره ص٣١٠-٣١٥.

(٩) نشرات هيئة قناة السويس (للسنوات ٢٠٠٠ - ٢٠٠٥ م).

(١٠) وفق إحصائيات Arab port information und traffic الصادرة من مركز البحوث والاستشارات بالأكاديمية العربية للنقل البحرى

(١١) محمد سليمان هدى- اقتصاديات النقل البحرى- دار الجامعات المصرية ١٩٨٣، ص٢١٦ -٢٢١.

(١٢) التقرير الاقتصادى العربى الموحد ٢٠٠٦-ص١٣٣.

(١٣) المصدر السابق ص١٣٤.

(١٤) التقرير الاقتصادى العربى الموحد ٢٠٠٦ ص١٣٣.

(١٥ و١٦) المصدر السابق.

(١٧) المصدر السابق، ص١٣٥.

(١٨) المصدر السابق، ص١٣٦.

(١٩) المصدر السابق ص١٤٣.

(٢٠) المصدر السابق ص١٤٢.

(٢١) البنك الأهلى المصرى- النشرة الاقتصادية العدد الرابع ٢٠٠٤. حول قيام منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى.

GREAT ARAB FREE TRADE AREA (GAFT) (٢٢)

(٢٣) لمزيد من التفاصيل حول تطور حركة نقل البترول فى قناة السويس- راجع للمؤلف «العبر العائى التجارى العالمى قناة السويس وتحديات المنافسة والطرق البديلة» مجلة اتحاد المؤرخين العرب ص٧٨٩-٨٤٢.

(٢٤) نشرات هيئة قناة السويس السنوية (١٩٨٦-٢٠٠٥).

(٢٥) المصدر: للجدولين رقم ١٠، ١١.

(٢٦ و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠) نشرات هيئة قناة السويس أعوام (٢٠٠٦-٢٠٠٥)

(٣١) نشرات هيئة قناة السويس أعوام (١٩٨٦ - ٢٠٠٥).

(٣٢) نشرة هيئة قناة السويس لعام ١٩٦٦.

Unctad, The Economic Effect of The Closure of the Suez Canal. U.N. 1973. P.1 (٣٣)

Ibid. P.P. 15. 18 (٣٤)

(٣٥) راجع الجدول رقم ١٨ .

مراجع البحث

أولاً: المراجع العربية:-

- السيد حسين جلال، السفينة وصناعة النقل البحرى، دار المعارف ١٩٨٥.
- السيد حسين جلال، قناة السويس والطرق البديلة والمنافسة، دار المعارف ١٩٨٥.
- السيد حسين جلال، دور قناة السويس فى التطور الاقتصادى لموانئ البحر الأحمر. بحث منشور فى ندوة اتحاد المؤرخين العرب عن البحر الأحمر عبر العصور التاريخية، حصاد ١١ عام ٢٠٠٣.
- الأمانة العامة لجامعة الدول العربية. المجموعة الإحصائية لدول الوطن العربى، العدد الثالث ١٩٩٣.
- الأمانة العامة لجامعة الدول العربية. التقرير الاقتصادى العربى الموحد لعام ٢٠٠٥، ٢٠٠٦.
- البنك الأهلى المصرى، النشرة الإقتصادية، العدد الرابع ٢٠٠٤.
- محمد سليمان هدى، اقتصاديات النقل البحرى، دار الجامعات المصرية بالإسكندرية ١٩٨٣.
- هيئة قناة السويس، النشرات السنوية الإحصائية، أعداد عن السنوات من ١٩٨٦- ٢٠٠٥.

ثانياً: المراجع الأجنبية:-

- Arab Shipping, Sea Trade, London, 1981
- Arab Maritime transport academy, Arab Port Traffic, Alexandria 1976
- Containerization International Year Book, 2003, 2004, 2005.
- Reed's Marine distance tables, Thomas Reed Publications, LTD Sutherland& London.1990.

د.منور سعيد خليل هاشم (*)

الحرف والصناعات التقليدية في دول مجلس التعاون الخليجي وأهميتها الاقتصادية: البحرين نموذجا

المقدمة:

من المعروف أن هناك علاقة حميمة بين الإنسان والبيئة، يحاول الإنسان الاستفادة من عطائها، وأحيانا يتمرد عليها لتوفير حاجاته الضرورية كالشراب والغذاء والكساء والمسكن، ففى منطقة الخليج التى تضم ثلاثة سواحل: الشرقى الذى تطل عليه جمهورية إيران الإسلامية، والشمالى الذى تطل عليه العراق، والغربى الذى تطل عليه دول مجلس التعاون الخليجى حاليا، وسابقا يطل عليه إقليما البحرين وعمان، بدأ الإنسان منذ بداية استقراره فى سواحل الخليج الثلاثة وجزره صيد الأسماك من مياه الخليج لتوفير الغذاء، كما توصل لمعرفة صيد اللؤلؤ، لذا فإن هذا الإنسان تدرب على صناعة السفن كوسيلة لمساعدته على صيد السمك واللؤلؤ والإبحار إلى دول أخرى لبيع اللؤلؤ ومنتجات أخرى واستيراد مستلزمات الحياة من الخارج. كذلك فإن معرفة الإنسان بحرفة الزراعة نتيجة لحاجته لتوفير الغذاء من خضر وفواكه، وبدأ التدرب على صناعة أدوات للزراعة وخصوصا النخلة التى تمده بالثمر اللازم للغذاء صيفا وشتاء، كما توصل لإنتاج عسل النخيل لاستخدامه كغذاء أيضا. وحينما احتاج إلى السكن بدأ التفكير بالاستفادة من خامات النخيل لبناء مسكنه وتأثيثه من منتجات خامات النخلة، فقام بحفر الآبار والينابيع وحرث الأرض، كما بدأ التعرف على طرق الرى واستخدام الحيوانات لجر الساقية كالثور والخيل والبغال والحمير التى استخدمها أيضا لنقل منتجاته إلى

(*) أستاذ مساعد بقسم العلوم الاجتماعية – كلية الآداب – جامعة البحرين

السوق. كما تمكن من إنتاج عسل النخيل لاستخدامه كغذاء أيضا، وحينما احتاج إلى السكن بدأ بالاستفادة من خامات النخيل كما تعرف على تجارة اللؤلؤ وصقله وبيعه فى دول الجوار خاصة الهند. واستيراد مستلزماته الحيانية منها ومن دول الجوار، كذلك برزت حرفة بناء المساكن من خامات النخلة للفقراء ومن الحجارة البرية والبحرية لإنشاء مساكن الأثرياء والمساجد والحسينيات والأسواق، وبدأت حرفة البناء فى التطور مع مرور الوقت. فبرزت حرفة النقاشين والمزخرفين لمساكن الأثرياء ودور العبادة. حيث كانت تنقش فى دور العبادة بعض الآيات القرآنية وأسماء الأنبياء والأولياء ومؤسسى المساجد والكتابة على شواهد القبور. كذلك ظهرت حرفة العلاج الطبى الشعبى، ومنها الطب البشرى بأنواعه والبيطرى، وكذلك حرفة الحواجة التى يقوم محترفها بصناعة الأدوية العشبية والسائلة لتقديم الوصفات الطبية اللازمة. كما ظهرت حرفة الحجامة لتخليص الإنسان من الدم الفاسد وكذلك حرفة الحلاقة الرجالية.

وخلاصة القول أن الحرف والصناعات التى ظهرت فى إقليم البحرين وكذلك فى باقى الأقاليم التى مر ذكرها كانت بشكل تدريجى وبدافع الحاجة حيث تم تسخير موارد البيئة وتطويعها بذكاء الإنسان الذى عاش فى هذه المنطقة، وبدأ فى تطويرها، وأصبحت هذه الحرف والصناعات تخدم جانبين: توفير فرص عمل لبعض الأسر لتأمين لقمة العيش من جانب وتهيئة الحاجات الضرورية التى يحتاجها الإنسان، وذلك بالاعتماد على الإنتاج المجتمعى الداخلى دون الحاجة لاستيراده من الخارج. فدل بذلك على أن إنسان هذا الإقليم فى المنطقة الشرقية وجزر البحرين كان منتجا. وشكلت هذه الحرف والصناعات جانبا من الموارد الاقتصادية لهذا الإقليم، حيث إن الأجيال المعاصرة فى هذا الإقليم أصبحت متخلفة عن الدور الذى قام به السلف وهو تطويع موارد البيئة لتوفير مستلزماته الضرورية فى محاولة لتجنب الاعتماد على الخارج. ويفترض أن يكون ذلك الدور دافعا للأجيال المعاصرة كى تحذو حذو السلف فى الاعتماد على النفس لتوفير مستلزمات الحياة دون الاستكانة للاعتماد على الخارج لأن الثروة النفطية زائلة وحتى لا يكون مجتمع الخليج عالة على البشرية شرقا أو غربا. وعلى الرغم من أن إقليم البحرين قد شمل المنطقة الممتدة من جنوب البصرة حتى الحدود الظبيانية القطرية، من أقدم العصور حتى الاحتلال البرتغالى فى صيف ١٥٢١م، لجزر البحرين والمنطقة الشرقية. وبداية انفصال الجزر سياسيا عن المنطقة الشرقية إلا أن هذه المنطقة وجزر البحرين برزت بها الكثير من الحرف والصناعات أكثر من باقى مناطق الإقليم لأسباب عديدة سيوضحها الباحث لاحقا.

الحرف التى عرفها ومارسها الإنسان فى البحرين: *

عرف الإنسان فى البحرين العديد من الحرف التى لاتزال قائمة، وامتهن هذه الحرف العديد من الأسر وعاشوا أجيالا متعاقبة على دخلها أحيانا.

١- الزراعة: تعتبر الزراعة من أقدم الحرف التى عرفها الإنسان منذ أقدم العصور، ليس فى جزر البحرين فقط، وإنما فى بلدان العالم القديم كبلاد الرافدين ومصر والشام والهند والصين وغيرها. وعلى الرغم من حرمان البحرين جزرا وإقليما من الأنهار إلا أنه نتيجة لانتشار المساحات الخضراء بهذه الجزر، كانت تعرف ببلد المليون نخلة، كما كان يطلق عليها الرحالة والكتاب الغربيون The Paradise of Arab Peninsula جنة شبه الجزيرة العربية(١).

ويعود الفضل إلى ظهور حرفة الزراعة فى البحرين وازدهارها إلى الأسباب التالية: (٢)

- توافر التربة الصالحة للزراعة.
- المناخ الملائم للزراعة إذ إن البحرين تقع فى المنطقة المعتدلة الدافئة.
- وفرة الأيدى العاملة البحرانية ذات الخبرات المتوارثة.
- وجود رأس المال اللازم.
- وفرة البذور والأدوات اللازمة للزراعة والمنتجة حاليا، كالفأس والمحراث والمنجل والمحش والمضخين والحيوانات اللازمة لمساعدة الفلاح فى الحرث والسقى ونقل المنتجات الزراعية للسوق.
- وجود الأسواق المحلية، حيث الطلب المستمر للمنتجات الزراعية المحلية، مما شجع على زيادة الإنتاج.

أما المناطق التى تتركز فيها الزراعة بكثافة فهى قرى جزيرة المحرق وتشمل عراد، سماهيج، الدير، البسيتين وقرى جزيرة سترة وهى الخارجية برکوبان، سفالة، نويدرات، مهزة. وقرى جزيرة البحرين «الجزيرة الأم»، وهى: البلاد القديم، المصلى، جدحفص، عين الدار، منى، البرهامة، الدية، السنابس، كرانة، أبوصيبع، الحجر، باربار، كرباباد، جرداب، القدم، المقشع، سار، مقابة، بنى جمرة، الدراز، البديع، الجنبية، الزلاق، المالكية، كرزكان، شهركان، دمستان.. إلخ.

أما المحاصيل الزراعية التى تنتجها البحرين فى فصول الخريف والشتاء والربيع لاعتدال المناخ فتتمثل فى جميع أنواع الخضروات، والكثير من الفواكه الموسمية والحمضيات. وأهم المحاصيل الزراعية هى النخيل التى لم يتبق من المليون نخلة سوى النصف تقريبا، علما بأن النخلة تكاد تكون شجرة مقدسة لأنها

تمد الإنسان بالغذاء طيلة أيام السنة، فالرطب صيفا ويمكن تجميده في الوقت الحاضر في المجمدات لكي يأكل الإنسان الرطب والتمر، حيث يجفف الرطب وهو مادة غذائية غنية لكل الأعمار. وأهم أنواع الرطب وأجودها الخلاص يليه البرحي الهلالي والغرا والخنيزي والحلاو والماجي وأم رحيم والمبشر وخصية العصفور. ويوجد في البحرين أكثر من خمسين نوعا. ومن الجدير بالذكر أن الرطب لا ينضج في وقت واحد، وإنما بالتدريج من منتصف يونية حتى ديسمبر من كل عام.

وتكمن أهمية النخلة في العراق وعمان والبحرين والمنطقة الشرقية في أنها مصدر للغذاء والسكن والأثاث وإنتاج أدوات صيد السمك. وتقوم على خامات النخلة الكثير من المنتجات الصناعية اللازمة لحياة الإنسان والحيوان والطيور والنبات.

ويقوم الفلاحون في البحرين بتربية الدواجن والحيوانات. ويكثر الفلاحون عادة من الإنجاب وتعدد الزوجات لتوفير اليد العاملة اللازمة لمزارعهم. وفي الغالب يملكون الأراضي الزراعية التي يعمل بها الكثير من الأسر، وهناك الكثير من الأمثال الخاصة بالتراث الفلاحي التي تعبر عن معاناة الفلاح وصعوبة حصوله على لقمة العيش منها(٣):

* رأس بصل على جدول.

* على طمع الزرع يروى الحشيش.

بلتني الزاجرة الله يبليها ** حتى صلاة الليل ما أصليها.

وكان إنتاج مزارع البحرين يغطي حاجاتها منذ أقدم العصور حتى سبعينيات القرن الماضي طيلة أيام السنة من الخضروات وبعض الفواكه مثل الجح والشمام والباباي واللوز والليمون والمانجة، والعنب والرمان والتين والرطب والتمور بأنواعها إلا أن الإنتاج تقلص إلى أكثر من ٨٠٪ لأسباب عديدة سيتم توضيحها لاحقا كما كان يعمل بهذه الحرفة أكثر من عشرين ألف فرد حتى سبعينيات القرن الماضي. وقد تقلص العدد إلى أكثر من ٨٠٪ للأسباب التي سيتم ذكرها لاحقا أيضا.

٢- صيد السمك:

بدأ صيد السمك في البحرين منذ بدأت حياة الإنسان على هذه الأرض لأهميته كغذاء تجود به البيئة البحرية، وهناك الكثير من أنواع السمك التي يتم صيدها أهمها الهامور، الكنعد، الصافي، الشعري، السبيطي، الشعم، الكفار، البرطام، بنت النوخذا، الجنم، اللحاح، القيسر، الحومر، الكين، الكركفان، البلح، الزبيدي، العنقوز، البحرة، الخشاق، الكبكب، الناعوض، الربيان، أم الربيان.

أما وسائل صيد السمك فهي: القفص «كركور» بأحجام مختلفة، الشباك، الحضرة، المسكر، السنارة «الميدار»، كما توصل الإنسان لصناعة السفن ذات الأحجام المختلفة لصيد السمك وكانت تسير بقوة الريح ثم أصبحت تعتمد على الآلة البخارية.

وقد كان يعمل بهذه الحرفة أكثر من عشرة آلاف فرد، وكان يعيش على دخلها أكثر من خمسين ألف نسمة من أبناء البحرين. تقلص عدد العاملين بها إلى الربع، مما أدى إلى ارتفاع أسعار السمك بأنواعه لقلة العرض وزيادة الطلب لأسباب عديدة سنناقش لاحقا.

٣- صيد اللؤلؤ:

بدأ صيد اللؤلؤ في البحرين والخليج منذ أقدم العصور، وتعتبر مياه جزر البحرين الأكثر غنى بوفرة اللؤلؤ. كما يعتبر الأجود في العالم ويعود السبب في ذلك إلى وفرة ينابيع المياه العذبة في المياه الإقليمية للبحرين، حيث تنتشر هذه المياه في مصايد اللؤلؤ، ويساعد ذلك على تكاثر المحار الذي يحتضن اللآلئ ويقول الشاعر:

أرى المعروف عند الحر دينا ... وعند النذل منقصة وذما

كقطر المطر في الأصداف درا ... وفي فم الأفاعي صار سما

وكانت البحرين تعتبر أكبر سوق للؤلؤ في الخليج، وبلغ عدد العاملين بصيد اللؤلؤ في البحرين أكثر من خمسة وعشرين ألف نسمة، كما بلغ عدد السفن التي تبحر سنويا لصيد اللؤلؤ ٨٠٠ سفينة تقريبا مختلفة الأحجام، أما أسباب ازدهار حرفة صيد اللؤلؤ في البحرين فتعود للأسباب التالية: (٤)

- وفرة رأس المال حيث توزع مبالغ كسلفة قبل السفر على عمال اللؤلؤ ويبدأ موسم صيد اللؤلؤ من مايو – أكتوبر من كل عام.
- وفرة السفن التي تتم صناعتها في البحرين بأيد بحرينية ماهرة.
- وفرة الأيدي العاملة ذات الخبرة في صيد اللؤلؤ من أبناء البحرين.
- وفرة ربابنة السفن ذوو الخبرة من أبناء البحرين.
- وفرة «الطواويش» الذين يشترون اللؤلؤ ويقومون بتنظيفه وتعديله وتصديره للهند وأوروبا.
- وجود سوق رائجة للؤلؤ، ووفرة المواد التي يحتاجها عمال اللؤلؤ في أسواق البحرين من غذاء وكساء وأثاث.

■ تحمل المرأة البحرينية أعباء الأسرة حين غياب زوجها فيما يتعلق برعاية الأسرة وصبرها على تحمل المتاعب.

■ عدم وجود بديل لهذه المهنة على الرغم من المتاعب التي يتعرض لها صيادو اللؤلؤ والتي تشمل سوء معاملة ربان السفينة لعمال اللؤلؤ فترة السفر في البحر، وكذلك سوء معاملة مالك السفينة لعمال اللؤلؤ حيث يلزم ورثة عامل اللؤلؤ حال الوفاة بتحمل الدين فكان الصيد يمثل نوعا من أنواع الاستعباد للعنصر البشري لقاء لقمة العيش بذل ومهانة خلال السفر في البحر. كما كان يتعرض عمال اللؤلؤ للافتراس من سمك القرش فيموتون ويلقى بهم لقمة للأسماك، وقد تقلصت مهنة صيد اللؤلؤ ليس فقط في البحرين، وإنما في عموم منطقة الخليج لسببين:(٦).

الأول: ظهور اللؤلؤ المستزرع في اليابان منذ عام ١٩٢٩م وتدني أسعار اللؤلؤ الطبيعي، ومن ثم انخفاض أجور تلك المهنة، مما ترتب عليه تقلص عدد العاملين بصيد اللؤلؤ من ملاك سفن وعمال.

الثاني: اكتشاف النفط في البحرين منذ ١ يونية ١٩٣٢م وبداية تصديره في ١ يونية ١٩٣٤م، والتحاق غالبية عمال صيد اللؤلؤ بشركة نفط البحرين المحدودة حيث الأجور التي توفر لقمة العيش والمجهود الذي لا يمكن مقارنته بمتاعب صيد اللؤلؤ.

٤- الطواشة:

يطلق اسم هذه المهنة على الرجل الذي يشتري اللؤلؤ من ملاك السفن وربابنتها ويسمى طواش – جمع طواويش – وهؤلاء يستقبلون سفن صيد اللؤلؤ في البحر قبل وصولها إلى قرب الشاطئ، حيث يعرض عليهم ربان السفينة اللؤلؤ الذي تم جمعه ويقدر الطواش له سعرا يستشار فيه مالك السفينة بعد الوصول إلى اليابسة. ويقوم الطواش قبل الشراء بوزن اللؤلؤ وتقدير سعره، وهكذا يقوم الطواشون بشراء اللؤلؤ وتنظيفه وتعديله وصقله إذا كانت به نتوءات والسفر إلى الهند لبيعه. وتوجد مقاهي في كل من مدينتي المنامة والمحرق تسمى قهوة الطواويش، حيث يجتمعون فيها. وكان ملاك السفن والطواويش ليس في البحرين فحسب، وإنما في منطقة الخليج يمثلون الشريحة الأرستقراطية بين أفراد المجتمعات الخليجية، وكانت آثار البذخ تبدو على حياتهم من ملبس ومأكل ومسكن.

٥- البناء:

من الحرف القديمة في البحرين وتنقسم إلى قسمين:

الأول: بناء المنازل من الحجر البري والبحري.
الثاني: بناء المنازل من خامات النخلة.

فيما يتعلق بالأول، فهناك المواد الخام التي تستخدم للبناء وتتكون من الحجر البري الذي يقطع من التلال الصخرية جنوب البحرين، وكذلك البحرية التي تقطع من البحر قريبا من الساحل، وهذه تعتبر أفضل وأطول عمرا، كما تستخدم الحبال التي تصنع من الليف الذي يؤخذ من النخلة وشرائح الجذع، حينما تموت النخلة يستخدم جذعها للبناء بعد تشريحه، كذلك من المواد الأولية للبناء مادة الجص التي تؤخذ من الحجر الجيري بعد حرقه وتحويله إلى مادة ترابية، كذلك بجلب الجندل والباسجيل والبواري من شرق أفريقيا خصوصا من زنجبار وممبسة وتنزانيا. ويقتصر بناء المنازل من الحجر على الأثرياء وهم الحاكم وتجار اللؤلؤ والطواويش، وتجار المواد الغذائية ومواد البناء والملابس.

وقد برز العديد من الذين احترفوا حرفة البناء في البحرين حتى تسعينيات القرن الماضي، خصوصا في جزيرة المحرق منهم ضيف بن محمد بن ضيف وموسى بن حمد البناء وعلي بن مبارك الحايكي.(٧).

وقد تقلص عدد البنائين البحرانيين في ثمانينيات القرن الماضي لتقلص المحترفين وانخفاض الأجور واستبدل بهم عمالة آسيوية ومن أشهر البنائين البحرانيين عبدالنبي بن إسماعيل وأحمد بن حسن المؤذن وحسين بن راشد ورضي بن حسن ومنصور بن سعيد ومحمد بن علي بن محمد.. إلخ.(٨)

أما النوع الثاني من البنائين فهم المتخصصون في بناء المنازل من سعف وجريد وجذوع النخل، وهذه المنازل خاصة بعامة الناس والفقراء، وتنقسم هذه المنازل أيضا إلى قسمين: الأكواخ والبرستجات. أما الأكواخ فنصفها من الحجر والنصف الثاني من الجريد والسعف والجذوع والحبال. أما البرستجات فكلها من السعف والجريد والجذوع والحبال، وبعد القسمان مساكن شتوية، أما الصيفية فتسمى «عرشان» – جمع عريش – وقد اختفى النوع الثاني من المنازل في ستينيات القرن الماضي لارتفاع مستوى المعيشة وزيادة الدخل، وقد تقلص بناة النوع الثاني من المنازل لتقلصهم أيضا.

٦- النقاشون والمزخرفون:

يرجع ظهور حرفة النقش والزخرفة في البحرين قبل أكثر من ألف سنة، وهذه الحرفة يورثها الآباء للأولاد والجدود للأحفاد عن طريق نقل الخبرة، وكانت مادة الجص التي تنتجها قرية عالي تصدر ليس إلى أسواق جزر البحرين، وإنما لأسواق إقليم البحرين، وتستخدم النقوش والزخارف في المساجد والحسينيات

وبيوت الأثرياء خصوصا ملاك سفن التجارة وصيد اللؤلؤ وتجار المواد المعيشية كما تستخدم النقوش والزخارف لشواهد القبور. وبشكل عام فإن هذه الزخارف والنقوش تدل على مستوى الرفاه المعيشي للأفراد بشكل خاص وللمجتمع بشكل عام. ومن أبرز المساجد القديمة التي نقلت بعض النقوش فيها إلى متحف البحرين الوطني مشهد الخميس الكائن في البلاد القديمة عاصمة البحرين السياسية والتجارية الأولى. حيث يعود إعادة بنائه إلى عهد أبي سنان محمد بن الفضل بن عبدالله العيون ثاني حكام الدولة العيونية «٥٢٧- ٥٣٨ هـ/ ١١٣٢- ١١٤٣م»، التي شملت جزر البحرين والإحساء والقطيف. (٩) ثم استبدل النقش والزخرفة من مادة الجص إلى مادة الجبس التي تصنع محليا وتستورد من الخارج أيضا. وقد بدأ استخدام مادة الجبس في البحرين من سبعينيات القرن الماضي.

كما أن العاملين بالزخرفة حاليا غالبيتهم من العرب والآسيويين الأجانب مع وجود قلة من البحرينيين يعملون في هذه الحرفة منهم كمثل البنائين الذين أوشكوا على الانقراض لعدم توريثهم هذه الحرفة لأولادهم من جانب ولانخفاض الأجور من جانب آخر. ومن أبرز النقاشين والمزخرفين البحرانيين أحمد بن سلمان وحسين بن علي أبوجواد. (١٠)

٧- قطع الأحجار البرية والبحرية:

برزت هذه الحرفة في البحرين منذ آلاف السنين وكان البحرانيون هم الذين يعملون بها ولايزالون. وقد توقف قطع الأحجار البحرية منذ ثمانينيات القرن الماضي، أما قطع الأحجار البرية فلايزال قائما. حيث تستخدم في تشييد أساسات المباني. وتعتبر الأحجار البحرية أغلى من البرية بسبب طول عمرها وملاءمتها للبيئة. وقد اشتهر بحرفة قطع الأحجار البحرية مجموعة من سكان رأس الرمان - إحدى ضواحي المنامة العاصمة - وكانت هذه المجموعة تستخدم الحمير والقوارب في نقل الأحجار إلى البر بعد قطعها. ومنذ أربعينيات إلى ثمانينيات القرن الماضي استخدمت الشاحنات «السيارات الكبيرة». أما البرية فكانت تستخدم الحمير وبعدها الشاحنات لنقلها لمواقع العمل. وقد حل الطوب أو الطابوق حاليا لبناء المباني الصغيرة والكبيرة والمساكن والقطع الخرسانية.

٨- الحلاقة:

من الحرف التي عرفها ومارسها البحرانيون منذ القدم وكانت مقتصرة على صالونات حلاقة الرجال ويعمل بها البحرانيون فقط حتى ستينيات القرن الماضي بعدها فتحت صالونات النساء وأصبح الذين يعملون بالحلاقة النسائية والرجالية من الآسيويين

٩- الحجامة:

حرفة الحجامة عرفها البحرانيون ومارسوها منذ أقدم العصور حتى سبعينيات القرن الماضي، ثم تقلصت وظهرت مرة أخرى في تسعينيات القرن الماضي نظرا للإقبال على الطب الشعبي في جميع أنحاء العالم. ويعمل بالحجامة الرجال فقط، وهذه الحرفة يتم توارثها بالخبرة، والهدف منها تخليص الجسم من الدم الفاسد. وبدأ الإقبال عليها الآن بشكل تدريجي.

١٠- الطب الشعبي البشري:

عرفها البحرانيون منذ القدم ومارسوا هذه الحرفة ولاتزال منتشرة وهي قريبة من الطب النبوي. ومن ضمن الذين مارسوا هذه الحرفة الملا عبدالله بن محمد المطوع والملا عبدالله بن محمد بن ناصر والحاج عبدالله الشجار والمقابي «نسبة إلى قرية مقابة» والشيخ عيسى بن الشيخ علي بن حسن. «١١» حيث يقوم الطبيب بالفحص على المريض وتشخيص مرضه وتقديم وصفة طبية تتكون من الأدوية العشبية أو السائلة المكونة أيضا من النباتات ويطلق على الطبيب حكيم. سواء كان ما يتعلق بالأمراض الباطنية أو التناسلية. كما يستخدم الطبيب أحيانا الكي بالنار لعلاج بعض الأمراض ومن ضمن هؤلاء الأطباء الحاج حسن بن مدن ووالدته مدينة بنت مدن وابنتها. والسيد جواد بن السيد عبدالله. (١٢)

١١- الطب الشعبي البيطري:

عرف هذه الحرفة أهالي البحرين ومارسوها منذ القدم لعلاج الحيوانات كالجمال والحمير والبغال والبقر والأغنام وغيرها. وهذه الحرفة يتوارثها الأبناء عن الآباء والأحفاد عن الأجداد حتى ستينيات القرن الماضي حينما ظهر الطب البيطري الحديث. ومن أمثلة الذين عملوا بهذه الحرفة حسين بن راشد والسيد جواد بن السيد عبدالله. (١٣)

٢١- التجبير:

خاصة لعلاج الكسور والفرك الذي يتعرض له أعضاء الجسم ويعمل بهذه الحرفة الجنسان من البحرانيين. وقد برزت هذه الحرفة في البحرين منذ أقدم العصور حتى ظهر الطب الحديث لمعالجة الكسور والفرك. وكانت هذه الحرفة منتشرة حتى سبعينيات القرن الماضي ومن أمثلة الذين مارسوها من الذكور الظاعن والحاج حسن بن مدن والحاج عبدالله الأصمخ والحاج حسن غلوم ومن الإناث كلثم بنت عبدالله المناعي ومدينة بنت مدن وابنتها وسلامة بنت حسن بن ناصر. (١٤)

١٣- المراخة:

من الحرف المتعلقة بالطب الشعبي وعرفها البحرانيون ومارسوها منذ القدم وهي تشبه المساج والتدليك وعمل بها الجنسان الرجال والنساء وكان العاملون بها لا يتقاضون أجرا، وإنما عملهم كان تطوعا في الغالب ومن أمثلة السيدات اللاتي عملن بها سلامة بنت حسن بن ناصر وكلثم بنت عبدالله الصناعي ومدينة بنت مدن وابنتها، أما الرجال فمنهم الحاج حسن بن مدن والحاج حسن غلوم والسيد جواد بن السيد عبدالله[١٥].

١٤- القبالة:

تقتصر هذه الحرفة على النساء لمساعدة الحوامل على الولادة قبل افتتاح مستشفى الإرسالية الأمريكية ومستشفى فيكتوريا بمدينة المنامة في نهاية القرن التاسع عشر، ولذلك ضاقت القابلات ذرعا باغتتاح مستشفيات الولادة بسبب إحساسهن بقطع عيشهن للإقبال على هذه المستشفيات. وقد انقرضت هذه الحرفة منذ ستينيات القرن الماضي، ومن أمثلة القابلات سلامة بنت حسن بن ناصر ومدينة بنت شمسان وكلثم بنت حسن مشاخيل ومدينة بنت مدن[١٦].

١٥- الدلاية:

وهي التي تتولى تحضير العروس لليلة زفافها، وتقوم بوضع الحناء وتلبيسها، وتعطيرها وتزويدها بالنصائح الضرورية للتعامل مع الزوج في مقتبل حياتها الزوجية.

١٦- فرش حجرة الزواج:

مارسها الجنسان وفي الغالب النساء، ومن أمثلة من مارسها فاطمة بنت الحاج عبدالله وسلامة بنت حسن بن ناصر وآمنة بنت الحاج حسن الحايكي[١٧]، وقد انقرضت هذه الحرفة لعدم الحاجة إليها، حيث استبدل بالعاملين بهذه الحرفة مهندسي الديكور.

١٧- الغناء:

كانت هذه الحرفة معروفة في البحرين منذ مئات السنين، وكان الغناء يمارسه الذكور والإناث ويغلب عليها الفن الفلكلوري وخاصة في الأفراح والمناسبات السارة.

١٨- الطبالة:

يمارسها الذكور والإناث ويطلق على من يمارسها طبال للذكور وطبالة للنساء، ويعمل الطبالة كفريق للقيام بمهمة استخدام الطبول وعادة ما تعمل

هذه الفرق في الأعراس والمناسبات الوطنية، ولاتزال هذه الحرفة مستمرة للإقبال عليها في المناسبات المذكورة.

١٩- الختان:

بدأت حرفة الختان منذ اعتناق سكان إقليم البحرين الإسلام سنة ٨ هـ ويمارسها الذكور وتسمى التطهير وعادة ما يتم تطهير الأطفال منذ الصغر، وكانت تستخدم للطهور الأدوات التقليدية وبعد افتتاح المستشفيات وبداية الطب الحديث في البحرين منذ نهاية القرن التاسع عشر حينما افتتح مستشفى الإرسالية الأمريكية ومستشفى فيكتوريا للجيش البريطاني في البحرين بدأ طهور الأطفال منذ السنة الأولى من عمر الطفل. وحاليا في أيام الطفل الأولى بعد الولادة. واختفت نهائيا الطريقة البدائية للطهور، وكان يطلق على من يمارس هذه الحرفة المختن/ المطهر.

ومن أشهر من مارسها الحاج علي أبوشعيلة وربيع محسن ربيع والحاج حسن العرادي[١٨].

٢٠- السقاية:

كانت تمارس منذ القدم ويمارسه الذكور والإناث ويعني توصيل الماء إلى بيوت الميسورين فقط وانقرضت هذه الحرفة منذ ستينيات القرن الماضي حينما تم توصيل المياه إلى البيوت في المدن والقرى

٢١- الحمالة

عرفت هذه الحرفة منذ القدم ومارسها الذكور ويقومون بنقل البضائع والحاجيات من سوق الخضار والفواكه واللحم والسمك إلى البيوت، وحاليا إلى السيارات، وكانت تستخدم الحيوانات كالحمير والبغال لنقل البضائع والحاجات من الأسواق إلى الدكاكين والبيوت، ولاتزال الحمير تستخدم إلى الآن لنقل البضائع على نطاق ضيق، أما الآن فتستخدم العربات لتوصيل الحاجيات إلى السيارات في الأسواق المركزية، ويمارس هذه الحرفة الآن بحرانيون وآسيويون.

٢٢- النقل البحري للبضائع:

نظرا لانتشار واشتهار البحرين بصناعة السفن فقد عرفت حرفة النقل البحري في البحرين منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، وكانت السفن تجوب مياه الخليج متنقلة بين موانئه لنقل البضائع المختلفة بين موانئ الخليج والبحر الأحمر من جانب وشرق أفريقيا والهند وجيرانها من جانب آخر في عملية

استيراد وتصدير بين منطقة الخليج وهذه الدول. فمن البحرين كان يصدر اللؤلؤ والسلوك «رطب الخنيزي بعد تجفيفه» إلى الهند، والحمير إلى شرق أفريقيا. كما كانت هذه السفن تصل إلى دول الشرق الأقصى كماليزيا والصين والفلبين وإندونيسيا، حيث يجلبون البضائع اللازمة ليس للبحرين فحسب، وإنما لمنطقة الخليج بشكل عام.

٢٣- التجارة:

بدأ العمل بحرفة التجارة الخاصة بالاستيراد والتصدير وبيع المواد الغذائية، الملابس، المواشي، الأحذية، الأثاث، السيارات، الدراجات بأنواعها منذ القدم وقد تطورت حرفة التجارة حينما تأسست غرفة التجارة والصناعة منذ خمسينيات القرن الماضي، وحرفة التجارة في البحرين في تطور مستمر وترتب على ذلك تعدد الأسواق الشعبية اليومية والأسبوعية، بالإضافة إلى إنشاء الأسواق الحديثة التي تضاهي في تصميمها أحدث الأسواق في أهم عواصم ومدن العالم التجارية بسبب حرص الدولة على دعم الحركة التجارية وتوفر الاقتصاد الحر في البلاد.

٢٤- التعليم:

ينقسم التعليم إلى قسمين التقليدي والحديث. أما مدارس التعليم التقليدي فتتكون من مدارس تلاوة القرآن، الكتاب، والحوزات الدينية ويطلق على من يمارس حرفة التعليم معلما وكان يمارسها الذكور، أما مدارس التلاوة فكان يمارسها الذكور والإناث. أما التعليم الحديث فقد بدأ في البحرين منذ عام ١٩٠٣م، حينما افتتحت مدرسة الإرسالية الأمريكية «الرجاء حاليا»، ويحمل اسم من يمارس التعليم أيضا «معلم» في مراحل التعليم العام للذكور ومعلمة للإناث. وكان للمعلم شأن كبير في جميع المجتمعات العربية، أما الآن فإن حرفة التعليم ليست ذات شأن لعدم دعمها من قبل الحكومات المتعاقبة وصارت حرفة التعليم من الحرف المتواضعة التي لا تمكن من يمارسها من تحقيق حياة مريحة لأفراد أسرته لتواضع المرتبات وارتفاع مستوى المعيشة.

٢٥- الخطابة والإمامة في المساجد:

عرفت هذه الحرفة منذ اعتناق سكان البحرين الإسلام عام ٨ هـ/ ٦٣٠ م ويقوم الخطيب بإمامة الناس في صلوات الجماعة والجمعة، كما يلقى الخطب الدينية في صلوات الجمعة والأعياد. ولاتزال هذه الحرفة قائمة في جميع المجتمعات الإسلامية.

٢٦- خطابة المنبر الحسيني:

عرفت هذه الحرفة في البحرين منذ استشهاد الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب «ع» وأنصاره في مذبحة كربلاء يوم العاشر من شهر المحرم عام ٦١ هـ/ ٦٨٠ م في عمل يعتبر وصمة عار في جبين النظام السياسي الإسلامي آنذاك. حيث يعتبر ردة حقيقية لكل ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من وحي وتراث إسلامي، ومن أبرز الخطباء الحسينيين الأحياء والأموات في البحرين الحاج ملا عطية والشيخ محمد علي حميدان والشيخ أحمد مال الله والشيخ يوسف بن ملا عطية والشيخ أحمد العصفور والشيخ عبدالمحسن بن ملا عطية والسيد صالح السيد عدنان والسيد علوي بن سيد درويش والشيخ محمد زين الدين.. إلخ، ويقوم الخطيب بتقديم محاضرة تتناول نبذة عن سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأهل البيت «ع» تشمل سيرتهم وخصوصا النهضة الحسينية لمقارعة جبروت الأمويين ومحاولاتهم تدمير إسلام محمد - صلى الله عليه وسلم - وطرح الإسلام بصورة تخدم مصالحهم السياسية باستثناء عهد الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز. كما يناقش الخطيب الأوضاع المجتمعية المحلية والإقليمية والظواهر المجتمعية السائدة وطرق معالجتها.

٢٧- خياطة الملابس النسائية والرجالية:

عرفت هذه الحرفة قديما في البحرين، وكان الرجال يخيطون ملابس الذكور، كما كانت النساء يخطن الملابس النسائية يدويا. ثم تطورت هذه الحرفة حيث دخلت الآلة في الخياطة. كما أن حرفة الخياطة حاليا يشترك فيها الذكور والإناث في الغالب، وليس في البحرين فحسب، وإنما في دول التعاون بشكل عام.

٢٨- التطريز «الكوراء»:

تقتصر هذه الحرفة على النساء اللاتي يقمن بتطريز الملابس والسراويل النسائية بخيوط ذهبية ولاتزال هذه الحرفة قائمة وتلاقي إقبالا كبيرا من جانب الأجيال النسائية الشابة لجمالها على الرغم من ارتفاع ثمنها وتقتصر ممارسة هذه الحرفة على النساء البحرانيات اللاتي يتقنها وتورثها الأمهات لبناتهن عبر الأجيال المتعاقبة.

٢٩- الصفار:

يقوم بتلميع الأواني النحاسية كالقدور والدلال وغيرها من الأواني النحاسية من كل عام وخاصة في شهر رمضان استعدادا لاستقبال الشهر. وقد عرفت هذه الصناعة من القدم، أما الآن فقد اندثرت نتيجة لعدم استخدام الأواني النحاسية.

٣٠- حياكة العباءات النسائية والرجالية:

عرفت فى إقليم البحرين وعمان منذ العصر الإسلامى الأول ومارسها الرجال والنساء ولاتزال هذه الحرفة قائمة وتطورت العباءة النسائية خياطة وتفصيلا، ويعمل بهذه الحرفة عدد من الجنسين ولاتزال هذه الحرفة قائمة واستخدام النساء للعباءة أكثر من الرجال، حيث يستخدمها من الرجال كبار السن وفى المناسبات السارة كالأعياد والزواج.

٣١- الجزار/ القصاب:

واقتصرت هذه الحرفة على «البحارنة»، وكانت هناك سوق للحم فى المنامة والمحرق، إلا أن عدد «البحارنة» الذين يمارسونها حاليا تقلص لصالح الآسيويين. ولاتزال بعض الأسر تحمل لقب هذه الحرفة على الرغم من تخلى أفراد الأسرة عن ممارستها.

الصناعات التى عرفها ومارسها سكان البحرين: *

عرف الناس فى إقليم البحرين بشكل عام وجزر البحرين بشكل خاص الكثير من الصناعات منذ الأزل، وذلك بحكم الحاجة ونتيجة لتوافر المواد الخام اللازمة للصناعة، ومن أبرز الصناعات وأشهرها الصناعات التى قامت على خامات النخلة خصوصا اللازمة للغذاء والمسكن والأثاث، ويمكن تناول هذه الصناعات بالعرض والتحليل على الشكل التالى:

١- صناعة التمور:

تتمثل هذه الصناعة فى تجفيف التمور وتعبئتها وتخزينها ومن ثم بيعها سواء كان للسوق المحلية أو التصدير للخارج. ومن المعروف أن الفلاحين هم الذين يقومون بهذا العمل ومن ثم يبيعونه للتجار والأفراد.

٢- صناعة الدبس:

الدبس هو عسل النخيل، ويتكون الدبس فى مخازن التمر حيث يعبأ فى براميل ويصدر للسوق المحلية وللخارج، ويمكن استخراج السكر من الدبس ويقتصر استخدام الدبس فى البحرين والخليج على استخدامه للطبخ وعمل بعض الأكلات كالكعك والبسكويت واللقيمات خصوصا فى شهر رمضان.

٣- صناعة الأثاث:

يصنع الأثاث فى البحرين من خامات النخلة، مثلا: الأسرة لمختلف الأعمار من الجريد للأسر المتوسطة والفقيرة، أما الأثرياء فمن الخشب المستورد،

المراوح اليدوية التى تستخدم صيفا لتخفيف درجة الحرارة قبل توصيل الكهرباء للمنازل. كذلك تصنع «المراحل» للمنتوجات الزراعية وللأسماك. وكذلك «الزبلان» - جمع زبيل - لاستخدامات المنازل المتعددة. كذلك صناعة الحصر لفرش غرف المنازل، كما تصنع السلايا للدواجن والطيور. كذلك تصنع من الجريد أقفاص الطيور وأقفاص صيد السمك. كما يصنع من ليف النخلة الحبال، ويستخدم جذع النخلة للبناء بعد تشريحه والبقايا تستخدم للوقود. كما تصنع الحصر - جمع حصير - لفرش غرف منازل الفقراء. كذلك تصنع «المراحل» من الخوص ليستخدمها السماكون والفلاحون. ولاتزال هذه الحرفة تمارس، لكن على نطاق ضيق، وقد استبدل بها صناعة الأثاث الحديثة.

٤- صناعة الحلوى:

تصنع الحلوى فى البحرين منذ مئات السنين، ويطلق على من يمارسها حلواجى، ومن أنواع الحلوى: العديد من أنواع الكعك والرهش والحلوى المطعمة بالمكسرات، وهناك العديد من الأسر فى المنامة والمحرق تمارس هذه الحرفة، وتطورت صناعة الحلوى عما كانت عليه سابقا وارتفع ثمنها وصار يضاف إليها أنواع المكسرات والزعفران والمعطرات بأنواعها، ومن أشهر العوائل البحرينية التى تعمل بهذه الصناعة فى المحرق عائلة شويطر «حسين محمد شويطر»، أما فى المنامة فعائلة الحلواجى رضى سلمان الحلواجى وآخرون.

٥- صناعة الحبال:

يصنع من الليف الذى يؤخذ من النخلة ويستخدمه البناءون والسماكون والفلاحون وبرزت صناعته منذ آلاف السنين، وقد عرفت صناعة الحبال فى إقليم البحرين وإقليم عمان وكذلك العراق لكثرة غابات النخيل التى تنتج المادة الخام للحبال وهى الليف، حيث يستخدم الحبال فى بناء المساكن الشعبية وأدوات صيد السمك والأثاث المنزلى، وقد تقلصت هذه الصناعة بشكل كبير حاليا، وكان كل العاملين بها من أبناء البحرين، كما يصنع من الحبال «الكر» الذى يستخدمه الفلاح لركوب النخلة العالية. وقد أوشكت هذه الحرفة على الانقراض بسبب منافسة المنتج الأجنبى وتسرب العاملين بها إلى حرف أخرى لقلة دخل منتوج هذه الحرفة حاليا.

٦- صناعة المديد:

عرفت صناعة «المديد» منذ مئات السنين وبرزت صناعة «المديد» فى قريتى النويدرات والمعامير، أما المادة الخام التى تصنع منها المديد فهما نبات فضولى ينبت ولايزال على حافة جداول الماء الحلو، وكذلك الشواطئ البحرية ويسمى «الأسل»

ويستخدم الميسرون المديد لفرش منازلهم ويضعون لها السجاد الإيراني. كما تستخدم المديد لتوضع على المقاعد الطويلة في المقاهي الشعبية ودكاكين الطواويش.

٧- صناعة الدلال:

حيث تصنع الدلال للقهوة من النحاس والفضة على أيدي «بحارنة» مهرة. وكانت تقوم هذه الصناعة في مدينة المحرق خلال القرون الميلادية ١٨، ١٩، ٢٠. وقد أوشكت هذه الصناعة الآن على الانقراض تقريبا لانقراض الصناع وعدم توريث صناعتها للأبناء والأحفاد.

٨- صناعة الأسلحة:

برزت هذه الصناعة في مدينة المحرق بعد احتلال العتوب للبحرين عام ١٧٨٣م، حيث أصبحت المحرق هي العاصمة السياسية والتجارية للبحرين خلال القرن التاسع عشر. ومن أبرز ما عرف من صناعة الأسلحة في البحرين السيوف والخناجر وصناعة المقابض ويصنع بعضها من الذهب والفضة، وكذلك مقابض البنادق التي يهديها الحاكم لزوار البحرين من الشخصيات العالمية والعربية.

٩- صناعة السفن:

من أقدم الصناعات التي عرفت في البحرين منذ الألف الرابعة قبل الميلاد. ويرجع الفضل في معرفة هذه الصناعة إلى الفينيقيين الذين استوطنوا إقليم البحرين منذ الألف الرابعة قبل الميلاد، وبرزت هذه الصناعة في مدينتي المنامة والمحرق، ويطلق على صانع السفينة «قلافا»، جمع قلاليف حيث تستورد الأخشاب من الهند وإندونيسيا وماليزيا وشرق أفريقيا. وتتكون صناعة السفن من أحجام مختلفة تبعا للاستخدام، فهناك سفن صيد السمك الصغيرة والكبيرة وسفن صيد اللؤلؤ أو الغوص وسفن السفر عابرة المحيطات لنقل البضائع المختلفة، وقد أوشكت صناعة السفن الخشبية على الانقراض لاستبدالها بسفن تصنع من الفايبر كلاس والحديد سواء كانت سفن النزهة العائلية، سفن صيد السمك، السفن العابرة للمحيطات، وأصبحت السفن الخشبية تستخدم كتذكار في الميادين العامة. كما يستخدم بعضها للنزهة وبعضها حول إلى معلم سياحي يخدم العديد من الأغراض، كما استخدم بعضها مطاعم ثابتة على الساحل والبعض الآخر يستخدم للتنقل بين جزر البحرين، حيث يستخدمها السواح خصوصا لزيارة جزر حوار السياحية.

١٠- تجفيف الأسماك:

عرفت هذه الصناعة منذ مئات السنين، حيث يجفف السمك والربيان حينما يزيد العرض والصيد خصوصا في فصلي الصيف والخريف، وكانت مصائد

الأسماك في البحرين غنية جدا بمختلف أنواع الأسماك، وتعتبر هذه الصناعة مشهورة في منطقة الخليج الغنية بالأسماك المختلفة وذات الأحجام المتباينة وتستخدم الأسماك المجففة في الأكلات الشعبية شتاء، حيث يقل صيد السمك ويقل العرض ويكثر الطلب وله نكهة خاصة مع «الأرز» وكذلك الربيان المجفف.

١١- صناعة الصياغة:

وهي صناعة الحلي من الذهب والفضة المطعمة باللؤلؤ والأحجار الكريمة، ومن يمارس هذه الصناعة يسمى «صائغ» وهناك الكثير من الأسر البحرينية تحمل لقب صائغ وجلهم من عائلة وآخرون من مدينتي المنامة والمحرق. وقد عرفت هذه الصناعة منذ مئات السنين، وكان العاملون بها كلهم من «البحارنة»، أما الآن فقد تقلص عدد «البحارنة» العاملين في هذه الصناعة وصار غالبية العاملين فيها من الهنود والباكستانيين. وابتعد البحارنة عن هذه الصناعة. وكان الصاغة يصنعون الحلي للنساء والأطفال وللزواج خصوصا، حيث كانت المرأة حينما تقبل على الزواج تنفق غالبية المهر في شراء الحلي. وكذلك باقي النساء حيث يعتبر شراء الحلي والمجوهرات أحد جوانب الاستثمار وتنمية الثروة كما يعد وسيلة للادخار وعدم إنفاق النقود فيما لا يعود بالمنفعة كالإسراف في شراء الملابس.

١٢- صناعة العطور:

يسمى من يعمل بها «عطار» ويعمل بها الرجال والنساء وتحمل بعض الأسر لقب هذه الصناعة ويصنع البخور والعطور بأنواعها. حيث تستورد المواد الخام لهذه الصناعة من الهند ودول الشرق الأقصى مثل إندونيسيا وماليزيا والفلبين وبورما وغيرها من هذه الدول، ويقبل على شرائها الجنسان من الرجال والنساء على الرغم من منافسة العطور الحديثة المستوردة من الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ودول غرب أوروبا خصوصا في الأعياد والزواج والأعياد الدينية. وتطورت صناعة العطور، إلا أن العمالة الوافدة من آسيا أصبحت تنافس الصناع المحليين.

١٣- صناعة النسيج:

تقوم هذه الصناعة في قريتي الدراز وبني جمرة، ويتم صناعة الملابس النسائية بأنواعها والرجالية خصوصا الإزار، وقد عرفت هذه الصناعة في البحرين منذ مئات السنين، إلا أنها أوشكت على الاندثار لانقراض الصناع وعدم توريث الآباء والأجداد أبنائهم وأحفادهم لهذه الصناعة من جانب، وعدم تشجيع الدولة لمثل هذه الصناعة من جانب آخر.

١٤- صناعة صقل وخرق اللؤلؤ:

برزت هذه الصناعة فى البحرين خلال ازدهار صيد وتجارة اللؤلؤ فى العالم وكان الطواويش وهم تجار اللؤلؤ الذين يقومون بصقل وخرم اللؤلؤ وعمل قلائد منه تباع لتجار الذهب والمجوهرات كعقود. أو تباع بشكل غير معقود، حيث تطعم التراقى والأساور والقلائد الذهبية باللؤلؤ المختلف الأحجام. ومن المعروف أن لآلئ البحرين هى الأجود والأنقى بالعالم، وكان التجار فى الهند وأوروبا يقبلون على شرائها باقتناع لثقتهم فى جودتها وإقبال الناس الأثرياء على شرائها.

وقد اندثرت هذه الصناعة مع تراجع وانهيار أسعار اللؤلؤ الطبيعى بسبب ظهور اللؤلؤ الياباني المستزرع وكساد تجارة اللؤلؤ الطبيعى فى العالم منذ عام ١٩٢٩م.

١٥- صناعة الفخار:

عرفت هذه الصناعة فى قرية عالى منذ آلاف السنين منذ عهد الفينيقيين ويعود السبب فى ذلك إلى توافر المواد الخام اللازمة لهذه الصناعة التى حظى على معرفتها أكثر من خمسة آلاف سنة. وتصنع من الفخار أوانى الطبخ والشرب وتخزين الماء والأرز والمزهريات والأحواض الصغيرة والكبيرة. ولاتزال هذه الصناعة قائمة ويعمل بها «البحارنة» من قرية عالى فقط، وعلى الرغم من تطورها إلا أنها لاتزال تتقدم بشكل بطيء لغياب دعم القطاعين الحكومى والخاص، علما بأن منتجاتها تحظى بإقبال كبير فى الوقت الحاضر فى السوق المحلية والخليجية.

١٦- صناعة الجص:

بدأت هذه الصناعة قبل خمسة آلاف سنة تقريبا فى قرية عالى واقتصر ظهور هذه الصناعة على قرية عالى لوجود المادة الخام فيها. والمتمثلة فى الأحجار الجيرية التى تحرق وتحول إلى مادة ترابية تستخدم فى البناء حيث لم يكن يعرف الأسمنت إلا حديثا فى منتصف القرن العشرين. كما تستخدم مادة الجص للزخرفة والنقوش ومبانى المساجد والحسينيات والقصور وبيوت الأثرياء الضخمة وكل ذلك يدل على الترف وبذخ العيش.

١٧- صناعة أدوات صيد السمك:

عرفت هذه الصناعة فى البحرين منذ استقرار الإنسان على أرض جزيرة البحرين، وفى باقى منطقة الخليج حيث تمكن الإنسان فى هذه المنطقة من التوصل لصيد السمك وصناعة أدوات الصيد كالأقفاص «الكراكير» من جريد

النخيل وأسلاك الألمونيوم الرفيعة بمختلف الأحجام. ويحدد سعرها بحسب حجمها، كما يستخدم لصيد السمك الشباك والسنارة «الميدار»، والحضرة، والمسكر ولاتزال هذه الأدوات تستخدم لصيد السمك وتصنع محليا.

١٨- صناعة الأدوية:

تصنع من الأعشاب السائلة والعشبية، وعرفت هذه الصناعة فى البحرين منذ مئات السنين، واقتصرت هذه الصناعة ولاتزال على «البحارنة» من الرجال.

وتشهد هذه الصناعة ازدهارا ملحوظا فى الوقت الحاضر، حيث تطورت هذه الصناعة بشكل ملحوظ على الرغم من غياب الدعم من القطاعين العام والخاص. إلا أن هناك جهودا فردية لدعم هذه الصناعة، وصانعو الأدوية الشعبية هم عبارة عن صيادلة شعبيين. ومن هذه الأدوية التى يقومون بتركيبها هى السائلة مثل: ماء اللفاح، ماء الحلوة، ماء الحندبان، ماء المرقدوش، ماء الزموتة، ماء النعناع. وكلها تباع فى مجمعات المواد الغذائية الحديثة وفى الأسواق الشعبية لعلاج الكبار والصغار، كما تباع الأدوية العشبية وتعمل خلطات منها لعلاج مختلف الأمراض، وتباع لدى الحواويج فى الأسواق الشعبية. وهناك إقبال كبير على شرائها لأنها مأمونة الجانب ولا يتوقع لها مضاعفات ضارة من استخدامها إذا لم تكن لها فائدة ومن الأدوية العشبية، البليلج، المر، الصبر، الزعتر، الزعفران.

١٩- الحدادة:

قديمة هذه الصناعة قدم استقرار الإنسان فى البحرين ويسمى من يمارسها حدادا، وهناك من الأسر تحمل هذا اللقب، أما المنتجات الصناعية للحداد فتشمل الأدوات اللازمة لصناعة السفن كالبارواة، المسامير وسكاكين فتح المحار والسكاكين مختلفة الأحجام، والأدوات اللازمة للفلاحة كالفأس والمحراث والمحش والمنجل كما يصنع الحداد الأدوات اللازمة للبناء وأدوات الجزار، وكذلك بعض قطع غيار السيارات، والأبواب الحديدية وكذلك النوافذ، وموقع ورشة الحدادة حاليا فى مدينة المنامة بالقرب من دوار اللؤلؤة.

٢٠- التناكة:

وهى قديمة قدم استقرار الإنسان فى البحرين ويسمى العامل بها تناك. وهناك مجموعة من الأسر تحمل لقب هذه الصناعة. ومن ضمن منتجاتها صناعة المناقل - جمع منقلة - وتستخدم للشاى والقهوة والتدفئة وشوى اللحم، وخزانات الماء والغسيل والأغذية والعديد من الأوانى الخاصة بالمنازل. وموقع ورشتها خلف ورشة الحدادة.

الأهمية الاقتصادية للحرف والصناعات التقليدية وعوامل ازدهارها:

تكمن الأهمية الاقتصادية للحرف والصناعات التي تم عرضها ومناقشتها فيما وفرته من فرص عمل لجل سكان البحرين خصوصا قبل الحقبة النفطية، وأصبح السكان يعتمدون على أنفسهم من حيث العمالة اللازمة لهذه الحرف والصناعات من جانب دون حاجة لاستيراد عمالة أجنبية، ولم تكن هناك بطالة بين أبناء البحرين حيث كانت هذه الحرف والصناعات المحلية توفر الحاجات اللازمة للمعيشة من غذاء وكساء ومسكن ودواء فكان هناك اعتزاز بالهوية الوطنية في الاعتماد على النفس من جانب وإنتاج مستلزمات الحياة من جانب آخر. ويقول الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - في هذا الصدد: «حرفة في اليد أمان من الفقر».

كذلك فقد مثلت تلك الحرف والصناعات أحد أعمدة الاقتصاد الوطني قبل الحقبة النفطية وازدهرت تلك الحرف والصناعات وأصبحت تصدر للخارج سواء كان في منطقة الخليج أو خارجها، أما العوامل التي أدت لازدهارها فمنها:

١- وجود الخبرات المحلية ذات الأجور الرخيصة وتوريث الحرف والصناعات من السلف للخلف بسهولة ويسر، فكانت الأيدي العاملة اللازمة لتلك الحرف والصناعات متوافرة ولم يوجد نقص بها.

٢- توافر المواد الخام اللازمة للصناعات وتوافر الأعمال اللازمة للحرفيين وطلب السوق المستمر لمنتجاتهم.

٣- كانت البحرين تمثل سوقا مركزية لبيع وشراء اللؤلؤ من جانب، كما كانت مركزا تجاريا وسياحيا لأبناء الخليج قبل الحقبة النفطية من جانب آخر لكثرة المساحات الخضراء والبساتين الناجمة عن توافر ينابيع المياه العذبة في البر والبحر، وكذلك توافر العيون والآبار الارتوازية، حيث كانت قبلة لسواح الخليج، مما ساهم في ازدهار أسواقها. فكان مركزها التجاري والسياحي حتى ستينيات القرن الماضي يضاهي مركز إمارة دبي بدولة الإمارات العربية المتحدة اليوم، ولذلك كان الكتاب الغربيون على حق حينما يطلقون عليها:

The Paradise of Arab Peninsula جنة شبه الجزيرة العربية.

٤- وفرة رأس المال اللازمة، مما ساعد على ازدهار تلك الحرف والصناعات.

٥- كثرة الطلب على المنتجات المحلية محليا وخليجيا واقتصار إنتاج تلك المنتجات على البحرين وبأسعار في متناول الجميع محليا وخليجيا.

٦- غياب المنافسة الأجنبية للمنتج المحلي وكون المنتج يمثل الهوية البحرانية

العوامل التي أدت إلى تقلص الحرف والصناعات التقليدية:

هناك مجموعة من العوامل ساهمت في تقلص، بل واندثار بعض الحرف والصناعات التقليدية أهمها:

١- بالنسبة لصيد وتجارة اللؤلؤ الطبيعي، هناك عاملان ساهما في اندثار هذه الحرفة وتراجعها وهما:

الأول: ظهور اللؤلؤ المستزرع في اليابان بأسعار أرخص بكثير من أسعار اللؤلؤ الطبيعي، مما أدى إلى كساد تجارة اللؤلؤ ومن ثم العزوف عن صيده.

الثاني: اكتشاف النفط في البحرين في ١ يونية ١٩٣٢م، والبدء في إنتاجه في ١ يونية ١٩٣٤م وإقبال عمال اللؤلؤ وعمال باقي الحرف والصناعات على الالتحاق بشركة النفط بابكو بحثا عن الأجر الأفضل والجهد غير المضني الذي تتطلبه باقي الحرف والصناعات التقليدية.

٢- ظهور الصناعات الحديثة المصاحبة للنفط كشركة ألمنيوم البحرين وشركة البتروكيماويات، وشركة صناعة الحديد والصلب والصناعات الخفيفة كالمواد الغذائية والورق والبلاستيك والفايبركلاس والأثاث المحلي والملابس وغيرها، مما ساهم في استقطاب الكثير من العمالة المحلية التي تسربت من الصناعات والحرف التقليدية ضاربة عرض الحائط بالموروث الاقتصادي للوطن، حيث أصبحت تلك الحرف والصناعات لا توفر لقمة العيش اللازمة التي تحفظ كرامة الإنسان.

٣- وجود المنتج الأجنبي المنافس للصناعات المحلية وغياب الدعم اللازم من القطاعين العام والخاص نظرا لغياب خطة وتصور للتخطيط الاقتصادي للبلاد متجاهلين جدوى تشجيع الموروث الاقتصادي وأهمية ذلك بصفته يمثل حقبة من تاريخ البحرين، وأصبح هذا المنتج ضرورة ملحة لتوفيره لسوق السياحة التي بدأت تزدهر في الخليج، وأصبحت هذه الحرف والصناعات التقليدية تمثل جزءا من البنية التحتية اللازمة للسياحة التي تعتبر أحد الموارد الاقتصادية في دول مجلس التعاون التي تعتمد أكثر على دخل النفط الذي سينضب يوما ما ليس بعيدا.

٤- عدم امتلاك أصحاب الحرف والصناعات المال اللازم لتطوير حرفهم وصناعاتهم، وعدم وجود بنوك لتمويلهم وغياب الوعي حتى بين مؤسسات المجتمع المدني لمطالبة القطاعين العام والخاص لدعمهم والدفاع عنهم إذ إن ذلك سيساهم في توفير فرص عمل لهؤلاء ويخفف من حدة البطالة في البلاد.

الخاتمة:

من خلال العرض والتحليل للدراسة التى نحن بصددها يتبين أن هذا الكم الكبير من الحرف والصناعات التى عرفها ومارسها العديد من البحارنة وتوارثوها عبر الأجيال. ومن خلال توفير العديد من فرص العمل لأبناء مجتمع البحرين عبر مئات السنين مؤشرا واضحا على تميز المجتمع بالإبداع والاعتماد على النفس فى توفير مستلزمات حياته مستغلا الموارد البيئية لتطويعها فى توفير حاجاته المعيشية من جانب ولقمة العيش من جانب آخر. وفى خضم اجتياح طوفان العولمة لدول العالم خصوصا دول الجنوب، أو ما يعبر عنه بدول العالم الثالث فإن العديد من دول العالم يحرص على التشبث بكل ما يمت إلى الهوية بصلة سواء كانت المنشآت العمرانية أو الأسواق التقليدية وكذلك الموروثات الثقافية والاقتصادية من منطلق التمسك بالجذور والهوية. ويقترح الباحث فى هذا الصدد على الجهات المعنية فى البحرين خصوصا السلطات الثلاث التشريعية، التنفيذية والإعلامية كلا فيما يخصه القيام بما يأتي:

١- سن القوانين التى تضمن استمرار وتطوير الحرف والصناعات التقليدية ليمارسها أبناء البحرين لهدفين: توفير فرص عمل لأبناء البحرين من خلال هذه الحرف والصناعات المحلية التقليدية من جانب، ولديمومة وجودها عبر الأجيال من جانب آخر حتى لا تندثر.

٢- حماية هذه المنتجات من منافسة الواردات لضمان تسويقها محليا وخليجيا وعالميا.

٣- خلق فرص تشجيعية للاستثمار فيما يتعلق بإحياء هذه الحرف والصناعات وتوفير قروض بنكية لأصحاب هذه الحرف والصناعات حتى يمكن الارتقاء بمستوى إنتاجها كما وكيفا.

٤- على السلطة الرابعة – المفترضة – والمتمثلة فى وسائل الإعلام المحلية أن تشيع الوعى بين المواطنين للإقبال على شراء المنتج المحلى من هذه الصناعات التقليدية لذويهم وحثهم على تشجيعها، وحث الذين يحترفونها على توريث الحرف والصناعات لذويهم وحث الشبيبة للإقبال على احتراف تلك الحرف والصناعات التقليدية من باب التمسك بالموروث الاقتصادى الوطنى.

٥- إدخال هذه الحرف والصناعات ضمن الأنشطة الصيفية وتدريسها كهوايات للطلبة فى مراحل التعليم العام الإعدادى والثانوى لتحفظها الأجيال وتمارسها داخل المدرسة. ويمكن بيع إنتاج الطلبة فى المعارض المدرسية لتحفيز الطلبة على إتقان تلك الحرف وممارستها فى المستقبل كهوايات دائمة ومنتجة.

وبتنفيذ هذه المقترحات يمكن أن نعيد نبض الحياة من جديد لأحد الشرايين الاقتصادية الذى كان موضع افتخار للسلف ونكون بذلك قد حافظنا على التواصل بين الأجيال اجتماعيا واقتصاديا.

الهوامش:

١- Durand, Captian; Extracts form, Report on the Mines and Antiquities of Bahrain p. 191; also, Niebuhr, M. Travels Through Arabia and other Countries in the East in two volumes, Vol. II, Edinburgh, Printed for R.Morison and Son, Booksellers, Perth, G. Mudie, Edinburgh, and T.Vernar, Birchin Lane, 1792, p 152.

٢- مقابلة مع السيد/ مجيد سلمان داود «فلاح» يوم الجمعة ٤ أغسطس ٢٠٠٦م

٣- نفسه

٤- مقابلة مع السيد/ حسن بن عبدالرسول بن محمد النوخذا «أحد تجار اللؤلؤ البحارنة» يوم الخميس ١٠ أغسطس ٢٠٠٦م.

٥- نفسه

٦- مقابلة مع السيد/ على بن أحمد الحايكى يوم الخميس ١٠ أغسطس ٢٠٠٦م.

٧- نفسه

٨- Kolus, Ludvik: Inscriptions Arabes Des De Bahrain. Contributional. «Histoire De Bahrain entre les XIe et XVII Siecles. (Ve - XIe De l Hegire)» Librairie Orientaliste Paul Geuthner S. A. 13, Rue Varin, 75006 Paris, p. 18.;

ليفا اليلوشى، إبراهيم عطا الله : بلاد البحرين فى العصر العباسى الثانى، المجمع الثقافى، أبوظبى، دولة الإمارات العربية المتحدة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م. ص ١٥٩- ١٦٤

٩- مقابلة مع السيد/ على بن أحمد الحاكي يوم الخميس ١٠ أغسطس ٢٠٠٦م

١٠- مقابلة مع السيد جواد بن السيد عبدالله يوم الخميس ٣ أغسطس ٢٠٠٦م.

١١- نفسه

١٢- نفسه

١٣- نفسه

١٤- نفسه

١٥- نفسه

١٦- نفسه

١٧- نفسه

١٨- مقابلة مع السيد حسن بن عبدالرسول بن محمد النوخذا «أحد تجار اللؤلؤ البحارنة» يوم الخميس ١٠ أغسطس ٢٠٠٦م.

الملاحق

الملحق الأول: مجموعة من الصور للحرف التقليدية في مملكة البحرين.

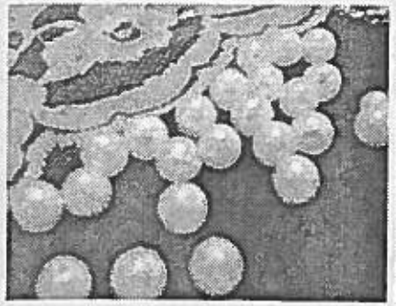

حرفة صقل وخرق اللؤلؤ

الحدادة

الفلاحة

صناعة النعل

الحلاق

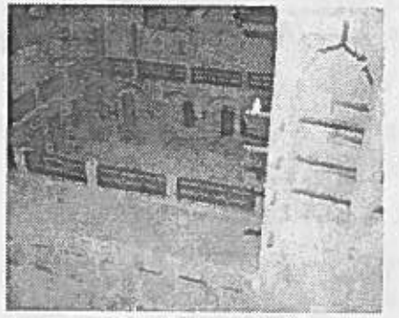

العمارة التقليدية

الحرف والصناعات التقليدية في دول مجلس التعاون الخليجي وأهميتها الاقتصادية: البحرين نموذجا

خض اللبن

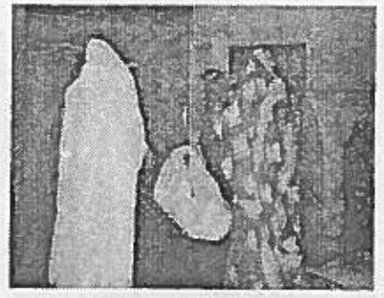

تجهيز العروس

الخياطة الرجالية

خض اللبن

تطريز الملابس النسائية (الكورار)

المراخة

السقاية

الحواج

الملابس النسائية المطرزة

الملحق الثانى : مجموعة من الصور للصناعات التقليدية فى مملكة البحرين

صناعة السلال

صناعة الفخار

صناعة النسيج

صناعة الأثاث

صناعة الحلى

صناعة الأثاث

د/ مرفت أحمد عطا الله (*)

جهود الخديو إسماعيل في تنمية الموارد الاقتصادية وتنشيط التجارة المشروعة في جنوب السودان

مقدمة

كان من أعز أماني محمد علي (١٨٠٥-١٨٤٨) ... أن ينمي علاقاته التجارية مع الأقاليم الواقعة إلى الجنوب من ممتلكاته، فهي من القدرة على الإنتاج بحيث لا تدع مجالا للشك في أن التجارة معها سوف تنمو نموا عظيما في ظل نظام يحسن اختياره لهذه الغاية.

فمما لا شك فيه أن السودان بموارده الكبيرة والقابلة للتنمية كان من أهم طموحات محمد علي الاقتصادية. ففي السودان- أيام محمد علي- كانت توجد ثلاثة مراكز تجارية كبرى هي الخرطوم، ودارفور، وكردفان.

فإذا تناولنا المركز الأول وهو الخرطوم، نجد أن به تتجمع متاجر النيلين الأزرق والأبيض وفروعهما، والجزء الشرقي من كردفان، وتشمل تلك المتاجر العبيد، والذرة، والصمغ، والعاج، وريش النعام، وجلود أفراس النهر، وقرون الخرتيت، والشمع، والعسل، والملح، والتمر هندي، والسنامكي، والمسك، والنيلة. وتصل تلك التجارة إلى مصر عن طريقين: وادي النيل، والبحر الأحمر بطريق بربر- سواكن.

أما مركز دارفور، فعنه تجلب القوافل القادمة من دارفور وغرب كردفان إلى أسيوط - عبر درب الأربعين- العاج، والتمر هندي، والقرب المصنوعة من جلد الجمال والجاموس، وبعض جلود النمور، والصمغ، والشثم، والكرابيج، وريش النعام، وملح النطرون، والنبة. لكن تجارتها الرئيسية تتمثل في العبيد، حيث يأتي سنويا من دارفور إلى

(*) مدرس التاريخ الحديث والمعاصر - كلية التربية - جامعة الإسكندرية

مصر ما بين خمسة إلى ستة آلاف من العبيد. ويقدر حجم هذه المتاجر؟ بمائة ألف قنطار سنويا، إلا أن الطريق الأول - طريق وادي النيل - كان يفوقها من حيث عدد القوافل والرجال الذين يعملون في تلك المتاجر.

إلا أن تلك التجارة لم تكن سوى ستارا لتجارة أخرى شائنة، هي تجارة الرقيق، وقد قامت عدة محاولات من جانب محمد علي وسعيد باشا (١٨٥٤-١٨٦٣) للقضاء على تلك التجارة الشائنة، إلا أن هذه المحاولات قد فشلت، فإلغاء تجارة الرقيق لا يتم بجرة قلم. ومن هنا زادت الغزوات لصيد العبيد، وما اقترن بها من أعمال وحشية تقشعر لها الأبدان. فأصبح الأهالي بحكم ما يشعرون به من اضطراب الأمن لا يميلون إلى الاعتماد على استثمار أراضيهم، والاشتغال بالصناعات الشريفة.

ومن ثم لم تكن توجد وسيلة لإلغاء تجارة الرقيق أجدى من قيام تجارة مشروعة. وإنشاء محطات تجارية في أماكن ذات موقع ملائم على النيل فهذا خليق بأن يؤدي لتلاشي تجارة الرقيق من تلقاء نفسها وأن تحل محلها تجارة مشروعة في ظل السلام. و قد تحقق ذلك في عهد إسماعيل باشا (١٨٦٣ - ١٨٧٩).

سار الخديو إسماعيل على سياسة تدعيم النفوذ المصري في السودان، وإنشاء دولة وادي النيل التي تمتد من منبعه إلى مصبه(١). وتتلخص سياسة الخديو إزاء السودان في النقاط الآتية:

أولا: تدعيم نظام الحكم والإدارة الداخلية بالسودان.

ثانيا: وضع سياسة خاصة للسيطرة على سواحل البحر الأحمر الغربية وسواحل شرق أفريقيا.

ثالثا: التوسع في ضم أقاليم جديدة، ففي غرب السودان ضم إقليم دارفور عام ١٨٧٤، وفي الشرق استولى على سواكن ومصوع عام ١٨٦٦، وزيلع وبربرة وهرر عام ١٨٧٥وفي الجنوب الوصول بحدود السودان إلى منطقة منابع النيل.

رابعا: القضاء على تجارة الرقيق من تلقاء نفسها نتيجة التوسع في السودان، فحركة التوسع والفتح أملتها اعتبارات تتعلق بالقضاء على تلك التجارة الشائنة.

خامسا: حركة الكشوف الجغرافية، وما تهدف إليه من استغلال موارد البلاد وفتحها أمام التجارة المشروعة(٢).

وفي إطار هذه الدراسة سوف أتناول النقطتين الثالثة خاصة الوصول بحدود السودان جنوبا إلى منطقة منابع النيل، والخامسة، بالبحث والتقصي.

التوسع جنوبا: الوصول بحدود السودان إلى منطقة منابع النيل

كان أقصى نقطة وصل إليها الحكم المصري في جنوب السودان في بداية عهد إسماعيل هي فاشودة. أما الأقاليم الواقعة جنوبها إلى بحيرات خط الاستواء، فكانت خارجة عن سلطانها. حيث تنتشر فيها عصابات مسلحة يستخدمها النخاسون. ليجوبوا أرجاءها. فيبثون الفزع أينما ساروا ابتغاء الحصول على متاجرهم البشرية. فكانت هذه المنطقة الشاسعة في حاجة إلى حكومة منظمة. حتى تستطيع تلك المنطقة أن تأخذ حظها في استغلال الثروة الطبيعية العظيمة التي في أرضها والعمل على تنميتها(٣). من أجل هذا استخدم الخديو إسماعيل السير صمويل بيكر(٤) Samuel Baker للقيام بهذه المهمة.

ففي عام ١٨٦٩ أرسل الخديو حملتين إلى هذه الجهات: الأولى على رأسها صمويل بيكر إلى أعالي النيل، والثانية بقيادة الحاج محمد البلالي إلى بحر الغزال(٥).

وحرص الخديو إسماعيل على أن يوضح لكل من بيكر والبلالي طبيعة مهمتهما، فكانت تعليماته لبيكر تنص على أن «تؤلف حملة لإخضاع النواحي الواقعة في جنوب غندوكورو Gondokoro لسلطتنا، ولإبطال النخاسة وإيجاد تجارة منظمة. ولفتح طرق الملاحة مع البحيرات الكبرى الواقعة في خط الاستواء، ولإقامة خط من النقط العسكرية ومستودعات للتجارة يبعد بعضها عن بعض ثلاثة أيام للماشي»(٦). وراح يؤكد لبيكر أن الحملة ما هي إلا « بعثة Mission أساسا لبذر بذور الحضارة في أفريقيا الوسطى»، ولتحقيق «السلام والتقدم Peace and Progress»(٧). أي أن الحملة مهمتها الأولى حضارية وليست حربية.

وفيما يتعلق بحملة بحر الغزال فكانت أوامر الخديو مشددة بضرورة «معاملة الأهالي بالرفق واللين، وعدم فرض الضرائب الباهظة التي تثقل كاهل السكان، والعمل على استمالتهم وجلب محبتهم نحو الحكومة»(٨).

وفيما يتعلق بحملة بيكر فقد كان بيكر يهدف إلى تحقيق عدة مشروعات لبلوغ أهدافه منها:

أولا: أنه اكتشف أن السفن البخارية تستطيع السير إلى مسافة اثني عشر ميلا بالتقريب جنوب غندوكورو حيث تعترضها شلالات فولا Fola التي تسد نهر النيل ويتعذر المرور منها حتى محطة دوفليه Duffli. ولذلك رأى ضرورة إنشاء طريق محازي للمنطقة التي يتعذر على السفن السير فيها، والتي يبلغ مداها خمسة وسبعين ميلا تقريبا(٩) وذلك لنقل البواخر مفككة، حيث يعاد تركيبها في

دوفليه للقيام بالخدمة في النيل بين محطة دوفليه وبحيرة ألبرت Albert Lake وبداخلها كذلك. ولكن هذا المشروع لم يتحقق إلا في أيام جوردون C.G.Gordon.

كذلك رأى بيكر إنشاء ثماني محطات مركزية يزرع حول كل محطة ألف فدان من القطن، فيكون المجموع الكلي ثمانية آلاف فدان. لا تكلف الحكومة شيئا حيث سيقوم على زراعتها الجنود وتدر على الحكومة إيرادا كبيرا. ويتوقف رخاء تلك البلاد على إدارة حازمة[١٠]. وقد أتى هذا المشروع الذي غرس بذرته بيكر ثماره بعد انتهاء مهمته في أبريل ١٨٧٣.

ولكن بيكر لم يكن يفكر إلا في العنف ووسائله[١١]. ويعدد الضابط الإيطالي روميولو جيسي[١٢] Romolo Gessi ما قام به بيكر في هذا الصدد. أذكر منه على سبيل المثال ما ناله أهالي لاردو Lardo على يد بيكر، حيث «أنزلت لاردو ويلات كثيرة أيام ... بيكر منها أنه هبط ذات يوم أرض البلدة ومعه ثلاثمائة جندي وفاجأ الأهالي، واستولى على اثني عشر ألف رأس من البقر، وحمل معه في الوقت نفسه كل ما لديهم من محصول الذرة. ومنذ ذلك الوقت ازداد فقر البلدة التي تحتاج إلى سنوات عديدة كي تستطيع استعادة ما كان لديها من بقر وهو المصدر الوحيد لثروتها»[١٣].

بل إن جوردون نفسه تعجب كثيرا، أثناء وجوده بالرجاف Rageef في أكتوبر ١٨٧٤ لماذا كان بيكر يشن الغارات للحصول على المواشي من قرية الرجاف هذه التي يعيش فيها (جوردون) هادئ وآمن والزنوج على أتم الاستعداد لإجابة مطالبه[١٤].

وقد وجدنا قبائل الشولي Shooli في منطقة فاتيكو Fatiko تؤكد لبيكر أن «البلاد كلها تنضم إليه، وتجتمع حول حكومة صالحة في مقابل إقامة العدل وحمايتهم من العدوان»[١٥].

وإذا أمعنا النظر فيما ارتكبه بيكر من شدة نجد أن له أسبابه ومبرراته وحدوده أيضا. يتضح ذلك مما يلي:

إن البواخر التي تم تجهيزها للحملة والتي تراوحت حمولتها بين ثمانية وثلاثين طنا، و مائتين وواحد وخمسين طنا، فضلا عن المراكب الحديدية التي بلغت حمولتها عشرة أطنان، والآلات اللازمة لقطع ونشر الأخشاب. كل ذلك كان يتحتم نقله من الإسكندرية إلى غندوكورو على ظهور الجمال، وعلى متون السفن، ومن بين ذلك مسافة بضع مئات من الأميال في فيافي بلاد النوبة المحرقة. وعندما وصلت تلك القوات إلى الخرطوم، بذل بيكر جهودا مضنية لاستئجار النوتية (الملاحين) اللازمين لتسيير السفن، فتعذر عليه ذلك لأن

جميع الملاحين تقريبا كانوا قد تركوا الخرطوم، حتى لا يشتركوا في الحملة، وكان ذلك بإيعاز من النخاسين الذين عملوا على وضع العقبات في سبيل الحملة منذ البداية، فدفعوا الأهالي إلى قطع كل صلة لهم بها. ولذلك اضطر بيكر إلى جمع النوتية اللازمين بالقوة. غير أن هؤلاء كانوا من أردأ العناصر[١٦].

وعندما وصلت الحملة إلى غندوكورو، أخبر أبو السعود العقاد - وكيل شركة العقاد لتجارة الرقيق - اللورون Alloron رئيس قبيلة الباريين Bors الضاربة حول غندوكورو، بوصول الحملة وأفهمه أنها إذا لاقت صعوبات كبيرة فلا تلبث أن ترتد على أعقابها إلى الخرطوم. ولذا عندما طلب بيكر من اللورون مواشي وحبوب لجيشه ووعده بأن يدفع له فيها ثمنا غاليا، موضحا له وللأهالي أن رجاله قد عضهم الجوع بنابه، قوبلت مطالبه السلمية بوابل من اللعنات والشتائم، عندئذ أدرك بيكر أن السياسة التي ينحوها الأهالي ضده تهدف إلى تجويع الجيش. بل الأكثر من ذلك، نظرا لأن الباريين لا يجرؤون على مهاجمة الحملة وجها لوجه. فكانوا يلجأون إلى إزعاج الجنود ليلا بصيحاتهم المزعجة ليحطموا أعصابهم من عدم النوم. ومما زاد في حرج الموقف أن وقع كثير من الجنود بين براثن الحمى والدوسنتاريا. وهنا أعلن بيكر ضرورة استعمال القوة، ولكنه في الوقت نفسه أمر جنوده بأنه «في حالة حدوث قتال أحظر عليكم حظرا باتا أن تأسروا النساء والأولاد سواء كانوا ذكورا أم إناثا. وكل من يخالف ذلك ... يحكم عليه بالإعدام»[١٧].

وفي أثناء وجود بيكر وقواته في إقليم أونيورو Unyoro في يونيه ١٨٧٢، لم يكن لدى الجند شئ من الزاد وانقطع ورود المؤونة بالرغم من تكرار الطلب وكثرة الوعود. وفي النهاية ورد لهم ست جرات من شراب الموز، وبعض الغلال. واتضح أن الشراب كان ممزوجا بالسم وكل من شرب منه أصابه المرض. وما كاد فجر اليوم التالي يلوح حتى هاجم الأهالي الجنود. ومن باب مقابلة الشر بالشر أمر بيكر بحرق مدينة ماسندي Masindi عاصمة الإقليم. وفي ظرف ساعة من الزمان أضحت أثرا بعد عين[١٨].

أضف لذلك أنه أثناء ذهاب وإياب الجنود بين المحطات كانوا يتعرضون لسلسلة من الكمائن، فضلا عن عدم انقطاع الأمطار لفترات طويلة. حتى كانت فرائص جميع الرجال ترتعد من البرد ولم يكن لدى الجيش ما يصلح للتدثر به. ورغم ذلك فقد أدى جميع الضباط والعساكر واجبهم وأبدوا كثيرا من الشجاعة ورباطة الجأش. وليس لكائن أيا كان أن يقوم برحلة مداها مائة وثلاثين كيلو مترا محملا بأحمال ثقيلة وعليه أن يقاتل فوق ذلك كل يوم[١٩].

والحقيقة أنه بعد سفر أبي السعود للقاهرة ، قدم عدد كبير من صيادي الرقيق إلى بيكر ، وقيدوا أسماءهم ليعملوا في الجندية تحت راية الحكومة. وجاءته الأهالي طائعين ليقدموا ضريبة الغلال التي فرضت عليهم. وحتى اللورون صار من أخلص الرجال للحكومة المصرية وألقى بخطئه وألقى الذنب على أبي السعود وقال أنه هو الذي حرضه على القيام في وجه الحكومة.

وأرسل بيكر في ٣١ديسمبر ١٨٧٢يخبر الخديو: «أتى آخر العام ونحن بحمد الله متمتعون بسلم تام في هذا البلد ، والحالة تبشر بمستقبل زاهر»(٢٠).

وعلى أية حال لم تحقق حملة بيكر ما كان معقودا عليها من آمال، إذ لا يعدو ما قامت به سوى إنشاء ثلاث نقط عسكرية هي: غندوكورو ، وفاتيكو ، وفويرا Foweira . ولم يكن الطريق بينها مأمونا ولا معبدا(٢١).

أما فيما يتعلق بحملة البلالي على بحر الغزال ، فقد فشلت فشلا ذريعا أمام قوات الزبير رحمت - وهو من أغنى وأقوى تجار الرقيق هناك - على أن هذا الأخير بادر بالدخول في طاعة الحكومة المصرية فأقره الخديو على مديرية بحر الغزال ، وأخلص الزبير في خدمة الحكومة حتى أنه لعب دورا كبيرا في ضم دارفور عام ١٨٧٤(٢٢).

بعد انتهاء مهمة صموئيل بيكر عين الخديو إسماعيل تشارلز جورج جوردون ، وهو من سلاح المهندسين الملكي البريطاني ، بتوجيه من الحكومة البريطانية - مديرا عاما لولايات خط الاستواء(٢٣) في ١٨٧٤ . على أن يكون مستقلا في حكمها ، وغير خاضع لحكمدارية عموم السودان.

وكانت مهمة جوردون هي استكمال استكشاف أعالي النيل ومنطقة البحيرات وإيجاد نظم مستقرة بها ، وعمل التسهيلات لإقامة تجارة مشروعة(٢٤)، «وأن يجعل نصب عينيه إقامة خط من النقط العسكرية خلال المديريات التابعة له ، يربطها مع بعضها من طرف إلى آخر ، بحيث تستطيع جميعها أن تراسل الخرطوم مباشرة. ويجب أن يتتبع هذا الخط ضفة النيل ويتمشى معها إلى أقصى حد ممكن»(٢٥).

والحقيقة أن الخديو إسماعيل وجوردون نظرا إلى أفريقيا الوسطى بمنظار واحد ، ورأيا أن سبل المدنية لابد أن يجرف الاسترقاق(٢٦). ويبدو هذا من رسائل جوردون إلى أخته ، حيث يقول لها: «وأرى أنه بفتح تلك البلاد تزول تجارة الرقيق من تلقاء نفسها»(٢٧).

وعلى هذا الأساس كانت أولى النقاط العسكرية التي أقامها جوردون هي محطة سوباط عند فتحة نهر السوباط «لأهميتها في أن تكون همزة وصل بين

العالم المتحضر ومديريات خط الاستواء» ، كما أنه من هذه النقطة سينمكن «مستقبلا من مراقبة تجارة العاج التي تتخذ ستارا لتجارة الرقيق»(٢٨).

انقسمت مديرية خط الاستواء وعاصمتها لادو ، إلى عشرة مراكز ، يحتوي كل مركز على عدة محطات بلغ عددها مائة وسبعين محطة. وهذه المراكز العشرة هي: بور Bohr ، ولادو وكري Kerri ، ودوفليه ، وفويرا ، ولاتوكا Latooka ، وفاديبك ، ورول Rohl ، ومكراكا Makraka ، ومنبتو(٢٩) Monbettu.

أما النقاط العسكرية الرئيسية فهي: محطة سوباط ، ومحطة ناصر Nasr ، وشامبي Chambe ، ومكراكا ، وبور ، ولاتوكا ، ولادو ، ورجاف ، ودوفليه ، وفاتيكو ، وفويرا(٣٠).

ونجحت حملة جوردون في تحقيق أهدافها ، وليس أدل على ذلك من سعادة شريف باشا - ناظر الخارجية - وهو «يعلن نبأ نجاح حملة جوردون. ويقدم شكره لما أبداه جوردون من تعاون مع الخديو في تحقيق هدفه النبيل في بذر بذور الحضارة والزراعة والتجارة في تلك المناطق»(٣١).

تنشيط وتنظيم الملاحة في النيل الأبيض

الحقيقة أن الجهود التي بذلت في سبيل تنشيط التجارة النيلية المشروعة ، وما يسير في ركابها من الحضارة ، قد اشترك فيها الجميع. فقد قام إسماعيل باشا أيوب حكمدار عام السودان (١٨٧٣- ١٨٧٧) بإزالة السدود النباتية الكثيفة التي اعترضت الملاحة في النيل الأبيض في الجهات الواقعة جنوب الخرطوم - والتي سبق واعترضت طريق بيكر واضطرته للرجوع إلى التوفيقية - ومن ثم أصبحت الملاحة ميسورة فيما بين الخرطوم وغندوكورو(٣٢).

وفي عام ١٨٧٥أمر جوردون بإنشاء دار صناعة في محطة الدوفليه ، وأمر بحمل باخرتين(٣٣) مفككتين في البر إلى جنوب شلال الفولا ، قرب الدوفليه ، وأعاد تركيبهما هناك ، وأطلق على الكبيرة اسم الخديو ، والصغيرة نيانزا(٣٤) Nyanza وركب جوردون وعساكره الباخرة الخديو وأبحر بها في بحيرة البرت حيث كان الأهالي يقفون على شواطئها معجبين مندهشين من رؤية الوابورات إذ لم يكونوا قد «رأوا السفن البخارية من قبل»(٣٥). ونقلت الباخرتان بين الدوفليه وبحيرة البرت إلى قيام الثورة المهدية عام ١٨٨٠.

وقام جوردون بترتيب الوابورات الصغيرة والسفن بين كل شلال وآخر حتى تكون الملاحة متصلة بين لادو والدوفليه تماما ، « وبالجملة صارت

الملاحة بين البحر (النيل) الأبيض وبين بحيرة ألبرت سهلة من كل وجه وأمكن للتجار الأوربيين والسياح التردد بينهما، كما سهل نقل الجنود واللوازم الحربية كلما أريد ذلك»[٣٦].

وفي الوقت نفسه كانت الملاحة في النيل مقننة، لها نظمها وقواعدها. فقد فرض موسى حمدي باشا حكمدار عام السودان (١٨٦٢–١٨٦٥) ، ضريبة تسمى ضريبة الويركو[٣٧] Werko على العمال والحراس والحمالين والبحارة العاملين على مراكب للتجار بالنيل الأبيض.

كما قرر جوردون على كل سائح يسافر من الخرطوم أن يدفع غير أجرة السفر على الباخرة، رسوم عما يأخذه من متاع، ومن المحظور بتاتا اصطحاب رجال مسلحين بدون ترخيص من الخديو. ويشترط على السائح أن يكون أثناء إقامته في المديرية خاضعا لسلطة ضباط الحكومة[٣٨]. ولضمان تنفيذ تلك القواعد كان جوردون يقوم بجولات تفتيشية على البواخر على طول النيل الأبيض[٣٩]. بل وكان يرسل ضباطه في جولات تفتيشية. مثلما أرسل الضابط جيسي للتفتيش على المحطات الموجودة على ضفاف بحر الغزال عام ١٨٧٤[٤٠].

وأصبح لدى الحكومة المصرية بواخر متنوعة في النيل. سبعة منها مخصصة لخدمة حملة جوردون. وتقوم تلك البواخر - ذات الكلفة القليلة - برحلات دورية فيما بين غندوكورو والخرطوم، وتستخدم خشب الغابات الهائلة التي تمتد على طول النيل الأبيض، كوقود[٤١].

الكشوف الجغرافية في جنوب السودان

لم يقتصر نشاط الجيش المصري عند حد الفتوحات فحسب، بل تعدى نشاطه الميدان الحربي إلى ميدان آخر له الصفة العلمية ولا يقل عن الأول أهمية وخطورة، ألا وهو ميدان الكشف الجغرافي.

وقد حرص الخديو إسماعيل على توفير كافة مقومات النجاح لتلك الكشوف، فأصدر أوامره في مايو ١٨٧٥ بإنشاء الجمعية الجغرافية بالقاهرة، وقد تمكنت الجمعية بفضل جهود رئيسها العالم الألماني الدكتور جورج شوانيفورث G.Schweinfurth، ومساعداه محمود باشا الفلكي والجنرال الأمريكي ستون - Stone رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصري – من أن تساهم في حركة الاستكشاف المصرية لجنوب السودان[٤٢]. ومن أهم هذه الكشوف ما يلي:

أولا: رحلة الضابط الأمريكي شاييه لونج Chaillé-Long، بأمر من الخديو

إسماعيل، في الفترة (فبراير ١٨٧٤– أكتوبر ١٨٧٤)، وخلالها أبحر لونج في بحيرة فيكتوريا Victoria Nyanza، وأثبت أن عرضها لا يزيد عن عشرة أميال[٤٣]. كما أثبت صلاحية نيل فيكتوريا للملاحة بين أروندوجاني Urondogani وفويرا. كما كشف عن بحيرة إبراهيم[٤٤].

ثانيا: رحلة جيسي، بأمر من جوردون، في ١٨٧٦ إلى بحيرة ألبرت، ويبلغ أقصى عرض للبحيرة حسب تقديره ستين ميلا[٤٥].

ثالثا: إنشاء خط ملاحي تجاري في بحيرة ألبرت قوامه بعض المراكب البخارية، تحت إشراف جوردون.

رابعا: كشف المنطقة بين النيل الأبيض بالقرب من غندوكورو ومكراكا، قام به لونج تحت إشراف جوردون[٤٦].

خامسا: رحلة الكولونيل الأمريكي ماسون بك Mason Bey، بأمر من جوردون، في عام ١٨٧٧ إلى بحيرة ألبرت، اكتشف خلالها نهرا يخرج من بحيرة ألبرت ويتجه جنوبا ويتصل ببحيرة ادوارد Edward Lake، يسمى نهر السمليكي[٤٧].

سادسا: فكر جوردون في إنشاء طريق مباشر بين منطقة البحيرات وساحل أفريقيا الشرقي، ليتمكن بذلك من فتح تلك الأقاليم للتجارة المشروعة مع العالم الخارجي[٤٨]. وطلب من الخديو إسماعيل أن يأذن له بتنفيذ هذا المشروع في يناير ١٨٧٥. واستقر الرأي على أن تنزل الحملة التي ستكلف بفتح هذا الطريق عند مصب نهر جوبا Guba وتتجه غربا إلى الداخل. وكلف الخديو مكيلوب باشا Mekillop Pasha مدير الموانئ والمنارات المصرية للقيام بهذه المهمة. وكان الخديو يرى أن بلاد الصومال جميعها تؤلف منطقة النفوذ المصري، ويدل على ذلك ما ذكره الخديو من أنه «إذا ما فتحنا طريقا بين البحيرات ومصب الجب فتحناه في أرضنا نحن»[٤٩]. إلا أن الحملة لم تلبث أن تقدمت في نهر جوبا مسافة مائة وخمسين ميلا للوصول إلى منطقة البحيرات، وهنا تلقت أمرا من الخديو بالتوقف والعودة لمصر. والسبب في ذلك راجع لتدخل بريطانيا وتحذيرها للخديو بألا تتقدم قواته أكثر من ذلك[٥٠].

تنمية موارد مديرية خط الاستواء

يتكون نصف مديرية خط الاستواء - الذي يبلغ مسطحه تقريبا مساحة القطر المصري - من أراضي صالحة للزراعة، ويوجد الماء بوفرة في كل أرجاء المديرية. وعلى هذا لا يستلزم الحال أكثر من إيجاد الأيدي العاملة والإدارة الحكيمة لتعمير هذا البلد بالزراعة. وهذا بعينه ما فعله الخديو ورجاله.

ففي عام ١٨٦٣ أسس الخديو إسماعيل شركة تجارية سميت «شركة السودان» وبلغ رأسمالها خمسين مليون فرنك، وكانت تهدف إلى تنمية موارد السودان وإدخال التجارة المشروعة في الأقاليم التي لم تكشف بعد. ثم اتخذت الشركة اسما آخر هو «الشركة المصرية التجارية» The Egyptian Commercial Trading Co.، وقد أسهمت في تأسيسها خمسة بيوت تجارية مصرية، وفتحت أبوابها للممولين من لندن وباريس وفرانكفورت، وأصبح لها برنامج واسع للتبادل التجاري بين مصر والسودان(٥٢).

وقد اتبعت الحكومة المصرية سياسة حكيمة، تمثلت في إمداد الأهالي ببذور القطن وبذور الحاصلات الأخرى مجانا. وقدمت لهم كل الإغراءات من أجل زيادة المحاصيل التجريبية. فزيادة الأرباح تتوقف على زيادة الإنتاج من الحبوب والسكر والقطن(٥٣).

واستفادت الحكومة كثيرا من الموارد الوفيرة للمديرية، حيث تنتج ما يزيد على مائة قنطار من المطاط ستويا. وزيت النخيل الذي كان يصدره التجار الإنجليز لبريطانيا لصناعة الصابون المعطر الجيد. ويبلغ إجمالي إيرادات حكومة مديرية خط الاستواء من: الذرة، والفول السوداني، والسمسم، والفول، والشهد، والزيت، والزيت النباتي، والتبغ، ثمانية آلاف وسبعمائة وخمسين جنيها مصريا. مما يدل على مدى الرخاء في أرجاء مديرية خط الاستواء، وهو ما يفسر السر في استطاعة هذه المديرية سد حاجتها من حاصلاتها مدة ست سنوات عندما انقطعت مواصلاتها مع باقي العالم، بقيام الثورة المهدية(٥٤).

كما يكثر وجود النمر هندي، والقطن في جهات متعددة «ويفضل بعض الدناقلة الذين صنعوا أنوالا، يتعيش في الوقت الحاضر عدد كبير من الناس من نسج الدامور وهو نوع من الأنسجة القطنية ملائم لمناخ السودان»(٥٥). وقد أفاد القطن إفادة عظيمة جدا فيما بعد عندما استدعت الأحوال أن يزاول رجال الحكومة وجنودها أنفسهم صنع ملابسهم عقب انقطاع المواصلات مع الخرطوم(٥٥). كما يأتي الأرز بمحصول وفير، ولا يقل في جودته شيئا عن الأرز الذي يزرع في الوجه البحري بمصر. كما تنتج غابات شجر اللبخ كميات وافرة من الصمغ العربي(٥٦). كما أنشأ أمين بك في سائر محطات المديرية بساتين تحتوي على أشجار البرتقال والليمون والجوافة والعنب. كما يوجد أيضا قصب السكر من النوع الجيد(٥٧).

ويكثر خشب الأبنوس بوفرة في السودان حيث يبيعه الأهالي مقابل مجموعة من الخرز أو قطعة ملابس قطنية. وهو سلعة باهظة الثمن، نظرا لمدى

جودته، فالأبنوس القادم من أمريكا الجنوبية لا يمكن أن يصمد في المقارنة مع أبنوس أفريقيا، وبالرغم من ذلك كان من السلع المتجاهلة. إلى أن نشط جوردون تجارته. وتجني الحكومة من تصديره أرباحا ضخمة ويتضح ذلك مما يلي:

تكلفة نقل كل سفينة- حيث نستطيع أن تحمل خمسين طنا- من بحر الغزال أو شامبي إلى الخرطوم ومنها إلى الإسكندرية هي: ألف وثلاثمائة وعشرة دولارات. يباع الخمسون طنا منه في الإسكندرية مقابل ٣٠ثلاثين دولارا، في حين تباع في بريطانيا وألمانيا مقابل سبعة آلاف وخمسمائة دولار، أي أن الربح الصافي ستة آلاف ومائة وتسعون دولارا. ولم يكن من الصعب الحصول على خمسين شحنة في السنة. وقد حددت الحكومة المصرية لنفسها خمسة عشر دولارا للطن(٥٨).

أما العاج (سن الفيل) فهو من أبرز سلع جنوب السودان، ففي الفترة من ١٨٦٣إلى ١٨٨٠ قام أحد التجار الإنجليز ويدعى مستر ويستندارب Mr.W.Westendarp، وكيل شركة ماير A.Meyer، وهو صاحب أكبر تعاملات تجارية في العاج مع كل البيوت الأوربية، بشراء وبيع أكثر من مليون ناب فيل(٥٩).

أما عن دخل الحكومة من العاج فهو كما يلي:

تورد مديرية خط الاستواء سنويا ألفا وسبعمائة قنطار من العاج، بواقع ثمن القنطار ثلاثون جنيها، أي أن الإجمالي واحد وخمسون ألف جنيها مصريا، وبطرح مبلغ ألف جنيه منه وهو ثمن بضع هدايا للزنوج، يكون الصافي مبلغ خمسين ألف جنيها مصريا(٦٠).

ويصل دخل الحكومة سنويا من ريش النعام ثمانمائة جنيه مصري، ومن جلود النمران مائتي جنيه مصري(٦١).

كما يوجد في مديرية خط الاستواء ثروة حيوانية هائلة من النمران، والحمير، والجمال، ويتم تصريف تلك الأعداد الوفيرة في أسواق الخرطوم وحدها، كما يتم تصديرها إلى مديرية بحر الغزال بأثمان بخسة(٦٢).

هذا وهناك العديد من الصناعات في المديرية، فالحديد متوفر بها وبأنواع جيدة، ويقيم أمهر الحدادين في منبتو ومكراكا، ونال البعض منهم شهرة فائقة في هذه الصناعة(٦٣).

وهناك صناعة استخلاص الزيوت فمنها زيوت طيبة للأكل مثل زيت الفول السوداني، وتوجد نباتات يستخلص منها دهن متجمد يستخدمه الأهالي في

الندليك بسبب رائحته[٦٥]. إلى جانب ذلك نجد صناعات تقطير الحبوب، فيستخرج من الذرة الكحول الفاخر، وقد سبق واستخلص بيكر الكحول من البطاطا[٦٥].

وصناعة دباغة الجلود. فقلما توجد بلاد تضارع أفريقية الوسطى في غناها بمواد الدباغة. وتكفي جلود الثيران التي ينحرها الجيش وحده لتغذية سوق الخرطوم بالجلود. ولا شيء أسهل من الحصول على جلود الجاموس والأوعال والزراف، التي تستعمل لعمل الأحذية والقرب[٦٦].

وقد احتكرت الحكومة المنتجات الهامة المعدة للتصدير وهي العاج وريش النعام وجلود الثيران. وكان الزنوج يستفيدون من لحوم وشحوم الفيلة أكثر مما يبغون الحصول على أنيابها. وكانوا قبل احتكار العاج يبادلون عليه بالخرز أو بزجاجة من الخمر المغشوشة التي يجلبها التجار. ولذا عاد الاحتكار على الأهالي بأضرار أقل كثيرا من التي وقعت على التجار « العرب لأن هؤلاء كانوا يجنون مغانم كثيرة من وراء بيعهم العاج في الخرطوم». وكان من المتعين أيضا تسليم ريش النعام في مستودعات الحكومة حيث يدفع للمورد نصف الثمن والجزء الباقي يحجز سدادا لضريبة الحكومة[٦٧]. وفي هذا الصدد ذكر الخديو: «وما كانت توجد وسيلة أخرى لوضع حد لتجارة الرقيق ... فمتى انقطعت اللصوصية ... فعندئذ يؤذن بحرية التجارة للجميع»[٦٨].

الأمن وازدهار التجارة في أقاليم جنوب السودان

حرص جوردون على استرضاء الأهالي، وكسب ثقتهم، فقد أدرك أن الحروب التي وقعت في الماضي بين الجنود والأهالي سببها هو نقص النقود لدى الجنود، ومن ثم أمر جوردون بزراعة الذرة لتلافي هذا النقص. كما أنه استغنى عن الحمالين واستخدم بدلا منهم الجمال والحمير لنقل العاج والتموينات، وبذلك حقق هدفين الأول: أنه أحدث اقتصادا في تكاليف النقل. والثاني: لم يصبح في حاجة إلى حمالين، حيث كان الجنود يستولون على تموينهم مما كان يتسبب في سخط هؤلاء الحمالين[٦٩].

كما أنه وطد علاقاته الطيبة مع القبائل ومنها قبائل لوقير Lequier، وهذا ما جعله يختصر الطريق بين غندوكورو ولاتوكا من عشرة أيام إلى أربعة أيام فقط. إذ كان من الضروري في السابق أن يسلك المسافر برا طريقا منحنيا طويلا ليجتنب عداء تلك القبائل[٧٠].

وفي يناير ١٨٧٥ قرر جوردون أن يشيد محطات تبعد إحداها عن الأخرى مسيرة يوم واحد. فبهذه الوسيلة يكون في استطاعته حراسة كل إرسالية

بعشرة رجال بعد أن كان يرافق كل إرسالية مائة جندي لتدفع كل غائلة عنها. وهنا أمر ببناء محطة بيدن Bedden بالقرب من الرجاف. ومحطة كري Kerri إلى الجنوب من بيدن. وإلى الجنوب من كري أقام محطة موجي Mougi. وفي أبريل عام ١٨٧٦، أنشأ محطة صغيرة على نهير طيو Tyno بين لابوريه Le Boré ودوقليه حتى يقضي الجنود الذين يجتازون هذا الطريق الليل فيها، بدلا من المبيت في الطريق والاستيلاء على ممتلكات الأهالي.

ومن أكبر الأدلة على تحسن حالة المواصلات مع المناطق الجنوبية، أنه قدم رجل بمفرده إلى لادو من محطة بيدن في يوم واحد، مع أن هذه الرحلة قبل هذا الوقت كانت تستغرق عشرين يوما وكان لا يخلو الأمر من أن يغير الأهالي على سالكيها[٧١].

وفي هذا الصدد ذكر المبشر فلكن Felkin، خلال رحلته من لادو إلى أوغندة Ougunda (يناير– فبراير ١٨٧٩)، أن في استطاعته أن يقرر وهو مستريح الضمير «أن أجزاء البلد الواقعة تحت السيطرة المصرية ... لهي في حالة أحسن كثيرا مما كانت عليه تحت سيطرة ملوكها الغشم المستبدين». واستطرد أنهم في بريطانيا قد سخروا من فكرة وصوله هو ومن معه من أفراد البعثة التبشيرية إلى أوغندة بطريق النيل، وأكدوا لهم بأنهم لن يصلوا ومعهم نصف أمتعتهم. ومع ذلك فقد وصلوا من سواكن إلى روباجا، Roubugu عاصمة أوغندة - ولم يفقد لهم طرد واحد[٧٢].

ونتيجة لانتشار الأمن فكان من الطبيعي أن تزدهر الأقاليم، فيروي إبراهيم فوزي باشا عن فاشودة، عندما وصلها مع جوردون عام ١٨٧٤: «وشاهدنا ما وصلت إليه وقتئذ من درجة العمران والتقدم في الحضارة بعناية الحكومة، وعلمنا أن أهاليها من العبيد آمنون مطمئنون». ويروي عن رجوع جوردون من محطة مرولي Mrouli إلى لادو، أن الطريق كان آمنا، وأنهم شاهدوا فرح أهالي لادو لتلك الفتوح الكثيرة حيث أن بلدتهم صارت عاصمة لقطر شاسع كثير الخيرات، وتخلص الأهالي من سلطة التجار وأصحاب الشركات المستبدين[٧٣].

وكان من نتائج بسط رواق الأمن أيضا، أن نشطت حركة التجارة في السودان وبلغ عدد البيوت التجارية المملوكة للمصريين هناك ثلاثة آلاف بيت، والمملوكة للأوربيين ألف بيت[٧٤]. ويذكر الطبيب الروسي جونكر Junker أنه عندما استقل الباخرة الإسماعيلية من الخرطوم يوم ٢٣ أكتوبر ١٨٧٦، في رحلته إلى مديرية خط الاستواء، وجدها «غاصة بمن فيها من الركاب والسلع والأنعام الصادرة لمختلف الجهات»[٧٥]. وأثناء وجوده في لادو عام ١٨٧٨ذكر أن وصول أية باخرة إليها يحدث دوما انتعاشا وفائدة مادية فيها «لأنه عدا

البضائع التي ترسلها الحكومة لموظفيها يجلب بجارتها أيضا معهم بعض السلع فيبيعونها ويجنون من وراء ذلك مغانم»(٧٦).

ولم تكن الحكومة تقتصر في نشر مظلتها الأمنية على التجار السودانيين أو المصريين بل امتدت هذه الرعاية إلى التجار الأجانب طالما كانوا يحترمون القوانين التجارية(٧٧). وهنا يذكر المبشر الإنجليزي ولسن Wilson: «إني في جميع رحلاتي في أرجاء السودان... قوبلت بغاية التودد واللطف من الموظفين المصريين من أكبرهم إلى أصغرهم»(٧٨).

الجهود المبذولة لإدخال المدنية والحضارة

ليس هناك أدل على ما بذلته الحكومة المصرية من جهود في هذا السبيل من مقولة جونكر « فبحسن مساعي الحكومة المصرية... فتحت بذلك الطريق لأحسن المدنيات»(٧٩).

وفي مقابلة جوردون لإمتيزا - Mitesâ ملك أوغندة - ذكر له «إننا اتون باسم الحكومة المصرية وهي... لا تريد من هذه البلاد إلا أن تعمم فيها المدنية والعدالة وتفتحها لخير التجارة»(٨٠). وعندما زار مشايخ القبائل المحيطة بغندوكورو جوردون في سبتمبر ١٨٧٤قابلهم بترحاب ودعاهم لزيارة الخرطوم بباخرة. وكان بهدف من هذه الدعوة على حد قوله: «اطلاعهم على الحضارة وعلى قوة الحكومة»(٨١).

وقد تلقى جوردون من مبعوثين من قبل إمتيزا هدية من العاج وبعض المصنوعات المحلية وبعض الأطفال السود للخديو إسماعيل. فقبل جوردون الهدايا ورد الأطفال(٨٢). وقد أوضح له إرنست دي بلفون Ernest De Bellefonds - مبعوث جوردون لإمتيزا فيما بعد عام ١٨٧٥ - أنه مادام يرغب في ربط صلاته بالدول المتمدينة فيجب عليه أولا أن يراعي حرية الإنسان(٨٣).

أما عن سياسة جوردون تجاه العبيد المحررين من أيدي تجار الرقيق، فقد خيرهم بين أمرين: إما أن يتركهم للعودة لقراهم، أو أن ينزحوا إلى محطة السوباط حيث يقومون بزراعة الذرة في حماية الحكومة. وقد فضل معظمهم الاختيار الثاني. وقد اقترح جوردون في أغسطس ١٨٧٤على الحكومة المصرية استخدام هؤلاء الزراع العبيد في إقليم الفيوم لزراعة قصب السكر، لأن استخدامهم سيكون اقتصاديا(٨٤).

ومما يجدر ذكره أن مبعوثي إمتيزا حملوا لجوردون طلب ملكهم إرسال بعض العلماء المسلمين إليه لرغبته في الدخول في الإسلام هو وشعبه(٨٥).

ونظرا لأن تبادل السلع كان بالخرز، فبدأ جوردون يمنح الأهالي النقود ليتداولوها بدلا من الخرز، وليعودهم على استعمالها، وقد أراد بذلك القضاء على نظام الشيوخ الإقطاعي، فكسب المال نتيجة العمل، سيضعف العلاقة بين السود وشيوخهم وسيقويها مع الحكومة(٨٦).

وقد خصصت في كل محطة من المحطات طبيبا، ووفرت له كافة الأدوية لمعالجة الجنود والأهالي والتجار، على أن تتحمل الحكومة نفقات هذا العلاج(٨٧). كما أنشأ أمين بك - مدير مديرية خط الاستواء (١٨٧٨–١٨٨٩) - في لادو مدرسة ومستشفى ومسجدا(٨٨).

ومن أهم مظاهر المدنية التي أدخلتها الحكومة المصرية في جنوب السودان، هي القضاء على عادة أكل لحوم البشر، وكانت تلك العادة متأصلة لدى أهالي بلدة مكراكا وجيرانهم قبائل النيام نيام(٨٩) Nam Nam، حيث لجأت الحكومة لاستعمال الشدة معهم. كما أنها جندت منهم عددا كثيرا وفرضت على هؤلاء المجندين نظاما عسكريا صارما فأدمجتهم في مجموعات عسكرية لا تتيح لهم الانفراد بعيدا عن أعينهم بأي حال من الأحوال. فقل إقبالهم على أكل لحوم البشر بسبب وفرة اللحوم من جهة وصعوبة الحصول على اللحم البشري في محطة من محطات الحكومة من جهة أخرى.

وقد استمرت تلك الجهود المبذولة، حتى بعد أن تغيرت سياسة جوردون بل والخديو أيضا تجاه تجارة الرقيق، فبعد تعيين جوردون مديرا عاما للسودان (١٨٧٧– ١٨٧٩) ، أعد «مشروعا» يقوم على إحكام الرقابة على نشاط تجار الرقيق، ولكنه لم يلبث أن أرغم على نبذ سياسة «التقييد» هذه عندما رفض «مشروعه» ثم طلب إليه تنفيذ معاهدة إلغاء الرق(٩٠). فالخديو تحت الضغط السياسي من ناحية بريطانيا، لم يلبث أن استبدل أسلوب «التنظيم» البطيء لمعالجة تجارة الرقيق - الذي أمن به والذي أشرت إليه سابقا- بسياسة «الإلغاء» العنيفة. فتصدع بنيان المجتمع السوداني، الذي كان الرق ركنا أساسيا من أركانه. ومن ثم كانت الثورات والسخط الذي عم كل أرجاء السودان(٩١).

إلا أن جهود الخديو ورجاله تجاه التجارة المشروعة لم تتوقف - وإن استنفدت محاربة الرق جهدا كبيرا - فقد أصدر أمره إلى جوردون عام ١٨٧٧بإنشاء دار صناعة نيلية بالخرطوم، فاهتم بتنفيذه وجاءت في أحسن صورة، حيث زودت بالمعامل والورش المختلفة. وبلغ عدد العمال بها أربعمائة وخمسين عاملا خلاف الكتاب والملاحين والقيودانات. وأمر فشيدوا بها ثماني بواخر. وكان قد سبق وأرسل الخديو عشر بواخر نيلية قبل ذلك إلى

الخرطوم - هذا خلاف الصنادل والقياسات والسفائن وكانت لا تقل عن ثلاثمائة مركب أكبرها يحمل ألف وخمسمائة أردب، وأصغرها يحمل خمسمائة أردب[٩٢].

وراح جيسي ما قام به من جهود أثناء وجوده كمدير لمديرية بحر الغزال (١٨٧٩– ١٨٨٠)، فذكر أنه أنشأ مدرسة، تعلم فيها أطفال القبائل المعلومات الأساسية، كما تردد عليها مائة من أبناء القوات غير النظامية.

وعمل على تحسين الملاحة النيلية، فسهل الاتصال بين أفرع بحر الغزال إما بالزوارق أو الجسور، وقام بتطهير بحر الغزال من آلاف الأشجار التي كان يلقيها الأهالي في النهر وكانت تعوق الملاحة. ولذلك أصبحت المراكب تستطيع أن تصعد فيه لمسافة سبعين ميلا دونما أي عوائق. كما أنشأ ترسانة صغيرة في بلدة واو Wau، لبناء المراكب النيلية لنقل العاج وأشجار الغابات.

كما اهتم كثيرا بالسلع التجارية، فنظرا لجودة أشجار غابات بحر الغزال، والتي كانت مصدرا واعدا وجديدا للدخل، فأمر بتجهيز منشار لقطع ألواح الأخشاب والعوارض اللازمة لترسانة ومدينة الخرطوم. وهكذا تم الاستغناء عن استيراد أخشاب تريستا Trieste الباهظة الثمن.

كما أوجد جيسي العديد من الصناعات القائمة على خام الحديد، فأمر بصنع المسامير اللازمة للمراكب والبيوت، ويقول بأنه لو توفرت لديه الوسائل الجيدة اللازمة لصهر خام الحديد، لأمكنه أن يزود الخرطوم به، وينافس نوعية الحديد الأوربي. كذلك أوجد صناعة دباغة الجلود التي أمدته بجلود جميلة للأحذية. ومن هنا لم تعد تجد الحكومة أي مشاكل فيما يتعلق بأحذية القوات العسكرية، وبلغت تكلفة زوج الأحذية نولارا واحدا، وهو يتساوى في الخامة والمتانة مع تلك التي ترسل من الخرطوم.

وقد حازت الزراعة أيضا على الكثير من جهود جيسي. فقد قام بتحرير أربعين ألف من الرقيق، منهم من عاد إلى قراه، ومنهم من ظل للعمل في المستعمرات الزراعية الثلاث التي أنشأها في واو، وكوجك علي، وتونجا Tonja وتوسع في زراعة القطن على طول ضفاف بحر الغزال، نظرا لأهميته سواء كخامة للملابس أو سلعة للتجارة. وكان ذلك القطن يفوق في جودته، ونعومته، ونصاعة بياضه، وطوله، القطن الأمريكي المزروع في الدلتا بمصر.

ويذكر جيسي بأنه أول من اكتشف المطاط في تلك المنطقة، وتنتج بحر الغزال حوالي خمسمائة طن في السنة، يقدر ثمنها ؟ اثنين وسبعين ألف جنيه إسترليني، بينما النفقات لا تتجاوز أربعة آلاف جنيه إسترليني[٩٣].

كما أرسل عينات من تلك المنتجات السودانية كالصمغ والتمرهندي، إلى إيطاليا حيث أراد أن يكون وكيلا لشركة كارلو إربا Carlo Erba في ميلان، فعلى حد قوله لقد «اغتنت كل البيوت (التجارية) هنا، لماذا لا نفعل نحن (الإيطاليون) نفس الشيء؟»[٩٤].

خلاصة القول فإن الطريق لم يكن ممهدا أمام الخديو إسماعيل، لتنشيط التجارة المشروعة وإدخال المدنية والحضارة لجنوب السودان، بل قابلته صعوبات كبيرة، فعلى حد قول بيردزلي Beardsley –قنصل الولايات المتحدة العام في مصر عام ١٨٧٣ - « يجب أن يتوقع (الخديو) مقابلة الكثير من الفوضى ... التي سببتها تجارة الرقيق في تلك البلاد. فعليه أن يرضى بهذا الحاضر السيئ، من أجل الحصول على مستقبل جيد»[٩٥]، وتتمثل تلك الصعوبات فيما يلي:

أولا: إن تجارة الرقيق كانت مغروسة في كل خلية من نسيج الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في كل أفريقيا الوسطى والشرقية. وما من قوة على الأرض تستطيع أن تقضي عليها إلا القوة البطيئة للحضارة والمدنية[٩٦]. وحسبنا ما عالج به الإسلام تلك المشكلة بشيء من التدريج.

ثانيا: مدى قوة ونفوذ تجار الرقيق وتواطؤ موظفي الحكومة المصرية أنفسهم معهم. والأمثلة على ذلك لا حصر لها أذكر منها: ذلك العقد الذي أبرمه العقاد عام ١٨٦٨مع حكمدار السودان جعفر مظهر باشا (١٨٦٦–١٨٧١)، لاحتكار تجارة الرقيق في مساحة تسعين ألف ميل مربع بمناطق أعالي النيل، لمدة أربع سنوات، في مقابل مبلغ ثلاثين ألف جنيه في العام[٩٧].

وفي عام ١٨٧٤نظم كوجك علي - من كبار تجار الرقيق – حملات إبادة في غندوكورو قام خلالها بنهب، وحرق، وذبح الأهالي، بعد الاستيلاء على ما لديهم من العاج، وباعهم كعبيد في الخرطوم، ولقد «شاهد العالم كله هؤلاء الرقيق فيما عدا الحاكم الذي لا يرى ولا يعرف شيئا»[٩٨].

ثالثا: موقف الدول الأوربية عامة حيث لم تكن جادة في القضاء على تجارة الرقيق، وبريطانيا خاصة حيث بدأت أطماعها تتبلور في السودان، وخاصة في جنوبه حيث تتركز جميع الثروات.

فقد ذكر الخديو إسماعيل في حديث له بلندن مع وفد الجمعيات الإنجليزية والفرنسية لمقاومة الرق أنه « إذا كان في وسعه أن يرغم شعبه على الامتثال لأوامره بالرغم مما في الامتثال لها في موضوع الإقلاع عن ... الرق، من مخاضته على نفوسهم» فإنه لا يستطيع عمل شئ «ضد الأوربيين المقيمين في بلاده، والذين هم أكبر المجرمين» حيث أن مراكبهم الخاصة بالعبيد باطنا

والعاج وريش النعام والصمغ ظاهرا لا يمكن تفتيشها ولذلك «فالإلغاء القنصلية البريطانية في الخرطوم، مثلا، مكنه من العمل ضد النخاسين بنجاح»[٩٩].

وعندما اشتدت الأزمة المالية في مصر، ألح الدائنون الأوربيون على الخديو بوجوب خفض النفقات، فعلى حد قول كرابيتس: «فالذي كان يهمهم هو قبض كوبونات ديونهم . . . نعتقد أن الوزارات الأوربية كانت ترحب بوصول مصر إلى أفريقيا الاستوائية لو أنها توسمت من وراء ذلك منفعة لها . . . ولو أن وزارات الخارجية الأوربية لم تر إسماعيل مصمما على تحرير نفسه من ربقة وصاية الغرب، لأوعزت إلى الماليين بالكف عن كل مطالبة»[١٠٠].

أما فيما يتعلق بموقف بريطانيا فلقد لخصه بيكر عام ١٨٦٤فيما يلي: «فمحاربة النخاسة مبدأ إنساني والكشف عن منابع النيل لغرض علمي، وتحت ستار هذين الغرضين يجب فتح أفريقيا للتجارة والاستعمار»[١٠١].

أما فلكن فتعجب عام ١٨٧٩من عدم القضاء على كباريجا Kabba-Rega حاكم الأونيورو رغم كل ما سببه من متاعب للمحطات العسكرية المصرية المجاورة لمنطقة نفوذه. ولكنه سرعان ما علل ذلك قائلا: «إن المانع لذلك هو المعارضة الشديدة التي كان يبديها بعض أشخاص في بلاد الإنجليز . . . الذين يرون بعين الحسد كل امتداد يحدث في الأراضي المصرية نحو الجنوب»[١٠٢].

وعلى أية حال فالشيء الذي اتفق عليه الجميع أن «نشر التجارة المحللة وإقامة حكومة منظمة لحماية أهالي أواسط أفريقيا، كان من الأمور الأدبية العشرفة لسمعة إسماعيل»[١٠٣].

كما قال مسيو سوتزارا Suzzara – فتحصل النمسا على عهد الخديو إسماعيل- « إذا علمنا ما كانت عليه الشعوب في تلك الأقطار من الهمجية، وجب علينا أن نعد خضوعها لسلطة الخديو تدرجا نحو التقدم، فإن هذه الشعوب أخذت تألف الإدارة المنتظمة القائمة على قواعد الاستقرار والنظام. ومن جهة أخرى فإن الأقطار السودانية التي كانت مقفلة قد فتحت للتجارة والرحلات، مما مهد السبيل لدخول الحضارة إليها»[١٠٤].

الهوامش

١- على الرغم من أن الخديو لم يظهر تلك الرغبة لجوردون Gordon مدير مديرية خط الاستواء (١٨٧٦-١٨٧٤)، حيث ذكر الأخير في أحد خطاباته الرسمية، أخيرني الخديو بوضوح بأنه لم يرد ضم الأراضي، وإنما تعني فتح البلاد (أعالي النيل) للقضاء على صيادي العبيد». أنظر:

Staats Archives Rapports de Constantinople-Berichte Weisungen 1874, No.1, Art. Consl. 2/1/1874. Cmte Ludolf A Andrussy, Enclosure, Original letter of Gordon to Ludolf, Alexandria 20/12/1873.

نقلا عن: Shukry,M.F.,The Khedive Ismail & Slavery in Sudan(1863-1879),(Cairo,1938),Appendix A,docu ment No.4.

٢- محمد محمود السروجي، دراسات في تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، (الإسكندرية، ١٩٩٨) ص ٣١٢-٣١٤.

٣- عمر طوسون، تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية من فتحها إلى ضياعها (١٨٦٩-١٨٨٩)، الجزء الأول، (الإسكندرية، ١٩٣٧) ص ص ١١-١٢.

٤- هو رحالة إنجليزي عهد إليه الخديو إسماعيل بقيادة حملة لضم مناطق أعالي النيل في الفترة من (١٨٦٩-١٨٧٣).

٥- محمد محمود السروجي، الجيش المصري في القرن التاسع عشر، (دار المعارف، ١٩٦٧) ص ٤٥٣.

٦- دفتر ٥٧٣ معية تركي، وثيقة رقم ٥٦، ص ٢١٧، من الجناب العالي إلى ناظر الداخلية، ٤ صفر ١٢٨٦هـ (١٨٦٩م).

٧- Shukry,The Khedive,p.162.

٨ دفتر ٥٨٣ صادر، معية سنية، مكاتبات تركي، ص ١٤، مكاتبة رقم ١، ٢٩ جمادي الآخر ١٢٨٦هـ (١٨٦٩).

٩- محفظة ٤٣ معية تركي، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٦٢٤، بدون تاريخ، من السير صمويل بيكر إلى الخديو إسماعيل.

١٠- بيير كرابيتس، إسماعيل المفترى عليه، ترجمة فؤاد صروف، (القاهرة، ١٩٣٧) ص ٢٩.

١١- محمد صبري، الإمبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر، (القاهرة، ١٩٤٨) ص ص ٥٥-٥٦.

١٢- عهد إليه جوردون بتولي الأمور في مديرية بحر الغزال في أوائل عام ١٨٧٩ حيث مكث بها مدة عام ثم استقال لاعتلال صحته.

١٣- Gessi,R.,Seven years in the Sudan,London,1969,p.91.

١٤ عمر طوسون، مرجع سابق، ص ١٤١.

١٥- نفسه، ص ٢٩.

١٦- نفسه، ص ص ١٥-١٦، ٣٤.

١٧- نفسه، ص ص ٣٣-٥٣.

١٨- نفسه، ص ٧٨.

١٩- نفسه، ص ص ٨٢-٨٧.

٢٠- نفسه، ص ص ٩٦-٩٧، ١٠١.

٢١- حيث خرجت ثلاث محطات أخرى من حوزة الحكومة، وهي: التوفيقية، والإبراهيمية(أفودو

(Afiooddn ، وماسندي. لمزيد من التفاصيل عن هذه المحطات العسكرية أنظر: السروجي الجيش المصري ص ص ٤٥٦-٤٦٤.

٣٢- Shukry,The Khedive,pp.152-155.

وأيضا : عز الدين إسماعيل. الزبير باشا ودوره في السودان في عصر الحكم المصري. (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨) ص ص ١٠٠، ١٠٩.

٣٣- وكانت حدودها كما يأتي: في الشمال مصب نهر السوباط. وفي الجنوب أوغندة. وفي الشرق الحبشة. وفي الغرب مديرية بحر الغزال. وقد بسطت مصر نفوذها أيضا على بعض البلاد المجاورة لهذه المديرية مثل أوغندة. والأونيورو.

٣٤- Gordon,C.G.,Provinces of the Equator,summary of letters and reports of the his Excellency the Governor-General,translated from French to English by General Stone;Chief of the General Staff,(Cairo:printing office of the General Staff,1877) part 1,year 1874,pp.1-2.

٣٥ عمر طوسون، مرجع سابق، ص ١١٢.

٣٦- بيير كرابيتس، مرجع سابق، ص ١٠١.

٣٧- Gordon,C.G.,Letters of General Gordon to his sister,(Macmillan &Co.,1888)p.148.

٣٨- Gordon,Provinces,p.6.

٣٩ عمر طوسون، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ص ٥٣-٥٤.

٤٠- Gordon, Provinces,p.32.

٤١- Abdin, American Archives, vol.11,Despatch No.25,6/5/1876,Gumieux to Fish,Enclosure No.2 (Circular from Cherif Pacha relating to the annexation of several Provinces of Central Africa.

نقلا عن: Shukry,The Khedive, Appendix B,document No.5.

٤٢- Gordon, Provinces,p.3.

على الرغم من أن إبراهيم فوزي باشا ،الذي كان أحد الضباط المشاركين لجوردون في الحملة ذكر عكس ذلك، حيث قال أن جوردون هو الذي قام بإزالة تلك السدود أثناء سير حملته وأن فتح الطريق قد استغرق مدة أربعين يوما بعدها سارت الحملة إلى شامبي. أنظر: إبراهيم فوزي، السودان بين يدي غردون وكتشنر، الجزء الأول، (القاهرة ١٩٠١) ص ص ٧-٨ ، وبالطبع هذا القول غير صحيح إذا ما قورن بالخطابات الرسمية لجوردون.

٤٣- الثنان سبق وأخرجهما بيكر قطعا من مصر بقصد بنائهما وتنشيط الملاحة في البحيرات ولكن انقضت مدته ولم يتمكن من بنائهما.

٤٤- إلياس الأيوبي، تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا من سنة ١٨٦٣إلى سنة ١٨٧٩، الجزء الثاني، (مكتبة مدبولي، ١٩٩٦) ص ٤٠

٤٥- إبراهيم فوزي، مرجع سابق، ص ١٨.

٤٦- نفسه، ص ٢٠.

٤٧- تراوحت قيمتها فيما بين مائةومائتي قرش، ولم يسمح لأي مركب بمغادرة الخرطوم إلى النيل الأبيض بدون تصريح من ديوان الويركو. أنظر:

Shukry,The Khedive,p.137

٤٨ عمر طوسون، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٢٥.

٤٩- أنظر ما رواه في ذلك الطبيب الروسي جونكر Junker أثناء رحلته إلى مديرية خط الاستواء (٢٣أكتوبر إلى ٣١ديسمبر ١٨٧٦) . نقلا عن: عمر طوسون، مرجع سابق، ج ١ ، ص ٣٢٦.

٥٠- Gordon,Provinces,p.11.

٥١- Gessi,Op.Cit.,p.62.

٥٢ عبد الخليج خلاف ،كشوف مصر الأفريقية في عهد الخديوي إسماعيل ١٨٦٣- ١٨٧٩ ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩) ص ص ٣٥، ٣٩.

٥٣- Gerlach,Provinces,p.27.

٥٤ السروجي ،الجيش المصري ، ص ٥٢٢.

٥٥- Gessi,Op.Cit.,p.135.

٥٦ السروجي ، المرجع السابق، ص ص ٥٢٧-٥٢٨.

٥٧- كرابيتس ، مرجع سابق، ص ١٠١.

٥٨- السروجي، دراسات في تاريخ مصر والسودان، ص ٣٣٠. وذهبت آراء أخرى إلى أن الدلائل كلها قد أثبتت أن اتصال مصر بالنصف الجنوبي من وادي النيل وخاصة بمنطقة البحيرات الاستوائية عن طريق البحر(الأحمر) أيسر وأجدى وأوفر في الوقت والنفقات، من الاتصال عن طريق النيل الطويل وما يخترقه من الحاليات المتباينة. أنظر: شوقي الجمل، تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، (مكتبة الإنجلو، ١٩٧٩) ص ٦٢٣.

٥٩- محمد صبري، مرجع سابق، ص ص ٥٩-٦٠.

٦٠- السروجي، المرجع السابق، ص ٣٣١.

٦١- محمد فؤاد شكري، الحكم المصري في السودان (١٨٢٠-١٨٨٥) ، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٧) ص ١٥.

وقد بلغ حجم ما يصل لمصر وحدها من الإنتاج السنوي للسودان ٥٠٠,٠٠٠ ، ٥٠٠ أردبا. أنظر:
M.C. Coan,J.C.,Egypt as it is,(Cassell Petter,1877)p.372

٦٢-
Ibid.,pp.372-373.

٦٣ انظر الفصل الثالث من كتاب «الحقيقة حول أمين باشا» لمؤلفه فيتا حسان - الذي عين مديرا لمديرية خط الاستواء عام ١٨٨١ - نقلا عن: عمر طوسون، مرجع سابق، ج ٢، ص ص ٧١-٧٩.

٦٤- انظر تقرير أمين بك مدير مديرية خط الاستواء (١٨٧٨-١٨٨٩) ، عن موارد المديرية. نقلا عن: عمر طوسون ، مرجع سابق، ج ٢ ،ص ١٤٣.

٦٥- فيتا حسان ، مرجع السابق، ص ٧٩.

٦٦- تقرير أمين بك، المرجع السابق، ص ص ١٣٩-١٤٠، ١٤٢.

٦٧- عمر طوسون، مرجع سابق، ج ٢ ،ص ٢٩.

٦٨- Gessi,Op.Cit.,pp.61-62.

٦٩- Ibid.,p.61.

٧٠ فيتا حسان، مرجع سابق،ص ٧٣.

٧١- نفسه، ص ص ٧٣-٧٤.

٧٢- تقرير أمين بك، مرجع سابق، ص ص ١٣٦-١٣٨.

٧٣- نفسه، ص ١٤٤.

٦٤- نفسه، ص ص ١٤٠-١٤٣.

٦٥- نفسه، ص ١٣٩.

٦٦- نفسه، ص ١٣٥.

٦٧- فيتا حسان- مرجع سابق، ص ص ٣٧-٣٨.

٦٨- عمر طوسون، مرجع سابق- ج ١ ص ١١١.

٦٩- Gordon,Provinces,pp.4,7.

٧٠ عمر طوسون، مرجع سابق، ج ١، ص ١٥٠.

٧١- نفسه، ص ص ١٨١-١٨٢، ١٨٧-١٨٨، ١٩٢، ٢٤٩.

٧٢- نفسه، ص ص ٤١٧-٤١٩.

٧٣- إبراهيم فوزي، مرجع سابق، ص ص ٥، ٢٦.

٧٤- عبد الرحمن الرافعي، عصر إسماعيل، الجزء الأول، (دار المعارف، ١٩٨٧) ص ١٦٧.

٧٥- عمر طوسون، مرجع سابق- ج ١، ص ٣٢٦.

٧٦- نفسه، ص ص ٣٩٨-٣٩٩.

٧٧- أمين سامي، تقويم النيل وعصر إسماعيل، المجلد الثاني من الجزء الثالث، (القاهرة ١٩٣٦) ص ٩٧٠.

٧٨- عمر طوسون، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٣٦.

٧٩- نفسه ٣٩٩.

٨٠- إبراهيم فوزي، مرجع سابق، ص ٢٣.

٨١- Gordon,Provinces,p.18.

٨٢- Ibid.,p.5.

٨٣ عمر طوسون، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٤٠.

٨٤- Gordon,Provinces,p.16.

٨٥- Ibid.,p.5.

والأمر الغريب أن صمويل بيكر كان قد أرسل رسالة إلى الخديو إسماعيل في مايو ١٨٧٢جاء فيها :لقد دخل ملك أوجندة في دين الإسلام وبني جامعاء، أنظر: كرابيتس، مرجع سابق، ص ص ٩٧-٩٨. وأيضا رياسة مجلس الوزراء، مذكرة تاريخية عن مصر والسودان والملحقات، (القاهرة، ١٩٤٧) ص٥.

وانني أشك فيما ورد بشأن دخول (منيوجا) الإسلام في عهد بيكر وأميل إلى ما ذكره جوردون بهذا الخصوص، لأنه ما كان جوردون يجرؤ، وهو حديث عهد بالحكم - أن يختلق خبرا من المفترض أنه تم بالفعل أيام سلطة بيكر.

٨٦- Gordon,Provinces,pp.31-32.

٨٧ أمين سامي، مرجع سابق، ص ٥٦٥.

٨٨- الرافعي، مرجع سابق، ص ١٦٦.

٨٩- عمر طوسون، مرجع سابق، ج ٢، ص ٦٤.

٩٠- أبرمت بريطانيا هذه المعاهدة مع الخديو إسماعيل عام ١٨٧٧ونصت على أن يحدد الخديو مدة محددة - حددها الديكريتو الذي أصدره الخديو في أعقاب المعاهدة بـ اثنتي عشرة سنة، يقضي خلالها على تجارة الرقيق في السودان في مقابل أن تعترف بريطانيا بالنفوذ المصري على سواحل الصومال. للإطلاع على بنود المعاهدة أنظر: The Blue Books 1814-1914, Egypt No.1 (1878), p.485,

Convention between The British and Egyptian Governments for the suppression of the Slave Trade, signed at Alexandria, 4th August 1877.

٩١ محمد فؤاد شكري، مصر والسودان:تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر، ١٨٢٠-١٨٩٩، الطبعة الثانية، (دار المعارف، ١٩٥٨) ص ص ١٥١-١٥٤، ٢٨٣.

٩٢- إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، (المطبعة الأميرية ببولاق، ١٣١٤هـ/١٨٩٦-١٨٩٧م) ص ٣٣٧.

٩٣- Gest,Op.Cit.,pp.424,436-437.

٩٤- Ibid.,pp.146-147.

٩٥- Abdin, American Archives, vol.7, Despatch No.45, Cairo 11/ 12/ 1873, R. Beardsley to Hon. Hamilton Fish.

٩٦- Shukry, The Khedive, Appendix A, Document No.5.

٩٧- M.C.Coss,Op.Cit.,p.370.

٩٨- Shukry,Op.Cit.,p.148.

٩٩- Gest, Op. Cit.,pp.59-60.

١٠٠- إلياس الأيوبي، مرجع سابق، ج ١، ص ص ٣١٤-٣١٥.

١٠١- كرابيتس، مرجع سابق، ص ٨٩.

١٠٢- محمد صبري، مرجع سابق، ص ٥٢.

١٠٣- عمر طوسون، مرجع سابق، ج ١، ص ٤١٨.

١٠٤- كرابيتس، مرجع سابق، ص ٧٥.

١٠٥- الرافعي، مرجع سابق، ص ١٧٤.

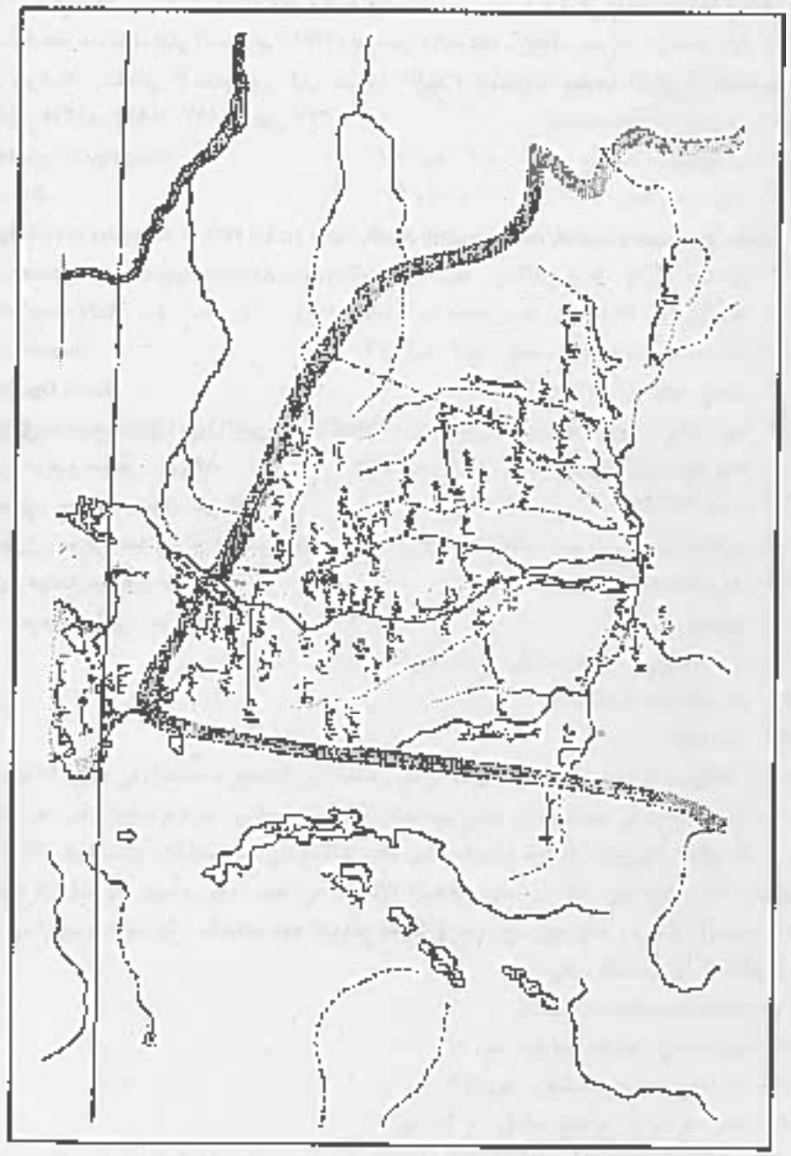

خريطة لقناة السويس
عملت بمعرفة أوفاق حاب الجلالة الخديوي ١٨٦٨ - ١٨٧٩
مقياس رسم ١ : ٠٠٠٠٠٠
عن : محمد طلعت مصطفى ، مختارات من الوثائق

الدكتور/ أحمد حسن محمد الكنانى (*)

مشروعات الرى والزراعة فى عصر الخديو إسماعيل (١٨٦٣م- ١٨٧٩م)

مقدمة:

إذا كان عصر الخديو إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) قد اشتهر بالعمران بصفة عامة، وفى المجالات الحضارية (كإنشاء القصور ودار الأوبرا) بصفة خاصة، بالإضافة إلى افتتاح قناة السويس (١٨٦٩م)، إلا أن الاهتمام بمشروعات الرى والزراعة فى عصره لا يقل أهمية، نظرا لاعتماد المجتمع المصرى فى تلك الفترة على الزراعة، حيث كانت مصر فى بداية القرن التاسع عشر الميلادى تتكون من مجتمع زراعى قوامه ٢,٥ مليون نسمة، يعيش غالبيته فى القرية، ويعتمدن على الزراعة، وبعض الحرف الصناعية فى القرية أو المدينة وكان النشاط الزراعى يعتمد أساسا على نظام رى الحياض، واتسم بتنوع المحاصلات اللازمة للاستهلاك الغذائى للإنسان والحيوان، فضلا عن استخدامات بعضها فى بعض الصناعات من جهة، وكان الإنتاج الزراعى يتمكن فى النهاية من تصدير جزء منها كالقمح والأرز إلى داخل الدولة العثمانية(١).

وبسبب اعتماد مصر على الزراعة، أتبعت مبدأى التخصص الإقتصادى، والحرية الاقتصادية دون تدخل الحكومة فى الشئون الإقتصادية بأى شكل من الأشكال. وبتوليه محمد على الحكم عام (١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م) سار على هذا النهج فى البداية ثم تحول عنه إلى سياستى الاستقلال الاقتصادى والاحتكار والتوجيه(٢).

وتحقيقا للاستقلال الاقتصادى، اهتمت حكومة محمد على بالزراعة فكان أن زادت من مساحة الأراضى الزراعية وحسنت من طرق الرى واعتنت

(*) باحث - كلية الآداب- جامعة الإسكندرية

بتحسين أساليب الزراعة، وعاونت الفلاحين، مما أدى إلى تحسن الإنتاج الزراعي من حيث الكم والكيف[٣]. وتحقيقا لسياسة الاحتكار والتوجيه، قيدت الحكومة حرية الفلاح في تصريف حاصلاته وجعلته حكرا لها، مما سهل فرصة هيمنتها على التجارة الخارجية والداخلية من جانب، ومن جانب آخر أدخلت حاصلات جديدة في الزراعة المصرية لأول مرة، ناهيك عن توسيع نطاق مساحات بعض الزراعات الأخرى ذات الأهمية التجارية مثل القطن والأرز من جانب ثالث[٤].

وقد أعرض محمد علي في أواخر أيامه عن سياسة الاستغلال الاقتصادي وعاد بالبلاد إلى مبدأ التخصص الاقتصادي، الذي كان سائدا من قبل[٥]، وألغى سياسة الاحتكار والتوجيه، إلا أن التدخل في ترتيب الزراعات لم يلغ نهائيا إلا في أوائل عهد سعيد، حيث أصبح للفلاح حق زراعة ما يشاء من الحاصلات[٦]. ومع قرب انتهاء عصر محمد علي (١٨٠٥-١٨٤٨)، ومع بداية عصر سعيد عادت مصر إلى مبدأي التخصص الاقتصادي والحرية الاقتصادية، وظلت سياسة مصر الاقتصادية سائرة على هذين المبدأين على امتداد عصري كل من إسماعيل وتوفيق وحتى بداية الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢.

والثابت تاريخياً أن الزراعة المصرية قد شهدت عدة تغيرات جذرية وهامة في عهد محمد علي واستمرت في زمن خلفائه، وكانت محصلاتها حدوث ما يمكن أن نسميه «ثورة»[٧] في مجال الري، الذي تحول من نظام الري الحوضي[٨] المعروف منذ القدم، إلى الري الدائم الذي أدخل في مصر لأول مرة آنذاك. مما كان له أكبر الأثر في زيادة المحاصيل الزراعية واتساع رقعة الأراضي المنزرعة بالمحاصيل الصيفية، تلك التي كانت قليلة أو شبه منعدمة من قبل إدخال نظام الري الدائم. لقد سار محمد علي في بداية عهده على طريقة الري الحوضي بعد تنقيتها تنظيما جديدا، تتخلص في إنشاء حياض كبيرة، مما استلزم إصلاح الترع القديمة، وشق أخرى ومصارف جديدة. وما تبع ذلك من إقامة العديد من الجسور والقناطر، وعلى الرغم من تلك الجهود فإن جزءا من أراضي الوجه القبلي لم يكن يصله مياه الفيضانات المتوسطة الارتفاع[٩].

وإذا انتقلنا إلى الوجه البحري، ونتيجة لاتساع رقعة الأراضي المنزرعة بالقطن والأرز والسمسم والكتان، نجد أنه كان من المحتم على محمد علي التوسع في نظام الري الدائم. فكان أن قام بشق العديد من الترع الصيفية[١٠]، التي كرست لدى الأراضي المغلة للمحاصيل الوفيرة كالأرز والسمسم بعامة والقطن بخاصة تلك المحاصيل التي كانت تزرع في أواخر أبريل، وفي خلال شهر مايو مما كان يعني ريها قبل موعد الفيضان في شهر يوليو، وحيث تزداد كمية المياه اللازمة للري في تلك الترع. أما الترع النيلية والتي كانت تستمد

مياهها مباشرة من فرعي دمياط ورشيد فلقد عمقها محمد علي، ومن أشهر الترع الصيفية التي أقامها محمد علي الخطاطبة، والمحمودية، والسرساوية، والمباجورية، وبحر شبين، والشرقاوية، وبحر مويس، والبوهية، والمنصورية وغيرها من الترع[١١]، مما كان له أكبر الأثر في ازدهار نظام الري في عصر محمد علي، وبالعكس وفي عهد عباس (١٢٦٥ -١٢٧٠هـ/١٨٤٨- ١٨٥٤م) لم يتقدم نظام الري في مصر إذ توقف حفر الترع وبناء القناطر وإنشاء الجسور، كما أهمل تطهير الترع.

أما في عهد سعيد فقد عاد النشاط إلى منشآت الري، وقد تبلور هذا النشاط في عهد الخديو إسماعيل فالثابت أن إسماعيل ما إن تربع على العرش (١٨ يناير ١٨٦٣) وبعد وفاة عمه سعيد حتى ترسم خطا جده (محمد علي) بالعمل على زيادة الثروة الزراعية كما وكيفا، وذلك بأن أصدر أوامره إلى وزارة المالية يحثها على إنشاء إدارة خاصة للري على أن تدمج فيها مصلحة المساحة[١٢]. وحرصا منه على إنماء ثروة مصر الزراعية، عمل على توفير وسائل الري لكافة أراضي البلاد، خاصة وأنه لا تزال هناك مساحات واسعة من الاراضي تروى ريا حوضيا، فضلا عن أراض أخرى لم تكن مياه الري تصلها رغم صلاحيتها للزراعة[١٣].

ونتيجة لهذا شهد عصر إسماعيل مشروعات للري والزراعة بارزة حيث شقت وأصلحت الترع في الوجه البحري والقبلي، وأقيمت قناطر وجسور، وإزدادت رقعة الأراضي الزراعية. وهذا البحث يهدف إلى إلقاء الضوء على تلك المشروعات بالتفصيل وبيان تأثيرها في حركة النهضة التي شهدتها مصر في عهد إسماعيل.

الترع والرياحات

شقت وأصلحت الكثير من الترع في كلا الوجهين: البحري والقبلي، وبلغ مجموع ما تم انجازه في هذا الشأن على امتداد عهد إسماعيل حوالي مائة واثنتي عشرة ترعة[١٤]. ولقد بلغ مجموع مكعب حفرها مائة وثلاثة وعشرين مليون متر[١٥]، وبلغت تكاليف إنشائها ١٢,٦٠٠,٠٠٠ جنيه، ومجموع أطوالها ٨٤٠٠ ميل أي حوالي ١٣٠٠٠ كيلو متر[١٦]. ومن أبرز هذه الترعة، ترعتي الإبراهيمية والإسماعيلية.

١- الترعة الإبراهيمية:

تبلورت فكرة إنشائها في ذهن إسماعيل بعد أن وضع يده على مساحة عظيمة من الأرض يبلغ زعامها ٢٣٣٣٣٣ فدان، تقع شمالي مدينة أسيوط، فرأى

ضرورة شق ترعة صيفية كبيرة تروى منها أرضه هذه، هى وتوابعها من الأ راضى الواقعة بإقليم الفيوم صيفا[٢٧] فكان أن أصدر أمره السامى فى عام ١٨٦٣ بتكليف بهجت باشا بفحص هذا المشروع[٢٨] وإمكانات تنفيذه. وبدأ بهجت باشا فى عمل التصميمات والرسومات اللازمة تمهيدا للقيام بأعمال الحفر والبناء، فكان أن أعد «خريطة تبدأ من أسيوط إلى جسر كوم الصعايدة إلى القناطر الخيرية». وكان الرأى فى ذلك الوقت أن يكون «امتداد الترعة الإبراهيمية إلى حد القناطر الخيرية»، حيث تصب فى رياح البحيرة. هذا، وبعد إعداد الرسومات، عرضها بهجت باشا على الخديو إسماعيل الذى أصدر أمره بخروج المشروع إلى حيز التنفيذ، وبالفعل بدأ العمل فى المشروع فى عام ١٢٨٤ هـ/ ١٨٦٧م وأنجز تماما فى عام ١٢٨٩/ هـ١٨٧٢م، أى استمر العمل فى إنجازها ما يقرب من ست سنوات[٢٩]. ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن ما يقرب من مائة ألف عامل قاموا بإنجازه بطريق السخرة وتبدأ الترعة قرب مدينة أسيوط حيث تمتد مياهها من النيل مباشرة وتنتهى عند بلدة أشمنت بمديرية بنى سويف ويبلغ طولها ٢٦٧ كم[٣٠].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، لا تفوتنا الإشارة إلى أن بهجت باشا مصمم ومنفذ مشروع الترعة الإبراهيمية لم يشرف على تنفيذ المشروع حتى نهايته، إذ انتقل إلى تفتيش عموم بحرى فخلفه سلامة باشا فى الإشراف على إتمامها، ثم إسماعيل باشا محمد الذى تم تنفيذ المشروع على يديه فى عام ١٢٨٩ هـ /١٨٧٢م.

هذا ولقد بلغت تكاليف إنشاء ترعة الإبراهيمية ٧٥٠,٠٠٠ جنيه مصرى[٣١]، وعرفت بهذا الاسم (الابراهيمية) نسبة إلى إبراهيم باشا والد الخديو إسماعيل وتخليدا لذكراه. وقد شغلت هذه الترعة كثيرا من الاراضى فى سبيل إنشائها[٣٢]. واخترقت أراضى مديريات كل من أسيوط والمنيا وبنى سويف، مما سهل رى الأراضى الواقعة على ضفتيها أو القريبة منها فى غير أوقات الفيضان، ومن ثم أمكن زراعة القطن وقصب السكر، فى هذه المديريات لأول مرة، مما أدى إلى زيادة حاصلات الأراضى الزراعية التى أصبحت تروى ريا دائما، والتى بلغت مساحتها ٥٨١ ألف فدان سنويا[٣٣]. هذا وإكمالا للاستفادة منها أقيمت على الترعة الإبراهيمية عدة قناطر هى: قناطر التقسيم وقناطر المنيا ومطاى ومغاغة وببا.

ويأتى فى قمتها «قناطر التقسيم» التى أقيمت عند ديروط[٣٤]. على بعد ٦٠كم من فم الترعة الإبراهيمية وهى فى حقيقتها خمس قناطر متصلة بعضها بالبعض الآخر ومشيدة بشكل هندسى بديع، الأولى قنطرة الإبراهيمية وهى

مقامة على الترعة الابراهيمية، وبها سبع عيون، والثانية قنطرة بحر يوسف وبها خمس عيون وهويس، والثالثة قنطرة فم الترعة الديروطية، وهى بثلاث عيون، والقنطرة الرابعة قنطرة فم ترعة الساحل وهى بعينين اثنتين، أيضا، وتوزع قناطر التقسيم المياه على فرع من الفروع الآخذة من الترعة الإبراهيمية[٣٥]. وهذه القناطر من تصميم وتنفيذ المهندسين المصريين، ولقد صممت بمعرفة بهجت باشا، وتم رمى الخرسانة وفرشها على يد سلامة باشا[٣٦] وتم بناؤها على يد إسماعيل باشا محمد[٣٧]

وجميع قناطر التقسيم مبنية بالحجر والطوب وأحجارها صلبة جامدة، وبناعمة الملمس وقابلة للصقل حيث تعطى بريقا لامعا يسر الناظر إليها. وقد بلغت تكاليفها ٣٩٦,٣٥٤ جنيها[٣٨] وقد عمل فيها ٨٢٠٠ عامل[٣٩].

وكان العمل الجارى فى الترعة الابراهيمية والقناطر التى أقيمت عليها يجرى فى وقت واحد لغرض واحد، وهو إيجاد الزراعة الصيفية فى ارض مضى عليها عدد من القرون والأجيال ولم يخطر على بال أحد من الملوك فى مصر أن يقوم بمثل هذه الأعمال[٤٠].

وهكذا يتضح مدى أهمية ترعة الإبراهيمية وقناطر التقسيم كواحدة من أهم مشروعات الرى وأعمال العمران الهندسية فى عصر إسماعيل، والتى كانت محل إعجاب وتقدير كل من شاهدها من المهندسين المصريين والأجانب على حد سواء، ولقد قال عنها المستر «فولر» المهندس الإنجليزى فى ذلك العهد بعد أن شاهدها أنه «خير للسياح الذين يفدون على مصر لمشاهدة الآثار القديمة أن يشاهدوا تلك الآثار الحديثة وهى ترعة الإبراهيمية وقناطرها»[٤١].

٢- الترعة الإسماعيلية:

من الترع الهامة التى تم حفرها فى عهد الخديو إسماعيل، وهى ملحقة بقناة السويس ولكن بعد صدور حكم نابليون الثالث فى النزاع على قناة السويس فى السادس من يوليو ١٨٦٤م، تنازلت الشركة للحكومة المصرية عن كل حق لها مقابل تعويض مالى قدره ٩٤٠ ألف جنيه. وعلى أن تلتزم الحكومة بإتمامها مع منح الشركة حق الانتفاع من مياها[٤٢]. هذا ولقد أصدر إسماعيل أوامره بسرعة إتمام شق الترعة أملا فى تحقيق رغبته الملحة فى إحياء ما يمكن إحياؤه من أرجاء الصحراء الغربية الشمالية[٤٣].

وتبدأ تلك الترعة من النيل عند شبرا. وتصل إلى قناة السويس عند الإسماعيلية. وهناك تتفرع إلى فرعين أحدهما يتجه جنوبا إلى مدينة السويس، والآخر يتجه شمالا إلى مدينة بور سعيد ويبلغ طولها ١٢٩ كيلو مترا

وتشمل المسافة الممتدة من بدايتها حتى بلدة «نفيشة»، ناهيك عن ٨٩ كيلو مترا أخرى تشمل المسافة الممتدة من «نفيشة» إلى السويس. وبالترعة الإسماعيلية عدة قناطر هى قنطرة الفم، وبها ستة عيون وهويس ورصيفها ملاصق لرصيف قصر النيل. وقنطرة (سرياقوس) وبها منفذان (عينان) وهويس فضلا عن قنطرتى بلبيس والعباسة[٣٤].

هذا ولقد ذكرت المصادر أن إتمام شق الترعة قد تم على أيدى مهندسى الحكومة المصرية. وذلك طبقا للمذكرة التى تم تقديمها من قبل على بد المهندس الفرنسى (ليفان) دون أى اعتراض من جانب مهندس شركة القناة وفى عام ١٨٦٩ أتخذت التدابير اللازمة لبدء تنفيذ المشروع فى الأراضى المحاذية للوادى من الناحية الشمالية قرب حى شبرا[٣٥].

وفى عام ١٢٨٦هـ / ١٨٧٠م صدر قرار من مجلس شورى النواب بضرورة إنجاز عمليات الحفر وإتمام كافة الأعمال والمنشآت الملحقة بالترعة الإسماعيلية، كالقناطر والمبانى تحقيقا للهدف الأساسى من إنشائها[٣٦]. هذا ولقد بلغ تقدير نفقات إنشاء الترعة بما فيها الفم عند شبرا مبلغا وقدره ١٢٤٠,٠٠٠ جنيه مصرى[٣٧].

وبصرف النظر عن كبر حجم تكاليف إنجاز مشروع تلك الترع، فلا ريب أن إتمام شقها يعد من الأعمال العظيمة التى أضافت صرحا جديدا إلى صرح المشاريع البناءة التى أقامها إسماعيل خدمة لمصر والمصريين، فلقد كان لهذه الترعة أكبر الأثر فى رى أراضى كل من مديريتى القليوبية والشرقية، فضلا عن جهات قناة السويس[٣٨] وبالأخرى جلبت الخصب للعديد من السهول الواسعة الجدباء التى كانت منتشرة فى الأراضى المارة عبرها، مما ساعد على انتشار زراعة القطن والأشجار الكبيرة فى تلك المناطق[٣٩] بعد أن كانت غير مأهولة بالسكان، خاصة وأن الخديو إسماعيل ورغبة منه فى تعمير تلك الجهات، قد أصدر أوامره بضرورة إعطاء الأهالى تراخيص بامتلاك الأراضى الواقعة على امتداد ضفتيها وكلف هؤلاء بوجوب أشغال ربع المساحة المملوكة لهم بالمبانى[٤٠]. هذا، وتكريما لصاحب الفضل فى إتمام هذه المشروع العملاق عرفت الترعة باسم ترعة الإسماعيلية، تكريما وتخليدا لاسم منشئها الخديو إسماعيل.

والحقيقة أن اهتمامات إسماعيل بالزراعة، كانت السبب الرئيسى وراء شق مثل هذه الترع المشار إليها آنفا، وإكمالا للفائدة المرجوة من مياه النيل، لم تقتصر اهتمامات إسماعيل على مثل هذه المشروعات اللازمة للرى فحسب، بل عمل كذلك على إصلاح الرياحات وتطهير كل من الترع القديمة والترع المنشأة حديثا.

ولتحسين الزراعة فى مصر وزيادة دخلها، اهتم إسماعيل بوسائل الرى، فكان أن شق العديد من الترع مثل تلك المشار إليها آنفا، وإكمالا للفائدة المرجوة من مياه النيل بعامة قام إسماعيل بإصلاح رياح المنوفية، الذى كان قد أنشأه سعيد باشا فأعاد إسماعيل حفره وتعميق مجراه، كما أمر ببناء عدة قناطر، ورياحات وترع أخرى كما سنوضحه بالتفصيل هاهنا[٤١].

وتحقيقا لأهدافه السابقة، حشد إسماعيل نحو ثمانين ألفا من العمال والفلاحين لإعادة حفر وتعميق الرياح المنوفى، بدءا من الفم وانتهاء بالتقائه ببحر شبين فى عام ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م فى غضون ستين يوما[٤٢]. هذا وبعد إتمام حفر الرياح المذكور تحولت منابع جميع الترع التى كانت تستمد مياهها من النيل مباشرة إليه، واعتمدت على مصادر مياهه كلية، وكذا أصبح الرياح المنوفى أهم مصادر مياه الرى فى مديريتى المنوفية والغربية[٤٣].

هذا ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن متابعة قوة تدفق المياه الناتجة من الرياح المنوفى كانت تحت إشراف مهندسى بحرى، بدليل الأمر الصادر فى ذى القعدة ١٢٨٦ هـ/ فبراير ١٨٧٠ إلى مفتش هندسة بحرى بالتوجه لإجراء اللازم وتوفير مياه الرى لأراضى مديريتى المنوفية والغربية، تفاديا للشكاوى الخاصة بعدم كفاية مياه الرياح لرى المديريتين المذكورتين فى العام السابق ١٢٨٥ هـ/ ١٨٦٩ م[٤٤]. كذلك تم فى عهد الخديو إسماعيل إصلاح طلمبات العطف عام ١٨٧٠م وذلك بتقويتها، مما سهل تغذية ترعة المحمودية بثمانمائة ألف متر مكعب من المياه يوميا[٤٥]. ومن ثم توفرت المياه اللازم لرى الأراضى الواقعة على ضفتيها وتوابعها، وبالمثل تم إنشاء رياح البحيرة فى عهد إسماعيل وكان قد أصدر أمره إلى الداخلية بسرعة إجراء العمل فى رياح البحيرة[٤٦]. توفيرا لمياه الرى اللازمة للزراعة فى أراضى مديرية البحيرة. ولقد بلغ طوله ٤٢١٠١ مترا، وبلغ مكعب الحفر الناتج عنه ٩٤٥ ٣١٧ ١٢ مترا مكعبا، ولقد صدر الأمر إلى مفتش هندسة بحرى فى عام ١٨٧٠م بإجراء ما يلزم من حفره[٤٧].

وإضافة إلى ما سبق الإشارة إليه من مشروعات الرى التى أنجزت فى عهد الخديو إسماعيل والمتمثلة فى شق الترع والرياحات، حولت الكثير من الترع النيلية، إلى ترع صيفية، أملا فى توسيع مساحة رقعة الأراضى المنزرعة بالمحصولات النقدية بعامة والقطن بصفة خاصة. وتم إنشاء ترع أخرى مثل: الفاطورة، والمكاسر والعصلوجى (بمديرية الشرقية)، وترعتى الحاجر الغربية والشرقية (بمديرية البحيرة) كما حول كثيرا من الترع القديمة إلى ترع صيفية، كالسرساوية، والسمسبة، والملوانية، وترعة الثعالب، وترعة سبخا، وترعة الألفى، وترعة الساحل، وترعة فويسنا وترعة حسن.. إلخ

وجميعها بالمنوفية والغربية، وترعة القرطامية والفليفلة (بمديرية القليوبية)، وترعة مصطفى أفندى وبحر الرمل (بالشرقية)؛ ومن الترع القديمة التى حولت إلى ترع صيفية بالدقهلية: ترعة حفصة وترعة الغفارة وترعة الأفندية وبحر طناح وميت يعيش[٤٨].

هذا، ولعلنا نجد فى أوامر الخديو، فضلا عن قرارات مجلس شورى النواب العديدة، الدليل القاطع على صحة ما سبق الإشارة إليه من اهتمامات إسماعيل بالزراعة، لأهميتها لمصر والمصريين وخزانة البلاد بعامة، ولقد أشارت المصادر والمراجع إلى العديد من الأوامر الخديوية وقرارات النواب الخاصة بهذا الشأن. نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، قرار مجلس شورى النواب بتطهير الترع، وتعميم مياهها والإكثار من شقها، فضلا عن حتمية تنظيم زراعة المحاصيل الصيفية فى الوجهين القبلى والبحرى بما يتفق وحاجة الأراضى للمياه، ولقد أيد الخديو قرار النواب السابق وأمر بتنفيذه على الفور[٤٩]. هذا من جانب، ومن جانب آخر اهتم إسماعيل بتطهير الترع والرياحات، فنجده يأمر الداخلية فى شهر مايو ١٨٦٨ بتطهير ترعة الإسماعيلية، تحت مباشرة على مبارك، وصرف مبلغ ٣مليم ٨٤ قرش ١٩٥ جنيه إلى كل من يرافقه من مهندسين وغيرهم[٥٠]. ومن جانب ثالث صدرت الأوامر إلى الداخلية وديوان الأشغال فى رجب ١٢٨٦ هـ/ ١٨٦٩م بضرورة تطهير الترع الكبيرة بالكراكات بدلا من استخدام الأهالى، مثل ترع المحمودية والخطابة، والإبراهيمية وغيرها، على أن تكون الكراكات جاهزة للعمل فى تطهير تلك الترع فى خلال ستة أشهر بدءا من يونيو ١٨٧٠[٥١]. وأشارت الوثائق إلى أن الخديو إسماعيل أصدر أوامره إلى الداخلية بشراء ثمان كراكات لاستخدامها فى تطهير رياحى المنوفية والبحيرة اللذين يرويان أراضى المديريات الثلاث: الغربية والمنوفية والبحيرة، بدلا من استخدام الأهالى[٥٢] وبناء عليه كلف أحد المهندسين بالسفر إلى أوروبا ومعه ألف جنيه مصرى، لشراء تلك الكراكات بدلا من تعطيل الأهالى عن أعمالهم الضرورية وتوفيرا للجهد وضماناً لسرعة إنجاز العمل والاستفادة منه كما أسلفنا[٥٣].

كذلك شرع فى عام ١٨٦٩ فى تطهير ترعتى الشرقاوية والبسوسية وعدة ترع أخرى فى مديرية الشرقية وكلف محمد حجاج بك مدير المديرية بالإشراف على عملية التطهير بمعاونة محمد أفندى الصيرفى وكيل المديرية[٥٤] ولا شك أن عمليات التطهير كانت مكلفة للدولة، خاصة وأنها كانت سنوية فى الغالب، ويؤيد هذا ما ذكرته المصادر بشأن صرف ما يقرب من خمسة وعشرين ألف جنيه سنويا فى أعمال تطهير الترعة الإبراهيميه وحدها[٥٥].

ورغم تلك التكاليف لم يأل إسماعيل جهدا فى القيام بتلك العمليات هى وغيرها، فضلا عن إقامته للجسور والأهوسة وغيرها من المنشآت اللازمة لتحسين عملية الرى ومواجهة ضبط مياه الفيضان، تحقيقا لسياسته الرامية إلى النهوض بالزراعة ضمانا لتوفير الأمن الغذائى للمصريين وضمانا لزيادة دخل البلاد وميزانية الدولة. ولعلنا نجد فى تقرير مستر «بيرليزلى» قنصل الولايات المتحدة الأمريكية فى مصر والمرسل إلى وزارة خارجيته فى عام ١٨٧٣م ما يؤكد هذا الرأى من جانب، ومن جانب آخر ما يؤكد اهتمامات إسماعيل الكبيرة بتحسين وسائل الرى ليس بتطهيره جميع الترع تطهيرا تاما وتعميق الكثير منها فحسب، بل وببنائه العديد من الجسور الواسعة والقناطر «على طول النيل فى الدلتا لضبط مياه الفيضان كذلك»[٥٦].

القناطر والجسور

لم يهتم الخديو إسماعيل بإنشاء الترع وتطهيرها فحسب، بل امتدت اهتماماته بإقامة الجسور والقناطر على النيل وذلك لضبط المياه اللازمة للزراعة وحسن توزيعها.

هذا ولا ريب أن ما أصاب القناطر الخيرية من خلل فى بعض عيونها مما هدد بانهيارها قد لفت نظر إسماعيل وجعله يلقى بدلوه كاملا فى خضم بحرها من العمل الدءوب ليس لإصلاحها هى وغيرها من القناطر والجسور والأهوسة فحسب بل ولبناء العديد منها كذلك وأية هذا الرأى ما أوردته المصادر بشأن اللجنة التى أمر إسماعيل بتكوينها لدراسة حالة القناطر والتى قدمت تقريرها إليه فى الرابع من يوليو عام ١٨٦٣م وخاصة وقف شق أى ترع جديدة إلى حين التحقق من صلاحية القناطر ومتانتها[٥٧] وفى عام ١٨٧١م رفعت مذكرة أخرى إلى الخديو إسماعيل أفادت سوء حال قناطر فرع رشيد بشكل يتهددها بالخطر وأكدت إن إصلاحها هى والأعمال الأخرى الخاصة بالقناطر سوف يكلف الدولة أموالا طائلة، وعلى الفور وبعد تصفحه المذكرة استدعى مستر «فولر» كبير مهندسيه وكلفه بإتمام العمل فى القناطر وغيرها من الأعمال الأخرى، وألا يألو فى ذلك جهدا حتى يفرغ من تلك الأعمال مهما كلفه من نفقات أو استدعى من عمال[٥٨] ولقد قام مستر «فولر» بفحص القناطر الخيرية فى عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م ولقد وضع خطة لإصلاحها وتكملة النواقص فيها، ولقد تم ذلك فى بداية عام ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م ولقد تكلفت تلك الإصلاحات حوالى مليون جنيه، وبهذا العمل الضخم تم تحقيق الهدف الأصلى منها لإتمام رى الأراضى التى لم تكن تصل المياه إليها من قبل[٥٩].

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الخديو إسماعيل لم يأل جهدا من أجل إصلاح القناطر والجسور بعامة، والقناطر الخيرية بخاصة، أملا فى تحقيق

الهدف المرجو من إقامتها. ويؤكد هذا الرأى ما ورد من الوثائق فنجد أنه صدر أمر كريم بتقديم المساعدة اللازمة من أجل إنجاز أعمال العمارة الجارية فى عيون القناطر الخيرية الثمان تحت إشراف ومراقبة على باشا مبارك[٦٠] وفى نفس الشهر والعام صدر أمر آخر «٢٤ محرم ١٢٨٦هـ/ مايو ١٨٦٩م» بتكليف بهجت باشا مفتش هندسة بحرى بترميم ما ظهر من خلل فى بعض عيون القناطر الخيرية، واستكمال ما كان قد بقى منها دون إصلاح من جهة ومن جهة أخرى يتم ترميم فم ترعة الإسماعيلية مع ضرورة الانتهاء من ذلك فى عضون هذا العام «١٢٨٦هـ/١٨٦٩م»[٦١].

ولا شك أن الأعمال قد قامت على قدم وساق من أجل إتمام الأعمال الخاصة بترميم وعمارة القناطر الخيرية. بغض النظر عن التكلفة المالية مهما كانت قيمتها، بدليل القرار الصادر من المجلس الخصوص لإعداد مقايسة بتكلفة قدرها ٣٠٠,٠٠٠ قرش، يعدها ديوان الأشغال تمهيدا لبناء ورش التشغيل والمخازن الخاصة لحفظ المعدات والأجهزة اللازمة لإتمام أعمال الترميم وعمارة القناطر الخيرية[٦٢].

وإذا نظرنا إلى الأمر العالى الصادر إلى ناظر الداخلية فى «شعبان ١٢٨٣هـ/ديسمبر ١٨٦٦م» نجد أنه يؤكد حتمية إنشاء أهوسة بكل القناطر المقامة على الترع سواء كانت مستجدة أو قديمة، ضمانا لوقايتها وصيانتها[٦٣] هذا من جانب ومن جانب آخر إذا علمنا أنه قد تمت موافقة المجلس الخصوصى وتصريحه لديوان الداخلية بشراء الثمان فلايك اللازمة لهويسات وقناطر ترعة الإسماعيلية[٦٤]. ناهيك عن موافقة المجلس ذاته لديوان الداخلية على تصليح الخلل الواقع بمصرف ثغيشة وبهويس القصاصين بالأعمال الصناعية التى أجرها الخواجة «بانونو» بالترعة الإسماعيلية[٦٥] أضفنا جديدا يؤكد صحة ما وصلنا إليه آنفا بشأن اهتمامات إسماعيل القوية بأعمال الرى والزراعة بعامة وضرورة إقحة العديد من المنشآت اللازمة لها كالقناطر والجسور وشق الترع. وإصلاح القديم منها.

وتؤكد الوثائق الرسمية الاتفاق مع الخواجة «استانلى» بشأن توريد خشب الأرو اللازم لعملية هويس السويس حسب المقاسات المعمولة، على أن يكون سعر القدم المكعب ٢٧ قرشا بما فيه تكلفة الشحن ومصاريف النقل حتى محطة الإسكندرية[٦٦]. كما تمت موافقة المجلس الخصوصى لديوان الأشغال بعمل بوابة لهويس السويس وتم عمل المقايسة بمعرفة مهندس تنظيم السويس بتكلفة قدرها ٧٩٠١ قرش[٦٧] وذلك ضمانا لإنهاء الترميمات التى كانت تجرى فى الترعة الإسماعيلية[٦٨] وكان من الضرورى المرور على الأهوسة فى

كل من السويس والإسماعيلية للإشراف على عمليات الفتح والغلق لذا صدرت الأوامر فى سبتمبر عام ١٨٧١م إلى تفتيش هندسة بحرى لإرسال أحد معاونى الهندسة تحقيقا لهذا الغرض[٦٩] كذلك نجد أن مجلس شورى النواب قد اهتم بدراسة الجسور الموجودة فى الصعيد بحيضان الرى ثم بأعمال القناطر. كما قضى بتنظيم المياه الراكدة فى أطيان الوجه القبلى بإقامة القناطر[٧٠].

ولا مراء فى أن حكومة الخديو إسماعيل قد اهتمت بالمحافظة على جسور النيل والترع وتقويتها بدليل ما ورد فى الوثائق والمصادر الأصلية وغيرها من المراجع وأية ذلك الرأى ما أمدتنا به وثيقة صدرت فى صفر ١٢٨٠هـ/أغسطس عام ١٨٦٣م فى صورة أمر عال إلى مفتش هندسة بحر الشرق تخبره بأنه من المنتظر زيادة النيل ولذلك «اقتضى الأمر تتميم وتقوية عمليات الترع والجسور والقناطر والبرابخ وغيرها وذلك وقاية من حصول أدنى خطرات»[٧١]. وفى مارس من العام التالى ١٨٦٤م صدر قرار يفيد تشغيل ٢٤٠٠ عامل من مديريات بحرى فى أشغال جسور البحر الأعظم بمديرية البحيرة وفى تطهير ترعة الخطاطبة والترع المتفرعة منها[٧٢].

وفى عام ١٨٦٨ تم إنشاء قنطرة «أبى راضى الحديدية» فى خمسة وثلاثين يوما وقد بلغ طولها ١١٢ مترا، وذلك لتصريف المياه التى ترجع من حوض ثغيشة من جهة ولدى أطيان حوض الرقة وأراضى الجيزة والبحيرة وقت اللزوم من جهة أخرى ولقد ركبت عليها قضبان حديد لتسهيل مرور «وابورات السكة الحديد منها إلى فرع الفيوم». وكان لتلك القنطرة رأسان محكمتا البناء بالأحجار، وتم وضعها على أعمدة من الحديد مملوءة بالخرسانة كما أن بها «خمس عيون»[٧٣] وفى عام ١٨٧١م تم إنشاء قنطرتين إحداهما مكونة من «خمس عيون فى فم رياح المنوفية» والأخرى صيفية بعينين فى فم ترعة السرساوية الخارجة عن الرياح المنوفى»[٧٤].

هذا وعلى امتداد الفترة الزمنية الممتدة من عام ١٨٦٣ حتى عام ١٨٧٠ - ١٨٧١م تم إنشاء عدد ضخم من الكبارى بلغ مقداره «٢٤٥ كوبريا» هذا بالإضافة إلى عدة مشروعات متنوعة بلغت ٤٩ مشروعا، فضلا عن خمس قنوات مائية، وقد بلغ إجمالى أطوالها ٨٢٥ كيلو مترا، ومجموع الأمتار المكعبة من أدوات البناء المستخدمة لإنجازها ٩١,٧٠٠,٠٠٠ متر مكعب[٧٥] مما يؤكد عظم حجم مشروعات الرى والزراعة التى أنجزت فى عصر إسماعيل.

وأخيرا ثمة نقطة هامة ينبغى الإشارة إليها، وأعنى بها أنه فى أوقات الفيضانات المرتفعة كما حدث فى عام ١٨٦٥م كانت الأوامر تصدر فورا بضرورة «تقوية الجسور وتجهيز أبواب البرابخ والقناطر وتجهيز الأحجار والأخشاب ووضعهم بالمحلات اللازمة وترتيب الخفراء والمرور دائما لملاحظة الأعمال

والتنبيه على المهندسين بخصوص ما يلزم تلافيه لحدوث أى أضرار»(٧٦) كذلك تم فى عام ١٨٧١م موافقة المجلس الخصوصى على مقايسة ديوان الأشغال لعمل الإصلاحات اللازمة لسد أبى قير، وقد بلغت تلك المقايسة ٥٠٠ جنيه مصرى(٧٧) وفى عام ١٨٧٣م عملت مقايسة خاصة بتكلفة العمارات والمهمات اللازمة لحفظ نيل ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م بمديرية الفيوم بمبلغ ٨٠٦٦٤ قرشا(٧٨).

والخلاصة وعلى ضوء ما سبق ذكره يمكننا القول بلا تحفظ إن إسماعيل قد اهتم اهتماما كبيرا بالمنشآت الخاصة بالزراعة والرى على امتداد عصره ولعلنا نجد فيما ذكرناه على امتداد الصفحات السابقة عن العديد من الترع والقناطر والأهوسة والجسور «الكبارى» التى أنشأها ما يؤكد صحة ما وصلنا إليه فى هذا الصدد ولا شك أن هدفه الأول كان تحسين الناتج الزراعى ضمانا لتحسين أحوال البلاد المالية وضمانا لتدفق الأموال على خزانة الدولة، ومن ثم ضمانا لتحقيق طموحاته فى الظهور بالمظهر اللائق به وبشعبه بين شعوب أوربا

استخدام الآلات البخارية

بالرغم من كل الجهود التى بذلت لتحسين وسائل الرى الدائم فقد كان مستوى المياه فى الصيف منخفضا عن الأراضى الزراعية بعدة أمتار مما اقتضى استخدام الآلات الرافعة.

وقد كان الرواج الذى شاهده سوق القطن المصرى أثناء الحرب الأهلية الأمريكية «٢ أبريل ١٨٦١م - ١٤ أبريل ١٨٦٥م» دافعا للحكومة والأهالى على التوسع فى زراعة القطن مما استلزم معه زيادة الاهتمام بوسائل الرى كما كانت عملية رواج القطن وحصيلته النقدية وتحقيقه عائداً أكبر للفلاحين قد قدم حافزا مشجعا على التغيير فى وسائل الرى، ولما لم تف أساليب الرى التقليدية المعتمدة على قوة الإنسان والحيوان متمثلة فى استخدام الشادوف بالغرض، لذا ظهر اتجاه قوى فى بداية حكم إسماعيل لاستخدام الآلات البخارية فى الرى من جانب ومن جانب آخر قرر بعض رجال المال الأجانب استخدام وابور المياه فى الرى، مما ساعدهم على مضاعفة مساحة أراضى الوجه القبلى المنزرعة قطنا(٧٩).

وكما هو معروف وكعادة المستثمرين الأجانب الساعين إلى تحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح، ولرغبتهم فى الاحتفاظ بأموالهم فى صورة سائلة نوعا ما، فكر هؤلاء فى الإسهام فى عمليات تمويل زراعة القطن وتجارته من جانب، ومن جانب آخر اتجه بعضهم إلى إنشاء شركة خاصة هدفها إحلال الآلات البخارية محل الإنسان والحيوان فى رى الأراضى الزراعية، فضلا عن تأجير

مضخات مياه الرى المملاك، نظير مبلغ يدفعه للشركة يتناسب وكمية مياه الرى المقدمة إليهم، مع إشراف الشركة على تركيب وصيانة تلك الآلات والحفاظ عليها، ولكن الخديو إسماعيل أعرض عن المشروع بعض الوقت خوفا من آثاره الناجمة عن اتصال الأجانب مباشرة بالفلاحين لذا نجده يفضل قيامه بنفسه باستيراد تلك المعدات البخارية وبيعها لزراع القطن مباشرة(٨٠) ولعل ذلك يفسر سبب تأسيس «الشركة الزراعية المصرية» فى عام ١٨٦٤م برأس مال فرنسى أوربى، والتى قامت باستيراد المضخات والآلات الزراعية وتوزيعها فى البلاد من خلال فروعها المنتشرة بها(٨١). وهكذا شاهد عصر إسماعيل لأول مرة استخدام الآلات البخارية فى الرى كخصلة طبيعية للتوسع فى زراعة القطن وغيره من المحاصيل النقدية.

ومنذ ذلك الحين فصاعدا ورغم اهتمام الدولة منذ عصر سعيد بتوسيع رقعة الأراضى المزروعة قطنا، كانت أوامر إسماعيل تسرى على الزراع لحثهم على الاهتمام بأمور الزراعة ضمانا للتوسع فى زراعة القطن وتأمينا للمياه الغزيرة اللازمة لزراعته.

إدارة نظام الرى:

اهتم الخديو إسماعيل اهتمام كبيرا بمشروعات الرى كما رأينا، ومن الطبيعى كان عليه أن ينشئ مصلحة للإشراف على تفاتيش رى الوجهين البحرى والقبلى، ولقد تم ذلك بالفعل فى عام ١٨٦٤م وعرفت باسم مصلحة الرى. وكانت تابعة لنظارة الأشغال وتم توحيد منصب مفتش عام هندسة رى بحرى ومفتش عام هندسة رى قبلى، وطبقت على موظفى تلك المصلحة الرتب المختلفة، مثل رتبة الملازمين واليوزباشية وغيرها(٨٢).

ولقد كانت الطريقة المتبعة فى تلك الآونة، وبالنظر فى شئون الرى المختلفة، هى إصدار الأمر بعقد جمعية عمومية تتكون من مفتشى الرى بالأقاليم، ومن المديرين، وباشمهندسى المديريات مع الاسترشاد بآراء العمد(٨٣) فى كافة المشروعات المقترح إنجازها فى بلادهم قبل البت فيها. ولقد أنشئت فى كل مديرية إدارة خاصة للإشراف على أعمال الرى عرفت باسم «تفتيش الرى» يديرها وكيل التفتيش وعدد من المهندسين والكتبة والموظفين وبها عدد من السعاة(٨٤).

وقد بلغ اهتمام الخديو إسماعيل بمصلحه الرى وديوان الأشغال درجة عظيمة، لدرجة إصداره أمره الكريم إلى المجلس الخصوصى فى عام ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م بالموافقة الفورية على الكشف المقدم من على باشا مبارك

مستشار نظارة الأشغال العمومية يبين فيه قيمة ماهيات ومصروفات ديوان الأشغال وتفتيش الهندسة، ومصالح الري، ومأموريات تقسيم المياه، وخدمة التنظيم في الوجهين القبلي والبحري وقد بلغ إجمالي ماهياتهم سنويا حسبما أكدت الوثائق الرسمية ٨٨٠٢ كيسة وكسورها يساوي «٤٤٠١٠» جنيه[٨٥]. كذلك أصدر أمرا كريما آخر إلى ديوان الأشغال بإشعار المالية باعتماد المبلغ المذكور عاليه والذي يمثل جملة الرواتب والمصروفات والميزانية لتفاتيش الهندسة ومصالح الري بمأموريات تنظيم المياه وخدمة التنظيم بالأقاليم في وجهي بحري وقبلي[٨٦]. مما يؤكد مدى اهتمامه البالغ بمصلحة الري وديوان الأشغال كما ذكرنا آنفا.

وإضافة لما سبق لعلنا نجد جديدا يؤيد ما وصلنا إليه متمثلا في اهتمام الخديو إسماعيل بمكافأة كل من يظهر نشاطا في الإشراف على أعمال الري فقد صدر من جنابه العالي إلى الأمير محمد توفيق باشا ما يفيد منح العمد والمشايخ الذين أظهروا نشاطا في أعمال الري بالوجه البحري أوسعة من الدرجة الخامسة مع منح أقرانهم من عمد ومشايخ الوجه القبلي أوسعة مماثلة تقديرا لما بذلوه من أنشطة في نفس الصدد[٨٧].

كذلك نجد أنه في عام ١٨٦٤ قد صدر أمر بتاريخ آخر بإنشاء نظارة للأشغال ضمانا لحسن سير دولاب الخدمة والعمل في مجالات الري والزراعة وقد جاء نص قرار الإنشاء وأسبابه على النحو التالي: «إن أساس التقدم لهذا البلد هو الاعتناء بأمور الزراعة. وهذا لا يحدث إلا بعمل القناطر والبرابخ وإنشاء الترع والجسور وما ماثل ذلك فلذلك اقتضى إحداث نظارة باسم نظارة الأشغال وألحقت القناطر الخيرية بها مع إدارة الهندسة، وقد رأى سمو الخديو إسماعيل تعيين نوبار باشا ناظرا لها لحسن خدماته بالقطر»[٨٨].

وفي يونية عام ١٨٦٩م صدر من المجلس الخصوصي أول لائحة خاصة بتنظيم أعمال الري وكانت تحدد طريقة تجهيز المقايسات وإعداد الرسوم الخاصة بالعمليات المختلفة المتعلقة بإنشاء الترع وتطهيرها، وكافة ما يقام عليها من مبان وكذلك المحافظة على جسور النيل من الفيضانات[٨٩].

وهكذا وعلى ضوء الوثائق السابق الإشارة إليها نجد الجديد الذي يؤكد صحة ما ذكرناه من قبل بشأن اهتمامات الخديوي إسماعيل بأعمال الري والزراعة تحقيقا لأماله العريضة الرامية إلى تحسين أحوال البلاد المعيشية والمالية والوصول بها إلى مرتبة عالية قريبة على الأقل من مرتبة الدول الأوربية، وأن لم تكن مساوية لها.

بالإضافة إلى ما سبق ذكره من مشروعات الري المختلفة في عصر إسماعيل نجد أن المشروعات الهامة التي اقترنت بعصره هي زيادة الإنتاج الزراعي هذا ولا شك أن هذه الزيادة في الإنتاج الزراعي كانت محصلة طبيعية لتطور وسائل الري فضلا عن الاستفادة التي حققتها الزراعة في مصر من وراء حركة التقدم العلمي التي شاهدتها أوربا في مجالات الزراعة بعامة في القرن التاسع عشر، والتي أدت بدورها إلى رقي أساليب الزراعة تلك الأساليب التي شملت عدة مجالات تتلخص في:

الاهتمام بالتعليم الزراعي واستخدام الآلات الزراعية:

في هذا المجال وإكمالا للاستفادة المرجوة من حركة التقدم العلمي في المجالات الزراعية في مصر إبان عصر إسماعيل تم إنشاء مدرسة الطب البيطري في نوفمبر عام ١٨٦٥م كما أعيد إنشاء مدرسة الزراعة[٩٠] في ديسمبر عام ١٨٦٧م وقد ألحقت بمدرسة الطب البيطري، ووضعت المدرستان تحت إشراف إدارة واحدة[٩١] وحدث أن ألغيت مدرسة الزراعة في عام ١٨٧٥م فكان أن أنشأ توفيق باشا ولي العهد في مايو من العام نفسه ١٨٧٥م مدرسة أهلية لتعليم الزراعة العملية حلت محل المدرسة الملغاة كذلك أنشأ إسماعيل مدرسة خصصت لدراسة طرق زراعة الخضروات بحديقة الجزيرة وإجراء التجارب الزراعية فيها، فضلا عن دراسة النباتات الممكن الاستفادة من زراعتها في البلاد[٩٢].

وإكمالا لجهوده في تنمية الزراعة والنهوض بها، نجد إسماعيل قد أمر بطباعة الكتب العلمية الزراعية على نفقه الدولة. فتم طبع كتاب تحت عنوان: «حسن الصناعة في فن الزراعة» من تأليف أحمد أفندي ندا، تمت طباعته في عام ١٨٧١م ووزع على القرى للاستفادة منه في النهوض بأساليب الزراعة وترقيتها[٩٣]. ولقد أكدت الوثائق أن الكتاب قد طبعت منه ٨٠٠٠ نسخة مما كلف خزانة البلاد ١١٦٠٠٠ قرش مصري[٩٤]. كذلك أمر الخديو بطبع أربعة آلاف نسخة من كتاب «حسن البراعة في علم الزراعة» لمؤلفه «فيجري بك» على أن تباع بسعر تكلفتها في القرى للاستفادة منها في مجالات الزراعة[٩٥]. مما يؤكد مدى عمق اهتمامات إسماعيل للنهوض بالزراعة المصرية وتحقيقا لطموحاته هذه واهتماما منه بالزراعة أمر بإعفاء كافة الآلات الزراعية الحديثة الواردة من الخارج من كافة الرسوم الجمركية تلك التي كانت ملكيتها قاصرة على كبار الملاك ذوي الأبعاديات الشاسعة المساحة كما أسلفنا[٩٦].

وإكمالا للاستفادة من التقدم الأوربي في مجالات المعدات والآلات الزراعية أمر إسماعيل بتكوين شركة بالإسكندرية تحت عنوان «الشركة

الحراثية والصناعية» اقتصر عملها على شراء المعدات والآلات المتعلقة بالحراثة والفلاحة وبيعها لمن يرغب من المزارعين في شرائها، فضلا عن تأسيسه عدة ورش متحركة وثابتة بإذن حكومي وفي أماكن خاصة على ضفاف نهر النيل لكفالة الصيانة وإصلاح الآلات المذكورة(٩٧).

وإكمالا لما سبق الإشارة إليه عن مشروعات الري والزراعة وحتى تكتمل صورتها ولكي يتحقق أكبر قدر ممكن للفائدة من ورائها، أنشأ إسماعيل عدة مجالس متخصصة للزراعة تمثلت فيما يلي:

أ- مجلس تنظيم الزراعة:

في عام ١٢٨٤هـ/١٨٦٨م استقر رأي مجلس شورى النواب على تخصيص «قومسيون» خاص بالإشراف على تحسين مجالات الزراعة وتقدمها. ولقد رأى القومسيون ضرورة إنشاء مجلس لكل مديرية يسمى «مجلس تنظيم الزراعة» وهو عبارة عن جمعية تشمل كافة عمد بلاد المديرية على أن ينتخب عمدتان من كل قسم من ذوي الدراية والخبرة في أمور الزراعة. ويجتمع العمد المنتخبون بالمديرية مرتين سنويا لبحث ودراسة كافة الأمور الواجب القيام بها من أجل تنمية وتحسين الحاصلات الزراعية. وتقديمهم تقريرا بما اتفق عليه إلى المديرين لإعلام المهندسين لتيسير الأمور الخاصة بالمياه عند اللزوم. على أن يعين في كل ثلاثة شهور بالتناوب عمدة من غير المنتخبين بالمجلس: وظيفته معاونة ناظر القسم بالمرور على النواحي. ومراعاة حالات الأرض وحاجتها(٩٨).

ب- مجالس تفتيش الزراعة:

في عام ١٨٦٨م طلب الخديو إسماعيل تشكيل مجالس للزراعة عرفت باسم «مجالس تفتيش الزراعة» وتهدف الى تحسن أحوال الزراعة وزيادة العمران وتوسيع نطاق التجارة ولقد كلف إسماعيل المجلس الخصوصي بوضع القوانين المنظمة لتلك المجالس واختصاصها، وطريقة تعيين رؤسائها وأعضائها، على أن تقدم إليها التقارير الخاصة بالزراعة بدلا من تقديمها للمديريات(٩٩).

وفي التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١٨٧١م أصدر المجلس الخصوصي اللائحة الخاصة بتفاتيش الزراعة، ووافق عليها الخديو في آخر ديسمبر من العام نفسه وتتكون من ستة وأربعين بندا هذا. ولقد حدد البند الثاني من اللائحة عدد تلك المجالس بخمسة مجالس اثنان منها في الوجه البحري وثلاثة في الوجه القبلي، على أن يتكون كل مجلس من رئيس ووكيل من المهندسين، وعدد من الأعضاء ينتخبون لمدة عام من بين أهالي المراكز الواقع مجلس التفتيش في دائرتها.

ج- نظارة الزراعة:

هذا وزيادة في الاهتمام بالزراعة وحسن إدارة أمورها، صدر الأمر السامي في عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م بإنشاء نظارة للزراعة لتكون مرجعا لمجالس تفاتيش الزراعة في شتى الأمور الزراعية وعهد بها إلى رياض باشا(١٠٠). ثم ضمت فيما بعد ذلك إلى نظارة الأشغال وفي أوائل عام ١٨٧٦ فصلت عن الأشغال، وضمت إلى نظارة التجارة حيث توحدتا معا في نظارة واحدة برئاسة راغب باشا.

د- ديوان تفتيش عموم الأقاليم:

وكذلك أنشأ إسماعيل ديوان تفتيش عموم الأقاليم وكلف بالتفتيش على المزروعات فإن كانت تتناسب وجودة الأراضي ووفرة المياه ومقدرة وكفاءة المزارعين قام الديوان بترغيب هؤلاء، و العمل على تشويقهم بما فيه تحسين زراعاتهم وزيادة مكاسبهم هذا من جانب ومن جانب آخر اتضح أن الأرض في بعض المواسم لم تستوف حاجتها من مياه الري، فكان لزاما على الديوان إسعاف المزارعين وإتمام عملية الري قبل فوات الأوان(١٠١).

والحقيقة أن الجهود السابق الإشارة إليها، والتي بذلها الخديو لتحسين أمور الزراعة، كان لها أكبر الأثر في رقي الزراعة وتوسيع رقعتها، وزيادة إنتاجها أكثر مما كانت عليه من قبل. فلقد أكدت الوثائق والمصادر أن تلك الجهود قد أدت إلى استصلاح ٤٥٨ سهم ٣٢٧ فدان من الأراضي الصالحة للزراعة بجهات الأقاليم وذلك في عام ١٨٦٨م وحده(١٠٢).

هذا وقد بلغت مساحة الأراضي المستصلحة في عهد إسماعيل على امتداد الفترة الممتدة من عام ١٨٦٣م حتى عام ١٨٦٩، ٣٣٠,٠٠٠ فدان حسبما أكدت الوثيقة المرسلة من الخديو إسماعيل إلى الصدر الأعظم في تركيا في ١٨ أغسطس عام ١٨٦٩(١٠٣). كما يلاحظ أن قنصل الولايات المتحدة الأمريكية قد أشار في تقرير أرسله لإدارته عام ١٨٧٣م أنه قد تم استصلاح ٣٢٧٤٨٥ فدانا من الأراضي الصحراوية في غضون السنوات الخمس الماضية أي بمعدل ٦٥٥٠٠ فدان سنويا(١٠٤).

وهكذا وعلى ضوء ما سبق ذكره من تفصيلات يتضح مدى الجهود التي بذلها إسماعيل لإنشاء العديد من المشروعات الخاصة بالزراعة وانعكاساتها على الزراعة في مصر بعامة، ومن ثم كان لها أثرها في تحسين أحوال ودخل المصريين وخزانة البلاد.

العناية بالمحاصيل الزراعية:

وحرصا منه على تطبيق الأساليب الصحيحة للزراعة أبدى إسماعيل اهتماما كبيرا بالحاصلات الزراعية التى تزيد دخل البلاد القومى، وبالحاصلات الزراعية بعامة. واهتم بمحصول القطن كمصدر هام من مصادر الثروة بصفة خاصة.

فكان أن أسس جمعية كونها من بعض أعضاء مجلس شورى النواب من ذوى الدراية بالأمور الزراعية، بهدف دراسة وتطبيق أفضل الطرق العلمية الخاصة بحماية محصول القطن من خطر الإصابة بالدودة وكان المحصلة أن قررت الجمعية زراعة القطن فى أراضى لم يسبق زراعته فيها منذ عامين مضيا على الأقل، على أن تزرع من قبله فولا أو برسيما(١٠٥) كذلك اهتم الخديو إسماعيل بمقاومة الآفات الزراعية مثل دودة ورق القطن ودودة اللوز العادية. واستعان فى ذلك بجهود العلماء المصريين والأجانب على حد سواء «ولقد كان لاهتمام اسماعيل الزائد بزراعة القطن أثره فى اكتشاف يونانى يدعى «يوانخوفيتش» نوعا من القطن عرف باسمه، ولقد رائجت زراعته فى أنحاء البلاد وكذلك اكتشف أحد الأقباط بالغرب من بركة السبع فى عام ١٨٧٣م شجرة قطن اسماها «قطن البامية» لمشابهتها لشجرة البامية، وكان محصولها يعادل ثلاثة أضعاف محصول شجيرات القطن العادية(١٠٦) مما كان له أكبر الأثر فى زيادة محصول البلاد من القطن.

وأملا منه فى الحصول على أكبر قدر ممكن من الأرباح من حاصلات البلاد الزراعية اهتم إسماعيل بالدعاية لها وذلك بالإسهام فى المعارض الزراعية الدولية مثل باريس عام ١٨٦٧ حيث خصصت سراى خاصة للمعروضات المصرية(١٠٧). ولقد بلغ اهتمام إسماعيل بالمعرض والدعاية لمصر اهتماما كبيرا لدرجة أنه حضر خصيصا افتتاح المعرض بنفسه حيث قامت الدعوة قد وجهت إليه رسميا من قبل الإمبراطور الفرنسى لحضور حفل الافتتاح حسبما ذكرت مصادر شهود العيان(١٠٨).

كذلك حرصت الحكومة المصرية كل الحرص على الاشتراك فى معرض فيلادلفيا الدولى «لما فى ذلك من فائدة تؤدى الى النهوض بالفنون فى شتى المجالات والصناعة والمصالح التجارية لكل الشعوب» وكان مستر بيرنزلى قنصل عام الولايات المتحدة الأمريكية فى مصر قد وجه الدعوة رسميا للحكومة المصرية فى الثامن من شهر ديسمبر عام ١٨٧٤م للاشتراك فى المعرض، وقد شكلت مصر لجنة برئاسة محمد توفيق داشا للتجهيز له، وتمت

تلبية الدعوة بالفعل فى التاسع والعشرين من أبريل عام ١٨٧٥م، ولقد افادت المراجع أن مصر قد عرضت فى هذا المعرض عينات لكافة حاصلاتها الزراعية فضلا عن الأشجار والشجيرات والنباتات المشهورة بها، واحتل قسم المعروضات المصرى مركزا مرموقا ومشرفا فى المعرض، وحاز إعجاب الجميع وكان أن حصلت مصر على دبلومين فى القطن والسكر، وأوضحت فيهما هيئة تحكيم المعرض المزايا العظيمة لهذين المحصولين وكانت النتيجة الطبيعية والمرتقبة أن اهتم التجار الأمريكيون بثورة مصر الزراعية وقدراتها الإنتاجية فى هذا الشأن وتقدموا بطلبات الشراء إلى المنتجين المصريين(١٠٩).

الحرب الأهلية الأمريكية وأثرها فى توزيع الغلات الزراعية:

لا ريب أن الحرب الأهلية الأمريكية التى نشبت فى الفترة من عام ١٨٦١م حتى عام ١٨٦٥م قد أثرت تأثيرا مباشرا على توزيع الغلات الزراعية فى مصر، فضلا عن أنها قد أوقفت حركة تصدير القطن الأمريكى إلى إنجلترا وفرنسا وغيرهما من بلدان أوربا الغربية، وكانت المحصلة أن حصل عجز كبير جدا فى كميات القطن فى إنجلترا وتهددت مصانعها بالدمار. ولعلنا نجد فى تشبيه البعض هذا العجز بعبارة «المجاعة القطنية» ما يؤكد مدى خطورته(١١٠).

وإذا كان الحال كذلك بالنسبة للغرب بعامة، فإننا نجد أن تلك الحرب قد أدت إلى اتساع رقعة المساحة المنزرعة قطنا فى مصر، والتى بلغت حوالى ٢٥٠,٠٠٠ فدان(١١١) وأصبح القطن ليس أهم العوامل المسيطرة على الزراعة فى البلاد فحسب، بل والمتحكمة فى اقتصادها كذلك.

والحقيقة أنه يصعب على المرء دراسة تاريخ مصر خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر دون مناقشة تأثير الحرب الأهلية الأمريكية فى صرح مصر آنذاك، حيث نجد أن القطن قد ساهم ماديا فى تطور مصالح واهتمامات بريطانيا بمصر وكانت الزيادة الكبيرة التى حدثت فى صادرات القطن إلى لانكشير فى بريطانيا من العوامل الأساسية لاحتلال بريطانيا لمصر. إذ نبهت أنظارها إلى حتمية السيطرة على مصر ضمانا لاستمرار تدفق حاصلاتها الزراعية بعامة والقطن بخاصة، ومن ثم ضمانا لاستمرار دولاب العمل فى مصانعها، وثانيا لوجودها كقوة ضاربة فى العالم المعروف آنذاك.

ومنذ بداية عصر إسماعيل بدأت زراعة القطن تطغى على ما عداها من الزراعات، حيث زيدت المساحة المنزرعة قطنا فى الدائرة السنية من ١٠٠,٠٠٠ فدان سنويا فى عام ١٨٦٢م حتى وصلت ١٥٠,٠٠٠ فدان تقريبا(١١٢). وذلك نظرا لارتفاع ثمنه فى الفترة ما بين «١٨٦١ - ١٨٦٥» حيث جاوز سعره أربعة أمثال

ما كان عليه، ولعل ذلك الارتفاع الكبير في الأسعار يفسر تكالب الفلاحين على زراعة القطن رغبة منهم في تحقيق الثروة خاصة وأن أصوات المُغْرِضين الأوربيين قد دوت في أوربا عالية تطالب باستيراد القطن المصري، مما حدا بملاك الأراضي في مصر إلى زراعة القطن وذلك لتحقيق مكاسب لم يكن أي منهم يحلم بها من قبل.

مهما يكن من أمر وكمحصلة طبيعية للحرب الأمريكية وكساد زراعة القطن في الولايات المتحدة الأمريكية من جهة، وحاجة المصانع البريطانية وغيرها من الدول الأوربية للأقطان المصرية من جانب آخر، عمت زراعة القطن في كلا الوجهين البحري والقبلي على حد سواء، بعد أن كانت زراعته مقصورة على مديريتي المنوفية والغربية بصفة أساسية ومديرتي الدقهلية والشرقية بصفة ثانوية. ويعزى ذلك في المقام الأول إلى مشروعات الري التي أنجزت في عصر إسماعيل. وأعني بذلك القناطر والترع التي كان لها أكبر الأثر في ري الأراضي المنزرعة قطنا بالمياه اللازمة لها حتى في وقت انخفاض مياه النيل(١١٤).

هذه ونتيجة للتوسع في زراعة القطن الذي واكب الحرب الأهلية الأمريكية بدأت رؤوس الأموال الأجنبية تتدفق على البلاد بطريقة لم تألفها من قبل هذا من جانب، ومن جانب آخر انتعشت تجارة مصر الخارجية بسبب ازدياد الطلب على القطن المصري وارتفاع ثمنه أو كنتيجة للتوسع في زراعته كما أسلفنا. مما أدى إلى ارتفاع صادرات القطن من ٦٠٠,٠٠٠ قنطار في عام ١٨٦١م إلى ٨٢٠,٠٠٠ قنطارا في عام ١٨٦٢م قفزت إلى ١٢٨٧٠٠٠ قنطارا في عام ١٨٦٣مو١٧٣٦٠٠٠ قنطارا في عام ١٨٦٤، ٢٥٠٧,٠٠٠ قنطارا في ١٨٦٥(١١٥) ومن ثم زادت قيمة صادرات مصر من القطن أثناء تلك الحرب من ٣٥٣٥٦٥٦جنيه مصري عام ١٨٦٠م إلى ١٣٠٤٥٦٦٢ جنيه عام ١٨٦٥م. وأيضا زادت واردات البلاد من ٢٦٠٤٩٣٣ عام ١٨٦٠م إلى ٥٧٥٣١٨٤ في عام ١٨٦٥م(١١٦). وكانت تلك الزيادة في الواردات نتيجة طبيعية لزيادة القوة الشرائية عند المصريين وبخاصة أصحاب الأطيان والفلاحين نتيجة لما حققوه من أرباح محصلة من ارتفاع ثمن القطن، ناهيك عن استيراد الآلات الزراعية وغيرها من المعدات اللازمة لزراعة وحلج الأقطان.

وهناك نقطة هامة ينبغي الإشارة إليها وأعني أن التوسع في زراعة القطن وزيادة صادراته للخارج، قد أجبر الحكومة المصرية في عهد الخديو إسماعيل على التوسع في مشروعات الري الصيفي السابق الإشارة إليها كذلك كان لزاما عليها أن تطور طرق المواصلات تسهيلا لنقل محصول القطن إلى موانئ التصدير، كما نظمت الحكومة أسواق القطن، واهتمت بإنشاء حلقاته في شتى مدن الوجهين البحري والقبلي.

وثمة سؤال يطرح نفسه علينا إلا وهو إذا كان التوسع في زراعة وتجارة القطن في مصر كان محصلة طبيعية لنشوب الحرب الأهلية الأمريكية فماذا كانت ردود فعل توقف تلك الحرب في عام ١٨٦٥م وتأثيرها في زراعة القطن في مصر؟

لا شك أن انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية في شهر أبريل من عام ١٨٦٥م قد وضع حدا ليس للتوسع الكبير في زراعة القطن في مصر فحسب بل وتجارته كذلك. تفسير ذلك أن توقف الحرب قد أعاد الولايات المتحدة الأمريكية إلى سابق عهدها من حيث زراعة وتصدير الأقطان، وتدريجيا بدأت أسعار القطن تعود إلى مستواها الطبيعي العادي قبل تلك الحرب مما سبب الارتباك وأحدث خللا خطيرا في مالية البلاد من جهة، ومن جهة أخرى انكمشت مساحة الأراضي المنزرعة قطنا، ولكن ليس إلى نفس مساحتها قبل الحرب(١١٧).

وهكذا تتضح أهمية الحرب الأمريكية وآثارها الخطيرة على أحوال مصر الاقتصادية بعامة إيجابا وسلبا إيجابا بعد نشوبها وعلى امتداد سنواتها «١٨٦١ - ١٨٦٥» وحيث زاد الدخل القومي للبلاد، وزادت مساحة الأراضي المزروعة قطنا ومن ثم ازدادت صادرات وواردات مصر. وسلبا أدت إلى انكماش رقعة الأرض المزروعة قطنا وقلت عائدات الخزانة العامة للدولة وحدث الارتباك في البلاد ناهيك عن توجيهها أنظار الدول الأوربية وعلى رأسها إنجلترا بخاصة إلى أهمية ثورة مصر الاقتصادية مما مهد لاحتلالها البلاد عام ١٨٨٢م، ذلك الاحتلال الذي يمكن أن نعزى أحد أسبابه للحرب الأمريكية وما نتج عنها من «مجاعة قطنية» في إنجلترا، اضطرتها إلى الاعتماد على مصر وثروتها القطنية وبالتالي كان شغل الإنجليز الشاغل السيطرة عليها ضمانا لتدفق خام القطن على مصانعها.

وقد نتج عن توسع مصر في زراعة القطن في أثناء الحرب الأهلية الأمريكية أن ضعفت إنتاجية الأرض، حتى أصبح إنتاج الفدان من القطن قنطارين فقط، بعد أن كان خمسة قناطير في المعتاد، وذلك بسبب زراعة البعض نصف أطيانهم أو ما يزيد مع تكرار زراعة النصف المذكور في عام. هذا ولقد كانت لزراعة البعض القطن في أماكن الزراعة الشتوية واعتماد البعض الآخر على الوابورات والسواقي في زراعته أكبر الأثر في عدم خدمة الأرض بالقدر المناسب. ناهيك عن عدم زراعة القطن في أوقاته المعلومة بالإضافة إلى التأخير في جمع المحصول وقت نضجه. نظرا لانشغال الفلاحين في أعمال السخرة العامة في ذلك الوقت من السنة(١١٨) هذا ويلاحظ أن التوسع في زراعة القطن أثناء فترة تلك الحرب كان على حساب الغلات الزراعية الأخرى مما أدى إلى إهمال زراعة الخضر ونباتات العلف في مصر. ومن ثم حدث نقص في

المعروض من الخضر وارتفعت أسعارها فى الأسواق إلى ثلاثة أمثال ما كانت عليه قبل الحرب. فكان لزاما على حكومة إسماعيل أن تشجع الفلاحين على زراعة الخضر ونقلها بالحجان بواسطة السكك الحديدية إلى مدينتى القاهرة والإسكندرية وغيرها من البنادر، فضلا عن توجيهها الشكر والثناء على أسنة مديرى المديريات إلى كل من يقوم بزراعتها والاهتمام بها[١١٩] تشجيعا وحافزا لهم على زيادة إنتاجها. هذا من جانب ومن جانب آخر يلاحظ أنه فى فترة الحرب كانت الزيادة فى صادرات مصر من القطن يقابلها نقص فى صادرات الحبوب والسكر، وذلك بسبب زيادة مساحة القطن إبان الحرب الأهلية الأمريكية وكان ذلك على حساب مساحة الحبوب والقصب، مما أدى إلى نقص صادرات الحبوب حتى انعدمت تماما فى عام ١٨٦٥م.

وبعد أن كانت مصر تصدر القمح لإيطاليا وأوربا، لم يعد إنتاج الحبوب يكفى الاستهلاك المحلى. فاضطرت الحكومة إلى وقف تصدير الحبوب من مصر فى الفترة من ٨ أبريل عام ١٨٦٤م حتى ١٧ مايو ١٨٦٦م، وفى الوقت نفسه سمحت باستيراد الحبوب وأعفتها من الضرائب الجمركية فى السنوات الممتدة من ٨ مارس عام ١٨٦٤ حتى أول يولية عام ١٨٩٦م، غير أن مساحة الحبوب سرعان ما ازدادت بعد انتهاء الحرب، بسبب نقص مساحة القطن وارتفاع ثمن الحبوب مما أدى إلى إعادة التوازن بين مساحة القطن ومساحة الحبوب.

وبالمثل بسبب إهمال زراعة قصب السكر على حساب زيادة مساحة الأراضى المزروعة قطنا، حدث نقص حاد فى صادرات السكر المصرى من ١٤١٤٨ قنطارا فى عام ١٨٦١ م إلى ١٥٤٤ قنطارا فى عام ١٨٦٥م[١٢٠].

على أى حال، وخلال الأزمة الاقتصادية التى عانت منها البلاد فى عام ١٨٦٥م ازداد الاهتمام بزراعة قصب السكر، وحيث كان هبوط أسعار القطن دافعا لإسماعيل فى هذا الصدد. هذا وأملا منه فى تجنيب البلاد أخطار الاعتماد على محصول واحد. أدخل إسماعيل أصنافا جديدة من القصب، أوفر محصولا وأعلى نسبة فى السكر، استزرعها فى ١٥٠٠٠٠ فدان فى الدائرة السنية بالصعيد، مما أدى إلى زيادة إنتاجية الفدان إلى ثلاثة أمثال ما كان عليه من قبل. كذلك أقام إسماعيل عدة مصانع كبيرة للسكر على أحدث طراز، مما أدى إلى ازدهار صناعة السكر، التى اتسع نطاقها لدرجة القول أن استقلال مصر الصناعى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كان أساسه الأول والأخير الصناعات الخاصة بحلج القطن وكبسه من جهة، وصناعة السكر من وجهة أخرى.

هذا ولقد بلغت أعداد المصانع الحديثة التى أنشأها إسماعيل لصناعة السكر حتى عام ١٨٧٢م سبعة عشر مصنعا[١٢١] فى الوجه القبلى، وكان يشرف

على العمل فيها مهندسون وعمال فنيون كلهم تقريبا من الأوربيين وكان المستهدف منها إنتاج ٢٣٥٠٠٠٠ قنطارا من السكر فى السنة، مما أدى إلى ازدهار صناعة السكر فى البلاد، وبلوغها ذروة لم تصل إليها من قبل عصر إسماعيل[١٢٢].

وكان برنامج الخديو فى إقامة هذه الصناعة يتضمن إقامة (٢٢) مصنعا متطورا بطاقة قدرها ٣٢٥٠٠٠٠ قنطارا، ولكن هذا البرنامج الضخم كان يستدعى تسهيلات كبيرة فى وسائل النقل ومصادر قوة العمل إلى جانب مقدرة تنظيمية تكفى لانتظام العمل فى المصانع عند اكتمال طاقتها هذا ولعدم توافر كافة ما اشرنا إليه آنفا، وفى عام ١٨٧٨م بلغ عدد مصانع السكر العاملة فى مصر عشرة مصانع فقط وكانت تنتج ٧٦٢٦٨٠ كيلو سكر خام، ١٥٦٤٧٢ كيلو مولاس وهو إنتاج أقل مما كان مقدرا ومخططا لها[١٢٣].

وقد بلغ دخل إنتاج هذه المصانع من السكر والعسل الأسود بما قيمته حوالى ١٧٠٠٠٠ جنيه سنويا[١٢٤]. هذا وبالنسبة لمنتجات تلك المصانع يلاحظ أنها كانت تنتج نوعين من السكر الأبيض والأحمر، وكان الأول يستهلك فى القاهرة أو يصدر إلى الخارج. أما الأحمر فكان يستخدم فى صناعة المولاس والكحول.

وقد بدأ إنتاج وتصدير قصب السكر على نطاق واسع منذ إنشاء مصانع السكر ابتداء من عام ١٨٦٧ م، فقد زادت صادرات السكر خلال ثمان سنوات، حيث ارتفع ما يصدر من محصول السكر من حوالى ٥٥٠٠٠ قنطار فى عام ١٩٦٧م إلى حوالى ٩٨٦٠٠٠ قنطار فى عام ١٨٧٥م[١٢٥].

وأخيرا، فمن الإنصاف القول أن فضل ازدهار ورقى صناعة السكر فى مصر، يعزى أولا وآخرا إلى جهود إسماعيل، المتمثلة فى اهتماماته بها دون وغيرها من الصناعات الأخرى بعامة كصناعة حلج وكبس الأقطان بعامة، وإقامته العديد من مشروعات الرى والزراعة بخاصة، كما أوضحنا على امتداد الصفحات السابقة. ولعلنا نجد فيما جاء على لسان أحد شهود العيان المعاصرين للأحداث فى هذا الشأن ما يؤيد صحة ما وصلنا إليه حيث قال: «إن هذا التوسع الخاص فى أحد عناصر التجارة (يعنى السكر) ليس له مثيل فى التاريخ التجارى وكانت المحصلة أن تقدمت مصر إلى المكانة الأولى فى مقدمة الدول المنتجة للسكر»، حسبما ذكر تقرير مسئول معاصر[١٢٦].

وعلى ضوء ما سبق تتضح مدى أهمية مشروعات الرى والزراعة التى قام بها الخديو إسماعيل فى مختلف مديريات مصر فى ذلك الوقت تلك المشروعات التى

كانت الأساس لتقدم النشاط الزراعي، الذي هو أساس النشاط الاقتصادي لمصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فلقد ساعدت تلك المشروعات على التوسع في زيادة مساحة الأرض الزراعية، وترقية أساليب الزراعة، والاهتمام بالمحاصيل النقدية بعامة، وخاصة القطن في فترة الحرب الأهلية الأمريكية كما أوضحنا سلفا، وكان إسماعيل يهدف إلى زيادة دخل البلاد من خلال الإكثار من الصادرات متلما حدث إبان الحرب الأهلية الأمريكية، إلا أنه ما إن توقفت الحرب وبدأت أسعار القطن في الانهيار، مما أحدث هزة خطيرة في ميزانية البلاد، وهنا وبثاقب نظره، وبما عرف عنه من عقلية اقتصادية عميقة الجذور كما ذكرنا من قبل، رأى إسماعيل أن لا مناص من التوسع في محاصيل نقدية أخرى، تجنيبا للبلاد من مخاطر الاعتماد على محصول واحد، ومن هنا كان اهتمامه بزراعة قصب السكر، وإنعاشه لصناعته، مما ضمن للبلاد مصدرا آخر من مصادر الدخل القومي.

السخرة في إقامة المشروعات:

الثابت أنه على امتداد الفترة الممتدة من عام ١٨٥٦ إلى ١٨٦٣ م شهد الريف نقصا خطيرا في الأيدي العاملة، ولاشك أن ذلك مرده تسخير الفلاحين للعمل في حفر قناة السويس إبان تلك الفترة وحيث خصص بصفة دائمة حوالي ستين ألف شخص أبعدوا عن العمل في ميدان الزراعة قد جهزوا للعمل في شق القناة. هذا ولقد بلغت حدة أزمة العمالة حدا من الخطورة، لدرجة أن المسئولين فكروا جديا في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر في استجلاب بعض العمال الأجانب الزراعيين من شتى البلدان الخارجية، تفاديا لحدوث أزمة في الحاصلات الزراعية التي هددتها قلة الأيدي العاملة[١٢٧].

مهما يكون من أمر، فلقد استمر الحال على ما هو عليه من تسخير الفلاحين، إلى أن تولى إسماعيل حكم البلاد من عام ١٨٦٣م. وحيث أعلن إلغاء السخرة في خطابه الذي ألقاه بمناسبة توليه الحكم، ولكنه لم ينفذ ما جاء في خطابه إذ ظل الحال على ما هو عليه من السخرة، خاصة وأن الخديو ووزراءه كانوا يؤمنون بأهمية السخرة للنهوض بالبلاد. ولعلنا نجد في عبارة وردت على لسان أحد الوزراء آنذاك تعليقا على استمرار السخرة في البلاد، ما يوضح أسباب الإبقاء عليها رغم قرار إسماعيل بإلغائها، قال الوزير تعليقا على استمرار السخرة: «إن تلك الأعمال (أي السخرة) مفزعة، لكنها ضرورية في تلك الآونة لإتمام مشروع حفر القناة، وإقامة مشروعات الري التي تعتمد عليها مصر في حياتها ووجودها. وإلا سوف تتوقف تلك الأعمال التي لا غنى عنها لتنمية وازدهار البلاد»[١٢٨] ونتيجة للمشروعات العامة المتزايدة في عصر إسماعيل، كان أن ازدادت الأعباء الملقاة على كواهل

الفلاحين. ففي عام ١٨٦٧ م بلغ ما كان مطلوبا إنجازه وحفره من تلك المشروعات ٣٠٠٠٠٠ قصبة مكعبة[١٢٩] بالوجه البحري، وكان عدد المطلوبين من الفلاحين لإتمام وإنجاز هذا العمل ثلاثين ألف شخص[١٣٠]، على أن يسخروا لمدة ثمانية شهور، وفي الوجه القبلي بلغ ما كان يراد حفره ٢١٩٠٠٠ قصبة مكعبة، وطلب للعمل سبعة وعشرون ألف فلاح لمدة ستة أشهر[١٣١].

وفي يناير من عام ١٨٧٤ كان المطلوب إتمامه من تطهير وتحويل ترع نيلية إلى ترع صيفية، فضلا عن الترع المستجدة قد بلغ مقداره ٥٢٩٣٤٩ قصبة مكعبة، ولقد بلغ عدد العمال المطلوبين لهذا العمل ٩٤٥٧٠ عاملا لمدة خمسة أشهر. وصدرت الأوامر بالتأكيد على المديرين بالدقة وإتمام تلك الأعمال في الموعد المحدد بلا تأخير ضمانا لتوفير مياه الري الصيفي بالوجه البحري[١٣٢]. وفي أبريل عام ١٨٧٧م كان المطلوب لحفر قناة لتوصيل المياه ٢٠٠٠ رجل يتم حشدهم مناصفة بين مديريتي الدقهلية والغربية[١٣٣]. وكذلك نجد أنه في مايو عام ١٨٧٢م. ومن أجل رفع الأتربة المتراكمة أمام وخلف قناطر التقسيم وعند نقطة اتصال بحر يوسف وترعة الإبراهيمية ١٥٠٠٠ عامل، على أن يسخروا لإنجاز العمل في مدة ٤٠ يوما[١٣٤].

ويلاحظ أنه كان ينص على حتمية عودة الفلاحين المسخرين في تلك الأعمال إلى بلادهم قبل حلول موسم حصاد المحاصيل. ففي مذكرة بخط سعادة مهر دار خديو إلى مفتش جفالك المنيا وما حولها في أبريل عام ١٨٧٥م وردت عبارة تؤكد ذلك «أنه عند انتهاء العشرة الآلاف نفر الذين حضروا من مديرية جرجا لعملية حفر الترعتين بتفتيش مغاغة ومطاي يجري اللازم لرجوعهم إلى بلادهم قبل موسم الحصاد»[١٣٥]. وذلك بالطبع حرصا على مصالحهم وضمانا لوفرة الحاصلات في البلاد.

وأخيرا، ورغم استخدام الخديو إسماعيل السخرة في إقامة جميع مشروعاته العمرانية في شتى المجالات، إلا أنه من الإنصاف القول بأنه قد بذل جهودا مضنية من أجل إلغائها مما كلفه مبالغ طائلة تقدر بالملايين صرفها من أجل من أجل إنجاز الأعمال الخاصة بإصلاح أحواض ترميم السفن بالسويس. هذا وبمناسبة إلغائه السخرة في القناة تكلف إسماعيل الكثير من الأموال[١٣٦].

خاتمة:

على ضوء ما سبق ذكره، في الصفحات السابقة، يتضح الاهتمام الكبير الذي أولاه إسماعيل بمشروعات الري والزراعة التي تمثلت في الترع والقناطر والأهوسة والجسور. ويكفي في هذا الصدد إن نذكر أن الترع التي شقت

واصلحت فى عهده، قد ساعدت على إصلاح ١,٣٧٣,٠٠٠ فدان أضيفت إلى رقعة البلاد الزراعية، ومن ثم أضافت دخلا سنويا للبلاد بلغ مقداره أحد عشرون مليون جنيها مصريا(١٣٧) وبهذا أصبحت رقعة مصر الزراعية فى نهاية عصر إسماعيل (١٨٧٩)٥,٤٢٥,٠٠٠ فدان(١٣٨)

وقد اقترنت مشروعات الرى المختلفة فى عصر إسماعيل بزيادة الإنتاج الزراعى، وهذه الزيادة كانت محصلة طبيعية لتطور وسائل الرى، فضلا عن الاستفادة التى حققتها الزراعة فى مصر من الزراعة بعامة فى القرن التاسع عشر، والتى أدت بدورها إلى رقى أساليب الزراعة.

ولقد أبدى إسماعيل اهتماما كبيرا بالمحاصلات الزراعية بعامة. وكان الاهتمام بمحصول القطن كمصدر هام من مصادر الثروة بصفة خاصة. فضلا عن الاهتمام بالدعاية لمحاصلات البلاد الزراعية، وذلك بالإسهام فى المعارض الزراعية الدولية مثل باريس ١٨٦٨ حيث خصصت سراى خاصة للمعروضات المصرية. وحضر إسماعيل بنفسه هذا المعرض. كما حرص على الاشتراك فى معرض (فيلادلفيا الدولى)١٨٧٦ لما فيه من فائدة تؤدى إلى النهوض بالفنون فى شتى المجالات والصناعة والمصالح التجارية لكل الشعوب. واحتل قسم المعروضات مركزا مرموقا ومشرفا. وحصلت مصر على دبلومين فى القطن والسكر، وكانت النتيجة الطبيعية أن اهتم التجار الأمريكيون بثروة مصر الزراعية. وتقدموا بطلبات الشراء إلى المنتجين المصريين.

واتضح مما سبق أيضا مدى أهمية مشروعات الرى والزراعة التى قام بها الخديو إسماعيل فى مختلف مديريات مصر فى تلك الوقت تلك المشروعات التى كانت الأساس لتقدم النشاط الزراعى، الذى هو أساس النشاط الاقتصادى لمصر فى تلك الفترة. فلقد ساعدت تلك المشروعات على التوسع فى زيادة مساحة الأرض الزراعية، وترقية أساليب الزراعة. والاهتمام بالمحاصيل النقدية بعامة. وخاصة القطن فى فترة الحرب الأهلية الأمريكية، إلا أن توقف الحرب أدى إلى انهيار أسعار القطن، مما أحدث هزة خطيرة فى ميزانية البلاد، ورأى إسماعيل أن لا مناص من التوسع فى محاصيل نقدية أخرى، تجنيبا للبلاد من مخاطر الاعتماد على محصول واحد. ومن هنا كان اهتمامه بزراعة قصب السكر، وإنعاشه لصناعته، مما ضمن للبلاد مصدرا آخر من مصادر الدخل القومى.

وأخيرا لابد من الإشارة إلى أن إسماعيل قد استخدم السخرة فى إقامة مشروعاته فى شتى المجالات. إلا أنه من الإنصاف القول بأنه قد بذل جهودا حثيثة من أجل إلغائها مما كلفه مبالغ طائلة تقدر بالملايين.

الهوامش

١- فوال قاسم، تطور الصناعة المصرية منذ عهد محمد على حتى عهد جمال عبد الناصر، (القاهرة: مكتبة مدبولى، ١٩٧٨)، ص٧.

٢- المرجع السابق والصفحة

٣- احمد أحمد الحتة، تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر، ط٣(القاهرة: ١٩٥٨)، ص٤٣.

٤- المرجع السابق، ص٤٣، ٤٥.

٥- المرجع نفسه، ص٤٧.

٦- عبد الرحمن الرافعى، عصر إسماعيل، ج١(القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢) ص٣١.

٧- على شلبى، الريف المصرى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ١٨٤٧-١٨٩١، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٣) ص٣٠٠.

٨- الرى الحوضى: هو زراعة الأرض مرة واحدة فى العام بعد أن تغمر بمياه الفيضان. أما الرى الدائم فهو زراعتها أكثر من مرة فى العام.

٩- لينان دى بلفون، مذكرات عن أعمال المنافع العامة الكبرى التى تمت بمصر منذ أقدم العصور حتى عام ١٨٧٢م، نقلها عن الفرنسية إدارة الترجمة بوزارة الأشغال العمومية تحت إشراف (على بك شافعى)، (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٤٩)، ص٩؛ هيلين آن ريفلين، الاقتصاد والإدارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى لمين الحسينى، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٧)ص٣٠٩، ٣١٠.

١٠- سميت تلك الفرع بهذا الاسم لامتلائها بالمياه فى الفيل صيفا ولكونها قد حفرت على عمق يقرب من المتر تحت منسوب الفيض (التحاريق). أنظر: لينان دى بلفون، مصدر سابق، ص٦١.

١١- وللمزيد عن هذه الترع وفروعها ولمحوالها، انظر: لينان دى بلفون، مصدر سابق، ص١٢-١٨؛ على شافعى، أعمال المنافع العامة الكبرى فى عهد محمد على، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٠)، ص٣٦، ٣٧.

١٢- محمد كامل ذبيه، المنشآت الهندسية العامة، مقالة فى كتاب إسماعيل بمناسبة مرور ٥٠ عاما على وفاته، ص١٣٥.

١٣- محمد فهمى لهيطة، تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٤)، ص٢٨٤، على شلبى، مرجع سابق، ص٣٠٦.

١٤- Marcosson,I.C.;EGYPT AS IT IS (London,N.D) P146.

أحمد الحتة، مرجع سابق، ص٦٢.

١٥- جورج جندى وجاك ناجر، إسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية، كتاب وضعه بمناسبة مرور ٥٠ عاما على وفاة الخديو إسماعيل (١٨٩٥-١٩٤٥) (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٧)، ١٨٠.

١٦- بيير كرابيتس، إسماعيل المفترى عليه، ترجمة فؤاد صروف، (القاهرة: دار النشر الحديث، ١٩٣٣) ص١٢١، جورج يانج، تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل، تعريب على أحمد شكرى، (القاهرة، مطبعة الرحمانية، ١٩٣٤) ص٢٤٥.

١٧- محمد إسماعيل حب الرمان، تحفة الخديوى إسماعيل لصعيد وادى النيل أو أعظم ترعة للرى فى الدنيا القرعة الإبراهيمية (القاهرة: ١٩٠٠ م)، ص٤.

١٨- [illegible]

الرياضية والفنون الهندسية. وعندما عاد إلى مصر عين في عدة مناصب. وقد اشترك مع المهندس موجيل في بناء القناطر الخيرية. وفي عهد إسماعيل ١٨٦٣م عين مفتشا لهندسة الوجه القبلي. وهو يعد من أكبر المهندسين في تاريخ مصر الحديث. انظر: علي مبارك. الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة. (القاهرة : بولاق. ١٣٠٦هـ) ج١٦، ص٥٧.

١٩- محمد إسماعيل حب الرمان. مصدر سابق. ص ٥، ٦.

٢٠- المصدر السابق. ص ٢٧؛ علي مبارك. مصدر سابق. ج١٩. ص١١٤؛ لينان دي بلفون. مصدر سابق. ص ٣٤٣؛ أحمد الحتة. مرجع سابق. ص٦٤.

٢١- محمد إسماعيل حب الرمان. مصدر سابق. ص٢٦ ولم تتعرض المصادر والمراجع الأخرى لتكاليف الإنشاء.

٢٢- لينان دي بلفون. مصدر سابق. ص٣٤٦؛ محمد إسماعيل حب الرمان. مصدر سابق. ص٢٧. حيث يذكر أن مقدار ما أخذ من هذه الأطيان في إنشاء الترعة بلغ ٢١ سهم. ١٥ قيراط. ٥١١٥ فدان.

٢٣- علي شلبي. مرجع سابق. ٣٠٦، ٣٠٧.

٢٤- دبروط أو بروط : وهي من مديرية أسيوط بقسم ملوي غربي الترعة الإبراهيمية بقليل وقد أخذت الترعة الإبراهيمية من تحتها جانبا. انظر : علي مبارك. المصدر السابق. ج١. ص٣

٢٥- المصدر نفسه. ج١٩؛ ص١٩٩. عبد الرحمن الرافعي. عصر إسماعيل. ج٢. ١٣.

٢٦- هو الأمير سلامة بك ثم أصبح سلامة باشا وكان رئيس هندسة وجه قبلي. انظر: علي مبارك. ج١١. ص٣.

٢٧- وهو الذي خلف المهندس سلامة باشا حيث أصبح مفتشا لعموم وجه قبلي. ثم أصبح بعد ذلك مأمور هندسة الإبراهيمية. انظر: المصدر نفسه. ج١١. ص٣.

٢٨-محمد إسماعيل حب الرمان. مصدر سابق. ص٢٧. علي مبارك. مصدر سابق. ج١١. ص٣.

٢٩- محمد إسماعيل حب الرمان. مصدر سابق. ص٣٥

٣٠- المصدر نفسه. ص٧٠، ٨.

٣١- المصدر نفسه. ص٨؛ عبد الرحمن الرافعي. عصر إسماعيل. ج٢. ص١٣. محمد صبري. تقدم مصر إجمالا. مقالة في كتاب إسماعيل بمناسبة مرور ٥٠ عاما على وفاته. ص٩.

٣٢- Macoan,J.C.Op.Cit.P179

٣٣- إلياس الأيوبي. تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا من سنة ١٨٦٣-١٨٧٩ م. المجلد الأول (القاهرة : دار الكتب المصرية. ١٩٢٣م). ص٩٠، ٩١.

٣٤- علي مبارك . مصدر سابق. ج١٩. ص٤٢، ٤٣.

٣٥- لينان دي بلفون. مصدر سابق ن ص٢٠٦.

٣٦- محافظ الداخلية. محفظة رقم (٧) أوامر. وثيقة رقم (٥). صورة قرار مجلس شوري النواب بتاريخ ٥ من ذي الحجة ١٢٨٦هـ/مارس ١٨٧٠م.

٣٧- لينان دي بلفون. مصدر سابق. ص٢٠٦. Mac Coan,Op.Cit,p.270

٣٨ عبد الرحمن الرافعي. عصر إسماعيل. ج٢. ص١٣؛ محمد فهمي لهيطة. مرجع سابق. ص٢٨١. أحمد الحتة. مرجع سابق. ص٦٢، ٦٣

٣٩- جورج جنني وجاك تاجر. مصدر سابق. ص١٨١.

٤٠- محمد كامل قبيه. المنشآت الهندسية العامة. مقالة في كتاب إسماعيل بمناسبة مرور ٥٠ عاما على وفاته. ص ١٦١، ١٦٢.

٤١- عبد الرحمن الرافعي. عصر إسماعيل. ج٢. ص١٤؛ أحمد الحتة. مرجع سابق. ص٦٢.

٤٢- الوقائع المصرية. العدد ٣١٤ الاثنين ١٧ ربيع الآخر ١٢٨٦ هـ/٢٦ يوليو ١٨٦٩م). علي مبارك. مصدر سابق. ج١٩. ص٢.

٤٣- عبد الرحمن الرافعي. عصر إسماعيل. ج٢. ص١٤.

٤٤- المجلس الخصوصي. دفتر رقم (٢). وثيقة رقم (٢). ص٢٣ من المجلس الخصوصي إلى مفتش هندسة بحري (١٠ ذي القعدة ١٢٨٦هـ/فبراير ١٨٧٠م).

٤٥- عبد الرحمن الرافعي. عصر إسماعيل. ج٢. ص١٤.

٤٦- أمر كريم. دفتر رقم ١٩٣٠ أوامر. وثيقة رقم (٨٥) في (٢٠ذي القعدة ١٢٨٦هـ/فبراير ١٨٧٠). ص٧٩.

٤٧- محافظ الداخلية. محفظة رقم (٧) أوامر. وثيقة رقم (٨) قرار شوري النواب (٩ذي الحجة ١٢٨٦هـ/مارس ١٨٧٠)

٤٨- عبد الرحمن الرافعي. عصر إسماعيل. ج٢. ص١٤. ١٥.

٤٩- عبد العزيز رفاعي. فجر الحياة النيابية في مصر الحديثة ١٨٦٨-١٨٨٢. (القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر. ١٩٦٢). ص٤٦.

٥٠- محافظ الداخلية. محفظة رقم (٦) أوامر. وثيقة رقم (٥٩) من إسماعيل إلى ناظر الداخلية (١٦ محرم ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م).

٥١- أمر كريم إلى الداخلية. دفتر رقم ١٩٣٠ اوامر. وثيقة رقم (٢٤) في (١٥ رجب ١٢٨٦هـ/١٨٦٩)، ص١٠، سجلات محمية سنية عربي. دفتر ١٩٣٠. وثيقة رقم(٢) أمر كريم إلى ديوان الأشغال العمومية (٢٣ صفر ١٢٨٧هـ/ يونيو ١٨٧٠م).

٥٢- سجلات محمية سنية عربي. سجل (٦) وثيقة (١٩٢)ص ١٥٢. أمر كريم من الداخلية (١٠ رجب ١٢٩٢ هـ/أغسطس ١٨٧٥م).

٥٣- المجلس الخصوصي. دفتر ٨٤. وثيقة رقم (٤٩). ص٧٨. قرار المجلس الخصوصي بتاريخ (١٩ جمادى الثاني ١٢٩٢هـ/ يوليو ١٨٧٥).

٥٤- الوقائع المصرية. العدد رقم (٢٩٦) بتاريخ (٨ صفر ١٢٨٣هـ/ ٣٠ مايو ١٨٦٦م).

٥٥- محمد إسماعيل حب الرمان. مصدر سابق. ص٦١.

٥٦- في هذا الشأن وللمزيد من التفصيلات عن هذا التقرير . انظر : جورج جنني وجاك تاجر. مصدر سابق. ص١٨١.

٥٧- لينان دي بلفون. مصدر سابق. ص ٢٩٤، ٢٩٥.

٥٨- إلياس الأيوبي. مرجع سابق. ص٩٣؛ عبد الرحمن الرافعي. عصر إسماعيل. ج٢. ص١٥.

٥٩- Mac Coan,Op.Cit,p.250

٦٠- أمر كريم. دفتر ١٩٢٩. أوامر. ص٦. وثيقة رقم (٥) في (٩محرم ١٢٨٦هـ/أبريل١٨٦٩).

٦١- محافظ الداخلية. محفظة رقم (٦). وثيقة رقم (٩٧) من إسماعيل إلى ناظر الداخلية بتاريخ (٢٤محرم ١٢٨٦هـ/مايو ١٨٦٩).

٦٢- مجلس خصوصي. دفتر رقم (٦٤). وثيقة رقم (٤) في (١٠ رجب ١٢٩٥ هـ/ يوليو ١٨٧٨) ص٩٩.

٦٣-محافظ الداخلية. محفظة (٩) أوامر. وثيقة رقم (٩٨) من الخديوي إسماعيل إلى ناظر الداخلية بتاريخ (٢٣ شعبان ١٢٨٣هـ/ديسمبر ١٨٦٦).

٦٤- مجلس خصوصي. دفتر رقم (٦٤) وثيقة رقم (٣٣) في (١٣ ربيع أول ١٢٩٥هـ/ مارس ١٨٧٨) ص٣٩.

٦٥- المصدر السابق. دفتر رقم (٦٤) وثيقة رقم (٥٩) في ١٨ جمادى الأولى ١٢٩٥ هـ/ مايو ١٨٧٨م). ص٤٦.

٦٦- المصدر نفسه، دفتر رقم (٣٠)، وثيقة رقم (٣٣) في (١٧ شعبان ١٢٨٩ هـ /أكتوبر ١٨٧٢) ص٣٠.
٦٧- المصدر نفسه، دفتر رقم (٣٤)، وثيقة (١٧) في (٢٩ صفر ١٢٩١ هـ/ مارس ١٨٧٤) ص٢٠.
٦٨- المصدر نفسه، دفتر رقم (٣٤)، وثيقة رقم (١٨)، في ١ ٤ ربيع اول ١٢٩١ هـ/ابريل ١٨٧٤) ص٢٠.
٦٩- مجلس خصوصي، دفتر رقم (٤)، وثيقة رقم (١). ص٢٢ من المجلس الخصوصي إلى ناظر هندسة بحري (١٢ رجب ١٢٨٨ هـ/ سبتمبر ١٨٧١م).
٧٠- عبد العزيز رفاعي، مرجع سابق، ص٤٦.
٧١- محافظ الأبحاث، محفظة رقم (٢٠٢)، دفتر ١٩٠٤ أوامر رقم (١٢) ص٤٤ . أمر كريم إلى مفتش هندسة بحر الشرق بتاريخ (٢٤ صفر ١٢٨٠ هـ/ اغسطس ١٨٦٣).
٧٢- المصدر السابق، محفظة (١٠٢)، دفتر ١٩٥٢، قرارات ص٢٨، رقم (٣١) بتاريخ (١٦ شوال ١٢٨٠ هـ/ مارس ١٨٦٤).
٧٣- الوقائع المصرية، العدد (٢٤٩) بتاريخ (٢ شعبان ١٢٨٥ هـ/١٦ نوفمبر ١٨٦٨).
٧٤- المصدر السابق، العدد (٤٠٨) بتاريخ الخميس (٢٨ صفر ١٢٨٨ هـ/١٨ مايو ١٨٧١)
٧٥- De Regge,Statistique de L'Egypt d' apres des Documents officiels, Recueillis, mises order et publies,sous le patronage du gouvernorat de kberive, l Alexandrie,1870-72)pp77,78
٧٦- سجلات معية تركي، دفتر ٥٧٣، وثيقة رقم(٣٥)، ص٨٤ . أمر كريم إلى تفتيش مفتش وجه بحري (٥ ربيع الثاني ١٨٨٢هـ/سبتمبر ١٨٦٥).
٧٧- مجلس خصوصي، دفتر ١٧٨، ص٢، وثيقة (٥) من المجلس الخصوصي لديوان الأشغال في (٦رجب ١٢٨٨ هـ/ سبتمبر ١٨٧١).
٧٨- المصدر السابق، دفتر (٢٦)، وثيقة رقم (٨٨) من المجلس الخصوصي إلى ديوان الأشغال في (١٥ ربيع ثان ١٢٩٠ هـ/ مايو ١٨٧٣).
٧٩- ديفيد لاندز، بنوك وبانيون، ترجمة عبد العظيم أنيس سلسلة كتاب الأهالي -٧ (القاهرة: ١٩٨٥)، ص٢٤٢ ، ٢٤٣
٨٠- المرجع السابق، ص ٢٤٣، ٢٤٤.
٨١- Sucre, A.et Dutrebois,L.L'Egypte et Ismail Pasha,(Paris,1862) p.119.
٨٢- علي شلبي، مرجع سابق، ص٣٠٩، Sucre et Dutrebois,Op.Cit,p.260
٨٣ - محمد كامل نبيه، مرجع سابق، ص١٦١؛ حامد علي دسوقي، النظام الإداري في مصر في عهد إسماعيل ١٨٦٣-١٨٧٩، رسالة ماجستير (آداب القاهرة : ١٩٧٩)، ص٦٤.
٨٤- كان العمد ومشايخ البلد في عصر محمد علي يشرفون على ري الأراضي وتطهير الترع في فصل الشتاء وصيانة مستلزمات الري، انظر : هيلين ريفلين- مرجع سابق، ص٣٤٦، ٣٤٧.
٨٤- حامد علي دسوقي، مرجع سابق، ص٤٤.
٨٥- معية سنية عربي، دفتر رقم ١٩٤٣ أوامر، وثيقة رقم (٩٤) في (٢٨ شعبان ١٢٨٩هـ/أكتوبر ١٨٧٢م)ص٤٥.
٨٦- المصدر السابق، دفتر رقم ١٩٤٣ أوامر، وثيقة رقم (٤) في (٢٨ شعبان ١٢٨٩ هـ/أكتوبر ١٨٧٢)، ص٢٢.
٨٧- محافظ معية تركي، محفظة رقم (٤٥) من الجناب العالي إلى محمد توفيق باشا بتاريخ (٩ ربيع ثان ١٢٨٦هـ/يوليه ١٨٦٩).
٨٨- سجلات معية تركي، سجل رقم ٥٣٩، وثيقة رقم (١)، ص٤٦، أمر كريم إلى نوبار باشا ناظر الأشغال العمومية بتاريخ (٨ رجب ١٢٨١هـ/٧ ديسمبر ١٨٦٤).

٨٩- المجلس الخصوصي، سجل رقم (٧٥)، وثيقة رقم (٨٣) قرار المجلس الخصوصي بتاريخ(١٨ صفر ١٢٨٦ هـ/ يونيه ١٨٦٩).
٩٠- كان محمد علي قد افتتح مدرسة للزراعة عام ١٨٣٦ م بشبرود، واستحضر لها المدرسين العلماء والفنيين الأجانب من فرنسا، ولكن لسوء اختيار مكان إنشائها ولأسباب أخرى نقلها الخديو إسماعيل إلى الحبسية عام ١٨٦٧ . انظر: علي مبارك، مصدر سابق، ج١٧، ص٣؛ توفيق الحناوي، النهضة الزراعية، مقالة في كتاب إسماعيل بمناسبة مرور ٥٠ عاما على وفاته، ص٤٧.
٩١- الوقائع المصرية، العدد (٢٠٩)، (٢٤ صفر ١٢٨٥ هـ/١٥ يونيو ١٨٦٨)
٩٢- أحمد الحفة، مرجع سابق، ص١٤٣.
٩٣- محافظ معية تركي، محفظة رقم (٤٩) وثيقة رقم (٣٧٧) من ناظر الجهادية إلى المعية بتاريخ (٢٣ شوال ١٢٨٩ هـ/ديسمبر ١٨٧٢).
٩٤- محافظ الأبحاث، محفظة رقم (٤٩) وثيقة رقم (٣٧٧) من ناظر الجهادية إلى المعية بتاريخ (٢٣ شوال ١٢٨٩هـ/ ديسمبر ١٨٧٢).
٩٥- سجلات معية عربي، دفتر ١٩١٥ أوامر، وثيقة رقم ١٠، ص ١٤٨ أمر كريم إلى محافظ مصر بتاريخ (٢٤ شعبان ١٢٨٢ هـ/ديسمبر ١٨٦٥م).
٩٦- سجلات معية تركي، دفتر ٥٣٩، وثيقة رقم (٤)، ص٨، أمر كريم إلى حسن كافي أمين جمرك الإسكندرية بتاريخ (٧ شوال ١٢٨٠ هـ/أكتوبر ١٨٦٣م).
٩٧- سجلات معية تركي، دفتر رقم ٥٣٩، وثيقة رقم (٧)، ص ٩٣، أمر كريم إلى ناظر الأمور الخارجية شريف باشا بتاريخ (٢٩ شوال ١٢٨٠هـ/١٨٦٤م).
٩٨- محافظ الداخلية، محفظة رقم (١٦) وثيقة رقم (١). صورة قرار مجلس شورى النواب بتاريخ ٢٩ ذي الحجة ١٢٨٤ هـ/ أبريل ١٨٦٧م.
٩٩- أمين سامي، تقويم النيل وعصر إسماعيل، الجزء الثالث، المجلد الثاني، (القاهرة: الكتب المصرية، ١٩٣٦)، ص٧٨٨.
١٠٠- جورج جندي وجاك تاجر، مصدر سابق، ١٦٥، والجدير بالذكر أن نظام نظارة الزراعة قد ألغي بعد حكم إسماعيل إلا أنه قد أعيد وأخذ به للحاجة الملحة إليه في عام ١٩٦٤م.
١٠١- أحمد الحفة، مرجع سابق، ص ١٤٥.
١٠٢- محافظ الداخلية، محفظة رقم(٦)، وثيقة رقم (٨) صورة قرار مجلس شورى النواب بتاريخ (٩ ذي الحجة ١٢٨٥ هـ/١٨٦٨م)
١٠٣- جورج جندي وجاك تاجر، مصدر سابق، ص ١٥٠، ١٥١.
١٠٤- المصدر نفسه، ص ١٧٠، ١٧١.
١٠٥- المجلس الخصوصي، دفتر (١٦)،وثيقة رقم (١٣)، ص٧٧ من المجلس الخصوصي إلى مجلس الشورى بتاريخ (١٩ محرم ١٢٩٠ هـ/ مارس ١٨٧٣)
١٠٦- إلياس الأيوبي، مرجع سابق، ص٨٩.
١٠٧- الوقائع المصرية، العدد رقم (٥٧)، بتاريخ (٧رجب ١٢٨٣ هـ/١٥ نوفمبر ١٨٦٦م).
١٠٨- المصدر السابق، العدد (١١٣) بتاريخ (الخميس ١٠ من صفر ١٢٨٤هـ/ يونيو ١٨٦٧م).
١٠٩- Lacour, R.L'Egypte D' Alexandrie Aleseconde Catarocte,(Paris,1871)p.94
١١٠- محمود حلمي مصطفى، سياسة الولايات المتحدة الأمريكية نحو الباشوية المصرية (١٨٣٢-١٨٨١م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، (جامعة القاهرة، ١٩٦٢)، ص ٢٥٤، ٢٥٥.

١١٠- المرجع نفسه، ص ٢٤٠.

١١١- (Owen,E.R.J.,Cotton and The Egyptian Economy,1820-1914,Oxford,1969)P.389.

١١٢- محمود متولي، الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها، (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤) ص٦٦.

١١٣- Reppy,c,Op.Cit., Annot1871,PP.81,82.

١١٤- حازم سعيد عمر، القطن في الاقتصاد المصري وتطور الصناعة القطنية (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٠) ص ٢٨٥؛ أحمد الحتة، مرجع سابق، ص١٤٧.

Saul,c et Quirchon,Op.Cit.,P.225;La Ceer,Op.Cit.,P.79

١١٥- محمود حلمي مصطفى، مرجع سابق، ص٢٤٤؛ (OWEN,OP.CIT.,P.90

١١٦- حازم سعيد عمر، مرجع سابق، ص٣٥.

١١٧- أحمد الحتة، مرجع سابق، ص١٤٧، ١٤٨. Lacnar,Op.Cit.,p.80

١١٨- محافظ الداخلية، محفظة رقم(٦) أوامر، وثيقة رقم (٣)، مجلس شورى النواب، بتاريخ (٣ مجرم ١٢٨٥هـ/أبريل ١٨٦٨).

١١٩- المجلس الخصوصي، دفتر (٦٨) وثيقة رقم (٨٠)، ص١٢٥. قرار المجلس الخصوصي بتاريخ (١ محرم ١٢٨١ هـ/ يونيو ١٨٦٤م).

١٢٠- أحمد الحتة، مرجع سابق، ص١٤٩.

١٢١- عن مصانع السكر التي أنشأها إسماعيل، وتجربة تلك الصناعة والأخطاء التي تمت في بنائها ومنافسة السكر الأجنبي بعامة والسكر الفرنسي بخاصة، انظر: تقرير (كيف) في: عبد Moon,Op.cit.,pp.387,388

١٢٢- والجدير بالذكر أن صناعة السكر في أوروبا في عصر إسماعيل لم تقم على أساس القصب بل كانت على أساس البنجر ولم تكن هناك إلا مصانع قليلة لتصدير القصب في الهند وكانت بسيطة نسبية في معداتها وحجمها وإنتاجها بالنسبة لمصانع الخديو إسماعيل، انظر: محمود عمر، إسماعيل صنيد عهد الصناعة، مقالة في كتاب إسماعيل بمناسبة مرور ٥٠ عاما على وفاته، ص١٤٦. (OWEN,OP.,CIT.,PP.153,113

١٢٣- حسين علي الوفاعي، الصناعة في مصر، (القاهرة : ١٩٣٥)، ص٢٦٤.

١٢٤- محمود حلمي مصطفى، مرجع سابق، ص٢٤٢.

Mac Coan,PO,NAOC C67.

Mac Coan,OP,CIT.,P.126.

١٢٧- على بركات، تطور الملكية الزراعية في مصر ١٨١٣-١٨١٤ وأثره على الحركة السياسية (القاهرة : دار الثقافة الجديدة ١٩٧٧) ص٣٣٤.

١٢٨- ARMSTORNG,SIR.W.G ,A VISIT TO EGYPT IN 1873 DESCRIBED IN FOUR LECTURES THE LITERARY&PHILOSOPHICAL SOCIETY OF NEW CASTLE UPON-TYNE,1874,P.33.

١٢٩- القصبة : هي وحدة قياس كان طولها قبل عامي ١٨١٣-١٨١٤ يختلف ما بين ٣,٧٥ متر و٣,٩٩ متر وبعد عامي ١٨١٣-١٨١٤ حدد طولها بـ ٣,٦٤ متر. انظر: هيلين آن ريفلين، مرجع سابق، ص٣١؛ إميل كساب، قاموس الحساب في تحويل العملة المصرية إلى فرنسية وإنجليزية وتركية وبالعكس وتحويل الموازين والمكاييل، (القاهرة : ١٨٧٩)، ص٤١.

١٣٠- كان يخفى من السخرة في عهد إسماعيل الذين يقل سنهم عن ١٥ سنة والذين يزيد سنهم عن ٥٠

سنة، وكذلك أصحاب الحرف، العجزة والعلماء والفقهاء والخفراء ورجال القبائل العربية (البدو) وخدم الأضرحة والمساجد والقسس وخدم الكنائس، انظر: علي مبارك، مصدر سابق، ج١٧.

١٣١- علي شلبي، مرجع سابق، ص ٢٤٤؛ علي بركات، مرجع سابق، ص٣٤٤.

١٣٢- محافظ الداخلية، محفظة ٧ أوامر، وثيقة رقم ٢٩، من إسماعيل إلى ناظر الداخلية بتاريخ (أذى الحجة ١٢٩٠ هـ/ يناير ١٨٧٤ م)

١٣٣- مجلس خصوصي، دفتر رقم ٦١، وثيقة رقم ٤١ في (١٢ ربيع ثان ١٢٩٤ هـ/أبريل ١٨٧٧م) ص٩٢ من المجلس الخصوصي إلى ديوان الداخلية.

١٣٤- سجلات معية سنية عربي، دفتر ١٨٥٣، وثيقة ١٣، ص٥١ من المعية إلى توكيل تفتيش عموم أقاليم قبلي بتاريخ (١٦ ربيع الأول ١٢٨٩ هـ/ مايو ١٨٧٢م).

١٣٥- سجلات معية سنية عربية، دفتر رقم ٥، وثيقة رقم ٢٠٠، ص٣٩، تذكرة بختم سعادة مهر دار الخديو إلى مفتش جفالك المنيا وما حولها بتاريخ (٢٣ صفر ١٢٩٢ هـ/أبريل ١٨٧٥م).

١٣٦- لينان دي بلفون، مصدر سابق، ص٢٨.

Du Kesel Bey, (Baron), An English man's Recollections of Egypt 1863 To 1887, with and epilogue dealing with The present time 1914, (London 1914), p.131

١٣٧- بيير كرابيتس، مرجع سابق، ص١٢٤، ١٢٣؛ جورج بادج، مرجع سابق، ص ٢٤٦.

١٣٨- أحمد الحتة، مرجع سابق، ص٦٢؛ توفيق الحناوي، مرجع سابق، ص٤٤، ٤٥.

د/ سعيد مغاوري محمد (*)

القمح فى نصوص البرديات العربية

تمهيد:

القمح من المحاصيل الزراعية التي توليها الأمم والشعوب عناية خاصة لما لها من أهمية قصوى في حياة الناس، فالقمح كما تعرفه قواميس اللغة العربية هو «البُرّ»(١)، وهو حب يطحن ويُتخذ منه الخُبز، والبر جمع بره من القمح، ولقد منع عالم اللغة «سيبويه» (٢) ان يجمع البر على «ابرار» وجوزه «المبرد»(٣) قياساً (٤). ولقد ورد نبات القمح ضمن نصوص ورسوم عدد من المخطوطات العربية منها مخطوط الغافقي يحمل عنوان (كتاب في الادوية المفردة) محفوظ بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة انظر(لوحة رقم ١).

ونظراً لأهمية هذا المحصول فقد إعتنت الدول بزراعته وحصاده وتسويقه وقامت العديد من الدراسات والبحوث حول القمح لتحسين نوعيته والإكثار من إنتاجه وجودته. لسد الفجوة الهائلة بين الإنتاج والاستهلاك خاصة وأن محصول القمح لا غنى عنه لسائر طبقات المجتمع فيحتاجه الغني قبل الفقير، وكما يقولون «لا يملك قراره من لا يملك قوته» وفي هذا الخصوص يحضرني أيضا قول الإمام الشافعي رضي الله عنه «لا تشاور من ليس في بيته دقيق» للدلالة على أهمية العمل والكد والعناية بالقوت والطعام ممثل في الدقيق (القمح)، وكان الإمام أحمد بن حنبل يقول: اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصن وجهي عن المسألة لغيرك، وعن أهمية البيع والشراء وخاصة تجارة القمح، ذهب رجل لأحمد بن حنبل يستنصحه فقال له: «إلزم السوق تصل به رحمك وتعود به المريض»(٥) كناية عن توفر الرزق وإطعام الأهل وعيادة المريض. لذلك كله كان للقمح أهمية خاصة في العهد الاسلامي، ولقد اتبع الخلفاء الراشدين سياسة بالغة الأهمية حيال هذا الموضوع، خاصة بعد الفتوحات الإسلامية

(*) أستاذ الآثار والحضارة الإسلامية المساعد رئيس قسم الإرشاد السياحي – كلية السياحة والفنادق – جامعة المنوفية

في مصر والشام والعراق وفارس... وغيرها. فهذا المؤرخ ابن عبد الحكم يروى أن عمر بن الخطاب كتب إلى واليه على مصر عمرو بن العاص رسالة جاء فيها: «... إن الله قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام وقد ألقى الله في روعي لما أحببت من الرفق، بأهل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتح الله عليهم مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين أن احفر خليجاً من نيلها حتى يسيل في البحر فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة...»[٦].

والمتأمل في نصوص البرديات العربية وأوراق الكاغد، يلاحظ أنها تتضمن معلومات بالغة الأهمية عن محصول القمح وأنواعه ومواصفاته وتجارته وأبرز مدن إنتاجه، وصناعته خبزاً وأبرز من تخصص في زراعته وإنتاجه، هذا بالإضافة لنقله عبر سفن أطلق عليها «سفن القمح» وغيرها من المعلومات الهامة التي قلما نجدها في مواد أخرى غير أوراق البردي وأغلبها محفوظ في العديد من المكتبات والمتاحف والجامعات الأوروبية و الأمريكية، وسوف أتناول بالشرح والتحليل بعض هذه النصوص مع نشر عدد من البرديات عن القمح لأول مرة في هذه الدراسة.

جدير بالذكر أيضا أن متحف الفن الاسلامي بالقاهرة يقتنى مكيلة خاصة بعيار ووزن القمح المسلوق وهو ما يعرف اليوم عند العامة (بالبليلة) وهى مكيلة من الزجاج الأخضر قطرها (٣٩ مم) لونها أخضر مزرق تحمل رقم سجل (١٤٣١٧/٨٩) تنسب لعهد أسامة بن زيد في العهد الاموى – حيث شغل منصب عامل خراج مصر في الفترة من (٩٦-٩٩هـ/٧١٤-٧١٧م)ثم شغل منصب والى مؤقت سنة(١٠٢هـ/٧٢٠-٧٢١م) ورد بالمكيلة كتابة عربية من (٤ سطور) بهذا النص :- (لوحة رقم ٢)

١- أمر أسا
٢- مة بن زيد
٣- مكيلة قمح
٤- المسلوق

وكما هو معلوم فإن أسامة بن زيد ينسب إليه أول شدة دخلت مصر في تحصيل الخراج بعد أن كتب إليه الخليفة سليمان بن عبد الملك عبارته المشهورة (احلب الدر حتى ينقطع واحلب الدم حتى يتصرم) كما أنه تشدد في تحصيل الجزية وقام بإجراء إحصاء دقيق يقوم على أساس استقرار كل شخص في قريته ومحل سكنه، حتى لا يتمكن أحد من الهروب إلى منطقة أخرى وخصص سجلات للأهالي وألزم بذلك كل شخص يريد الانتقال من جهة إلى أخرى في أنحاء مصر أو يريد ركوب سفينة أو النزول منها أن يحمل معه سجله، وأما من فقد سجله

أو اتلفه فقد الزمه أسامة بن زيد بالحصول على غيره مع دفع غرامة كما أمر أسامة بن زيد بألا يأوي أحد غريباً في الكنائس أو السواحل[٧].

أولا:- أبرز مدن وقرى مصر التي إشتهرت بزراعة القمح:

إشتهرت العديد من مدن وقرى مصر بزراعة القمح في الوجهين القبلي والبحري، لما تمتعت به هذه الأماكن من تربة صالحة للزراعة، بالإضافة لمناخ جيد ومناسب لزراعة هذا المحصول. ولقد وردت العديد من أسماء المدن والقرى المصرية مرتبطة بزراعة محصول القمح. بل إن هناك العديد من المدن ارتبط اسمها بالقمح مثل «القمح الفسطاطي» و«القمح اليوسفي» و«الفيومي»... وغيرها.

ومن القرى التي ورد ذكرها في بعض المصادر العربية والتي اشتهرت بزراعة القمح:-

أ- قرية بشمور ... وإنتاج القمح اليوسفي:-

هى قرية من أعمال دمياط، كان موقعها يشمل منطقة الإراضى الزراعية التي تقع بين فرعى النيل الشرقي (دمياط)، وبين البحر الصغير بمحافظة الدقهلية بين قريتين محلة إنشاق وقرية السرور بمركز فارسكور وفى المسافة الواقعة على البحر الصغير بين قريتي القباب الكبرى و برمبال القديمة بمركز دكرنس[٨]، ويدل على موقع بشمور حوض البشمور بأراضي ناحية دكرنس، ولقد أورد الرحالة اليعقوبى في كتابه البلدان[٩] ذكر هذه القرية وارتباطها بإنتاج نوع معين من القمح أطلق عليه «القمح اليوسفي» ربما كان نسبة لأحد العمال الذين حكموا هذه المنطقة وطور زراعة هذا المحصول فنسب إليه، أما عبارة اليعقوبى عن هذه القرية فذكر أنها اشتهرت بالقمح اليوسفي المجزع وبأنواع ممتازة منها نوع يسمى «الكياشي».

ب- مدينة طحا:

ذكرها الرحالة ياقوت الحموي بقوله: «كورة بمصر شمال الصعيد في غربي النيل»[١٠]. وطحا تعرف اليوم باسم «كفر سليمان» من نواحي مركز شربين بالغربية، وحاليا تتبع محافظة كفر الشيخ، أيضا ذكرها الرحالة اليعقوبى وأشار إلى اشتهارها بزراعة القمح فقال «إن بمدينة طحا القمح الموصوف والكيزان التي يسميها أهل مصر البواقيل...»[١١].

ج- الفيوم:

من أبرز مدن ومحافظات مصر في الزراعة عموما والقمح بصفة خاصة فقد أشار الرحالة اليعقوبى إلى اشتهار الفيوم بزراعة نوع جيد من القمح[١٢].

والفيوم كما هو معلوم جغرافياً محافظة هامة بمصر تحتل منخفضاً من الصحراء الغربية، تضم العديد من القرى التي اشتهرت بالزراعة عبر تاريخها الطويل مثل قرى بوصير ومطمور وسنهور... وغيرها، ذكرها العديد من الرحالة والجغرافيين العرب أمثال الإصطخري والمسعودي وابن حوقل... وغيرهم . فقال الإصطخري عنها: «وليس بأرض مصر مدينة يجرى فيها الماء دائماً غير الفيوم»[١٣]، وذكرها المؤرخ الكندي في القرنين (٣-٤ هـ / ٩-١٠ م) بقوله: «كورة تشتمل على ثلاثمائة وستون قرية دبرت على عدد أيام السنة...»[١٤] ومازالت الفيوم حتى اليوم تشتهر بالعديد من المحاصيل الزراعية ، كما ورد ذكرها في العديد من نصوص البرديات العربية[١٥].

د- القسطاط:-

من المدن القديمة والشهيرة بزراعة القمح . أرتبط بها نوع خاص من القمح أطلق عليه «القمح القسطاطي»، ورد ذكره في العديد من نصوص البرديات العربية ، منها بردية عربية محفوظة في معهد البرديات بجامعة هايدلبرج بألمانيا تحمل هذه البردية رقم سجل (P.Heidelberg Arab. Inv. 741)[١٦].

تتضمن هذه البردية نصاً كتابياً من (١٠ سطور)، ورد بالسطرين (٦، ٧) من النص عبارة «القمح القسطاطي»، وبعض مواصفاته بأنه «قمح نقى طيب بريء من العيوب» التي قد تصاحب زراعته وكذلك «الشوائب والطين» وغيرها.

ونص البردية كالتالي :-

١- بسم الله (الرحمن الرحيم)
٢- اطال الله بقاك وادام عزك وكرامتك
٣- كتابى اليك اعزك الله يوم الجمعه....
٤- لم اسمع لك اعزك الله حين....
٥- واذ اسلم الله كامل كتابى هـــذا
٦ القسطاطى تأتينى منه
٧- وهو قمح نقى طيب بريء من [العيوب]
٨ لا يعين الكف وهذا عطا الله
٩- ان لم تحرص في بيعه فا....
١٠- يكون ثمنه في صره على حد ....

جدير بالذكر أن القسطاط حظيت بالعديد من عناية الولاة والعمال الذين توافدوا على حكم مصر واتخذوا منها مقراً لحكمهم، فعنى بعض الولاة بحفر الترع وإصلاح الأراضي الزراعية وإقامة الجسور والقناطر لتيسير حركة الزراعة

والحصاد، ومن ثم النشاط في تجارة القمح وسائر المحاصيل الزراعية. ويؤيد هذا القول ما ذكره المؤرخ الكندي أن والى مصر في العهد الأموي قرة بن شريك العبسى(٩٠-٩٦هـ / ٧٠٩-٧١٥م) عمد إلى استصلاح بركة الحبش من الموات وسعى إلى تطويرها ومدها بالمياه للنهوض بزراعاتها. فذكر المؤرخ الكندي[١٧]: «فاستنبط الإصطبل لنفسه من الموات وأحياه وغرسه قصباً فكان يسمى إصطبل قرة، وسمي أيضا إصطبل القاس، يعنون القصب...»[١٨].

ولعل الدليل على اشتهار الفسطاط بزراعة وتجارة القمح خلال القرون الأولى للهجرة، إلى جانب ورودها في عدد من نصوص البرديات العربية. كما اشرت من قبل فإن حفائر الفسطاط كشفت وجود عدد من الطواحين الخاصة بطحن الغلال والقمح، وهناك الطواحين اليدوية البسيطة التي تتكون من حجرين يعلو أحدهما الآخر، يتم من خلالهما طحن الغلال والقمح. وهناك نوع من الطواحين يطلق عليه «الأرحاء الهوائية» وهى تتكون عادة من ثمانية أجنحة تعمل خلف عمودين ينفذ بينهما الهواء كالسهم وتكون هذه الأجنحة عمودية على قائم عمودي أيضا يحرك طرفه الأسفل حجرا فيدور هذا الحجر على حجر آخر، وقد ذكر العالم العربي الغزولى (ت٨١٥هـ/١٤١٢م)[١٩]، مر هذه الطواحين وذكر سرعتها وبأنها كانت تنظم بواسطة منافس تغلق وتفتح حسب الحاجة (كما يفعل بالعجلات المائية اليوم).

هـ- كور الصوف(أتريب، عين شمس، نتو بسطة، طرابية، قريبط وصان وإيليل):-

جميع هذه المدن والقرى تقع في دلتا نهر النيل، أوردها الرحالة اليعقوبى في كتابه البلدان[٢٠]، وذكر بأنها إشتهرت بالعديد من الحاصلات الزراعية من حبوب وغلال وخضر وكتان وفواكه... وغيرها، أبرزها على الإطلاق كان زراعة القمح نظراً لخصوبة أراضيها وإعتدال مناخها ووفرة مياهها. ومدينة أتريب الوارد ذكرها بها كورة واسعة وبها القرية المعروفة «ببنها» التي بها العسل الموصوف.

و- إسنا وأخميم وعدد من مدن وقرى الوجه القبلي:-

ذكرهما الرحالة والجغرافي الإصطخري وذكر بأنهما مدينتان عامرتان بصنوف المزروعات والنخيل والزروع، وكانت بأسواقهما أنواع متعددة من التمور والخضر والحبوب، منها القمح الجيد النقي[٢١]. وهناك العديد من نصوص البرديات العربية التي كشفت لنا معلومات هامة عن زراعة وتجارة القمح في صعيد مصر، والعديد من مدنه وقراه مثل البهنسا وأنصنا والفيس

والأشمونين في صعيد مصر الأوسط. أما صعيد مصر الأعلى فهناك العديد من أسماء المدن والقرى التي ورد ذكرها في العديد من نصوص البرديات العربية وأوراق الكاغد نذكر منها فقط ، قوص ، أسوان ، النوبة[٣٢] ... وغيرها.

ثانيا:- تجارة القمح خلال القرون الأولى للهجرة فى ضوء البرديات العربية :-

احتلت تجارة القمح مكانة متميزة في العديد من الأسواق المصرية خلال القرون الأولى للهجرة، ونشطت حركة التجارة بفضل وجود العديد من طرق النقل المائية عبر السفن والموانىء المنتشرة على ضفاف نهر النيل والبحرين المتوسط والأحمر فهذا العلامة النويرى يشير إلى ذلك بقوله:-

«أن مصر ... فرضة الدنيا يحمل من خيرها إلى سواحلها وذلك أن من ساحلها بالقلزم ينقل إلى الحرمين والى جدة وعمان والهند والصين وصنعاء وعدن والسند وجزائر البحر ومن جهة تنيس ودمياط والفرما فرضة بلد الروم وأقاصى الفرنجة وقبرص وسواحل الشام والثغور إلى حدود العراق ومن جهة الإسكندرية فرضة الريطش وصقليه وبلد الروم والمغرب كله الى طنجه ومغرب الشمس ....»[٣٣].

ومن ناحية أخرى فقد أشار إبن الفقيه الهمدانى[٣٤] إلى نشاط حركة التجارة في العديد من الموانىء المصرية عبر تجارة البحر. وانتقال العديد من السلع التجارية والمحاصيل الزراعية ومنها تجارة الحبوب والغلال ومن أبرزها القمح فذكر أن تجار اليهود الذين كانوا يفدون من بلاد الفرنجة ويتكلمون العربية والفارسية والفرنسية والصقلبية، سماهم المسلمون (تجار البحر)، كانت ترسو سفنهم عند الفرما، ثم يحملون تجارتهم على الدواب إلى القلزم ومنها إلى موانىء البحر الأحمر متجهين شرقاً إلى السند والهند والصين ويحملون في عودتهم السلع الشرقية. أما بالنسبة لتجارة القمح خلال القرون الأولى للهجرة، فقد تعددت موانىء تجارته ونقله عبر السفن في نهر النيل وفى البحرين الأحمر والأبيض المتوسط حتى ظهرت فى نصوص البرديات العربية أنواع من السفن أطلق عليها (سفن القمح) منها بردية عربية (تنشر لأول مرة) محفوظة في المكتبة الوطنية بالنمسا برقم سجل :- (PERF.A.P.3111)[٣٥] في كتابتي الوجه والظهر- فنجد في السطر السادس من نص كتابة الوجه عبارة (سفينة القمح)، وتكررت كلمة (سفينة) ثلاث مرات في كتابة وجه البردية.

مما يشير إلى تخصيص نوع معين من السفن ربما النيلية كانت تجوب نهر النيل لنقل محصول القمح بين العديد من مدن وقرى مصر في الوجهين

القبلي والبحري. ولقد أشارت بعض المراجع العربية أن منطقة (أم دنين) التي كانت تقع على نهر النيل وبالتحديد كان موقعها شمال مدينة الفسطاط. كانت هذه المنطقة مركز تجارى للغلال عرف باسم «ميدان القمح أو ميدان الغلة»[٣٦]. وكان يحده غرباً المكان الذي يلى باب «القنطرة» مباشرة حتى «المقس» ويصل إلى خليج القاهرة من ناحية الشرق. وكانت حمولة القمح تفرغ في الميناء النيلى الذي كان يشغل كل ساحل المقس حتى باب القنطرة، وكانت السفن ترسو في المكان الذى يقع بين جامع المقس ومئية السيرج، حتى أن الساحل كان زاخراً بالغلال وبالسفن المحملة بالقمح وسائر أنواع الحبوب الأخرى.

أبرز موانىء مصر لنقل وتجارة القمح:

١- القلزم:-

ميناء يقع على البحر الأحمر، وكان يعتبر داراً لصناعة السفن، بإمرة عبد الرحمن بن إلياس - ثم في (سنة ٩١هـ) كان صاحب العمل فيها محمد بن أبى حبيبه. وقد وردت إشارات واضحة في بعض نصوص البرديات العربية إلى هذا الميناء الهام وخاصة في عبارة (طلب متاع للقلزم) ضمن نصوص برديات الوالي الأموى قرة بن شريك العبسى. كما ورد أيضا ذكر دار الصناعة في القلزم في البردية اليونانية رقم سجل (١٣٤٦) إذ وردت فيها عبارة:- (إلى صاحب الشوة في تعجيل متاع القلزم)[٣٧].

جدير بالذكر أيضا أن ميناء القلزم ورد أيضا ضمن نصوص بردية عربية محفوظة بالمتحف البريطاني بلندن برقم سجل: (British Museum, Or-6333- 2) وذلك في السطر الخامس من النص.

وهى بردية مؤرخة بعام ٩١هـ حيث ورد لفظ (القلزم) في مطلع السطر الخامس (انظر اللوحة رقم ٣).

٢- باب اليون:-

وهو ميناء يقع على نهر النيل بالقرب من حصن بابليون قريب من مدينة الفسطاط ، وكان أيضا داراً لصناعة السفن في جزيرة باب اليون في النيل[٣٨]، وقد ورد ذكر هذا الميناء في عدد من نصوص البرديات العربية إحداها بردية تحمل رقم سجل(١٤١٠) وردت بها هذه العبارة الهامة(فأعطوا لصنعة العين والقواس والسفن في جزيرة باب اليون قبل عبد الأعلى بن أبى حكيم سنة تسعين لجيش سنة إحدى وتسعين نبطيين ونوبجين ونجاراً ومجلفطاً ومعيشتهم...)[٣٩].

ايضاً وردت عبارة (جزيرة باب اليون) ضمن نصوص بردية عربية محفوظة في المتحف البريطاني بلندن برقم سجل (British Museum, Or.No.6235), ورقم سجل B.M.PAP.1436-17

فقد ورد في السطر الرابع من نص البردية عبارة (لسفن في جزيرة باب اليون قبل عبد الأعلى بن ابى حكيم)، ويلاحظ أن هذه البردية بها العديد من التمزقات في بعض أجزائها، ونظراً لوجود كتابة باللغة اليونانية فإن عبارة (جزيرة باب اليون) عرفت من خلال هذا النص اليوناني أيضا بعد ترجمته. (انظر اللوحة رقم٤).

٣- أم دنين (المكس)،

من أشهر مدن وموانىء مصر عبر تاريخها الطويل ، وكانت تقع على شاطىء النيل تجاه القاهرة إلى الشمال من حصن بابليون على البر الغربي للخليج، فلما إنحسر النيل بعد سنة (٥٧٠هـ/١١٧٤م)، وظهرت جزيرة الفيل تقلص النيل عند سور القاهرة، الذي كان ينتهي عند المقس (المكس)(٣٠).

ومن المعروف أن نهر النيل كان يجرى في هذا الوقت بجوار حصن بابليون ودير أبي السيفين فكان مجراه بهذا شرق المجرى الحالي بكثير، وكان بعد مروره بمنطقة الكبش يتجه شمالاً حتى منطقة المكس فكانت المكس بذلك هي ميناء القاهرة النهري منذ الفتح العربى لمصر حتى القرن(٦هـ/١٢م).

أما عن موقع المكس اليوم فهو على وجه التقريب (محطة سكك حديد مصر) (مع شارع كلوت بك) حتى حديقة الأزبكية(حي العتبة حالياً) في المنطقة الواقعة بين جامع المكس (أولاد عنان حالياً) بشارع رمسيس حتى شارع قنطرة البركة(شارع نجيب الريحاني حالياً)، ويشمل ذلك مدخل شارع الجمهورية من جهة شارع رمسيس والمباني الواقعة على جانبيه حتى الدرب الإبراهيمي(٣١).

جدير بالذكر أيضا أن مدينة (أم دنين) كانت تعد واحدة من أهم مدن مصر في القرون الأولى للهجرة. فقد ورد ذكرها في العديد من المصادر التاريخية منها ما ذكره ياقوت الحموي في القرن (٧هـ/١٣م) فذكرها بقوله «كانت تشتمل قبل بناء الفسطاط على حصن حاصره عمرو بن العاص وقاتل أهله قتالاً شديداً حتى فتحه الله له سنة (٢٠هـ/٦٤٠م) فكان هذا الفتح بمثابة قاعدة إتخذها العرب على النيل وتركوا فيها حامية لهم .. وانطلقوا منها بالسفن عبر النهر لمتابعة الفتح...»(٣٢).

أما عن سبب تسميتها بهذا الاسم فذكر المؤرخ المسبحي... بأنه ربما يرجع إلى كونها كانت مقراً لصاحب المكس أو العاشر الذي كان يأخذ عشر

أموال القوم من بائعي السلع في الأسواق مكساً أو جباية للدولة فقلبت الكاف في كلمة المكس قافاً – المقس....(٣٣).

ولقد وردت عبارة صاحب المكس ضمن نصوص العديد من البرديات العربية من بينها بردية عربية محفوظة في معهد البرديات بجامعة هايدلبرج بألمانيا برقم سجل(PSR-Arab.8-9) مؤرخة بشهر ربيع الاول سنة ٩١هـ تنسب لعهد الوالي الأموى قرة بن شريك العبسى ٩٠-٩٦هـ/٧٠٩-٧١٥م حيث ورد في السطرين (٢٤-٢٥) من نص البردية هذه العبارة:- (فإني قد أمرت صاحب المكس...)(٣٤) .(انظر اللوحة رقم ٥).

أما فيما يتعلق بالمكس كمركز وكميناء تجارى هام في العصر الاسلامى فقد أورد المؤرخ المقريزى عبارات تشير إلى ذلك فذكر أن المعز لدين الله الفاطمي هو الذي انشأ دارا للصناعة بالمقس وبنى فيها سفائة مركب لم ير مثلها في البحر على ميناء، وعندما تم بناء هذه السفن ركب في شوال سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م إلى المدينة ليشرف بنفسه على الأسطول وقرا عليه وعوذه(٣٥).

جدير بالذكر أيضا أن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله لما تولى حكم مصر أقام إلى جوار دار الصناعة مسجدا سمي بجامع المقس فعمرت المنطقة وأمها الناس حتى أصبحت بعد ذلك من أهم ثغور القاهرة(٣٦).

ومن ناحية أخرى أشار المؤرخ المصري المعروف ابن عبد الحكم في القرنين ٢-٣هـ/٩-٨م إلى أهمية منطقة أم دنين منذ مطلع القرون الأولى للهجرة فقال «...كان لقريات من مصر منهن أم دنين وبلهيب عهد وان عمر بن الخطاب لما سمع بذلك كتب إلى عمرو بن العاص يأمره يخبرهم فان دخلوا في الإسلام فذلك وان كرهوا فارددهم إلى قراهم... وربما كان ذلك يشير إلى أن أم دنين كانت قرية يسكنها القبط»(٣٧)... من العبارة السابقة يتبين لنا مدى عراقة ومكانة منطقة أم دنين قبل الإسلام وبعده فقد كانت من ابرز موانئ مصر. جدير بالذكر ايضا ان الدكتور ادولف جروهمان قد اشار الى ان لفظ (مكس) يقصد به نوع جديد من الضرائب فرض على التجار الذين كانوا يبيعون سلعهم في الجاهلية ، وقد نقل هذا التعبير عن الكلمة الآرامية (مكسوا بالسريانية)(٣٨).

٤- الأسكندرية:-

من أبرز واشهر مدن وموانئ مصر قبل الإسلام وبعده تحتل موقعاً متميزاً على ساحل البحر الأبيض المتوسط ذكرها المؤرخ البلاذرى في القرن(٣هـ/٩م) بقوله:- «...على ساحل بحر الشام افتتحها العرب سنة عشرين من الهجرة...»(٣٩). أيضا ذكرها ابن حوقل في القرن (٤هـ/١٠م) بقوله:- «...

مدينة على بحر الروم رسومها بينة وآثار أهلها ظاهرة تنطق عن ملك وقدره وتفصح عن عظه وعبره كبيرة الحجارة جليلة العمارة . . .»[٤٠].

ومن ناحية أخرى فان الرحالة الشهير ناصر خسرو المعروف بتعدد رحلاته وجولاته في العديد من بلدان العالم العربي والاسلامي زار هذه المدينة في القرنين (٥-٦هـ/١١-١٢م) فحدد موقعها بدقة على ساحل بحر الروم وحافة نهر النيل . كما حدد المسافة بينها وبين القاهرة - فقال:- « . . . أن السفن تنقل كثيرا من الفواكه من ميناءها إلى مدينه القاهرة»[٤١]. كما ذكر أن المسافة بينها وبين القاهرة ثلاثين فرسخا[٤٢].

أما من ناحية شهرة الإسكندرية كميناء تجارى وبحري مميز فقد وردت لذلك العديد من الحقائق العلمية وكذلك الوثائق التاريخية ومنها وثائق البرديات العربية منها برديات الوالي الأموي قرة بن شريك العبسى إحداها بردية عربية محفوظة في متحف برلين بألمانيا برقم سجل (Berlin.M.Ar.352) وردت بها معلومات عن عناية قرة بن شريك بسفن أمير المؤمنين المتوجهة عبر الإسكندرية إلى أفريقيا أى سواحل البحر الأبيض المتوسط في تونس والمغرب العربي وغيرها.

فنقرا نص البردية كما يلي :- (لوحة رقم ٦)

١- بسم الله الرحمن الرحيم
٢- من قرة بن شريك الى اهل (بندة) من مدينة (نصنى فا)
٣- عطوا لبعث نواتية سفن (ا) مير المؤ(منين)ن الى افريقية (قبل عبد)
٤- الله بن موسى بن نصير سنة (ا) ربع (و) تسعين لجيش سن(ة)
٥- خمس وتسعين نوتيين ونصف نوتى (فان اعطيتم الاجر)ف-(ـا) عطو (ا)
٦- في اجر كل نوتي (د ينر) وسدس دينر تدفع لهم) من حيث المال
٧- وكتب . . . بن (عميس بن كومناس) من سنة اربع وتسعين

وكما هو معلوم فإن الاسكندرية إلى جانب كونها من ابرز مدن وموانئ مصر على البحر الأبيض المتوسط اشتهرت كذلك بكونها دار صناعة السفن في مصر منذ القدم وقد أشار المؤرخ ابن خلدون ٨-٩هـ/١٤-١٥م إلى قيام الأسطول المصري ببناء السفن الحربية في البحر المتوسط حتى تمكنت دار الصناعة التي أنشئت في تونس بأمر الخليفة الاموى معاوية بن ابى سفيان من أنتاج ما يكفيها من السفن[٤٤]. ولقد اعتمد العرب في أول أمرهم على أبناء الأمم التي خضعت لسلطانهم في بناء السفن نظرا لخبرتهم الطويلة في الإبحار ولتمرسهم الطويل في صناعة السفن والبواخر . ومن ناحية أخرى فقد كشفت بعض

نصوص البرديات اليونانية التى كتبت في العهد الاسلامى معلومات هامة عن اتخاذ الاسكندرية كقاعدة وكميناء مجرى هام لانطلاق السفن في العهد الاموى لغزو الشواطئ البيزنطية . ورد ذلك في نصوص برديات يونانية احداها برقم سجل(١٣٥٣) في المتحف البريطاني بلندن وهناك برديات أخرى في مجموعات عالمية تتحدث عن ميناء الإسكندرية[٤٥].

ثالثا- نصوص البرديات العربية وبعض أوراق الكاغد المتعلقة بالقمح:-

تنوعت نصوص البرديات العربية وبعض أوراق الكاغد في مجال القمح وتجارته وتحصيله لبيت مال المسلمين كخراج للدولة الإسلامية أو ما أطلق عليها في نصوص بعض البرديات «ضريبة الطعام» وهى تعد من أهم الضرائب بعد ضريبتي الجزية والخالية، لأنها احد موارد الخراج بمعناه العام في الدولة الأموية ثم العباسية . جدير بالذكر أن ضريبة الطعام والمقصود بها القمح كانت ترد في سياق الحديث عن الجزية أحيانا كقول قرة بن شريك ليسيل صاحب أشقوة «فخذ فيما على أرضك من الجزية . . . فإن أهل أرضك قد فرغوا من زراعتهم . .»[٤٦].

جدير بالذكر أيضا أن ضريبة الطعام تختلف في العهد الاسلامى عنها قبل الإسلام ، فهي في العهد الاسلامى غير ثابتة بينما في العهد البيزنطي ثابتة ، فالضريبة البيزنطية مكونة من القمح والشعير ، إما في العهد الاسلامى فهي تجبى حسب حالة الأرض الزراعية وما تخرجه من محاصيل وحسب توفر وانحسار مياه نهر النيل ، اى ليس فيها ظلم وغبن للشخص المكلف بأدائها . وكان الموظف المكلف بجمعها في العهد الاسلامى يطلق عليه لقب(قبال)[٤٧].

ولقد أشارت بعض المصادر العربية إلى أهمية تنمية موارد بيت مال المسلمين من أموال وحبوب ومحاصيل وغيرها.

فهذا الماوردى يذكر أهمية بيت المال للحاكم وللرعية فيقول:-

«أن الله تعالى قد جعل الأموال قواما للبشر واله لطلب المعالي ، وأداة لنيل الامانى ، وزينة للحياة الدنيا ، وطريقا إلى النجاة في الآخرة والأولى . .»[٤٨].

أيضا ذكر الشيزرى في كتابه المعروف «المنهج المسلوك»:-

«بيت المال ركن عظيم للمملكة ، تتعلق به المصالح الكلية من أرزاق المقاتلة والولاة وأعوانهم ، وتجهيز الجيوش ، وأرزاق الفقراء والمساكين وأهل العلم ، وسد الثغور ، وبناء المعاقل والحصون . . . وغير ذلك مما تقوم به مصالح الرعية وبقدر زيادته ونقصانه يكون حال المملكة»[٤٩].

لأجل ذلك كله كان الاهتمام بجمع الأموال والجزية والخراج والطعام (ضريبة القمح) لبيت مال المسلمين. وكانت هناك عناية خاصة من قبل الولاة والعمال بتوجيهات مباشرة من الخلفاء لهم بتنظيم هذا الامر منها ما أورده ابن سعد في الطبقات الكبرى قوله:-

«إن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله في العراق ... أما بعد، فحل بين أهل الأرض وبين بيع ما في أيديهم من الخراج. فإنهم أنما يبيعون في المسلمين والجزية الراتبة...»(٥٠).

أ- سفينة القمح ضمن نصوص بردية عربية محفوظة فى مجموعة الأرشيدوق رايتر بفيينا ،تنشر لأول مرة:-

هذه البردية النادرة كتبت على قطعة من ورق البردي أطوالها ٢٤,٥×٥,٤سم كتبت بخط أسود غير منقط. ربما تتعلق بتجارة القمح وتصديره. فقد وردت بها عبارات تشير إلى نقل القمح عبر السفن فقد وردت كلمة سفينة في ثلاثة مواضع من كتابة الوجه في السطور(٦, ٨, ١١) والبردية كتبت في الوجهين (Recto & Verso) ولم يتبق منها سوى شريط من المنتصف فهي ممزقة من الجهتين اليمنى واليسرى كما هو واضح في الصورة المرفقة (لوحة رقم ٧) والبردية غير معلوم مكان العثور عليها وكتابة الوجه كما أشرت من قبل تتعلق بتجارة القمح. أما كتابة الظهر فهي تتضمن موضوعا مختلفا عن كتابة الوجه فقد وردت به كتابة من (١٩) سطر ربما تتعلق بتجارة الخيش والصوف وذلك لورود هاتين المادتين في السطر السابع من النص كما ورد بكتابة الظهر أيضا لفظ (القاضي) و(خليفة القاضي) كما ورد أيضا ربما اسم مدينة (أشمون) في مطلع السطر(١٦) ويلاحظ ان كاتب الوجه ربما كان هو نفسه كاتب ظهر البردية لظهور الحروف متشابهة كماهو واضح في لفظ الجلالة (الله) في السطرين (١, ٢) من كتابتي الوجه والظهر. ترجع أهمية هذه البردية في أنها تلقى الضوء على تجارة بعض السلع الغذائية والصناعات النسيجية في القرون الأولى للهجرة، فالقمح كانت تخصص له سفنا معينة لنقله ربما عبر نهر النيل بين العديد من مدن وقرى مصر ربما للاتجار فيه أو لنقله لبيت مال المسلمين أو ربما لتصديره خارج مصر.

Recto كتابة الوجه

١- (بـ)ـسم الله الرحمن الر(حيم)
٢- (ابقا)ك الله ورحمك
٣- (أ)بو سعيد في هـ(ـذه)
٤- مع غدوه ولا يا(تينى)

٥- (ـ)ـذه فان لم يدفع ـ(ـ
٦- في سفينة القمح
٧- فهى تمر بك الليل(ـه)
٨- سفينة التى نبحر...
٩- (فـ)ـرايك قوه ولا تب(ـطئ)
١٠- (أ)لى واستوصى
١١- (لـ)ـه السفينة وليـ(ـمس)
١٢- (فـ)ـــــــداك
١٣- (حفظ)ـك الله ورحمك وا(تم نعمه عليك)

Verso كتابة الظهر

١- (بسم الله الرحمن الرحـ)ـيم
٢- (حفظـ)ـك الله
٣- (فانى احمد اليك) الله الذى لا اله (الا هو)
٤- ورسوله صلى (الله عليه وسلم)
٥- ... وعافاك وابقاك ...
٦- ... ادى عنك...
٧- ... (فـ)ـى الخيش والصـ(ـوف)
٨- ... (و) رجائى واستـ(وصى)
٩- (...) واراد تظمى وا(نفاذ)
١٠- (...) في ما انا فيه وا(ن)
١١- (...) من القاضى وكتـ(ـب)
١٢- (...) من خليفة القا(ضى)
١٣- (...ـ)ـا بذلك رايت
١٤- (شـ)ـق على وان غـ(ـبنى)
١٥- (...) في يديه عـ(ـله)
١٦- (اشمـ)ـون ولقينى قد(ك)
١٧- (قد)منى وما اطلب
١٨- (قد)مت هذا الكتاب
١٩- (...ذ)لك

التعليق على نص البردية

إحتوت هذه البردية معلومات هامة عن محصول القمح وتجارته لعل أبرزها على الإطلاق تخصيص سفن لتجارة ونقل القمح وهى المرة الأولى التي

ربما ارتبط فيها محصول القمح بسفن معينة هي(سفن القمح) ضمن نصوص بردية عربية، ولم نعثر حتى اليوم على برديات عربية وردت بها عبارة محصول الكتان أو الشعير أو إي محصول زراعي آخر ارتبط بسفن خاصة به لنقله أو حمله أما القمح ربما نظرا لأهميته القصوى في حياة الأمم والشعوب فقد أفردت له سفن لنقله وتجارته عبر موانئ مصر في الوجهين القبلي والبحري ولقد اعتنى العرب بالسفن منذ القرون الأولى للهجرة . فهذا الوالي الاموى قرة بن شريك العبسى(٥٠) ٩٦هـ/٧٠٩-٧١٥م يعتني بهذه الصناعة الهامة سواء كانت للنقل التجاري او الحربي ، فهاهو يوجه أحدى رسائله إلى اهالى أحدى قرى القيس في صعيد مصر الأوسط ذكرها المسبحى في القرنين ٤-٥هـ/١٠-١١م بقوله:- «قرية بصعيد مصر تقع غربي النيل بمركز بنى مزار . محافظة المنيا»(٥١).

أيضا ذكرها الإدريسى في القرنين ٥-٦هـ/١١-١٢م على اعتبار أنها مدينة هامة تقع على ضفاف نهر النيل فقال:- «وإما مدينة القيس التي على ضفة النيل وبغربيه في مدينة قديمة حسنة البناء جميلة الجهات فيها قصب السكر الكثير وأنواع التمور والخيرات . . .»(٥٢).

وفى الرسالة التي وجهها قرة بن شريك إلى أهل أحدى قرى القيس نجد عنايته بضرورة الإسراع في استلام (خمسين رطل حديد) لأجل صناعة (ثلاثة وثلاثين رطل وثلث رطل مسامير) لصناعة سفن سميت في البردية باسم (العين والقوادس). فالعين هي المراكب التي تكون في طليعة الجيش نظرا لقوتها وقدرتها الفائقة في القتال ومنها المعين(٥٣) والمعيون اى الظاهر الذي تراه العين جاريا على سطح الماء، اما القوادس فهي السفن الكبيرة من القادس بمعنى سفينة كبيرة ضخمة وجمعها قوادس(٥٤). والبردية مؤرخة بشوال سنة٩٠هـ (انظر اللوحة رقم ٩).

نص البردية

١- (بسم الله الر)حمن الرحيم
٢- (من قرة بن شريك الى اهل)بنده بديده من كورة القيس فا
٣- قبضوا من ماروت كررنكم خمسين رطل حديد مزبر
٤- من حديد الأمارة فاصنعوا منها ثلثة وثلثين رطل
٥- وثلث رطل مسامير ثم ادفعوا ما صنعتم الى عبد ا
٦- لأعلى بن أبى حكيم لصنعه العين والقوادس سنة
٧- تسعين لجيش سنة أحدى وتسعين فان أعطيتم الأجر
٨- فأعطوا دينر وثلث دينر وكتب
٩- مرند في شوال من سنه تسعين

ب- براءة من ديوان بيت المال بتسليم قمح (تنشر لأول مرة)

من البرديات الهامة والنادرة التي تتعلق بتأدية القمح لديوان الدولة كخراج، هذا بالإضافة لورود محاصيل أخرى في ظهر البردية ربما كانت كشفا بحاصلات زراعية مختلفة ورد منها محاصيل (البصل- الشعير - الفرطم - العدس) هذا بالإضافة لمحصول القمح والبردية محفوظة في مجموعة الارشيدوق رايتر بفينا . النمسا- برقم سجل (Pert. Arab. Inv.2796)

والبردية مؤرخة بعام ٢٨٠هـ أطوالها ٣ ، ١x١٢ ، ٧سم بها بعض التمزقات وخاصة من طرفها الأيسر - الأمر الذي أدى إلى اختفاء العديد من السطور في هذه الناحية ، إما ناحيتها اليمنى فهي جيدة والقراءة واضحة والحروف كتبت بقلم سميك غير معجم والبردية تشمل نصين في الوجه والظهر . فكتابة الوجه كتبت في أجزاء من (١٠ سطور) وهى تختلف كلية عن كتابة الظهر التي وردت في (١٠ سطور) أيضا . ويلاحظ أن كاتب الوجه ربما كان غير كاتب الظهر . نظراً لاختلاف سمك وحافة كلا القلمين المنفذين للكتابة، فكتابة الوجه عبارة عن براءة صادرة من ديوان الخراج في الدولة بينما كتابة الظهر فهي ربما تتعلق بكشف حاصلات زراعية ربما مسلمة للديوان ويلاحظ عدم وجود أية حروف أو كتابات قبطية . ورد بنص الظهر محاصيل البصل والقرطم وهو (العصفر)(٥٥) وهو نبات زراعي صبغي من فصيلة المركبات الأنبوبية الزهر له لون اصفر ضارب إلى البرتقالي يستخدم بعد على زهوره في إدرار البول في الحصبة أما نبات الشعير الوارد في كتابة الظهر في (٤) مواضع . فهو نبات عشبي زراعي حبي من فصيلة النجيليات يقدم علفا للدواب(٥٦) ويمكن تحويله إلى دقيق يصنع منه الخبز ولكنه لا يكون خبز جيد بالمقارنة بخبز (القمح) أيضا يصنع من الشعير البيرة. انظر لوحة رقم (٩).

نص البردية

- كتابة الوجه recto:

١- براه
٢- عامل ا (لامير)
٣- حفظه الله
٤- بتول من كورة اهنا(س)
٥- سنة ثمانين (ومايتين)
٦- انى قبضت منك
٧- اثنين صدقة

٨- فمن لقيه من عمالى. فلا يعرض
٩- له الا بخير ان (شاء الله)
١٠- فى ذى (القعده. . .)

كتابة الظهر:verso

١ وله قمـ(ـح)
٢- وله بصل
٣- وله قمح اثنـ(ـين)
٤- وله قمح احد وثلث وثمنـ(ـية اردب)
٥- وله شعير وقرطم ثمنية عشـ(ـرة اردب)
٦- وله قرطم ثلثه عشر (اردب)
٧- وله شعير ثمنية وعشـ(ـرين اردب)
٨- وله عدس وشعير ثلثـ(ـه. . . .)
٩- وله عدس وشـ(ـعير. . . .)
١٠- وله قمـ(ـح)

ج- حرفة القماحين ضمن نصوص بعض البرديات العربية:-

وردت هذه الحرفة في نصوص بعض البرديات العربية، إحداها محفوظة بدار الكتب المصرية برقم سجل (٢٩٤) موضوعها:- بيان بمبالغ تسلمها عدة قماحين - تنسب للقرن ٣هـ/٩م - غير معلوم مكان العثور عليها، والبردية تتضمن نصين احدهما بالوجه اشتمل في اغلبه على كتابة قبطية متداخلة مع بعض الكتابات العربية.

اما ظهر البردية فقد ورد به النص التالى :- (لوحة رقم ١٠)

١- ا( )ن (عـ)لى (بـ)ن (مـ)حمد (الـ)....لى....
٢- الا ثلثى قيراط
٣- اسما القماحين الذين قبضوا الدنانير
٤- الاطروش عشرين دينار (عقبـ)ه عشرة الدنانير موسى
اربعة الدنانير بن عرفه خمـ(ـــــــ)ة الدنانير
٥- علـى يد حبـ(ـ. . . . . خمـــــــ)ة الدنانير الاعرج بن
يعـ(ـقو)ب خمسة الدنانير اسحق
ا(لخو)لا(نى) خمسة الدنانير فذلك

٦- الجملة ثمانين دينار وثلثين خمسة وخمسين دينارا.

التعليق على النص

هذه البردية نشرها د/ جروهمان في دراسته عن برديات دار الكتب المصرية[٥٧].

والمتأمل في نص هذه البردية يلاحظ أنها تتضمن ذكر بعض أسماء الأشخاص الذين اشتهروا ربما بزراعة او بتجارة القمح وأطلق عليهم لقب (القماحين) اى الذين تخصصوا في زراعة او تجارة القمح وارتبطت حياتهم بهذا المحصول الهام فورد اسم (الاطروش) في مطلع السطر الرابع - وذكرت البردية أن هذا الشخص قد إستلم (٢٠) دينارا، وهناك شخصا أخر ورد اسمه ربما كان يسمى (عقبه) حيث اختفى الجزء الأول من إسمه وذكرت البردية أنه تسلم عشرة دنانير. وهناك شخص أخر ورد إسمه في نهاية السطر الرابع ايضا ، فورد ذكر إسم (موسى) وقد استلم أربعة دنانير. كما ورد أيضا اسم (بن عرفه) الذي استلم خمسة دنانير. وفى السطر الخامس من نص البردية ورد ذكر اسمين من القماحين، الأول ويدعى الأعرج بن يعقوب وقد استلم خمسة دنانير، والثانى اسحق الخولانى واستلم أيضا خمسة دنانير. إما السطر السادس والأخير من نص كتابة الظهر فقد ورد به المبلغ الاجمالى الذي تم تسليمه للقماحين ربما كان حسابا على ما تم سداده من أموال المحصول القمح - فورد ذكر مبلغ ثمانين دينارا ومبلغ ثلثين ثم خمسة وخمسين دينارا فيكون المجموع كله(٨٠+٣٠+٥٥) مائة وخمسة وستون دينارا. ومثل هذا المبلغ الضخم يعتبر من المبالغ المالية الباهظة المدفوعة لأشخاص اعتنوا بمحصول القمح وهو أيضا يشير إلى مدى العناية التي كان يحظى بها هذا المحصول الهام ومكانته بين سائر المحاصيل الزراعية الأخرى لارتباطه بحياة الناس وقوتهم ومعاشهم، كما أن أسماء الأشخاص الواردة في نص البردية ربما تدلنا أيضا على أن زراعة وتجارة القمح لم تقتصر على الأقباط فحسب بل ربما شاركهم فيها أيضا بعض المسلمين مثل ورود اسم (بن عرفة) في السطر الرابع .

وبالإضافة إلى هذه البردية التي ورد بها لفظ (القماحين). ورد أيضا لفظ (القماح) ضمن نصوص أحدى البرديات الارشيدوق رايتر المحفوظة بالمكتبة الوطنية بالنمسا تحمل رقم سجل (PERF.ARAB.NO.991)[٥٨] وحرفة القماح ربما كانت تعنى الشخص المكلف أو المهتم بزراعة أو تجارة القمح، ولقد أفاض الدكتور جروهمان في شرح ذلك وذكر أهمية القمح المصري ومكانته وأنواعه المختلفة وأشار إلى أسعاره وذلك في مقاله له تحت عنوان (سعر القمح المصري) نشرها المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية بالقاهرة

سنة ١٩٣٠م .(٩٩) أيضا اشار المؤرخ المقريزى الى وجود (سوق القماحين)(١٠٠) فى مصر . كما ذكر المؤرخ ابن دقماق وجود العديد من الطواحين الخاصة بطحن القمح واعداده دقيقا مع حبوب اخرى فى منطقة شبرا الخيمة وذلك عندما تحدث عنها بقوله: (وبها سوق جامع وطواحين) (١٠١).

د . مواصفات القمح الجيد فى نص إقرار بدين يدفع قمحا

تضمنت العديد من نصوص البرديات العربية معلومات بالغة الأهمية عن مواصفات القمح الجيد الذي كان يسلم لبيت مال المسلمين كخراج للدوله الإسلامية في القرون الأولي للهجره. ولقد تبين ذلك من خلال العديد من نصوص البرديات العربية إحداها محفوظ في دار الكتب المصرية بالقاهرة برقم سجل (١٨٠١) مؤرخه فى العشرة الثانية من شهر المحرم سنة ٥٢٧ هـ / ٢٢ نوفمبر . أول ديسمبر ١١٣٢م (١٠٢) .

كتب هذا الإقرار علي قطعة من ورق الكاغد أطواله ٢٥×١٧ سم . عثر عليه بمدنية الفيوم التي إشتهرت بزراعة هذا المحصول ومازالت حتى يومنا هذا . ويلاحظ أن النص مدون علي شكل عمودان يتكونان من ١٦ ، ١٥ سطر كتبهما عباد أسود شخص يدعي (إسماعيل بن أحمد بن عبد الله). والذي إتسمت كتابته بالسرعة وعدم الإتقان في تنفيذ حروف الكلمات . وربما كان ذلك راجعاً للعجله في تدوين العديد من الإقرارات المتعلقة بديون القمح لدي المزارعين في العديد من مدن وقري مصر ومنها الفيوم التي تعددت قراها وكذلك الأشخاص الراغبين في تقسيط ما لديهم من أموالهم خراجية للدوله . كما يلاحظ وجود تداخل واضح في العديد من كلمات النص . حتي أن عبارة البسمله (بسم الله الرحمن الرحيم) وهي جملة مكونة من أربعة كلمات كتبت كأنها كلمة واحدة بشكل متداخل لافت للنظر كما هو واضح في الصورة المرفقة أيضا يلاحظ أن النص جميعه غير معجم (منقط) وهناك أيضا ضعط واضح في سطور النص فلم يترك الكاتب مسافات بين السطور

نص الإقرار

العمود الأيمن : (لوحة رقم ١١)

١- بسم الله الرحمن الرحيم .
٢- أقر بول الشمسى بن أبو البدر المقيم بيلجسوق .
٣- أقر له طوع راغب و(طا) لب واشهد علي نفسه .
٤- في صـ(حـ)ة (من عقله و) ا (قر) طائعا غير مكره ولا مجبر
٥- ولا مضطهد و(لا) جاهلا بم" أقر به فيه ان عليه .
٦- وعنده وقبله وفي ذمته وخالص ماله دينا .

٧- ثابتا وحقا لازما له من الإقرار به لزمزوم .
٨- بن نصر من القمح الطيب الصل .
٩- السالـ(م) من العلـ(ث) والطـ(سيـ)ـن (ثـ)ـلثة عشر اردبا .
١٠- النصـ(ف صـ)ـن ذلك سـ(تـ)ـة ا(ر)ا(د)(ب)ونصف يقوم بذلك .
١١- عند استهلال (هـ)حرم سنه سته وعشرين وخمسميه .
١٢- بغير مدافعه ولا ممانعه ولا احتجاج بحجه دون .
١٣- الخروج من المبلغ المذكور على تمامه وكماله بذلك .
١٤- اقر واشهد على نفسه فى العشر الثانى من محرم .
١٥- سنة سبع وعشرين اشهدت عليه بذلك وكتب .
١٦- اسـ(مـ)عـ(يـ)ـل (بن زيد) بن احمد بن عبدالله.

العمود الايسر

١- بسم الله الرحمن الرحيم .
٢- اقر دينار بن سليمن المؤذن بيلجسوق اقر نه .
٣- طوع راغب و(طا) لب واشهد على نفسه فى صحة .
٤- من عقله اقر طائعا غـ(ـير) مكـ(ـره ولا هـ)ـجبر ولا مضطهد .
٥- ولا جاهلا بما (اقر فيه ان عليه وعند)ه وقبله .
٦- وفى ذمته وخالص ماله دينا ثابتا وحقا لازما .
٧- له من الاقرار به لزمزوم بن نصر من القمح .
٨- الطيب الصل السالم من العلث اربعة ا(ر)ا(د)ب .
٩- وثلث يقوم بذلك فى اخر صفر من سنه سته وعشرين .
١٠- بغير مدافعه ولا مما (نعـ)ـه ولا احتجاج بـ(حـ)ـجه دون .
١١- الخروج من ال(مبلـ)ـغ الم(ذ)كـ(ور عـ)ـلـ(ى تعـ)ـا(مه و) كماله وبذلك.
١٢- اقر واشهد على نفسه فى العشر الثانى من محرم .
١٣- سنه سبع وعشرين وخمسـمائه.
١٤- شهدت عليه بذلك وكتب .
١٥- اسـمعيل بن زيد بن احمد بن عبد الله .

التعلق على نص البردية:-

احتوى نص هذا الاقرار العديد من المعلومات الهامة عن بعض مواصفات القمح خلال القرون الاولى للهجرة . وذلك من خلال ما ورد فى نص السطرين (٨ - ٩) من نص البردية . فنقرأ فى السطر الثامن عبارة (من القمح الطيب الصل) . أى نوعا من القمح الجيد النضج .كامل الهيئة غير مختلط بالتراب . فكلمة (صل) تعنى الحب المختلط بالتراب ومنها صلالة الحب

بمعنى ما نفى من التراب عنه . اذا صل والمصلة هى الاناء يصفى فيه القمح . . . وغيرة(٦٣).

اما فى السطر التاسع فنقرأ عبارة:- (السالم من العلث والطين) فكلمة «السالم» تفيد اكتمال حبة القمح بمعنى غير مهشمة و مفتتة اما كلمة (العلث) . فهى تعنى ماخلط فى البر وغيره مما يخرج من الارض فيرمى به - وهو البر المخلوط بالشعير - يقال (علث البر بشعير) اى خلطة . منها ايضا (العليث) وهو(البر المخلوط بالشعير)(٦٤).

اما الطين فهو التراب او الرمل يجبل بالماء ويطلى به . وهذة الكلمة اذا ارتبطت «بالبر» تفيد ان القمح خالى من جميع الشوائب من الشعير و التراب المختلط بالماء (الطين) وجميع هذة الامور من الشوائب(٦٥). وغيرها تقلل من قيمة القمح وتجعله رديئا يصعب استخدامة كغذاء الا بعد تنقيتة وتصفيتة وهى تحتاج لوقت وجهد كبيرين .

ايضا يلاحظ ان هذا الاقرار . وغيره من الاقرارات الاخرى الشبيه المحفوظة فى العديد من المكتبات والمتاحف والجامعات العالمية- نقرأ بها عبارات تشير الى وضع القمح فى مرتبة متقدمة فى حياة المسلمين وكان يقيم كالمال والذهب فى حال اقتراضه فنقرأ عبارات كانت تستخدم فى نصوص بعض الاقرارت المالية ربما الصادرة عن دواوين الدولة أو ربما بين التجار وسائر افراد الدولة . فنقرا فى العمود الايسر من نص هذا الاقرار - فى السطور (٣-٦) هذة العبارات التى تشير الى ضمان رد الحقوق ورد القمح المدين به لصاحب الدين وهو (زمزوم بن نصر) . نقرأ هذة العبارات (واشهد على نفسه فى صحة . من عقله اقر طائعا غير مكره ولا مجبر ولا مضطهد - ولا جاهلا بما اقر فيه أن عليه وعنده وقبله . وفى ذمته وخالص ماله دينا ثابتا وحقا لازما)

أيضا نقرأ فى العمودين الايمن والايسر من نص هذا الاقرار عبارة فى السطر العاشر تفيد عدم الاحتجاج او التمنع او التأخير أو المماطلة فى رد هذا الدين لصاحبه قمحا فنقرأ العبارة (بغير مدافعة ولا ممانعة ولا احتجاج بحجة)

ولاثبات أهميه القمح فى هذا الوقت من الزمان ان كاتب الاقرار دون عبارة بالغة الاهمية فى السطرين (١٢-١٣) نصها «دون الخروج من المبلغ المذكور على تمامه وكماله» وهى تشير الى تقييم القمح ورفعه لمستوى العملات انذاك كأنه ذهبا أو معدنا نفيسا. فكلمة المبلغ تعنى النقود (الدنانير الذهبية) ومن المعلوم ان الاقرار يتعلق (بسداد دين القمح). وهو كميات القمح كما ورد بالنص وبأوصاف القمح الخالى من الشعير والتراب والعلث والطين . . . وغيره.

جدير بالذكر أيضا أن العرب منذ القدم كانوا يقيمون القمح ويرفعونه بمستوى العملات على اساس المبادلات المالية والسلعية . فهذا المؤرخ البلاذرى يروى هذه الروايات عن الاتفاقيات التى كانت تبرم بين الدوله الاسلامية وبين النوبة فى القرون الأولى للهجرة . فيذكر من روايه البحترى وغيره . ان عبد الله بن سعد بن ابى سرح صالح النوبة على ان يهدوا اليه فى السنه اربعمائة رأس يجمعونها ويأخذون بها طعاما (القمح) وكان المهدى أمير المؤمنين (قد أمر بالزام النوبة فى كل سنه ثلاثمائة رأس وستين رأس وزرافة. على ان يعطوا قمحا وخلا وثيابا وخمرا وفرشا او قيمته . . . . .)(٦٦).

وفى موضع يذكر عن روايه ابى عبيد القاسم بن سلام انه قال: (حدثنا عبدالله بن صالح بن لهيعة عن يزيد بن ابى حبيب قال : ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق إنما هى هدنة بيننا وبينهم على أن نعطيهم شيئا من قمح وعدس ويعطونا رقيقا . . . . . فلا بأس بشراء رقيقهم منهم أو من غيرهم)(٦٧).

ومن ناحيه اخرى اورد المؤرخ الطبرى روايه تفيد هذا المعنى وقد عبر عن القمح بعبارة (الطعام) فقال: (حدثنى على ابن سهل فقال : قال الوليد ابن مسلم . قال اخبرنى ابن لهيعة عن يزيد ابن ابى حبيب ان المسلمين لما فتحوا مصر غزوا نوبة مصر . فلما ولى عبد الله بن سعد ابن ابى السرح مصر . ولاه إياها عثمان بن عفان رضى الله عنه. صالحهم على هديه عدة رؤوس منهم يؤدونهم الى المسلمين فى كل سنة. ويهدى اليه المسلمون فى كل سنه طعاما مسمى وكسوة . . . . . ونحو ذلك)(٦٨).

هـ - احتياج القمح كخبز ضمن نصوص رسالة من سيدة من أسرة بني عبد المؤمن لشقيقها تستجديه الطعام .

هذه البردية النادرة محفوظة في متحف اللوفر بباريس برقم سجل (P.LOUVER.JNY.E.6938-VERSO)(٦٩) أطوالها ٢٣×١٦ سم . حالتها جيدة

ترجع أهمية هذه البردية لكونها رسالة شخصية من أخت لشقيقها من (أسرة بني عبد المؤمن) وهي أسرة شهيرة عاشت في الفيوم في القرون الأولى للهجرة وكانت لها علاقات وأواصر عائلية بينها وبين بعض العائلات في مدينة الفسطاط. وردت عنها معلومات اجتماعية واقتصادية وتجارية هامة نشرها الباحث يوسف راغب في العديد من دراساته وبحوثه(٧٠).

والرسالة تتعلق بشكوة أخت من ضيق ذات اليد لأخيها أن يتوسط بينها وبين أبيها حتي يرسل لها طعام القمح لأنها في شدة وبؤس وليس فى بيتها

(حبة قمح) ولها ثلاثة أيام لم تتناول الخبز . ومثل هذه النصوص الاجتماعية تكشف لنا عن أهمية طعام (القمح) في حياة المسلمين والناس في القرون الأولي للهجرة.

نص البردية - (اللوحة رقم ١٢)

١- بسم الله الرحمن الرحيم أكرمك الله بطاعته وأتم عليك نعمته وهباك كرامته برحمته .

٢- يا خي وحبيبي أنا بالله ثم بك أعطف علينا واحتسب وكلم أبي أبقاه الله حتي يرحمنا أنت مبارك .

٣- فقد تحيرت والله يا خي لقد كتبت إليك ولنا ثلاث أيام ما أكلنا خبز والله .

٤- يا خي ما قلت إلا الحق الله الله فينا الغريب يرحم الغريب بخير والله .

٥- هو مع أخي وحسبه فلا تدعنا نتكلم فينا في الله منذ يوم خروج حسن .

٦- من عندنا ما في بيتنا حبة قمح والله يا خي صلتنا منك[٣٩] ستكبر قد .

٧- أسلمنا وذ لنا كل الذل والحمد لله والله لو رأيتي رحمتني من ما حل بنا .

٨- يا خي رققه وكلمه لنا وعجل علي في القمح ولا تدعنا يا خي ونظر حاجة أختك .

٩- وما وعدها و أ ، رجو يخلف الله أكثر منه أضعاف في الدنيا والآخرة وحملها .

١٠- .... خي .... مثل [...] سمة أخص نفسك بالسلم والسلم عليك ورحمته وبركاته .

١١- من غير ستر قل لأبي في حسن أبا بنا مكشوف .

كتابة الظهر

١- لأبي هريرة أكرمه الله بصاعته جعفر بن أحمد بن عبد المؤمن

٢- أبقاه الله وحفظه

التعليق علي النص

تكشف هذه الرسالة جانباً هاماً من العلاقات الإنسانية الأسرية في القرون الأولي للهجرة . فهذه سيدة ضاقت بها سبل الحياة وتمر بظروف قاسية فهي في شدة وضيق . ترسل هذه الرسالة لشقيقها وهو من أسرة شهيرة عاشت في مدينة الفيوم خلال القرنين ٢-٣ هـ / ٨-٩ م توزعت هذه الأسرة بين مدينتي الفيوم والفسطاط خلال هذه الفترة الزمنية المتقدمة من التاريخ الإسلامي . وهي أسرة عادية من سائر العائلات أي ليست لها علاقة بالدولتين الأموية أو العباسية فلم يرد في رسائلها ما يشير الي ارتباطها بأعمال الديوان أو الجزية والخراج .... وغيرها . فالجد الأكبر لهذه الأسرة شخص يدعى (عبد المؤمن) أنجب ولداً واحداً يدعى

(أحمد) أنجب ابناً واحداً أيضاً اسمه (جعفر) الذي أنجب بدوره ثلاثة أبناء وردت أسماؤهم في رسائل البرديات العربية وهم

(أبي هريرة، موسي، هارون) ثم الوالدة والتي لم يرد ذكر اسمها في نصوص البرديات بينما ذكر اسم أخيها ويدعى (أبو علي) والذي عاش أيضاً في مدينة الفيوم وعندما حضرته الوفاة أوصي بدفنه بمدينة الفسطاط . وتم تغسيله ونقله للفسطاط . حيث وردت هذه المعلومات ضمن نصوص بردية عربية محفوظة أيضاً في متحف اللوفر بباريس برقم سجل (LOUVRE.INV. 7703) في السطور (١٢-١٤) بهذه الصيغة .

(ودفناه يوم الجمعة فاعظم الله أجوركم ورحمنا وإياه - واعلمك أنه مات بالريف يوم الثلثا وحمل الي الفسطاط وصل يوم الخميس في آخر النهار ودفن يوم الجمعة بالغداه فرحمنا الله وإياه ....) .

والمتأمل في العبارات السابقة يلاحظ أن المتوفي توفي بريف الفيوم يوم الثلاثاء (ربما بإحدى قرى الفيوم النائية) ثم بعد تغسيله وتكفينه تم نقله ربما في نفس اليوم ووصل الفسطاط يوم الخميس ليلاً . وتم دفنه بعد صلاة الجمعة بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط (بالغداه) أي بعد طلوع الشمس . ومنها (الغدوة) وهي ما بين صلاة (الغداه) وطلوع الشمس[٣٣] . وعلي ذلك يمكن القول أن الجثمان مكث في نقله يومين (الأربعاء والخميس) وهي تتمشي مع المسافة بين مدينتي الفيوم والفسطاط (يومين بليلة واحدة) باستخدام الدواب .

ثم إذا تأملنا نص الرسالة التي نحن بصددها . نجد أنها بدأت بالبسملة ثم الدعاء والثناء علي شقيقها وبعبارتها (أكرمك الله بطاعته وأتم عليك نعمته وهباك كرامته برحمته ....) ثم السطرين (٢،٣) نقرأ عبارات تفيد استعطاف شقيقها وترددها في الكتابة اليه خاصة وأنها مكثت ثلاثة أيام بدون خبز ثم السطور (٤،٧) نقرأ عبارات تشير الي التأكيد علي الفاقة والحاجة والشدة التي تمر بها وزوجها (ربما يدعى حسن) حيث ورد ما يفيد ذلك في نهاية السطر الخامس (هو مع أخي وحسبه فلا تدعنا نتكلم فينا في الله منذ يوم خرج حسن) ثم وردت عبارة تشير الي عدم وجود (حبه قمح) في المنزل (السطر ٦) ثم السطور (٨-١١).

نقرأ عبارات تشير الي شدة حاجتها الي الطعام والقمح وبأن يتولي هذا الشقيق شرح ظروفها لأبيها كي يرسل لها القمح وأن يرقق قلبه علي ابنته ويعجل لها إرسال الطعام وبأن الله تعالي سيخلف عليه ثواب هذا العطاء أضعافاً في الدنيا والآخرة . ثم تختم الرسالة بالدعاء والثناء لأخيها وأبيها

. بينما كتابة الظهر[٧١] فقد وردت في سطرين فقط كشفت هذه السطور اسم الشخص الذي أرسلت له الرسالة، وهو (أبي هريرة) وهو الابن الأكبر للوالد جعفر بن أحمد بن عبد المؤمن .

ما يعنينا حقيقة من إعادة نشر هذه الرسالة هو تصحيح بعض العبارات التي قرأها الباحث يوسف راغب، فقد قرأ عبارة في السطر (٦) بهذه الصيغة

(يا خي صفنا منك في كلام) وهي عبارة لا تتمشي مع سياق نص الرسالة، واعتقد أن القراءة الصحيحة لهذه العبارة هي (يا خي صلتنا منك ستكبر) أيضاً كشفت هذه الرسالة مدى أهمية القمح في حياة الناس خاصتهم وعوامهم في القرون الأولي للهجرة.

رابعاً : أوزان وأثمان القمح خلال القرون الأولي للهجرة :

وردت معلومات هامة عن «أسعار القمح» في العديد من نصوص برديات القرون الثلاثة الأولي للهجرة، وكانت هذه الأسعار مقدرة علي أساس [٧٣] عيار أوزان محصول القمح بالأردب والويبه .

الأردب :

مكيال ضخم بمصر أصله مشتق من الكلمة الآرامية (أردبا) ويقال منه (أرطبا) وهو أيضاً في اللغة اللاتينية (أرتبا) artaba[٧٦] ويعتقد أن قدماء المصريين هم الذين وضعوه وقد عرف العرب أيضاً (الأردب) قبل فتحهم مصر حيث روي عن النبي صلي الله عليه وسلم قوله «منعت العراق درهمها و قفيزها ومنعت الشام مدها ودينارها ومنعت مصر أردبها ودينارها . . . . » [٧٧] .

أيضاً روي المؤرخ البلاذري «أن عمرو بن العاص وضع الخراج علي أرض مصر فجعل علي كل جريب (مقياس عرف في العراق) ديناراً وثلاثة أرادب طعاماً، وفي رواية أخرى ألزم كل ذي أرض مع الدينارين ثلاثة أرداب حنطة، وقسطين زيت وقسطين عسل وقسطين خل، رزقاً للمسلمين» [٧٨] .

والأردب بصفة عامة يضم أربعة وعشرين صاعاً ، أو ما يقدر بستة ويبات، اثنتي عشرة كيلة أو أربعة وعشرين ربعاً أو ثمانية وأربعين ملوة أو ستة وتسعين قدحاً[٧٩] ومن ناحية أخرى فإن الأردب يقدر بربع نصاب أو ما يوازي (١٩٨ لتراً) وهو يقدر أيضا بحوالي (١٥٠ كيلو جراما) من القمح أو (١٣٠ كيلو جراماً) من الشعير أو (١٤٠ كيلو جراما) من الذرة أو (١٥٥ كيلو جراماً) من الفول أو (١٥٧ كيلو جراماً) من العدس[٨٠].

الويبة :

هي أيضاً مكيال مصري كانت تعادل قديماً (١٠ أمنان) وهي حالياً تعادل (١٣,١٦٨ كيلو جرام) من القمح حسب تقدير المستشرق فالتر هينس[٨١].

وتجدر الإشارة الي أن ويبة الخليفة عمرو بن الخطاب في ولاية فاتح مصر عمرو بن العاص كانت ستة أمداد (٨٢)، ولقد قدر (ابن بسام)[٨٣] و(ابن الاخوة)[٨٤] الويبة بـ (١٦ قدحاً) أو (كيلتين) أو أربعة (ربعاً)[٨٥].

وبالإضافة للأردب والويبة هناك أيضاً مكاييل أخرى ورد ذكرها في العديد من نصوص البرديات العربيه كانت تستخدم في أوزان القمح خلال القرون الأولي للهجرة، ومازال بعضها يستخدم حتي اليوم . منها (الكيلة، الربع، القدح، الربعة، الثمنة، الخروبة، القيراط، الملوة، المكتل، الرطل).

وسوف أتعرض بشكل موجز للتعرف بكل مكيال من هذه المكاييل علي حده.

الكيلة :

مكيال مصري يساوي ثمانية أقداح وهو يقدر أيضاً بسبعة ونصف لتر، والكيلة أيضاً تقدر (بربعين) أو (أربع ملاوي)[٨٦].

الربع :

مكيال مصري يقدر بملوتين أو (أربع أقداح)[٨٧].

٥- القدح :

مكيال مصري مشتق من اللغة اللاتينية . addus والقدح علي مستويين (القدح الصغير) و(القدح الكبير)، فالقدح الصغير كان كل (١٦) منه يعادل ويبة وكل (٩٦) قدح صغير يساوي أردب، أما القدح الكبير فكان كل (٨) أقداح منه يعادل (ويبة) وكل (٤٨) قدح كبير يقدر بأردب، أما بالنسبة للسعة فإن سعة القدح الصغير كانت تعادل ٠,٩٤ لتر، وتعادل سعة ١,٨٨ لتراً للقدح الكبير[٨٨].

وللقدح أجزاء منها (نصف القدح، الربعة، الثمنة، الخروبة، القيراط)[٨٩].

الربعة : وهي ربع القدح .

الثمنة : وهي نصف ربع القدح أو ثمن القدح[٩٠].

الخروبة : هي جزء من ستة عشر جزء من القمح وكانت في العصور الوسطي تساوي ٠,٠٦ لتر[٩١].

القيراط : جزء من (٢٢) جزء من القدح ، وبناءً علي ذلك يحتوى الأردب على ٩٦×٣٢ أي ٣٠٧٢ قيراط (٩٢).

الملوه : مكيال مصري يقدر بقدحين وهو اليوم يساوي ٤,١٢٥ لترا (٩٣).

المكتل : مكيال يشبه الزمبيل يسع (١٥) صاع (٩٤). والزمبيل مكيال يصنع من الخوص يشبه القفة الخوص الصغيرة .

الرطل: مشتق من الكلمه اليونانية - litra وهو مكيال للسوائل ويساوي اثنتا عشرة أوقية بأواقي العرب . والأوقية مكيال يساوي أربعون درهماً . وعلي ذلك فإن الرطل يساوي : ٤٠×١٢= ٤٨٠ درهم(٩٥).

أما بالنسبة لأثمان القمح كما وردت في العديد من نصوص البرديات العربية فهي تقدر بمقادير ونسب محددة اختلفت عموماً حسب وفرة المياه والفترات الزمنية :

نصوص بعض البرديات العربيه وردت بها أسعار القمح

ففي بردية عربية محفوظة في مجموعة كارل فسلي بجمهورية التشيك في المعهد الشرقي بجامعة براغ ، تحمل رقم سجل (B-101=A11-47.11-3-7) (٩٦) وردت بهذه البردية معلومات تشير الي أن سعر (أردبان وربع وويبة أو أردبان وثلث ويبة قمح كانت ديناراً واحداً).

وفي بردية عربية أخرى محفوظة في مكتبة البودليان بمدينة أكسفورد بانجلترا تنسب للقرن (٢هـ /٨م) تحمل رقم سجل: (Arabic scriptFLverso) (p.oxon.bodl)

وردت بها أيضاً معلومات تشير الي أن (خمسة وخمسين أردبا قمحاً بخمسة دنانير ونصف دينار) أي ان الاردب كان ثمنه «عشر دينار» وذكر الدكتور أدولف جروهمان أن هذا الثمن يتفق تماماً مع ثمنه سنة ٧١٥ م وهو يتمشي أيضاً مع ما أوردته بعض البرديات العربية المحفوظة بالمتحف البريطاني بلندن إحداها تحمل رقم سجل: [P.LOND.VOL.4-NOR1434] (٩٨).

أيضا ورد في بردية عربية محفوظة في مجموعة جون رايلاندز بمدينة مانشستر في انجلترا . مؤرخة ببداية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي نشرها المستشرق الانجليزي المعروف (د.س. مرجليوث)(٩٩) . أشارت هذه البردية الي أن (٨,٥) ويبات من القمح كانت تثمن بدينار واحد، في حين أن الدينار كان يقدر ثمنه ثلاثة أرادب شعير.

٤- وفي بردية أخرى بنفس المجموعة تحمل رقم سجل (٢٠) وتنسب للقرن ٣هـ /٩ م وردت بها معلومات تشير الي أن (عشر وويبات) قمح كان ثمنها ديناراً واحداً(١٠٠).

٥- وفى بردية أخرى بنفس المجموعة تحمل رقم سجل (٧) أشارت الي أن الدينار كان يعادل ثمناً لـ (١٥-٢٠) ويبة من القمح اليوسفي، وكان يعتبر من أجود أنواع القمح(١٠١). وفي نفس المجموعة أيضاً وجدت بردية عربية أخرى كشفت سعر القمح فأظهرت أن الدينار كان في مقدوره شراء ثلاثه أرادب وويبه قمح أو ثلاثه أرادب وويبتين قمحا(١٠٢). جميع هذه الأسعار المختلفة وردت في نصوص برديات هذه المجموعة ربما تشير إلي نوعية القمح المباع ومدي جودته وشهرته في الأسواق .

ولقد علق الدكتور جروهمان علي هذه المعلومات الواردة في برديات مجموعة جون رايلاندز بمانشستر في انجلترا . بقوله ان ثلاثه أخماس (٠,٦) الدينار كان مخصصاً للأردب من القمح ، أو ما يعادل (١,١٠) كما ان ثلاثه أسباع الدينار كان مقدراً بشراء أردب من القمح ، وذكر أيضاً أن السعر (١,١٧) كان يعتبر مرتفعا نسبياً إذا ما قورن بما ورد في نصوص البرديات الاخري المحفوظه في مجموعة كارل فسلي بالمعهد الشرقي بجمهورية التشيك (التي سبق ذكرها) أو الأخري المحفوظة في مكتبة البودليان بأكسفورد بانجلترا والتي تنسب أيضاً للقرن ٢هـ / ٨ م (التي سبق ذكرها). جدير بالذكر أيضاً أن سعر الشعير كان يساوى (١,٣٤) وكانت هذه النسبه محددة بنصف قيمة القمح (فكان ثمن أردب القمح ثلاثة أعشار دينار). بينما كانت النسبة بين سعر القمح والشعير في العرات السابق ذكرها تتمشي مع نسبة (٥:٣) ولقد أكدت ذلك أيضاً بعض نصوص البرديات اليوناتية(١٠٤).

الحواشي والتعليقات

١- قاموس المنجد في اللغة والإعلام. طبع بيروت - لبنان سنة ١٩٨٦م، ص٦٥٣ «اللغة».

٢- سيبويه (أبو بشير عمرو بن عثمان) توفي سنة ٧٩٦ م وهو نحوي . ولد في مدينة البيضاء قرب شيراز بفارس ونشأ في البصرة . تعلم على يد الخليل بن أحمد وهو إمام مذهب البصريين- وكتابه المعروف في النحو بعنوان (الكتاب) شرحه ابن السراج والسيرافي والرماني. المنجد في اللغة والإعلام: المرجع السابق صد ٣١٨ «الأعلام».

٣- المبرد (أبو العباس) عاش في الفترة بين أعوام ٨٢٦- ٨٩٨ م

وهو نحوي تتلمذ على يدي المازني والسجستاني وهو ممثل مذهب البصرة بالنحو درس في بغداد، من أهم مؤلفاته كتابه (الكامل)

المنجد في اللغة والإعلام: المرجع السابق ص ٥١٩ «الأعلام».

٤- الرازي (الإمام محمد بن أبي بكر الرازي) مختار الصحاح طبع المطبعة الأميرية - بالقاهرة سنة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٦ م ص ٤٨.

٥- ابن حجر: سيرة الإمامين الليثي والشافعي ص ١٦٧؛ مرعي بن يوسف: تنوير بصائر العلمين في ذكر مناقب الأئمة المجتهدين ص ٦٩ ، ابن الجوزي: تلبيس إبليس ص ١٦٢.

أيضاً هناك العديد من البحوث والدراسات حول سلالات وأنواع القمح وتطوير زراعته وحصاده وحفظه وتخزينه في المستودعات . . وغيرها من الدراسات في مركز ووحدة بحوث المحاصيل الزراعية بوزارة الزراعة - بالدقي بجمهورية مصر العربية بالقاهرة - كما أن هذه الوزارة أعدت متحفاً خاصاً بالقمح بالدقي أيضاً قبل ثورة يوليو ١٩٥٢م - زاره العديد من الشخصيات العربية البارزة منهم جلالة الملك عبد العزيز آل سعود وهناك لوحة تأسيسية عن هذه الزيارة في مدخل المتحف .

٦- ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ت ٢٥٧ هـ /٨٧٠ م) فتوح مصر وأخبارها، طبع ليدن بهولندا سنة ١٩٢٠م صد ١٦٣. كما أورد ابن عبد الحكم أيضاً معلومات عن المبالغ التي كانت توصد للنهوض بالزراعة في مصر فقال: «كانت فريضة مصر لحفر خلجها وإقامة جسورها وبناء قناطرها مائة ألف وعشرون ألفاً معهم الطور والمساحي والآلة يتعطيون ذلك لا يدعون صيفاً ولا شتاء».

ابن عبد الحكم : المصدر السابق ص ١٥١ .

٧- الكندي: (عمر بن محمد بن يوسف). كتاب الولاة وكتاب القضاة. طبع بيروت - لبنان سنة ١٩٨٠م، ص ٤٩.

٨- محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين الى سنة ١٩٤٥ م . القسم الأول البلاد المندرسة - طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٤ م، ص ٣١-٣٢.

٩- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح ت ٢٨٤هـ)

البلدان، طبع ليدن بهولندا سنة ١٨٩١ م ص ٣٣٢ ، ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي ت ٦٢٦ هـ) معجم البلدان - طبع سنة ١٩٠٦ م جـ ٤ صـ ١٩٠-١٩١.

١٠- ياقوت الحموي: المصدر السابق، جـ٤ صـ٣٠، حورية عبده عبد السلام: «علاقات مصر ببلاد

المغرب من الفتح العربي حتى قيام الدولة الفاطمية في مصر»، رسالة دكتوراه - كلية الآداب - جامعة القاهرة سنة ١٩٧٤م صد ١٩٣ حاشية(٤).

١١- اليعقوبي: المصدر السابق صد ٣٣١ ، حورية عبده سلام، المرجع السابق، ص١٦٣.

١٢- اليعقوبي: المصدر السابق صد ٣٣١؛ حورية عبده سلام، المرجع السابق ص ١٦٣.

١٣- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسن ت ٣٤٥هـ)

مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد -طبع دار المعرفة - بيروت - لبنان سنة١٤٠٣هـ/١٩٨٣جـ ١ ص ٣٤٦؛ الاصطخري (أبو سحاق إبراهيم إبن محمد الفارسي ت ٤ هـ / ١٠ م): مسالك الممالك طبع ليدن بهولندا سنة ١٩٢٧ ، ص ٥٠ .

١٤- الكندي (عمر بن محمد ابن يوسف) . فضائل مصر ، تحقيق إبراهيم الدوري ، علي عمر ، طبع مكتبة وهبة بالقاهرة هذا سنة ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص٥١

١٥-انظر ما كتبه المستشرق النمساوي المعروف أدولف جروهمان الذي تخصص في نشر العديد من البرديات العربية (أنظر فهارس المجلد الرابع من دراسته عن القمح)

١٦- Grohmann,A:Arabic papyri in the Egyptian library, Cairo-1934-1936.vol.iv.p.307

١٧-الكندي (محمد ابن يوسف ٢٨٣ -٣٥٠هـ /٨٩٦- ٩٦١م).

ولاة مصر، تحقيق حسين نصار طبع دارصادر – بيروت - لبنان، ص ٦٥ .

١٨- جاسر خليل أبو صفية: برديات قرة بن شريك العبسي، سلسلة تحقيق التراث رقم (٥) صد ٤٦ – ٤٧. طبع مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - الرياض ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤ م

١٩- عاصم رزق : مراكز الصناعة في مصر الإسلامية، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة سنة ١٩٨٩ م، ص ٣٥ .

٢٠- اليعقوبي : المصدر السابق صد ٣٣٧؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ص١١.

انظر في ذلك العديد من البرديات العربية التي نشرها الدكتور أدولف جروهمان في دراسته عن برديات دار الكتب المصرية بالقاهرة ، الترجمة العربية. أدولف جروهمان: أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية

طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٩٤ م جـ١، ص٦٠-١٨٦ .

٢١- الاصطخري : المصدر السابق صد ٤٢.

٢٢- أدولف جروهمان: المرجع السابق جـ٣ ص ١٢٥ – ٢١٠ .

جـ٥ ص ٣٨ – ٤٧ ، جـ٦ ص ١٥ – ٦٠.

٢٣- النويري (شهاب الدين أحمد ت ٧٣٢ هـ):

نهاية الأرب في فنون الأدب، مخطوط بدار الكتب المصرية جـ ١ ص ٣٤١.

٢٤- ابن الفقيه الهمداني (أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني توفي في أواخر القرن ٣ هـ / ٩ م): كتاب البلدان، طبع ليدن بهولندا سنة ١٨٨٥ م ص ٣٧٠ .

٢٥- انظر اللوحة المرفقة - لوحة رقم (٣).

٢٦- أدولف جروهمان : المرجع السابق جـ٣ - ص١٠ .

٢٧- J.L.Rea : the Aphrodite papyri (AP) , JHS 26 (2006) 97-120

٢٨- ابن عبد الحكم : فتوح مصر - عن موضع دار الصناعة في بابليون ص ٩٠، ص ١٢٧؛ جاسر خليل

أبو صفية : المرجع السابق صـ ١٠٩-١٠٤ .

٢٩- انظر في ذلك البردية العربية المحفوظة في المتحف البريطاني بلندن برقم سجل (B.M.OR.6235): وبردية أخرى محفوظة في معهد البرديات بجامعة هايدلبرج بألمانيا برقم سجل (P.HEIDELBERG.ARAB.4).

٣٠- القلقشندي (أحمد بن علي بن عبد الله ٧٥٦-٨٢١ هـ / ١٣٥٥-١٤١٨ م). صبح الأعشى في صناعة الانشا . المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٣١ هـ / ١٩١٣ م جـ٣ صـ ٣٥٧ .

٣١- محمد رمزي: القاموس الجغرافي طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٥٣م. جـ ١، ص ١١٤.

٣٢- ياقوت الحموي المصدر السابق جـ١ ص٢٥. عبد العال عبد المنعم الشامي: مدن مصر وقراها عند ياقوت . الطبعة الأولى - الكويت سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ص ٥٦.

٣٣- العسبحي (محمد بن أحمد بن أبي بكر ٣٦٦-٤٢٠هـ/٩٧٦-١٠٢٩م): أخبار مصر. تحقيق أيمن فؤاد وتيازي بيانكي، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة . سنة ١٩٧٨م جـ١ ص٦٠.

٣٤- جاسر خليل أبو صفية : المرجع السابق ص ١٣١-١٣٣ .

٣٥- المقريزي المصدر السابق جـ١ص٥٠٧.

٣٦- المقريزي: المصدر السابق جـ١ ص ٥٠٢ . سعاد ماهر محمد : القاهرة القديمة وأحياؤها ، المكتبة الثقافية بالقاهرة - رقم (٧٠) عدد أكتوبر ١٩٦٢م ص٦٧.

٣٧- ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها صـ٧٨.

٣٨- أدولف جروهمان : المرجع السابق جـ٣ صـ ٩.

٣٩- البلاذري (أحمد بن يحي جابر البغدادي ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م):
فتوح البلدان الطبعة الأولى - القاهرة ١٣١٩هـ/١٩٠١ م . جـ٣ ص١٨٦-١٨٧ .

٤٠- ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧ م):
المسالك والممالك بصفوة الأرض، طبع ليدن بهولندا سنة ١٨٧٢م ص١٤١.

٤١- ناصر خسرو (أبو معين الدين ناصر القبادياني المروزي ت ٤٨١هـ / ١٠٨٨م): سفر نامه. ترجمة وتقديم أحمد خالد البدلي، جامعة الملك سعود. الرياض سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ص ٨٩.

٤٢- الفرسخ : ثلاثة أميال هاشمية وقيل أثنا عشر ألف ذراع وهي تقريباً ثمانية كيلو مترات. قاموس المنجد في اللغة والإعلام : المرجع السابق صـ٥٧٦ «اللغة».

٤٣- هذه البردية نشرها المستشرق الألماني كارل بيكر في دراسته التي تحمل عنوان: (Becker,(H) Papyrusstudien . ZA. 22/(1909) PP.137-154

٤٤- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦ م):
المقدمة. المطبعة البهية بالأزهر بالقاهرة سنة ١٣٨٣هـ. ص ١٩٩-٢٠٣ .

٤٥- جاسر خليل أبو صفية : المرجع السابق ص ١٠٢-١٠٣.

٤٦- ورد هذه العبارة ضمن نصوص عدد من البرديات العربية إحداها محفوظة في معهد البرديات بجامعة هايدلبرج بألمانيا برقم سجل (P.Heidelberg Arab.1-4)
- نشرها المستشرق كارل بيكر في دراسته:
(Becker,H),Papyri Schott - Reinhardt . Heidelberg . 1906 pp. 58-61 I

٤٧- القبان هو الكفيل والعريف والضامن وقد قيل به . وفي نصوص البرديات العربية . يقصد بها

(الجابي) بمعنى محصل الضرائب والخراج وأموال الدولة . وفي تعريف القبال انظر: الفيروز بادي (مجد الدين محمد بن يعقوب ت٨١٧هـ): القاموس المحيط. الطبعة الثانية . مؤسسة الرسالة -بيروت -لبنان ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م صـ٥٢٠.

٤٨- الماوردي (أبو الحسن علي ابن محمد): نصيحة الملوك. تحقيق محمد جاسم الحديثي، طبع دار الشئون الثقافية-بغداد سنة ١٩٨٦م ص٤٠٩.

٤٩- الشيزري (عبد الرحمن بن عبدا لله بن نصر) المنهج المسلوك في سياسة الملوك. تحقيق علي عبد الله الموسى - مكتبة المنار-الزرقاء -الأردن. الطبعة الأولى سنة١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ص٢٢٦-٢٢٩.

٥٠- ابن سعد :الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس ،طبع دار صاد-بيروت ،لبنان، سنة ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م جـ٥ص٣٧٦ .

٥١- العسبحي: أخبار مصر. تحقيق أيمن فؤاد سيد و تيازي بيانكي مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٧٨م: جـ١ ص ٥٦ .

٥٢- الادريسي (الشريف محمد بن محمد بن عبد العزيز ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٤م):
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. طبع ليدن بهولندا سنة ١٨٦٦م. ص ٤٥.

٥٣- المنجد في اللغة والإعلام : المرجع السابق ص٥٤٢ «اللغة»

٥٤- المنجد في اللغة والإعلام : المرجع السابق ص٦١٣ «اللغة»

٥٥- المنجد في اللغة والإعلام . المرجع السابق ص٦٢١ «اللغة»

٥٦- المنجد في اللغة والإعلام - المرجع السابق ص٣٩١ «اللغة»

٥٧-جروهمان : المرجع السابق ج١ ص ١٤٣ .

٥٨- Grohmann , A: Mitteilungen Aus Der Sammlung Der Papyrus Erzherzog Rainer Wien - Vol.I.1887

٥٩- مجلة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، مجلة ٣٠ سنة ١٩٣٠م.

٦٠- المقريزي: الخطط . جـ١ ص ٤٦٢

٦١- عن طواحين الغلال أنظر:عاصم رزق : المرجع السابق صـ ٢٥: المقريزي: نحل عبر النحل، تحقيق جمال الدين الشيال. طبع القاهرة سنة ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م ص ٨٨ .

٦٢- جروهمان : المرجع السابق جـ٢ ص ١٢١.

٦٣- المنجد في اللغة والإعلام : المرجع السابق صـ٤٣١ «اللغة».

٦٤- المنجد في اللغة والإعلام : المرجع السابق صـ٥٢٥ «اللغة».

٦٥- الرازي : المصدر السابق صـ ٤٠٣.

٦٦-البلاذري (أحمد بن يحي بن جابر البغدادي ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م):
فتوح البلدان، الطبعة الأولى. القاهرة ١٣١٩هـ / ١٩٠١ م صـ ٢٨١.

٦٧- البلاذري : المصدر السابق صـ ٢٨١.

٦٨- الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ صـ ١١١.

٦٩- Yusuf Raghi: Marchands D' etoffes Du Fayyoum, Je Caire. 1985,

٧٠- انظر في ذلك دراساته عن برديات الفيوم وأسرة بني عبد المؤمن

Yusuf Raghi : Extrait Des Annales Islamologiques .

(Letters Arabes . 1 Fasc , 1978 , les Actes Bons Abd Al Mumin

٧١- قرأ يوسف راغب هذه العبارة (يا خي صفنا منك في كلام) وهذه العبارة لا تتمشى مع سياق نص الرسالة. ونظراً لعدم وجود إعجام في البردية فاعتقد أن القراءة الصحيحة ربما تكون (يا خي صلتنا منك في ستكبر) وهي تتمشى أيضاً مع سياق نص الرسالة.

Yusuf Ragib : Op.Cit. pp - 44-46.

٧٢- هذه البردية نشرها أيضا الباحث يوسف راغب في دراسته

Yusuf Ragib ,Op.Ch.pp.58 - 61.المصدر السابق

٧٣- الرازي : مختار الصحاح . ص ٤٦٩-٤٧٠

٧٤- عادة ما يكتب في ظهر الرسائل التي كتبت على ورق البردي أسماء الأشخاص التي ترسل لهم الرسائل مع عبارات الثناء والدعاء لهم.

٧٥- الفيروزآبادي : القاموس ، مادة (أردب) الجزء الأول- باب فصل الراء . ابن منظور : مادة (ردب) حرف الباء . فصل الراء .

٧٦- الأب انستاس ماري الكرملي : النقود العربية وعلم النميات ص٥٤ حاشية ٣

٧٧- المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٦٢-٦٣

٧٨- البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٢

٧٩- سامح عبد الرحمن فهمي: المكاييل في صدر الإسلام، طبع المكتبة الفيصلية بمكة المكرمة، سنة ١٤٠٦هـ / ١٩٨١ م، ص ٤١.

٨٠- فالترهينس- المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، منشورات الجامعة الأردنية ، عمان - سنة ١٩٧٠م ص٥٩.

٨١- فالتر هينس المرجع السابق ص ٨٠.

٨٢- السيوطي : حسن المحاضرة ج١ ص ١٤٥ .

٨٣- ابن بسام : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ٨ .

٨٤- ابن الأخوة : معالم القربه في طلب الحسبة ص ٨٧ .

٨٥- محمود الفلكي : رسالة في المقاييس والمكاييل العلمية بالديار المصرية تعريب زيور الندي، الأستانة سنه ١٢٩٠هـ (ص ١٣)

٨٦- الذهبي: رسالة في تحرير الدرهم والمثقال، طبع حجر ، شوال ١٢٨٣ هـ ص١٥: محمود الفلكي: المرجع السابق ص١٣.

٨٧- محمود الفلكي : المرجع السابق ص١٣.

٨٨- فالتر هينس : المرجع السابق ص ٦٥.

٨٩- محمود الفلكي : المرجع السابق ص١٣.

٩٠- محمود الفلكي : المرجع السابق ص١٣.

٩١- سامح فهمي : المرجع السابق ص ٤٤.

٩٢- محمود الفلكي : المرجع السابق ص١٣.

٩٣- عبد الرحمن الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، نشر الباز العريني ص ١٧-٢٠.

٩٤- عطية عبد الرحيم عطية : الخليفة العادل عمر بن الخطاب، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٧٢ م. ص ٣٦

٩٥- الأب انستاس ماري الكرملي : المرجع السابق ص ٣٨ .

٩٦- أدولف جروهمان : المرجع السابق، ج٢ص ٣٩.

Grohmann.A. Zum Wesen Problem Arabischen Agyptens.

Bgc. Vol.30 1930, P. 454.

٩٧- أدولف جروهمان : المرجع السابق جـ ٢ص٣٩.

٩٨- أدولف جروهمان : المرجع السابق جـ ٢ص٣٩.

٩٩- Margoliouth.D.S- APRL (no 5) Pg. 7 - 8). Manchester.1933

١٠٠- هذه البردية تقع في المجموعة السادسة التي نشرها مرجليوث في دراسته

Margoliouth. APRL . p. 51

١٠١- هذه البردية تقع في المجموعة الثانية من دراسة مرجليوث

Margoliouth. APRL . p. 92

١٠٢- هذه البردية تقع في المجموعة الثانية أيضا من مجموعات مرجليوث التي نشرها في دراسته

Margoliouth. APRL . p. 98

١٠٣- أدولف جروهمان : المرجع السابق ص٣٩-٤٠.

١٠٤- أنظر في ذلك البرديات اليونانية . نشر بعضها عدد من الباحثين منهم: ب . جرنفل، أ . س . هنت ، س. ج سيجلي نشرت في مطبوعات جامعة كاليفورنيا - قسم الآثار اليونانية الرومانية . الولايات المتحدة الأمريكية.

اللوحات

لوحة رقم (١) :

لوحة توضح سورة نبات القمح في مخطوط الغافقي

لوحة رقم (٢) :

ختم عكيلة (البليلة) لعامل الخراج اسامه بن زيد

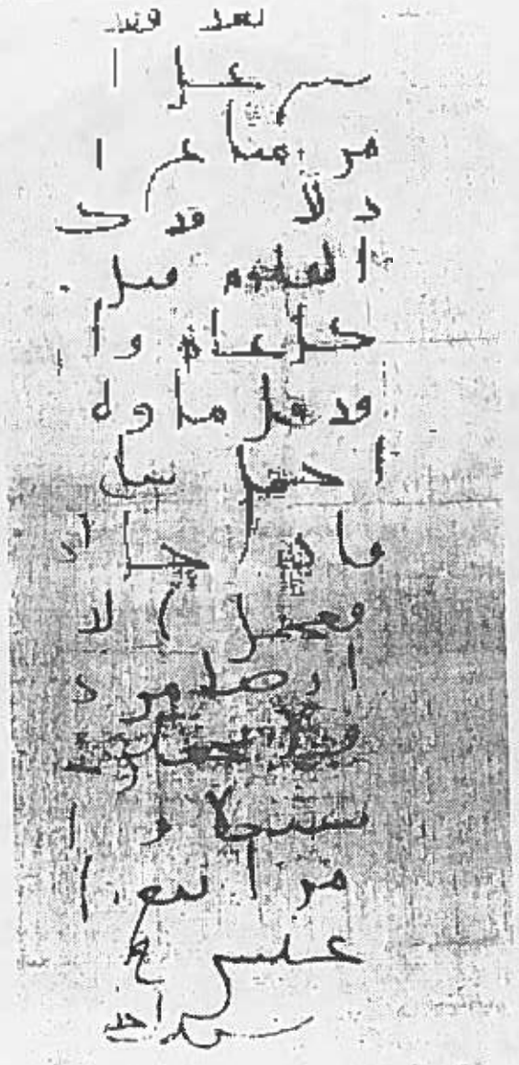

لوحة رقم (٣) :-

بردية عربية تنسب لعهد الوالي الاموي قره بن شريك العبسي

وردت بها عبارة (متاع القلزم).

لوحة رقم (٤) :-

بردية تنسب لعهد الوالي الاموي قرة بن شريك وردت بها عبارة

(لسفن في جزيرة باب اليون)

لوحة رقم (٥):-

بردية عربية تنسب لعهد الوالي الاموي قرة بن شريك وردت بها

عبارة (فاني قد امرت صاحب المكس)

لوحة رقم (٦) :-

بردية عربية تنسب لعهد الوالي الاموي قرة بن شريك وردت بها

عبارة (نواتيه سفن امير المؤمنين الي افريقية)

لوحة رقم (٧) :-

بردية عربية (تنشر لاول مرة) محفوظة في مجموعة الارشيدوق رانير بفيينا (النمسا) وردت بها عبارة (سفينة القمح)

لوحة رقم (٨) :-

بردية عربية تنسب لعهد الوالي الاموي قرة بن شريك وردت بها عبارة (لصنعة العين والقوادس في سنة تسعين)

A.P. 2.796 (RIV)

A.P. 2.796 (RIV)

لوحة رقم (٩) :-

برنية عربية موضوعها ، براءة من ديوان بيت المال بتسليم قمح
(قنطر كول حرة)

لوحة رقم (١٠) :-

برنية عربية بدار الكتب المصرية بالقاهره وردت بها عبارة
(القماحين)

لوحة رقم (١١) :-

بردية عربية بدار الكتب المصرية وردت بها عبارات عن اوصاف القمح الجيد كتبت علي هيئة عمودين

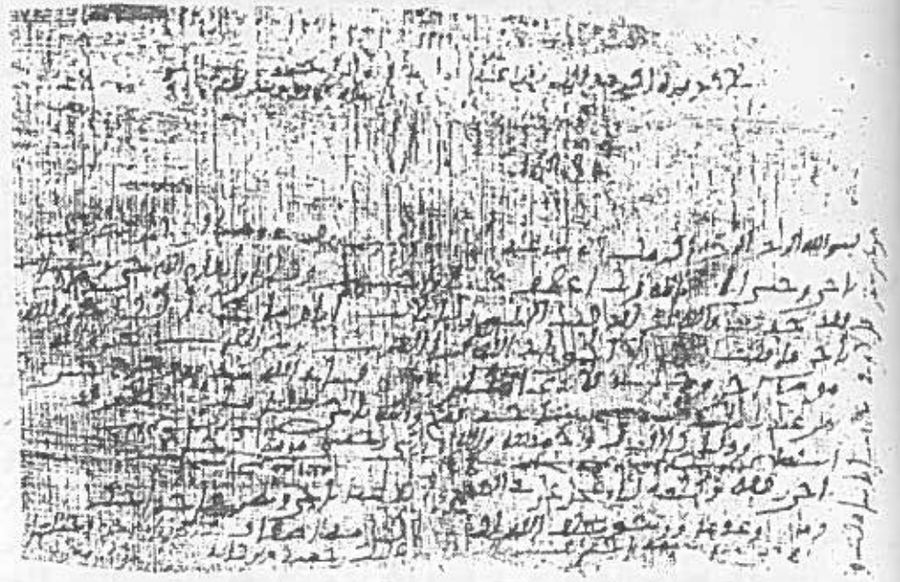

لوحة رقم ١٢ :

رسالة من سيدة – من أسرة بني عبد المؤمن – لشقيقها تطلب مساعدتها بالقمح لصنع الخبز.

د. خالد السعدون (*)

مشاريع الرى فى العراق مطلع القرن العشرين

يمكن القول دون مبالغة إن قصة حضارة وادى الرافدين هى قصة الرى، فسر نشوء حضارات ذلك الوادى المتعاقبة منذ السومريين وارتقائها كامن فى إبداعها لنظام رى محكم تغطى شبكته أنحاء السهل الرسوبى المترامية. وقد اقتضت الضرورة إقامة ذلك النظام. فنهرا دجلة والفرات فى انحدارهما الكبير من جبال أرمينيا وكردستان وتدفقهما نحو الخليج يحملان كميات هائلة من الغرين (الطمى، ويسميه العامة الداهلة). ويحدث أن تترسب تلك الشوائب فى مواضع معينة من مجرى النهر تدريجياً حتى يوشك على الانسداد. فتفيض مياهه على المناطق المجاورة محولة مساحات شاسعة من أخصب الأراضى إلى مستنقعات (أهوار). وقد يؤدى ذلك الانسداد إلى تغيير النهر لاتجاهه بشق مجرى جديد فى التربة الرسوبية الرخوة، فيبتعد بذلك كثيراً أو قليلاً عن حقول ومزارع كانت تقع على ضفتيه السابقتين، وتتحول إلى صحارى جرداء، وقد يحدث العكس فى مواضع أخرى كثيرة حيث ينحت النهر قاعه الرسوبى الرخو ويعمقه حيناً بعد حين حتى يصبح مستوى المياه الجارية أوطأ من ضفتيه بكثير، خاصة فى موسم ندرة المياه «يسميه العراقيون الصيهود». وبذا لا يتيسر سقى أراضى الضفتين إلا بواسطة ترفع المياه أمتاراً كثيرة.

ونجح مهندسو الرى فى حضارات العراق القديمة فى مواجهة هذا التحدى عن طريق إقامة سدود لحجز مياه النهرين الكبيرين وتوزيعها على قنوات تنطلق لمسافات طويلة، كما أقاموا خزانات كبيرة وبحيرات لخزن المياه الفائضة خلال موسم الفيضان لاستخدامها خلال موسم الصيهود، وبذا حافظوا على تزويد منتظم للمياه فى النهرين وما يتفرع عنهما من قنوات كثيرة، ولكن ذلك النظام الأروائى الدقيق أنهار فى عصور الفوضى والتخلف التى تلت تدهور الدولة العباسية، فغدت أكثر سهول الرافدين إما مستنقعات أو صحارى جرداء[1].

(*) أستاذ مشارك - كلية الآداب - جامعة الشارقة

ورثت الدولة العثمانية بعد ضمها للعراق سنة ١٥٣٤ هذه المشكلة، وظلت تتفاقم خلال قرون حكمها المتتالية. ولكن مطلع القرن العشرين شهد اهتماماً كبيراً بكيفية معالجة تلك المشكلة. ويبدو أن شرارة ذلك الاهتمام قدحتها مباشرة مهندس الري البريطاني الشهير السير وليم ولكوكس Sir William Willcocks الذي بدأ يقوم بدراسات عن كيفية السيطرة على أنهار العراق منذ سنة ١٩٠٢[٢]. وقد جمع خلاصة دراساته الأولية تلك وقدمها في آذار مارس ١٩٠٣ في محاضرة عامة عنوانها «تجديد العراق» أمام الجمعية الجغرافية الخديوية في القاهرة[٣]. ولم يكتف ولكوكس بالدراسة عن بعد بل يمم وجهه صوب العراق في شتاء سنة ١٩٠٤- ١٩٠٥ للقيام بدراسة ميدانية[٤]. وتمخضت زيارته تلك عن تقرير شامل عن المشكلة، وجد طريقه إلى الباب العالي عبر السفير البريطاني في اسطنبول، وأطلع السلطان عبد الحميد الثاني نفسه على ملخص عنه باللغة التركية[٥]. ويعزز تدخل السفير البريطاني في الموضوع وجهة النظر التي ترى في دراسات ولكوكس جزءاً من مخطط التوسع البريطاني في المنطقة[٦]. ولم يسفر ذلك كله عن خطوة عملية فورية، بل بقي الموضوع مجمداً حتى قيام الانقلاب الدستوري سنة ١٩٠٨. إذ وقع اختيار الحكومة الدستورية الجديدة على ولكوكس للقيام بوضع التصاميم الفنية لإحياء مشاريع الري القديمة في العراق[٧]. وأعلن عن ذلك في اسطنبول رسمياً في تشرين الأول – أكتوبر ١٩٠٨[٨]. وعلل نائب القنصل الأمريكي في بغداد ذلك الاختيار بما لولكوكس من سمعة طيبة حازها بعد نجاحه الفائق في مشاريع إروائية نفذها في الهند ومصر[٩]. وجاءت صيغة ارتباطه بالحكومة العثمانية على شكل عقد مدته خمس سنين يعين بموجبه مستشاراً لوزارة الأشغال العامة ورئيساً لمهندسي الري العاملين في العراق[١٠].

مقترحات ولكوكس

وصل ولكوكس إلى بغداد بالفعل في تشرين الثاني – نوفمبر ١٩٠٨ وبمعيته اثنا عشر مهندساً[١١]. وبعد دراسات كثيرة امتدت قرابة سنة قدم ولكوكس مقترحاته بشأن ما يراه ضرورياً لمعالجة مشكلة الري في العراق. وجاءت تلك المقترحات في عشرة تقارير سرية رفعها إلى الحكومة العثمانية. ولعل من حسن الطالع أن يحرص القنصل الأمريكي في بغداد حينئذ على موافاة وزارة الخارجية في واشنطن بنصوص تلك التقارير. فأرسلها جميعاً في السادس من كانون أول – ديسمبر ١٩٠٩. وبذا يمكن هنا استعراض أهم مضامينها.

استهل ولكوكس تقريره الأول بالقول إن دراساته قادته إلى تقسيم الأعمال الضرورية في العراق ثلاثة أقسام: أولها ضروري لمنع الكوارث،

وثانيها ضروري لصيانة الملاحة الموجودة حالياً. وثالثها ضروري لتطوير القطر، وانصبت مقترحاته في القسم الأول على إصلاح سدة الهندية الحالية، وبناء سدة جديدة قربها. وتطهير نهر الحلة، ومعالجة مشكلة تدفق ألف متر مكعب في الثانية من المياه في جدول الصقلاوية قبل سده منذ قرابة أربعين سنة. وتناول في القسم الثاني الأعمال الضرورية لصيانة نهر دجلة باعتباره الممر الملاحي بين بغداد والبصرة، وشملت مقترحاته في القسم الثالث بناء سدة على نهر الفرات في الفلوجة، وحفر قناة ملاحية بين نهري دجلة والفرات، وحفر قناة من نهر الفرات تغذي قنوات أبو غريب والرضوانية والمحمودية واللطيفية والإسكندرية بالمياه اللازمة طيلة أيام السنة. كما تضمن مقترحات هذا القسم بناء سدة على نهر دجلة في الكويت لتأمين تدفق المياه الدائم في نهر الغراف، والقيام بأعمال ري وصرف للأراضي البور حول البصرة. وبناء سدة على دجلة قرب سامراء لتأمين تدفق المياه طيلة السنة في قناتي الفهروان والدجيل، وبناء سد محكم على ضفتي نهر دجلة شمال مدينة بغداد وجنوبها[١٢].

وخصص ولكوكس بقية تقريره الأول هذا للحديث عن الأعمال المقترحة في سدة الهندية، ويحسن قبل نقل تفاصيل حديثه ذاك إعطاء فكرة موجزة عن تاريخ تلك السدة. وتعود جذور تلك المشكلة إلى قيام ثري هندي ورع بالتبرع لحفر قناة توصل الماء من الفرات إلى مدينة كربلاء. وتدفق الماء في تلك القناة بالفعل منذ سنة ١٨٠٠ بشكل منتظم. ولكن شق تلك القناة في موقع خطأ من الناحية الهندسية، جعل نهر الفرات يهجر مجراه الأصلي تدريجياً ويتحول إلى القناة الجديدة مسبباً خسائر فادحة لمزارعي منطقة تعتبر من أخصب الأراضي في العراق، ولم تفلح جهود ولاة بغداد المتعاقبين في معالجة المشكلة عن طريق إقامة سدود مؤقتة لتنظيم تصريف المياه بين الفرعين الجديد والقديم، وهكذا ما أن حلت سنة ١٨٨٠ حتى أصبح نهر الهندية هو المجرى الرئيس للفرات[١٣]. وقد كلفت ولاية بغداد مهندسين فرنسيين بإعادة بناء سدة لمعالجة المشكلة علها تستطيع الصمود أمام تيار المياه المتدفق عكس سابقاتها، فعكف المهندسان على ما كلفا به وإن أعلنا سلفا إن الأموال التي رصدت للمشروع غير كافية لتنفيذه كما يجب، بل سنؤمن فقط إنشاء سدة وقتية يجب ترميمها سنوياً بكلفة عالية. ولكن السلطات الحكومية لم تصغ لذلك التحذير، فكانت النتيجة انهيار تلك السدة بالفعل سنة ١٩٠٠ وعودة المشكلة إلى خط البداية. وحاول المهندسون العاملون في الدائرة السنية «أملاك السلطان» وولاية بغداد معالجة الوضع بإجراء إصلاحات على السدة المنهارة، ولكن نقص الأموال المخصصة جعلهم يكتفون بجلب الطابوق من

أطلال مدينة بابل الأثرية ورميه في مجرى النهر لزيادة تصريف المياه في نهر الفرات القديم (فرع الحلة)[١٤]. وحتى هذه السدة البدائية تداعت كلياً في ١٩٠٣ حتى بلغ مقدار ما يتدفق من مياه الفرات في فرع الهندية تسعة أعشار مياهه كلها[١٥].

ويحسن العود بعد هذا التعريف الموجز بالسدة إلى ما كتبه ولكوكس حيث قال: – إن إغلاق فم جدول الصقلاوية قبل أربعين سنة لتجنيب مدينة بغداد خطر الغرق قد أضاف تصريفه السابق من المياه البالغ ألف متر مكعب في الثانية إلى تصرف نهر الفرات المنحدر نحو فرعي الهندية والحلة. وبما أن الفرع الأول يجري في أراضي أكثر انخفاضاً من تلك التي يجري فيها فرع الحلة فقد أخذ يعمق مجراه تدريجياً، وبذا يزيد حصته من المياه على حساب الآخر. وقد انتبهت الحكومة لذلك الواقع وحاولت معالجته قبل أربعة وعشرين عاماً عن طريق إنشاء سدة من الحجر المسفلت تعترض مجرى النهر، وتركت فتحة بعرض عشرين متراً في وسط السدة للأغراض الملاحية. وعمل تيار النهر المتدفق على توسيع تلك الفتحة حتى بلغ عرضها ثلاثين متراً، كما أحدث ذلك التيار ثقباً في أحد جانبي السدة بعمق عشرين متراً فانهار نصف السدة وغمرته المياه، وازداد في الوقت نفسه تغرين مجرى فرع الحلة حتى انخفض تصريفه إلى مائتي متر في الثانية فقط[١٦] بعد أن كان ألفي متر مكعب في الثانية قبل أربعين عاماً. وظل الوضع يزداد سوءاً سنة بعد أخرى، بما يخشى معه زوال فرع الحلة من الوجود خلال سنوات، وإذا سمح بحدوث ذلك فستحلق بساتين ومزارع ممتدة على ضفتيه لمسافة سبعين كيلومتراً بمثيلتها التي كانت ممتدة على مسافة مائة وثلاثين كيلومتراً ثم غدت صحراء جرداء. وأضاف ولكوكس أن وزير الأشغال العامة العثماني قد خصص ثلاثين ألف ليرة عثمانية فقط لعمليات إصلاح السدة الحالية، بينما يرى هو أن المبلغ المطلوب لإنجاز هذا العمل يجب ألا يقل عن أربعين ألف وخمسمائة ليرة. وأرفق ولكوكس خطة لإجراء أعمال إضافية في تلك السدة تتمثل بإنشاء محبس مياه Lock (هويس) طوله خمسون متراً وعرضه ثمانية أمتار يلحق بالسدة، ويتطلب إنشاؤه بأمان مد جسم السدة ذاتها ثلاثة وعشرين متراً، وقدر ولكوكس كلفة هذه الأعمال الإضافية بستة وعشرين ألف وخمسمائة ليرة. وبذا تبلغ الكلفة الإجمالية لإصلاح السدة الحالية سبعة وستين ألف ليرة[١٧].

ومضى ولكوكس للقول إن السدة الحالية حتى بعد إصلاحها لن تكون كافية لإحياء فرع الحلة كما يجب، وإن من اللازم بناء سدة جديدة شمال الحالية لرفع منسوب مياه نهر الفرات أربعة أمتار أخرى فضلاً عن المترين

الذين ترفعهما السدة الحالية. ويجب بناء السدة المقترحة على اليابسة، وهو أمر لا غنى عنه بشكل جازم لكل الأعمال الأروائية في العراق لأن الأنهار عرضة لفيضانات جارفة غير متوقعة. واقترح ولكوكس أن تتألف السدة المقترحة من خمس وثلاثين فتحة[١٨] سعة كل واحدة منها خمسة أمتار مع دعامتين بقطر متر ونصف تبنى فوق كتلة صلدة عرضها عشرون متراً وعمقها ثلاثة أمتار، تنحدر عشرة أمتار ضد التيار وعشرون متراً مع التيار، ويبنى في الجانب الأيمن من السدة محبس (هويس) طوله خمسون متراً وعرضه ثمانية أمتار للسماح بالملاحة بين الفرات وفرع الهندية، ويتألف جهاز تنظيم التدفق في السدة من محاقن needles خشبية، وهي اقتصادية وأدت دورها في مصر بشكل رائع لمدة مائة عام قبل أن تستبدل بأخرى حديدية خلال السنوات العشر الأخيرة، وقدر ولكوكس كلفة السدة المقترحة والمحبس بمائة وتسعة عشر ألفا وتسعمائة ليرة[١٩]. بينما قدر كلفة تحويل نهر الفرات نحو السدة المقترحة بخمسة وأربعين ألفاً وخمسمائة ليرة[٢٠]، وكلفة تحويل نهر الحلة بثمانية آلاف ليرة[٢١]. وبهذا تكون الكلفة الإجمالية لمشروع السدة الجديدة مائة وثلاثة وسبعين ألفاً وأربعمائة ليرة[٢٢].

وحلل ولكوكس أسباب تغرين فرع الحلة فعزاها إلى كونه يستلم كل مياهه تقريباً خلال موسم الفيضان حين تكون المياه محملة بكميات كبيرة من الغرين الذي يترسب في قاعه، بينما لا يستلم مياهاً صافية خلال موسم الصيهود اللاحق كي تتولى عملية جرف الغرين المتراكم، وهكذا يرتفع قاع النهر سنة بعد أخرى ويغدو الوضع أكثر سوءاً. وقدر كلفة تطهير الفرع التي يجب القيام بها فوراً بتسعة آلاف وخمسمائة ليرة. وكلفة أعمال التطهير اللاحقة بأربعة وستين ألف ليرة[٢٣]، وستؤدي كافة الأعمال المقترحة إذا ما أنجزت إلى تدفق مياه صافية غزيرة في هذا الفرع بما يؤدي إلى جرف ما يتراكم من غرين في قاعه بانتظام. وختم ولكوكس تقريره الأول بالقول إن كلفة إصلاح السدة القديمة وبناء السدة الجديدة والتطهير قدرت في أيلول – سبتمبر ١٩٠٨ بستمائة ألف ليرة، ولكنه يقدره الآن حسب الأرقام الواردة آنفاً بما مجموعه ثلاثمائة وثلاثة عشر ألفاً وتسعمائة ليرة فقط[٢٤]. وبعد أن شرح أسباب ذلك الانخفاض، بين أن ذلك الإنفاق سيغل ربحاً فورياً تقريباً، معتبراً أن توقع عائد سنوي مقداره خمسون ألف ليرة يبدو توقعاً مقبولاً[٢٥].

وتناول ولكوكس في تقريره الثاني مشروعين مقترحين آخرين على نهر الفرات هما الحبانية والصقلاوية، فذكر بالنسبة للأول أن النقطة الأولى التي تستطيع فيها مياه الفرات مغادرة واديه تقع قرب مدينة الرمادي، حيث توجد

إلى الجنوب والجنوب الشرقي من تلك المدينة ثلاث ثغرات في الصحراء تؤدي إلى منخفض الحبانية الذي يمتد لقرب كربلاء ويعيد اتصاله بالفرات ثانية عبر قناتين تتفرع إحداهما من الفرات جنوب المسيب وتتفرع الأخرى إلى الجنوب منها، وكان هذا المنخفض في الأزمان القديمة يمتلىء بالمياه، وتجري منه فروع تتوغل بعيداً في الصحراء العربية، وأوطأ نقطة في الجزء الشمالي من هذا المنخفض هي بحيرة الحبانية التي تغطي مساحة مائة وستة وأربعين كيلومتراً مربعاً حين يكون منسوبها أربعين متراً فوق مستوى سطح البحر[٢٦]. أما مساحة المنخفض حين تبدأ مياهه بالعودة إلى الفرات فتبلغ ثلاثمائة وواحداً وأربعين كيلو متراً مربعاً. بطاقة استيعاب تبلغ مليار ونصف مليار متر مكعب من المياه[٢٧]. وتقع النقطة الأوطأ في الجزء الجنوبي من هذا المنخفض في بحيرة أبو دبس غرب كربلاء. وتبلغ مساحتها تسعة عشر كيلو متراً مربعاً[٢٨]. ويمكن لهذا المنخفض العظيم بكامله استيعاب أكثر من أربعة مليارات متر مكعب من المياه، يمكن تغذية الفرات منها بثلاثة مليارات سنوياً، ولكن المهم عاجلاً هو استخدامه أداة لمنع الفيضان وليس التغذية الراجعة[٢٩].

انتقل ولكوكس بعدها لعرض مشروعه المقترح الآخر قائلاً إن للفرات منفذاً آخر على ضفته اليسرى يعرف بجدول الصقلاوية، ويجري هذا الجدول مسافة خمسة وستين كيلومتراً ثم يدخل بحيرة عقرقوف ليجتازها حتى يصب في نهر دجلة جنوب بغداد مباشرة، وبهذا يبلغ طوله الكامل ثلاثة وتسعين كيلومتراً، وبحيرة عقرقوف حين تزويدها بالمياه لمنسوب يبلغ واحداً وثلاثين متراً ونصف المتر فوق سطح البحر تغطي مساحة مائة كيلومتر مربع، أما حين تملأ لقمتها عند الفيضان ولمنسوب أربعة وثلاثين متراً ونصف المتر فوق مستوى البحر فإن مساحتها تمتد حتى تغطي قرابة سبعمائة وخمسين كيلومتراً مربعاً، بطاقة استيعابية مقدارها مليار وربع المليار متر مكعب من المياه. وكان الفرات منذ القدم ميالاً لهجر مجراه والتحول إلى مجرى الصقلاوية الأوطأ. ولكن هذا الميل كبحه وجود حزام ضيق من الصخور عند الكيلومتر السابع من مجرى الصقلاوية، ولولا وجود ذلك الكابح لغادر الفرات واديه وانضم لدجلة منذ زمن بعيد، واقترح ولكوكس إقامة ناظم يتيح تدفق مائتين وخمسين متراً مكعباً في الثانية من المياه في جدول الصقلاوية بما يكفي لري سهله الواسع. وقدر كلفة الأعمال المطلوبة في هذا المشروع بخمسة وثلاثين ألفاً وثلاثمائة ليرة، وكلفه مشروع الحبانية بمائة وأربعة وستين ألف ليرة، وبذا تكون الكلفة الإجمالية للمشروعين معاً مائة وتسعة وتسعين ألفاً وثلاثمائة ليرة[٣٠].

وعرض ولكوكس في تقريره الثالث مقترح بناء سدة على الفرات في الفلوجة، فبعد أن تحدث أولاً عن وجود منظومة قنوات قديمة مندثرة في هذه المنطقة تمنى أن تقام منظومة حديثة مماثلة لها حيثما كان ذلك عملياً، وانتقل تالياً للقول أن مشروعه المقترح سيستغرق العمل فيه قرابة ثلاث سنين تحفر خلالها قناة تسير بموازاة نهر ملكا (ملجه Melcha) لتغذية جميع القنوات الواقعة بين بغداد والمسيب بالمياه من نهر الفرات شمال السدة المقترحة. وبذلك يكون منسوب المياه في القناة الجديدة وما تغذيه من قنوات قديمة ثابتاً في أيام الفيضان والصيهود معاً، وقدر ولكوكس كلفة بناء سدة الفلوجة ومحبسها الملاحي بمائة وستة وثمانين ألفاً ومائتي ليرة[٣١]، وكلفة السد الغاطس Waste weir وتحويل نهر الفرات بمائة وواحد ألف وستمائة ليرة، وبذا تكون الكلفة الإجمالية للمشروع ثلاثمائة وواحد وأربعين ألفا وستمائة ليرة[٣٢]. وتوقع أن تكون النتيجة إرواء مساحة من الأرض تبلغ مائتين وستين ألف هكتار قابلة للزيادة إلى أربعمائة ألف هكتار في النهاية (يعادل الهكتار ١٠,٠٠٠ متر مربع)[٣٣].

اقترح ولكوكس في تقريره الرابع بناء سدة على دجلة على بعد أحد عشر كيلومتراً شمال مدينة الكوت ونقل فم نهر الغراف (الحي) إلى هناك، وقدر الكلفة الكلية لبناء السدة ومحبسها الملاحي وتحويل نهر دجلة وفم نهر الغراف بمبلغ ستمائة وأربعين ألفاً وتسعمائة ليرة[٣٤]. وتوقع أن يؤدي إنجاز ذلك المشروع إلى استعادة خصوبة أرض مساحتها بين سبعمائة وثمانمائة ألف هكتار من أجود أراضي ما بين النهرين، كما توقع أن يكون هذا المشروع في عائده فذا بين كافة المشاريع المماثلة في العالم كله، وأن يكون مغلا منذ اليوم الأول لإكماله، وسيؤمن هذا المشروع فضلاً عن ذلك قناة ملاحية مستقيمة من الكوت إلى البصرة، وقدر ولكوكس المدة اللازمة لإنجاز هذا العمل بأربع سنين[٣٥].

أما في تقريره الخامس فشدد ولكوكس على ضرورة شق قناة ملاحية تربط نهري دجلة والفرات، وبرر تلك الضرورة بتيسير سبيل تبادل السلع والمنتجات بين حواضر النهرين، وتأمين ممر ملاحي بديل في أحد النهرين إذا أعاق عائق ما الملاحة في الآخر، وأضاف أن الفائض من الإنتاج الزراعي والحيواني الذي سيزداد في القطر بعد إنجاز المشاريع الأروائية يمكن إرساله عبر القناة المقترحة إلى هيت ومنها إلى سواحل البحر المتوسط، واقترح أن يكون مسار القناة الملاحية الجديدة هو مسار نهر ملكا في الستة عشر كيلو متراً ونصف الأولى، ومن تلك النقطة تتفرع قناة يمكن تسميتها باسم قناة بغداد وتمتد مسافة

أربعين كيلومتراً حتى جنوب بغداد، ثم تسير بموازاة نهر دجلة مسافة ثلاثين كيلو متراً أخرى، وهكذا فإن قناة بغداد مع توفيرها الملاحة بين النهرين ستروى مساحة خمسة وعشرين ألف هكتار من الأراضي العالية الخصوبة التي ستغل بتقدير متواضع جداً عائداً للخزينة الحكومية يبلغ خمسة وعشرين ألف ليرة سنوياً، كما ستمد أسواق بغداد بالمنتجات الغذائية والخضرية(٣٦).

وركز ولكوكس في تقريره السادس على نهري دجلة وشط العرب باعتبارهما الممر الملاحي الذي يربط العراق بالعالم الخارجي حينئذ. فذكر أن الملاحة في دجلة بين بغداد وما يقرب من العمارة لا تعاني مشكلة حقيقية في موسمي الفيضان والصيهود معاً، ولكن إلى الشمال قليلاً من بلدة العمارة يتفرع من الضفة اليمنى لنهر دجلة جدول البتيرة بتصريف يبلغ ألف متر مكعب في الثانية أثناء الفيضان ومائة متر مكعب في الثانية خلال الصيهود، ويتفرع من ضفة دجلة اليسرى في العمارة ذاتها جدول الكحلاء بقاعه الأوطأ من قاع دجلة بمترين وتصريفه البالغ ألف متر مكعب في الثانية أثناء الفيضان ومائة وخمسين متراً مكعباً في الثانية خلال الصيهود، وجنوب بلدة العمارة مباشرة يتفرع من الضفة اليمنى لنهر دجلة جدول المجر الكبير بتصريف حوالي خمسمائة متر مكعب في الثانية خلال الفيضان وخمسة وعشرين متراً مكعباً أثناء الصيهود(٣٧). ويتفرع جنوب هذا الجدول مباشرة من الضفة اليسرى لدخول جدول المشرح(٣٨) بتصريف حوالي ثلاثمائة متر مكعب في الثانية عند الفيضان وثلاثين متراً مكعباً في الصيهود، وقاعا هذين الجدولين أوطأ من قاع نهر دجلة أيضاً، وبذا يشكلان مع جدول الكحلاء تهديداً لوجود نهر دجلة ذاته، ويجعل ترفع هذه الجداول الثلاثة الملاحة في نهر دجلة جنوب قلعة صالح صعبة لأبعد حد أثناء موسم الصيهود حتى بلدة العزير حيث تعود المياه للنهر ثانية عن طريق الأهوار. واقترح حل المشكلة عن طريق السماح لمياه دجلة بالتدفق في تلك الجداول أثناء الفيضان وتقليل ذلك التدفق أثناء الصيهود عن طريق إقامة عتبات sills على أفواه تلك الجداول(٣٩). وقدر كلفة العمل في فم البتيرة بستة وأربعين ألف ليرة، وفي الكحلاء باثنين وأربعين ألفا وثلاثمائة ليرة(٤٠)، وفي المجر الكبير بسبعة عشر ألفا وثلاثمائة ليرة(٤١). ولم يرد تقدير لكلفة العمل في جدول المشرح(٤٢) في تقرير ولكوكس هذا الذي ختم بالتشديد على ضرورة تنفيذ العمل المقترح في الجداول الثلاثة الأخيرة خاصة إذا أريد لبغداد ألا تعزل تماماً عن العالم الخارجي يوماً ما(٤٣).

واقترح ولكوكس في تقريره السابع مشروعاً من شقين أولهما استصلاح أراضي الهور بين سوق الشيوخ وكرمة علي، والآخر استصلاح الأراضي الأكثر

إرتفاعاً الممتدة بين البصرة والزبير نزولاً إلى الفاو. فذكر بالنسبة للشق الأول أن الأهوار تغطي مساحة ثمانمائة ألف هكتار يمكن استصلاح وري ثلثها، ويشمل هذا الثلث بقعة الأرض الممتدة من الخميسية إلى كرمة علي والمحصورة بين الصحراء من جانب وسداد متراكم من مخلفات تطهير وتعميق قاع نهر الفرات من جانب آخر، وسيمتد ذلك السداد مسافة مائة وعشرين كيلو متراً متكلاً الضفة اليمنى لنهر الفرات وإلى يمينها سلسلة أحواض من الأرض مساحتها مائتا ألف هكتار يمكن استصلاحها كلها وزراعتها ببساتين النخيل والحبوب والمحاصيل الحقلية. ونبه إلى ضرورة رصف الوديان المنحدرة من الصحراء نحو هذه المنطقة حتى لا تدمر السيول المساحات المستصلحة، ودعا إلى بناء القرى والبلدات في الصحراء الجافة حيث ستربطها سكة حديد مع الزبير والبصرة. ودعا في الشق الثاني من مقترحه إلى استصلاح تسعين ألف هكتار من الأراضي الواقعة خلف البصرة، وقدر ولكوكس كلفة استصلاح الهكتار الواحد من الأرض المقترحة باثني عشرة ليرة موزعة على الشكل الآتي:

كلفة إقامة السداد الكلية موزعة على كل هكتار ٤ ليرة
كلفة شق قنوات الري موزعة على كل هكتار ٢,٥ ليرة
الكلفة الإجمالية لأعمال البناء موزعة على كل هكتار ٢,٥ ليرة(٤٤)
كلفة مضخات الري موزعة على كل هكتار ٣ ليرة

وتوقع ولكوكس أن تصل قيمة الهكتار الواحد من هذه الأرض بعد استصلاحها إلى خمسين ليرة(٤٥). وهكذا لو أنفق مبلغ عشرين ليرة على استصلاح الهكتار الواحد منها لما اعتبر ذلك المبلغ باهظاً حسب رأيه، خاصة إذا أخذ في الاعتبار قرب المنطقة من ميناء البصرة وسهولة ربطها به مائياً أو عبر سكة حديد، وقارن كلفة الاستصلاح تلك بمثيلتها قرب الإسكندرية أو بورسعيد حيث يعتبر إنفاق مائتين وخمسين ليرة على استصلاح هكتار واحد صفقة رابحة جداً(٤٦).

وتحدث ولكوكس في تقريره الثامن عن اقتراحه إعادة بناء سدة على نهر دجلة في بلد من أجل إحياء بعض الجداول المندرسة، ومنها النهروان. فقال إن دجلة يدخل دلتاه في بلد التي هي نهاية الملاحة الحرة في نهر دجلة، وحيث توجد أطلال السدود القديمة المشهورة التي كتب عنها مؤرخو الإسكندر الأكبر. وذكر أن العزم قد استقر على إنفاق اثنين وسبعين ألف ليرة على إحياء قناة النهروان وإقامة سد ترابي عبر مجرى دجلة في قرية السندية(٤٧) واعتبر ذلك غير كاف واقترح بدلاً عنه إقامة سدة كبيرة مماثلة لسدة الكوت في بلد لرفع منسوب المياه في نهر دجلة إلى أربعة وخمسين متراً ونصف المتر مما يمكن من

إحياء جدولى الإسحاقى والدجيل القديمين. كما سيمكن من حفر قناة جديدة تسمى جدول الكاظمية تجرى بمحاذاة دجلة من المنصورية حتى الكاظمية. وقدر الكلفة الكلية لهذا المشروع بمليون ومائة وتسعة آلاف ومائتين وعشرين ليرة[٤٨].

وتناول التقرير التاسع من تقارير ولكوكس ما يجب عمله فى بغداد ذاتها وما حولها للسيطرة على الفيضانات. فقال إنه توجد على نهر دجلة كما الفرات مساحات كبيرة من الأرض يمكن خزن مياه الفيضانات فيها لإعادة استخدامها لاحقاً. وفضل إبقاء هذه المساحات مكرسة لهذا الغرض على الرغم من ملائمتها للاستغلال الزراعى. ومن تلك الخزانات منخفض فى شرق بغداد طوله ثلاثون كيلومتراً وعرضه سبعة كيلومترات. وفى غربها منخفض عقرقوف القادر على استيعاب مليون وربع مليون متر مكعب من المياه. واقترح إقامة سدادين قويين على حافتى مدينة بغداد الخارجيتين، يمتد أيسرهما من شمال الكاظمية إلى جسر القرارة، ويمتد الأيمن من شمال الكاظمية أيضاً حتى الصقلاوية. ورأى ضرورة ترك الحفر العميقة الملينة بالمياه الآسنة حول معامل الطابوق خارج السداد. وهكذا فإن مياه الفيضان المحملة بالغرين والمندفعة فى الخندقين الناشئين من جراء إقامة السدادين ستملؤها بالغرين فى وقت قادم ما وتخلص بغداد والكاظمية من آثارها الصحية السيئة. وبعد إنحسار الفيضان سيقوم الخندقان بتصريف مياه الفيضان وإعادتها إلى النهر وهى عذبة وصحية، بعد أن تكون قد لطفت جو المدينة حوالى شهرين. كما أن انحسار مياه الفيضان عن طريق الخندقين سيؤدى إلى تحسين وضع المراعى حول المدينة وتنمية أجمات من الأشجار التى تعدها بأخشاب الوقود. وأضاف ولكوكس أن منخفض عقرقوف بطاقته الاستيعابية البالغة مليون وربع مليون متر مكعب عند الفيضان يمكن استغلاله أيضاً لتوفير المياه اللازمة لاستغلال الأراضى الممتدة على ضفة دجلة اليمنى من بغداد إلى الكوت لأغراض الزراعة والرعى وذلك بإنشاء سداد مزود بناظم يتحكم بتصريف مياهه[٤٩].

وتطرق ولكوكس فى التقرير نفسه لما يجب فعله فى نهر العظيم فقال إن بناء سد فى النقطة التى يدخل فيها ذلك النهر مجراه الضيق فى تلال حمرين سيوجد خزانا قابلا لاستيعاب مليون متر مكعب من المياه، وهى تكفى لارواء مائة ألف هكتار من مزارع الأرز، كما ستمكن المياه المختزنة فى منخفض شرق بغداد المار ذكره من زراعة عشرين ألف هكتار أخرى من الأرز. واقترح ولكوكس إحكام ضفة دجلة اليمنى بين العزيزية والكوت بسداد قوى لحماية المنطقة الواسعة المزروعة خلفها من الفيضان. أما ضفة النهر اليسرى فى ذلك

المقطع فاقترح تركها على حالها للسماح لدجلة بإيجاد مصرف حر لمياهه الزائدة فى تلك المنطقة مع إقامة منافذ للمنخفضات الكبيرة فيها تسمح بعودة المياه إلى النهر فى موسم الصيهود، وستوفر بتلك الطريقة المياه اللازمة لزراعة الأرز وتتحول الأراضى التى تنحسر المياه عنها إلى مراع يانعة، وقدر المساحة التى ستزرع بالأرز بتلك المنطقة بحوالى عشرين ألف هكتار. واقترح إقامة ستة نواظم على ضفة دجلة فى هذه المنطقة. كلفة الواحد منها خمسة وعشرون ألف ليرة[٥٠].

أما تقرير ولكوكس العاشر فكرسه للحديث عن إنشاء سكة حديد تربط وادى الفرات بساحل البحر المتوسط عاقداً الصلة بين تلك السكة ومشاريعه الأروائية آنفة الذكر، ولا يتسع المجال هنا لاستعراض هذا التقرير.

وقد لخص القنصل الأمريكى مقترحات ولكوكس كلها بالقول إنها تقوم على ثلاثة أركان هى: السيطرة على الفيضانات المدمرة، ومنع تغرين القنوات عن طريق إنشاء نواظم على أفواهها، وإقامة نظام صرف ملائم لأن مياه الأنهار تحمل كمية كبيرة من الأملاح التى تدمر خصوبة التربة إذا تركت تترسب عليها سنة بعد أخرى. وأضاف أن المساحة الكلية لدلتا دجلة والفرات تبلغ حوالى أحد عشر مليون إيكر (يساوى ٤٠٤٧ مترا مربعا تقريبا)، وتكفى مياه الأنهار حسب تقدير ولكوكس لارواء ستة ملايين إيكر من المحاصيل الشتوية وحوالى ثلاثة ملايين إيكر من المحاصيل الصيفية. وشملت مقترحات ولكوكس إقامة ست منظومات إرواء تغطى الأجزاء المختلفة من الدلتا. وأردف القنصل قائلا إن الكلفة الحقيقية (المحتسبة على أساس مضاعفة الكلفة المقدرة) لكل منظومة منها والمساحة المروية بعد إنشائها ستكون على الوجه الآتى:

اسم المنظومة	الكلفة بالدولار الأمريكى	المساحة التى ستروى بالايكر
الهندية - الفلوجة	٢٢,٣٧٢,١٥٠	١,٣٦٠,٠٠٠
نهر الغراف	١٢,١٣٥,٠٠٠	٦٢٥,٠٠٠
استطلاح أراضى حول البصرة	٨,٧٨٧,٠٠٠	٢٢٠,٠٠٠
سدة بلد	٩,٣٢٠,٠٠٠	٤٢٠,٠٠٠
قناة النهروان	٧,٩٩٥,٠٠٠	٥٠٠,٠٠٠
ذنائب دجلة والفرات	٤,٤٢٩,٧٠٠	٢٥٠,٠٠٠
المجموع	٦٥,٠٢٨,٨٥٠	٣,٢٧٥,٠٠٠

ويحسن أن يضاف لتلك المنظومات الست مشروعا آخر هو منفذ المياه الفائضة من الفرات، وهو بكلفة مليون وثمانمائة وسبعين دولارا، ويستصلح أرضا مساحتها مائة وخمسة وعشرون إيكرا[٥١].

ومضى القنصل في تقريره للقول إن الاهتمام مركز من بين تلك المنظومات على منظومة الهندية – الفلوجة، وتتألف هذه المنظومة من عدة أقسام هي سدة في الهندية لرفع منسوب المياه في الفرات إلى مستوى نهر الحلة، وقناة جنوب هيت لتحويل مياه الفيضان من الفرات إلى بحيرة الحبانية وبحيرة أبو دبس، وسدة في الفلوجة مع قناة موازية للضفة الغربية لنهر دجلة من بغداد إلى الكوت وقناة على الضفة الشرقية لنهر الفرات.

وستستصلح هذه المنظومة عند إنجازها الأرض الممتدة بين النهرين من بغداد إلى الكوت، وبمساحة مليون وثلاثمائة وستين ألف إيكر، وأورد القنصل بعض الأرقام ذات الدلالة على الجدوى الاقتصادية لهذه المنظومة بالدولار الأمريكي على الشكل الآتي:

١– كلفة الأعمال الأروائية	٢٢,٣٧٢,١٥٢
٢– كلفة الأعمال الزراعية	٢٤,٢٠٠,٠٠٠
٣– المجموع	٤٦,٥٧٢,١٥٢
٤– الإيجار السنوي للأرض المستصلحة	١٣,٥٥٢,٠٠٠
٥– العشور الحكومية السنوية	٣,٣٨٨,٠٠٠
٦– كلفة الصيانة السنوية	٧٢٦,٠٠٠
٧– العشور الحكومية مطروحا منها كلفة الصيانة	٢,٦٦٢,٠٠٠
٨– القيمة التقريبية لكل إيكر من الأرض المستصلحة	١٣٦,٤٠
٩– ربح المنظومة بقسمة إيجار الأرض السنوي على الكلفة الكلية هو	٢٩٪
١٠– ربح الحكومة بقسمة صافي العشور على كلفة الأعمال الأروائية هو	١١,٧٠٪[٥٢]

العمل في سدة الهندية بإشراف ولكوكس

ماكاد ولكوكس ينهي دراساته ويقدم مقترحاته الآنفة الذكر حتى أخذ يسعى لإقناع السلطات العثمانية بتبني منظومة الهندية – الفلوجة على الأقل والإيعاز ببدء تنفيذها، وأخذ يسعى في الوقت ذاته لإقناع الممولين البريطانيين بتقديم قروض للحكومة العثمانية لتمكينها من تمويل ذلك المشروع، وقد رد عليه أولئك الممولون بمطالبته بتقديم تقديرات دقيقة لكلفة المشروع حتى يستطيعوا دراستها وتقرير موقفهم على ضوء نتائج تلك الدراسة[٥٣]. ولكن ولكوكس كان أكثر نجاحا في مسعاه الأول على مايبدو، إذ

نشرت صحف اسطنبول في غضون شهر تشرين الأول – أكتوبر ١٩٠٩ إعلانا من وزارة التجارة والأشغال العامة دعت فيه ذوي الرغبة من المقاولين للدخول في مناقصة لإنشاء سدين في الهندية والفلوجة مع سدود أخرى في العراق، كما نشرت تلك الصحف خبرا مفاده أن مجلس المبعوثان (النواب) العثماني أقر تخصيص مبلغ مائتين وخمسين ألف ليرة لتغطية نفقات مشاريع الري تلك[٥٤]. ولكن يبدو أن رغبة السلطان الملحة في بدء هذا المشروع الحيوي بأسرع وقت جعلها لا تنتظر استكمال الخطوات المألوفة لاختيار المقاول المنفذ، فكلفت ولكوكس ببدء العمل في المشروع تحت الإدارة المباشرة له ولمساعديه[٥٥].

بدأ العمل بتلك الطريقة في مشروع سدة الهندية في خريف ١٩٠٩، حيث كان مئات من العمال يشتغلون وكثير من الأموال تنفق هناك كما لاحظ القنصل الأمريكي في بغداد، ولكنه أضاف إن مدى ما يتوفر من مال لمواصلة تنفيذ هذا المشروع الضخم، ومدى استعداد السلطات الحكومية للاستمرار في تلبية طلبات الطاقم الفني بقيادة ولكوكس، سؤالان لا تتوفر الإجابة عليهما في بغداد، ويتوقف عليهما نجاح هذا المشروع الكبير آخر الأمر[٥٦]. وما لبثت تلك المصاعب المالية طويلا حتى أطلت برأسها، ففي ربيع سنة ١٩١٠ كان المهندسون العاملون في الموقع يعانون في ضائقة مالية حلت مؤقتا في بداية نيسان – إبريل حين استلموا من الحكومة عشرين ألف ليرة مكنتهم من مواصلة العمل، ولكن موقفهم المالي تحرج من جديد في منتصف شهر أيار – مايو، وازداد تدهورا بعد أسبوع حتى بدا أن تعليق العمل في المشروع أمر لا يمكن تجنبه، وانفك الموقف بتحويل مبلغ عشرين ألف ليرة وصل من اسطنبول ومعه إشعار لولكوكس يفيد بأن مبلغا آخر مقداره ثلاثة وأربعون ألف ليرة قيد التحويل من هناك أيضا[٥٧].

ولم تقتصر متاعب ولكوكس على الناحية المالية فقط، بل تعدتها إلى تحفظ الرأي العام المحلي وريبته في نواياه وأهداف مشاريعه، فقد أظهر البغداديون بتقدمهم بعض كبار وجهائهم سخطهم على مشاريع ولكوكس أثناء معارضتهم لفكرة الحكومة المركزية القاضية ببيع بواخر الإدارة النهرية لشركة بريطانية[٥٨]. وكانوا يتخوفون من أن تكون تلك المشاريع مقدمة لهيمنة بريطانية كما حدث في القطر المصري[٥٩]. وبلغ ذلك التحفظ درجة من القوة والشيوع حتى شمل بعض الأوروبيين المقيمين أمدا طويلا في بغداد فأخذت تساورهم الشكوك حول النتيجة النهائية لأعمال ولكوكس، مع أنهم كانوا يتمنون بإخلاص لها النجاح[٦٠]. وشارك والي بغداد الجديد حسين ناظم باشا في ذلك التحفظ بعد وصوله في أيار – مايو ١٩١٠. فشكل لجنة برئاسته

وعضوية دفتردار الولاية ونقيب أشراف بغداد ومناحيم صالح دانيال [والاثنان الأخيران من كبار ملاك الأراضى الزراعية] لتدقيق أعمال ولكوكس وتقديم مقترحات حول مستقبلها. وقد عقدت اللجنة اجتماعها الأول فى الثانى والعشرين من الشهر نفسه، وبدا أن الوالى كان يعتزم فى النهاية إملاء قرار على بقية الأعضاء يقضى بوضع الأعمال الأروانية تحت السيطرة المباشرة للولاية[٦١].

ومما زاد فى الطين بلة حدوث تلك التداعيات أثناء غياب ولكوكس عن العراق، إذ كان قد توجه إلى بريطانيا لقضاء إجازته، تاركا مسؤولية العمل بيد مساعده المهندس مدليكت Medlicott، وقد تحول الأمر إلى أزمة بينه وبين الوالى بلغت ذروتها مع بدء شهر حزيران – يونيو ١٩١٠ حتى غدا الوالى يرفض عمليا تقديم أى تشجيع لأعمال الرى أو معاونة المهندسين البريطانيين بأى شكل، وقد زار السكرتير السياسى للوالى القنصل العام البريطانى فى بغداد فى العاشر من الشهر المذكور وشرح له أسباب رفض الولاية الموافقة على أى إنفاق آخر للأموال على أساس الترتيبات الحالية للعمل، فقام القنصل بإخبار السفير البريطانى فى اسطنبول بالأمر برقيا، وعاد السكرتير السياسى للاجتماع مع القنصل العام فى الثانى والعشرين من الشهر نفسه شاكيا من اللجهة التى يستخدمها مدليكت فى مراسلاته مع الوالى، وأسهب فى الحديث عن العداء المتزايد الذى يبديه السكان العرب لذلك المهندس، وهو أمر أقر القنصل بوجود دليل مستقل عليه، ولاحظ السكرتير أن حصر ولكوكس كافة المشتريات بمؤسسة بريطانية سبب استياء التجار المحليين فى بغداد، وبناء على ذلك نشط القنصل العام لمعالجة الموقف، فتباحث مع مدليكت وسكرتيره الملازم الأول لوك Lock، وحثهما على تحسين علاقتهما مع الوالى، ونجح فى تبديد الاحتكاكات الشخصية بين الطرفين، فركز المهندسون بعدها اهتمامهم على السير قدما فى أعمال سدة الهندية التى وعد الوالى بتوفير الأموال اللازمة لها، أما الأعمال التى كانت جارية فى الفلوجة فقد أوقفت، وهو أمر لا يستوجب الأسف على حد قول القنصل العام[٦٢]، ولا شك فى أن رأى القنصل العام ذاك ناشئ من انتشار الاستياء فى بغداد من جراء انهيار السدة الأولى التى أقامها ولكوكس على نهر الفرات جنوب الفلوجة خلال شهر كانون الأول – ديسمبر ١٩٠٩، على الرغم من أن تلك الحادثة الباهظة الثمن لم تكن نتيجة خطأ فنى ارتكبه ذلك المهندس حسبما أورد القنصل الأمريكى فى بغداد[٦٣].

وعانت الضائقة المالية تؤثر على سير العمل فى الهندية فى شهر تموز – يوليو ١٩١٠ على الرغم من أن الوالى أبرق لاسطنبول طالبا تحويل المال

اللازم لاستمرار العمل، وترتب على ذلك تقلص العمل الجارى وانحصاره فى إجراء تصليحات فى السدة القديمة وحفريات أسس السدة الجديدة وبناء جسر لمرور قطار خفيف على نهر الحلة لنقل مواد العمل فى الموقع، ويتطلب ذلك كله إنفاق حوالى ألف ليرة أسبوعيا، فضلا عن قرابة خمسمائة ليرة أخرى تنفق شهريا لجلب الحجر والكلس من هيت، وكانت أعمال التصليحات فى السدة القديمة تتم بطلب ملح من الوالى المتلهف على تأمين المياه لنهر الحلة بأى شكل، على الرغم من أن مدليكت حذره من أن سد الخروق فى جسم السدة القديمة قد يؤدى إلى انهيار البناء المتداعى فى موضع آخر، أما إذا صمد ذلك البناء فيجب صرف مبلغ عشرة آلاف ليرة لتطهير مجرى نهر الحلة.

وترتب على تلك الضائقة المالية أيضا تراكم ديون على ذمة المشروع بلغت اثنين وعشرين الف ليرة، ووصف القنصل العام البريطانى فى بغداد وضع المهندسين البريطانيين فى الهندية بأنه غير مرض للغاية، فعلى الرغم من أن الوالى غدا يعامل مدليكت بدرجة من الثقة ويميل لقبول آرائه لحد ما، إلا أنه وزملاءه فى وضع لا يحسدون عليه، فهم عرضة للتوتر الناجم عن احتمال طردهم بشكل مذل، وعن تعرضهم لافتراءات ظالمة يشنها عليهم عدد من زملائهم الأوربيين الذين طردوا من العمل فى المشروع لأسباب تتعلق بنقص الكفاءة، وتسهم فى خلق ذلك التوتر أيضا حملة الانتقادات التى كانت بعض صحف بغداد توجهها لولكوكس ومساعديه[٦٤].

أفلحت تلك الحملة متعددة الجوانب فى دفع الحكومة العثمانية إلى اتخاذ قرار بالاستغناء عن خدمات ولكوكس، فأخطرته فى تشرين ثان – نوفمبر ١٩١٠ بعزمها على إنهاء عقده خلال ستة أشهر[٦٥]. أما الأعمال التى كان يشرف على تنفيذها بشكل مباشر فقررت إحالتها على مقاول متخصص عن طريق المنافسة، وتنافست عليه بالفعل مؤسستان أولاهما بريطانية هى (the British Society of Civil Engineering and Technical Construction) وهى مملوكة لشركة السير جون جاكسون المحدودة (Sir John Jackson Ltd) فى لندن، أما الأخرى فهى أمريكية مقرها نيويورك ولها فرع فى لندن، وتدعى شركة بيرسون وولده (Pearson and Son Ltd.)، وقدمت المؤسستان عروضهما إلى وزارة الأشغال العامة فى اسطنبول[٦٦]، فارسيت المناقصة على شركة جون جاكسون التى وقعت عقدا فى شباط – فبراير ١٩١١ مع الوزارة لتنفيذ العمل على أساس الكلفة الفعلية زائدا عمولة محددة Percentage basis.[٦٧] وكانت العمولة المتفق عليها هى ١٥٪ من الكلفة الكلية فضلا عن ٥٪ من كلفة المواد والتجهيزات المستوردة من الخارج، وشمل العقد إنجاز الأعمال فى مشروعى الهندية والفلوجة معا. وتم إعداد

محضر لتسليم العمل فى المشروعين إلى الشركة البريطانية وقعه والى بغداد وولكوكس وممثل الشركة(٦٩). ولم يبق بعد ذلك لولكوكس ما يفعله، فغادر بغداد فى السابع عشر من نيسان – إبريل ١٩١١(٧٠).

تطور العمل فى سدة الهندية بعد مغادرة ولكوكس

باشرت الشركة عملها فى الهندية فور توقيع العقد. فعينت المستر أرثر وايتلى Whitley رئيسا لمهندسى المشروع بمعاونة المستر واربرك Warbrick وطاقم يضم حوالى عشرين مهندسا آخر(٧١). ويبدو أن الشركة الجديدة استطاعت خلال الشهور الأولى من عملها تذليل الصعاب التى كان المشروع يواجهها سابقا. فقد ذكر القنصل العام البريطانى فى بغداد فى كانون ثان – يناير ١٩١٢ أن العمل فى سدة الهندية متواصل بشكل مرض حيث تفقدها الوالى، وأضاف أن أعمال الشركة لا تعرقل من قبل السلطات الحكومية، خاصة بعد أن سحبت اعتراضاتها على نقل المواد المستوردة للسدة من البصرة عبر نهر الفرات بيواخر شركة لنج البريطانية.

ومضى القنصل للقول ليست هناك أخبار عن نوايا الحكومة العثمانية حول ترتيب عقد شامل لتنفيذ أعمال الرى فى العراق، وعد إحجام الحكومة عن ذلك أمرا صائبا بسبب عدم استقرار الحالة السياسية حينئذ. ونقل خبرا أوردته وكالة رويتر من اسطنبول عن اعتزام الباب العالى تنفيذ ثلث ما اقترحه ولكوكس من مشاريع فى العراق، فامتدح ذلك العزم خاصة إذا كان الثلث المعنى يشمل منظومة واحدة مثل سدة الهندية وخزان الحبانية وسدة الظوجة كما يفترض المهندس وايتلى(٧٢).

وزار القنصل العام نفسه موقع العمل فى آذار – مارس تلك السنة، وقضى هناك ليلتين، ووصف بناء السدة الجديدة بأنه لافت للنظر بارتفاعه البالغ عشرين مترا وطوله البالغ مائتين وأربعين مترا. وتقوم السدة على أساس من الأسمنت المسلح، وبناؤها العلوى من الطابوق لعدم توفر الحجر إلا بكلفة عالية. وكانت أفران الطابوق تشكل معلما رئيسا فى موقع العمل، ويمكن أن تنتج ستين ألف طابوقة أسبوعيا، وهى تستخدم فحما يستورد من بريطانيا لعدم وجود وقود طبيعى محلى، وبين القنصل أن نصف العمل الإجمالى فى السدة قد أنجز، كما أقيمت قواعد ناظم نهر الحلة، وأضاف: «كان هناك وقت زيارتى زهاء ألفين وخمسمائة عامل عربى مستخدمين فى الأشغال المختلفة. ولم أر قط عربا يعملون بهدوء وجد مثلما يفعل هؤلاء، إن التنظيم والتعامل المنصف قد صنعا معجزات، أكد لى المهندسون أن العمالة المحلية قياسا

بكفاءتها أرخص بالفعل مما هى فى مصر، لقد ظهرت للوجود هنا فئة مفيدة من كبار العمال Foremen، الأجور المدفوعة عالية طبقا للمعايير المحلية السابقة. فحتى الأطفال يتقاضون لغاية أربعة أو خمسة بنسات فى اليوم، ولكن المردود مرض. هناك مستشفى ممتاز فى الموقع تحت مسؤولية طبيب أوروبى، ويستقبل العاملين الأوروبيين والمحليين جميعا.. تمثل الأعمال عرضا لافتا للنظر لخليط من براعة الارتجال وجودة التدريب والآلية الحديثة»(٧٣).

وصل بغداد فى أواخر حزيران – يونيو ١٩١٢ المستر مونى Money، المهندس الاستشارى للبنك الوطنى [بريطانى] فى اسطنبول، وبعد أن زار موقع العمل فى الهندية مرتين أخبر القنصل العام البريطانى بصورة سرية للغاية عن هدف زيارته الرئيس، وهو تقديم تقرير لإدارة البنك عن حقيقة التشققات التى ظهرت على جسم سدة الهندية، وقد أظهرت له تحرياته أنها شروخ سطحية غير مهمة، وفضلا عن ذلك أبرق مونى عبر القنصلية العامة فى بغداد لإدارة البنك مبينا أن الحكومة العثمانية قد خصصت خمسة وخمسين ألف ليرة للإنفاق على أعمال الرى الجارية فى العراق خلال السنة المالية المنصرمة، ومقترحا على البنك التعهد للحكومة العثمانية بالإنفاق المتواصل على تلك المشاريع حتى إنجازها. ويتم هذا القرض مقابل إيقاع الرهن على العقد الدائم لتلك المشاريع. وأردف موانى برقيته تلك بأخرى تبين الأموال اللازمة لإنجاز الأعمال الجارى حينئذ، وهى:

سدة الهندية	مائة وسبعة آلاف ليرة
قناة التحويل	ستة آلاف ليرة

ورجح أن يتم إنجاز الأعمال الآتية فى المواعيد المحددة إزاءها إذا توفر التمويل اللازم:

سدة الهندية الجديدة	نيسان – أبريل ١٩١٣
السدة المساعدة	نيسان – أبريل ١٩١٣
قناة التحويل	أيار – مايو ١٩١٣
الخزان	أيلول – سبتمبر ١٩١٣
نهر الحلة	آذار – مارس ١٩١٣(٧٤)

ولم ينفذ اقتراح مونى لسبب أو لآخر، إذ أفاد القنصل البريطانى فى بغداد فى تشرين الأول – أكتوبر ١٩١٢ أن المهندس وايتلى يجد نفسه فى موقف حرج، حيث لم تعد الحكومة العثمانية تمده بالمال اللازم لسير العمل فى الهندية. وأضاف أن وايتلى ينتظر بصبر نافذ وصول والى بغداد الجديد محمد زكى باشا لعله يجد له مخرجا من هذا المأزق، خاصة وأن شركته انفقت من

مالها الخاص مبالغ كبيرة لضمان استمرار العمل.[٧٥] ولكن أمل وايتلى ذلك تبدد حين لم تقنع مفاتحات الوالى الجديد الباب العالى بتسديد دين الشركة على الحكومة البالغ ثلاثة عشر ألف ليرة أو بتوفير أموال أخرى لتصفية العمل، ودفع ذلك إدارة شركة جون جاكسون فى لندن لإرسال تعليمات إلى وايتلى بالتهديد بإيقاف كافة الأعمال إذا لم تسدد الحكومة العثمانية دين الشركة، وقد جلب ذلك الوضع المتفاقم اهتمام حكومة الهند فأبرقت إلى القنصل البريطانى العام فى بغداد مستفسرة عن الموقف المالى الدقيق لأعمال الرى الجارية فى العراق[٧٦]. ويعكس ذلك الاهتمام مدى ما كانت تعلقه السلطات البريطانية من آمال مستقبلية على تلك المشاريع.

وقد زار القنصل الأمريكى فى بغداد موقع العمل فى الهندية فى كانون أول - ديسمبر ١٩١٢ فذكر أن ديون شركة جون جاكسون على المشروع بلغت ثلاثين ألف ليرة، وأضاف أن إنجاز العمل كاملا يمكن أن يتم بحلول الصيف التالى إذا وفرت الحكومة الأموال اللازمة، وهو أمر يحد منه انهماك أجهزة الدولة المختلفة بالحرب مع الولايات البلقانية. ولذلك كان العمل فى الموقع يجرى متباطئا. فخفض عدد العمال إلى حوالى ألف عامل بعد أن كان عددهم يزيد عن ألفين، وبين أن الشركة البانية وفرت العمالة غير الماهرة من أبناء العشائر المحيطة بالموقع عبر اتفاقات وقعتها مع شيوخ عشائرهم[٧٧]. وصحح القنصل العام البريطانى معلومة زميله الأمريكى السابقة حول مقدار دين الشركة على المشروع، فذكر أنه بلغ عشرين ألف ليرة، وجاء هذا التصحيح عند روايته خبر زيارة الوالى لموقع العمل فى الثامن عشر من كانون أول - ديسمبر ١٩١٢ وإبدائه سروره بما شاهد هناك، ولكن ذلك السرور لم يحل الضائقة المالية الكبيرة التى تعانيها الشركة، ولذلك أبرق القنصل العام إلى السفارة البريطانية فى اسطنبول وحكومة الهند مبينا حراجة الموقف. فتلقى ردا برقيا من السفير يفيد بأن وزير المالية العثمانى وجه والى بغداد لدفع ثلاثة وعشرين ألف وأربعمائة ليرة إلى الشركة من خزينة الولاية، وبعد بعض الممانعة رضخ دفتردار الولاية ودفع للشركة عشرين ألف ليرة فقط، وهى تغطى ديونها فقط، وأعلن عدم قدرة خزينة الولاية على دفع أى مبلغ آخر حتى حلول شهر أيلول - سبتمبر القادم[٧٨].

وترتب على ذلك توقف شبه كامل للعمل فى الهندية خلال شهر كانون ثان - يناير ١٩١٣، حيث لم تتلق الشركة خلاله إلا ثلاثة آلاف وأربعمائة ليرة حولت إليها من خزينة ولاية البصرة، وقد أجرى مالك الشركة السير جون جاكسون نفسه مباحثات حول تلك المشكلة مع المسئولين فى اسطنبول أسفرت

عن حصوله على مبلغ صغير يكفى لاستمرار العمل بأدنى الحدود، وقد شملت تحركاته فى اسطنبول التباحث مع البنك الوطنى لإقناعه بتقديم قرض للحكومة العثمانية لتمويل أعمال الرى فى العراق[٧٩]. ولم ينفرج الوضع خلال شهر شباط - فبراير التالى، فظلت الأعمال فى الموقع فى حالة توقف شبه تام[٨٠]. وجاء شهر آذار - مارس بالفرج حين وقعت خلاله اتفاقية بين البنك الوطنى والحكومة العثمانية قدم بموجبها البنك للحكومة قرضا قيمته خمسون ألف ليرة، وقد حول المبلغ إلى بغداد وخولت الشركة بسحبه، فأعاد وصول المال فورة النشاط إلى سابق عهدها فى الموقع حيث أخذت الشركة تجد من أجل إنجاز العمل بحلول خريف تلك السنة[٨١].

وعلم القنصل العام البريطانى فى بغداد أن قيمة ذلك القرض غير كافية لإنجاز المشروع، مما يستلزم عقد قرض آخر قبل مرور وقت طويل، وإلا فسيتوقف العمل مجددا بالضرورة. وأبدى القنصل العام أهتمامه بمعرفة ماهية الضمانة التى حصل عليها البنك الوطنى مقابل تقديمه القرض السابق للحكومة العثمانية، للتأكد مما إذا كان يمكن للحكومة البريطانية إقرارها، وعبر عن أمله فى عدم حصول مجموعة مالية على رهن لأراضى العراق يتيح لها حق التدخل فى إدارة ذلك البلد[٨٢]. ولا يحتاج هذا الكلام الواضح لأى شرح، فهو ينبئ عما كان يبيته بعض البريطانيين من مخططات للهيمنة على العراق حينئذ، وبلغ بهم الصلف حد نصب أنفسهم أوصياء على العراق بحيث يجيزون لأنفسهم حق إقرار أو عدم إقرار اتفاقية أبرمتها حكومة دولة أخرى فى أراضيها.

وظل العمل متواصلا رغم الصعوبات المالية، ودخل فى شهر حزيران - يونيو فى مراحله النهائية. وكانت المهمة العاجلة التى يواجهها مسئولو الشركة هى نقل البوابات الحديدية اللازمة لإيصاد الفتحات فى جسم السدة إلى موقع العمل ثم تركيبها فى مواضعها، وعدد تلك البوابات سبعون بوابة وزن الواحدة منها أربعة أطنان، وقد صنعت تلك البوابات فى إنجلترا وشحنت إلى ميناء البصرة، وصادف وصولها هناك بدء انخفاض مياه نهر الفرات فى موسم الصيهود، ولذلك عانت الزوارق التى نقلتها من البصرة من صعوبات كبيرة أثناء إبحارها بها مصعدة فى نهر الفرات، ومن جانب آخر ظلت المشكلة المالية قائمة، وتلقى المهندس وايتلى توجيها من رؤسائه فى لندن بإيقاف العمل فى العشرين من ذلك الشهر إن يتلق أموالا من الحكومة العثمانية، وقد نفع هذا التهديد فى دفع ولاية بغداد لتقديم خمسة آلاف ليرة للشركة، كما أمرت الحكومة برصد حصيلة شراء سندات القرض الوطنى من قبل البغداديين

لأعمال السدة. ولكن تلك الحصيلة لم تتجاوز ألفا وخمسمائة ليرة فقط. ودفع ذلك الوضع سلطات الولاية لمحاولة إقناع بعض الموسرين في بغداد بإقراضها ما يكفي من المال لإنجاز العمل في السدة. وفي ختام سرده لتلك المعلومات دعا القنصل العام البريطاني في بغداد رؤساءه للتفكير في قيام الحكومة البريطانية أو حكومة الهند بتقديم قرض من الأموال العامة مقابل ضمانة ما لإكمال العمل في سدة الهندية. وأضاف: «ربما ستكون النتيجة هي حصول الحكومة البريطانية على مركز استشاري فيما يتعلق بري مابين النهرين وحصول مقاولين بريطانيين على أفضلية عند إنشاء الأعمال الأخرى التي تضمنها برنامج السير وليم ولكوكس، ولا يمكن كثيرا تكرار القول بأن الري سيكون هو المصلحة المهيمنة مستقبلا فيما بين النهرين. وستكون مشاريع النقل (سكك الحديد والبواخر) مساعدة فقط، وسيعتمد نجاحها بصورة رئيسية على نتائج الري والزراعة وعلى نمو قدرة السكان على الشراء والدفع»[٨٣].

وقد وصلت البوابات بعد جهد جهيد إلى موقع العمل في تموز – يوليو ١٩١٣[٨٤]. ولكن بعض أجزائها غرقت في النهر أثناء عملية النقل، مما حال دون إمكانية تركيب جميع البوابات قبل حفل الافتتاح الذي كان مسئولو الشركة في أيلول – سبتمبر يتوقعون حدوثه بعد شهرين، وسيكون من المحتم في حينه ترك ماء النهر يتدفق بحرية في البوابات المفتوحة، وبذلك لن يرفع مستوى المياه في النهر إلى الحد المطلوب لتدفقه في نهر الحلة. أما الوضع المالي للمشروع خلال المدة من تموز حتى أيلول (يوليو – سبتمبر) فقد كان حسنا. إذا كانت الشركة تتلقى من الحكومة العثمانية الأموال اللازمة لسير العمل بانتظام، وقد عمل ذلك بلهفة السلطات الحكومية على إنجاز مشروع مدر للإيرادات[٨٥].

زار القنصل العام البريطاني في بغداد موقع العمل في أخر تشرين الأول – أكتوبر ١٩١٣ فوجد أن أجزاء الأبواب الحديدية المفقودة عوضت مؤقتا بأجزاء صنعت في موقع العمل، كما أزيح الحاجز الترابي الذي يفصل مجرى نهر الفرات القديم عن مجرى التحويل فتدفق قسم من مياهه عبر فتحات السدة، وكان إتمام إغلاق مجرى النهر القديم يتطلب حوالي ثلاثة أسابيع من العمل. يزاح خلالها أيضا ما بقي من حواجز ترابية تفصل مجرى التحويل عن المجرى الأصلي شمال السدة وجنوبها. وعند انتهاء تلك الأعمال كلها كانت مياه الفرات ستتدفق عبر قناطر السدة الست والثلاثين التي سترفع منسوب المياه إذا أغلقت بواباتها، بما يمكن من تحويل القدر المطلوب من المياه إلى فرع الحلة. ووصف القنصل السدة بأنها ذات منظر رائع على الرغم من أن البوابات لازالت

مرفوعة. وسيكون مغزى ذلك المنظر جليا حتى لأكثر الناس بلادة على حد قوله. وأضاف أن النقد المحلي للمشروع يموت تدريجيا مع تقدم العمل نحو نهايته[٨٦]. ويبدو القنصل العام مزهوا بما استطاعت القدرة الهندسية البريطانية إنجازه. أما المغزى الذي ألمح إليه فهو تأكيد بناء السدة الشامخ على مكانة بريطانية في العراق حينئذ.

وجرى حفل افتتاح السدة رسميا في الثاني والعشرين من تشرين ثاني – نوفمبر ١٩١٣. حيث وجهت الشركة البانية دعوات لوكيل الوالي وكبار مسئولي الولاية والقناصل المعتمدين ووجهاء البلد. وابتدأ الحفل بكلمة للمهندس وايتلي استعرض فيها خطوات المشروع منذ أن كان فكرة، وبين مكوناته بعد إكماله. قائلا: «إن الجزء الرئيس من المشروع قد أنجز وبقيت أعمال صغيرة أخرى». وأعقبه وكيل الوالي محمد فاضل باشا الداغستاني بين فيها أن هذا المشروع لوحده قد لا يكون كافيا لإرواء هذه المنطقة الشاسعة. وكأنه كان يرد على سيل من البرقيات وصلته قبل حفل الافتتاح بيوم واحد شاكية من قلة المياه المتدفقة في نهر الحلة. ولكن تلك الشكوى تبددت بعد حين ونشرت بعض الصحف المحلية برقيات أخرى تشيد بكفاية المياه الجارية في ذلك النهر. كما ألقى المسيو بيكره Bedarrah [فرنسي] كبير مهندسي الري في ولاية بغداد كلمة ذكر فيها أن كلفة المشروع حتى يوم افتتاحه بلغت حوالي ثلاثمائة وثمانين ألف ليرة. وقد أقر المهندس وايتلي في حديث لاحق مع القنصل العام البريطاني في بغداد بأن ذلك الرقم صحيح تقريبا، وهو يتضمن كلفة المسوحات التي أجراها ولكوكس وما أنفق على المشروع حين كان يتولى إدارته بشكل مباشر[٨٧].

وأعطى نائب القنصلية الأمريكي في بغداد تفصيلات فنية عن السدة الجديدة. فقال إنها تتألف في الواقع من سدتين. إحداهما مغمورة تحت الماء والأخرى ظاهرة. وبنيت السدة المغمورة من الآجر بطول سبعمائة وسبعة وثلاثين قدما وثلثي القدم وعرض ثمانية أقدام وثلث القدم، وارتفاع مماثل للعرض. وترفع هذه السدة منسوب المياه في النهر خمسة أقدام فوق مستواه الأدنى خلال موسم الصيهود. أما السدة الظاهرة فتأخذ شكل جسر ذي قناطر يبلغ عددها ستا وثلاثين قنطرة. وقد ركب على كل قنطرة زوج من الأبواب الفولاذية. وترفع هذه السدة منسوب المياه في النهر أحد عشر قدما وثلثي القدم فوق مستواه الأدنى خلال موسم الصيهود. وانتقل نائب القنصل للقول إن ناظم نهر الحلة يتألف من ست قناطر مزودة ببوابات تنظيم مماثلة لأبواب السدة السابقة الذكر. ويتحكم الناظم بفم نهر الحلة البالغ عرضه عند القاع ثمانية وتسعين قدما[٨٨].

أما الأعمال الثانوية التى تأخر إنجازها لما بعد افتتاح السدة فقد أنجزت بالفعل بحلول شهر آذار – مارس ١٩١٤، وبقى بعدها ثلاثة من مهندسى شركة جون جاكسون فى موقع السدة يقومون بأعمال إضافية كلفتهم بها السلطات العثمانية[٨٩]. وقد زار القنصل العام البريطانى فى بغداد سدة الهندية فى العشرين من نيسان – أبريل والأول من أيار – مايو ١٩١٤، حيث وجد أولئك المهندسين منهمكين بإنشاء قناة تحويل لمياه الفيضان باعتبار ذلك إجراء احتياطيا لحماية السدة، وأضاف أن الفيضان تلك السنة جاء مبكرا قبل إنجاز قناة التحويل تلك مما سبب بعض الضرر، وقد تطلبت معالجته تنظيم العمل على شكل مجاميع تعمل ليلا ونهارا حتى أعيد كل شىء لوضعه السابق[٩٠].

وخلال متابعاته تلك لسير العمل فى مشروع السدة كان ذهن القنصل العام البريطانى مشغولا بالخطوة التالية التى ستلى إنجاز العمل فى ذلك المشروع، فقد كتب فى كانون ثان – يناير ١٩١٢ ماتصه: «إن السؤال عما سيعمل بعد إنجاز السدة الأولى لم يتصد أحد للإجابة عليه حسب علمى، ولا أظن أن السير وليم ولكوكس قد خطط أى نظام مفصل لرى معتمد على سدة الهندية، فستقسم السدة مياة الفرات بين فرعى الهندية والحلة، ولكن كلا منهما سيظل كما كان قبلا يتدفق بحرية، وسيترك المالكون والفلاحون الذين تقع أراضيهم على ضفة النهر مباشرة أحرارا فى سحب المياه التى يحتاجونها من المجرى بقدر ما تمكنهم أدواتهم المستعملة، أى نواعير الخيل والمضخات الغطية والقنوات البدائية.. إلخ، ولكن توزيعا أكثر انتظاما من هذا مطلوب بالطبع إذا أريد للعمل أن يدر عائدا جيدا للحكومة التركية، إن قنوات رئيسة نظامية وترعا فرعية يجب تخطيطها وبناؤها بمستويات متدرجة كى تحمل المياه بفعل الجاذبية بعيدا عن النهر وتوسع الزراعات لمساحات بعيدة فى الداخل.

وهذه مهمة تتطلب أفضل خبرة ومهارة علمية، ولا أرى هنا أية جهة قادرة على إنجازها، إن شركة السيرجون جاكسون مؤسسة مهندسين إنشائيين لا خبراء رى، وليس لدى الأتراك على الأرجح أحد يملك ولو معرفة أولية بالرى، ستكون هناك أيضا صعوبة تفوق مثيلتها فى الهند وهى إيجاد عمالة مناسبة لزراعة الأراض الجديدة التى غدا أرواؤها ممكنا، وإذا توفرت تلك العمالة ووطنت على الأرض بالفعل فسوف ننشأ مشكلة خلق نظام ضريبى ملائم ومنصف، ومشكلتا التوطين والضرائب هاتان منفصلتان مثل مشكلة الرى ذاتها تمثل مشاكل فنية جدية يعتمد على حلها العائد المالى للمشروع الكبير الذى تنفذه الآن الحكومة التركية الآن بتردد كبير»[٩١].

وانتقل القنصل العام بعد ذلك للحديث عن هدفه الكامن وراء مابينه آنفا، فذكر أنه قدم معلومات وإحصاءات عن مشروع الرى فى البنجاب لوالى بغداد ومعاونه، وأضاف: «يصعب أن تنقل لموظف تركى لم ير قط إدارة جيدة فكرة كافية عما تحقق فى الهند، أو عن العلم والتنظيم والسجايا الخلقية وهى وحدها التى جعلت تحقيق ذلك ممكنا، ليس هناك شك فى أن ماهو مطلوب فى مابين النهرين ينحصر فى نصح خبير وتوجيه مشرف مثل اللذين يستطيع تقديمهما مهندس رى وموظف توطين هنديان، لو أننى اقترحت على الوالى بشكل مباشر ضرورة الحصول على خدمات مثل هذين الموظفين من الهند فيرجح أن تثور لديه شكوك سياسية، لذا اقتصرت حاليا على محاولة إثارة اهتمامه ومعاونه بالأمر، وعلى اقتراح إرسال مبعوثين إلى الهند لرؤية كيفية إدارة الأمور هناك، إذا كانت بعثة من أى نوع سترسل، وهذا ليس محتملا جدا، فلا شكل فى أن النتيجة ستكون طالبا للمساعدة آخر الأمر، تحدثت أيضا للمستر وايلى، وهو يتمتع بثقة الوالى ويقدر عظم المصالح التى يتضمنها الاقتراح، وقد خطر ببالى أن مؤسسته ربما تكون من الآن فصاعدا قادرة على نيل عقد للقيام بالأرواء والتوطين، وأن الخبيرين الهنديين البريطانيين يمكن أن يجلبا عن طريقها، ربما باعتبارهما مستخدمين لديها، إن عزرا بن السيد مناحيم صالح دانيال، أحد رؤوس الطائفة اليهودية فى بغداد وواحد من أكبر ملاكى الأراضى فى ما بين النهرين، موجود فى الهند حاليا، وقد زودت السيد دانيال الكبير برسالة تعريف ربما يقدمها ابنه إلى كبير سكرتيرى حكومة البنجاب، إن زيارة السيد عزرا، وهو مدير زراعة والده، لمستوطنات البنجاب يرجح أن تجعله مؤيدا قويا للطرائق الهندية البريطانية، ويمكن أن يسهم هذا ثانية، ولو عن طريق غير مباشر، فى خدمة الهدف المعنى وهو إدخال إدارة بريطانية لمشروع رى مابين النهرين..»[٩٢].

وظل القنصل العام يتابع مصير المعلومات والإحصاءات التى قدمها للوالى، فأعلمه الوالى أنه أبرقها إلى الباب العالى وقد تحاور مع القنصل حول كيفية حل مشكلة توزيع الأراضى فى المنطقة المستصلحة فى البنجاب، وتأثر كثيرا بالنظام الذى طبق هناك، وهو يقوم على اعتبار المستوطنين فى البداية مجرد مستأجرين خاضعين لمشيئة الحكومة، ثم يحولون إذا أظهروا كفاءة إلى مستأجرين ذوى حق حيازة Occupancy، ويسمح لهم آخر الأمر بشراء حق الملكية بشروط فائقة اليسر، وقد أعلن الوالى عزمه على إبراق هذه المعلومة المهمة لحكومته فى اليوم التالى[٩٣]. وعاد القنصل العام للتطرق للأمر بعد حين موضحا اكتشافه ملكية أفراد لقسم كبير من الأراضى المحيطة بسدة الهندية، مما يعنى أن عائد الخزينة الحكومية منها بعد الاستطلاح سيكون أقل مما لو

كانت أميرية، فضلا عن أن استغلالها لن يكون في أيدى الحكومة بشكل فعال. وأضاف أن ذكرياته عن ملاكى الأراضى الكبار في الهند تجعله مفرط التحامل ضدهم. ولكن ربما أثبت أقرانهم فى هذا البلد أنهم أكثر فائدة من مزارعين صغار عنيدين من العرب غير المتحضرين. وبين أنه بعث رسالة شخصية للسير جون جاكسون تبين أن أعمال الرى الرئيسة التى ينفذها تمثل نصف المعركة. أما نصفها الآخر فهو تنظيم توزيع المياه واستيطان الأرض. وذكر أنه أرسل نسخا من تلك الرسالة إلى حكومة الهند وحكومة البنجاب والسفير البريطانى فى أسطنبول. مبدياً تشاؤمه من قدرة الحكومة العثمانية على التحرك فى الاتجاه السليم. مستشهداً على ذلك بتعبير عراقى دارج يقول (ماكو مربى)، ونقل فى ختام تقريره انطباعات عزرا دانيال عن زيارته لمشروع رى البنجاب، وأهمها إعجابه الكبير بمنع الإسراف فى استخدام مياه الرى، وهى فى رأيه النقيصة التى ينزع إليها الفلاح العربى إذا لم يكبح(٩٤).

ولم يقتصر ذلك الاهتمام بالخطوة اللاحقة بعد إتمام بناء سدة الهندية على القنصل العام البريطانى بل امتد لزميله القنصل الأمريكى فى بغداد، إذ كتب فى السابع من كانون أول – ديسمبر ١٩١٢ مبيناً أن زيادة كمية المياه فى فرع الحلة بعد إنجاز السدة لن يجعل مياهه كافية لسقى الأراضى الواقعة على ضفتيه سيحا إلا إذا تم بناء سد آخر على ذلك الفرع. وبعكسه سيكون البديل هو استخدام المضخات التى شاع استخدامها على ضفتى دجلة قرب بغداد(٩٥). وبعد افتتاح السدة تناول نائب ذلك القنصل جانباً آخر متصلاً بها. وهو حاجتها إلى صيانة مستمرة وخاصة خلال السنوات الأولى. وتخوف من ميل متأصل لدى الإدارة العثمانية لإهمال هذا الجانب على الرغم من أن السدة ستدخل زيادة سنوية فى دخل ولاية بغداد تتراوح بين عشرين إلى ثلاثين ألف ليرة(٩٦). وتعدى الاهتمام بذلك الأمر الأوساط القنصلية فى بغداد إلى كبير مهندسى الرى فى ولاية بغداد، المهندس الفرنسى بيكره، فقد أوصى بإقامة مناطق عمل إروائية عديدة فى العراق يشرف على كل واحدة منها مهندس مختص، ولكنه أظهر قليل أمل فى أن تلقى توصيته تلك اهتماماً من قبل الحكومة، وأعلن إدراكه لعدم إظهار الحكومة لحينه تفكيراً سليماً بتنفيذ برنامج منظم لرى العراق. وأعرب عن اعتقاده بأن التقدم الزراعى فى العراق فى أحسن الأحوال لا يمكن أن يتحقق إلا جزئياً فقط لحين حل مشكلة ملكية الأرض على أسس واضحة(٩٧).

مشروع الحبانية

مر سابقاً تفصيل مقترح السير وليم ولكوكس المتعلق بالحبانية، كما مرت الإشارة إلى بدء أعمال الحفر فى قناة تحويل مياه الفيضان نحو بحيرة

الحبانية بإدارة مباشرة من ولكوكس نفسه. كما شرع بحفر قناة الصقلاوية، ثم صرف النظر عنها(٩٨). وقد أحيل المشروع لعهدة شركة السير جون جاكسون المحدودة كما مر فى تسباط – فبراير ١٩١١، ولكن هذا التغيير لم يعط دفعة قوية لسير العمل فى المشروع. وقد لاحظ القنصل البريطانى العام فى بغداد ذلك الواقع فكتب فى كانون ثانى – يناير ١٩١٢ قائلاً إن العمل فى قناة التحويل هناك لا يسير بشكل حثيث مثل العمل فى سدة الهندية، ونقل ما تناهى لعلمه من حاجة العمل لإحداث قطع عميق فى أرض صخرية صلدة مما يتطلب استيراد آليات حديثة، وأشار أيضاً إلى عدم إقبال شركة جون جاكسون على العمل هناك بجدية إلى أن تتيقن من حصولها من الحكومة العثمانية على عقد دائم يتيح لها تولى أعمال الرى فى العراق(٩٩). ولعل من معيقات العمل هناك أيضاً كلفته العالية وخواء الخزينة العثمانية، فقد قدر مهندس البنك الوطنى الكلفة الكلية لقناة التحويل تلك بمبلغ ثلاثمائة وأربعة وثلاثين ألف ليرة(١٠٠). وربما أسهم فى تعثر سير العمل فى المشروع عدم البت فيما إذا كان سيقتصر على جعله وسيلة تخلص من الفيضان فقط أو خزاناً لتغذية الفرات بالمياه أيام الصيهود. فقد كان ذلك الأمر مطروحاً للتداول بين الجهات المعنية سنة ١٩١٢(١٠١). وأعاد كبير مهندسى الرى فى ولاية بغداد طرح الاقتراح مجدداً فى نيسان – أبريل ١٩١٣(١٠٢).

كان العمل فى الحبانية من جراء ذلك كله يسير ببطء شديد خلال ربيع سنة ١٩١٣، وزاد من بطئه انشغال الدولة العثمانية كلياً بالحرب البلقانية(١٠٣). وظل الحال كذلك خلال خريف تلك السنة(١٠٤). وقد جعل ذلك القنصل العام البريطانى فى بغداد يكتب فى تشرين أول – أكتوبر ١٩١٣ متسائلاً عما إذا كانت الحكومة العثمانية تمتلك القدرة والذكاء والإرادة للتركيز على مشروع الحبانية بعد إنجاز سدة الهندية، وأضاف أن ذلك المشروع ذو كلفة عالية وعائد مالى غير مباشر. فى حين أن الخزينة الحكومية مستنزفة، وليس لديها إلا القليل تقدمه ضماناً لقرض يمول المشروع، وعبر عن قناعته مع ذلك كله بقدرة الحكومة العثمانية على تأمين مبلغ أربعمائة ألف ليرة على مدى ثلاث سنين لتنفيذ ذلك المشروع على مراحل. ونقل عن والى بغداد اقتراحه على حكومته عرض أعشار منطقة الديوانية على شركة السير جون جاكسون ضماناً لاستمرارها فى الإنفاق على المشروع حتى إنجازه. وحذر من خطورة مثل هذا العرض قائلاً: «إذا كان على تركيا الاستمرار فى اقتراض أموال من أجل رى ما بين النهرين بضمانة مشاريع الرى نفسها أو بضمانة الأراضى المستصلحة بها أو بكليهما معاً فإنها ستجد نفسها عاجلاً أو آجلاً مبعدة من السيطرة على المشروع وعوائده جميعاً. وإذا كنت قد فهمت سياسة حكومة جلالته فهما سليماً فإنها لا ترغب برؤية ما

يجب أن يكون حصة الباب العالي من عائدات زراعة ما بين النهرين، وهي الاحتياطي الكبير للميزانية التركية، تذهب باستمرار إلى جيوب مضاربين أجانب حتى لو كانوا بريطانيين، ولكنها ترغب في أن يحقق مقاولون بريطانيون أرباحاً منصفة من أعمال البناء، وأن يستخدم خبراء بريطانيون بعدها لإدارة قنوات الري والاستيطان الزراعي وتعديل شروط تملك الأرض والضرائب ومعدلات تزويد المياه ورسومها. إن خطة العمل التي توصي بها تركيا في هذه الحالة هي إبقاء يدها طليقة وتحديد مبلغ معتدل ولكنه ثابت من الميزانية السنوية لتنفيذ برنامج ولكوكس شريطة أن يكون من الإيرادات العامة أو من قرض مغطى بضمانة لا تمنح المقرضين سلطة رهن أراضي بين النهرين أو مياهها»[١٠٥]. وما لم يقله القنصل هنا هو رغبته في إبقاء تلك الأرض والمياه رصيداً مستقبلياً للمخطط التوسعي البريطاني في العراق.

أما المستر وايتلي كبير مهندسي شركة السير جون جاكسون فقد أكد في كلمته أثناء حفل افتتاح سدة الهندية في تشرين ثان – نوفمبر ١٩١٣ على تكامل مشروعي الهندية والحبانية حسب مخطط ولكوكس وضرورة تشغيلهما معاً، وتمنى أن تتمكن شركته من إنجاز مشروع الحبانية أيضاً. ولكن ذلك كان مجرد أمل، إذ اقتصر العمل هناك على الاستمرار في حفر قناة التحويل بشكل بطيء، بانتظار حصول الشركة على عقد بناء كامل المشروع. ولذلك كان وايتلي وطاقمه قد حزموا حقائبهم في الهندية استعداداً لتلقي أمر شركتهم بالتوجه إلى الحبانية أو العودة إلى بريطانيا. ومن جانب آخر بعثت شركة السير بيرسون وولده رسالة إلى وزير الأشغال العامة العثماني ووالي بغداد تعبر عن استعدادها لاستئناف المفاوضات حول تمويل وتنفيذ بعض مشاريع الري التي اقترحها السير وليم ولكوكس[١٠٦]. ولم تكتف تلك الشركة بالرسالة فقط بل أوفدت ثلاثة من مهندسيها إلى العراق آذار – مارس ١٩١٤، للقيام بدراسات ومشاورات حول أعمال الري، وبعد أن زاروا الفلوجة وهيت غادر اثنان منهم العراق وبقي الثالث للمتابعة[١٠٧]. وأوضح نائب القنصل الأمريكي في بغداد سبب تلك الزيارة وعزاه إلى عودة التنافس بين شركتي بيرسون وجاكسون على نيل عقود مشاريع الري في العراق[١٠٨]. ولم تحسم السلطات العثمانية ذلك التنافس لمصلحة أي من الشركتين حتى قيام الحرب العالمية الأولى، فظل العمل جارياً ببطء في قناة التحويل فقط تحت إشراف شركة جاكسون حتى أنجز منها قرابة خمسة وسبعين بالمائة عندما نشبت الحرب فأوقف العمل[١٠٩].

مشاريع ري أخرى

ولم يكن اهتمام الحكومة العثمانية بموضوع الري في العراق حينئذ قاصراً على المشاريع التي اقترحها ولكوكس، بل اهتمت أيضاً بمشاريع أخرى

تعتمد على خبراتها المحلية وإمكاناتها الذاتية، ومن تلك المشاريع إرواء المنطقة المحيطة ببلدة أربيل من نهر الزاب الكبير (الأعلى) وإرواء المنطقة المحيطة ببلدة كركوك من نهر الزاب الصغير (الأسفل)، وقد تجول القنصل العام البريطاني في بغداد في تلك المنطقتين خلال شهر نيسان أبريل ١٩١٠، واجتمع في كركوك بحسني بك مهندس ولاية الموصل الذي كان يقوم بزيارة ميدانية لتفقد مشروع الإرواء هناك، ولاحظ القنصل أن ذلك المهندس ليس مختصاً بالري وتقتصر خبرته العملية على مشاركته في بناء سكة الحديد في بلاد الشام والحجاز، واهتم القنصل بتسجيل أخطاء ذلك المهندس مثل عدم العناية بقياس تدرج الأرض في إقليم الزاب الصغير، وعدم معرفة اتجاه مجرى ذلك النهر فجعله نحو الشمال الشرقي بدلاً من الجنوب الغربي، وأضاف القنصل أن مشاهداته الشخصية لإقليمي الزابين تجعله يشك في إمكانية تنفيذ مشروع نافع على أي من النهرين دون تكبد تكلفة باهظة جداً[١١٠]. وربما تعكس رغبة القنصل العام البريطاني في التشنيع على المهندس العثماني ميلاً دفينا في نفسه يرفض فكرة القيام بأي مشروع إروائي في العراق دون استعانة بالخبرة الهندسية البريطانية التي تمهد السبيل لإشراف بريطاني لاحق على ذلك المرفق الحيوي.

وقد عاد المهندس حسني بك إلى مقر عمله في ولاية الموصل في آيار – مايو ١٩١٠ وقدم تقريراً عن نتائج جولته الميدانية، اقترح فيه إرواء قسم من السهل المنبسط قرب بلدة كركوك بمياه نهر الزاب الصغير عن طريق حفر قناة قدر كلفتها بعشرين الف ليرة، واعتبر إرواء سهل أربيل من الزاب الكبير صعب التنفيذ وباهظ الكلفة، وعلق القنصل العام البريطاني على آراء حسني بك تلك بقوله إن من غير الحكمة بشكل جلي إعطاء أي وزن لها نظراً لما أورده عنه من معلومات سابقاً[١١١]. وقد أخذت الحكومة العثمانية بما جاء في تقرير حسني بك، فبدأ العمل سنة ١٩١١ في شق قناة تتفرع من نهر الزاب الصغير شمال شرق قرية التون كوبري ونسير باتجاه كركوك، وبعد عمل ثلاثة أشهر في حفر تلك القناة كانت النتيجة هي الفشل نظراً لطبيعة الأرض المتموجة ذات التلال في شمال بلدة كركوك، فهجرت تلك القناة وشقت قناة بديلة تتفرع من النهر المذكور جنوب شرق التون كوبري، وكان نحو مائتي رجل يعملون في حفر تلك القناة خلال شهر تشرين ثان – نوفمبر ١٩١١. وكان العمل يعاني من صعوبة توفير الأيدي العاملة فضلاً عن تهديد العمال الموجودين بالإضراب احتجاجاً على ضآلة أجورهم (٧ – ١٠ قروش لكل عامل يومياً)، ولاحظ نائب القنصل البريطاني في الموصل وهو يورد تلك المعلومات وجود مجرى قناة قديمة مندرسة تحاذي مسار القناة الجديدة لمدى معين دون أن يستفيد القائمون على

المشروع منها، ونقل النائب عن سكان منطقتي كركوك وأربيل شعورهم بأن أموالاً كثيرة ستنفق لتحقيق نتيجة هزيلة(١١٣).

وعاد نائب القنصل البريطاني في الموصل بعد حين لمتابعة ما كان يجري في منطقة كركوك، فكتب في كانون ثاني – يناير ١٩١٢ قائلاً إن مالاً كثيراً قد أنفق على المشروع لحينه دون إنجاز شيء بالمقابل(١١٣). ونقل في الشهر التالي عن صحيفة «النجاح» الموصلية تفاصيل فضيحة خطيرة تكشفت في مشروع ري كركوك، إذ تم إنفاق عشرة آلاف ليرة دون تحقيق أية نتيجة. وكان أحد «المهندسين» الذين أوكلت لهم مهمة العمل في المشروع أمياً لا يحسن القراءة والكتابة، ومؤهلة الوحيد أنه صهر رئيس المهندسين، وكان «مهندس» آخر صاحب حانوت في حلب، بينما كان «مهندس» ثالث شماسا في إحدى كنائس حي بيرا في أسطنبول. أما الكتبة العاملون في المشروع فكان كثير منهم لا يعرفون القراءة والكتابة، وقد قامت سلطات الولاية بعد تكشف هذه الفضيحة بطرد جميع العاملين في المشروع(١١٤).

وجرى التفكير في تلك الأونة أيضاً بمشاريع إروائية أخرى عديدة. فقد طلب والي بغداد أحمد جمال بك من شركة جون جاكسون التي كانت تنفذ مشروع سدة الهندية القيام بمسوحات قرب شهربان على الطريق الواصل بين بغداد وخانقين، فأرسلت الشركة في شباط – فبراير ١٩١٢ مهندسين لإنجاز المهمة، وكان ذلك الطلب مرتبطاً بما لمسه الوالي بنفسه خلال قيامه بجولة تفقدية للخالص من كارثة زراعية حلت بتلك الأنحاء من جراء إنهيار سدة كانت مقامة على نهر ديالى. فأسفر انهيارها عن حدوث جفاف عنيف(١١٥). كما قرر مجلس ولاية بغداد في اجتماعه المنعقد في الرابع عشر من تشرين أول – أكتوبر ١٩١٣ العمل على إعادة فتح قناة النهروان المندرسة الواقعة إلى الشمال الشرقي من بغداد، وهي أحد مشاريع ولكوكس المقترحة كما مر، وعلق نائب القنصل الأمريكي في بغداد على ذلك القرار بقوله إن إحياء تلك القناة يعود بفائدة عظيمة على القطر دون شك. ولكنه يتطلب إنفاق ملايين من الليرات لا تستطيع الحكومة العثمانية توفيرها، فهي تشكو من العوز المالي العام، وشكك نائب القنصل في إمكانية وجود أية نقابة أوروبية أو أمريكية مستعدة لاستثمار مبالغ ضخمة في العراق دون الحصول على ضمانة موثوقة بالمقابل، ومن الصعب على الحكومة العثمانية توفير مثل تلك الضمانة لأن إيراداتها المنتظمة كلها تقريباً مخصصة مسبقاً للضمانة الكيلومترية لسكة حديد بغداد أو لتغطية نفقات أخرى محددة سنوياً(١١٦).

واللافت للنظر أن الاهتمام بمشاريع الري تخطى السلطات الحكومية، وأصبح ميدانياً لمبادرات أهلية أيضاً، ولا شك في أن أحد أسباب هذه الظاهرة هو تحول الزراعة في العراق من تغطية الحاجات المحلية فقط إلى تلبية الطلب الأوروبي المتزايد على الحبوب العراقية(١١٧). مما أدى إلى حرص الملاكين على زيادة إنتاجهم من جهة، وتوفر فائض مالي لديهم يمكنهم إنفاقه على مشاريع إروائية خاصة بهم من جهة أخرى، ومن تلك المشاريع قيام بعض الملاك بحفر قناة تربط هور أبو نجم بالمجرى القديم لنهر الفرات قرب بلدة الديوانية، وبذلك أمكن ري مساحات من الأرض هناك عن طريق المضخات، إذ كانت هناك في نيسان – أبريل ١٩١٢ ست عشرة مضخة نفطية تقوم بعملية الري(١١٨). وفتحت قناة إروائية أخرى في منطقة الديوانية حيث جرى فيها الماء في السادس من حزيران – يونيو ١٩١٢، وسميت باسم «نهر الرشادي» تيمناً باسم السلطان محمد رشاد(١١٩). ومن دلائل اهتمام الأهالي بالري إقبالهم على استخدام مضخات الري الحديثة كما مر، فقد ذكر القنصل البريطاني العام في بغداد في مطلع سنة ١٩١٤ وجود حوالي ألف مضخة من ذلك النوع أغلبها من صنع بريطاني، وكانت تلك المضخات تؤمن ري مساحة مقدارها مائة وثلاثون ألف هكتار في حين كان ما يروى من تلك المساحة بالوسائل البدائية لا يزيد عن ثلاثة عشر ألف هكتار فقط، ونقل القنصل العام معلومة تفيد بأن ثلاثمائة مضخة حديثة كانت تستورد للعراق سنوياً(١٢٠). وقد لقي ذلك الاتجاه التطويري تشجيعاً من دائرة الزراعة في ولاية بغداد(١٢١).

وفي غضون ذلك كله ظل مستقبل الري والزراعة في العراق محل اهتمام القنصل العام البريطاني في العراق لارتباطه بمطامع دولته المضمرة هناك، فقد كتب في تموز – يوليو ١٩١٣ قائلاً إن موارد العراق موارد زراعية بصورة تكاد تكون تامة، وهي بوضعها في حينه لم تطور كلياً تقريباً مقارنة بأقطار أخرى مماثلة. وأن تطويرها عن طريق إقامة مشاريع الري هو الذي يتيح للعراق تبوأ مكانه بين الدول، ويجعله يضاهي مصر الدنيا في تعداد سكانه وفي مكانته، إن لم يتفوق عليها، وستهيمن الإدارة المستقبلية للري على عمليات الإنتاج، وإلى حد ما على توزيع الثروة، إذ ستكون مسئولة عن تخمين إيرادات الأراضي وكيفية توزيع مياه الري، وبذلك ستكون قبضتها قوية على الناس، فإذا ما بقي الري شأناً حكومياً ستقوى سلطة الحكومة المحلية العثمانية وترفد خزينتها. أما إذا انزلق لسيطرة شركة أو شركات أجنبية فربما يخلق حكومة داخل الحكومة، وتنخفض عندها عوائد الخزينة العثمانية لأدنى حد(١٢٢). وعاد القنصل العام إلى تناول الموضوع نفسه في

أيلول –سبتمبر ١٩١٣ فذكر انشغال أذهان الكثيرين بمستقبل التطوير الزراعي في العراق مع تخوف لدى البعض من خطورة نقل ملكية أراضي الدولة إلى آخرين. وتحدث عن تأسيس نقابة من بعض الموسرين في لندن للسيطرة على مشاريع الري وسكك الحديد والملاحة في العراق. وعلق على الأمر بقوله: «إن الحكومة العثمانية سترتكب برأيي خطأ إذا باعت أراضي الدولة على وضعها الراهن دون تطوير مما يجعلها لا تحقق عائداً مجزياً. وأنها ستفعل خيراً لو أبقت تلك الأرض بيديها ببعض الوقت إلى أن تطور بمساعدة خبراء أجانب في الري والتوطين على القنوات...[٢٣٥]. وأولئك الخبراء الأجانب يجب أن يكونوا بريطانيين حسبما صرح في تقاريره السابقة.

الخلاصة

أظهرت الصفحات السابقة تحلل الإدارة المركزية القوية في العراق منذ أواخر العصر العباسي مما أدى إلى انهيار منظومة الري التي أبدع قدماء العراقيين تصميمها وتشغيلها. وحين أطل القرن العشرين كانت مشكلة الري في أغلب أنهار العراق قد تفاقمت حتى غدت مساحات شاسعة من أخصب الأراضي مستنقعات (أهوارا) أو صحارى جرداء، وتزامن ذلك مع حاجة الخزينة العثمانية الخاوية إلى مزيد من الإيرادات لسد ما تعانيه من عجز من جانب، وازدياد الطلب الأوروبي على المنتجات الزراعية من جانب آخر. وكان بدء ذلك الاهتمام جهود مهندس الري البريطاني الشهير السير وليم ولكوكس التي لا يمكن فصلها كلياً عن مطامع بريطانية معروفة حينئذ في العراق، وصادفت مقترحات ولكوكس أذناً صاغية لدى الحكومة العثمانية، فأمرت بعد حين بالمباشرة بتنفيذ بعضها. بيد أن ذلك التنفيذ سار متعثراً بسبب الضائقة المالية التي كانت الدولة العثمانية تعانيها، كما قلل من فائدة ما نفذ من تلك المشاريع اجتزاء العمل في بعضها دون بعض، بينما كان الحل الجذري للمشكلة يستدعي تنفيذها معاً باعتبارها منظومة متكاملة. ومهما كانت نواقص مشاريع الري التي نفذت فأنها مثلت خطوة للأمام في واقع كان شديد التخلف. ولقد أدى تنفيذ تلك المشاريع إلى تنشيط المطامع الكبيرة في السيطرة على أراضي العراق ومياهه، وأبرزها المطامع البريطانية القديمة. وكشفت الورقة أيضاً أن الاهتمام بمشاريع الري في تلك الحقبة تخطى حدود الدوائر الرسمية حتى غدا نزوعاً عاماً لدى قطاع واسع من الملاك العراقيين الراغبين في زيادة إنتاجهم وعائداتهم المالية.

الهوامش

(١) Maxwell, Donald, A Dweller in Mesopotamia
http://www.gutenberg.org/Files/

(٢) لونغريغ، س. هـ. العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ حتى سنة ١٩٥٠. تعريب سليم التكريتي. بغداد، ١٩٨٨، ج١، ص١١٢.

(٣) لوريمر، ج. ج. دليل الخليج، القسم التاريخي. ترجمة ونشر ديوان أمير قطر، الدوحة، د.ت، ج٤، ص١٢٧١.

(٤) أحمد سوسة. تطور الري في العراق. بغداد، ١٩٤٦، ص ص ٧١ – ٧٩.

(٥) لوريمر، المصدر نفسه، ص١٢٧١.

(٦) European Expansion in the Nineteenth Century: Causes and General Phases of the Expansion Movement.
http://web.hunter.cuny.edu/history/

(٧) وليم ولكوكس، تقرير عن ري العراق ومقدمة عن مستقبل العراق. تعريب ونشر مديرية الري العامة، بغداد، ١٩٣٧، المقدمة. ويبدو أن خلاصات تقارير ولكوكس العديدة عن مشاريع الري المقترحة أدمجت لاحقاً في تقرير واحد منقح قدمه في نيسان – أبريل ١٩١١ ثم نشر في هذا الكتاب، يدل على ذلك التعديلات التي أدخلها على بعض الأرقام الواردة في تقاريره تلك، خاصة ما يتعلق منها بكلف المشاريع. وسأشير في الهوامش اللاحقة لمواطن التباين بين الأرقام الواردة في تقاريره وملينها الواردة في هذا الكتاب الذي سيذكر لاحقاً في الهوامش باسم «التقرير».

(٨) IOR, R/15/5/7, Turkish Arabia, Memo, for October 1908.

(٩) NARA, RG 84, File No. 8-161, Am. Vice Con, Bag. to the Sec. of St., Wash., dated 19/12/1913.

(١٠) NARA, RC 84, M.C. 16, Am. Con. Bag. to Mr. R. whitehouse, Mosul, dated 31/5/1910.

(١١) التقرير، المقدمة، وذكر خطأ بأنه وصل بغداد في كانون أول – ديسمبر ١٩١٧. انظر: لونغريغ، المرجع نفسه، ص٣١٢.

(١٢) NARA, RG 84, First report on Irrigation works in Mesopotamia by Sir William Willcocks (here after: First report).

(١٣) لونغريغ، س. هـ. أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث. ترجمة جعفر الخياط، بغداد، ط٢، ١٩٨٥، ص٣٧٤.

(١٤) NARA, RG 84, File NO. 861-1, Am. Vice Con, Bag. to the Sec. of St., Wash., dated 19/12/1913.

(١٥) لونغريغ، العراق، ج١، ص١١١.

(١٦) يقول في تقريره المنقح إن تصريف نهر الحلة انخفض سنة ١٩١٠ إلى مائة وخمسين متراً في الثانية فقط. انظر: التقرير، ص٢٥.

(١٧) First report، وقد قدر كلفة الهويس والزيادة في جسم السدة بخمسة وأربعين ألفاً وثلاثمائة ليرة. (التقرير، ص٢٧).

(١٨) ذكر في التقرير إن عدد الفتحات ستاً وثلاثين لا خمساً وثلاثين فتحة. (التقرير، ص٢٦).

(١٩) قدر في التقرير كلفة السدة الجديدة والهويس بمائة وثلاثة وخمسين ألفاً وثلاثمائة ليرة. (التقرير، ص٢٧).

(٢٠) الكلفة في التقرير هي ٩،٦١٠ ليرات (ص٢٧).

(٢١) الكلفة في التقرير ٥،٥٠٠ ليرة (ص٢٧).

(٢٢) First report .

(٢٣) في التقرير ٥٨,٠٠٠ ليرة (ص٢٧).

(٢٤) في التقرير ٣٣٤,٧٢٠ (ص٢٧).

(٢٥) First report .

(٢٦) في التقرير ٤٦ متراً فوق سطح البحر (ص٢٩).

(٢٧) تحسن مقارنة هذه الأرقام بما ورد في: سوسة . المرجع نفسه. ص٨١.

(٢٨) ذكر أن ولكوكس قدر مساحة منخفض ابو دبس عند منسوب ٢٥ متراً بما يقارب ألفا وماتتي كيلومتر مربع راجع: أحمد سوسة. وادي الفرات ومشروع بحيرة الحبانية. بغداد. ١٩٤٤. ص٧٦.

(٢٩) NARA, RG 84, RG84, Second report on irrigation in Mesopotamia by Sir W. Willcocks.

(٣٠) Ibid .

(٣١) سمى ولكوكس في تقريره القناة المقترحة (جدول أبو غريب). وقال إن سعة الفوجة ستكون بأربعين فتحة عرض كل واحدة منها خمسة أمتار. مع هويس طوله خمسون متراً وعرضه ثمانية أمتار. (ص٣٣)

(٣٢) تحسن مقارنتها بالكلفة الواردة في التقرير (ص٣٣، ٣٤).

(٣٣) NARA, RG 84, Third report on irrigation works in Mesopotamia by Sir W. Willcocks.

(٣٤) في التقرير ١,٣٧٨,٩٩٠ ليرة أو ١,٤٠٣,٤٢٠ ليرة حسب موقع السدة (ص ص٤٩ – ٥٠).

(٣٥) NARA, RG 84, Forth report on irrigation works in Mesopotamia by Sir W. Willcocks.

(٣٦) NARA, RG 84, Fifth report on irrigation works in Mesopotamia by sir W. Willcocks.

(٣٧) في التقرير سبعمائة متر مكعب خلال الفيضان وخمسون متراً مكعباً في الصيهود (ص٤٤).

(٣٨) ورد الاسم في التقرير السادس Atalanti وفي التقرير المعرب (العشرج) وهو الصحيح. (ص٤٤).

(٣٩) فصل في تقريره المعرب هذا المقترح. (ص ص ٤٦ – ٤٧).

(٤٠) في التقرير ١٨,٧٣٦ ليرة. (ص٤٧).

(٤١) في التقرير ١١,٤٧٦ ليرة (ص٤٧).

(٤٢) قدرها التقرير بستة آلاف وثلاث وثمانين ليرة. (ص٤٧).

(٤٣) NARA, RG 84, Sixth report on irrigation works in Mesopotamia by sir W. Willcocks.

(٤٤) في التقرير كلفة بناء القنوات ٥٠٠ ليرة وكلفة أعمال البناء ليرة واحدة. (ص٥٧).

(٤٥) في التقرير مائة ليرة. (ص٥٧).

(٤٦) NARA, RG 84, Seventh report on irrigation works in Mesopotamia by sir W. Willcocks.

(٤٧) NARA, RG 84, Eighth report on the Beled barrage on the Tigris, by Sir W. Willcocks.

(٤٨) ولكوكس . التقرير . ص ص ٦٠ – ٦٩.

(٤٩) NARA, RG 84, Works to be done in and about Bagdad by sir W. Willcocks.

(٥٠) Ibid

(٥١) NARA, RG 84, Annual trade report of the Bagdad Consular District- 1911, by Am. Con. Bag, dated 30/7/1912.

(٥٢) Ibid

(٥٣) NARA, RG 84, NO. 14, Am. Con., Bag, to Am. Amb., Const. dated 3/3/1910.

(٥٤) NARA, RG 84, Bids wanted in proposed irrigation dams near Bagdad by Am. Con. Bag, dated 27/10/1909.

(٥٥) IoR, L/P&S/10/212. Summary of events in Turkish Iraq during Nov.& Dec. 1913 and Jan. 1914.

(٥٦) NARA, RG 84, NO. 41, Am. Con, Bag, to Am. Con, Gen, Const, dated 16/4/1910.

(٥٧) IOR, L/P&S/10/188, Summary of events in Turkish Iraq during the months of April and May 1910.

(٥٨) خالد السعدون. أحداث في تاريخ الخليج العربي. الإسكندرية. ٢٠٠١. ص ص ٣٨٩ – ٣٩٢.

(٥٩) محمد فضيل الجابري. الحركة القومية العربية في العراق بين ١٩٠٨ – ١٩١٤. رسالة دكتورة مقدمة إلى كلية الآداب جامعة بغداد في ١٩٨٠.

(٦٠) NARA, RG 84, No, 78, Am. Con., Bag, to Am, Con, Gen., Detroit, dated 29/5/1910.

(٦١) IOR, L/P&S/10/188, Sum., April and May 1910.

(٦٢) IOR, L/P&S/10/188, Summary of events in Turkish Iraq during the Month of June 1910.

(٦٣) NARA, RG 84, No. 8 Am. Con., Bag., to Am. Amb., Const, dated 23/12/1909.

(٦٤) IOR, L/p&s/10/188, Summary of events in Turkish Iraq during the month of July 1910.

(٦٥) الجابري، المرجع نفسه . ص٤٧٢.

(٦٦) NARA, RG 84, No. 366 - 102, Am. Vice Con., Bag, to Am. Con. Gen. Const, dated 19/4/1911.

(٦٧) NARA, RG 84, File No. 861 - 1. "Report on irrigation works at Hindia" by Am. Con. Bag. dated 7/12/1912.

(٦٨) سوسة . تطور الري، ص٩٨.

(٦٩) سوسة . وادي الفرات ، ص٨٥.

(٧٠) NARA, RG 84, NO. 366 - 102, .. 19/4/1911.

(٧١) NARA, RG. 84, File No. 861 - 1, Am. Vice Con., Bag, to the Sec. of St., Wash, dated 19/12/1913.

(٧٢) IOR, L/P&S/10/212. Summary of events in Turkish Iraq for the month of Jan. 1912.

(٧٣) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish Iraq for the months of March and April 1912.

(٧٤) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish Iraq during July 1912.

(٧٥) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish Iraq for October 1912.

(٧٦) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish Iraq for November 1912.

(٧٧) NARA, RG, 84, File No. 861- 1.. 7/12/1912.

(٧٨) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish Iraq for December 1912.

(٧٩) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish Iraq for January 1913.

(٨٠) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish Iraq for the month of February 1913.

(٨١) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish IraQ for the munthe of March 1913.

(٨٢) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish IraQ for the munthe of April 1913.

(٨٣) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish IraQ during June 1913.

(٨٤) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish IraQ duing July 1913.

(٨٥) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish IraQ during September 1913.

(٨٦) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish IraQ during October 1913.

(٨٧) IOR, L/P&S/10/212, Sum., Nov & Dec. 1913 and Jan, 1914.

(٨٨) NARA, RG 84, File NO. 861 - 1, Technical details concerning the construction work at Hindia barrage, be Am. Vice Con., Bag., dated 7/5/1914

(٨٩) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish IraQ during February & March 1914.

(٩٠) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish Iraq during April 1914.

(٩١) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish Iraq for the month of Jan, 1914.

(٩٢) Ibid
(٩٣) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish Iraq for the Month of February 1912.
(٩٤) IOR, L/P&S/10/212. Sum., Mar. &Apr. 1912.
(٩٥) NARA. RG 84, File no. 861- 1,.. 7/12/1912.
(٩٦) NARA, RG 84, File No, 861- 1... 19/12/1913.
(٩٧) IOR, L/P&S/10/212, Sum., Apr, 1913.
(٩٨) لونغريغ، العراق، ج١، ص١١٣.
(٩٩)
(١٠٠) IOR, L/P&S/10/212, Sum., July 1912.
(١٠١) IOR, L/P&S/10/212, Sum., July 1912.
(١٠٢) NARA, RG84, Annual trade report of the Baghdad consular district -, by Am. con, bag.
(١٠٣) IOR, L/P&S/10/212, Sum., Apr.1913.
(١٠٤) NARA, RG 84, Construction work initiated during the quarter ended March 31,1913 by Am, Con, Bag, dated 21.4.1913.
NARA, RG 84. Construction work initiated during the quater ended September 30.1913S, by Am, Con, Bag, dated 10.10.1913.
(١٠٥) IOR, L/P&S/10/212, Sum., oct. & Apr. 1913.
(١٠٦) IOR, L/P&S/10/212. Sum., Nov. & Dec. 1913 and Jan.1914.
(١٠٧) IOR, L/P&S/10/212. Sum., Feb. & Mar. 1914.
(١٠٨) NARA, RG84, File No. 861-1, Am, Vice Con, Bag, to the sec. of S t., wash., dated 30/3/1914.
(١٠٩) سوسة، تطور الري، ص ص ٨٥–٨٦.
(١١٠)
(١١١) IOR, L/P&S/10/188. Sum.., Apr. & may- 1910.
(١١٢) IOR, L/P&S/10/188. Sum., June. 1910.
(١١٣) IOR. L/P&S/10/212. Sommary of events in Turkish Iraq for the month of November 1911.
(١١٤) IOR, L/P and S/10/212, Sum., Jan. 1912.
(١١٥) IOR, L/P&S/10/212. Sum., Feb. 1912.
(١١٦) Ibid
(١١٧) NARA, RG 84, File No. 800, Am. Vice Con, Bag., to Am. Amb., Const., Dated 12/11/1913.
(١١٨) خالد السعدون، ملامح الاقتصاد العراقي في العهد العثماني الأخير ١٩٠٥– ١٩١٤، الشارقة، ٢٠٠٤، ص١٥.
(١١٩) IOR, L/P&S/10/221 Sum., Mar. & Apr. 1912.
(١٢٠) لغة العرب، العدد ١، تموز ١٩١٢، ص٣٨.
(١٢١) IOR, L/P&S/10/212. Sum., Nov. & Dec. 1913 and Jan, 1914.
(١٢٢) لغة العرب، العدد ٦، كانون الأول ١٩١٣، ص ٢٦٣.
(١٢٣) OR, L/P&S/10/212. Sum., July. 1913
IOR, L/P&S/10/212. Sum., Sep. 1913.

المصادر والمراجع

وثائق غير منشورة

- India Office Records (IOR), London:
File Nos. R/15/5/7. L/P&S/10/188 and L/P&S/10/212.
- National Archives and Records Administration (NARA), Washington. RG84.

المصادر المعاصرة:

– لوريمر، ج. ج، دليل الخليج، القسم التاريخي، تعريب ونشر ديوان أمير قطر، الدوحة، د.ت، ج٤.
– ولكوكس، وليم، تقرير عن ري العراق ومقدمة عن مستقبل العراق، تعريب ونشر مديرية الري العامة، بغداد ١٩٣٧.

المراجع العامة:

– الجابري، محمد هليل، الحركة القومية العربية في العراق بين ١٩٠٨ – ١٩١٤، رسالة دكتوراه قدمت إلى كلية الآداب – جامعة بغداد سنة ١٩٨٠.
– السعدون، خالد، أبحاث في تاريخ الخليج العربي، الإسكندرية، ٢٠٠٩.
ملامح الاقتصاد العراقي في العهد العثماني الأخير ١٩٠٥ – ١٩١٤، الشارقة ٢٠٠٤.
– سوسة، أحمد، تطوير الري في العراق، بغداد ١٩٤٦.
وادي الفرات ومشروع بحيرة الحبانية، بغداد ١٩٤٤.
– لونغريغ، س. هـ، العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ حتى سنة ١٩٥٠، ترجمة سليم الشكرجي، بغداد، ١٩٨٨، ج١.
أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، بغداد، ١٩٨٥، ط٢.

الدوريات المعاصرة:

لغة العرب، العدد ١، تموز ١٩١٢، والعدد ٦، كانون الأول ١٩١٣.

مواقع على الانترنت:

Maxwell, Donald, A Dweller in Mesopotamia
- http: www.Gutenberg, org/Files?
- European Expansion in the Nineteenth Century.
- http/ web. mala. bc ca/ davies/.

أ. د. إبراهيم بن محمد الحمد المزيني(*)

الطوائف العمالية وتطور وظائفها في المجتمعات الإسلامية

- تنظيمات العمّال: قراءة في المفهوم:

اهتم المسلمون بالتنظيمات العماليّة الملبية لاحتياجات المجتمعات الإسلاميّة، والهادفة إلى تحقيق التوازن المثالي في الحقوق والواجبات بين أطراف العمل الثلاثة، مما مكّن العامل من التمتع بمكانة مرموقة في المجتمع الإسلامي لم تشهد المجتمعات الأخرى لها مثيلاً.

ونتيجة للتطور الاقتصادي والتنظيمي في كثير من المجتمعات الإسلاميّة، فقد عُرف عن أصحاب الحرف والصناعات أنهم كانوا يعيشون داخل المجتمع الإسلامي ضمن تكتلات مهنية يمكن أن يُطلق عليها: «تصنيفات عمالية أو طوائف عمّالية»، وهو ما يقابل اصطلاح «النقابات العمّاليّة» في العُرف الحديث رغم اختلافها بعض الشيء عن التنظيم الحديث لهذه النقابات.

وكان مصطلح: «التصنيف» هو الغالب في الإطلاق على هذا التنظيم في الحضارة الإسلاميّة. وكان قد ورد مفهوم هذا المصطلح في المعاجم اللغوية على النحو الآتي:

عند الرازي ورد الصنف بمعنى: النوع، وتصنيف الشيء، أي: جعله أصنافاً وتمييز بعضه عن بعض(١).

وعند ابن منظور جاءت كلمة «صنف» بمعنى النوع، والضرب من الشيء، والجمع أصناف، وصنوف، والتصنيف: تمييز الأشياء بعضها عن بعض. وقيل الصنف: طائفة من كلّ شيء، وكل ضرب من الأشياء صنفٌ على حدَة(٢).

وفي تاريخ العروس للزبيدي أتى الصنف بمعنى «الطائفة من كل شيء، وكل ضرب من الأشياء صنف على حدَة، وصنّفه تصنيفاً: جعله أصنافاً، وميّز بعضه عن بعض»(٣).

(*) أستاذ التاريخ والحضارة - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض

ويخلص أحد الباحثين المحدثين بعد عرض هذه التعريفات إلى أنّ كلمة «صنف» استخدمت للدلالة على الجماعة الحرفيّة والمهنية في المجتمع الإسلامي في كثير من العصور التاريخية. كما يشار للجماعات الحرفية «بأصحاب المهن»، «وأصحاب الحرف»، و«أرباب المهن والحرف». وأنّ هناك مصطلحات أخرى استخدمت في بعض البلدان مثل كلمة «كار» وهي كلمة فارسية تعني الشغل أو العمل أو الحرفة. وفي بلاد المغرب استخدم مصطلح «حنطة» للتعبير عن أهل الحرف والمهن. وتعني الحرفة أو الصفة. ويستخدمون كذلك لفظة «أهل الصنائع» للدلالة على أرباب الحرف والمهن المختلفة(٤).

نشأة الطوائف العمّالية وتطور وظائفها في المجتمعات الإسلاميّة:

اختلف الباحثون في نشأة الطوائف والأصناف وتطورها في المجتمعات الإسلاميّة بين من يرى أنها قريبة الشبه بنقابات الحرف التي كانت سائدة في العصر البيزنطي، وبين من ينفي وجود أدنى صلة بين ما وجد في التنظيم الإسلامي وما كان سائداً لدى البيزنطيين في كثير من المناطق التي كانت خاضعة لهم قبل الفتوحات الإسلاميّة. إضافة إلى أنّ بعض الباحثين ينفي وجود أي إشارة لنشأة النقابات العمّاليّة في العالم الإسلامي قبل القرن الثالث أو الرابع الهجريين، إلاّ أنّ الثابت وثائقياً أنّ انتظام سائر الحرف والصناعات في شكل نقابات كان معروفاً في كثير من المناطق التي خضعت للحكم الإسلامي وبالتحديد في مصر منذ العصر الروماني والبيزنطي، وكان الغرض الأساسي من هذا التنظيم هو ضمان جمع الضرائب وتقرير الالتزامات المالية الأخرى، وأن المسلمين قد ورثوا هذا التنظيم من بين تلك التنظيمات والتقاليد البيزنطيّة التي أبقوا عليها بعد الفتح الإسلامي لمصر، حيث كان ذكر النقابات شائعاً في مصر إبان الفتح الإسلامي. فقد ورد ذكر النقابات في برديات (إكسير نخوس) (البهنسا) حيث ذكرت نقابة الصبّاغ، وقائمة بأنواع الحلى مرفوعة إلى مسئول السوق، ولم يطرأ على هذا التنظيم أي تغيير يذكر سوى شيوع استخدام الطوائف والأصناف واختفاء مصطلح النقابات في كثير من العصور الإسلاميّة. فأصبح أهل الحرف في المدن الإسلاميّة يشار إليهم بالأصناف، وأصحاب المهن وأهل الصنائع بالطوائف حيث قويت الرابطة بينهم، وصار كلّ يشعر بالارتباط الوثيق بزملائه من أهل حرفته، وصار من أقوالهم المأثورة «الصناعة نسب»(٥).

وقد ظهرت تلك الأصناف - بصورة أكثر وضوحاً - إثر النمو الحضاري في كثير من المدن الإسلاميّة في العصر العباسي منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وذلك في عدد من المدن الرئيسية في العراق والشام ومصر. وبعض ولايات المشرق الإسلامي وبلاد الأندلس(٦).

وهذا التنظيم العمالي جاء محاولة من أهل الحرف والمهن الصناعية لمجاراة التطور الاقتصادي والتنظيمي الذي كانت تعيشه الدولة الإسلاميّة ومحاولة لتحسين أوضاعهم المعيشية والتنظيمية وفقاً لهذا التطور. وقد مثلت تلك الأصناف ملامح اجتماعيّة جديدة في المجتمع الإسلامي كان لها أثرها الواضح في بناء هذه المجتمعات ورقيها(٧). كما أنّ ابن خلدون قد ربط بين قيام المدن وازدهار الحياة فيها ونمو العمران بها، وبين الطلب المتزايد على أرباب الحرف وتقدم الصنائع وازدهارها(٨)

إلا أنّ حسين مؤنس يشير إلى أنّ التجمعات المهنية التي انتشرت في العالم الإسلامي في بعض عصوره، لم تكن تنظيمات عمالية بالمعنى المعروف في العصر الحديث (نقابات)، وإنما كانت عبارة عن إطارات وتنظيمات مهنية اجتماعيّة تجمع طوائف من الناس لهم مصالح مشتركة، وأنها لم تكن مقصورة على العمّال، وإنما كانت توجد أيضاً لدى كثير من التجمعات ذات الروابط المشتركة، وأنها تمثل بداخلها أسرة واحدة تربط بين أفرادها بروابط تتعدى رابطة المهنة والمصلحة المشتركة(٩).

ومع تسليم الباحث بما أشار إليه (مؤنس) حول تلك التجمعات العمّالية إلا أنه يكفي حسب إشارته أن تكون تلك التنظيمات بمثابة الأسرة الواحدة المترابطة بين أفرادها بروابط وثيقة. وفوق ذلك فهي روابط تتعدى روابط المهنة، والمصالح المشتركة - كما أشار مؤنس - بمعنى أنها كانت تتابع أحوال أصحاب المهنة وأبنائهم حتى في حياتهم الخاصة داخل المجتمع. وهذا وحده كاف لتشبيه تلك التنظيمات بما يشتهر حديثاً باسم (النقابات العمّاليّة). وليس بالضرورة أن تتطابق مهمات تلك التنظيمات مع ما تقوم به التنظيمات الحديثة من مهمات. وذلك لاختلاف مصادر التشريع بينهما تلك المصادر المحركة لطبيعة العلاقات العمّالية بين الإسلام وغيره من النظم الحديثة.

وكان من ضمن الاختلاف بين التنظيم العمّالي في الإسلام والتنظيمات المعاصرة قضية مراقبة أصحاب الحرف، وأسلوب معالجة الخلافات التي بين العمّال فيما بينهم من ناحية، وبينهم وبين أصحاب المهن الأخرى من ناحية ثانية، وهي نزاعات تتولى تسويتها النقابات المتخصصة في التنظيم المعاصر، على حين كانت تلك المهمّة يتولاها المحتسب في كثير من العصور الإسلاميّة، فهو المعنى بمراقبة الحرف ومتابعة أصحابها، ومستوى كلّ حرفة، وكان شيخ الحرفة يتولى مهمّة تسوية أي خلاف ينشأ بين المنتسبين لحرفته، أو تلك التي ربما تنشأ بين مستفيد وصاحب عمل، وقد يصل الأمر إلى التقاء بين شيوخ أكثر من مهنة لتسوية خلافات مشتركة بينهم.

ويمكن أن يكون وضوح العلاقة بين العمّال وأصحاب الأعمال، وتحديد حقوق كلّ منهما على الآخر في التنظيم الإسلامي، ومن ثم قيام صاحب العمل بواجبه تجاه العامل، وتأدية العامل عمله بإتقان وإخلاص وفق أحكام وآداب غرسها ديننا الحنيف في نفس كل واحد من الطرفين، والتزام كل منهما بما عليه من واجبات وحقوق، يمكن أن يكون ذلك سبباً في الحدّ من وجود ما يسمى بالمشكلات العماليّة التي تعيشها كثير من التنظيمات البشرية، وتعاني منها أيما معاناة مما فوت الحاجة إلى وجود دور من أدوار التنظيمات النقابية التي وجدت في العصور الحديثة.

ووفق ذلك يتقررُ أنّ تصنيف العمّال وفق اختصاصاتهم، ومهنهم – كما سبقت الإشارة إليه – ما هو إلا وجه من أوجه التنظيم النقابي في المجتمعات الإسلاميّة، بل على العكس قد يتوافر لتنظيمات العمل في الإسلام مساحات من الحرية، والصلاحيّة تنعدم عند كثير من التنظيمات الحديثة.

ويمكن طرق جوانب هذا التنظيم وتطور تنظيماته وفق النقاط الآتية:

أولاً: تنظيم الطائفة ومهماتها:

انتشر هذا التنظيم في كثير من البلاد الإسلامية، فكان لكل حرفة أو صنعة طائفة ترعى مصالحها برئاسة شيخ هذه الصنعة الذي كان يتم انتخابه – في الغالب – من بين أفراد الطائفة، وذلك لتنظيم الأمور المتعلقة بالحرفة، ورعاية مصالح أفرادها، والمحافظة على أسرار الحرفة، وتحديد الأجور، والمحافظة على مستوى جودة الصنعة التي يقوم بها هؤلاء، كما أنه يمكن عن طريق هذا التصنيف معالجة المشكلات المتعلقة بالمهنة سواء بين العمّال وأصحاب العمل أو بين أصحاب المهنة وأصحاب مهنة أخرى ترتبط المصالح معهم[١٠].

كما أنه كان لكل طائفة تنظيمات خاصة بها، وظيفتها المحافظة على مصالح العاملين في الحرفة نفسها، وتحديد مستوى العمل فيها، وإلزام الراغبين في الدخول فيها بمنهج معين من الدراسة والتمرين والصنعة.

وكان من تقاليد طوائف الحرف والصنّاع الحفاظ على الأسرار الفنية الدقيقة للصنعة التي اكتسبوها بطول مران وممارسة. حيث كانت كلّ حرفة حكراً على أفرادها وأسرهم، وكانوا لا يطلعون أحداً على أسرارها حتى لا يداخلهم من تُخشى مشاركته لهم في هذه الحرفة، ولعلّ هذا ما يُفسر ما شاع من تخصص بعض الأسر في حرفة واحدة يتوارثها الأبناء عن الآباء[١١].

وكان لكل صنف تعليمات مكتوبة – أشبه ما تكون بتنظيمات العمل والعمال في أيامنا هذه – وهذه التعليمات تنظم علاقات العمل سواء العمّال مع

صاحب العمل أو حقوقهم وواجباتهم أو غيرها من الأمور ذات علاقة بذلك. وكان لكل حرفة أو صنعة شعارات ومراسم يتمسك بها أفراد المهنة وهو تنظيم خاص بالصنف[١٢].

وتناسب الإشارة هنا إلى أنّ توقيعات الصنّاع على التحف المعدنية المنتشرة في كثير من المتاحف، أو المقتنيات الخاصّة تكشف لنا كثيراً من الترتيبات المهنية والعلاقات الوظيفيّة التي تربط بين أهل الحرفة الواحدة. فطالما نقش الصانع أنه تلمذ وتدرّب على الصانع فلان، ويذكر الآخر أنه غلام للصانع فلان. كما تكشف تلك التوقيعات على علاقة الأجرة التي يتقاضاها صانع صغير أو متدرب لقاء عمله عند أحد الصنّاع المشهورين، فنراه يسجل اسمه إلى جانب اسم معلمه، وينعته باسم: أجير الصانع الكبير[١٣].

إضافة إلى أنّ تلك التوقيعات تكشف لنا تفوق بعض الصنّاع في صناعة معينة في بلادهم، وارتحالهم إلى مدن أخرى ليستقروا بها، ومن ثم لتأثيرهم في صناعات تلك المدن بما جلبوه من بلادهم من خبرات، وبين الخبرات الجديدة والتقاليد الصناعية المحلية للمدن التي حلوا بها – ظهر جيل من الصنّاع الذين أثبتوا قدرات فائقة في مختلف الصناعات[١٤]. هي بذلك تعد مصادر مهمّة في تتبع تطور كثير من التنظيمات الحرفيّة، وعلاقاتها المهنية في كثير من العصور الإسلاميّة.

ومما تناسب الإشارة إليه هنا أن نظام الطوائف الحرفيّة، واتباع تقاليدها كان من أبرز العوامل التي أدت إلى المحافظة على مستوى الحرف والصناعات، فقد كانت تلك الطوائف بمثابة مدارس فنية تعمل على تأهيل الراغبين في امتهان أي حرفة ليصبحوا صنّاعاً يقومون بدورهم المناسب في بناء مجتمعاتهم.

ثانياً: التدرج المهني للطوائف:

كان التدرج في الحرفة الواحدة سمة من سمات التنظيم العمّالي في كثير من المجتمعات الإسلاميّة، فكان لكل صانع أستاذ يتعلم منه صنعته، وكان السلم الحرفي لدى الصنّاع يبدأ بالتدرج من المبتدئ الذي يتعلم الصنعة ابتداء، ثم يأتي بعده الخليفة الذي تكون مرتبته دون مرتبة الأستاذ، وفوق هؤلاء جميعاً يأتي رئيس الصنعة أو «شيخ الصنف»[١٥].

فمثلاً لابد أن يقضي الغلام عدداً من السنين (صبياً) قد يكون دون أجر في بعض الأحيان، بل كان يظلّ طوال هذه المدة خادماً لمعلم قبل أن ينتقل إلى المرتبة التالية التي بموجبها يصبح شغالاً بأجر زهيد، وكان كثيرٌ من الصبيان

يؤجرون أحياناً بطعامهم وشرابهم في مقابل تعلمهم الصنعة. وتوجد بعض العقود المسجلة على هذه الهيئة في بعض العصور الإسلامية[١٦]. ولا يصل الصبي إلى رتبة (معلم) والتي بموجبها يحق له أن يفتح دكاناً ويبدأ باستقبال الأعمال إلا بعد أن يقضي في حرفته اثنتي عشرة، وخمس عشرة سنة[١٧].

أما عن تقليد ترقية الصبي إلى مرتبة الصانع في الطائفة الحرفية، فإنه كان إذا تمّ تدريبه، فإن معلمه كان يُخبر شيخ الطائفة بذلك، فيكلف الشيخ النقيب بدعوة أرباب الحرفة للمشاركة في حفل ترفيته، ويبدأ الاحتفال - الذي يحضره شيخ الطائفة والنقباء، وكبار رجال الحرفة - بتقدم الصبي وبجانبه معلمه إلى الشيخ فيحييه، ثمّ يقرأ الفاتحة، فيتلو الشيخ وجميع الحاضرين الفاتحة أيضاً، وبعدها يسأل الشيخ المعلم والصبي سؤالاً تقليدياً عن سبب مجيئهما، فيجيب المعلم بأن الصبي الذي جاء بصحبته قد أتمّ الصنعة بما فيه الكفاية، ويريد أن يفتح لنفسه دكاناً يمارس فيه المهنة التي تعلمها، فعندئذ يقوم الشيخ باختباره، فإن اطمأنّ إلى إجادته الصنعة، فإنه يقترب إلى الشاب ويشدّ حول وسطه بحزام أو بشال، وبنتهي الاحتفال بتعريف المحتفل به بواجباته الجديدة، ويؤخذ عليه العهد والميثاق بأن يتبعها ولا يخرج عنها، وأن يخلص في عمله، ثمّ يأخذ مكانه بين زملائه على بساط الكريم لتناول وليمة أعدت لذلك[١٨].

وكانت مشيخة المهنة أو رئاسة الصنف مسئولة عن مستوى المهنة، فكان شيخ المهنة يعمل ممثلاً لها في جميع شئونها كما أنه يعد حكماً في الخلافات بين أعضاء الصنف، غير أن الخلافات التي تنشأ بين أهل صنعتين يكون مردّه في الغالب إلى القضاة.

كما أنّ العميل يستطيع أن يتقدم إلى شيخ المهنة بالشكوى في حال محاولة العامل خداعه، أو عدم قيامه بعمله على الوجه المتفق عليه، وعرفت بذلك التصنيفات كيف تحافظ على مستوى الصنعة، وتقاليدها، أما المعلم، فهو في رتبة تلي رتبة شيخ الصنعة في بعض العصور الإسلامية، وربما صار هو رئيس الصنعة في عصور أخرى. فقد كان هذا يُشرف على العاملين في الصنعة، ويحدد لهم أصولها وقواعدها وأخلاقياتها وفق تنظيم دقيق يحقق المصالح العامة[١٩].

وكان المعلمون أو الأساتذة هم الذين يحددون مستوى الصنعة وأجورها المناسبة في حال الخلاف، إضافة إلى أن العلاقات العمالية - بهذه الصورة - كان لها جانبها الاجتماعي، فالمعلم له مقام الوالد على صبيانه ومن يعملون تحت إمرته، وهو يشترك في تزويجهم، ويتوسط في خلافاتهم العائلية، وفي الغالب يكون زواج أهل الحرفة الواحدة فيما بينهم[٢٠].

وكان يلي هذا الشيخ والأساتذة المعلمين في أي صنعة، الصناع والصبيان في تدرج مهني دقيق، ويمكن لأي منهم الترقي إلى مرتبة أعلى في صنعته وفق التقليد الخاص بذلك، وغالباً ما تكون ضوابط ذلك مسجلة في التعليمات الخاصة بالمهنة[٢١].

وكانت أبرز الألقاب الحرفية المستخدمة في مختلف العصور الإسلامية ما يأتي:

الشيخ: وكان يُطلق هذا اللقب على رؤساء طوائف الحرف والصناعات، ذلك أنه جرت العادة أن يُعين على كلّ حرفة أو مهنة رئيس بهذا اللقب، وقد يُطلق عليه «عريف»، ويشترط فيه أن يكون أكثر أفراد الطائفة خبرة بالصناعات، وأكفأهم في سياسة أمور الحرفة، وكان هذا الشيخ، أو العريف يهيمن على أصحاب هذه الحرفة، وهو الذي كان يجيز للصانع مزاولة صناعته بعد اختباره، وكان يتخذ له معاونين، وكان يساعد المحتسب في رقابة الصناع ويرشده إلى أساليب غشهم، وهكذا وجد لكل حرفة أو صناعة شيخ، مثل: شيخ النجارين، وشيخ الدباغين، وغيرهم[٢٢].

الأستاذ: وهي لفظة معرّبة عن كلمة أستاذ الفارسية، التي تعني السيد أو المشهور بعمله، وقد استعملت في العربية بمعنى الماهر، وهو المعنى نفسه تقريباً. وقد استعمل هذا اللقب في الدولة الإسلامية بدلالات وظيفية مختلفة كان أبرزها إطلاقه على من يتقن مهنته، ويبلغ بها درجة رفيعة، وبخاصة المهرة من ذوي الحرف والصناعات على اختلافها. وقد حُرّف هذا اللقب في بعض العصور الإسلامية إلى كلمة (أسطى)، وهو لقب ربما شاع استخدامه على المهرة من البنائين، والدهانين الرسامين وغيرهم، وكانت أول إشارة للقب أسطى قد وردت في كتابة أثرية على شاهد رخام من مصر بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة باسم سلامة الأسطه، مؤرخه في محرم سنة ٢٠٧هـ (مايو - يونيو ٨٢٣م)[٢٣].

المعلم: وقد أطلق هذا اللقب على الصانع الماهر الذي يُعتقد أنه يتمتع بشيء من الإشراف على غيره من الصنّاع، أو كان له فضل تعليم غيره من أبناء حرفته، وقد ورد هذا اللقب بهذه الدلالة على كثير من التحف والآثار ملحقة بأسماء صنّاعها من بنائين، ونجارين، وصنّاع معادن[٢٤]. وأكد ابن خلدون في مقدمته على ضرورة توافر المعلم لمختلف الصنائع، وأنه على قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته[٢٥].

التلميذ: وهي كلمة معربة عن السريانية، وتُطلق على المتعلم على يد أستاذ، وربما أطلقت على الموظف الذي لا يزال يتدرب، وهي هنا تطلق على الصانع الذي ينتسب لأستاذ في صنعته، كما ورد في بعض النقوش على التحف

المعدنية. من ذلك كتابة بتاريخ سنة ٥٥٤هـ (١١٥٩م) على لوح صغير من النحاس باسم الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى جاء فيه: «صنعة أبى الفرج عيسى تلميذ القاسم بن هبة الله الإصطرلابى»[٢٦].

الغلام، والغلام فى أصل اللغة: «هو الصبى الصغير، ويجمع على غلمان وغلمة. ثم صار يُطلق على المملوك الصغير السن أو الذى لم يتجاوز مرحلة الشباب. ويرد ذكر هذا اللفظ كثيراً فى توقيعات بعض الصنّاع. وهو هنا يدل على أنّ الصانع المذكور تعلّم الصنعة على يد صانع آخر، ومن ثم يشعر كأنه مملوكه، وربما كان هذا الصانع مملوكاً فعلاً للصانع الكبير، ومن هذه التوقيعات توقيع نصه: «عمل قاسم بن على غلام إبراهيم بن موالبا الموصلى»، ورد ضمن كتابة ترجع إلى سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٧م) سجلت على إبريق برنز من العراق باسم أمير دوادار الملكى العزيزى[٢٧].

ثالثاً: الإشراف على طوائف الحرف، ومتابعة أحوالها:

يشار هنا إلى أن الحرف والصناعات كانت تخضع لإشراف الدولة، وإلى رقابة صارمة من خلال المحتسب الذى كان يتولى تعيين عريف على كل طائفة من الصنّاع لمتابعة أحوال الحرفة، والوقوف على مواطن الغش والتدليس الذى يلجأ إليه أحياناً أصحاب الحرف. وقد أفرد الشيزرى فصلاً فى ذلك جاء فى مبدئه: «ولما لم تدخل الإحاطة بأفعال السوقة تحت وسع المحتسب جاز له أن يجعل لأهل كلّ صنعة عريفاً من صالح أهلها، خبيراً بصناعتهم، بصيراً بغشوشهم، وتدليساتهم، مشهوراً بالثقة والأمانة، يكون مشرفاً على أحوالهم، ويطالعه بأخبارهم، وما يُجلب إلى سوقهم من السلع والبضائع، وما تستقر عليه من الأسعار، وغير ذلك من الأسباب التى يلزم المحتسب معرفتها، فقد رُوى أنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال: «استعينوا على كلّ صنعة بصالح أهلها»[٢٨].

وقد جاء فى الأحكام السلطانيّة لأبى يعلى الفراء مما يأخذه ولاة الحسبة بمراعاته من أهل الصنائع بالأسواق: «منهم من يراعى عمله فى الوفاء والتقصير، ومنهم من يراعى حاله فى الأمانات والخيانة، ومنهم من يراعى عمله فى الجودة والرداءة»[٢٩].

كما أنّ المحتسب كان مسئولاً عن تنظيم العلاقة بين صاحب العمل وعمّاله وحل الخلافات التى قد تنشأ بينهما. ولا شكّ أنه كان لتلك الوظيفة أثرٌ بعيدٌ فى ارتقاء الصناعات الإسلاميّة ونضجها، إذ كان يرسم للصانع طريقة العمل بإرشاد شيوخ الصنعة. كما أنه كان دائم التذكير له بأهم المبادئ التى يجب أن يراعيها فى عمله. وبخاصّة ما يتعلق بضرورة إتقان العمل والإخلاص فيه.

ومما يشار إليه هنا أنّ كتب الحسبة قد حفلت بالعديد من الشروط والواجبات التى كان على المحتسب وأعوانه من عرفاء السوق وأمناء الصناعات اتباعها فى تأدية عملهم. وأنه لا يقف دورهم عند حد المراقبة، بل إنه كان من ضمن صلاحياتهم فضّ النزاعات التى قد تنشأ أحياناً بين الصانع والعميل، وتشير كتب الحسبة إلى مختلف المواصفات والمقاييس التى يجب أن يلتزم بها مختلف أصحاب الحرف، وأنفع المواد المستخدمة فى صناعاتهم، وربما تشير أحياناً إلى أدق التفصيلات المتصلة بحرفهم.

رابعاً: التجمعات الحرفيّة داخل المدن:

ومما له صلة بهذا التصنيف أنه كانت تقام لأرباب الحرف والصناعات تجمعات كبيرة داخل المدن الإسلاميّة، وأسواق متخصصة يقصدها الناس على اختلاف طبقاتهم لشراء احتياجاتهم ومستلزماتهم، فكان يُخصّص لكلّ حرفة سوقٌ أو مجموعة من الحوانيت ضمن إطار السوق الكبير. وقد لفت هذا التصنيف أنظار بعض الرّحالة الذين جالوا المدن الإسلاميّة. فقد سجل الرحالة الفارسى «ناصر خسرو» هذه الرؤية فى زيارته لمصر سنة ٤٣٩هـ (١٠٤٧م)، وذكر أنه شاهد فى مدينة الفسطاط خاناً يُسمى «دار الوزير» لا يباع فيه سوى القصب، وفى الدور الأسفل منه يجلس الخياطون، وفى الأعلى الرفاؤون، ويضيف أنه أحصى فى هذه المدينة مئتى بناء تؤدى الغرض نفسه بالحجم نفسه أو أكبر منه[٣٠].

كما تحدث أيضاً عن «سوق القناديل» الواقع على الجانب الشمالى من جامع عمرو بن العاص، وذكر أنه لأى: عرف سوق مثله فى أى بلد، وأنّ فيه كل ما فى العالم من طرائف، وأنه يحوى طوائف المعلمين المهرة فى صناعة أنواع البلور الراقى، والتحف العاجيّة من أنياب الفيل، والإسكافية الذين يصنعون النعال الراقية من جلد البقر المستورد من الحبشة. كما وصف صناعة الفخار الفاخر، والأقداح والقوارير الملونة وغيرها من الصناعات النادرة[٣١].

وكان هؤلاء المهنيّون والصنّاع يؤلفون فئة نشطة فى المجتمع الإسلامى وينتمون إلى أجناس وطوائف متعددة، وهم ينقسمون بدورهم إلى تخصصات حرفية منوعة تعجّ بها الأسواق فى المدن الإسلاميّة، حيث يشاهد فيها صانعو القوارير الزجاجية، والأوانى الفخارية والخزفية، وصانعو المعادن من حدادين وصياقلة وصفارين بالإضافة إلى الطباخين - صانعى الصوانى - وكذا من الصاغة، والحاكة والخياطين، والقطانيين، والصباغين، وصانعى الدروع، والأساكفة، والخراطين، والدباغين، وغيرهم ممن تقسّموا وفق هذا التخصص الدقيق الذى نجده أحياناً بين أصحاب الحرفة الواحدة، فقد عرف

كثير من التخصصات التى كانت تضمها الحرفة الواحدة. فمثلاً فى المشغولات المعدنية يمكن التعرف على عديد من التخصصات الفرعية الدقيقة التى تضمها هذه الحرفة من صرّاب ونقّاش، وصفّار، ونحّاس، وموازينى، ومكفف، ومطعم، وحداد ثقيل، وحداد خفيف[٣٢].

وكان من الأمور التى أصبحت مألوفة لدى أصحاب المهن والصنائع، انتشار الانتساب إلى المهنة، إلى جانب الانتساب إلى المدينة أو القبيلة. ومن أمثلة ذلك بين المشهورين: الزيّات، والسمّان، والخيّاط، والبزّاز، والحنّاط، والصوّاف، والصائغ، والبناء، والورّاق[٣٣].

ومن خلال التجمعات التجاريّة والأسواق المخصصة لكل حرفة فى تخطيط كثير من المدن الإسلاميّة يتأكد لنا وجود التخصص الحرفى والمهنى فى واقع العمل، والصناعة فى كثير من المجتمعات الإسلاميّة. وقد سجل الزهرانى[٣٤] أبرز الدوافع المؤدية إلى ذلك فى النقاط الآتية:

١ – أنّ طبيعة الدولة الإسلاميّة وتكوينها منذ عهد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم تدعو إلى التنظيم، وإتقان العمل وإجادته. فالتنظيم مقوم أساسى وجذرى فى حياة المجتمعات الإسلاميّة.

٢ – أنّ مصلحة الصنّاع قد دعت إلى تجمعهم فى مكان واحد. كلّ حسب تخصصه. كما أشار إلى ذلك الشيزرى فى حديثه عن بعض مهمّات المحتسب «ويجعل لأهل كلّ صنعة منهم سوقاً يختصّ بهم. وتعرف صناعتهم فيه. فإنّ ذلك لقصادهم أرفق، ولصنائعهم أوفق»[٣٥].

٣ – أنّ الجماعات الحرفية والمهنية فى كلّ زمان ومكان ترغب فى الاجتماع فى مكان واحد. لما بينهم من روابط حرفية. ومصالح مشتركة. وذلك من أجل تنظيم شئون حرفهم. لذلك فرابطة المشاركة فى الحرف بين الصنّاع أمر قد يدعو إلى التجمع والتخصص فى سوق واحدة.

٤ – أنّ ضرورة الإشراف الحكومى على المهن والحرف دفعت الدولة الإسلاميّة إلى تشجيع تجمعهم فى سوق واحـــدة متخصصة لتسهيل عملية الرقابة عليهم.

٥ – كما أنّه من أجل الحفاظ على الجودة، كان لابدّ من الفصل بين بعض الحرف النفيسة والحرف الوضيعة. وهذا يُعدّ من دوافع تقسيم الأسواق حسب تخصصها. وفى ذلك يقول الشيزرى: «ومن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار، كالخبّاز والطبّاخ، والحدّاد، فالمستحب أن يبعد حوانيتهم عن العطارين والبزّازين، لعدم المجانسة بينهم وحصول الأضرار»[٣٦].

٦ – أن التنافس بين المتشاركين فى الصناعات والمهن، قد أدى بهم إلى التجمع فى سوق واحدة ومتخصصة. ويكفى أن يكون من فوائد ذلك التناسب فى الأسعار، وعدم المقدرة على رفعـــها على المستهلك لقرب منافسه منه، ومن خلال هذه النقاط يتضح جلياً أهمية التخصص المهنى بالتجمع فى سوق واحدة. وانّ ذلك ضرورة لابدّ منها لما ورد من مبررات[٣٧].

خامساً: الوضع المعيشى لأصحاب الحرف:

من المعروف أنّ أجور الحرفيين كانت تختلف من مهنة إلى أخرى ومن مكان لآخر، كما أنّ بعض الأجور كان يدفع نقداً، على حين أن البعض الآخر كان يدفعه أصحاب العمل عيناً، وبالجملة فقد عاش معظم هؤلاء الحرفيين والصناع معيشة متوسطة داخل المدن الإسلاميّة، إذ لم يكونوا بالأغنياء والموسرين، ولا بالفقراء المعدمين[٣٨]. وكانوا ينقسمون حسب الأجرة إلى قسمين:

القسم الأول: الأجراء الذين يعملون لحساب غيرهم لقاء أجور يومية أو حسب القطعة، وهؤلاء قد يعملون فى دكاكين خاصة، أو يعملون فى بيوتهم مستخدمين أدوات عمل يمتلكونها هم، أو موارد أولية يشترونها، أو يزودهم بها أصحاب العمل الذين يستأجرونهم.

أما القسم الآخر: فهم الصنّاع المشتغلون لحسابهم الخاص، وهؤلاء يعملون فى دكاكين خاصة بهم أو فى بيوتهم ويساعدهم أولادهم الذين يرثون الحرفة منهم فى غالب الأحوال، وهذه الطائفة تكون أحسن حالاً من ناحية الدخل لاستقلالها فى العمل ولكونها تملك أدوات العمل ورأس المال الذين يعملون على تنميته على مرّ الأيام[٣٩].

كما أنه بإمكان الصنّاع الذين يعملون لحسابهم الخاص أن يزيدوا من دخلهم وفقاً لحماسهم للعمل، ولمهارتهم، وجودة إنتاجهم. ومن المعروف أنّ صاحب الحرفة الماهر هو الذى يقدر أتعابه بنفسه حسب مهارته. أما الذى يتحكم فيه الناس أو أصحاب رؤوس الأموال من السماسرة والتجار فهو العامل غير المتقن لصنعته. وكانت الوسيلة التى تشفع للصنّاع فى ذلك وتحميهم هى رفع مستواهم الفنى والحرفى[٤٠].

كما كانت تنظيمات الطوائف تقدم أحياناً خدمات إنسانيّة للمجتمع بعامّة ولأبناء الطائفة بخاصّة. ويتم ذلك فى الغالب عن طريق إنشاء صناديق تتكون مواردها من بدل الإيجارات، وأرباح الأموال الموقوفة، والوصايا ورسوم الانتساب، والتبرعات المقدمة من أهل الخير من رجال الحرف وغيرهم، فتنفق هذه الأموال فى الخير العام للمجتمع. والخير الخاص لأبناء الطائفة، وبخاصّة العجزة منهم والمرضى[٤١].

سادساً: المصنفات المتخصصة في مجال الحرف المهنية:

ومما له صلة بهذا الجانب، كثرة ما ألف المسلمون من أهل في حرفهم، فما من صنعة إلا وألف حولها مؤلفات عديدة. ولا يقتصر هذا على الحرف المشهورة كالبناء والحدادة والنجارة، بل لدينا كتب في عديد من الحرف الأخرى، كصناعة الجلود، وأدوات الكتابة، وصناعة الورق والزجاج والصياغة وسك النقود، وغيرها حتى أبسط الحرف.

وهذه الكتب – في العادة – تتناول الحرفة من كلّ نواحيها، وطرق كل ما يتصل بأصول الصنعة وأصنافها وموادها ومستويات الجودة فيها. وفي حالات كثيرة يتناول المؤلف الناحية الشرعية من موضوعه، كما نرى في بعض الكتب المؤلفة عن المباني والعمارة. وكذلك الكتب الخاصة بسك النقود. وهذا يدل على أنّ العامل المسلم كان رجلاً متعلماً يمارس صنعته على أصول مقررة مسطورة في مؤلفات خاصّة بصنعته. وهذا بلا شك سبب رئيسي لتصنيفها، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، فإنّ أساليب معظم هذه المؤلفات يدل على أنّ مؤلفيها كانوا من أهل الصنعة الممارسين لها، يكتبون لأهل صنعة مثلهم، فهم يستخدمون المصطلحات الجارية بينهم، والعبارات التي لا يفهمها إلا العمّال أنفسهم، بل إنه وجد من الصنّاع الذين بلغوا منزلة رفيعة في صنعتهم، وخاصّة الذين اضطلعوا بعمل النقوش في القاعات أو الأسقف الخشبية المزيّنة بالزخرفة والنقوش يحرصون على كتابة مفتاح زخرفة القاعة أو السقف في ظهر أحد الألواح الخشبية المستعملة، وينصّ في ذلك المفتاح على الألوان الأصلية التي يمكن إعادتها إلى أصلها إذا تأثر ذلك اللون بأي سبب[٤٢].

وقد خصّص النديم في كتابه الفهرست مقالته العاشرة والأخيرة لذكر نبذ من أخبار الكيميائيين وأهل الصناعات المختلفة مع الإشارة إلى أبرز مؤلفاتهم، وختم المقالة بقوله: «والكتب المؤلفة في هذا الشأن أكثر وأعظم من أن تحصى»[٤٣].

كما وضعت مؤلفات عديدة في مجال صناعة الزجاج وسكّ النقود والصناعات المعدنية الدقيقة، وفي صناعة التشييد والبناء، ولا شكّ أنه أمكن الإفادة من هذه المؤلفات في مجال التدريب والتعليم، وهذا يدل على أنّ الصانع في كثير من العصور الإسلامية أصبح يمارس صنعته وفق أصول مقررة مسجلة في مدونات خاصّة[٤٤].

ويمكن هنا أن يشار إلى هذه المؤلفات على هيئة عنوانات فقط أمثلة لما ألّف من كتب حول مجموعة من الصناعات منها:

– كتاب (الثقة في الصنعة)، وكتاب (الركن الأكبر)، وهما في صناعة الكيمياء ألفهما العالم ذو النورين المصري (ت٢٤٦هـ/ ٨٦١م).

– كتاب (الأخطار والمراتب والصناعات)، وكتاب (غش الصناعات)، و(التبصرة بالتجارة)، وهي من مؤلفات الجاحظ (ت٢٥٥هـ/٨٦٨م).

– كتاب (الأصول الكبير في الصنعة)، و(المذكرات في الصنعة)، وهما لأبي بكر ابن وحشية (ت٢٩٦هـ/ ٩٠٨م).

– كتاب (الإكسير)، و(شرف الصناعة)، وكتاب (الأسرار) وهي للطبيب أبي بكر محمّد بن زكريا الرازي (ت٣١٣هـ/ ٩٢٥م).

ومن هذه المؤلفات أيضاً: كتاب (آلات القدماء)، و (الكبريت الأحمر)، وهما للأخميمي، وكتابا (التمويه) و(الخمائر) لأبي قران، وكتاب (عمل الأصباغ) والعداد والحبر لدبيس تلميذ الكندي، وكتابا (التلاويح) و(سيول الزجاج)، و(صناعة الدرّ الثمين) لإسحق بن نصير[٤٥].

هذا إضافة إلى ما ألف عن مجموعة من الصناعات والحرف والأعمال ودقيقها وجليلها، وما ينبغي التزامه من مواصفات وآداب وشروط لهذه الأعمال، وهي مؤلفات بعضها مستقلّ في كتب ألفت لهذا الغرض، وبعضها معلومات واسعة ودقيقة وردت ضمن أبواب وفصول حوتها كتب الحسبة، وكتب الخطط، والموسوعات مما يصعب سرده هنا.

الخاتمـــة:

كان الهدف الأساسي من هذا البحث هو إبراز الأثر الكبير الذي قام به أصحاب الحرف أو الصناعات في بناء المجتمعات الإسلامية والارتقاء بالنشاط الاقتصادي في تلك المجتمعات، وكذا دراسة أحوالهم المعيشية والاجتماعية وتنظيماتهم المهنية.

وقد خلصت هذه الورقة إلى أنّ التنظيمات العمّالية المتعلقة بالتكتلات، والتصنيفات المهنية، (النقابات العمالية) لم تكن من خصائص التنظيمات العمالية الحديثة فقط، وإنما كان لـــها جذورٌ في المجتمعات الإسلامية الأولى، وإن كان هناك اختلاف بينهما في الأهداف والأغراض. حيث سجلت الدراسة انتظام أصحاب الحرف والصناعات في تنظيم تصنيفي دقيق له تقاليد خاصّة متميزة في مجال العلاقات العمّالية، وكذا في مجال التدريب والتدرج المهني لهؤلاء الحرفيين والصنّاع

ثمّ إنني أرجو أن أكون قد وفقت في تناول هذا الموضوع بما يسلط الضوء على جانب مشرق من جوانب الإشراق في حضارتنا الإسلامية، وأن يكون هذا التناول نواة لدراسات أوسع وأشمل للكشف عن المزيد مما يستحقه مثل هذا الموضوع.

والله ولي التوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الهوامش:

(١) الرازي، محمد بن أبي بكر (ت بعد ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م)، مختار الصحاح، بيروت: دار الكتاب العربي، (١٩٦٧م)، ص٣٧١.

(٢) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الافريقي المصري (ت٧١١هـ / ١٣١١م)، لسان العرب، القاهرة: دار المعارف، (د. ت) – ج٤، ص٢٥١٠، ٢٥١١.

(٣) الزبيدي، محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى بن محمد الحسيني الواسطي (ت ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق إبراهيم الترزي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م) ٣٦/١٤ – ٣٧.

(٤) ضيف الله بن يحيى الزهراني، ضوابط جودة المواد الغذائية في مصر خلال العصر الأيوبي، ٥٦٤ – ٦٤٨هـ / ١١٦٩ – ١٢٥٠م، سلسلة بحوث الدراسات الإسلامية (٧) مكة المكرمة، جامعة أم القرى، (١٤١٠هـ) – ص ١٠، ١١، وقد أورد جميع المصطلحات من مصادرها ونسبها إلى بلدانها.

(٥) السيد طه السيد أبو سديرة، الحرف والصناعات في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي، ٢٠ – ٥٦٧هـ / ٦٤١ — ١١٧١م، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩١م) – ص٣٨١ – ٣٨٣.

(٦) إبراهيم سلمان الكروي، وعبد التواب ش.ف الدين، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية، الكويت: ذات السلاسل، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م)، ص١٩١.

(٧) المرجع نفسه، ص١٩١.

(٨) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة، دار الشعب (د. ت)، ص٣٦٣.

(٩) حسين مؤنس، عالم الإسلام، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٤١٠هـ (١٩٩٨م)، ص٢١٦.

(١٠) أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية في العصور الإسلامية، القاهرة: دار الفكر العربي، (١٩٩٠م)، ص٢٦٣، ٢٦٤.

(١١) عبد العزيز صالح سالم، توقيعات صناع المعادن ومدلولاتها من بداية القرن ٧هـ/ ١٣م، إلى منتصف القرن ٩هـ/ ١٤م، القاهرة: مجلة المؤرخ العربي، المجلد الأول، العدد التاسع (مارس ١٩٨٠م) – الصفحات (١٥٣ – ٢٠٧)

(١٢) الكروي، وعبد التواب شرف الدين، مرجع سابق، ص١٩٢.

(١٣) عبد العزيز صالح سالم، المرجع السابق، ص١٥١ – ١٥٧.

(١٤) المرجع نفسه، ص١٦١، ١٦٢.

(١٥) إبراهيم الكروي، وعبد التواب شرف الدين، مرجع سابق، ص١٨٨، ١٨٩.

(١٦) أكرم حسن العلبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين (٩٠٦ – ٩٢٩هـ/ ١٥٠٠ – ١٥٢٣م) دراسة تاريخية واجتماعية وثقافية واقتصادية، دمشق: الشركة المتحدة للطباعة والنشر، ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م)، ص٢٣٧.

(١٧) حسين مؤنس، مرجع سابق ص٢١٧.

(١٨) السيد طه أبو سديرة: الحرف والصناعات في مصر الإسلامية، ص٣٩٢، ٣٩٣.

(١٩) أكرم العلبي، مرجع سابق، ص٢٣٧.

(٢٠) حسين مؤنس، المرجع نفسه، ص٢١٧، ٢١٨.

(٢١) إبراهيم الكروي، وعبد التواب شرف الدين، مرجع سابق، ص١٩١ – ١٩٣.

(٢٢) حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، القاهرة: دار النهضة العربية، (١٩٦٦م) ج٢، ص٦٣١، ٦٣٠.

(٢٣) حسن الباشا، المرجع نفسه، ج١، ص٥٩ – ٦١، ٧٢.

(٢٤) المرجع نفسه، ج٢، ص١١١٠.

(٢٥) المقدسة، ص٣٥٩.

(٢٦) حسن الباشا، المرجع السابق، ج١، ص٣٣٨.

(٢٧) المرجع نفسه، ج٢، ص٧٩٦ – ٧٩٨.

(٢٨) الشيزري، عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله بن محمد الشيزري الشافعي (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق ومراجعة، السيد الباز العريني، بيروت: دار الثقافة، ١٤٠١هـ (١٩٨١م)، ص١٢، هكذا ورد الحديث لدى الشيزري ولم أجد له ذكراً في كتب الحديث.

(٢٩) ابن الفراء، أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد ابن خلف (ت٤٥٨هـ/ ٩٠٦٦م)، الأحكام السلطانية، تحقيق محمد حامد الفقي، ط٢، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ص٣٠٢.

(٣٠) ناصر خسرو، أبومعين الدولة ناصر خسرو القبادياني (ت٤٨١ هـ /١٠٨٨م)، سفر نامه، ترجمة يحيى الخشاب، بيروت: دار الكتاب الجديد، ط٣، (١٩٨٣م)، ص١٠٦.

(٣١) المصدر نفسه، ص ١٠٣، ١٠٤.

(٣٢) أحمد عبد الرازق، مرجع سابق، ص٢٦٣.

(٣٣) عبد الله بن محمد السيف، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، الرياض: المؤلف، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م)، ص١٧٩، ١٧٢.

(٣٤) ضوابط جودة المواد الغذائية، ص٦٨، ٦٩.

(٣٥) نهاية الرتبة، ص١١.

(٣٦) نهاية الرتبة، ص١١، ١٢.

(٣٧) الزهراني، المرجع السابق، ص٦٩.

(٣٨) أحمد عبد الرازق، مرجع سابق، ص٢٦٤.

(٣٩) المرجع السابق، ص١٨٩.

(٤٠) السيد طه أبو سديرة، مرجع سابق، ص٤٠١ – ٤٠٦.

(٤١) محمد الطويل، مرجع سابق، ص٩٠.

(٤٢) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص٢١٨.

(٤٣) النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق (ت٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)، الفهرست، تحقيق، ناهد عباس عثمان، الدوحة: دار قطري بن الفجاءة، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م)، ص٦٩٦.

(٤٤) السيد أبو سديرة، مرجع سابق، ص٣٩٠.

(٤٥) النديم، الفهرست، ص١٨٦ – ٦٩٦.

المصادر والمراجع

١ - المصادر:

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م):
المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة، دار الشعب (د. ت).

- الرازي، محمد بن أبي بكر (ت بعد ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م):
مختار الصحاح - بيروت: دار الكتاب العربي، (١٩٦٧م).

- الزبيدي، محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى بن محمد الحسيني الواسطي (ت١٢٠٥هـ /١٧٩٠م):
تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق إبراهيم الترزي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م).

- الشيرزي، عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله بن محمد الشيزري الشافعي (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م).
نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق ومراجعة، السيد الباز العريني، بيروت: دار الثقافة، ١٤٠١هـ (١٩٨١م).

- ابن الفرّاء، أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م).
الأحكام السلطانيّة، تحقيق محمد حامد الفقي، ط٢، القاهرة، د. ت.

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م):
لسان العرب، القاهرة: دار المعارف، (د. ت) - ج٤، ص٣٥١٠، ٣٥١١.

- ناصر خسرو، أبو معين الدولة ناصر خسرو القبادياني (ت٤٨١هـ/ ١٠٨٨م):
سفر نامه، ترجمة يحيى الخشاب، بيروت: ط٣، (١٩٨٣م)

- النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق (٣٨٠هـ/ ٩٩٠م).
الفهرست، تحقيق: ناهد عباس عثمان، الدوحة، الفجاءة، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).

٢ - المراجع:

- إبراهيم سلمان الكروي، وعبد التواب شرف الدين:
المرجع في الحضارة العربية الإسلاميّة، الكويت: ذات السلاسل، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).

- إبراهيم بن مراد والسيد طه السيد أبو سديرة:
الحرف والصناعات في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي، ٢٠ - ٥٦٧هـ/ ٦٤١ - ١١٧١م، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩١م).

- أحمد عبد الرازق أحمد:
الحضارة الإسلامية في العصور الإسلامية، القاهرة: دار الفكر العربي، (١٩٩٠م).

- أحمد عيسى:
معجم الأطباء - ذيل عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، ط٢، بيروت: دار الرائد العربي، ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م).

- أكرم حسن العلبي:
دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين (٩٠٦ - ٩٢٩هـ/ ١٥٠٠ - ١٥٢٢م)، دراسة تاريخيّة واجتماعية وثقافية واقتصادية، دمشق، ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م).

- حسن الباشا:
الفنون الإسلاميّة والوظائف على الآثار العربية، ج٢، القاهرة، (١٩٦٦م).

- حسين مؤنس:
عالم الإسلام، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٤١٠هـ (١٩٩٨م).

- عبد الله بن محمد السيف:
الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، الرياض، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).

- ضيف الله بن يحيى الزهراني:
ضوابط جودة المواد الغذائية في مصر خلال العصر الأيوبي، ٥٦٤ - ٦٤٨هـ/ ١١٦٩ - ١٢٥٠م، سلسلة بحوث الدراسات الإسلاميّة (٧) مكة المكرمة، جامعة أم القرى، (١٤١٠هـ).

- عبد العزيز صالح سالم:
«توقيعات صنّاع المعادن ومدلولاتها: من بداية القرن ٧ هـ/ ١٣م، إلى منتصف القرن ٨ هـ/١٤م»، القاهرة: مجلة المؤرخ العربي، المجلد الأول، العدد التاسع (مارس ٢٠٠١م).

برنامج نـدوات اليوم الواحد

(الموسم الثقافى ٢٠٠٦ - ٢٠٠٧)

وضع اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة قائمة بعدد من الندوات والسمنارات تمت الموافقة عليها فى مجلس إدارة الاتحاد للموسم الثقافى (٢٠٠٦-٢٠٠٧م)، وقد تم تنفيذ البرنامج بمقر أنشطة الاتحاد على النحو التالى:

١- تم عقد ندوة بعنوان «الأهمية الاستراتيجية لشبه جزيرة سيناء» مساء يوم الخميس الموافق ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٦م اشترك فيها كل من أ.د. عبد الحليم نور الدين، وأ.د. زبيدة عطا، واللواء منير شاش محافظ جنوب سيناء الأسبق. وقام أ.د. حسنين محمد ربيع رئيس الاتحاد بإدارة الندوة. وحظيت الندوة بحضور مكثف، كما كانت هناك الكثير من المداخلات التى أثرت الندوة.

٢- عقدت حلقة نقاش بعنوان «تاريخ العصور الوسطى الإسلامية والأوربية» مساء الخميس الموافق ٨ فبراير ٢٠٠٧م شارك فيها كل من أ.د. حامد زيان غانم، وأ.د. حسنين محمد ربيع، وأ.د. زبيدة عطا، وأ.د. عفاف سيد صبرة، وأ.د. فايز نجيب إسكندر، وأ.د. محمود سعيد عمران، أ.د. عفيفى محمود إبراهيم، وأ.د. محمود إبراهيم السعدنى، وأ.د. أيمن فؤاد سيد، وأ.د. ليلى عبد الجواد إسماعيل. وقام أ.د. حسنين محمد ربيع بإدارة الندوة.

٣- عقدت حلقة نقاش حول موضوع «التشرذم فى العالم العربى بين التاريخ والسياسة» مساء يوم الخميس الموافق ١٥ مارس ٢٠٠٧ تحدث فيها كل من: أ.د. جمال زكريا قاسم، وأ.د. السيد على قليفل، وأ.د. أحمد زكريا الشلق. وقام بالتعقيب مجموعة من أساتذة التخصص والسادة الحضور.

٤- عقدت ندوة موضوعها «مسئولية البابوية حول الحروب الصليبية» مساء الخميس الموافق ٢٤ مايو ٢٠٠٧ شارك فيها كل من أ.د. اسحق عبيد، وأ.د. حامد زيان، وأ.د. عفاف صبرة. وقام بإدارة الندوة أ.د. زبيدة عطا، وقام بالتعقيب مجموعة من أساتذة التخصص منهم أ.د. محمد محمود النشار.

٥- ثم عقدت حلقة نقاش موضوعها «الدراسات التاريخية اليونانية الرومانية فى مصر (الواقع والمأمول)» مساء الخميس الموافق ١٤ يونيو ٢٠٠٧م وتولى إدارتها والمشاركة فيها أ.د. محمود السعدنى مع د. أبو اليسر عبد العظيم فرج، وحضرها مجموعة من أساتذة التاريخ القديم فى الجامعات المصرية.

وسيقوم الاتحاد قريبا بنشر ملخصات حصاد هذه الندوات وحلقات النقاش والمداخلات والتعقيبات.